غاية الأماني في الرد على النبهاني

للامام العلامة ابي المعالي محمود شكري الالوسي

المولود عام ١٢٧٣ والمتوفي عام ١٣٤٢ غفر الله له .

المجلد الاول

طبع على نفقة

عبد العزيز ومحمد العبد الله الجميح

« وقف لله تعالى »

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمـــة

الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهــره على الدين كله ولو كره المشركون ، أحمده سبحانه فهو المتوحد في الجلال والكمــال ، والمستحق للحمد في كل حال من الاحوال ، تعالى وتقدس عما لايليق بجلاله من الاقوال والافعال ، (له مافي السموات وما في الارض ، من ذا الذي يشفع عنده الا باذنه) فهو الكبير المتعال ، وأشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له ولا ند ولا مثال ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله الذي أظهر الله به الدين بعد الافول والاضمحلال ، فحمل راية التوحيد وحمى حماه حتى زال الشرك والضلال ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهديه واتبع سنته الى يوم الدين وسلم تسليما كثيرا .

أما بعد فقد اقتضت مشيئة الله تعالى أن يكون الحق في صراع مع الباطل ويكون للحق أهل وأنصار ، وللباطل أهل وأنصار ، ولكن العاقبة الحميدة للحق وأهله ، ولو ظهر الباطل وشاع في زمن من الازمان فانه لابد أن يزهق ويندحض في مقابلة الحق ، فانا اذا نظرنا الى الرسل والانبياء من أولهم الى آخرهم محمد صلى الله عليه وسلم وجدنا أنهم قد تعرضوا لصراع عنيف مع أممهم ، فقوتلوا وأوذوا وهم صابرون ، يدعون الى دين الله ويجاهدون في سبيله ، حتى أتاهم نصر الله ، فظهر الحق وزهق الباطل (قل جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا) واذا تتبعنا أمة محمــد صلى الله عليه وســلم رأينا الكثير من أئمة الاسلام الاعلام الذائدين عنه والحامين لحماه قد تعرضوا للكثير من الاذى بالاقوال والافعال ، وصاروا في صــراع مع دعاة البــدع والضلال ، فلم يهن ذلك عزمهم ، ولم يفت في عضــدهم أن يبطلــوا الباطل ويزهقوه ويدمغوه بالحق ، ويردوا كيد أولئك المبتدعة والضلال في نحورهم ،

ويسكتوا حججهم الواهية بأدلة الكتاب والسنة ، ومن بين أولئك المبتدعة النبهاني صاحب كتاب (شواهد الحق في الاستغاثة بسيد الخلق) الذي ذكر فيه الكثير من الاباطيل والبدع وسب فيه بعض أئمة المسلمين وشنع بهم ، فقام عليه أنصار الحق وردوا عليه ، وأدحضوا ما أورده في كتابه هذا من الاباطيل والبدع ، ومن جملة من تصدى للرد عليه العلامة أبو المعالي محمود شكري الألوسي في هذا الكتاب (غاية الاماني في الرد على النبهاني) الذي يخرج على الامة الاسلامية اليوم وهي أشد ماتكون تعطشا لمثله •

وهو كتاب جليل القدر ، جيد جدا في موضوعه وهدفه العام ، لأن مؤلفه قد قام برد ماأورده النبهاني في كتابه (شواهد الحق في الاستغاثة بسيد الخلق) من بدع وأقوال مخالفة للشرع ، وما شنع به على بعض الأئمة الاعلام الذين قاموا بالدعوة الى توحيد الله ، والنهي عن كل مايضاد هذا التوحيد أو ينافي كماله الواجب ــ كشيخ الاسلام ابن تيمية ، وشيخ الاسلام محمد بن عبد الوهاب ، وغيرهما ــ فأجاد وأفاد رحمه الله وجزاه خيرا •

وهذا الكتاب لم يطبع سوى مرة واحدة في حياة المؤلف وبصورة سرية لظروف اقتضت ذلك أشير لها في الترجمة ، كما يظهر أن توزيعه لم يكن بكمية كبيرة ولم تتداوله الايدي بكثرة ، ونظرا لذلك ولقدم طبعته الاولى كان قد اختفى زمنا طويلا وكاد أن ينعدم ، ولكن المخلصين من العلماء لم تطمئن ضمائرهم ، ولم تتركهم غيرتهم الدينية أن يسكتوا حتى ينعدم أو يصعب وجوده ، فقد قام صاحب الفضيلة الشيخ عبد الله بن محمد بن حميد رئيس الاشراف الديني بالمسجد الحرام بعرض فكرة اعادة طبع هذا الكتاب ، فما أن علم أصحاب الوجاهة والذكر الطيب (محمد بن عبد الله الجميح ، وأبناء أخيه عبد العزيز : محمد ، وعبد الرحمن ، وحمد) حتى أسرعوا في تلبية هذه الفكرة ، واستعدوا باعادة طبعه على نفقتهم الخاصة ، وتوزيعه على العلماء والمتعلمين ، طلبا للأجر والمثوبة عند الله ، وليكون لهم ذلك لسان صدق في الآخرين ، فيقتفي آثارهم من بعدهم من المحسنين ، ويصنع مثل صنيعهم ، وتلهج الألسن بالدعاء بالرحمة والمغفرة لهم •

وهم بهذا انما يهدون مكرمة عظيمة للعلم وطلابه ، وليست الاولى من

نوعها فقد قاموا بطبع كتب ورسائل قيمة غير هذا منها (الجامع الفريد) يحتوي على عدة كتب ورسائل لأئمةالدعوة الاسلامية ، طبعوهأولا فلما نفدت الطبعة الاولى طبعوه مرة ثانية ، ومنها كتاب (دواء القلوب والابدان من وساوس الشيطان) للشيخ عبد الله الخليفي امام وخطيب المسجد الحرام ، ومنها رسالة (السلف بين القديم والجديد) للاستاذ فالح المهدي المدرس في كلية الشريعة بالرياض ، وقد وزعت تلك الكتب على المشائخ وطلاب العلم كما أنهم كثيرا مايقومون بشراء كميات من الكتب الدينية النافعة ويوزعونها ولم يقتصروا على الاسهام في نشر العلم بطبع الكتب والرسائل وشرائها : بل قد ساهموا في كثير من المشاريع الخيرية الاخرى ، كبناء المساجد وتأثيثها ، واعانة المنكوبين والمحتاجين وغير ذلك ، وبالجملة فهم ممن لهم حظ وافر في وجوه البر والاحسان ، ومثل يحتذى في المسارعة لفعل الخير ، فنسأل الله أن يزيدهم خيرا الى خيرهم وأن يكثر من أمثالهم من أثرياء بلادنا فيحذوا حذوهم ويصنعوا مثل صنيعهم في المساهمة في نشر العلم والقيام بالكثير من المشاريع الخيرية الاخرى .

وحين عرض علي القيام بتصحيح طبع هذا الكتاب رأيت من واجبي تلبية ذلك – وان كنت مشغولا – لأن فيه مساهمة في فعل الخير ، ورجاء أن أشترك مع المحسنين في الأجر ، وبعد اطلاعي عليه رأيت فيه من الاخطاء المطبعية الشيء الكثير ، خصوصا في الآيات القرآنية ، فاجتهدت في تصحيح تلك الاخطاء حسب قوائم الخطأ والصواب المطبوعة مع الكتاب ، أما الآيات القرآنية فقد قابلتها على ما في المصحف ، وعزوت كل آية الى سورتها تتميما للفائدة ، ولتسهيل الرجوع اليها عند الحاجة ، وقد أضع بعض تعليقات قليلة أرى من الافضل وضعها ، والله أسأل أن ينفع بهذا الكتاب ، ويجزي ناشره والمتسبب في نشره أحسن الجزاء ، وأن يجزيني معهم وسائر اخواني المسلمين بعفوه ورحمته ، ويوفق أثرياء المسلمين وعلماءهم الى احياء كتب السلف ونشرها كلما نفدت انه سميع مجيب ، وصلى الله على محمد وآله وسلم .

غيهب بن محمد الغيهب
أحد قضاة محكمة الرياض الكبرى

بسم الله الرحمن الرحيم

ترجمة المؤلف

الحمد لله ناصر الحق ومعليه ، ومدحض الباطل وذويه ، والصلاة والسلام على خير خلقه ورسله محمد عبده ورسوله وعلى آله وصحبه والتابعين لهم باحسان .

أما بعد ، فهذه اشارة مختصرة الى ترجمة الشيخ العالم العلامة ، محمود شكري الالوسي ، مؤلف كتاب : (غاية الاماني ، في الرد على النبهاني) كتقدمة بين يدي اعادة طبع الكتاب الذي سبق أن طبع في حياة المؤلف رحمه الله ، ولم يذكر عليه صريح اسمه ، ولا تاريخ الطبعة ، ولا المطبعة ، ولا الناشر ، وستعرف السبب في ذلك من هذه الترجمة المختصرة ، وهذه الترجمة أخذت من الكتب الآتية :

١ ــ أعلام العراق لمحمد بهجت الاثري تلميذ المصنف .

٢ ــ الاعلام للزركلي

٣ ــ الموسوعة العربية الميسرة .

٤ ــ مجلة المنار

٥ ــ معجم المؤلفين

٦ ــ فهرس الخزانة التيمورية

٧ ــ معلومات أخرى من فضيلة الشيخ محمد نصيف العالم السلفي بجدة مشافهة والذي جرى بينه وبين المؤلف عدة مكاتبات في خدمة العلم وأهله .

(نسب المؤلف ومولـــده)

هو أبو المعالي محمود شكري بن عبد الله بهاء الدين بن محمد أبي الثناء شهاب الدين بن عبد الله صلاح الدين بن محمود الخطيب الالوســي ، ينتهي نسبه الى الحسين بن علي رضي الله عنهما ، والالوسي نسبة الى ألوس ، وهي قرية على الفرات قرب عانات ، يقال أن سابور ذا الاكتاف كان بناها .

ولد في اليوم التاسع عشر من شهر رمضان سنة ثلاث وسبعين ومائتين وألف من الهجرة ، في الرصافة ببغداد ، في بيت من بيوتات العلم والمجد ، سماه أبوه محموداً وكناه أبا المعالي ، ولقبه شكري حين ولادته .

أما أبوه عبد الله فهو العالم الاديب ، والكاتب البارع ، له مؤلفات : منهـا التعطف على التعرف في الاصلين والتصوف وغيرها .

وأما جده فهو الامام محمود شهاب الدين ، العالم العلامة ، صاحـب التصانيف الشهيرة ، من أشهرها روح المعاني في التفسير ، وله من المؤلفـات مايقرب من اثنين وعشرين مؤلفا متنوعة .

(تعلمـــه)

أخذ أبو المعالي شكري مباديء العلوم العربية والدينية عن أبيه ، وجود عليه الخط بأنواعه المستعملة بالعراق في ذلك الحين ، وتأثر بأبيــه في حسن السمت وصفاء الطوية ، وحب الأدب والعلم ، ثم توفي أبوه في شعبان عـام ١٢٩١ هـ ، ثم كفله عمه العلامة نعمان خير الدين ، مؤلف كتاب جلا العينين في محاكمة الاحمدين ، وغالية المواعظ ، وغيرها من المؤلفات ، مما يبلغ تقريبا من ثلاثة عشر مؤلفا ، ويقول بهجت الاثري في كتاب أعلام العراق عن الشيـخ نعمان : كان عقله أكبر من علمه ، وعلمه أبلغ من انشائه ، وانشاؤه أمتن من نظمه رحمه الله .

ثم أخذ العلم عن مشائخ بغداد ، منهم الشيخ اسماعيــل بن مصطفى ، مدرس جامع الصاغة ، وغيره من العلماء ولم يكتف بما تحصل من العلم لدى المشائخ ، بل جد واجتهد في مواصلة الدرس ومتابعة البحث ، وكلف بالتاريخ والسيرة واللغة ، وزاول الكتابة ، له الاطلاع الواســع ، والمـادة الغزيرة ،

والتحقيق النادر ، والرأي الصائب ، وتصدر للتدريس في داره ، وفي جامع عادل خاتون ، وعين مدرسا رسميا في جامع الحيدرية ، ثم في جامع السيد سلطان علي ، ثم عين مدرسا في مدرسة مرجان ، وجعل رئيس المدرسين ، ونفع الله به ، وتخرج منها خلق كثير •

(سبب تأليفه للكتاب وعدم التصريح باسمه عليه)

عندما عزمت على كتابة هذه الترجمة اتصلت بالعالم السلفي ، الشيخ محمد نصيف بجدة ، والذي كان له مساهمة فعالة في سبب تأليف الكتاب وطبعته الاولى ، فأفاد بما ملخصه : أنه عندما ظهر كتاب النبهاني المسمى (شواهد الحق) وقرأه الشيخ محمد نصيف ، ورأى ما فيه من التلفيق والتحريف ، والاستدلال السخيف ، وذكر الاحاديث الباطلة الموضوعة ، والضعيفة الواهية ، وتهجمه على المحققين من علماء السلف ، وتجويزه دعاء الاموات والاستغاثة بهم ، وغير ذلك مما يخالف صريح الكتاب وصحيح السنة ، عندما قرأه كتب للعالم العلامة الشيخ محمود شكري الالوسي ،يطلب منه أن يقوم بالرد على النبهاني ، ويدحض أباطيله ، وينتصر للحق وأهله ، فلم يمض سنة الا وقد جاء الرد المسمى (غاية الاماني في الرد على النبهاني) للشيخ محمود الالوسي ، واتفق الشيخ محمد نصيف والشيخ عبد القادر التلمساني ـــ من تجار جدة المحسنين ، والعلماء السلفيين ـــ على أن يقوما بطبعه وتكاليف الطبع بينهما نصفين • وكان الشيخ التلمساني آنذاك في مصر، فاتفقا أن يقوم بطبعه فرج زكي الكردي بمطبعته في مصر ، فقام بطبعته الاولى وقد وضع المؤلف على طرة الكتاب : تأليف أبي المعالي الحسيني ، اشارة الى كنيته ونسبه الحسيني ، وزاد عليها السلامي الشافعي لئلا يتضح اسمه خوفا على نفسه ، وذلك أن العلماء السلفيين في ذلك العصر يخافون على أنفسهم في معارضة أهل البدع والخرافيين ـــ كالنبهاني وغيره ـــ والسبب في ذلك أن السلطان عبد الحميد سلطان الدولة العثمانية قد قرب المشائخ من أهل الطرق، من الصوفية أنصار البدع ، فلذلك خاف السيد محمود شكري الالوسي من اظهار اسمه على طرة الكتاب ، وكذلك صاحب المطبعة فرج الله زكي خاف على نفسه ، ولم يذكر اسمه الا رمزا (ف ، ج ، ز) ولا اسم مطبعته ، ولا

البلد التي فيها المطبعة ، وكذلك الشيخ عبد القادر التلمساني والشيخ نصيف خافا على أنفسهما من نفس العلة ، لأن السلطان عبد الحميد في ذلك الوقت له النفوذ في بغداد ومصر والحجاز وهي البلدان التي فيها المؤلف والطابع والمطبعة ، ولهذه المضايقات والخوف عندما تم طبع الكتاب لم يتمكنوا من توزيعه الا عندما أخذت حكومة اسطنبول بالقوانين الوضعية الاوربية وأعلنت الدستور وكان الدستور يقضي بحرية العقائد والاديان ، فعند ذلك أرسلت حصة الشيخ محمد نصيف من الكتاب اليه في الحجاز ، ووزعها ، ووضع على كل نسخة وزعها اسم المؤلف بخط يده ، وكذلك الشيخ عبد القادر وزع نسخه في مصر وغيرها ، ثم ان الشيخ محمد نصيف عندما لم يخف من جراء اظهار الكتاب أعلن في جرائد بيروت في ذلك الحين أن لديه كتابا في الرد على النبهاني للشيخ الألوسي اسمه (غاية الاماني في الرد على النبهاني) ، ثم انبرى بعض تلامذة النبهاني وأعلن عن الرد ، وحاول أن يحط من قدر الكتاب ولكن كما قيل :ـ

وقل للعيون الرمد للشمس أعين   سواك تراها في مغيب ومطلع

(التعريف بالكتاب)

الكتاب في الواقع هو بين يديك أيها القاريء ، ولا يحتاج الى تعريف ، فبعد قراءتك له ستعرف مكانته ، ولكن سننقل لك ماكتبه فيه العالم السيد محمد رشيد رضا صاحب مجلة المنار فيها ، قال العلامة المصلح الشهير السيد محمد رشيد رضا في تقريظه : (المنار ١٢ ص ٧٨٥) غاية الأماني في الرد على النبهاني ، كتاب مؤلف من سفرين كبيرين ، لأحد علماء العراق الاعلام ، المكنى بأبي المعالي الحسيني السلامي الشافعي ، رد فيها ما جاء به النبهاني في كتابه شواهد الحق من الجهالات والنقول الكاذبة ، والآراء السخيفة ، والدلائل المقلوبة ، في جواز الاستغاثة بغير الله تعالى ، وما تعدى به طوره في سب أئمة العلم وأنصار السنة ، كشيخ الاسلام بن تيمية ، الى أن قال : وفي هذا الكتاب مالا أحصيه من الفوائد العلمية ، في التوحيد ، والحديث ، والتفسير ، والفقه ، والتاريخ ، والادب ، وما انفرد به بعض المشاهير فأنكره العلماء عليه ، كالانكار على الغزالي وبن عربي الحاتمي وغيرهما .. فعلى هذا الكتاب نحيل الذين

يكتبون الينا في الشرق والغرب يسألوننا أن نرد على النبهاني ، وكذا من اغتروا بقوله ونقوله ، وظنوا أن قولنا في الاعتذار عن عدم قراءة كتبه والرد عليها أنه لايوثق بعمله ولا نقله هو من قبيل السب ، وحاشا لله ماهو الا مانعتقده فيه وفي كتبه بعد النظر في بعضها ، ورؤية مافيها من الاحاديث الموضوعة والنقول المكذوبة ، والاستنباطات الباطلة ممن جعل نفسه بالاستنباط مجتهدا وهو ينكر الاجتهاد ، ويعترف بأنه ليس أهلا له ، انتهى كلام صاحب المنار •

(وفاته رحمه الله)

ولما كان عام ١٣٣٧ هـ ابتلي برمل بمثانته ، فلم يهتم به ، وظن أنه عرض زائل ، فكان كما ظن ، فارقه الألم ، الا أنه لم يزل كامنا والرمل يتراكم شيئا فشيئا حتى سد المجرى فازداد عليه الالم ــ وذلك بعد عامين من أول حدوثه به ــ واتصل ببعض الاطباء ، ولم يفد فيه العلاج الا أنه خفف بعض الالم ، ونصحه الاطباء عن كثرة المطالعة والتدريس وإتعاب الفكر ، ولما دخلت العشر الاخيرة من رمضان من سنة ١٣٤٢ هـ أصيب بذات الرئة ، وأيقن بلقاء ربه ، فنهى أهله وذويه أن يؤذوه بالاطباء وعقاقيرهم ، ولبث ثلاثة عشر يوما يعالج أمراضه ، فتوفاه الله أذان ظهر اليوم الرابع من شوال ، وحضر جنازته جمع غفير ، ولما وصلت جنازته الى جبانة معروف الكرخي في الكرخ صلى عليها جمع كثير ، وكان فيهم عدد ينقلون تكبيرات الامام ، ثم حملت جنازته الى جبانة الجنيد البغدادي ، حيث كان أوصى أن يدفن هناك ، وصلى عليه عدة جماعات ، ووري في ملحده قبيل الغروب ، طيبالله ثراه وأحسن مثواه ورحمه رحمة واسعة •

(من مآثره وفضائله)

احياء الكتب الدينية ، ونشر مذهب السلف ، وله اليد الطولى في اذاعتها ونشرها ، وكان يرى أن مذهب السلف هو الواسطة الوحيدة لتحرير العقول من رق التعصب الذميم ، وعدم مراعاة الدليل ، ولم يكن يحب الفخر

والظهور ـ عكس ما عليه الكثير من الناس ـ وانما يرمي الى حصول الغرض من أي طريق ، مباشر أو غير مباشر ، وكان رحمه الله يحمل على أهل البدع في درسه في داره وفي المسجد ، ويرد عليهم برسائل ، فعاداه كثير من الناس ، وسعوا به لدى والي بغداد عبد الوهاب باشا ، فكتب عبد الوهاب الى مرجعه السلطان عبد الحميد الثاني العثماني ، فصدر الامر بنفيه الى بلاد الاناضول فلما وصل الى الموصل في سنة ١٣٢٠هـ قام أعيانها فمنعوه من تجاوزها ، وكتبوا للسلطان يحتجون ، فسمح له بالعودة الى بغداد فعاد اليها .

وقد اتصل بالملك عبد العزيز ملك المملكة العربية السعودية في نجد في عام ١٣٣٣ هـ وبحث مع الملك بعض الشؤون ، ثم عاد مكرما محترما .

قال عنه مؤلفوا الموسوعة العربية الميسرة أنه تزعم حركة الاصلاح الاسلامي على مذهب ابن حنبل ، وكتب عدة مقالات في مهاجمة بعض المذاهب الاسلامية ، في كتابه (غاية الأماني في الرد على النبهاني) الذي نشره باسم مستعار ، وهو من أعلام حركة السلفية المحاربين للبدع قولا وعملا .

(مؤلفاته)

له مؤلفات كثيرة تربو على الخمسين مؤلفا في شتى المواضيع ، منها هذا الكتاب الذي بين يديك (غاية الاماني في الرد على النبهاني) ومنها الآية أو الراية الكبرى عن ضلال النبهاني ، ألفه ردا على النبهاني لما شن الغارة في سب شيخ الاسلام بن تيمية ، والسيد رشيد رضا ، وشيخ الاسلام محمد بن عبد الوهاب ، كما رد على النبهاني أيضا الشيخ سليمان بن سحمان ، والشيخ محمد بن حسن المرزوقي القطري ، والشيخ علي بن سليمان اليوسف التميمي، والشيخ محمد بهجت البيطار الدمشقي وغيرهم ومنها (فتح المنان) تتمة منهاج التأسيس للشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن ، ومنها (بلوغ الارب في أحوال العرب) في ثلاثة مجلدات ، ومنها (شرح منظومة عمود النسب) . و (تجريد السنان في الذب عن أبي حنيفة النعمان) و (تاريخ نجد) وغيرها من المؤلفات المفيدة ، ومنها (فصل الخطاب في شرح مسائل الجاهلية للشيخ محمد بن عبد الوهاب) وأكثرها مطبوع متداول .

(أثر وفاته في المجتمع الاسلامي)

لقد كان لوفاته أثر كبير في المجتمع الاسلامي ، وكتبت عنه الصحف والمجلات الاسلامية في رثائه والثناء عليه نثرا ونظما ، من كبار العلماءالسلفيين وغيرهم ممن أعجبوا بكتاباته وتآليفه ، فمنهم العالم السلفي الشيخ بهجت البيطار ، أثنى عليه ثناء عطرا ، وذكر شدة ما ألم به لنبأ وفاته ، وذكر فيه أنه لما وصل نعيه الى رجال المجتمع العلمي بدمشق علاهم الحزن والاضطراب ، وأبدوا الاسف والتوجع على الفقيد ، وكتب أحد أعضاء المجتمع العربي عيسى اسكندر تعزية به ، ووصفه بأنه المحقق الخطير ، والمدقق الشهير ، وكفى باسمه شهرة لأبناء العروبة الناطقين بضادها ، وكتب من دمشق الشيخ العالم ، والاستاذ الفاضل ، أبو هشام محمد سعدي ياسين بالثناء والترحم عليه ، وكتابات أخرى من الكويت ، ومن مصر ، ومن حلب ، ومن دمشق ، والحجاز ، وغيرها من الاقطار الاسلامية ، وذكر له من المراثي الشعرية مايزيد على اثنتين وعشرين قصيدة ، ذكرها في أعلام العراق ، منها قصيدة لمعروف الرصافي جاء فيها : —

أزمعت عنا الى مولاك ترحالا ... لما رأيت مناخ القوم أوحالا
رأيتنا في ظلام ليس يعقبه ... صبح ، فشمرت للترحال أذيالا

وفيها :

محمودشكري فقدنامنكحبرهدى ... للمشكلات بحسن الرأي حلالا
قد كنت للعلم في أوطاننا جبلا ... اذا تقسم فيها كان أجبالا
وبحر علم اذا جاشت غواربه ... تقاذف الدر في لجيه منهالا
يا من بشوال قد شالت نعامته ... نغصت بالحزن شهر العيد شوالا

وفيها : —

شكرا لاقلامك اللاتي كشفت بها ... عن أوجه العلم أستارا وأسدالا
كتبن في العلم أسفارا سيدرسها ... أهل البسيطة أجيالا فأجيالا
أمددتها بمداد ليس يعقبه ... دمع الانام وان يبكوك أحوالا
وكنت أنت نطاسي العلوم بها ... وكن في سبر جرح الجهل أميالا

والقصيدة تبلغ قريبا من أربعين بيتا تركناها اختصارا ، وصلى الله على نبينا محمد وآله وسلم •

محمد بن عبد الله بن سبيل

النائب للشؤون الدينية بالمسجد الحرام بمكة المكرمة وامامه

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله على ماعرفنا من نفسه ، وألهمنا من شكره ، وفتح لنا من أبواب العلم بربوبيته ودلنا عليه من الاخلاص في توحيده ، وجنبنا من الالحاد والشك في أمره ، وهو رب العالمين وقيوم السموات والأرضين نحمده حمداً يضيء لنا به ظلمات البرزخ ، ويسهل علينا به سبيل المبعث ، ويشرف به منازلنا عند مواقف الاشهاد ، يوم تجزى كل نفس بما كسبت وهم لايظلمون ، يوم لايغني مولى عن مولى شيئا ولا هم ينصرون ، ونشهد أن لا اله الا الله العظيم السلطان ، والملك الديان ، الذي لا شريك له ولا ند ولا وزير ولا معين وهو الرب المستعان ، فسبحانه من اله وقفت سيارات العقول حيارى في مواقف عظمته ، وتاهت ثوابت أبكار الافكار سكارى في فيافي قدرته ، وأقام أدلة وحدانيته على رؤوس عرائس الكائنات ، ونظم براهين تفرده بربوبيته في سلك امتناع تسلسل الموجودات .

ونرفع اليه جل شأنه أكف التضرع والابتهال ، ونبسط له ــ تعالى سلطانه ــ أيدي التذلل والسؤال ، أن يديم ديم صلاته وسلامه هاطلة على أجل من نشر رايات التوحيد ، وعقد خنصر قلبه على تقديس ربه المجيد ، وتمسك بكتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، سيدنا ومولانا محمد أمينك على وحيك ، ونجيبك من خلقك ، وصفيك من عبادك ، امام الرحمة ، وقائد الخير ومفتاح البركة ، الذي نصب لأمرك نفسه ، وعرض فيك للبلاء بدنه ، وكاشف اليك في الدعاء خاصته ، وحارب في رضاك أسرته ، وقطع في احياء دينك رحمه ، وأدأب نفسه في تبليغ رسالتك ، وأتعبها بالدعاء الى ملتك ، وشغلها بالنصح لأهل دعوتك ارادة منه لاعزاز دينك ، واستنصارا على أهل الكفر بك ، حتى استتب له ما حاول في أعدائك ، واستتم له ما دبر في أوليائك ، فنهد (١) اليهم مستفتحا بعونك ، ومتقويا على ضعفه بنصرك ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ، الذين أخلصوا في أعمالهم فخلصوا عن

(١) نهد الرجل : بمعنى نهض وصمد لعدوه .

كل نقص حتى لم يبق فيهم كلام ، ولخصوا زبدة أعمارهم بالتجرد عن شوائب الغفلة فلم يشبهم شيء من دواعي الملام ، شنوا غارات عزائمهم حتى بددوا كتائب الزيغ والضلالة ، ودمغوا بأسنة حججهم رؤوس أهل الشرك والجهالة ، الذين أسرعوا الى وفادته ، وسابقوا الى دعوته ، واستجابوا له حيث أسمعهم حجة رسالته ، وعلى من تبعهم باحسان ، ولم يكن لهم غير الله ملجأ ولا مستعان •

أما بعد : فقد وصل الي ــ في أواخر رجب الفرد سنة خمس وعشرين وثلثمائة وألف ، من هجرة من تقصر دون كعب علاه بردة المدح والوصف ــ كتاب قد اشتمل على بهتان عظيم ، وعدول عن الصراط المستقيم ، ألفه بعض الجهلة لمصادمة الحق ، ومعارضة الصواب بالخطأ المطلق ، ومناقضة ما جاءت به رسل الله ، وصدحت به الكتب المنزلة ، ودلت عليه الدلائل القطعية ، وهو توحيد الله وافراده بخصائص الربوبية ، وتخصيصه بالالتجاء اليه ، والتوكل عليه ، والاستعانة به في كل كلية وجزئية ، فجاء هذا الغبي الجاهل المكابر ، وأعرض عن الحق الصريح الظاهر ، وجمع كتابا سماه (شواهد الحق ، في الاستغاثة بسيد الخلق) وحشاه من الكذب والافتراء والظلم والعدوان ، وشتم أهل الحق ونصرة التوحيد ، والحكايات الكاذبة ، وكان الحري به أن يسمى كتابه هذا شبه الباطل والضلال ، ولما تصفحته وجدته كتابا لايروج ما فيه حتى على ضعفاء العقول ، فضلا عمن تضلع من فنون المنقول والمعقول، لما اشتمل عليه من واهي الاسانيد وأكاذيب النقول ، مباحثه متناقضة ، ومطالبه متعارضة ، جهل بها مؤلفه ، وغفل عنها مصنفه ، وبقيت أقدم رجلا وأؤخر أخرى في الاقدام على ابطاله ، وتزييف أقواله ، حيث تكلم بالجزاف ، وأبان عن قلة معرفة وعدم انصاف ، وكان الرأي عندي أن يعرض عن جهله المستأصل لشافته (٢) ولا يتعرض لغثاثته وسخافته ، ولا يلتفت الى تخليطه وخرافته ، غير أن بعض الاخوان لما علم مقصدي ووقف على ماتقرر عندي التمس مني ذلك ، وطلب ابطال ما هنالك ، وذكر لي أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لما قال أبو سفيان يوم أحد : أفيكم محمد ؟ أفيكم أبو بكر ، أفيكم ابن الخطاب ؟ قال لأصحابه : (لاتجيبوه) تهاونا به وتحقيرا لشأنه ، فلما قال أعل هبل ، قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : (قولوا الله أعلى وأجل) ولما قال لنا العزى ولا عزى لكم ، قال لهم : (قولوا الله مولانا ولا مولى لكم) فحينئذ جردت أسنة العزائم والرد ، واستعنت على رد أباطيله بالواحد

(١) اي لفساده وذهابه .

الفرد ، وليت مصنف ذلك الهذيان تنكب عن ميدان الفرسان ، ليسلم من أسنة ألسنتهم عرضه ، وينطوي من بساط المشاجرة طوله وعرضه ، ولم يسمع مايضيق به صدره ، ولم ينهتك بين أفاضل الامة ستره ، واذا أبى الا المهارشة والمناقشة ، والمواحشة والمفاحشة ، فليصبر على حز الحلاقم ، ونكز الاراقم ، ونهش الضراغم ، والبلاء المتراكم المتلاطم ، ومتون الصوارم • فوالذي نفسي بيده ما بارز أهل الحق قط قرن الا كسروا قرنه ، فقرع من ندم سنه ، ولا ناحرهم خصم الا بشروه بسوء منقلبه ، وسدوا عليه طريق مذهبه لمهربه ، ولا فاصحهم أحد ـ ولو كان مثل خطباء أياد ـ الا فصحوه وفضحوه ، ولا كافحهم مقاتل ـ ولو كان من بقية قوم عاد ـ الا كبوه على وجهه وبطحوه ، هذا فعلهم مع الكماة الذين وردوا المنايا تبرعا ، وشربوا كؤوسها تطوعا ، وسعوا الى الموت الزؤام سعيا ، وحسبوا طعم الحمام أريا ، والكفاة الذين استحقروا الاقران فلم يهلهم أمر مخوف ، وجالوا في ميادين المناضلة واخترقوا الصفوف ، وتجالدوا لدى المجادلة بقواطع السيوف •

وقد حان أن نشرع بالمقصود ، والذب عن شريعة صاحب المقام المحمود ، والحوض المورود ، اللهم اجعلني أصول بك عند الضرورة ، وأسألك عند الحاجة ، وأتضرع اليك عند المسكنة ، ولا تفتني بالاستعانة بغيرك اذا اضطررت ، ولا بالخضوع لسؤال غيرك اذا افتقرت ، ولا بالتضرع الى من هو دونك اذا رهبت ، فاستحق بذلك خذلانك ومنعك واعراضك ياأرحم الراحمين ، اللهم اجعل مايلقي الشيطان في روعي من التمني والتظني والحسد ذكرا لعظمتك ، وتفكرا في قدرتك ، وتدبيرا على عدوك ، وماأجري على لساني من لفظة فحش أو انتهاك عرض أو شهادة باطل أو اغتياب مؤمن غائب أو سب حاضر وما أشبه ذلك نطقا بالحمد لك ، واعترافا في الثناء عليك ، وذهابا في تمجيدك ، وشكرا لنعمتك ، واعترافا باحسانك ، واحصاء لمننك ، انك مجيب الدعاء •

ولا بد قبل الخوض في ابطال الباطل ، ورد الكلام العاطل ، من معرفة أمور تزيد من علمها بصيرة في التمييز بين الخطأ والصواب ؛ وتعين على الوقوف على الحق من طرق هذا الباب ، ومن الله نستمد التوفيق ، وبيده أزمة التدقيق والتحقيق •

(الأمور التي يجب التنبيه عليها ، والاشارة بيسير العبارة اليها)

الامر الاول : ان الكتب المصنفة في حقائق الدين وما جاء به الرسول صلى الله

عليه وسلم لاتحصى كثرة في كل عصر من الاعصار ، ولا سيما في هذه الازمان الاخيرة، فقد انتشرت الكتب الاسلامية ــ بواسطة صناعة الطبع ــ انتشارا لم يعهد مثله في الاعصر الخالية ، ومع ذلك لم تؤثر في القلوب القاسية شيئا •

فان أمثال النبهاني المعرضين عن الحق المتبعين لأهوائهم كثيرون في الاقطار والبلاد ، ودلائل الحق واضحة جلية ، ولم يلتفتوا اليها ، ولا عرجوا عليها ، وهذا وان اغتر به العوام ، والجهلة الطغام ، فهو لايضر الحق ولا يمس شرف أهله ، فان الاسباب المانعة من قبول الحق كثيرة جدا ، كما ذكر ذلك الحافظ ابن القيم في الهداية •

فمنها الجهل به ، وهذا السبب هو الغالب على أكثر النفوس ، فان من جهل شيئا عاداه وعادى أهله ، فان انضاف الى هذا السبب بغض من أمره بالحق ومعاداته له وحسده كان المانع من قبول الحق أقوى ، فان انضاف الى ذلك ألفه وعادته ومرباه على ما كان عليه آباؤه ومن يحبه ويعظمه قوي المانع ، فان انضاف الى ذلك توهمه أن الحق الذي دعي اليه يحول بينه وبين جاهه وعن شهواته واغراضه قوى المانع من القبول جدا ، فان انضاف الى ذلك خوفه من أصحابه وعشيرته وقومه على نفسه وماله وجاهه كما وقع لهرقل ملك النّصارى بالشام على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكما نرى كثيرا ممن ينتسب الى العلم من أهل المناصب والجرايات ينتسبون الى الطرائق المبتدعة ، ويظهرون ما يروج من العقائد لدى حكومتهم ودولتهم ، ويتجنبون من العقائد السلفية ، واظهار السنن النبوية مع علمهم بحقية حقائقها ، ووقوفهم على دقائقها محافظة على الزخارف الدنيوية ، والسفاسف الدنية ، وأعرف من هؤلاء عددا كثيرا : (اوْلَئِكَ الَّذِيْنَ اشْتَرَوُا الضَّلٰلَةَ بِالْهُدىٰ فَمَا رَبِحَتْ تِجٰارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِيْنَ)[1] .

فاذا كان الامر على ماذكر ازداد المانع من قبول الحق قوة ، فان هرقل عرف الحق وهم بالدخول في الاسلام فلم يطاوعه قومه ، وخافهم على نفسه ، واختار الكفر على الاسلام بعدما تبين له الهدى ، وقصته مشهوره •

ومن أعظم هذه الاسباب : الحسد : فانه داء كامن في النفس ، ويرى الحاسد المحسود قد فضل عليه ، وأوتي مالم يؤت نظيره ، فلا يدعه الحسد أن ينقاد له ويكون من اتباعه ، وهل منع ابليس من السجود لآدم الا الحسد ؟! فانه لما رآه قد فضل عليه

(١) سورة البقرة : ١٦

ورفع فوقه : غص بريقه واختار الكفر على الايمان بعد أن كان بين الملائكة .

وهذا الداء هو الذي منع اليهود من الايمان بعيسى ابن مريم ، وقد علموا علما لاشك فيه أنه رسول الله جاء بالبينات والهدى ، فحملهم الحسد على أن اختاروا الكفر على الايمان ، وأطبقوا عليه ، وهم أمة فيهم الاحبار والعلماء والزهاد ، والقضاة والملوك والامراء ، هذا وقد جاء المسيح بحكم التوراة ولم يأت بشريعة تخالفها ولم يقاتلهم وانما أتى بتحليل بعض ما حرم عليهم تخفيفا ورحمة واحسانا ، وجاء مكملا لشريعة التوراة ، ومع هذا فاختاروا كلهم الكفر على الايمان .

فكيف يكون حالهم مع نبي جاء بشريعة مستقلة ناسخة لجميع الشرائع ، مبكتا لهم بقبائحهم ومناديا على فضائحهم ، ومخرجا لهم من ديارهم ، وقد قاتلوه وحاربوه وهو في ذلك كله ينصر عليهم ويظفر بهم ، ويعلو هو وأصحابه ، وهم معه دائما في سفال ؟ فكيف لايملك الحسد والبغي قلوبهم ؟ وأين تقع حالهم معه من حالهم مع المسيح ، وقد أطبقوا على الكفر به من بعد ماتبين لهم الهدى ، وهذا السبب وحده كاف في رد الحق ، فكيف اذا انضاف اليه زوال الرياسات والمآكل كما تقدم ؟! وقد أطنب ابن القيم الكلام ، وأتى بما تعشقه الاسماع والافهام ، وله كلام مفصل يتعلق بهذا الباب ذكره في كتاب (مفتاح دار السعادة) ولعلنا نذكر منه شيئا فيما سيأتي ان شاء الله .

والمقصود : أن لعدم قبول الحق والاذعان له أسبابا كثيرة كلها موجودة في الغلات ، والغالب منها قسوة قلوبهم ، كما أخبر الله تعالى عن اليهود بقوله :

(ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِن بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ، وإِنَّ مِنَ الحِجارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنهارُ ، وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ المْاءُ وَإِنَّ مِنْها لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ ، وَمَا اللهُ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)[1] .

وفي (باب فضل من علم وعلم) من كتاب (صحيح الامام البخاري) حدثنا محمد بن العلاء ، قال : حدثنا حماد ابن أسامة ، عن بريد بن عبد الله ، عن أبي بردة، عن أبي موسى ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (مثل مابعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير ، أصاب أرضا فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ

(١) البقرة : ٧٤

والعشب الكثير ، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا ، وأصاب منها طائفة أخرى انما هي قيعان لاتمسك ماء ولا تنبت كلأ ، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه مابعثني الله به فعلم وعلم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به) .

قال شارحه الامام الحافظ ابن حجر العسقلاني ـ بعد كلام له ناقلا عن الامام القرطبي وغيره ـ ضرب النبي صلى الله عليه وسلم ما جاء به من الدين مثلا بالغيث العام الذي يأتي الناس في حال حاجتهم اليه ، وكذا كان حال الناس قبل مبعثه ، فكما أن الغيث يحيي البلد الميت فكذا علوم الدين تحيي القلب الميت ، ثم شبه السامعين له بالارض المختلفة التي ينزل بها الغيث (فمنهم) العالم العامل المعلم فهو بمنزلة الارض الطيبة شربت فانتفعت في نفسها وأنبتت فنفعت غيرها (ومنهم) الجامع للعلم المستغرق لزمانه فيه غير أنه لم يعمل بنوافله ولم يتفقه فيما جمع لكنه أداه لغيره فهو بمنزلة الارض التي يستقر فيها الماء فينتفع الناس به وهو المشار اليه بقوله : (نضر الله امرأ سمع مقالتي فأداها كما سمعها) (ومنهم) من يسمع العلم فلا يحفظه ولا يعمل به ولا ينقله لغيره فهو بمنزلة الارض السبخة أو الملساء التي لاتقبل الماء أو تفسده على غيرها ، وانما جمع في المثل بين الطائفتين الاوليين المحمودتين لاشتراكهما في الانتفاع بهما ، وأفرد الطائفة الثالثة المذمومة لعدم النفع بها والله أعلم .

قال : ثم ظهر لي أن في كل مثل طائفتين ، فالأول قد أوضحناه ، والثاني : الاولى منه من دخل في الدين ولم يسمع العلم ، أو سمعه فلم يعمل به ولم يعلمه ، ومثالها من الارض السباخ وأشير اليها بقوله صلى الله عليه وسلم : (من لم يرفع بذلك رأسا) أي أعرض عنه فلم ينتفع به ولا نفع ، والثانية منه من لم يدخل في الدين أصلا بل بلغه فكفر به ، ومثالها من الأرض الصماء الملساء المستوية التي يمر عليها الماء فلا تنتفع به ، وأشير اليها بقوله صلى الله عليه وسلم : (ولم يقبل هدى الله الذي جئت به) . وقال الطيبي : بقي من أقسام الناس قسمان : (أحدهما) الذي انتفع بالعلم ولم يعلمه غيره (والثاني) من لم ينتفع به في نفسه وعلمه غيره ، (قلت) والاول داخل في الاول ، لأن النفع حصل في الجملة وان تفاوتت مراتبه ، وكذلك ماتنبت الارض فمنه ماينتفع الناس به ومنه مايصير هشيما ، (وأما الثاني) فان كان عمل الفرائض وأهمل النوافل فقد دخل في الثاني كما قررناه ، وان ترك الفرائض أيضا فهو فاسق لايجوز الاخذ عنه ، ولعله يدخل في عموم من لم يرفع بذلك رأسا

والله أعلم ، انتهى كلام الامام العسقلاني •

والمقصود : أن الحديث قد دل على أن بعض القلوب كالأرض النقية التي قبلت الماء ، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، كقلوب الصحابة رضي الله تعالى عنهم ومن تبعهم باحسان •

وبعضها : كالاجادب التي أمسكت الماء ، فشربوا منها وسقوا وزرعوا ، ويؤيده قوله صلى الله عليه وسلم : (رب مبلغ أوعى من سامع) •

وبعضها : كالقيعان التي لاتمسك ماء ، ولا تنبت كلأ ، كقلوب كثير من الغلاة وأهل البدع والضلالات ، فانها لايؤثر فيها الهدى والعلم كما أن الارض السبخة لاتمسك ماء ولا تنبت كلأ •

(الأمر الثاني) انه ورد في الحديث المتفق على صحته (انكم لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة ، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه) أخبر صلى الله عليه وسلم أنه سيكون في أمته من يحذو حذو الامم السابقة ، وهم جاهلية الكتابيين وغيرهم ، كما فسر في الحديث ، ولا شك أن ما أخبر به صلى الله عليه وسلم كائن لامحالة ، فانه الصادق المصدوق ، وما ينطق عن الهوى ، ومن اليقين أن من استمسك بهديه ، واتبع ماثبت من سننه غير مقصودين بالحديث ، لما ثبت في حديث الفرق أنهم الفرقة الناجية ، وهم من كان على ما عليه النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه كما هو الوارد ، فلا بد أن يكون الذين يحذون حذوهم هم من بدل وغير ، وابتدع وحرف ، وحاكى الذاهبين الاولين في أفعالهم وأعمالهم ، من بناء المشاهد والمساجد على قبور صالحيهم ، وندائهم في المهمات والملمات ، وغير ذلك مما كان يفعله اليهود والنصارى والمشركون ، مما دلت عليه الاحاديث الصحيحة ، وفي الغلاة ومبتدعة أهل القبور من خصال الجاهلين من الكتابيين والمشركين مايصدق به عليهم اتباع سننهم حذو القذة بالقذة ، ونحن نذكر بعض ذلك ليكون كالمثال الموضح لما نحن بصدده •

(فمن خصالهم) أنهم كانوا يتعبدون باشراك الصالحين في عبادة الله تعالى ، ويرون ذلك من تعظيمهم الذي يحبه الله ، ويقصدون به أيضا التقرب والزلفى والفوز بشفاعتهم ، لظنهم أن الصالحين يحبون ذلك منهم ، وقد أخبر القرآن عن هذه الخصلة

قال تعالى: (إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى، إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِيمَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ)[1] وعبادة المشركين لهم كانت بدعائهم لهم وطلب حاجاتهم منهم والذبح والنذر لهم والحلف بهم وقال تعالى: (وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ)[2].

وهذه أعظم مسألة خالفهم فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأتى بالاخلاص وأخبرهم أنه دين الله الذي لايقبل من أحد سواه، وان من فعل ما استحسنه حرم الله عليه الجنة ومأواه النار، وهذه المسألة هي الدين كله ولأجلها تفرق الناس بين مسلم وكافر، وعندها وقعت العداوة، ولأجلها شرع الجهاد، قال تعالى: (وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ)[3] ، ومن المعلوم أن للغلاة الحظ الوافر من خصلة أسلافهم هذه كما هو المشاهد .

(ومن خصالهم) أن دينهم كان مبنيا على أصول أعظمها التقليد فهو القاعدة الكبرى لجميع من كان قبل ظهور الاسلام من الامم الاولى قال تعالى (وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ . قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ)[4] فأمرهم الله تعالى ان يتبعوا الحق فقال: (اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ)[5] وقال تعالى : (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ)[6]

---

(1) الزمر : ٢ ، ٣ (2) يونس : ١٨ (3) الانفال : ٣٩
(4) الزخرف : ٢٣ ، ٢٤ (5) الاعراف : ٣ (6) البقرة : ١٧٠

الى غير ذلك مما يدل على أن أهل الجاهلية كانوا مقيدين بربقة التقليد لايحكمون لهم رأيا ، ولا يستعملون نظرا ، ولا يشغلون فكرا ، فلذلك تاهوا في أودية الجهالة ، وقضوا أعمارهم في الضلالة ، وهكذا الغلاة وعبدة الاموات قلدوا آباءهم في تلك العادات ، فلا يمكن نقلهم عنها ولو ظهرت الآيات البينات ، ولكم بحثت مع عقلائهم فما زادهم ذلك الا نفورا ، وعتوا على الحق وغرورا ، فطابق بين الفريقين تجد الموافقة ظاهرة لكل ذي عينين •

(ومن خصالهم) الاقتداء بفسقة أهل العلم وجهالهم وعبادهم ، قال تعالى محذرا للمؤمنين أن يحذوا حذوهم : (يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيْراً مِنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُوْنَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّوْنَ عَنْ سَبِيْلِ اللهِ)[1] وقال : (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوْا فِي دِيْنِكُمْ غَيْرَ الحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعُوْا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوْا كَثِيراً وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيْلِ)[2]

الى آيات أخر تنادي ببطلان الاقتداء بالفسقة والغواة الضالين المضلين •

ومن نظر الى حال النبهاني وأضرابه الصادين عن سبيل الله تجده على ما كان عليه القرون الاولى الجاهليون •

(ومن خصالهم) الاحتجاج بما كان عليه القرون السالفة من غير تحكيم للعقل ولا أخذ بالدليل الصحيح كما دل على ذلك قوله تعالى :(قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوْسَىٰ. قَالَ رَبُّنَا الَّذِيْ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ. قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُوْنِ الأُوْلَىٰ . قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّيْ فِي كِتَابٍ لا يَضِلُّ رَبِّيْ وَلَا يَنْسَى • الَّذِيْ جَعَلَ لَكُمْ الأَرْضَ مَهْداً وَسَلَكَ لَكُمْ فِيْهَا سُبُلاً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى. كُلُوْا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ)[3] وقال تعالى : (فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوْسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوْا مَا هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرَى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِيْنَ. وَقَالَ مُوْسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُوْنُ لَهُ عَاقِبَةُ

---

(١) التوبة : ٣٤ (٢) المائدة : ٧٧ (٣) طه : ٤٩ ـ ٥٤

الدَّارِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُوْنَ)[1] وقال تعالى: (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوْا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُوْنَ. فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيْدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِيْنَ. إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوْا بِهِ حَتَّى حِيْنٍ)[2]. وقال تعالى: (وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوْا وَاصْبِرُوْا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ)[3].

فهؤلاء الأمم كلهم جعلوا مدار احتجاجهم على عدم قبول ماجاءت به الرسل انه لم يكن عليه أسلافهم، ولا عرفوه منهم، فانظر الى سوء مداركهم، وجمود قرائحهم، ولو كانت لهم قلوب يفقهون بها وآذان يسمعون بها وأعين يبصرون بها لعرفوا الحق بدليله، وانقادوا لليقين من غير تزييفه ولا تعليله، وهكذا أخلافهم وورائهم، هذا النبهاني لم يفد فيه ماألف من الكتب المفصلة لاثبات الحق وابطال الباطل، ولم يلتفت اليها بسبب مخالفتها لما كان عليه السبكي، وابن حجر المكي.

(ومن خصائصهم) الاعتماد على الكثرة والاحتجاج بالسواد الاعظم وابطال الشيء بسبب قلة أهله فأبطل الله تعالى ذلك بقوله: (وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيْلِ اللهِ إِنْ يَتَّبِعُوْنَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُوْنَ. إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيْلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِيْنَ)[4] فالكثرة على خلاف الحق لاتستوجب العدول عن اتباعه لمن كان له بصيرة وقلب، فالحق أحق بالاتباع وان قل أنصاره، كما قال تعالى: (قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِيْنَ آمَنُوْا وَعَمِلُوْا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيْلٌ مَا هُمْ)[5] فأخبر الله سبحانه عن أهل الحق أنهم قليلون

---

(١) القصص: ٣٦، ٣٧ (٢) المؤمنون: ٢٣ ـ ٢٥ (٣) ص: ٦، ٧
(٤) الانعام: ١١٦، ١١٧ (٥) ص: ٢٤

غير أن القلة لاتضـــرهم وما أحسن قـــول القائل :

تعيرنا أنا قليل عديدنا فقلت لها ان الكرام قليل

(والمقصود) أن من له بصيرة ينظر الى الدليل ، ويأخذ بما يستنتجه البرهان وان قل العارفون به والمنقادون له ، ومن أخذ ما عليه الا كثر وما ألفته العامة ــ كما هو ديدن الغلاة وعادتهم من غير نظر لدليل ــ فهو مخطيء سالك غير سبيل المؤمنـــين ، متبع سنن الجاهلية ، مقدوح عند أهل البصائر ، وهذه مكيدة عظيمة للغلاة ، ولذلك ترى النبهاني لم يزل يردد في كتابه هذا القول في تصحيح عقائده ، ويقول : مانحن عليه مذهب الجمهور ، ومقصوده جمهور العوام الذين هم كالانعام •

(ومن خصائصهم) الاستدلال على بطلان الشيء بكونه غريبا ، فرد الله تعالى ذلك بقوله : (فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ)[1]

ومعنى الآية (فلولا كـــان) تحضيض فيه معنى التفجع ، أي فهـــلا كان (من القرون) أي الاقوام المقترنة في زمان واحد (من قبلكم الو بقية) أي ذوو خصـــلة باقية من الرأي والعقل ، أو ذوو فضل على أن يكون البقيـــة اسما للفضل والهـــاء للنقل ، ومن هنا يقال : فلان من بقية القوم أي من خيارهم ، ومنه قولهم في الزوايا خبايا وفي الرجال بقايا •

(ينهون عن الفساد في الارض) الواقع فيما بينهم حسبما ذكر في قصصهـــم ، وفسر الفساد بالكفر وما اقترن به من المعاصي •

(الا قليلا ممن أنجينا منهم) استثناء منقطع أي ولكن قليلا منهم أنجينـــاهم لكونهم كانوا ينهون •

والغلاة يقولون : ان كثيرا من الصلحاء وأهل الطرائق يستغيثون بغير اللـــه ، ويندبون الصالحين ، وأرواحهم تتصرف في هذا العالم ، والقول بعدم جواز ذلـــك غريب جدا لانلتفت اليه ، وأرواح الصالحين تتصرف وتدبر ، والقول المخالف له أيضا نادر شاذ لايلتفت اليه ، وهذا كثيرا مايكرره النبهاني ، ويقول : ان أقوال ابن تيمية

---

(١) هـــود : ١١٦

شاذة ونحو ذلك ، فانظر تشابه قلوبهم ، واحمد الله تعالى على السلامة في الدنيا والدين .

(ومن خصالهم) الغلو في الصالحين من العلماء والاولياء ، قال تعالى :(وَقَالَتِ الْيَهُوْدُ عُزَيرٌ ابْنُ اللهِ وَقَالَت النَّصَارَى الْمَسِيْحُ ابْنُ اللهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِـوُنَ قَوْلَ الَّذِيْنَ كَفَـرُوْا مِنْ قَبْـلُ قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ . اتَّخَذُوْا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُم أَرْبَاباً مِنْ دُوْنِ اللهِ وَالْمَسِيْحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوْا إِلاَّ لِيَعْبُدُوْا إِلَهاً وَاحِداً لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُوْنَ . يُرِيْدُوْنَ أَنْ يُطْفِؤُا نُوْرَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللهُ إِلاَّ أَنْ يُتِمَّ نُوْرَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُوْنَ)[١] فاتخاذ احبار الناس أرباباً يحللون ويحرمون ويتصرفون في الكون وينادون في رفع ضر أو جلب نفع من جاهلية الكتابيين ، ثم سرت الى غيرهم من جاهلية العرب ، ولهم اليوم بقايا في مشارق الارض ومغاربها وهم الغلاة في أهل القبور ، فانك ترى غالب الناس اليوم معرضين عن الله ، وعن دينه الذي ارتضاه ، متوغلين في البدع ، تائهين في أودية الضلال الاشنع ، معادين لكتاب الله والسنة ومن قام بهما ، فأصبح الدين منهم في أنين ، والاسلام في بلاء مبين ، والنبهاني له من ذلك الحظ الوافر ، كما أخبر عنه بذلك من يعرفه وأيدته كتبه . والله المستعان .

(ومن خصالهم) الاعتياض عن شرع الله ووحيه بالخوارق الكاذبة وكتب السحر ، قال تعالى : (وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُوْلٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيْقٌ مِنَ الَّذِيْنَ أُوتُوْا الْكِتَابَ كِتَابَ اللهِ وَرَاءَ ظُهُوْرِهِمْ كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُوْنَ وَاتَّبَعُوْا مَا تَتْلُوْا الشَّيَاطِيْنُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِيْنَ كَفَرُوْا)[٢] الآية. والكلام عليها في كتب التفسير مشهور .

---

(١) التوبة : ٣٠ ـ ٣٢ (٢) البقرة : ١٠١ ، ١٠٢

وعلى هذه الخصلة اليوم كثير من الناس ، لاسيما بعض الغلاة المنتسبين الى بعض المشايخ والصالحين ــ وهم بريئون منهم ــ فانهم قد تعاطوا بعض الاعمال السحرية من امساك الحيات وضرب السلاح والدخول في النيران وغير ذلك مما وردت الشريعة بابطاله ، ولم يلتفتوا اليه ، ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم ، واتبعوا ماألقته اليهم شياطينهم وادعوا أن ذلك من الكرامات وخوارق العادات ، ومن المعلوم أن الكرامة لاتصدر عن فاسق ومخالف للشريعة ، ومن يتعاطى تلك الاعمال فسقه ظاهر للعيان ، وقدا اتخذوا دينهم لعبا ولهوا ، وليت شعري لم اختصت الكرامة بمسك بعض الحياة والعقارب ، والضرب بسلاح مخصوص ، والضرب بأيديهم ؟! فهلا وقفوا أمام مدفع من المدافع فدلع لسانهعليهم وقرأ سورة الدخانوأطلق كراته على وجوههم لنرى كراماتهم حينئذ أين تبقى ؟! ومن مشايخ النبهاني ــ على ماسمعت ــ من هو أبو هذه الخبائث وأمها ، وسنلم ان شاء الله تعالى على هؤلاء الزائغين مرة بعد أخرى .

(ومن خصالهم) التحريف لكتب الدين، قال تعالى: (وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ ، فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً ، فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ)[1] .

ومن نظر الى متصوفة زماننا وغلاته وما صرفوه من النصوص الى ماتقتضيه شهواتهم وبدعهم رأى أمراً منكرا ، وهكذا كثير من القضاة والحكام ، وما تلاعبوا به من الأحكام .

ومن خصالهم ، معادات الدين الذي دانوا به ، وموالاتهم للزائغين ، كما فعل اليهود مع النبي صلى الله عليه وسلم لما أتاهم بما أتى به موسى أعرضوا عنه واتبعوا كتب السحر ، وهو من دين آل فرعون ، والغلاة هجروا السنة وعادوها ، ونصروا أقوال شيوخ القرامطة والباطنية وأمثالهم .

(ومن خصالهم) التعصب لباطلهم ، فانهم لما افترقوا خطأ كل فريق منهم

---

(١) البقرة : ٧٨ ، ٧٩ .

الآخرين قال تعالى : (وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ، وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ، وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ، كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِم ، فَاللهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ)[1] .وهكذا تجد الغلاة من أهل الطرائق المبتدعة ، فالرفاعي يقول ليس القادري على شيء ، والقادري يقول ليس الرفاعي على شيء ، وهذا يقول شيخي أخذ زنبيل الارواح من عزرائيل وأعاد كل روح الى جسدها ، وهذا يقول مر شيخي على جهنم فأراد أن يطفيها ببزاقه فحالت الملائكة بينها وبينه !! ومن اتبع العبد روسي يقول :

العبد روسي كان يحيي من الاموات من قد مات دهرا

وهكذا تجدهم يتضاربون بالاقوال ، ولم يزالوا قائمين على ساق المخاصمة والجدال ، والحازم ينظر الى الدليل فما أداه اليه نظره من الحق أخذ به وترك ماسواه .

(ومن خصالهم) التعبد بما لم يأذن به الله ، قال تعالى :(وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللهُ أَمَرَنَا بِهَا ، قُلْ إِنَّ اللهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لا تَعْلَمُونَ . قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ)[2] .

المراد بالفاحشة في الآية عبادة الاصنام ، وكشف العورة في الطواف ونحو ذلك مما كان عليه مشركوا العرب في الجاهلية ، وفي الآية حذف ، أي واذا فعلوا فاحشة فنهوا عنها قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها ، محتجين بأمرين : تقليد الآباء ، والافتراء على الله .

وكان من سنة الحمس أنهم لايخرجون أيام الموسم الى عرفات انما يقفون بالمزدلفة ، وكانوا لايسلؤون ولا يأتقطون ، ولا يربطون عنزا ولا بقرة ، ولا يغزلون

---

(١) البقرة : ١١٣ (٢) الاعراف : ٢٨ ، ٢٩

صوفا ولا وبرا ، ولا يدخلون بيتا من الشعر والمدر ، وانما يكتنون في القباب الحمر في الاشهر الحرم ، ثم فرضوا على العرب قاطبة أن يطرحوا أزواد الحل اذا دخلوا الحرم ، وأن يتركوا ثياب الحل ويستبدلوها بثياب الحرم ، اما شراء واما عارية ، واما هبة ، فان وجدوا ذلك فبها والا طافوا بالبيت عرايا ، وفرضوا على نساء العرب مثل ذلك ، غير أن المرأة كانت تطوف في درج مفرج القوائم والمآخير ، قالت امرأة وهي تطوف بالبيت :

اليوم يبدو بعضه أو كله   وما بدا منه فلا أحله
أحثم مثل القعب باد ظله   كان حمى خيبر لاتمله

وكلفوا العرب أن يفيضوا من مزدلفة وقد كانوا يفيضون من عرفة ، الى غير ذلك من الامور التي ابتدعوها وشرعوها مما لم يأذن به الله ، وقد فصلت في كتب أحوالهم ، ومع ذلك كانوا يدعون أنهم على شريعة أبيهم ابراهيم عليه السلام •

وقد حذا حذوهم حذو القذة بالقذة غلاة هذه الامة ومتصوفتها ، ترى طائفة منهم قد اتخذوا ضرب المعازف وآلات اللهو عبادة يتعبدون بها في بيوت الله ومساجده ، وطائفة اتخذوا الطواف على قبور الصالحين أعظم طاعة وعبادة وقصدوها في طلب الحاجات ونذروا لها ، ومنهم من ابتدع الرهبانية والحيل الشيطانية ، والمكائد التي لم تهتد اليها النفوس الانسانية ، وزعم أنه سلك سبيل الزهاد ، وطريق العباد ، ومقصده الاعلى نيل شهواته الحيوانية ، والفوز بزخارف هذه الدنيا الدنيه ، الى غير ذلك مما يطول ، ولا يعلم الموحد ماذا يقول •

الى ديان يوم الدين نمضي   وعند الله تجتمع الخصوم

ولبعض أكابر أهل العلم رسالة جمع فيها المسائل التي خالف فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل الجاهلية ، وهي مايزيد على مائة مسألة ، ولنا عليها شرح مفصل ، وخصالهم كلها صادقة على الغلاة ولا سيما (النبهاني منهم) • وما ذكرناه كاف في التمثيل ، ويتبين منه أنه حذا حذو أسلافه الجاهليين ، نسأله تعالى العافية في الدنيا والدين •

(الامر الثالث) من الامور التي يجب التنبيه عليها والاشارة بصريح العبارة اليها : أن من مكايد الغلاة التشنيع على أهل الحق ودعاة التوحيد من المؤمنين انهم

يكفرون المسلمين ، ومقصودهم من ذلك تنفير القلوب عنهم ، ولذلك يلقبونهم بألقاب مشعرة بالذم ، كالمجسمة والحشوية ، وفي هذه الازمنة يلقبونهم بالوهابية وبالمنكرين ونحو ذلك ، وقد برأهم الله تعالى من كل مالا يرضيه سبحانه ، ومعلوم أن المسلمين من يعتقد عقيدة الاسلام ، وقد فسرت في حديث جبريل المشهور ، فمن كان معتقدا تلك العقيدة كان مسلما ، ولا يخرج عن الاسلام الا اذا أخل بتلك العقيدة ، كأن يعتقد أن مع الله الها آخر يعبده بأي عبادة كانت ، فانها أنواع مختلفة ، فحينئذ يخرج عن الاسلام ، ولا يقال لمن عبد غيره تعالى مسلما ، ولا لمن كفره انه كفر مسلما، ومنه يعلم أمر الغلاة ، وأما أهل البدع فلم يكفرهم أهل الحق •

وقد سئل شيخ الاسلام عن المسائل التي وقع فيها خلاف ونزاع بين أهل السنة والخوارج والروافض فهل يستوجب ذلك التكفير ؟ فانهم كفروا المسلمين وأهل السنة بمخالفتهم فيما ابتدعوه ، وأصلوه ، ووضعوه ، وذهبوا اليه وانتحلوه ، فأجاب الشيخ بقوله : أصل التكفير للمسلمين من الخوارج والروافض الذين يكفرون أئمة المسلمين بما يعتقدون أنهم أخطئوا فيه من الدين ، وقد اتفق أهل السنة والجماعة على أن علماء المسلمين لايجوز تكفيرهم بمجرد الخطأ المحض ، بل كل أحد يؤخذ من قوله ويترك الا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وليس كل من يترك قوله لخطأ أخطأه يكفر ولا يفسق ولا يأثم ، فان الله قال في دعاء المؤمنين : (رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا)[1] . وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم (أن الله قال قد فعلت) الخ •

وقال رحمه الله في أثناء كلام له في النهي عن التفرق والاختلاف وترك التعصب لمذهب أو قبيلة أو طريقة ، قال : فليس كل من أخطأ يكون كافرا ولا فاسقا ولا عاصيا ، بل قد عفا الله لهذه الامة عن الخطأ والنسيان ، وقد قال تعالى في كتابه في دعاء المؤمنين :(رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا)وثبت في الصحيح (أن الله قال قد فعلت) لاسيما وقد يكون من يوافقكم في أخص من الاسلام ، مثل أن يكون مثلكم على مذهب الشافعي ، أو منتسبا الى الشيخ عدى ، ثم بعد هذا قد يخالف في شيء وربما كان الصواب معه ، فكيف يستحل عرضه أو دمه أو ماله مع ما قد ذكر الله من حقوق المسلم والمؤمن ، وكيف يجوز التفريق بين الامة بأسماء مبتدعة لاأصل

(١) البقرة : ٢٨٦

لها في كتاب الله ولا سنة رسوله ، وهذا التفرق الذي حصل بين الامة ــ علمائها ومشائخها وأمرائها وكبرائها ــ هو الذي أوجب تسلط الاعداء عليهم ، وذلك بتركهم العمل بطاعة الله ورسوله ، كما قال تعالى : (وَمِنَ الَّذِيْنَ قَالُوْا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيْثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظاً مِمَّا ذُكِّرُوْا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ)[1] واذا تفرق القوم فسدوا وهلكوا ، واذا اجتمعوا صلحوا وملكوا ، فان الجماعة رحمة ، وأن الفرقة عذاب ، وجماع ذلك : الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، كما قال تعالى : (يا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوا اتَّقُوْا اللهَ حَقَّ تُقَاتِه) الى قوله : (وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُوْنَ إِلى الخَيْرِ وَيَأْمُرُوْنَ بِالمَعْرُوْفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَرِ)[2] فمن الامر بالمعروف الامر بالائتلاف والاجتماع ، والنهي عن الاختلاف والفرقة ، ومن النهي عن المنكر اقامة الحدود على من خرج عن شريعة الله تعالى ، فمن اعتقد في بشر أنه اله أو دعا ميتا أو طلب منه الرزق والنصر والهداية وتوكل عليه وسجد له فانه يستتاب فان تاب والا ضربت عنقه انتهى ، فعلم منه حكم من ابتدع وحكم الغلاة ، فان من اعتقد في بشر أنه اله أو دعا ميتا أو طلب منه الرزق وغير ذلك ليس حكمه حكم المبتدع كما قال ، ولا يشترط في الخروج عن الدين والعياذ بالله أن يكفر المكلف بجميع ماجاء به الرسول ، بل يكفي في الكفر والردة أن يأتي بما يوجب ذلك ولو في بعض الاصول ، وهذا ذكره الفقهاء من أهل كل مذهب ،ومن أراد الوقوف على جزئيات وفروع في الكفر والردة فعليه بما صنف في ذلك (كالاعلام بقواطع الاسلام) وماعقده الفقهاء من أهل كل مذهب في باب حكم المرتد ، فمن نطق بالشهادتين ثم أتى بما يعارضهما فلا تنجيانه •

قال شيخ الاسلام تقي الدين ابن تيمية في الرسالة السنية ــ لما ذكر حديث الخوارج ومروقهم من الدين وأمره صلى الله عليه وسلم بقتالهم قال ــ فاذا كان على عهد النبي صلى الله عليه وسلم وخلفائه ممن انتسب الى الاسلام من مرق منه ــ مع عبادته العظيمة حتى أمر صلى الله عليه وسلم بقتالهم ــ فليعلم أن المنتسب الى الاسلام والسنة في هذه الازمان قد يمرق أيضا من الاسلام وذلك بأسباب : منها الغلو

---

(١) المائدة : ١٤ (٢) آل عمران : ١٠١ ــ ١٠٤

الذي ذمه الله في كتابه حيث قال :(يا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوْا في دِيْنِكُمْ وَلا تَقُوْلُوْا عَلى اللهِ إلاَّ الْحَقَّ)[1] ، وعلي بن أبي طالب حرق الغالية من الرافضة فأمر بأخاديد خدت لهم عند باب كندة فقذفوا فيها ، واتفق الصحابة على قتلهم ، لكن ابن عباس كان مذهبه أن يقتلوا بالسيف بلا تحريق ، وهو قول أكثر الصحابة ، وقصتهم معروفة عند العلماء ، وكذلك الغلو في بعض المشايخ ، بل الغلو في علي بن أبي طالب، بل الغلو في المسيح ونحوه ، فكل من غلا في نبي أو رجل صالح وجعل فيه نوعا من الالهية مثل أن يقول ياسيدي فلان انصرني أو أغثني أو ارزقني أو أجبرني أو أنا في حسبك ونحو هذه الاقوال فكل هذا شرك وضلال ، يستتاب صاحبه فان تاب والا قتل ، فان الله انما أرسل الرسل وأنزل الكتب ليعبد وحده لايجعل معه اله آخر ، والذين يدعون مع الله آلهة أخرى مثل المسيح والملائكة والاصنام لم يكونوا يعتقدون أنها تخلق الخلائق وتنزل المطر وتنبت النبات ، انما كانوا يعبدونهم أو يعبدون قبورهم أو صورهم ، ويقولون : مانعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى ، ويقولون : هؤلاء شفعاؤنا عند الله ، فبعث الله رسوله ينهى أن يدعي أحد من دونه، لا دعاء عبادة ولا دعاء استغاثة ، وقال تعالى :(قُل ادْعُوا الَّذِيْنَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُوْنِهِ فَلا يَمْلِكُوْنَ كَشْفَ الضُّرِ عَنْكُمْ وَلا تَحْوِيْلاً . أُوْلئِكَ الَّذِيْنَ يَدْعُوْنَ يَبْتَغُوْنَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ)[2] قال طائفة من السلف كان أقوام يدعون المسيح وعزيرا والملائكة فأنزل الله هذه الآية ثم ذكر آيات في المعنى انتهى •

والمقصود منه : أنه جعل عباد القبور من شر الخوارج المارقين ؛ فهم شر أصناف الخوارج ، وقد توقف بعض السلف في تكفير الخوارج ، قيل لعلي ، أكفار هم ؟ قال : من الكفر فروا ، وعباد القبور لم يتوقف أحد من أهل العلم ــ الذين يرجع اليهم ــ في كفرهم • غاية ما قالوا : لايقتل حتى يستتاب ، أو لايكفر حتى تقوم عليه الحجة أو نحو هذا الكلام ، والمسلمون لم يكفرهم أحد من أهل العلم ، ولشيخ الاسلام نصوص أخر في هذا المعنى ننقلها تتميما للفائدة : ــ

قال رحمه الله في كتاب الاستغاثة الذي رد به على ابن البكري : ان أهل العلم والسنة لايكفرون من خالفهم وان كان ذلك المخالف يكفرهم ، لأن الكفر حكم

---

(١) النساء : ١٧١ (٢) الاسراء : ٥٦ ، ٥٧

شرعي ، فليس للانسان أن يعاقب بمثله ، كمن كذب عليك وزنى بأهلك ليس لك أن تكذب عليه وتزني بأهله ، لأن الكذب والزنا حرام لحق الله تعالى ، وكذلك التكفير حق الله تعالى فلا يكفر الا من كفره الله ورسوله • وأيضا فان تكفير الشخص المعين وجواز قتله موقوف على أن تبلغه الحجة النبوية التي يكفر من خالفها ، والا فليس كل من جهل شيئا من الدين يكفر •

ولما استحل طائفة من الصحابة والتابعين كقدامة بن مظعون وأصحابه شرب الخمر ـ وظنوا أنها تباح لمن عمل صالحا على مافهموه من آية المائدة ـ اتفق علماء الصحابة كعمر وعلي وغيرهما على أنهم يستتابون ، فان أصروا على الاستحلال كفروا ، وان أقروا به جلدوا ، فلم يكفروهم بالاستحلال ابتداء لأجل الشبهة التي عرضت لهم حتى يتبين لهم الحق ، فاذا أصروا على الجحود كفروا ، وقد ثبت في الصحيحين حديث الذي قال لأهله : (اذا أنا مت فاسحقوني ثم ذروني في اليم ، فوالله لئن قدر الله علي ليعذبني عذابا ماعذبه أحدا من العالمين) فأمر الله سبحانه البر فرد ماأخذ منه ، وأمر البحر فرد ماأخذ منه ، وقال ماحملك على مافعلت ؟ قال خشيتك يارب ، فغفر له) فهذا اعتقد أنه اذا فعل ذلك لايقدر الله على اعادته وأنه لايعيده أو جوز ذلك ، وكلاهما كفر ، لكن كان جاهلا لم يتبين له الحق بيانا يكفر بمخالفته فغفر الله له ، ولهذا كنت أقول للجهمية من الحلولية والنفاة الذين نفوا أن الله تعالى فوق العرش ـ لما وقعت محنتهم ـ أنا لو وافقتكم كنت كافرا لأني أعلم أن قولكم كفر ، وأنتم عندي لاتكفرون لأنكم جهال ، وكان هذا خطابا لعلمائهم وفضلائهم ، وشيوخهم وأمرائهم ، وأصل جهلهم شبهات عقلية حصلت لرؤوسهم من قصور في معرفة المنقول الصحيح والمعقول الصريح الموافق له ، وكان هذا خطابنا ، فلذا لم نقابل جهله وافتراءه بالتكفير بمثله ، كما لو شهد شخص بالزور على شخص، أو قذفه بالفاحشة كذبا عليه لم يكن له أن يشهد عليه بالزور ، ولا أن يقذفه بالفاحشة انتهى المقصود منه •

وقال في موضع آخر من هذا الكتاب : اذا خاض هذا ـ يعنى ابن البكري ـ في مسألة لم يسبقه اليها عالم ، ولا معه فيها نقل عن أحد ، ولا هي من مسائل النزاع بين العلماء فيختار أحد القولين ، بل هجم فيها على مايخالف دين الاسلام المعلوم بالضرورة عن الرسول ، فأنا بعد معرفة ماجاء به الرسول نعلم بالضرورة أنه لم يشرع لأمته أن يدعوا أحدا من الاموات ، لا الانبياء ولا الصالحين ولا غيرهم ، لا بلفظ

الاستغاثة ولا بغيرها ، ولا بلفظ الاستعاذة ولا بغيرها ، كما أنه لم يشرع لأمته السجود لأحد لا لحي ولا الى ميت ونحو ذلك ، بل نعلم أنه نهى عن كل هذه الامور، وان ذلك من الشرك الذي حرمه الله ورسوله •

لكن لغلبة الجهل وقلة العلم بآثار الرسالة في كثير من المتأخرين لم يمكن تكفيرهم بذلك حتى يتبين لهم ما جاء به الرسول مما يخالفه ، ولهذا مابينت هذه المسألة قط لمن يعرف أصل الاسلام إلا تفطن وقال هذا أصل دين الاسلام •

وكان بعض الاكابر من الشيوخ العارفين من أصحابنا يقول : هذا أعظم مابينته لنا ، لعلمه بأن هذا أصل الدين ، وكان هذا وأمثاله في ناحية أخرى يدعون الاموات ويسألونهم ، ويستجيرون بهم ويتضرعون اليهم ، وربما كان مايفعلونه بالاموات أعظم ، لأنهم انما يقصدون الميت في ضرورة نزلت بهم فيدعونه دعاء المضطر ، راجين قضاء حاجتهم بدعائه أو الدعاء به أو الدعاء عند قبره ، بخلاف عبادتهم لله ودعائهم اياه فانهم يفعلونه في كثير من الاوقات على وجه العادة والتكلف انتهى •

(ماذكره شيخ الاسلام في الرسالة الماردينية مما يتعلق بالمقصود)

قد ذكر رحمه الله في فصل حكم الصلاة خلفأهل الاهواءكلاما مفصلا يوضح هذه المسألة ويكشف حجاب تلك المعضلة ، فأحببت نقله حرصا على اقتناء فوائده وان طال الكلام •

(قال رحمه الله) وأما الصلاة خلف أهل الاهواء والبدع وخلف أهل الفجور : ففيه نزاع مشهور ، وتفصيل ليس هذا موضع بسطه ، لكن أوسط الاقوال في هؤلاء أن تقديم الواحد من هؤلاء في الامامة لايجوز مع القدرة على ذلك ، فان كان مظهرا للفجور أو البدع وجب الانكار عليه ونهيه عن ذلك ، وأقل مراتب الانكار هجره لينتهي عن فجوره وبدعته •

ولهذا فرق جمهور الأئمة بين الداعية وغير الداعية ، فان الداعية أظهر المنكر فاستحق الانكار عليه ، بخلاف الساكت فانه بمنزلة من أسر الذنب ، فهذا لاينكر عليه في الظاهر ، فان الخطيئة اذا خفيت لم تضر الا صاحبها ، ولكن اذا أعلنت فلم تنكر ضرت العامة ، ولهذا كان المنافقون يقبل منهم علانيتهم وتوكل سرائرهم الى الله بخلاف من أظهر الكفر ، فاذا كان داعية منع من ولايته وامامته وشهادته وروايته لما في ذلك من النهي عن المنكر لا لأجل فساد الصلاة أو اتهامه في شهادته وروايته ،

فاذا أمكن الانسان أن لايقدم مظهرا للمنكر في الامامة وجب ذلك ، لكن اذا ولاه غيره ولم يمكنه صرفه أو كان هو لايتمكن من صرفه الا بشر أعظم ضررا من ضرر ماأظهره من المنكر فلا يجوز دفع الفساد القليل بالفساد الكثير ، ولا دفع أخف الضررين بحصول أعظم الضررين ؛ فان الشرائع جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها ، وتعطيل المفاسد وتقليلها بحسب الامكان ، ومطلوبها بترجيح خير الخيرين اذا لم يجتمعا جميعا ، ودفع شر الشرين اذا لم يندفعا جميعا ، فاذا لم يمكن منع المظهر للبدعة والفجور الا بضرر زائد على ضرر امامته لم يجز ذلك ، بل يصلى خلفه مالا يمكن فعله الا خلفه كالجمع والاعياد والجماعة اذا لم يكن هناك امام غيره .

ولهذا كان الصحابة رضي الله عنهم يصلون خلف الحجاج والمختار ابن أبي عبيد وغيرهما الجمعة والجماعة ، فان تفويت الجمعة والجماعة أعظم فسادا من الاقتداء بامام فاجر ، لاسيما اذا كان التخلف عنها لايرفع فجوره فيبقى ترك المصلحة الشرعية بدون دفع تلك المفسدة ، ولهذا كان التاركون للجماعات والجمعات خلف أئمة الجور مطلقا معدودين عند السلف والائمة من أهل البدع ، وأما اذا أمكن فعل الجمعة والجماعات خلف البر فهو أولى من فعلها خلف الفاجر .

وحينئذ فاذا صلى خلف الفاجر من غير عذر فهو موضع اجتهاد للعلماء ، منهم من قال يعيد لأنه فعل مالا يشرع له بحيث ترك مايجب عليه من الانكار بصلاته خلف هذا ، فكانت صلاته منهيا عنها فيعيدها ، ومنهم من قال لايعيد ، قال لأن الصلاة في نفسها صحيحة ، وما ذكر من ترك الانكار هو أمر منفصل عن الصلاة وهو يشبه البيع بعد نداء الجمعة ، وأما اذا لم يمكنه الصلاة الا خلفه كالجمعة فهنا لاتعاد الصلاة ، واعادتها من فعل أهل البدع ، وقد ظن طائفة من الفقهاء أنه اذا قيل إن الصلاة خلف الفاسق لاتصح أعيدت الجمعة خلفه والا لم تعد وليس كذلك ، بل النزاع في الاعادة حيث نهى الرجل عن الصلاة ، فاما اذا أمر بالصلاة خلفه فالصحيح هنا أنه لا اعادة عليه لما تقدم من أن العبد لم يؤمر بالصلاة مرتين ، وأما الصلاة خلف من يكفر ببدعته من أهل الاهواء فهناك قد تنازعوا في نفس صلاة الجمعة خلفه ، ومن قال إنه يكفر أمر بالاعادة ، لأنها صلاة خلف كافر ، لكن هذه المسألة متعلقة بتكفير أهل الاهواء ، والناس مضطربون في هذه المسألة ، وقد حكى عن مالك فيها روايتان ، وعن الشافعي فيها قولان ، وعن الامام أحمد أيضا فيها روايتان ، وكذلك أهل الكلام قد ذكروا للأشعري فيها قولين ، وغالب مذاهب الأئمة فيها تفصيل .

وحقيقة الامر في ذلك : أن القول قد يكون كفرا فيطلق القول بتكفير صاحبه ، ويقال من قال كذا فهو كافر ، لكن الشخص المعين الذي قال لايحكم بكفره حتى تقوم عليه الحجة التي يكفر تاركها ، وهذا كما في نصوص الوعيد ، فان الله تعالى يقول : (إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَموالَ الْيَتامى ظُلْماً إِنَّما يَأْكُلونَ في بُطُونِهِم ناراً وَسَيصْلَوْنَ سَعِيْرا)[1] . فهذا ونحوه من نصوص الوعيد حق ، لكن الشخص المعين لايشهد عليه بالوعيد ، فلا يشهد على معين من أهل القبلة بالنار ، لجواز أن لايلحقه الوعيد لفوات شرط أو ثبوت مانع ، فقد لايكون التحريم بلغه ، وقد يتوب من فعل المحرم ، وقد تكون له حسنات عظيمة تمحوا عقوبة ذلك المحرم ، وقد يبتلى بمصائب تكفر عنه ، وقد يشفع فيه شفيع مطاع ، وهكذا الاقوال التي يكفر قائلها قد يكون الرجل لم تبلغه النصوص الموجبة لمعرفة الحق ، وقد يكون بلغته ولم تثبت عنده أو لم يتمكن من فهمها ، وقد يكون عرضت له شبهات يعذره الله بها فمن كان من المؤمنين مجتهدا في طلب الحق وأخطأ فان الله يغفر له خطأه كائنا ما كان ، سواء كان في المسائل النظرية والعلمية ، أو المسائل الفروعية العملية ، هذا الذي عليه أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وجماهير أئمة الاسلام .

وأما التفريق بين نوع وتسمية مسائل الأصول ، ونوع آخر وتسميته مسائل الفروع : فهذا الفرق ليس له أصل لا عن الصحابة ولا عن التابعين لهم باحسان ولا أئمة الاسلام ، وانما هو مأخوذ من المعتزلة وأمثالهم من أهل البدع ، وعنهم تلقاه من ذكره من الفقهاء في كتبهم وهو تفريق متناقض . فانه يقال لمن فرق بين النوعين ماحد مسائل الاصول التي يكفر المخطيء فيها ؟ وما الفاصل بينها وبين مسائل الفروع ؟ فان قال : مسائل الاصول هي مسائل الاعتقاد والفروع مسائل العمل ، قيل له : فتنازع الناس في محمد صلى الله عليه وسلم هل رأى ربه أم لا ، وفي أن عثمان أفضل من علي أم علي أفضل ، وفي كثير من معاني القرآن ، وتصحيح بعض الاحاديث : هي من المسائل الاعتقادية لا العملية ولا كفر فيها بالاتفاق ، ووجوب الصلاة والزكاة والصيام والحج ، وتحريم الفواحش والخمر : هي مسائل علمية والمنكر لها يكفر بالاتفاق ، وان قال : الاصول هي الاصول القطعية ، قيل له : كثير من مسائل العمل قطعية ، وكثير من مسائل النظر ليست قطعية ، وكون المسألة قطعية أو ظنية هو من

---

(١) النساء : ١٠

الامور الاضافية ، وقد تكون المسألة عند رجل قطعية لظهور الدليل القاطع له ، كمن يسمع النص من رسول الله صلى الله عليه وسلم وتيقن مراده منه ــ وعند غيره لاتكون ظنية فضلا عن أن تكون قطعية ، لعدم بلوغ النص اياه ، أو لعدم ثبوته عنده ، أو لعدم تمكنه من العلم بدلالته (١) ثم ذكر حديث الذي قال لأهله اذا أنا مت فأحرقوني الخ •• الى أن قال : وهذه المسائل مبسوطة في غير هذا الموضع ، لكن المقصود هنا : أن مذاهب الأئمة مبنية على هذا التفصيل بين النوع والعين ، ولهذا حكى طائفة عنهم الخلاف في ذلك ولم يفهموا غور قولهم ، فطائفة تحكى عن أحمد في تكفير أهل البدع روايتين مطلقا حتى تجعل الخلاف في تكفير المرجئة والشيعة المفضلة لعلي ، وربما رجحت التكفير والتخليد ، وليس هذا مذهب أحمد ولا غيره من أئمة الاسلام ، بل لايختلف قوله انه لايكفر المرجئة الذين يقولون الايمان قول بلا عمل ، ولا يكفر من يفضل عليا على عثمان ، بل ونصوصه صريحة بالامتناع من تكفير الخوارج والقدرية وغيرهم ، وانما كان يكفر الجهمية المنكرين لأسماء الله وصفاته ، لأن مناقضة أقوالهم لما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ظاهرة بينة ، ولأن حقيقة قولهم تعطيل الخالق ، وقد ابتلى بهم حتى عرف حقيقة أمرهم وأنه يدور على التعطيل ، وتكفير الجهمية مشهور عن السلف والأئمة ، لكن ما كان يكفر أعيانهم ، فان الذي يدعو الى القول أعظم من الذي يقوله، والذي يعاقب مخالفه أعظم من الذي يعاقبه(٢) ومع هذا فالذين كانوا من ولاة الامور يقولون بقول الجهمية أن القرآن مخلوق وأن الله لايرى في الآخرة وغير ذلك ، ويدعون الناس الى ذلك ، ويمتحنونهم ويعاقبونهم اذا لم يجيبوهم ، ويكفرون من لم يجبهم ، حتى أنهم كانوا اذا افتكوا الاسير لايطلقونه حتى يقر بقول الجهمية أن القرآن مخلوق وغير ذلك ، ولا يولون متوليا ولا يعطون رزقا من بيت المال الا لمن يقول ذلك ، ومع هذا فالامام أحمد رضي الله عنه ترحم عليهم واستغفر لهم ، لعلمه بأنه لم يتبين لهم أنهم مكذبون للرسول صلى الله عليه وسلم ولا جاحدون لما جاء به ، لكن تأولوا فأخطأوا وقلدوا من قال لهم ذلك ، وكذلك

---

(١) نص ماقاله : وقد ثبت في الصحاح عن النبي صلى الله عليه وسلم (حديث الذي قال لاهله اذا أنا مت فأحرقوني ثم اسحقوني ثم اذروني في اليم ، فوالله لئن قدر الله علي ليعذبني عذابا ماعذبه أحدا من العالمين ، فأمر الله البر برد ماأخذ منه ، والبحر برد ماأخذ منه ، وقال : ماحملك على ماصنعت ؟ قال خشيتك يارب ، فغفر الله له) فهذا ظاهره شك في قدرة الله تعالى في المعاد ، بل ظن أنه لايعود ، وأنه لايقدر الله تعالى عليه اذا فعل ذلك وغفر الله له ، وهذه المسائل الخ ...

(٢) نص هذه الجملة في بعض نسخ الماردينية هو : والذي يعاقب مخالفه أعظم من الذي يدعو فقط ، والذي يكفر مخالفه أعظم من الذي يعاقبه .

الشافعي لما قال لحفص الفرد حين قال القرآن مخلوق كفرت بالله العظيم بين أن هذا القول كفر ولم يحكم بردة حفص بمجرد ذلك ، لأنه لم يتبين له بعد الحجة التي يكفر بها ، ولو اعتقد أنه مرتد لسعى في قتله ، وقد صرح في كتبه بقبول شهادة أهل الاهواء والصلاة خلفهم ، وكذلك قال مالك والشافعي وأحمد في القدري أن جحد علم الله كفر ، ولفظ بعضهم ناظروا القدرية بالعلم فان أقروا به خصموا وان جحدوا كفروا ، وسئل أحمد رحمه الله عن القدري هل يكفر ؟ قال : ان جحد العلم كفر ، وحينئذ فجاحد العلم هو من جنس الجهمية ، وأما قتل الداعية الى البدع فقد يقتل لكف ضرره عن الناس كما يقتل المحارب وان لم يكن في نفس الامر كافرا ، فليس كل من أمر بقتله يكون قتله لردته ، وعلى هذا قتل غيلان القدري وغيره قد يكون على هذا الوجه ، وهذه المسائل مبسوطة في غير هذا الموضع وانما نبهنا عليها تنبيها ، انتهى كلام شيخ الاسلام رحمه الله •

والذي تحصل مما سقناه من النصوص : أن الغلاة ودعاة غير الله وعبدة القبور اذا كانوا جهلة بحكم ما هم عليه ولم يكن أحد من أهل العلم قد نبههم على خطئهم فليس لأحد أن يكفرهم •

وأما من قامت عليه الحجة وأصر على ماعنده واستكبر استكبارا أو تمكن من العلم فلم يتعلم فسنذكر حكمه في الآتي •

(والمقصود) أن من تمسك من المسلمين بما كان عليه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من المعتقد والدين الذي خالفوا به أهل البدع وباينوهم فلم يذهبوا الى ماذهبت اليه الجهمية المعطلة ولا الى ماذهبت اليه القدرية النفاة والقدرية المجبرة ولا الى ماذهبت اليه الخوارج والمعتزلة ولا الى ماذهبت اليه الرافضة والمرجئة ولم يذهبوا الى مافتراه الغلاة في الاولياء والصالحين من عباد القبور ونحوهم فان هؤلاء لايسمون عند أهل السنة والجماعة غالية كما سموا به من غلا في علي وزعم أنه الاله الحق فاستتابهم علي فأبوا فخدلهم الاخاديد وأوقد فيها النيران وقذفهم فيها ، وقال :

انى اذا رأيت أمرا منكرا أججت ناري ودعوت قنبرا

وفي رواية لما رأيت الامر أمرا منكرا الخ •• فهؤلاء هم المسلمون الذين لايكفرون ، وتسمية من عبد غير الله مسلما فهو الى أن يعالج عقله أحوج منه الى أن يقام عليه الدليل •

(الامر الرابع) من الامور التي يجب التنبيه عليها : ان من مكايد الغلاة التي كادوا بها العوام أنهم يقولون : ان الاستغاثة بالاموات وندائهم في المهمات وشد الرحال لزيارة قبورهم وتقديم قرابينهم اليها ونذورهم (١) هو من علامات محبتهم ، والتقرب بقربتهم ، ومن أنكر ذلك وأبى ماهنالك ونهى عن زخرفتها وايقاد السرج عليها وبناء المساجد عليها وقصد أهلها في طلب الحاجات والالتجاء اليها في المهمات فهو من المبغضين للصالحين ، والمنكرين لكرامات الاولياء والصديقين ، الى غير ذلك من أقوالهم المناسبة لضلالهم ، كبرت كلمة تخرج من أفواههم ، فان من أنكر مثل تلك البدع والضلالات هم المحبون لهم ، والمحافظون على هديهم وطريقتهم ، وأما هؤلاء الغلاة وأعداء الهداة فقد أفسدوا الدين ، وسدوا طريق الموحدين ، يعرف ذلك من وقف على أحوالهم ، وما قالوه في الاسلام وما بدلوه من الدين ، وما عليه أهل البوادي اليوم والاعراب من الكفر بآيات الله ورد أحكام القرآن والاستهزاء بذلك، والرجوع الى سوالف البادية وما كانت عليه من العادات والاحكام الجاهلية ، وأمثلهم حالا من عرف أن كتاب الله وأحاديث رسوله عند أهل البلاد فلم يرفع بذلك رأسا ، ولم يبال بشيء مما هنالك أو هو جاهل بما جاءت به الرسل ، ونزلت به الكتب ، لاشعور له بشيء من ذلك ، ولا يدري ما الناس من أمر دينهم •

وغالب أهل المدن منهمكون في اللذائذ والشهوات ، قد أعرضوا عن الشريعة وما ورد فيها من الاوامر والنواهي ، ولم يلتفتوا الى مافي كتب الفقه من الاحكام ، وظنوا أن سيئاتهم تغفر بنذورهم الى القبور ونداء أهلها والاستغاثة بهم ، وان من منعهم من دعاء الانبياء والصالحين ، والاستعانة بهم ، والاستغاثة في الشدائد والمهمات وأنهم لايدعون مع الله في الحاجات والملمات ولا يذبح لهم تقربا ، ولا يطاف بقبورهم ولا يتوكل عليهم ــ فقد استخف بهم وتنقصهم وهضمهم حقهم •

وأصل هذا أنهم لايفرقون بين حق الله وحق عباده ، ولا تمييز عندهم في ذلك ، بل يرون استحقاقهم كثيرا من العبادات المختصة بالله ، وهذا يشبه غلو النصارى في المسيح وغيره ، وقد قالوا لمن أنكر عليهم عبادة المسيح قد تنقصت المسيح وقلت فيه قولا عظيما ، كما قال عمرو ابن العاص وأصحابه للنجاشي ــ لما قدموا عليه بعد الهجرة الاولى الى الحبشة وسألوه أن يخلي بينهم وبين المهاجرين عنده جعفر بن أبي طالب وأصحابه وأبى ذلك النجاشي فقال عمرو ــ انهم يقولون في المسيح قولا عظيما

---

(١) كذا فى الاصل ولعل المراد : وتقديم القرابين اليها والنذور لها .. الخ

يعني يقولون هو عبد ليس بإله ، فأرسل النجاشي لجعفر وأصحابه وسألهم عن ذلك ، فقالوا : نقول فيه ما قال الله تعالى ، وتلا جعفر صدر سورة مريم حتى أتى على ذكر المسيح وشأنه ، فقال النجاشي : والله مازاد المسيح على هذا .

وبالجملة فمن عرف ما جاءت به الرسل من وجوب توحيد الله وافراده بالعبادة وتبين له أن المنع من دعائهم وقصدهم من دون الله في الحاجات والملمات هو عين تعظيمهم ، وتوقيرهم ، وتعزيرهم ، والايمان بهم وتصديقهم ، وقبول ما جاؤا به ، ومنابذة أعدائهم وأضدادهم من المشركين على اختلاف أجناسهم وتباين مللهم ، فان أصل النزاع بينهم وبين أعدائهم في عبادة الله وحده والبراءة من عبادة ماسواه ، ولا يحصل ولا يتصور الايمان بهم الا باعتقاد هذا وموافقتهم عليه ، وأما مخالفتهم فيه ومعصيتهم فهي عين التنقص والاستخفاف بهم ، ومن عرف هذا عرف أن أهل الحق والايمان من عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم الى قيام الساعة هم المعظمون للرسل ، الموقرون لهم ، العارفون بحقوقهم ، القائمون بما يجب لله ، وما يجب لعباده من الحقوق ، لا أهل الشرك بهم والمعصية لهم ، ونبذ أوامرهم وترك ماجاءوا به وهجره وعزله عن الحكم به ، وتقديم منطق اليونان في باب معرفة الله وصفاته ، وتقديم آراء الرجال وحدسهم على النصوص والاحاديث الصريحة ، وتقديم غلو النصارى ورأيهم في عبادة الاحبار والرهبان على ماجاء بهمن تجريد التوحيد واخلاص الدين لله ، هذا هو حقيقة الاستخفاف عند كافة العقلاء ، وأما طاعة الرسول في اخلاص الدين لله ، وترك دعاء الانبياء والصالحين فهو عين التعظيم والتوقير ، ولذلك قال عز من قائل : (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّوْنَ اللهَ فَاتَّبِعُوْنِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ) (١) فظهر أن كيدهم جعله الله في نحرهم ، وتبين أنهم قوم لايعقلون .

فنسألك اللهم أن تخلع من أعداء الحق وثائق قلوبهم وأفئدتهم ، وأن تباعد بينهم وبين أزودتهم ، وأن تحيرهم في سبلهم ، وأن تضللهم عن وجههم ، وأن تقطع المدد عنهم ، وأن تنقص منهم العدد ، وأن تملأ أفئدتهم بالرعب ، وتقبض أيديهم عن البسط ، وتحرم ألسنتهم عن النطق ، وتشرد بهم من خلفهم ، وتنكل بهم من وراءهم، وتقطع بحربهم أطماع من بعدهم ، اللهم عقم أرحام نساءهم ، وييس أصلاب رجالهم واقطع نسل دوابهم وأنعامهم ، اللهم لا تأذن لسمائهم في قطر ولا لأرضهم في نبات .

---

(١) آل عمران : ٣١

(الأمر الخامس) ان كثيرا ممن يظهر عقيدة الغلاة وينتصر لهم ويصوب رأيهم ـ في جواز نداء الصالحين ودعائهم ، والالتجاء اليهم والاستغاثة بهم ، وقصدهم بالنذور وبكل زور ، مما استباحوه من الاعمال والاقوال المناقضة لما جاءت به الاديان التي شرعها ذو الجلال والملك المتعال ـ هم زنادقة لايعترفون بأن للعالم إلها خالقا مدبرا للكائنات علويها وسفليها منكرين للكتب الالهية وما اشتملت عليه من الاحكام نافين للمعاد وليوم التناد ، ويقولون لا حساب ولا كتاب ولا جنة ولا نار ، ولا آخرة ولا دار قرار ، ومقصودهم من الانتصار للغلاة وأهل الطرائق المبتدعة وما اشتملت عليه من المنكرات وما لم يأذن به الله من العبادات : ستر عوارهم بباطل انتصارهم ، والتوصل الى شتم أهل الحق وحماة الدين ، واغاظة من خاصمهم على باطلهم من الموحدين ، وقد سمعت أن بعض الاوغاد من زنادقة بغداد ألفوا كتابا سموه الفجر الصادق ، وكان الحري أن يسموه بأقوال المارق ، قد اشتمل على تصحيح أقوال المبتدعة وضلالات الغلاة ، ومخازي آراء الغواة ، معاداة للرادين على أقوالهم ، والمظهرين لأحوالهم والكاشفين حجب جهلهم وضلالهم ، وتوصلا الى شتم من عاداهم من أهل الحق لزيغهم ، ومراغمة لمن جرد عليهم صوارم براهين رد باطلهم ، وهم من مشاهير زنادقة بغداد ، مربع (١) الزور والفساد ، قد أنكروا المعبود واليوم الموعود وجحدوا ارسال الرسل والانبياء ، وما اشتملت عليه الكتب الالهية من الاحكام ، والانباء ، فليس لهم من الاسلام الا اسمه ، ولا من الدين الا زي منتحله ورسمه ، وكيدهم لايفيدهم ، وحالهم معلوم لدى العموم •

ومهما تكن عند امريء من خليقة   وان خالها تخفى على الناس تعلم

وقد ذكر المفسرون عند الكلام على قوله تعالى : (إِذا جَاءَكَ المُنافِقُونَ قالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ واللهُ يَعْلَمُ إِنكَ لرَسُولُهُ واللهُ يَشْهَدُ إِنَّ المُنافِقِينَ لَكاذِبُونَ) (٢) . ان المنافق اسم اسلامي لم تعرفه العرب بالمعنى المخصوص به ، وهو الذي يستر كفره ويظهر ايمانه ، وان كان أصله في اللغة معروفا ، يقال : نافق ينافق منافقة ونفاقا ، وهو مأخوذ من النافقاء ، وهي احدى حجر اليربوع وهي التي يدخل منها ، وليس مأخوذا من النفق وهو السرب الذي يستتر فيه لستره كفره ، وكان المنافقون يأتون الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويشهدون شهادة مؤكدة أنه

---

(١) أي : مكان ومقر .

(٢) المنافقون : ١

رسول الله ، فشهد الله عليهم أنهم كاذبون ، ومن أصدق من الله قليلا ؟ أفلا ينبغي أن يصدق بأقوالهم ، وقد عدد الله تعالى قبائحهم ، وهي موجودة في منافقي بغداد وزنادقة العراق ، فمنها أن من عادتهم الاستجنان بالايمان الكاذبة كما استجنوا بالشهادة الكاذبة ، أي اتخذوا حلفهم بالله أنهم لمنكم جنة عن القتل أو السبي أو نحوهما مما يعامل به الكفار ، ومن هنا أخذ الشاعر قوله : ـ

وما انتسبوا الى الاسلام الا لصون دمائهم أن لا تسالا

وقد أخبر سبحانه عن صفتهم وشأنهم فقال :(وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم)[1] لصباحتها وتناسب أعضائها (وإن يقولوا تسمع لقولهم)[1] لفصاحتهم وذلاقة ألسنتهم ، وهكذا أولئك المنافقون يعجب الناس من هياكلهم ويسمعون لكلامهم ، أي ماهم الا أجرام خالية من الايمان والخير ، كالخشب منصوبة مسندة الى الحائط في كونها أشباحا خالية عن الفائدة ، أو كأنهم أصنام منحوتة من خشب مسندة الى الحيطان ، شبهوا بها في حسن صورهم وقلة جدواهم ، وفي مثلهم قال الشاعر : ـ

لايخدعنك اللحى ولا الصور تسعة أعشار من ترى بقر
تراهم كالسحاب منتشرا وليس فيها لطالب مطر
في شجر السرو منهم شبه له رواء وما له ثمر

ثم ان الله تعالى زادهم ايضاحا فقال : (يحسبون كل صيحة عليهم)[1] أي متى سمعوا صياحا بأي وجه كان طارت عقولهم ، وظنوا ذلك ايقاعا بهم ، كما قال جرير يخاطب الاخطل :

مازلت تحسب كل شيء بعدهم خيلا تكر عليهم ورجالا

وقال المتنبي :

وضاقت الارض حتى ظن هاربهم اذا رأى غير شيء ظنه رجلا

ثم استأنف سبحانه الكلام عنهم لبيان مايجب من معاملتهم فقال : (هم العدو) أي هم الكاملون في العداوة والراسخون فيها ، فان أعدى الاعادي العدو المداجي ، الذي يكاشرك وتحت ضلوعه الداء الدوي ، ككثير من أبناء الزمان (فاحذرهم)

---

(١) المنافقون : ٤

لكونهم أعدى الاعادي ولا تغترن بظاهرهم •

فلا تقنع بأول ماتراه فأول طالع فجر كذوب

(قاتلهم الله) أي لعنهم وطردهم فان القتل قصارى شدائد الدنيا وفظائعها ، وكذلك الطرد عن رحمة الله تعالى والبعد عن جنابه الاقدس منتهى عذابه عز وجل ، وغاية نكاله جل وعلا ، والسورة من أولها الى آخرها في بيان أحوال المنافقين وذكر أحكامهم ، والمقصود : أن كثيرا من الزنادقة والمنافقين ــ ومنهم من سبق ذكرهم ــ يظهرون مايظهره الغلاة ، وأولئك الزائغون الغواة ، لمزيد حبهم للدنيا وخوفهم على مناصبهم ومراتبهم ، وهم لا دين لهم ولا ايمان ، ولا صلاة ولا زكاة ، ولا حج ولا صيام ، وهم كل وقت على وجل يحسبون كل صيحة عليهم ، فلا يلتفت الى هذيانهم ، وضلالهم وبطلانهم ، فما أشبه كلامهم بطنين ذباب ، أو صرير باب ، أو نبح كلاب ، (قُلِ اللهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ)[1] .

وقد تسلب الايام حالات أهلها وتعدو على أسد الرجال الثعالب

(الامر السادس من تلك الامور) أن الغلاة وعبدة القبور وسالكي الطرق المبتدعة يكيدون الجهلة والعوام بمكائد كثيرة : منها ماسبق ، ومنها : أنهم يقولون لهم أن المخالفين لنا لم تزل تصيبهم نكبات الدنيا ومصائبها بخلاف من سلك مسلكنا، فانا ممتعون منعمون بنعم الدنيا ومناصبها الرفيعة ، ومراتبها العالية ، والقرب من أولياء الامور ، انظروا الى فلان وفلان وفلان ويعددون لهم كثيرا من كلاب الدنيا الدنية ، ويقولون لهم : ثم انظروا الى مخالفينا كابن تيمية وأضرابه ، ويذكرون لهم ماحل بهم من المخالفين ، ومثل هذا الكيد كثيرا مايكرره النبهاني في كتابه شواهد الحق الذي تصدينا لرده ، ويقول مرة بعد أخرى أن ابن تيمية شق العصا ، وشوش عقائد المسلمين بسبب مااختاره من عدم جواز دعاء غير الله والالتجاء الى ماسواه ونحو ذلك ، وان الله لم يبارك في كتبه فلم ينتفع بها أحد من المسلمين لقوله بذلك ، وان العلماء اتفقوا على حبسه الحبس الطويل ، فحبسه حاكم مصر يومئذ ومنعه من الكتابة في الحبس ، وان لايدخل عليه بدوات ، ومات في الحبس ، ونحو من ذلك الهذيان ، وهكذا قال ابن حجر في الجوهر المنظم وفي فتاواه ، وهكذا السبكي في بعض كتبه •

---

(١) الانعام : ٩١

واعلم أن من له نظر وبصيرة لايلتفت الى مثل هذا الهذيان من هذا الكلام الذي يشبه كلام الصبيان ، بل ينظر الى الدليل والبرهان ، وما أصاب ابن تيمية وأضرابه من أهل الحق فله أسوة بسادات أهل الدين والانبياء والمرسلين ، صلوات الله عليهم أجمعين ، ولو بسطنا الكلام على ماجرى عليهم وما جرى على أكابر المجتهدين وأهل العلم لما وسعه سفر كبير ، ولم يختص بذلك عصر ، بل هكذا جميع الاعصار .

ان الرياح اذا اشتدت عواصفها   فليس ترمي سوى العالي من الشجر

قال العلامة الشيخ شهاب الدين أحمد بن علي الدلجي ـ وكان من أكابر حفاظ عصره ومحدثيهم ، وأعلمهم بعقائد السلف وعلومهم ـ في كتاب الفلاكة والمفلوكين قلما خلا عالم أو نبيل من نكبة ، وأنا أذكر هنا طرفالائقا بمقصودي من ذوي النكبات من الاعيان الذين عرضت لهم : ـ

(مالك بن أنس) ابن أبي عامر بن الحرث ابن غيمان ـ بالغين المعجمة ـ أبو عبد الله الامام المدني أحد أئمة الاسلام ، سعى به الى جعفر بن سليمان بن علي ابن عم أبي جعفر المنصور ، فدعا به وجرده ، وضربه سبعين سوطا ، ومدت يداه حتى انخلع كتفاه ، وسبب ضربه أنهم سألوه عن مبايعة محمد ابن عبد الله بن حسن ، وقالوا له ان في أعناقنا مبايعة أبي جعفر ، فقال : انما بايعتم مكرهين وليس على مكره يمين ، فأسرع الناس الى محمد فسعى به فضرب لذلك ، ثم لم يزل بعده في علوورفعة كأنما كانت تلك السياط حليا تحلى بها ، توفي سنة أربع وسبعين ومائة .

(أبو حنيفة النعمان بن ثابت) الفقيه الكوفي أحد الأئمة المتبوعين ، كان يزيد بن عمر بن هبيرة الفزاري أمير العراقين فأراده لقضاء الكوفة أيام مروان بن محمد آخر ملوك بني أمية فأبى ، فضربه مائة سوط وعشرة أسواط كل يوم عشرة أسواط ، وبقي على الامتناع ، وسجنه فتوفي بالسجن في أحد القولين سنة خمسين ومائة ببغداد .

(الامام أحمد بن محمد بن حنبل) بن هلال الشيباني المروزي ثم البغدادي استحوذ على المأمون جماعة من المعتزلة وقولوه بخلق القرآن ، فعن له بطرسوس أن يكتب الى نائب بغداد اسحق بن ابراهيم بن مصعب يأمره أن يدعو الناس الى القول بخلق القرآن ، فكان ذلك أول الفتنة ، وكان ذلك آخر عمر المأمون قبل موته بشهور سنة ثمانية عشر ومئتين ، فلما وصل الكتاب استدعى جماعة من العلماء فامتنعوا ، فهددهم بالضرب وقطع الارزاق ، فأجاب أكثرهم مكرهين ، واستمر على

الامتناع أحمد بن حنبل ، ومحمد بن نوح الجند سابوري ، فحملا على بعير متعادلين مقيدين الى الخليفة عن أمره بذلك ، ثم جاء الصريخ بموت المأمون في الثلث الاخير ، ثم جاء الخبر بأن المعتصم قد ولي الخلافة وأن الامر شديد ، فردا الى بغداد في سفينة مع بعض الاساري ، ومات محمد بن نوح في الطريق ، وأودع الامام أحمد السجن ببغداد نحوا من ثمانية وعشرين شهرا ، ثم أحضره المعتصم في قيوده وأجلسه ، فجلس ودعاه الى القول بخلق القرآن ، فامتنع وقال فما قال ذلك ابن عمك رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا الى شهادة أن لا اله الا الله وأنا أشهد أن لا اله الا الله وأن القرآن علم الله ، ومن علم أن علم الله مخلوق فقد كفر ، أعطوني شيئا من كتاب الله أو سنة رسوله حتى أقول به ، وناظره أحمد ابن أبي دواد وغيره وأنكروا الآثار التي أوردها ، وقالوا للمعتصم هذا أكفرك وأكفرنا ، وقال له اسحاق ابن ابراهيم نائب بغداد ، ياأمير المؤمنين ليس من تدبير الخلافة أن تخلي سبيله ويغلب خليفتين ، فعند ذلك حمى واشتد غضبه ، فأخذ وجيء بالعقابيين والسياط ، وضربه ضربا مبرحا شديدا ، حتى أغمي عليه وغاب عقله ، وأمر باطلاقه الى أهله فنقل وهو لايشعر ، ولما شفي من الضرب بقي مدة وابهاماه يؤذيهما البرد ، وكان الضرب في الخامس والعشرين من رمضان سنة احدى وعشرين ومائتين ، وتوفي سنة احدى وأربعين ومائتين .

(يوسف بن يحيى البويطي) صاحب الامام الشافعي ، كان الشافعي يسأل عن الشيء فيحيل عليه فاذا أجاب قال هو كما أجاب ، وقال عنه الشافعي هو لساني ، حمل الى بغداد في أيام الواثق بالله من مصر — وفي عنقه غل وفي رجليه قيد وبين الغل والقيد سلسلة حديد فيها طوق وزنتها أربعون رطلا — وأرادوه على القول بخلق القرآن فامتنع ومات بالسجن في قيوده سنة احدى وثلاثين ومائتين .

(الامام أبو عبد الله محمد بن اسماعيل البخاري) أراد منه خالد بن أحمد الذهلي أن يأتيه في بيته ليسمع أولاده فأبى ، وقال في بيته يؤتى الحكم ، فاتفق أن جاءه كتاب من محمد بن يحيى الذهلي من نيسابور بأن البخاري يقول بأن لفظه بالقرآن مخلوق ، وكان قد وقع بين محمد بن يحيى الذهلي وبين البخاري في ذلك كلام ، وصنف البخاري في ذلك كتابه (خلق أفعال العباد) فأراد الامير أن يصرف الناس عن السماع من البخاري فلم يقبلوا ، فأمر عند ذلك بنفيه من البلاد ، فخرج منها ، ودعا على خالد بن أحمد ، فلم يمض شهر حتى أمر ابن طاهر بأن ينادى على

خالد بن أحمد على أتان ، وزال ملكه وسجن ببغداد حتى مات ، فبرح البخاري الى بلد يقال لها (خزتنك) فمات سنة ستين وثلاثمائة نقلته بلفظه من تاريخ ابن كثير •

(أحمد بن علي بن شعيب النسائي) صاحب السنن امام عصره ، والمقدم على أضرابه ، رحل الآفاق وأخذ عن الحذاق ، وكان ينسب الى شيء من التشيع ، قالوا دخل دمشق فسأله أهلها أن يحدثهم بشيء من فضائل معاوية ، فقال : مايكفي معاوية أن يذهب رأسا برأس حتى يروى له فضائل ، فجعلوا يطعنـــون فيه حتى أخرج من الجامع ، فسار الى مكة فمر بالرملة ، فسئل عن فضائل معاوية فأمسك عنه ، فضربوه في الجامع ، فقال : أخرجوني الى مكة ، فأخرجوه وهو عليل ، فتوفي بمكة مقتـــولا شهيدا سنة ثلاث وثلاثمائة •

(أبو عمر عيسى الثقفي النحوي) شيخ سيبويه ـ صاحب كتاب الجامع الذي قيل أن سيبويه أخذه وزاد عليه مااستفاده من الخليل ونسبه اليه ـ أودعه شخص وديعة ، فنمى الخبر الى يوسف بن عمر أمير العراقين ، فكتب الى نائبه بالبصرة يأمره أن يحمل عيسى بن عمرو مقيدا ، فدعا به ، ودعا حدادا وأمره بتقييده ، فلما قيـــده قال له لا بأس عليك انما أرادك لتعليم ولده ، قال فما بال القيد اذا ، فلما وصل اليه سأله فأنكر ، فأمر بضربه فضرب بالسياط ، توفي سنة تسع وأربعين ومائة ، كان كثير الاستعمال للغريب والتقعر في كلامه ، وهو القائل : افر نقعوا عني ، قال يوما لأبي عمرو بن العلاء أنا أفصح من معد بن عدنان ، فاستنشده أبو عمرو بيتا فيه بدا بمعنى ظهر ، وقال له : كيف تسنده الى جماعة الاناث أتقول بدين أو بدان ؟ فقال : بدين ، فقال : أخطأت ، ولو قال بدان لاخطأ أيضا ، وانما أراد أبو عمـــر تغليطه ، وانمـــا الصواب بدون من بدا يبدوا اذا ظهر ، وبدأ يبدأ اذا شرع في الشـــيء معنى آخـــر ذكرت هذا استطراد لاشتماله على فائدة •

(أبو جعفر محمد بن الزيات بن عبد الملك) وزير المعتصم ، ثم ابنـــه هارون الواثق ، ثم لما مات الواثق أشار هو بتولية ولده ، وأشار القاضي أحمد بتولية أخيه المتوكل ، وتم أمر المتوكل ، فحقد ذلك عليه مضموما الى حقده عليه القديم ، لأنه كان يغلظ عليه في حياة الواثق تقربا اليه ، وكان ابن الزيات قد صنع تنورا من حديد في أيام وزارته وله مسامير محدودة الى داخله يعذب فيه النـــاس ، وكان يقـــول اذا استرحم ، الرحمة خور في الطبيعة ، فلما اعتقله المتوكل أدخله التنور وقيده بخمسة عشر رطلا من الحديد ومات في التنور ، فوجد قد كتب في التنور بفحمة :

من له عهد بنور　　يرشد الصب اليه
سهرت عيني ونامت　　عين من هنت عليه
رحم الله رحيما　　دلت عيني عليه

توفي سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة ٠

(ناصح الدين أبو محمد سعيد المعروف بابن الدهان) النحوي البغدادي شارح كتاب الايضاح والتكملة وكتاب اللمع لابن جني ، وكان يفضل على ابن أبي محمد الجواليقي وابن الخشاب وابن الشجري المعاصرين له ، انتقل الى الموصل قاصدا جناب الوزير جمال الدين الاصفهاني المعروف بالجواد ، وكانت كتبه ببغداد واستولى الغرق في تلك السنة على البلد ، فغرقت كتبه ، وكان خلف داره مدبغة ففاضت بالغرق الى بيته فتلفت كتبه بهذا السبب زيادة على تلف الغرق ، فأرسل من أحضرها له ـ وكان قد أفنى عمره فيها ـ فأشاروا عليه أن يطيبها بالبخور ويصلح ماأمكنه فيها ، فبخرها باللاذن ولازمها بالبخور الى أن بخرها بأكثر من ثلاثين رطلا لاذنا ، فطلع ذلك الى رأسه وعينيه فأحدث له العمى ، توفي سنة تسع وستين وخمسمائة ٠

(أبو العباس أحمد بن محمد بن عطاء) أحد أئمة الصوفية ، حدث عن يوسف بن موسى القطان والمفضل وغيرهما كانت له ختمة يتلوها سبع عشرة سنة يتدبرها ، مات ولم يكملها ، أحضر في أمر الحلاج ـ وقد كتب الحلاج اعتقاده ـ فسأله الوزير حامد بن العباس عما قاله الحلاج ، فقال : من لايقول بهذا فهو بلا اعتقاد ، فقال له الوزير : ويحك تصوب مثل هذا الاعتقاد ؟ فقال : مالك ولهذا ؟ عليك بما نصبت له من أخذ أموال الناس وظلمهم ، مالك والكلام مع هؤلاء السادة ، فأمر الوزير بضرب شدقيه ونزع خفيه وأن يضرب بهما رأسه ، فما زال يفعل به كذلك حتى سال الدم من منخريه ، وأمر بسجنه ، فقيل له أيها الوزير ان العامة تتشوش بهذا فحمل الى منزله ، قال ابن عطاء اللهم اقتله أخبث قتلة واقطع يديه ورجليه فمات ابن عطاء بعد سبعة أيام سنة تسع وثلاثمائة ، ثم مات الوزير مثل ما دعا عليه ابن عطاء مقطوع اليدين والرجلين مقتولا ٠

(المقري محمد بن أحمد بن أيوب بن الصلت) أبو الحسين المقري المعروف بابن شنبود ، روى عن أبي مسلم وبشر بن موسى وخلف ، وكان يختار حروفا أنكرها أهل زمانه عليه ، وصنف أبو بكر بن الانباري محمد بن القاسم الحافظ ـ الذي

كان يحفظ في كل جمعة عشرة آلاف ورقة ــ كتابا في الرد عليه ، كان أبو بكر المذكور من أعلم الناس بالنحو والأدب ، وكان لا يأكل الا البقالي ، ولا يشرب ماء الا قريب العصر مراعاة لحفظه ، عقد لابن شنبود مجلس في دار الوزير أبي علي محمد بن مقلة، وادعى عليه بالحروف التي كان يقرؤها فأقر بالبعض ، فضربه الوزير أبو علي بالدرة على رأسه واستتيب ، فدعا على ابن مقلة فلم يفلح بعد ذلك ، توفي سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة .

(الوزير ابن مقلة) أحد المشاهير الكتاب محمد بن علي بن الحسين بن عبد الله بن علي المعروف بابن مقلة الوزير ، كان له بستان كبير جدا ، وعليه ــ جمعيه ــ شبكة من أبريسم ، وفيه من الطيور والقماري والهزار والطواويس شيء كثير ، وفيه من الغزلان وبقر الوحش وحميره والنعام والايل شيء كثير أيضا ، وولي الوزارة لثلاثة من الخلفاء المقتدر والقاهر والراضي ، وبنى له دارا فجمع عند بنائها خلقا كثيرا من المنجمين ، فاتفقوا على أن تبنى في الوقت الفلاني ، فأسس جدرانها بين العشاءين كما أشاروا فما لبث بعد استتمامها الا يسيرا ، وقد أنشد فيه بعض الشعراء :

قل لابن مقلة لاتكن عجلا ... واصبر فانك في أضغاث أحلام
تبنى بانقاض دور الناس مجتهدا ... دارا ستنقض أيضا بعد أيام
مازلت تختار سعدا تطلبن لها ... فلم يوف بها من نحس بهرام
ان القران وبطليموس ماجتمعا ... في حال نقض ولا في حال ابرام

ثم عزل عن وزارته ، وأحرقت داره ، وانقلعت أشجاره ، وقطعت يده ، ثم قطع لسانه ، وأغرم ألف ألف دينار ، ثم سجن وحده مع الكبر والضعف والضرورة ، وكان يستقي الماء بنفسه من بئر عميق يدلى الحبل بيده اليسرى ويمسكه بفيه ، وقاسى جهدا جهيدا حتى مات في الحبس سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة ومن نظمه وهو يبكي على يده :

اذا مامات بعضك فابك بعضا ... فان البعض من بعض قريب

قال : والنكبات كثيرة لاتحصى ، وفيما ذكرناه مقنع ، فان الكتاب كله انموذج ومسودة في بابه والله تعالى أعلم ، انتهى ماقصدنا نقله من كتاب الفلاكة للامام الحافظ الشيخ شهاب الدين . وقد ذكر عددا كثيرا من الأئمة المفلوكين الذين أصيبوا بأنواع المصائب والبلايا ، وهذا الكتاب فريد في بابه .

ولصاحب الاغاني أبي الفرج الاصفهاني كتاب سماه (مقاتل الطالبيين) ذكر فيه مالاقاه أهل البيت النبوي من المصائب والنوائب من القتل والحبس وغير ذلك من الخطوب التي جرت عليهم ، ويكفيك منها الطامة الكبرى ، والمصيبة التي لم تزل عين الدين المحمدي منها عبرى ، وهي مافعلوه بريحانة الرسول وقرة عين فاطمة البتول وهو من أكبر سادات الامة ، وأعز أبناء بني الرحمة ، فبأي وجه يلاقي من تجرأ على هذه الجريمة جد أولئك الأئمة •

ويل لمن شفعاؤه خصماؤه   والصور في نشر الخلائق ينفخ
لابد أن ترد القيامة فاطم   وقميصها بدم الحسين ملطخ

فيقال للنبهاني : هل كان ماأصاب أولئك الاكابر الاماجد لفساد في الدين ؟ أم لخلل في العقائد ؟! كلا بل ذلك فضل من الله تعالى عليهم ، واعلاء لشأنهم ، ابتلوا فصبروا ، والدرجات الرفيعة لاتنال الا بالثبات على الأهواء ، وهيهات أن تحصل راحة بلا تعب وهيهات ، وفي الخبر : (حفت الجنة بالمكاره والنار بالشهوات) والعيش الرغد والاتكاء على الارائك واقبال الدنيا انما يكون لمثل النبهاني وأضرابه لا لمثل شيخ الاسلام وأحزابه •

في النفس أشياء لاأسطيع أذكرها   لو قلتها قامت الدنيا على ساق

(والمقصود) أن ماأصاب الشيخ ابن تيمية وأصحابه هو مما يزيد ذوي الألباب بصيرة على علو قدره ، ورفعة ذكره ، ولكن الجهول الحسود لما نظر بعين السخط رأى الحسنات سيئات ، والمدائح قبائح •

بليت به جهولا جاهليا   ثقيل الروح مذموما بغيضا
ولم يك أكثر الطلاب علما   ولكن كان أسرعهم نهوضا

وستقف ان شاء الله تعالى على حاله ، ومبلغ علمه ، وسيكون لنا الملم على هذه المسألة مرة بعد أخرى كلما عاد اليها الخصم ، فهناك ترى ماتنشرح له الصدور •

(الامر السابع) من تلك الامور : أن من علم حال النبهاني ــ وما هو عليه من المعرفة وما يعتقده من العقائد ويراه من الآراء ــ لم يلتفت الى ماذكره في كتابه الذي سماه (شواهد الحق) ولا غيره من هذيانه الصريح ، فان الرجل جاهل كما ستعلمه من رد كتابه هذا ، سقيم الفهم بأخبار العدول الثقاة ورواية الصادقين من الرواة ، وما نشره من هذيانه أعدل شاهد على ذلك ، وأصح دليل على ماهنالك ، فضلا عما ذكره فيه جهابذة العصر الذين رأوه وخالطوه ، وعرفوا حاله وشاهدوا أعماله ، ومع ذلك

نذكر كلام بعضهم فيه ليحمد الله من عوفي من شقائه وعضال دائه .

(قال الفاضل العلامة) السيد بدر الدين الحلبي ــ متع الله المسلمين بحياته ــ في كتابه (الارشاد والتعليم) ــ عند ذكره مقالات الامم ــ ما نصه : ــ

ومن شنيع مقالاتهم في الاسلام قولهم : ان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لايخلو منه زمان ولا مكان ، يريدون بذلك أنه ما من زمان الا وهو فيه موجود ، ولا من مكان الا وهو فيه موجود ــ قال حفظه الله ــ وهذه المقالة الشنيعة لم نرها لأحد من المتكلمين المتقدمين منهم والمتأخرين ، ولا رأيناها في كتب العقائد ، ولا كنا نظن أحدا يقول هذه المقالة الشنيعة ، وانما ذكرها الشيخ يوسف بن اسماعيل النبهاني البيروتي ، صاحب الكتب الكثيرة في الادعية والصلوات في منظومة له سماها طيبة الغراء ناقلا لها عن البرهان الحلبي ، قال : ذكر يوسف النبهاني أنه اطلع على رسالة ألفها البرهان الحلبي في هذا الموضوع فطالعها وانتفع بها .

قال : وهذه مقالة شنيعة في الغلو في النبي صلى الله عليه وسلم ، وانزال له فوق منزلته التي أنزله الله بها ، فان هذا اشراك للنبي صلى الله عليه وسلم في أخص أوصاف الباري جل شأنه (١) ومهما يأوي الناس لاصلاح هذه المقالة الشنيعة فلن يجدوا الى الخروج عن قبيحها سبيلا ، والامر لله ، ولا حول ولا قوة الا بالله .

وياليت شعري أي دليل قام عند هذا الذي قال هذه المقالة حتى قال بها ، هل تلا في ذلك آية منزلة أو حديثا صحيحا ؟ ان قال ذلك فقد كذب وشهد على نفسه بالكذب ، أو ساق الدليل الذي أورده المتكلمون على أن الباري جل شأنه لايحويه زمان ولا مكان في النبي صلى الله عليه وسلم فحكم له بما حكم به للباري جل وعلا فهو عين الشرك الصريح ، ومثل هذه العقائد الفاسدة الباطلة الكاذبة يلقيها أهل الغفلة من المنتمين للعلم في آذان العامة ، فتصادف منهم قبولا وتجتمع عليها قلوبهم حتى يصير من المتعذر نزعها من أذهانهم ، وربما كفروا من أنكرها عليهم ، ورأوا أن انكار ذلك نوع من الالحاد في الدين ، واستخفاف بصاحب الشريعة المطهرة صلى الله عليه وسلم .

---

(١) الاشارة فى هذا ترجع الى ماتقدم من قوله : لايخلو منه زمان ولا مكان .. الخ ، وما ذكر من أن ذلك أخص أوصاف الباري قد يفهم منه أن الباري موجود فى كل مكان بذاته ، وهو سبحانه ليس كذلك ، بل هو فوق عرشه بائن من خلقه كما هو معتقد أهل السنة والجماعة .

وقال أيده الله تعالى : ومثل هذه العقيدة في الشر أو أقل منها فسادا دعوى بعض المغفلين ممن ينتمون الى العلم أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يعلم جميع ما كان وما يكون ، ولأهل هذه العقيدة دلائل على هذه المقالة الشنيعة كلها مبنية على مقدمات فاسدة أوقعها في قلوبهم المبالغة في اطراء النبي صلى الله عليه وسلم المنهى عنه بقوله : (لاتطروني كما أطرت النصارى عيسى) وأحاديث موضوعة كاذبة وقعت اليهم فاعتقدوا صحتها ، وهي مفتراة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويكفي لمن ينكر هذه العقيدة أنه لم يقم دليل من كتاب أو سنة صحيحة عليها ، مع الجزم باتفاق الكل على أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يعرض له الامر فيتوقف فيه الى أن يأتيه الوحي من الله به ، وحديث الافك على الصديقة الطاهرة شاهد ، ومن ادعى أنه أفيضت عليه بعد ذلك العيون فليأت بآية أو حديث ، ولا طريق لاثبات مثل هذا الا الخبر الصادق ، وهذه العقيدة هي الفرقان بين أهل السنة وبين المبتدعة عند أكثر مسلمي الهند ، فمن كان يعتقد أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يعلم جميع ما كان وما يكون فهو من أهل السنة والخير ، وان لم يكن يعتقد ذلك فهو من أهل البدعة والفساد ، ولعلمائهم في ذلك رسائل لاتكاد تحصى ، شحنوها بالدلائل الفاسدة على هذه المقالة الشنيعة والرد على مخالفيهم فيها .

قال : وقد سئلت عن هذه المسألة وأنا بالهند سنة تسع عشر وثلاثمائة بعد الالف ، وكان قصد السائل تعرف عقيدتي بما أعرف من الحق الذي لامرية فيه ، وهو أن النبي صلى الله عليه وسلم أطلعه الله تعالى على كثير من المغيبات لمصالح يقتضيها التشريع ، ولم يطلعه على كل ما كان ويكون ، وبينت له أن هذا لايحط من علىّ مرتبته عليه السلام ، بل من الادب مع الله ومعه أن لانصفه بما لم يصف نفسه به ولا أن نثبت له مالم يخبر هو بثبوته لنفسه .

فانكر علينا ذلك ، وتحركت نفسه للمحاجة ، فقلنا له : أترى أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يعلم عدد الشعرات التي في لحيتك ؟ فقال: لا ، فقلنا :أفترى أن لحيتك ليست من المكونات ؟ فانقطع في ميدان المناظرة قبل أن ينقل فيه قدما ، الا أن هذا الشيخ الهندي مازال بعد أن فارقني يذكر من فساد عقيدتي بين العامة ، وتطاولي على الدين ، واحتقاري للشرع ما وسوس له به شيطانه ، وسولته له نفسه الخبيثة ، حتى ألهب قلوبهم حقدا علي وغيظا مني ، وتحركت نفوسهم الشريرة لايذائي على حق

أذعته فيهم ونشرته بينهم وبدعة أنكرتها عليهم ، وبينت لهم فسادها وأنها ليست من الدين •

وذكر قصة جرت له بسبب ذلك في أحد مساجد الجامعة في الهند ، ثم قال : هكذا بذر علماء السوء بذور الخرافات والبدع والعقائد الفاسدة في قلوب العامة ، فتمكنت في قلوبهم ، حتى تعذر على أحذق الناس بأمراض القلوب علاجها ، واختيار دواء نافع لها ، وليس هذا محل بسط الكلام على هذا الموضوع ، وموعدنا ان شاء الله القسم الثاني من هذا الكتاب وهو قسم الارشاد ، فانه به أمس وأشد ارتباطا انتهى كلامه ، وقد شفى به صدور المؤمنين جزاه الله خير الجزاء ، ومقصودنا منه مايتعلق بمقالة النبهاني وخرافته ، وسقنا الكلام كله حرصا على مافيه من الفوائد •

ثم ان النبهاني هذا أخذ مقالته هذه من أهل الاتحاد والحلول ، قال عبد الكريم الجيلي ان(هو) من قوله : (قل هو الله أحد) راجع الى ضمير الخطاب المستتر في قل المقدر بِأنْتَ مرادا به الانسان الكامل وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا ضرب من الهذيان تفرع على قول محي الدين : سبحان من أظهر الاشياء وهو عينها ، وقال الجيلي أيضا ان النصارى لم يكفروا بأصل الحلول وانما كفروا بالحصر الذي تضمنه كلامهم : إن الله هو المسيح لا غيره من الاشياء ، ولو عمموا لم يكفروا ، وهذا الكلام مما تقشعر منه جلود المؤمنين ، فقول النبهاني : أن النبي صلى الله عليه وسلم لايخلو منه زمان ولا مكان ـ ناقلا عن البرهان الحلبي ـ هو من شعب ذلك الوادي ، وللقوم غلو في هذا المقام يأباه المتشرعون ، ومنه قولهم : أن الشرائع المتقدمة على ظهوره صلى الله عليه وسلم شريعته ، والانبياء من قبله نوابه في التبليغ ، ووقوع النسخ في هاتيك الشرائع كوقوعه في شريعته التي ظهر بها ، وعلى هذا قول قائلهم :

كل النبيين والرسل الكرام أتوا ... نيابة عنه في تبليغ دعواه
فهو الرسول الى كل الخلائق في ... كل الدهور ونابت عنه أفواه

وقال ابن الفارض على لسان الحقيقة المحمدية :

واني وان كنت ابن آدم صورة ... فلي فيه معنى شاهد بأبوتي

ومن ذلك دعواهم لرؤياه صلى الله عليه وسلم بعد وفاته ، فقد ادعاها غير واحد منهم ، وادعوا أيضا الاخذ منه يقظة ، قال الشيخ سراج الدين بن الملقن في طبقات الاولياء في ترجمة الشيخ خليفة بن موسى النهر ملكي : كان كثير الرؤية

لرسول الله صلى الله عليه وسلم يقظة ومناما ، فكان يقال أن أكثر أفعاله يتلقاه منه صلى الله عليه وسلم يقظة ومناما ، ورآه في ليلة واحدة سبع عشرة مرة ، قال له في احداهن : ياخليفة لاتضجر مني فكثير من الاولياء مات بحسرة رؤيتي ، وقال الشيخ تاج الدين بن عطاء الله في لطائف المنن : قال رجل للشيخ أبي العباس المرسي ياسيدي صافحني بكفك هذه فانك لقيت رجالا وبلادا : فقال : والله ماصافحت بكفي هذه الا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : وقال الشيخ لو حجب عني رسول الله صلى الله عليه وسلم طرفة عين ما عددت نفسي من المسلمين ، ومثل هذه النقول كثير في كتب القوم جدا ، وفي تنوير الحلك لجلال الدين السيوطي الذي رد به على منكري رؤيته صلى الله عليه وسلم بعد وفاته في اليقظة طرف من ذلك ، وكل ماأتى به لادليل فيه ، وأطال الكلام في ذلك ثم قال : وقد ذكر عن السلف والخلف وهلم جرا ممن كانوا رأوه في اليوم فرأوه بعد ذلك في اليقظة وسألوه عن أشياء كانوا منها متشوشين فأخبرهم بتفريجها ، ونص لهم على الوجوه التي منها فرجها ، فجاء الامر كذلك بلا زيادة ولا نقص ، انتهى المراد منه • وليت شعري لم كان عثمان يطلب شاهدين من كل من أتاه بآية يشهدان على أنها من القرآن ، وهلا رأى النبي صلى الله عليه وسلم يقظة وساله عن تلك الآية وهو وسائر الصحابة أحق ممن ذكر بهذه الفضيلة ، وقد وقع بينهم ما وقع من الاختلاف لم يره أحد منهم ويدفع إشكاله ؟! والسيوطي رحمه الله كان فيما ألفه من الكتب حاطب ليل في كل كتاب له مذهب ومشرب ، وما أتى به في كتابه هذا لايعول عليه كما سيرد عليك مردودا •

ثم ان رؤيته صلى الله عليه وسلم عند القائلين بها يقظة أكثر ماتقع بالقلب ثم يترقى الحال الى أن يرى بالبصر على مازعموا ، واختلفوا في حقيقة المرئى : فقال بعضهم المرئى ذات المصطفى بجسمه وروحه ، وأكثر أرباب الاحوال على أنه مثاله ، وبه صرح الغزالي فقال : ليس المراد أنه يرى جسمه وبدنه ، بل مثالا له ، صار ذلك المثال آلة يتأدى بها المعنى الذي في نفسه ، قال : والآلة تارة تكون حقيقة وتارة تكون خيالية ، والنفس غير المثال المتخيل ، فما رآه من الشكل ليس هو روح المصطفى صلى الله عليه وسلم ولا شخصه ، بل هو مثال له على التحقيق ، وفصل القاضي أبو بكر بن العربي فقال : رؤية النبي صلى الله عليه وسلم بصفته المعلومة ادراك على الحقيقة ، ورؤيته على غير صفته ادراك للمثال ، واستحسنه السيوطي ، وقال ــ بعد نقل أحاديث وآثار ــ مانصه : فحصل من مجموع هذا الكلام ــ النقول والاحاديث

ـ أن النبي صلى الله عليه وسلم حي بجسده وروحه ، وأنه يتصرف ويسير حيث شاء في أقطار الارض وفي الملكوت ، وهو بهيئته التي كان عليها قبل وفاته لم يتبدل منه شيء ، وأنه مغيب عن الابصار كما غيبت الملائكة ـ مع كونهم أحياء بأجسادهم ـ فاذا أراد الله تعالى رفع الحجاب عمن أراد اكرامه برؤيته رآه على هيئته التي هو عليها ، لا مانع من ذلك ، ولا داعي الى التخصيص برؤية المثال ، انتهى ، وذهب الى نحو هذا في سائر الانبياء عليهم السلام ، فقال : انهم أحياء ردت اليهم أرواحهم بعد ماقبضوا ، وأذن لهم في الخروج من قبورهم ، والتصرف في الملكوت العلوي والسفلي وأتى بأخبار كثيرة تشهد له وكلها لاأصل لها ، ولا متصرف في الكون الا الله تعالى ، كما سنبرهن على ذلك ان شاء الله ، ويكفي في ابطال هذا القول قوله تعالى : (اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى)(١) فاذا أمسك التي قضى عليها فمن أين لها التمكن من التصرف ؟ ومن أين لأحد أن يراها ؟ .

وأعجب من ذلك كله : مانقله الشيخ صفي الدين ابن أبي المنصور ، والشيخ عبد الغفار ، عن الشيخ أبي العباس الطنجي ، من أنه رأى السماء والأرض والعرش والكرسي مملوءة من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وزعم من زعم أن السؤال عن كيفية رؤية المتعددين له عليه الصلاة والسلام في زمان واحد في أقطار متباعدة ينحل به ، ولا يحتاج معه الى ماأشار اليه بعضهم ، وقد سئل عن ذلك فأنشد :

كالشمس في كبد السماء وضوءها ... يغشى البلاد مشارقا ومغاربا

اللهم انا نعوذ بك من أن نقول مالا ترضاه ، وأن تعصمنا من الزيغ والزلل والاشتباه

والمقصود أن قول النبهاني ـ الذي سبق بيانه في كلام العلامة السيد بدر الدين الحلبي ـ وما وافقه من أقوال الذين ذكرناهم كلها من واد واحد ، وأنها متفرعة على القول بالحلول والاتحاد ، غير أن كلامهم ليس صريحا في ذلك ، ولكن الامر كما قيل : رب كناية أبلغ من تصريح ، فعلى المسلم التجنب عن مثل هذه الأقاويل ، والأخذ بالكتاب والسنة ، وبما كان عليه سلف الامة .

فخير أمور الدين ما كان سنة ... وشر الامور المحدثات البدائع

---

(١) الزمر : ٤٢

هذا حال النبهاني في عقائده ، وجهله في العلوم النقلية والعقلية أشهر من أن ينبه عليه ، كما ستعلمه ان شاء الله تعالى •

لكن بقي علينا بيان حاله ، وما هو عليه الى اليوم من أفعاله وأعماله ، وحيث أني لم أقف على حقيقة أمره ـ وان كان مانشره من الكتب تطلعنا على حلوه ومره ـ سألت عنه بعض الافاضل من الاصحاب ، ممن رآه واجتمع به ، وعرف ماعنده من الفصول والابواب ، فكتب كلاما طويلا فيه ، وعرفني بظاهره وخافيه ، فمن ذلك قوله : ان النبهاني قد قضى شطرا من عمره في المحاكم النظامية ، وتسمى أيضا بالمحاكم القانونية ، ثم ذكر كلاما طويلا في بيان حال تلك القوانين ، وما فيها من المخالفة لقواعد الدين ، ثم قال : ان النبهاني تولى رياسة الجزاء في بيت الله المقدس عددا كثيرا من الاعوام ، وبين حقيقة هذا المنصب وما يتعاطاه الرئيس من الاحكام ، قال : ثم تحول الى رياسة محكمة البداية في بيروت ، وبين مايرى في هذا المحل من الوظائف والمواد ، ثم قال : وان أوهن البيوت لبيت العنكبوت ، قلت : ان كان صادقا عليه ذلك المقال يكون تائها في أودية الجهل والضلال ، فكيف يدعي الايمان فضلا عن دعواه المحبة لسيد ولد عدنان ،وهو معرض عن هديه وسنته ، ناء عن العمل بشريعته ، فهلا قرأ قوله تعالى : (وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ)[1] (وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ)[1] (وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)[1] وسنذكر ان شاء الله تعالى فيما سيأتي تفصيل هذه المسألة وبيان حكمها بما ينشرح لها الخاطر ، ثم ذكر شيئا كثيرا من بيان أحواله مما يطول ذكره • وظن يوسف النبهاني المسكين أنه قد خلا له الجو فصفر ، وطاول العلماء الاعلام بما ذكر في كتابه الذي وسمه بدلائل الحق ماذكر ، وصال وجال وقال ماقال •

واذا ما خلا الجبان بأرض طلب الطعن وحده والنزالا

وتصدى مثله لما تصدى له دليل على جهله ، ومزيد غباوته وخفة عقله ، بل هو كما قيل :

لو أن خفة عقله في رجله سبق الغزال ولم يفته الارنب

---

(1) المائدة : ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٧

ولولا الترفع عن مكافأة أمثاله ، والأنفة من مخاطبة أشكاله ، لعرفناه قدره ، وأوضحنا له شأنه وأمره ، ولكن مثله لايخاطب ولا يعاتب ، ولا يؤاخذ بالهذيان ولا يعاقب ، وان الظفر بمثله شر من الهزيمة ، والتلطخ بذكره قريب من محاورة بهيمة •

اذا ماأتيت الامر من غير بابه ضللت وان تقصد الى الباب تهتد

(والمقصود) من ذكر هذه النبذة من أحوال النبهاني أن الذي خاصم أهل الحق كلهم على هذا المنوال ، وقد تشابهوا كأسنان الحمار في الاتفاق على الضلال ، وباطل الاقوال ، فلا يغتر بما زخرفوه وزوروه فانهم ليسوا من رجال العلم والكمال والله أعلم بحقيقة الحال •

(الامر الثامن من تلك الامور) لا بد للمتناظرين من مرجع يكون مهيمنا على الحق الذي يدعيه كل منهما ، والا فالمناظرة لاتتم ، قال الامام العلامة الشيخ عبد العزيز : كل متناظرين على غير أصل ــ يكون بينهما يرجعان اليه اذا اختلفا في شيء من الفروع ــ فهما كالسائر على غير طريق ، وهو لايعرف المحجة فيتبعها ، ولا يعرف الموضع الذي يريده فيقصده ، وهو لايدري من أين جاء فيرجع ، فيطلب الطريق وهو على ضلال ، قال : ولكنا نؤصل بيننا أصلا ، فاذا اختلفنا في شيء من الفروع رددناه الى الاصل ، فان وجدناه فيه والا رمينا به ولم نلتفت اليه ، ثم قال : الاصل بيني وبين خصمي ماأمرنا الله عز وجل واختاره لنا ، وعلمناه وأدبنا به في التنازع والاختلاف ولم يكلنا الى غيره ، ولا الى أنفسنا واختيارنا فنعجز ، ثم بينه بقوله ، قال الله عز وجل : (يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فإِنْ تَنَازَعْتُم في شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلى اللهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ، ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً)[1] فهذا تعليم من الله وتأديبه واختياره لعباده المؤمنين ماأصله المتنازعون بينهم ، قال : وقد تنازعت أنا وبشر وبيننا كتاب الله وسنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم كما أمر الله عز وجل ، فاذا اختلفنا في شيء من الفروع رددناه الى كتاب الله عز وجل ، فان وجدناه فيه والا فالى سنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، فان وجدناه فيها والا ضربناه في الحائط ولم نلتفت اليه ، الى آخر ما قاله في حضرة الخليفة العباسي عند مناظرته مع بشر •

---

(١) النساء : ٥٩

وقال الامام العلامة الشيخ عبد اللطيف في موضع من كتبه : أعلم أن مستند المسلمين في العقائد ومرجعهم في أصول الدين وفروعه الى كتاب الله تعالى ، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، واجماع من سلف من علماء الأمة ، والتقليد في باب أصول الدين ومعنى شهادة أن لا اله الا الله وشهادة أن محمداً رسول الله لايفيد ولا يجدي عندهم ، وان كان المقلَّد ـ بفتح اللام مع التشديد ـ فاضلا عالما في نفسه الى آخر ماقال •

(وقال في موضع آخر) ان الاصل المعتمد في هذا الباب وغيره من أصول الدين وفروعه : هو مادل عليه الكتاب والسنة ، واجماع علماء الأمة ، هذه هي الادلة الشرعية بالاجماع ، والقياس مختلف فيه ، والجمهور على قبوله بشروط ، وليس المعوّل على كلام الآحاد من أهل العلم والدين وان علت درجتهم وارتفعت رتبتهم ، ولا تصلح المعارضة بقول فلان وفلان من أهل العلم والدين ، ولا ينتقض الدليل بمخالفة أحد كائنا من كان ، انتهى •

(وقال في موضع آخر) ان العمدة عند المسلمين في مسائل أصول الدين وفروعه : على كتاب الله وسنة رسوله واجماع أهل العلم ، ولا تذكر أقوال أهل العلم الا تبعا وبيانا ، لا أنها المقصودة بالذات والاصالة ، ثم المسائل التي لايلزم بها المجتهد غيره هي ما كان للاجتهاد فيه مساغ ، ولم تخالف كتابا ولا سنة صريحة ولا اجماعا ، وما خالف ذلك فهو مردود على قائله ، ويلزمه أهل العلم بصريح الكتاب والسنة واجماع الامة ، قال امام الهجرة مالك بن أنس رحمه الله تعالى : ما منا الا راد ومردود عليه الا صاحب هذا القبر يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأحسن منه قول الله تعالى : (فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ) الآية وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : (لا الفين أحدكم متكئا على أريكته يأتيه الأمر من أمري فيقول بيننا وبينكم كتاب الله ألا واني أوتيت الكتاب ومثله معه) فاذا كان رد السنة محرما لايجوز ـ ولو ردها ظانا أن القرآن لايدل عليها ـ فكيف رد الكتاب والسنة وعدم الالزام بهما لخلاف أحد من الناس كائنا من كان ، ومسائل معرفة الله ووجوب توحيده ، واسلام الوجه له وحده لا شريك له ، ومسائل ربوبيته، واختصاصه بالخلق والايجاد والتدبير ، ونحو ذلك مما يعلم بالضرورة من دين الاسلام ، كصمديته تعالى ، ونفى الكفو والصاحبة والولد ، وغناه بذاته ، ومباينته

لمخلوقاته ، وعموم قدرته ، واحاطة سمعه وبصره ، وعلمه بجميع المعلومات والمبصرات والمسموعات ونحو ذلك من أصول الدين ، فكل الرسل متفقة عليه ، وجميع الكتب داعية اليه ، والعقول الصحيحة حاكمة به ، فكل اجتهاد خالفه فباطل مردود ، لايسوغ العمل به في شريعة من الشرائع ولا عند عالم من العلماء ، ولا فقيه من الفقهاء .

ثم قال : قال شمس الدين في هدايته : بل جميع النبوات من أولها الى آخرها متفقة على أصول : ـــ

(أحدها) أن الله تعالى قديم واحد لا شريك له في ملكه ، ولا ند ولا ضد ، ولا وزير ولا مشير ولا ظهير ، ولا شافع الا من بعد اذنه .

(الثاني) أنه لا والد له ولا ولد ، ولا كفو ولا نسب بوجه من الوجوه ، ولا زوجة .

(الثالث) أنه غني بذاته ، فلا يأكل ولا يشرب ، ولا يحتاج الى شيء مما يحتاج اليه خلقه بوجه من الوجوه .

(الرابع) أنه لايتغير ، ولا تعرض له الآفات ، من الهرم والمرض ، والسنة والنوم ، والنسيان ، والندم والخوف ، والهم والحزن ، ونحو ذلك .

(الخامس) أنه لا يماثله شيء من مخلوقاته ، بل ليس كمثله شيء ، لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله .

(السادس) انه لايحل بشيء من مخلوقاته ولا يحل في ذاته شيء منها ، بل هو بائن عن خلقه بذاته والخلق بائنون عنه .

(السابع) أنه أعظم من كل شيء ، وأكبر من كل شيء ، وفوق كل شيء ، وعال على كل شيء ، وليس فوقه شيء البتة .

(الثامن) انه قادر على كل شيء ، ولا يعجزه شيء يريده ، بل هو فعال لما يريد .

(التاسع) انه عالم بكل شيء ، يعلم السر وأخفى ، ويعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف كان يكون ، وما تسقط من ورقة الا يعلمها ، ولا حبة في ظلمات الارض ، ولا رطب ولا يابس ، ولا متحرك ولا ساكن الا وهو يعلمه على حقيقته .

(العاشر) أنه سميع بصير ، يسمع ضجيج الأصوات ، باختلاف اللغات ، على تفنن الحاجات ، ويرى دبيب النملة السوداء ، على الصخرة الصماء ، في الليلة الظلماء قد أحاط سمعه بجميع المسموعات ، وبصره بجميع المبصرات ، وعلمه بجميع المعلومات وقدرته بجميع المقدورات ، ونفذت مشيئته في جميع البريات ، وعمت رحمته جميع المخلوقات ، وسع كرسيه الارض والسموات .

(الحادي عشر) انه الشاهد الذي لايغيب ، ولا يستخلف أحدا على ملكه ، ولا يحتاج الى من يرفع اليه حوائج عباده ، أو يعاونه أو يستعطفه عليهم ويسترحمه لهم .

(الثاني عشر) انه الأبدي الباقي ، الذي لايضمحل ولا يتلاشى ، ولا يعدم ولا يموت .

(الثالث عشر) انه المتكلم المكلم ، الآمر الناهي ، قائل الحق ، وهادي السبيل مرسل الرسل ، ومنزل الكتب ، قائم على كل نفس بما كسبت من الخير والشر ، ومجازي المحسن باحسانه والمسيء باساءته .

(الرابع عشر) انه الصادق في وعده وخبره ، فلا أصدق منه قيلا ، ولا أصدق منه حديثا ، وهو لايخلف الميعاد .

(الخامس عشر) انه تعالى صمدبجميع معاني الصمدية ، يستحيل عليه مايناقض صمديته .

(السادس عشر) انه قدوس سلام ، فهو المبرأ من كل عيب وآفة ونقص .

(السابع عشر) انه الكامل ، الذي له الكمال المطلق من جميع الوجوه .

(الثامن عشر) انه العدل ، الذي لايجور ولا يظلم ، ولا يخاف عباده منه ظلما ، وهذا مما اتفقت عليه جميع الكتب والرسل ، وهو من المحكم الذي لايجوز أن تأتي شريعة بخلافه ، ولا يخبر شيء بخلافه . فترك المثلثة عباد الصليب هذا كله ، وتمسكوا بالمتشابه من المعاني ، والمجمل من الالفاظ ، وأقوال من قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل ، وأصول المثلثة ومقالاتهم في رب العالمين تخالف هذا كله وتباينه أشد المخالفة والمباينة ، انتهى .

قال : فقف وتأمل هذه الاصول وأولها ــ وهو انه تعالى لا شريك له ولا نـد ولا شافع الا من بعد اذنه ــ ووازن بينه وبين قول الغلاة الى آخر ماقال .

فعلم من جميع مانقلناه أن الدلائل انما تكون من الكتاب والسنة والاجماع ، وعليه كتب الاصول ، وأما القياس : فقد اختلف فيه الاصوليون ، ومن أراد تفصيل الكلام في هذا المقام فعليه بتلك الكتب ، وقد جمع العلامة والفاضل الفهامة : الشيخ جمال الدين القاسمي الدمشقي — حفظه الله تعالى ومتع المسلمين بحياته — عدة رسائل في أصول الفقه ، ترشد الناظر اليها الى الحق ، وتغنيه عن كثير من المطولات، فهذه هي الدلائل لا ماذكره النبهاني من استدلاله على مطالبه بكلام السبكي أوولده، أو ابن حجر المكي واضرابهم ، وكما استدل على مشروعية الاستغاثة بغير الله — في الصحيفة الخامسة والستين ومائة — بما نقل عن أحمد الرفاعي أنه قال من كانت له حاجة فليستقبل عَبَّادان نحو قبري ، ويمشي سبع خطوات ويستغيث بي ، فان حاجته تقضى الخ • فمثل هؤلاء اذا قالوا أقوالا تخالف الكتاب والسنة يضرب بها على وجوه قائليها كل من كان ، ومن ابن حجر والسبكي والرفاعي ونحوهم حتى نعارض بكلامهم وحي الرسول صلى الله عليه وسلم ؟! ولا سيما في مثل هذه المطالب العالية ، فكلام النبهاني من أوله الى آخره على هذا المنهج لايستدل على مطلوبه الا بحديث موضوع ، أو قول أحد الغلاة ، أو قول من لايؤخذ بقوله ، على أنه مع بطلانه مقلد فيه تقليد الخوارج أبا امامة ، وهكذا شأن أسلافه ، فلا ينبغي أن يلتفت الى أقواله ، ولولا خوف التطويل ؛ لأتينا في هذا المقام بما يشفي العليل ، ويروي الغليل ، وحسبنا الله ونعم الوكيل •

وقد آن للقلم أن يجري في ميدان المناظرة ، ويثير غبار البحث على وجه الخصم الألد الذي ركب متن المكابرة ، وأسأل الله تعالى أن لايذيق فم قلمي صاب الافتراء ، وأن يعصمني من الخطأ والزلل في الاقوال والافعال ، فهو الملاذ والملجأ من كل بلاء ، وماتوفيقي إلا بالله ، عليه توكلت واليه أنيب •

(قال النبهاني) القسم الاول من المقدمة في الكلام على انقطاع الاجتهاد المطلق، الذي تدعيه — بالباطل — فرقة الوهابية ، ومن أعجبه شأنهم من جهلة المبتدعين شذاء المذاهب الاسلامية ، وجعلت ذلك رسالة سميتها (السهام الصائبة ، لأصحاب الدعاوي الكاذبة) ثم ذكر خطبة هذه الرسالة ، الى أن قال : فأقول ان دعوى الاجتهاد في هذا الزمان — منهم ومن غيرهم مطلقا مهما كان عالما هي — دعوى كاذبة، لايلتفت اليها ، ولا يعول عليها ، قال : وقد ذكرت في كتابي (حجة الله على العالمين)

الرد على من يدعي الاجتهاد في هذا الزمان ، ونقلت عبارات العلماء في ذلك ، كالامام الشعراني ، والامام بن حجر الهيتمي ، والامام المناوي وغيرهم ، بما يقنع كل ذي طبع سليم ، وفهم مستقيم ، الى أن قال : أما الاجتهاد فلا يدعيه اليوم الا مختل العقل والدين ، الا من طريق الولاية ، كما قاله الشيخ الاكبر محي الدين بن العربي ، ثم نقل مانقله المناوي في أول شرحه الكبير على الجامع الصغير عن ابن حجر المكي ، أنه قال : لما ادعى الجلال السيوطي الاجتهاد قام عليه معاصروه ورموه عن قوس واحدة ، وكتبوا له سؤالا فيه مسائل أطلق الاصحاب فيها وجهين ، وطلبوا منه ان كان عنده أدنى مراتب الاجتهاد وهو اجتهاد الفتوى فليتكلم على الراجح من تلك الاوجه ، وعلى الدليل على قواعد المجتهدين ، فرد السؤال من غير كتابة ، واعتذر بأن له أشغالا تمنعه من النظر في ذلك ، قال الشهاب : فتأمل صعوبة هذه المرتبة ، أعني اجتهاد الفتوى الذي هو أدنى مراتب الاجتهاد ، ويظهر لك أن مدعيها ــ فضلا عن مدعى الاجتهاد المطلق ــ في حيرة من أمره ، وفساد فكره ، وانه ممن ركب متن عمياء ، وخبط خبط عشواء ، قال : ومن تصور مرتبة الاجتهاد المطلق استحى من الله أن ينسبها لأحد من أهل هذه الازمنة ، بل قال ابن الصلاح ومن تبعه : انها انقطعت من نحو ثلاثمائة سنة ، ولابن الصلاح نحو الثلاثمائة سنة ، أي لأنه من أهل القرن السادس ، فتكون اليوم قد انقطعت من ستمائة سنة ، أي بالنظر الى عصر ابن حجر وهو من أهل القرن العاشر ، فيكون لها الآن منقطعة نحو ألف سنة ، اذ نحن في العام السابع عشر من القرن الرابع عشر ، وهو عام تأليفي لكتاب (حجة الله على العالمين) قال : بل نقل ابن الصلاح عن بعض الاصوليين أنه لم يوجد بعد عصر الشافعي مجتهد مستقل ، قال : ثم قال الشهاب ابن حجر : واذا كان بين الأئمة نزاع طويل في أن امام الحرمين وحجة الاسلام الغزالي ــ وناهيك بهما ــ هل هما من أصحاب الوجوه أو لا فما ظنك بغيرهما ؟ بل قال الأئمة في الروياني صاحب البحر انه لم يكن من أصحاب الوجوه ، هذا مع قوله لو ضاعت نصوص الشافعي لامليتها من صدري ، فاذا لم يتأهل الأكابر لمرتبة الاجتهاد المذهبي فكيف يسوغ لمن لم يفهم أكثر عباراتهم على وجهها أن يدعي ماهو أعلى من ذلك وهو الاجتهاد المطلق ؟ سبحانك هذا بهتان عظيم ، ثم نقل جملة من اقوال العلماء تشهد له بأن الاجتهاد قد انقطع الى آخر ماهذى به في هذا الباب ، مما يدل على جهله وافلاسه من كل علم ، وعلى دعواه الكاذبة ، والكلام على ماشتمل عليه كلامه من الباطل يطول غير أنا نتكلم على

مقاصده على سبيل الاجمال دون التفصيل ، فأقول : ـــ

الكلام على مقالته هذه من وجوه : ـــ

(الوجه الاول) ان نسبة دعوى الاجتهاد الى الوهابية ـــ وهم على زعمه من كان موافقا للشيخ محمد بن عبد الوهاب في الاعتقاد ـــ افتراء وكذب وبهتان عليهم ، فان أهل نجد كلهم على مذهب الامام أحمد بن حنبل رضي الله تعالى عنه ، مقلدون له في فروع الاحكام ، وموافقون له في أصول الدين وعقائده ، وقد صرح الشيخ محمد بذلك في كثير من رسائله ، وهو لم يدع الاجتهاد ، ولا دعا أحدا من الناس الى تقليده ، بل أمر بالمعروف ونهى عن المنكر ، فنسبة أهل نجد ومن يتبع السنن النبوية الى الشيخ وعدهم فرقة من فرق المسلمين غير فرقة أهل السنة : ظلم وعدوان وزور وبهتان ، وأعجب من ذلك أن النسبة الى الشيخ ينبغي أن تكون المحمدية ، وأما عبد الوهاب فهو أبو الشيخ محمد ، والموافقة في العقائد والامر بالمعروف والنهي عن المنكر انما كان للشيخ نفسه لا لأبيه ، فاطلاق الوهابية على تلامذة الشيخ وموافقيه اما جهل ظاهر ، وأما تنابز بالالقاب ، وكلا الوجهين لايخفي حاله •

(الوجه الثاني) الكلام على باب الاجتهاد مفروغ منه ، فقد أطنب الكلام عليه الاصوليون لاسيما في كتاب الموافقات ، ومع ذلك فلا بد من ذكر شيء مما يتعلق به على سبيل الاختصار ، قالوا : الاجتهاد استفراغ الوسع لتحصيل ظن الحكم من فقيه وهو المجتهد المطلق ، وشرطه تكليف ، لا عدالة الا لقبول قوله • وملكة : وهي العقل يدرك بها المطلوب مطلقا أو في تلك الواقعة لتجزي الاجتهاد وفقه النفس أي شدة الفهم بالطبع لمقاصد الكلام ، حتى يكون له قدرة على استخراج أحكام الفقه من أدلتها ، وقوة يقتدر بها على التصرف بالجمع والتفريق ، والترتيب والتصحيح والافساد ، فان ذلك ملاك صنعة الفقه ، ومن اتصف بالبلادة والعجز عن التصرف لم يكن من أهل الاجتهاد ، ويشترط أيضا توسط درجته عربية وأصولا ، وعلمه بآيات الاحكام وأحاديثها ، وخبرته بمواقع الاجماع ، والناسخ والمنسوخ ، والمتواتر والآحاد ، وأسباب النزول ، وحال الرواة والمتون ، ويكفيه تقليد الحفاظ وأئمة علم الكلام ، وندب له البحث عن المعارض ، ودون المجتهد المطلق مجتهدالمذهب بأن يخرج مايبديه على نصوص امامه ، ودونه مجتهد الفتيا بأن يتبحر ويتمكن من

الترجيح ، ثم ذكروا مسائل كثيرة في هذا البـــاب لاغرض لنا بنقلها ، ثم اختلف الاصوليون هل يجوز خلو الزمان عن مجتهد أم لا ، منهم من قال : يجوز ، بل يقع ، ومنهم من قال : لايجوز ، استدلالا بقوله صلى الله عليه وسلم : (لاتزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق حتى يأتي أمر الله) أي الساعة ، وسيأتي الكلام على هذه المسألة ان شاء الله .

هذا خلاصة ماذكره الاصوليون في هذا الباب ، وقد علمت منه أن شـــروط الاجتهاد التي اشترطوها ليس وجودها من المحال ، بل هي ممكنة الوجود في كـــل عصر ، وعلمت أيضا مما ذكرناه من كلامهم أنهم لم يقولوا بسد باب الاجتهاد ، ولا اقتضاه كلامهم ، ولا دل عليه كتاب ولا سنة ، وهما المرجع في التنازع ، قال الله تعالى: (فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ، ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً)[1] . فقول من قال بانقطاع الاجتهاد قول بلا دليل ، فلا يلتفت اليه ، بل يرمى به على وجه قائله ، ويرد على صاحبه .

(الوجه الثالث) قال الحافظ ابن القيم في رد هذا القول : ان المقلدين حكموا على الله قدرا وشرعا بالحكم الباطل جهارا المخالف لما أخبر به رسوله صلى الله عليه وسلم ، فأخلوا الارض من القائمين لله بحججه ، وقالوا لم يبق في الارض عالم منذ الاعصار المتقدمة ، فقالت طائفة : ليس لأحد أن يختار بعد أبي حنيفة ، وأبي يوسف وزفر بن الهذيل ، ومحمد بن الحسن ، والحسن ابن زياد اللؤلؤي ، وهذا قول كثير من الحنفية ، وقال بكر بن العلاء القشيري المالكي : ليس لأحد أن يختار بعد المائتين من الهجرة ، وقال آخرون ليس لأحد أن يختار بعد الاوزاعي ، وسفيان الثـــوري ، ووكيع بن الجراح ، وعبد الله بن المبارك ، وقالت طائفة : ليس لأحد أن يختار بعـــد الشافعي ، واختلف المقلدون من أتباعه فيمن يؤخذ بقوله من المنتسبين اليه ويكون له وجه يفتى ويحكم به من ليس كذلك وجعلوهم ثلاث مراتب : طائفة أصحاب وجوه كابن شريح والقفال وأبي حامد ، وطائفة أصحاب احتمالات لا أصحاب وجوه ، كأبي المعالي ، وطائفة ليسوا أصحاب وجوه ولا احتمالات ، كابن حامد وغيره ، واختلفوا

---

(١) النساء : ٥٩

متى انسد باب الاجتهاد على أقوال كثيرة ماأنزل الله بها من سلطان ، وعند هؤلاء أن الارض قد خلت من قائم لله بحججه ، ولم يبق فيها من يتكلم بالعلم ، ولم يحل لأحد بعد أن ينظر في كتاب الله تعالى ولا سنة رسوله صلى الله عليه وسلم لأخذ الاحكام منها ، ولا يقضي ولا يفتي بما فيها حتى يعرضه على قول مقلده ومتبوعه ، فان وافقه حكم به وأفتي به والا رده ولم يقبله ، وهذه أقوال كما ترى قد بلغت من الفساد والبطلان والتناقض والقول على الله بلا علم وابطال حججه والزهد في كتابه وسنة رسوله وتلقي الاحكام منهما مبلغها ، ويأبى اللهالا أن يتم نوره ، ويصدق قول رسوله انه لاتخلو الارض من قائم لله بحجته ، ولن تزال طائفة من أمته على محض الحق الذي بعثه به ، وانه لايزال يبعث على رأس كل مائة سنة لهذه الامة من يجدد لها دينها •

ويكفي في فساد هذه الاقوال أن يقال لاربابها : فاذا لم يكن لأحد أن يختار بعد من ذكرتم فمن أين وقع لكم اختيار تقليدهم دون غيرهم ؟ وكيف حرمتم على الرجل أن يختار مايؤديه اليه اجتهاده من القول الموافق لكتاب الله وسنة رسوله ، وأبحتم لأنفسكم اختيار قول من قلدتموه ، وأوجبتم على الامة تقليده ، وحرمتم تقليد من سواه ، ورجحتموه على تقليد من سواه ، فما الذي سوغ لكم هذا الاختيار الذي لا دليل عليه من كتاب ولا سنة ، ولا اجماع ولا قياس ، ولا قول صاحب ، وحرمتم اختيار ما عليه الدليل من الكتاب والسنة وأقوال الصحابة •

ويقال لكم : فاذا كان لايجوز الاختيار بعد المائتين عندك ولا عند غيرك فمن أين ساغ لك وأنت لم تولد الا بعد المائتين بنحو ستين سنة ــ أن تختار قول مالك دون من هو أفضل منه من الصحابة أجمعين ، أو من هو مثله من فقهاء الامصار ، أو ممن جاء بعده ، وموجب هذا القول : ان أشهب وابن الماجشون ومطرف ابن عبد الله واصبغ بن الفرج وسحنون بن سعيد وأحمد ابن المعدل ومن في طبقتهم من الفقهاء كان لهم أن يختاروا الى انسلاخ ذي الحجة من سنة مائتين ، فلما استهل هلال المحرم من سنة احدى ومائتين وغابت الشمس من تلك الليلة حرم عليهم في الوقت ــ بلا مهلة ــ ما كان مطلقا لهم من الاختيار •

ويقال للآخرين : أليس من المصائب وعجائبالدنيا تجويزكم الاختيار والاجتهاد

والقول في دين الله بالرأي والقياس لمن ذكرتم من أئمتكم ؟ ثم لاتجيزون الاختيار والاجتهاد لحفاظ الاسلام ، وأعلم الامة بكتاب الله وسنة رسوله وأقوال الصحابة وفتاواهم ، كأحمد بن حنبل ، والشافعي ، واسحق بن راهويه ، ومحمد بن اسمعيل البخاري ، وداود بن علي ، ونظرائهم ، على سعة علمهم بالسنن ، ووقوفهم على الصحيح منها والسقيم ، وتحرسهم في معرفة أقوال الصحابة والتابعين ، ودقة نظرهم ولطف استخراجهم للدلائل ، ومن قال منهم بالقياس فقياسه من أقرب القياس الى الصواب ، وأبعده عن الفساد ، وأقربه الى النصوص ، مع شدة ورعهم وما منحهم الله من محبة المؤمنين لهم ، وتعظيم المسلمين علماءهم وعامتهم لهم •

فان احتج كل فريق منهم بترجيح متبوعه بوجه من وجوه التراجيح — في تقدم زمان أو زهد أو ورع ، أو لقاء شيوخ وأئمة لم يلقهم من بعده ، أو كثرة اتباع لم يكونوا لغيره — أمكن الفريق الآخر أن يبدوا لمتبوعهم من الترجيح بذلك أو غيره ماهو مثل هذا أو فوقه ، وأمكن غير هؤلاء كلهم أن يقولوا لهم جميعا : نفوذ قولكم هذا — ان لم تأنفوا من التناقض — يوجب عليكم أن تتركوا قول متبوعكم لقول من هو أقدم منه من الصحابة والتابعين ، وأعلم وأورع وأزهد ، وأكثر اتباعا وأجل ، فأين أتباع ابن عباس وابن مسعود وزيد بن ثابت ومعاذ بن جبل ، بل اتباع عمر وعلي من أتباع الأئمة المتأخرين في الكثرة والجلالة ؟ وهذا أبو هريرة قال البخاري : حمل العلم عنه ثمانمائة رجل ما بين صاحب وتابع ، وهذا زيد بن ثابت من جملة أصحاب عبد الله ابن عباس : وأين في اتباع الأئمة مثل عطاء وطاوس ومجاهد وعكرمة وعبيد الله ابن عبد الله بن عتبة وجابر بن زيد ؟ وأين في اتباعهم مثل السعيدين والشعبي ومسروق وعلقمة والاسود وشريح ؟ وأين في اتباعهم مثل نافع وسالم والقاسم وعروة وخارجة بن زيد وسليمان ابن يسار وأبي بكر ابن عبد الرحمن ؟ فما الذي جعل الأئمة باتباعهم أسعد من هؤلاء باتباعهم ولكن أولئك واتباعهم على قدر عصرهم ، فعظمهم وجلالتهم وكبرهم منع المتأخرين من الاقتداء بهم ، وقالوا بلسان قالهم وحالهم هؤلاء كبار علينا لسنا من زبونهم ، كما صرحوا وشهدوا على أنفسهم ، فان أقدارهم تتقاصر عن تلقي العلم من القرآن والسنة ، وقالوا لسنا أهلا لذلك ، لا لقصور الكتاب والسنة ، ولكن لعجزنا نحن وقصورنا ، فاكتفينا بمن هو أعلم بهما منا •

فيقال لهم : فلم تنكرون على من اقتدى بهما ، وحكمهما ، وتحاكم اليهما ، وعرض أقوال العلماء عليهما فما وافقهما قبله وما خالفهما رده ؟ فهب أنكم لم تصلوا الى هذا العنقود فلم تنكرون على من وصل اليه وذاق حلاوته ؟ وكيف تحجرتم الواسع من فضل الله الذي ليس على قياس عقول العالمين ولا اقتراحاتهم ؟ وهم وان كانوا في عصركم ونشأوا معكم وبينكم وبينهم نسب قريب فالله يمن على من يشاء من عباده ، وقد أنكر الله سبحانه على من رد النبوة : بأن الله صرفها عن عظماء القرى وعن رؤسائها وأعطاها لمن ليس كذلك بقوله :(أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ ؟ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ، لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِياً ، وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ)[1] .

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : « مثل أمتي كالمطر ، لايدري أوله خير أم آخره » وقد أخبر الله سبحانه عن السابقين بأنهم (ثُلَّةٌ مِنَ الأَوَّلِيْنَ . وَقَلِيْلٌ مِنَ الآخِرِيْنَ)[2] وأخبر سبحانه أنه : (بَعَثَ فِي الأُمِّيِّيْنَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِيْنٍ)[3] . وقال: (وَآخَرِيْنَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيْزُ الْحَكِيْمُ)[3] ثم اخبر ان (ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيْمِ)[3] انتهى ماذكره الحافظ بن القيم في كتابه أعلام الموقعين .

وقد تبين منه أن ماذكره النبهاني ــ تبعا لاسلافه الزائغين ــ دليلا على جهله وافلاسه من فنون العلم فروعها وأصولها ، اذ لايقول بمقالته الا من هو أجهل من ابن بوم ممن هو على شاكلته .

(الوجه الرابع من الوجوه الدالة على فساد قول الغبي النبهاني) أن كل ماليس عليه اثارة من علم ليس بمقبول ، وأن الاجتهاد ليس بنبوة حتى يقال أنه ختم بفلان

---

(١) الزخرف : ٣٢ ـ (٢) الواقعة : ١٣ ، ١٤
(٣) الجمعة : ٢ ، ٣ ، ٤

وفلان ، أما النبوة فقد دل نص الكتاب والسنة على ختمها قال تعالى :

(ماكَانَ مُحَمَّدٌ أَبا أَحدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُوْلَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّيْنَ)[1]

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة مرفوعا الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : (مثلي ومثل الانبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله الا موضع لبنة من زاوية ، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ، ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة ؟ فأنا اللبنة ، وأنا خاتم النبيين) بل ان الدليل العقلي قام على ذلك أيضا ، وهو كمال الشريعة وشمولها للاحكام على اختلاف الاعصر والازمان ، وصيانتها من تطرق التغيير والتبديل بسبب اعجازها ، مع كونها أوسط الشرائع ، اذ لا غلو فيها ولا تقصير .

وهذا كله قد دل على أن النبوة ختمت بالخاتم صلى الله عليه وسلم ، أما الاجتهاد فلم نر على ختامه دليلا لا من كتاب الله ولا من سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، بل ولا من أقوال الصحابة ، بل رأينا مايدل على أن علم الشريعة وعلمائها باقون الى قيام الساعة ، روى كميل بن زياد النخعي ، قال : أخذ علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه بيدي فأخرجني ناحية الجبانة ، فلما أصحر جعل يتنفس ، ثم قال : ياكميل بن زياد القلوب أوعية ، فخيرها أوعاها ، احفظ عني ماأقول لك ، الناس ثلاثة : فعالم رباني ، ومتعلم على سبيل نجاة ، وهمج رعاع اتباع كل ناعق ، يميلون مع كل ريح ، ولم يستضيئوا بنور العلم ، ولم يلجؤا الى ركن وثيق ، العلم خير من المال ، العلم يحرسك وأنت تحرس المال ، العلم يزكوا على الانفاق ، وفي رواية على العمل ، والمال تنقصه النفقة ، العلم حاكم والمال محكوم عليه ، ومحبة العلم دين يدان بها ، العلم يكسب العالم الطاعة في حياته ، وجميل الاحدوثة بعد وفاته ، وصنيعة المال تزول بزواله ، مات خزان الاموال وهم أحياء ، ان ههنا علما ، والعلماء باقون مابقي الدهر ، أعيانهم مفقودة ، وأمثالهم في القلوب موجودة ، هاه هاه ، ان ههنا علما وأشار بيده الى صدره لو أصبت له حملة بلى أصبته لقنا غير مأمون عليه ، يستعمل آلة الدين للدنيا ، يستظهر بحجج الله على كتابه ، وبنعمه على عباده ، أو منقادا لاهل الحق لا بصيرة له في أحنائه ، ينقدح الشك في قلبه بأول عارض من شبهة لا ذا ولا ذاك ، أو منهوما للذات ، سلس القياد للشهوات ، أو مغرى بجمع

---

(1) الاحزاب : ٤٠

الاموال والادخار ، ليسا من دعاة الدين ، أقرب شبها بهم الانعام السائمة ، لذلك يموت العلم بموت حامليه ، اللهم بلى لن تخلو الارض من قائم لله بحجته ، كيلا تبطل حجج الله وبيناته ، أولئك الاقلون عددا ، الاعظمون عند الله قيلا ، بهم يدفع الله عن حججه حتى يؤدوها الى نظرائهم ، ويزرعوها في قلوب أشباههم ، هجم بهم العلم على حقيقة الامر ، فاستلانوا ماستوعر منه المترفون ، وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون ، صحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالملأ الاعلى ، أولئك خلفاء الله في أرضه ودعاته الى دينه ، هاه هاه شوقا الى رؤيتهم ، وأستغفر الله لي ولك اذا شئت فقم) . ذكره أبو نعيم في الحلية وغيره ، قال أبو بكر الخطيب : هذا حديث حسن من أحسن الاحاديث معنى وأشرفها لفظا .

وقد شرح هذا الحديث شرحا مفصلا الامام بن قيم الجوزية في كتابه (مفتاح دار السعادة) ومما قال في شرحه ـ عند الكلام على قوله اللهم بلى لن تخلو الارض من قائم لله بحجج الله ـ ويدل عليه الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم (لاتزال طائفة من أمتي على الحق ، لايضرهم من خذلهم ولا من خالفهم ، حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك) ويدل عليه أيضا مارواه الترمذي ، عن قتيبة ، حدثنا حماد بن يحيى الابح ، عن ثابت عن أنس ، قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : (مثل أمتي مثل المطر لايدرى أوله خير أم آخره) قال هذا حديث حسن غريب ، ويروى عن عبد الرحمن بن مهدي أنه كان يثبت حماد بن يحيى الابح ، وكان يقول هو من شيوخنا ، وفي الباب عن عمار وعبد الله بن عمرو ، فلو لم يكن في أواخر الامة قائم بحجج الله مجتهد لم يكونوا موصوفين بهذه الخيرية .

وأيضا : فان هذه الامة أكمل الامم ، وخير أمة أخرجت للناس ، ونبيها خاتم النبيين ، لا نبي بعده ، فجعل الله العلماء فيها كلما هلك عالم خلفه عالم ، لئلا تطمس معالم الدين وتخفى أعلامه ، وكان بنو اسرائيل كلما هلك نبي خلفه نبي ، فكانت تسوسهم الانبياء ، والعلماء لهذه الامة كالانبياء في بني اسرائيل ، وأيضا ففي الحديث الآخر (يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله) ينفون عنه تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين ، وهذا يدل على أنه لايزال محمولا في القرون قرنا بعد قرن ، وفي صحيح أبي حاتم من حديث الخولاني قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لايزال الله يغرس في هذا الدين غرسا يستعملهم في طاعته) وغرس

الله هم أهل العلم والعمل ، فلو خلت الارض من عالم خلت من غرس الله ، انتهى المقصود من نقله .

فعلم من هذا الوجه : بطلان ماذكره الغبي النبهاني في مقدمة كتابه من الهذيان ، وانه بعيد عن العلم والمعرفة لافكر له ولا ذوق والامر لله .

(الوجه الخامس) قوله : أما الاجتهاد فلا يدعيه اليوم الا مختل العقل والدين، الا من طريق الولاية ، كما قاله الشيخ الاكبر الخ .. لامعنى له ولا محصل ، وقد أسلفنا لك أنه لايمكن أن يخلو الزمان من مجتهد ، كما ذكره الاصوليون من مذهب الحنابلة وأهل الحديث ، ولم كان الجامع لشروط الاجتهاد المتأهل لأخذ دينه من الكتاب والسنة مختل العقل والدين ؟ فهل هذا الا كلام جاهل قد تخبطه الشيطان من المس ؟ ثم مامعنى قوله : الا من طريق الولاية الخ .. فهل رأى أحد من علماء الفروع والاصول هذه العبارة في باب الاجتهاد ؟ ولكن لابدع أن يصدر مثل هذا الهذيان عن مثل هذا المبتدع الجاهل ، والجاهل يعمل بنفسه مالا يعمل العدو بعدوه ، والشيخ محيي الدين ممن كان يدعي الاجتهاد المطلق ، كما دلت عليه نصوص كتبه وقال في شعر له :

نسبوني الى ابن حزم وأني	لست ممن يقول قال ابن حزم
بل ولا غيره فان كلامي	قال نص الكتاب ذلك حكمي
أو يقول الرسول أو أجمع	الخلق على ماأقول ذلك علمي

أشار رحمه الله في هذه الابيات الى أنه يأخذ الاحكام الدينية من الكتاب والسنة والاجماع وهذه عنده هي الدلائل دون القياس والكلام مستوفى في محله .

(الوجه السادس) قال : نقل عن ابن حجر المكي أنه قال : لما ادعى الجلال السيوطي الاجتهاد قام عليه معاصروه ، ورموه عن قوس واحدة ، وكتبوا له سؤالا فيه مسائل أطلق الاصحاب فيها وجهين ، وطلبوا منه ان كان عنده أدنى مراتب الاجتهاد وهو اجتهاد الفتوى فليتكلم على الراجح من تلك الاوجه ، وعلى الدليل على قواعد المجتهدين ، فرد السؤال من غير كتابة ، واعتذر أن له أشغالا تمنعه من النظر في ذلك الخ ..

(أقول) إن صدق ابن حجر في نقله فانه لايوثق به ، فقد افترى على شيخ الاسلام أعظم من ذلك ، وتبين كذبه عليه كما سيجيء ، كان (١) الجواب عن الامام السيوطي عليه الرحمة أنه لايلزم المجتهد أن يكون عالما بما حواه اللوح المحفوظ من العلوم •

وقد نقل أن الامام مالك سئل عن أربعين مسألة ، فقال في جواب ست وثلاثين مسألة منها لاأدري ، وهكذا نقل عن الامام أبي حنيفة وغيره (وَلا يُحِيْطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إلاّ بِمَا شَاء)(٢) .

(الوجه السابع) قول ابن حجر بل قال ابن الصلاح ومن تبعه أنها انقطعت من نحو ثلاثمائة سنة ، ولابن الصلاح نحو ثلاثمائة سنة ، أي لأنه من أهل القرن السادس ، فتكون اليوم قد انقطعت من ستمائة سنة ، أي بالنظر الى عصر ابن حجر الخ •••

أقول : هذا كلام ساقط عن درجة الاعتبار ، لما قدمناه في الوجه الثالث من كلام الحافظ ابن القيم ، ولما أوردناه من النصوص والدلائل على بطلان هذا القول ، وابن حجر مضطرب الكلام لا يثبت على قول ، فانه ذكر هنا أن الاجتهاد قد انقطع من ستمائة سنة بالنظر الى عصره ، مع أنه ذكر في كتابه الجوهر المنظم عند شتمه لشيخ الاسلام ابن تيمية مانصه :

ولقد تصدى شيخ الاسلام ، وعالم الانام ، المجمع على جلالته واجتهاده ، وصلاحه وامامته ، التقي السبكي ـ قدس الله روحه ونور ضريحه ـ للرد في تصنيف مستقل ، أفاد فيه وأجاد ، وأصاب وأوضح بباهر حججه طريق الصواب ، فشكر الله مسعاه ، وأدام عليه شآبيب رحمته ورضاه اه

فانظر الى ابن حجر كيف ادعى الاجماع على اجتهاد السبكي لكونه على منهجه ومسلكه في الابتداع واتباع الهوى ، ثم انه لم تسمح نفسه في الاقرار باجتهاد من لم يبلغ هو ولا أشياخه الى كعب علاه ، أعني أبا العباس تقي الدين ابن تيمية رحمه الله تعالى ، فقد قال في الجوهر المنظم ـ بعد عبارته السابقة ـ هذا ماوقع من ابن

---

(١) هكذا فى الاصل ولعل المراد ولو صح ذلك كان الجواب .. الخ (٢) البقرة : ٢٥٥

تيمية مما ذكر ـ وان كان عثرة لاتقال أبدا ، ومصيبة يستمر عليه شؤمها دواما وسرمدا ـ ليس بعجب ، فانه سولت له نفسه وهواه وشيطانه أن ضرب مع المجتهدين بسهم صائب ، وما درى المحروم أنه أتى بأقبح المعائب ، الى آخر ما قال مما تبين منه لدى كل منصف اتباع ابن حجر لهواه ، واختياره سبيل الضلال ، عامله الله بعدله •

(والمقصود) أن كلام مثل هؤلاء الغلاة لايجوز أن يحتج به ، فهم يتكلمون على حسب أهوائهم ، لا أنهم يتبعون الدليل ، ويسلكون سواء السبيل ، فسقط كلام الغافل النبهاني ، ولا يجوز الالتفات اليه بوجه من الوجوه •

(الوجه الثامن) من الوجوه الدالة على سقوط مقالة الغبي النبهاني : أن كل واحد من الأئمة صرح بأنه اذا صح الحديث يجب اتباعه والأخذ به ، ولذلك صرح كثير من الأئمة بوجوب الاخذ بالحديث والاضراب عن كل مايخالفه من أقوال المجتهدين ، وفي كتاب (أعلام الموقعين) وقد نهى الأئمة الاربعة عن تقليدهم ، وذموا من أخذ أقوالهم بغير حجة ، فقال الشافعي : مثل الذي يطلب العلم بلا حجة كمثل حاطب ليل ، يحمل حزمة حطب وفيه أفعى تلدغه وهو لايدري ، ذكره البيهقي ، وقال اسمعيل بن يحيى المزني في أول مختصره : اختصرت هذا من علم الشافعي ومن معنى قوله ، لاقربه على من أراده ، مع اعلامه نهيه عن تقليده وتقليد غيره ، لينظر فيه لدينه ويحتاط لنفسه ، وقال أبو داود قلت لأحمد الاوزاعي هو اتبع أو مالك ؟ قال لاتقلد دينك أحدا من هؤلاء ، ما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه فخذ به ، ثم التابعي بعد الرجل فيه مخير ، وقد فرق أحمد بين التقليد والاتباع ، فقال أبو داود : سمعته يقول الاتباع أن يتبع الرجل ما جاء عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وعن أصحابه ، ثم هو من بعد في التابعين مخير ، وقال أيضا : لاتقلدني ، و لاتقلد مالكا ، ولا الثورى ، ولا الاوزاعي ، وخذ من حيث أخذوا ، وقال : من قلة فقه الرجل أن يقلد دينه الرجل ، وقال بشر بن الوليد : قال أبو يوسف لايحل لأحد أن يقول مقالتنا حتى يعلم من أين قلنا ، وقد صرح مالك بأن من ترك قول عمر ابن الخطاب لقول ابراهيم النخعي أنه يستتاب ، فكيف بمن ترك قول الله ورسوله لقول من هو دون إبراهيم أو مثله ؟! وقال جعفر الفريابي : حدثني أحمد بن ابراهيم الدورقي ، حدثني الهيثم بن جميل ، قال : قلت لمالك ابن أنس يا أبا عبد الله ان عندنا قوما وضعوا كتبا

يقول أحدهم حدثنا فلان عن فلان عن عمر بن الخطاب بكذا وكذا ، وفلان عن ابراهيم بكذا ، ويأخذ بقول ابراهيم ، قال مالك : وصح عندهم قول عمر ؟ قلت : انما هي رواية كما صح عندهم قول ابراهيم ، فقال مالك : هؤلاء يستتابون انتهى .

(الوجه التاسع) ان قول النبهاني البليد يقتضي أن يقدم كلام من يقلد اليوم على ما صح من الاحاديث النبوية المخالفة لقول المجتهد وذلك هو عين الخطأ ، وقد سمعت من بعض قضاة الاتراك أنه قال اذا رأيت نصا في منية المصلي ورأيت حديثا في صحيح الامام البخاري يخالف ذلك النص آخذ بما في المنية واترك الحديث الصحيح ولا أعمل به ، فانظر الى هذه الغباوة والجهل العظيم .

(وقد سئل) أبو العباس تقي الدين شيخ الاسلام ابن تيمية ــ قدس الله روحه الزكية ــ عن رجل تفقه على مذهب من المذاهب ، وتبصر فيه ، واشتغل بعده بالحديث ، فوجد أحاديث صحيحة لايعلم لها ناسخا ولا مخصصا ولا معارضا ، وذلك المذهب فيه مايخالف تلك الاحاديث ، فهل له العمل بالمذهب أو يجب عليه الرجوع الى العمل بالحديث ومخالفة مذهبه ؟ .

فأجاب : الحمد لله رب العالمين ، قد ثبت في الكتاب والسنة والاجماع أن الله تعالى افترض على العباد طاعته وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم ، ولم يوجب على هذه الامة طاعة أحد بعينه في كل ماأمر به ونهى عنه الا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى كان صديق الامة وأفضلها بعد نبيها عليه الصلاة والسلام ورضي الله عنه يقول : أطيعوني ماأطعت الله تعالى ، فاذا عصيت الله عز وجل فلا طاعة لي عليكم . واتفقوا كلهم على أنه ليس أحد معصوما في كل مايأمر به وينهى عنه الا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولهذا قال غير واحد من الأئمة : كل أحد يؤخذ من كلامه ويترك الا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهؤلاء الأئمة الاربعة ــ رحمهم الله تعالى أجمعين ــ قد نهوا الناس عن تقليدهم في كل ما يقولونه ، وذلك هو الواجب ، قال الامام أبو حنيفة : هذا رأيي ، وهذا أحسن مارأيت ، فمن جاء برأي خير منه قبلناه ، ولهذا لما اجتمع أفضل أصحابه أبو يوسف بامام دار الهجرة مالك بن أنس ، وسأله عن مسألة الصاع وصدقة الخضراوات ، ومسألة الاجناس ، فأخبره مالك رحمه الله تعالى بما دلت عليه السنة في ذلك ، فقال : رجعت لقولك يا أبا عبد الله ، ولو رأى صاحبي ما رأيت لرجع كما رجعت ، ومالك رحمه الله تعالى كان يقول : انما

أنا بشر أصيب وأخطي ، فاعرضوا قولي على الكتاب والسنة أو كلاما هذا معناه ، والشافعي رحمه الله تعالى كان يقول : من ضيق علم الرجل أن يقلد دينه الرجال ، وقد قال : لاتقلد دينك الرجال فانهم لم يسلموا من أن يغلطوا (١) وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين) ولازم ذلك أن من لم يفقهه الله عز وجل في الدين لم يرد به خيرا ، فيكون التفقه في الدين فرضا ، والتفقه في الدين معرفة الأحكام الشرعية بأدلتها السمعية ، فمن لم يعرف ذلك لم يكن متفقها في الدين .

لكن من الناس من قد يعجزعنها فيلزمهمايقدر عليه ،ومن كانقادرا علىالاستدلال فقيل يحرم عليه التقليد مطلقا ، وقيل يجوز مطلقا ، وقيل يجوز عند الحاجة كما اذا ضاق الوقت عن الاستدلال ، وهذا القول أعدل الاقوال ان شاء الله تعالى ، والاجتهاد ليس هو أمرا واحدا لايقبل التجزي والانقسام ، بل يكون الرجل مجتهدا في فن أو باب أو مسألة دون فن وباب ومسألة ، وكل فاجتهاده بحسب وسعه ، فمن نظر في مسألة قد تنازع العلماء فيها فرأى مع أحد القولين نصوصا لم يعلم لها معارضا بعد نظر مثله فهو بين أمرين : اما أن يتبع قول القائل الاخير لمجرد كونه الامام الذي اشتغل على مذهبه ـ ومثل هذا ليس بحجة شرعية ، بل مجرد عادة تعارضها عادة غيره واشتغاله بمذهب امام آخر ـ واما أن يتبع القول الذي ترجح في نظره بالنصوص الدالة عليه ، فحينئذ موافقته لامام يقاوم ذلك الامام ، وتبقى النصوص النبوية سالمة في حقه عن المعارض بالعمل ، فهذا هو الذي يصلح ، وانما تنزلنا هذا التنزل لأنه قد يقال : ان نظر هذا قاصر ، وليس اجتهاده تاما في هذه المسألة لضعف آلة الاجتهاد في حقه . اما اذا قدر على الاجتهاد التام الذي يعتقد معه أن القول الآخر ليس معه مايدفع النص فهذا يجب عليه اتباع النصوص ، وان لم يفعل كان متبعا للظن وما تهوى الانفس ، وكان من أكبر العصاة لله تعالى ورسوله ، بخلاف من يقول للقول الآخر حجة راجحة على هذا النص ، ويقول أنا لا أعلمها ، فهذا يقال له قد قال الله تعالى (فَاتَّقُوا اللهَ مااسْتَطَعْتُمْ)والذي تستطيعه من العلم والفقه في هذه

---

(١) نص كلام شيخ الاسلام حسبما في المجموع جلد ٢٠ ص ٢١١ هو : والشافعي كان يقول : اذا صح الحديث فاضربوا بقولي الحائط واذا رأيت الحجة موضوعة على الطريق فهي قولي ، وفي مختصر المزني لما ذكر أنه اختصره من مذهب الشافعي لمن أراد معرفة مذهبهقال : مع اعلامه نهيه عن تقليده وتقليد غيره من العلماء والامام أحمد كان يقول لاتقلدني ولا تقلد مالكاولا الشافعي ولا الثوري ، وتعلموا كما تعلمنا ، وكان يقول من قلة علم الرجل أن يقلد دينه الرجال وقال لاتقلد دينك الرجال فانهم لن يسلموا من أن يغلطوا وقد ثبت .. الخ

المسألة قد دل على أن هذا القول هو الراجح ، فعليك أن تتبع ذلك ، ثم أن تبين لك فيما بعد أن للنص معارضا راجحا كان حكمك في ذلك حكم المجتهد المستقل اذا تغير اجتهاده وانتقال الانسان من قول الى قول لأجل ماتبين له من الحق هو محمود عليه ، بخلاف اصراره على قول لاحجة معه عليه ، وترك القول الذي وضحت حجته ، أو الانتقال من قول الى قول بمجرد عادة واتباع هوى ، فهذا مذموم ، واذا كان المقلد قد سمع حديثا وتركه — لاسيما اذا كان قد رواه أيضا عدل — فمثل هذا اذا وجد لايكون عذرا في ترك النص ، وقد بينا فيما كتبناه في الدفع عن الأئمة الاعلام نحو عشرين عذرا في ترك العمل ببعض الاحاديث ، وبينا أنهم معذورون في الترك لتلك الاعذار ، وأما نحن فمعذورون في تركها لهذا القول ، فمن ترك الحديث لاعتقاده أنه لم يصح أو رواية مجهول أو نحو ذلك ويكون غيره قد علم صحته وثقة راويه فقد زال عذر ذلك في حق هذا ، ومن ترك الحديث لاعتقاده أن ظاهر القرآن يخالفه أو القياس أو عمل لبعض الانصار ، وقد تبين لآخر أن ظاهر القرآن لايخالفه ، وأن نص الحديث الصحيح مقدم على الظواهر ، ومقدم على القياس والعمل ، لم يكن عذر ذلك الرجل عذرا في حقه ، فان ظهور المدارك الشرعية للاذهان وخفائها عنها أمر لايضبط طرفاه ، لاسيما اذا كان التارك للحديث معتقدا أنه قد ترك العمل به المهاجرون والانصار — أهل المدينة النبوية وغيرها — الذين يقال لهم لايتركون الحديث الا لاعتقادهم أنه منسوخ ، أو معارض براجح ، وقد بلغ من بعدهم أن المهاجرين والانصار لم يتركوه ، بل قد عمل به بعضهم أو من سمعه منهم أو نحو ذلك مما يقدح في هذا المعارض للنص ، واذا قيل لهذا المستفتي المسترشد أنت أعلم أم الامام الفلاني كانت هذه معارضة فاسدة ، لأن الامام الفلاني قد خالفه في هذه المسألة من هو نظيره من الأئمة ، ولست أعلم من هذا ولا هذا ، ولكن نسبة هؤلاء الأئمة الى هؤلاء كنسبة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وابن مسعود وأبي ومعاذ ونحوهم من الأئمة وغيرهم ، فكما أن هؤلاء الصحابة بعضهم لبعض أكفاء في موارد النزاع ، فاذا تنازعوا في شيء ردوه الى الله ورسوله ، وان كان بعضهم قد يكون أعلم في مواضع أخر ، وكذلك موارد النزاع بين الأئمة ، وقد ترك الناس قول عمر وابن مسعود رضي الله عنهما في مسألة تيمم الجنب ، وأخذوا بقول أبي موسي الاشعري وغيره لما احتج بالكتاب والسنة ، وتركوا قول عمر رضي الله تعالى عنه في دية الاصابع وأخذوا بقول معاوية ابن أبي سفيان ، لما كان روى من لسان النبي صلى الله عليه وسلم ، قال :

(هذه وهذه سواء) وقد كان بعض الناس يناظر ابن عباس في المتعة ، فقال له : قال أبو بكر قال عمر ، فقال ابن عباس : يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء ، أقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وتقولون قال أبو بكر قال عمر — لما سئل عنها فأمر بها فعارضوه بقول عمر فبين أن عمر لم يرد ما يقولونه ، فألحوا عليه ، فقال : رسول الله صلى الله عليه وسلم أحق أن يتبع أم عمر ؟ مع علم الناس أن أبا بكر وعمر أعلم من ابن عمر وابن عباس رضي الله تعالى عنهما . ولو فتح هذا الباب لوجب أن يعرض عن أمر الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم ، ويبقى كل امام في اتباعه بمنزلة النبي في أمته ، وهذا تبديل للدين ، وشبيه بما عاب الله تعالى به النصارى في قوله : (اتَّخَذُوا أَحْبارَهُمْ وَرُهْبانَهُم ارْباباً من دُوْنِ الله والْمَسِيْحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَما أُمِرُوا إلا لِيَعْبُدُوا إلهاً واحِداً لا إله إلا هُوَ سُبْحانَه عَمَّا يُشْرِكُوْنَ)[1] والله سبحانه أعلم انتهى .

(الوجه العاشر) انه يفهم من كلام النبهاني البليد : أنه يجب على المسلمين منذ نحو ألف سنة في مشارق الارض ومغاربها أن يقلدوا أحد المجتهدين الاربعة ، ومن أخذ دينه من الكتاب والسنة ، أو قلد غير هؤلاء — من صحابي أو غيره — خرج عن جادة الصواب ، وسلك غير سبيل المؤمنين ، هذا لازم من لوازم كلامه الباطل ، وقوله العاطل ، وهو مردود لم يقل به عالم يعتد بعلمه .

وفي كتاب (أعلام الموقعين) للحافظ بن القيم عليه الرحمة : هل يلزم المستفتي أن يجتهد في أعيان المفتين ويسأل الا علم والا دين أم لايلزمه ذلك ؟ فيه مذهبان كما سبق وبينا مأخذهما — والصحيح أنه يلزمه ، لأنه المستطاع من تقوى الله تعالى المأمور بها كل أحد ، قال : وتقدم أنه اذا اختلف عليه مفتيان أحدهما أورع والآخر أعلم فأيهما يجب تقليده ؟ فيه ثلاثة مذاهب سبق توجيهها ، وهل يلزم العامي أن يتمذهب ببعض المذاهب المعروفة أم لا ؟ فيه مذهبان : أحدهما لايلزمه ، وهو الصواب المقطوع به ، اذ لا واجب الا ماأوجبه الله ورسوله ، ولم يوجب الله ورسوله على أحد من الناس أن يتمذهب بمذهب رجل من الامة فيقلده دينه دون غيره ، وقد انطوت القرون الفاضلة مبرأة مبرأ أهلها من هذه النسبة ، بل لايصح

---

(١) التوبة : ٣١

للعامي مذهب ، ولو تمذهب به فالعامي لا مذهب له ، لأن المذهب انما يكون لمن له نوع نظر واستدلال ، ويكون بصيرا بالمذاهب على حسبه ، أو لمن قرأ كتابا في فروع ذلك المذهب وعرف فتاوى امامه وأقواله ، وأما من لم يتأهل لذلك البتة ، بل قال أنا شافعي أو حنبلي أو غير ذلك لم يصر كذلك بمجرد القول ، كما لو قال أنا فقيه أو نحوي أو كاتب لم يصر كذلك بمجرد قوله ، يوضحه أن القائل أنه شافعي أو مالكي أو حنفي يزعم أنه متبع لذلك الامام سالك طريقه ، وهذا انما يصح اذا سلك سبيله في العلم والمعرفة والاستدلال ، فاما مع جهله وبعده جدا عن سيرة الامام وعلمه وطريقه فكيف يصح له الانتساب اليه ، الا بالدعوى المجردة ، والقول الفارغ من كل معنى والعامي لايتصور أن يصح له مذهب ، ولو تصور له ذلك لم يلزمه ولا لغيره ، ولا يلزم أحدا قط أن يتمذهب بمذهب رجل من الامة ، بحيث يأخذ أقواله كلها ويدع أقوال غيره ، وهذه بدعة قبيحة حدثت في الامة لم يقل بها أحد من أئمة الاسلام ، وهم أعلى رتبة ، وأجل قدرا وأعلم بالله ورسوله من أن يلزموا الناس بذلك ، وأبعد منه قول من قال يلزمه أن يتمذهب بمذهب عالم من العلماء ، وأبعد منه قول من قال يلزمه أن يتمذهب بأحد المذاهب الاربعة .

فيالله العجب ماتت مذاهب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومذاهب التابعين وتابعيهم وسائر أئمة الاسلام وبطلت جملة الا مذاهب أربعة أنفس فقط من بين سائر الأئمة والفقهاء ، وهل قال ذلك أحد من الأئمة أودعا اليه أو دلت عليه لفظة واحدة من كلامه ؟! .

والذي أوجبه الله تعالى ورسوله على الصحابة والتابعين وتابعيهم هو الذي أوجبه على من بعدهم الى يوم القيامة ، لايختلف الواجب ولا يتبدل ، وان اختلفت كيفيته أو قدره باختلاف القدرة والعجز ، والزمان والمكان والحال ، فذلك أيضا تابع لما أوجبه الله تعالى ورسوله ، ومن صحح للعامي مذهبا قال هو اعتقد أن هذا المذهب الذي انتسب اليه هو الحق فعليه الوفاء بموجب اعتقاده ، وهذا الذي قاله هؤلاء لو صح للزم منه تحريم استفتاء أهل غير المذهب الذي انتسب اليه ، وتحريم تمذهبه بمذهب نظير امامه ، أو أرجح منه ، أو غير ذلك من اللوازم التي يدل فسادها على فساد ملزوماتها ، بل يلزم منه أنه اذا رأى نص رسول الله صلى الله عليه وسلم أو قول خلفائه الاربعة مع غير امامه أن يترك النص وأقوال الصحابة ويقدم عليها قول

من انتسب اليه ، وعلى هذا فله أن يستفتي من شاء من اتباع الأئمة وغيرهم ، ولا يجب عليه ولا على المفتي أن يتقيد بأحد من الأئمة الاربعة باجماع الامة كما لايجب على العالم أن يتقيد بحديث أهل بلده أو غيره من البلاد ، فاذا صح الحديث وجب عليه العمل به ، حجازيا كان أو عراقيا أو شاميا أو مصريا أو يمنيا ، وكذلك لايجب على الانسان التقيد بقراءة السبعة المشهورين باتفاق المسلمين ، بل اذا وافقت القراءة رسم المصحف الامام وصحت في العربية وصح سندها جازت القراءة بها ، وصحت الصلاة بها اتفاقا ، بل لو قرأ بقراءة تخرج عن مصحف عثمان وقد قرأ بها رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابة بعده جازت القراءة بها ، ولم تبطل الصلاة بها على أصح الاقوال ، والثاني تبطل الصلاة بها ، وهاتان الروايتان منصوصتان عن الامام أحمد ، والثالث : إن قرأ بها في الركن لم يكن مؤديا لفرضه ، وان قرأ بها في غيره لم تكن مبطلة ، وهذا اختيار أبي البركات ابن تيمية ، لأنه لم يتحقق الاتيان بالركن في الاول ، ولا الاتيان بالمبطل في الثاني ، ولكن ليس له أن يتبع رخص المذاهب ، وأخذ غرضه من أي مذهب وجده فيه ، بل عليه اتباع الحق بحسب الامكان انتهى .

(فظهر لك) مما قررناه في الوجوه العشرة : أن ماذكره النبهاني المسكين من القول بانسداد باب الاجتهاد قول باطل مبتدع ، فانا نعلم بالضرورة أنه لم يكن في عصر الصحابة رجل واحد اتخذ رجلا منهم يقلده في جميع أقواله ، فلم يسقط منها شيئا وأسقط أقوال غيره فلم يأخذ منها شيئا ، ونعلم بالضرورة أن هذا لم يكن في التابعين ، ولا تابعي التابعين ، فليكذبنا المقلدون برجل واحد سلك سبيلهم الوخيمة في القرون الفضيلة على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وانما حدثت هذه البدعة في القرن الرابع المذموم على لسانه صلى الله عليه وسلم ، فالمقلدون لمتبوعهم في جميع ماقالوه ــ يبيحون به الفروج ، والدماء ، والاموال ، ويحرمونها ، ولا يدرون أذلك صواب أم خطأ ــ على خطر عظيم ، ولهم بين يدي الله موقف شديد ، يعلم فيه من قال على الله مالا يعلم أنه لم يكن على شيء .

وقد أطنب الحافظ ابن القيم عليه الرحمة في كتابه (أعلام الموقعين) الكلام في ذم المقلدين ، وأبطل فيه قول الجهلة بانقطاع الاجتهاد ، وألف جمع من الافاضل في ذلك كتبا مفيدة ، ولولا تعرض هذا الجاهل لهذه المسألة وان لم يكن لها مناسبة لموضوع كتابه مافتحنا فيها فما ، ولا حركنا قلما ، ولكن أبى الله تعالى الا أن يفضح

من تنقص العلماء الاخيار ، وسادات هذه الامة ، وأن يرى الناس عورته ويغريه بكشفها ، ونعوذ بالله من الخذلان ، وقد أصابته سهامه الصائبة ، وتبين أنه من أصحاب الدعاوي الكاذبة ، وكان هو الحري بما أنشده :

ومن جهلت نفسه قدره رأى غيره منه مالا يرى

(ثم ان النبهاني الغبي) عقب مسألة الاجتهاد بمسألة أخرى لا مناسبة لها أيضا بموضوع كتابه ، لكنه أراد أن يظهر عجبه ودعاويه الكاذبة في العلم ، فقال — بعد أن هذى وتكلم بكلمات ساقطة تناسب جهله — اني سمعت مرارا من بعضهم لزوم تأليف تفسير للقرآن على مقتضى الاذواق العصرية ، وسمعت من رجل منهم أنه سيفعل ذلك ، ويؤلف تفسيرا بهذه الصفة التي توافق هذا العصر ، وهو في نفسه لايقدر على فهم متن الاجرومية ، وقال لي بعض من يجتمع عليهم ويسمع كلامهم — وقد ثبت في ذهنه بعض نزغاتهم هذه وظنها حقا — قد نفعت بتأليفك المسلمين نفعا عظيما ، ولكن بقي عليك شيء واحد ، فقلت له : ماهو ؟ قال : أن تؤلف تفسيرا للقرآن على مقتضى الاذواق العصرية ، فان هذه التفاسير الموجودة قد ألفوها على مقتضى أذواق أهل العصور السالفة ، وقد تغير الحال الآن ، واختلفت أذواق الناس ومشاربهم ، فيلزم تأليف تفسير يوافقهم ، قال : فأجبت أني لست أهلا لذلك وبيني وبين مرتبة التفسير درجات كثيرة ، لايمكنني الوصول اليها ، وتآليفي كلها جمع فوائد ، وأكثرها في شؤون النبي صلى الله عليه وسلم من فضائله ومعجزاته ومدائحه ونحو ذلك مما لا رأي لي فيه ، وانما هو نقل صرف ، وتفسير القرآن قد فرغ منه العلماء ، ونقلوه عن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، ومن بعدهم من أئمة الدين ودونوه في تفاسيرهم هذه الموجودة ، وهي كافية وافية ، وهي كما وافقت أهل العصور السابقة توافق أهل هذا العصر ، فان الاحكام الشرعية التي اشتمل عليها القرآن هي صالحة لكل انسان ، وقد استوت فيها العصور والازمان ، وليس للقرآن معان خاصة بأهل العصور السابقة ومعان أخرى خاصة بأهل العصور اللاحقة ، وأما الاذواق والمشارب فهي ان كانت موافقة للشرع فمطلوبها يوجد في هذه التفاسير ، وان كانت مخالفة للشرع فكيف يمكن أن يفسر القرآن بمعان توافق هذه الاذواق الفاسدة ، والمشارب الكاسدة ، ونحن لايجوز لنا أن نفسر القرآن بعقولنا ، ونطبقه على الاذواق العصرية كما يقوله السفهاء المخذولون ، ويتجاسرون على دعوى اقتدارهم على تفسير كلام الله تعالى بافهامهم السقيمة ، وعقولهم الناقصة ، فان

تفسير القرآن بالرأي ممنوع شرعا ، ثم انه نقل بعض ماقالوه في الفرق بين التفسير والتأويل ، وتكلم بهذيان يوافق فهم أمثاله ، ثم ذكر قصيدة له مدح بها النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : والحاصل أن هذه الفرقة المجدوعة المخذولة من طلبة زماننا في غاية الغباوة ، ونقص العقل والدين ، وقد عظم ضررهم على أنفسهم وعلى من يخالطهم ويصغي الى كلامهم من المسلمين ، فانهم مع جمعهم لعقائد شتى من عقائد أهل الزيغ والبدع والوهابية وغيرهم ، واستحسانهم ضلالاتهم ، هم أضر منهم بكثير وذلك آن الوهابية قوم أهل بدعة ظهروا بها في بلاد نجد ، وانتشر مذهبهم الى ماحواليهم من البلاد ، ثم تقلص ظلهم وقلوا وذلوا وانحصروا في أرضهم ، وهم مع كونهم حنابلة أنكر عليهم علماء مذهب الامام أحمد ماهم عليه من الغلو في الدين ، وتضليل المسلمين ، أما هذه الفرقة الجديدة فهي مؤلفة من سائر المذاهب ، بدون علم ولا تقوى ، ولا قواعد يستندون اليها كسائر الفرق ، وانما الجامع بينهم فساد الافكار ، والاعتراض على الأئمة الاخيار ، وهم يختلطون بالناس ويكتبون آراءهم الفاسدة ، ثم أخذ يبدي ويعيد ، ويكرر الشتم على أخيار أهل عصره المعرضين عن بدعه ، ثم تعرض بالذم لما طبع من كتب الشيخين وسائر الكتب السلفية ككتاب (الصارم المنكي) ثم ختم رسالته بقصيدة من شعره الركيك ، ويغالي برسول الله صلى الله عليه وسلم ويشرك به ، هذا ماذكره في هذا الباب ، وهو يشتمل على مفاسد كثيرة ، لايمكن ضبط أقلها ، بل ان كل كلمة من كلماته دلت على باطل ، فكلامه ظلمات بعضها فوق بعض ، وكله ينادي على جهله وغلوه ، ويدل على أنه ممن أنزل الله تعالى فيه : وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ، فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقاً لأَصْحابِ السَّعِيرِ)[1] ولو أخذنا نتكلم على جميع ماحواه كلامه من المفاسد لطال الكلام جدا ، ولكنا نتكلم على مقاصده على سبيل الاجمال :

(فأقول) حاصل مادل عليه كلامه من المقاصد أمور :

(الاول) أن تفسير القرآن قد أخذ حده ، وعلم قد نضج واحترق ، ولا يمكن أن يستنبط من التنزيل مالم يستنبط .

(الثاني) من الامور التي دل عليها كلامه : أن الذي يتصدى لطلب تفسير

---

(١) الملك : ١٠

مشتمل على الاذواق العصرية وعلومه هو ملحد مبتدع زائغ الى آخر ماذكره فيه من الذم •

(الثالث) أن الوهابية مبتدعة غير أن ضررهم دون من قبلهم •

(الرابع) القدح في ابن تيمية ، وجرح كتبه وكتب ابن القيم وابن قدامة ، هذا مادل عليه كلامه ، ونحن نتكلم علي مطلب مطلب على سبيل الايجاز والاختصار ، وبالله التوفيق وهو المستعان :

(الكلام على كتب التفسير والاحتياج الى تفسير موافق لأفكار أهل العصر)

ان من طالع كتب التفسير المتداولة بين الأيدي اليوم وجدها أعظم مانع من الوقوف على مراد الله تعالى بكتابه الكريم ، فان منها ماهو مشحون بقواعد النحو ووجوهه ، فتراه يذكر في كل آية من الوجوه مايفوت الحصر ، ومنها ماهو مشحون بالمسائل الكلامية ، والقواعد الحكمية ، حتى يصرف الآيات الى ماأصله من الأصول ويؤول النصوص القطعية الى مايوافق معتقده ، اذا نظرت تفسير الرازي والبيضاوي وأبي السعود تعلم حقيقة هذا الكلام ، ومنها ماashتمل على قصص بني اسرائيل وأكاذيبهم وأقوالهم التي تحيلها العقول وتنفر عنها الطباع ، ومنها تفاسير لايدل عليها نقل ولا عقل ولا لغة من اللغات ، كالتفسير الشهير بأنه من باب الاشارة ، ومنها ومنها مما لايحيط به العد والاحصاء •

وقد تكلم على التفسير كلام منصف واقف على الحقيقة : العلامة السيد محمد بدر الدين الحلبي — فسح الله تعالى في مدته وبارك في حياته — في كتاب (التعليم والارشاد) فقال — سلمه الله تعالى بعد أن تكلم على علم التفسير وأن أهل العلم لم يعطوه حقه — والذي ينظر فيما طبع من نحو قرن في مصر — وهي محط رحال العلوم الدينية وكعبة العلوم التي يفد اليها الحجاج من جميع الآفاق والقدوة لكافة أهل الامصار — يرى العجب العجاب ، يرى أن الذي طبع منها الى الآن تفسير الخازن ، تفسير الجلالين بحاشية الصاوي وبحاشية الجمل ، البيضاوي بحاشية الشهاب بقطعة من حاشية السيد ، تفسير فخر الدين الرازي ، تفسير أبي السعود ، تفسير النسفي ، تاج التفاسير ، ابن جرير الطبري ، الدر المنثور للسيوطي ، تفسير ابن عباس ، وبعض تفاسير ضئيلة ، هذه هي كتب التفاسير التي تتداولها أيدي الناس اليوم ، وهي التي يعتمد عليها طلاب العلوم الشرعية في تفسير كتاب الله جل شأنه ، والوقوف على مراده منه •

فأما تفسير الخازن ــ وهو أكثر كتب التفاسير تداولا ، وأعظمها انتشارا بين عامة المسلمين وطلبة العلوم الشرعية ــ فهو الكتاب الذي يقف القلم حائرا عندوصفه، لايدري مايقول فيه ، وما الذي يحذر به المسلمين منه ، وخير مايقال فيه أنه مجموعة الاكاذيب ، ولا أرى الا أن الانسان لو جرد مافيه من الاكاذيب الموضوعة على لسان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، والاقاصيص الكاذبة التي وضعها اليهود ــ كقصة بابل والغرانيق وارم ذات العماد وغيرها ــ لكانت فوق نصف الكتاب ، وبعد ذلك فأشياء ان لم تضر لم تنفع •

وهو على اشتماله على هذين الوصفين اللذين هما من أقبح أوصاف المؤلفات فهو العمدة لعامة المسلمين ، وأكثر طلبة العلوم الشرعية ، وأكثر انتشارا بينهم ، ولقد أرى أن نسخه التي نشرت في مصر لاتقل عن مائة ألف نسخة ، فسد بواسطتها عشرة أضعاف هذا العدد من المسلمين ، ودخل عليهم في دينهم ماليس منه من حديث موضوع وتفسير مفترى •

ومن العجيب أن لايوجد في علماء الاسلام من ينهى الناس عن نشر مثل هذه الكتب المفسدة للعلوم والشرائع ، المضرة بالاخلاق والعقائد ، وقد لايخلو بلد من بلاد الاسلام عن قوم من أهل العلم ــ ولو قليلين ــ يعرفون مافي هذه الكتب من المفاسد ، ولا يحظرون على الناس استعمال هذه الكتب لاتقاء شرها ، بل ربما سئلوا عنها فأثنوا عليها خيرا مسايرة لأميال العامة ، ومصانعة لهم فيما هو من أهم مهمات الدين ، قال : وهذا البحث موعدنا به ان شاء الله القسم الثاني من هذا الكتاب ، وهو قسم الارشاد ، وانما غرضنا في هذا القسم النظر في طرق التعليم ، وكتب العلم المستعملة ، وبيان جيدها من رديئها •

وأما تفسير الجلالين بحاشيتيه الجمل والصاوي فهما يساويان تفسير الخازن انتشارا وكثرة تداول ، الا أن انتشار الخازن بيد العوام أكثر ، وانتشار هذين بيد الخاصة نعني طلاب العلوم الشرعية أكثر ، فأما الشرح فهو غاية في الاختصار لايمكن الاستقلال به في فهم كتاب الله تعالى ، مع علل فيه أخر يعلمها من جمع بينه وبين بعض تفاسير المتقدمين الموثوق بها وبمؤلفيها ، وأما حاشيتاه الضخمتان فهما من مؤلفات متأخري أهل العلم بمصر ، وحسبك هذا في معرفة منزلتيهما بين المؤلفات •

ثم انه سلمه الله عقد فصلا في انحطاط العلم ، ثم قال : وأما الكشاف ومختصره للقاضي البيضاوي فهما المشكلة التي لاتحل اجمالا واغلاقا وغموضا ، ولشدة

عراقتها في ذلك أكثر المتأخرون من تعليق الحواشي والشروح عليهما ، لبيان عبارتهما وتوضيح مقاصدهما ، حتى لو جمعت الحواشي والشروح التي عليهما لأربت على ألف مجلد ، وما ذكره صاحب (كشف الظنون) مما كتب عليهما قليل من كثير ، ولولا أنهما بحيث يخفيان الا على من ألف حل الرموز والطلاسم واستخراج المخبآت لم يعتن من جاء بعدهما بالتوسع في الكتابة عليهما ، والمبالغة في توضيح غوامضهما ، وفوق هذا كله اشتمالهما على مسائل كثيرة خارجة عن التفسير بالمرة ، لاترتبط فيه بوجه من الوجوه ، كالمسائل الكلامية التي حشيا بها كتابيهما ، وهي ليست من فن التفسير ولا من متعلقاته ، وانما كان الغرض من ذكرها بيان معتقديهما والاستشهاد له بكتاب الله .

ويلحق تفسير أبي السعود بهذين التفسيرين ، فانه صورة أخرى لهما مع بعض تغييرات قليلة جدا ، ويلحق تاج التفاسير بتفسير الجلالين ، ونسبته اليه كنسبة تفسير أبي السعود الى تفسيري الكشاف والبيضاوي ، وان اختلف عنه فيسير .

وأما تفسير فخر الدين الرازي ــ وهو كتاب العامة والخاصة وعمدة الناس في هذا الموضوع ــ فأبو حيان المفسر يقول في تفسيره : تفسير الامام فخر الدين فيه كل شيء الا التفسير ، وما أحسن ماترجم به أبو حيان هذا التفسير الكبير ، بل البحر العميق ، ولقد يفتح الانسان جزء من أجزاء هذا التفسير للمراجعة والكشف فيه عن تفسير آية من آي كتاب الله فلا يشعر الا وقد توسط بحرا لجيا لايخلص الانسان منه الى ساحل ، ويظهر مما كتبه الامام فخر الدين في مقدمة كتابه أنه قد أودع كتابه كثيرا مما لاتعلق له بعلم تفسير كتاب الله ، ولا ارتباط له فيه بوجه من الوجوه ، وانما كان غرضه مما جمعه في تفسيره من هذه المسائل الغريبة ــ مع أن الكتاب في تفسير كتاب الله خاصة على مايظهر من كلامه في أول كتابه ــ أن يبرهن على حقيقة ما قاله لبعض مناظريه من أن كتاب الله ــ جل ثناؤه وعلا سلطانه ــ لايمكن استقصاء مافيه من الأسرار ، ولا الاحاطة بما فيه من المعاني والحكم ، ولو كتب في ذلك مئات من المجلدات ، وان فاتحة الكتاب يمكن أن يكتب فيها مجلد ضخم في أحكامها واسرارها ومعانيها ، ولذلك وضع في تفسير الفاتحة مجلدا لرد ما أنكره المنكرون عليه ، وان كان لم يصنع شيئا بالرد عليهم بحشو كتابه بهذه المسائل التي ذكرها ، ولا ارتباط لها بتفسير كتاب الله بوجه من الوجوه ، وكل كلام مولف كلام الله أو غيره يمكن للعالم أن يتوسع في الكتابة عليه الى مثل ماتوسع به الامام فخر الدين في

تفسير كتاب الله ، والمؤلف اذا أغمض عينه وتسامح في تأليفه وراعى المناسب والمجاور ومجاوره استطال في يده حبل الكلام فلم يقف به عند حد ٠

ولقد رأينا لمتأخر من متأخري المصريين يدعي السحيمي حاشية على شرح عبد السلام على جوهرة التوحيد تقع في أربع مجلدات ضخام على أن الامير وهو أطول باعا منه في علم الكلام وادق نظرا استوعب الكلام على شرح عبد السلام في مجلد صغير ، وكان في قدرة السحيمي أن يضيف الى مجلداته الاربع أربعة أخر ، ولكن رأى أن الاقتصار على هذا المقدار كاف في البلاغ الى ماقصد من البرهان على سعة اطلاعه ٠

ثم تكلم على تفسير روح المعاني ، وان مصنفه أخذه من تفسير الامام فخر الدين ، الا أنه حذف منه كثيرا من الزوائد ، وأضاف اليه وأحسن غاية الاحسان ، وضم شيئا من أقوال سلف المفسرين ومتقدميهم ، وان لم يميز بين ماقوى سنده من هذه الاقاويل وماهي ، فبقي في الامر بعض لبس وأشكال ، وأضاف اليه أيضا جملة كبيرة من تفاسير المتصوفة ، فلم يكتف رحمه الله بجمع تأويلات المتكلمين التي تأولوا بها القرآن للاستدلال على عقائدهم ، وتطبيقها على ماأدتهم اليه عقولهم منها عملا بقاعدتهم المشهورة عندهم من وجوب تأويل النقل اذا عارض العقل حتى يرجع الى العقل ، فأضاف الى ذلك تأويلات المتصوفة التي صرفوا بها القرآن عن ظاهره الى معان لاتدل الالفاظ العربية عليها بوجه من وجوه الدلالات المعروفة عند الناس ، فجاء كتابه جامعا للطرق الثلاثة : طريقة السلف ، وطريقة المتكلمين ، وطريقة المتصوفة الا أن طريقة السلف لم يتعرض فيها لبيان طرق نقلها وتمييز صحيحها من سقيمها ، ولذلك كان ككتب الحديث التي لايبين فيها سند الحديث وحال رجاله لاتقع الثقة به سيما اذا تعارض مع غيره ولم يقع الترجيح بينهما بوجه من وجوه الترجيح ٠

وأما تفسير الدر المنثور للجلال السيوطي فقد زعم أنه اختصر به ــ على حسب عادته ــ تفسير ابن جرير ، الذي جمع فيه صحاح الاحاديث المتعلقة بتفسير كتاب الله تعالى ، وبيان أسباب النزول ، وأضاف السيوطي في مختصره أحاديث واهية الاسناد في هذا الموضوع نفسه ، ومزجها بتلك الاحاديث أحاديث الاصل فاختلطت بها حتى لايمكن التمييز بينها ، وقلت الثقة في الجميع ٠

وربما استبعد أحد أن يضع السيوطي في تفسيره الدر المنثور أحاديث واهية الاسناد ، أو موضوعة مع ماله من المؤلفات في موضوعات الاحاديث ــ فنقول أن من

علم طريقة السيوطي في التأليف لم يستنكر هذا الذي قلناه ، وطريقته ـ رحمه الله على ماعلمنا من استقراء كتبه ـ أنه كلما وقع اليه كتاب من الكتب في أي فن من الفنون واستحسنه اختصره ونسبه الى نفسه بدون تمييز بين غث وسمين ، ولا وقوف على حقائق العلوم ، ولذلك تراه مضطربا في كتبه ، لأنه لايحكم فكر نفسه ، وانما يحكم في كل كتاب فكر مؤلفه هو ، فيضيفه الى نفسه ببعض تصرف يحدثه في الكتاب

وان كنت قد قرأت في كتابه الذي سماه (الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير) وكتابه الذي سماه (اللئالي المصنوعة ، في الاحاديث الموضوعة) ورأيت في (الجامع الصغير) كثيرا من الاحاديث التي نص في كتابه اللئالي على أنها موضوعة على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم لم تصح عنه بطريق من الطرق : جزمت بصحة هذا الذي قلنا ، وعلمت أنه لايؤلف ، وانما يلخص كتب الناس وينسبها لنفسه .

ثم أطال الكلام في السيوطي وابن كمال باشا ، وأنهما على منهج واحد فيانتحال الكتب بعد الاختصار الى أن قال سلمه الله :

وأما تفسير محيي الدين فهو مسخ للقرآن ، ونقض للدين من أساسه ، ويرى بعض الباحثين أنه ليس من مؤلفات محيي الدين ، وانما هو من مؤلفات القاشاني أحد الملاحدة الباطنية ، نسبه لمحيي الدين ليروجه بين عوام المسلمين ، ومن يستميتون الى مايقول محيي الدين مهما كان حاله ، والظن بمحيي الدين أنه لايضع مثل هذا الكتاب، ولا يذهب هذه المذاهب الفاسدة في تفسير كتاب الله تعالى . وسواء كان من مؤلفات محيي الدين أو غيره فان انتشاره بين المسلمين بحت ضرر ، سيما ولا موقف يوقف الناس على الصحيح والفاسد من هذه الكتب .

وأما تفسير ابن عباس : فهو من مؤلفات مجد الدين الفيروز ابادي صاحب القاموس ، جمع فيه رواية محمد بن السائب الكلبي عن ابن عباس . قال : وقد علمت مما ذكرناه في المقدمة حال ابن السائب الكلبي وضعفه ، وقلة ثقة العلماء بمروياته .

قال هذه كتب التفسير التي نقرأها اليوم ، وان كان قد فاتنا ذكر شيء منها فانه لايخرج عن مضارعة واحد من هذه الكتب التي ذكرناها ، فلم يبق بيدنا مايصح الاعتماد عليه والثقة به غير تفسير ابن جرير ، وهو الحسنة الوحيدة للمطابع الاسلامية بعد قرن وأكثر من ظهور المطابع في الممالك الاسلامية ، ولولا أن بعض أمراء العرب ـ من سكان الجزيرة العربية ـ راسل بعض تجار الكتب بمصر في شأنه ، وأعانه على

ذلك بمساعدات جليلة : لم يظهر له ظل في عالم المطبوعات ، اكتفاء منه (بالخازن والجمل) •

وان أردت معرفة تفاسير الصحابة والتابعين وتابعي التابعين وعلماء القرن الثالث فارجع الى ماكتبناه في المقدمة على هذا العلم ، فقد بسطنا هناك مؤلفات القرون الثلاثة ، والباحث عليها ان لم يجدها كلها وجد منها مايكفي لحاجة الناس •

ثم إنه اعتذر عما كتبه بأنه لم يرد انتقاص أحد بذلك ، بل إن غرضه بيان أن هذه التفاسير المتداولة قاطعة عن العلوم الاسلامية ، وان ضرورة المحافظة على الدين تقتضي باختيار الكتب النافعة ، قال : فكل مانذكره فانما الغرض منه تمحيص الحقيقة والتماس الانفع لنا في علوم ديننا ، وهذا عذرنا في كل مانسطره عن هذه المؤلفات التي ابتلينابها اليوم وابتليت بنا الخ •انتهى المقصودمما ذكره هذا الفاضل المنصف،وبه يعلم حال المتداول من التفاسير على الاجمال ، فكيف يقال أن تفسير القرآن قد فرغ منه العلماء ، مع أنهم هم الذين قالوا في شأن علم التفسير علم لانضج ولا احترق ، وقالوا المراد بنضج العلم تقرير قواعده وتفريع فروعها وتوضيح مسائله ، والمراد باحتراقه بلوغه النهاية في ذلك •

وقد ذكر الامام السيوطي في (الاتقان) أن القرآن في اللوح المحفوظ كل حرف منه بمنزلة جبل قاف ، وكل آية تحتها من التفاسير مالا يعلمه الا الله تعالى • انتهى • فمتى أعطاه العلماء حقه حتى يقال أنهم قد فرغوا منه ؟ فهل هذا الا قول من قد بلغ من الجهل بدينه الى الغاية ؟ وأي ذنب لمن طلب في هذا العصر ، أو تمنى أن يفسر القرآن تفسيرا نافعا للعامة والخاصة بعبارة سلسة ، يفهمها كل أحد ، كعبارات بلغاء هذا العصر ، وكتابه النابغين فيه ، لا كعبارات الكتاب الماضين من الاعاجم وغيرهم ، فانهم كانوا يتفاخرون بدقة العبارات وصعوبتها وعدم فهمها ويعيبون الواضح منها ، مع أن البلغاء المتقدمين والكتبة السابقين على العكس من ذلك ، فقد رأيت في بعض كتب أصول الحديث مانصه : ويكره كراهة تنزيه الخط الدقيق لفوات الانتفاع أو كماله به لمن ضعف نظره ، وربما ضعف نظر كاتبه بعد ذلك فلا ينتفع به ، كما قال الامام أحمد بن محمد بن حنبل لابن عمه حنبل بن اسحاق بن حنبل — ورآه يكتب خطا دقيقا — فانه يخونك أحوج ماتكون اليه ، انتهى •

فكتب عليه الوالد رحمه الله في هامش الكتاب : انظر اذا كانت الدقة في الخط هكذا فكيف بها في عبارات العلوم الشرعية ، وقد عدوا ذلك وجعلوه من الفضائل

العلية ، وجعلوا فهمها من أقصى مراتب العلم ، حتى أهملوا حفظ العلوم والمسائل ، بل لايعدون ذلك شيئا ، وليت شعري هل كان علم المتقدمين في الصدور أم في السطور؟ وكيف كان علماء الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين ؟

قال : وقد رأيت بعض المؤلفين ـ وأنا أقابل معه تأليفه وقد دقق فيه ـ يتوقف في فهم بعض العبارات ، ولا يهتدي لها الا بتأمل طويل ، فهل ينبغي لمسلم ذلك ؟وليت شعري اذا اشتغل المتعلم في فهم العبارة فمتى يشتغل بحفظ المعنى فانصف ، ثم قال : وما أحوجهم الى ذلك الا عبارات الاعاجم الركيكة القاصرة عن مقاصدهم ، وكم رأينا ممن رسخ في فهم ذلك ولا يستطيع اعراب بيت من الشعر العربي ، فهل يليق ذلك بالعلماء أمناء الدين ؟ انتهى •

وشكوى الناس في كل عصر من الكتب المتداولة بين الايدي قد عرفها كل أحد ، فأي ذنب لمن تمنى أن يؤلف في هذا العصر ـ عصر ظهور كنوز العلم وانتشار الكتب العجيبة ـ تفسيرا يفصل فيه محاسن الشريعة الغراء ، ويطبق فيه أحوال العصر ، ويوافق فيه بين القواعد التي ثبتت بالبرهان وبين الآيات الكريمة ، مما يستوجب ميل العامة لمطالعته ومراجعته ، فانه الكتاب الذي قال الله تعالى في شأنه : (مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ)[1] وقال عز اسمه :(سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى. الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى . وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى)[2] فهذه الآية شملت جميع ماخلق الله تعالى من العرش الى الفرش ، ولمن تكلم على هذه الآية له مجال واسع في البحث عن سائر الفنون ، ولهذا كانت هذه السورة من أحب السور الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقال سبحانه لما قالت الملائكة : (أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ : إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ)[3] وهنا ذكر المفسرون أن من جملة حكم خلق الانسان وتخليفه في الارض ابراز ماأودع الله في الارض من خواص النبات والحيوان والمعدن على يدي هذا الخليفة ، لما أودع فيه من الشهوات وحوائج المأكل والملبس وغير ذلك مما استنتجه بأفكاره ووصل اليه ببصيرته ، فدخل في هذا الباب من العلوم مالا يحيط به دوائر الامكان ، ولا يقوم به قلم ولا لسان •

---

(١) الانعام : ٣٨ (٢) الاعلى : ١ ـ ٣ (٣) البقرة : ٣٠

فالاشتغال بمثل هذا التفسير أليس أولى من صرف العمر بذكر القبور وأهلها ؟ وتشويق الجهلة وحثهم على عبادتها ؟ والالتجاء اليها ؟ مع أنهم لم يقصروا في ذلك ، وهي لديهم من أعظم الواجبات ، بل ليس لهم سوى هذا الكمال من أمور الدنيا والآخرة ، فتراهم مفلسين من كل فضيلة •

ويقال للنبهاني الجاهل القبوري : هلا رأيت كتاب الفاضل الشيخ حسين الجسر الطرابلسي ؟ وقد كتب مانصه : وقد خطر لي حيث وجدت مجالا للكلام ، وسميعا للنداء ، أن أحرر رسالة يستبان منها حقيقة الدين الاسلامي ، وكيفية تحققه لمتبعيه على أسلوب جديد سهل الفهم ، لاتمله الانفس ولا تستوعره الافكار ، يروق العقول الحرة ، ويعجب الاذهان المطلقة عن قيود التعصب ان شاء الله ، انتهى المقصود من نقله •

أفيقال ان الكتاب الذي ألفه فيه مغمز لثالب ؟ كلا ، بل هو كتاب من أجل الكتب المصنفة في هذا الفن ـ ان لم نقل أحسنها ـ فأي فائدة في الكلام مع الفلاسفة الاولين ؟ وأي نفع يترتب على الكلام في عقائد المعتزلة وابطال دلائلهم ، مع تقلص ظل وجودهم من هذا العالم • وفلاسفة العصر لهم فنون أخرى غير فنون أسلافهم ، وسلاحهم الذي يحملونه على أهل الدين غير سلاح أوائلهم ، فينبغي للحازم أن يعد لهم ماينخذلون له وينقادون اليه ، فأي ذنب لمن تمنى تفسيرا على هذا المنهج والمسلك الذي سلكه الفاضل الطرابلسي ، وهلا شد النبهاني رواحله الى هذا الفاضل وتعرف منه دينه ، وداوى أدواء جهله بعقاقير معارفه ؟ أو سافر الى الفاضل السيد بدر الدين الحلبي ؟ فتعلم منه مايخرجه من ظلمات جهالته ، وينور قلبه بأنوار علومه ، فان الرجل ممن ابتلي بداء (النوك) والجهل ، فلا بد له من طبيب حاذق وان قيل إن داء النوك ليس له دواء (١) •

نرى كثيرا من المفسرين يؤل آيات الله تعالى المحكمة ليوافقها مع قواعد هيئة اليونان ، ويطبقها على أصول الحكمة الالهية ، أو الطبيعية اليونانية ، مع مكابدة المشاق وتحمل الصعوبات ، مع أن ماظهر من الفنون الجديدة التي قام على صحتها البرهان يمكن تطبيقها وتوفيقها مع النصوص من غير كلفة لموافقة صحيح المعقول لصريح المنقول •

---

(١) النوك بضم النون وفتحها مع التشديد : هو الحمق

فلم لم يعترض النبهاني القبوري على مثل تفسير الامام فخر الدين الرازي ؟ وقد شحنه من كلام المتكلمين وفلاسفة اليونانيين ، ومتى كانت هذه المباحث لدى المسلمين قبل أن تترجم كتب الفلاسفة ، فاذا لم يعترض على مثل ذلك فلم يعترض على من يسلك ذلك المسلك في الفلسفة الجديدة التي هي أصح وأولى بالاعتبار من هذيان اليونانيين ؟ فهل هذا الكلام منه إلا تحكم وترجيح بلا مرجح . ثم ان هذا القبوري لم يعترض على تفاسير القوم التي فسروا بها كلام الله تعالى ولم يقصدها — من كلامه — رب العالمين ، بل عد مثل هذه التفاسير من أجل المآثر ، وأعظم التحف والمفاخر ، ولم يتكلم بها أبو بكر ولا عمر ولا عثمان ولا علي ولا غيرهم ، فلم يعترض على من تمنى أن يصنف تفسير يدل عليه كلام الله دلالة صريحة ويصدقه العيان ويؤيده البرهان ؟! فأي ذنب لمن يطلب تصنيف مثل هذا التفسير ؟! (نعم) المذنب هو الذي يطلب تصنيف ذلك من هذا الجاهل القبوري الغبي أحد الغلاة ، ويتكلم معه مثل هذا الكلام ، وهو — على ماسمعنا به ممن رآه — من قراء المولد والتهاليل للاموات ، فأين هو من مثل هذه المطالب العالية ؟ فلا شك أن الذي تكلم معه بذلك الكلام ، وطلب منه أن يفسر القرآن ، ومدح كتبه هو من العوام ومن أجهل الناس ، فأي كتاب من كتبه يمدح مع كونها مشحونة بالاكاذيب والمغالاة في الدين ، ويأسف الناظر أن نظر فيها لحظة على فوات جزء من حياته في العبث ، بل ربما بخس تصوره وذهنه بما عقل منها .

(الكلام على قول النبهاني : إن الذي يتصدى لطلب تفسير مشتمل على العلوم العصرية ملحد) قد سبق منا بيان مقصد هذا المتصدي ، وذكرنا أنه ليس من المذنبين بهذا الامل والمقصد ، ولم يكن مقصده الا توفير سواد المسلمين ، وحسن دعوة أعداء الدين ، وتفهيم العوام أجل مقاصد الاسلام ، فكيف يكون مثل هذا هو من الملحدين، والسالكين غير سبيل المؤمنين ، والنبهاني لايحكم بالابتداع والالحاد على من يفسر القرآن برأيه ، ويقول :(أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالبِرِّ)الذي هو الفعل الجميل الموجب لصفاء القلب وذكاء النفس ، ولا تفعلون ماترتقون به من مقام تجلي الافعال الى تجلي الصفات (وأنتم تتلون) كتاب فطرتكم الذي يأمركم بالدين السالك بكم سبيل التوحيد (أفلا تعقلون) فتقيدون مطلقات صفاتكم الذميمة بعقال مأأفيض عليكم من الانوار القديمة ، واطلبوا المدد والعون ممن له القدرة الحقيقية (بالصبر) على مايفعل بكم لكي تصلوا الى مقام الرضا (والصلاة) التي هي المراقبة وحضور القلب لتلقي

تجليات الرب ، وان المراقبة لشاقة الا على المنكسرة قلوبهم اللينة أفئدتهم لقبول أنوار التجليات اللطيفة ، واستيلاء سطواتها القهرية ، فهم الذين يتيقنون أنهم بحضرة ربهم وأنهم اليه راجعون بفناء صفاتهم ومحوها في صفاته ، فلا يجدون في الدار الا شئون الملك اللطيف القهار ، انتهى •

وهذا تفسير قوله تعالى : (أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُون . واسْتَعِينوا بِالصَّبْرِ والصَّلاةِ وإِنَّها لَكَبِيْرَة إلاَّ على الخَاشِعِيْنَ الَّذِيْنَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِم وأَنَّهُمْ اليْهِ راجِعُوْنَ)[1] .

فانظر أيها المنصف العارف باللغة ومدلولاتها ، فمتى دلت ألفاظ هذه الآيات على ماذكروه من المعاني ، وهل هو الا تفسير بما تهوى الانفس ؟!

وحيث انجر الكلام بنا الى هذا المقام وجب أن نذكرهنا بعض القواعد الاصولية المتعلقة بفن التفسير ، ليتميز به الحق من الباطل ، ويعرف الخطأ من الصواب ، ومن الله نستمد الاعانة والتوفيق •

قال شيخ الاسلام تقي الدين أبو العباس أحمد ابن تيمية الحراني ـ قدس الله روحه ـ في كتابه الذي صنفه في أصول التفسير ـ وهو كتاب مفصل حافل لم يؤلف مثله في هذا الفن ـ مانصه : (٢) يجب أن يعلم أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بين لأصحابه معاني القرآن كما بين لهم ألفاظه ، فقوله تعالى : (لِتُبَيِّنَ لِلنَاسِ ما نُزِّلَ إليهِمْ)[3] يتناول هذا وهذا • وقدقال أبو عبدالرحمن السلمي حدثنا الذين كانوا يقرأون القرآن ، كعثمان بن عفان ، وعبد الله بن مسعود ، وغيرهما ، أنهم كانوا اذا تعلموا من النبي صلى الله عليه وسلم عشر آيات لم يتجاوزوها حتى يعلموا مافيها والعمل ، قالوا : فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعا ، ولهذا كانوا يبقون مدة في حفظ السورة ، وقال أنس : كان الرجل اذا قرأ البقرة وآل عمران جل في أعيننا ، رواه أحمد في مسنده ، وأقام ابن عمر على حفظ البقرة ثمان سنين ، أخرجه في الموطأ،

---

(١) البقرة : ٤٤ (٣) النحل : ٤٤

(٢) الواقع أنه نقل كلام شيخ الاسلام ملخصا كما سيذكره فى نهاية هذا الكلام ، وشيخ الاسلام ذكر هذا الكلام فى (مقدمة التفسير) المطبوعة ضمن المجموع جلد ١٣ ص ٣٢٩ ـ ٣٧٥ .

وذلك أن الله تعالى قال : (كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ)[١] وقال : (أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرآنَ)[٢] وتدبر الكلام بدون فهم معانيه لا يمكن . وأيضاً فالعادة تمنع ان يقرأ قوم كتاباً في فن من العلم كالطب والحساب ولا يستشرحونه ، فكيف بكلام الله الذي هو عصمتهم ، وبه نجاتهم وسعادتهم ، وقيام دينهم ودنياهم ، ولهذا كان النزاع بين الصحابة في تفسير القرآن قليلا جدا ، وهو وان كان بين التابعين أكثر منه بين الصحابة فهو قليل بالنسبة الى من بعدهم ، ومن التابعين من تلقي جميع التفسير عن الصحابة ، وربما تكلموا في بعض ذلك بالاستنباط والاستدلال ، والخلاف بين السلف في التفسير قليل ، وغالب مايصح عنهم من الخلاف يرجع الى اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد ، وذلك صنفان : أحدهما أن يعبر واحد منهم عن المراد بعبارة غير عبارة صاحبه تدل على معنى في المسمى غير المعنى الآخر مع اتحاد المسمى ، كتفسيرهم (الصراط المستقيم) بعض بالقرآن أي اتباعه ، وبعض بالاسلام ، فالقولان متفقان ، لأن دين الاسلام هو اتباع القرآن ، ولكن كل منهما نبه على وصف غير الوصف الآخر ، كما أن لفظ صراط يشعر بوصف ثالث ، وكذلك قول من قال هو السنة والجماعة ،وقول من قال هو طريق العبودية ، وقول من قال هو طاعة الله ورسوله ، وأمثال ذلك ، فهؤلاء كلهم أشاروا الى ذات واحدة لكن وصفها كل منهم بصفة من صفاتها .

(الثاني) أن يذكر كل منهم من الاسم العام بعض أنواعه على سبيل التمثيل وتنبيه المستمع على النوع ، لا على سبيل الحد المطابق للمحدود في عمومه وخصوصه مثاله: ما نقل في قوله تعالى :(ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا)[٣] الآية فمعلوم ان الظالم لنفسه يتناول المضيع للواجبات والمنتهك للمحرمات ، والمقتصد يتناول فاعل الواجبات وتارك المحرمات ، والسابق يدخل فيه من سبق فتقرب بالحسنات مع الواجبات ، فالمقتصدون أصحاب اليمين (وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ. أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ)[٤] ثم ان كلا منهم يذكر هذا في نوع من انواع الطاعات ، كقول القائل السابق الذي يصلي في اول الوقت ، والمقتصد الذي يصلي في أثنائه ، والظالم لنفسه الذي يؤخر العصر الى الاصفرار ،

---

(١) سورة ص : ٢٩ (٢) النساء : ٨٧ ومحمد : ٢٤
(٣) فاطر : ٣٢ (٤) الواقعة ١٣ ، ١٤

أو يقول : السابق المحسن بالصدقة مع الزكاة ، والمقتصد الذي يؤدي الزكاة المفروضة فقط ، والظالم مانع الزكاة قال : وهذان الصنفان اللذان ذكرناهما في تنوع التفسير تارة لتنوع الاسماء والصفات ، وتارة لذكر بعض أنواع المسمى ، وهو الغالب في تفسير سلف الامة الذي يظن أنه مختلف ، ومن التنازع — الموجود منهم — مايكون اللفظ فيه محتملا للامرين ، اما لكونه مشتركا في اللغة ، كلفظ (القسورة) الذي يراد به الرامي ، ويراد به الاسد ، ولفظ (عسعس) الذي يراد به اقبال الليل وادباره ، واما لكونه متواطئا في الاصل لكن المراد به أحد النوعين أو أحد الشخصين كالضمائر في قوله :(ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى.فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى)[1] وكلفظ : الفجر والشفع ، والوتر ، وليال عشر ، وأشباه ذلك ، فمثل ذلك قد يجوز أن يراد به كل المعاني التي قالها السلف ، وقد لايجوز ذلك ، فالاول اما لكون الآية نزلت مرتين فأريد بها هذا تارة وهذا تارة ، واما لكون اللفظ المشترك يجوز أن يراد به معنياه ، واما لكون اللفظ متواطئا فيكون عاما اذا لم يكن لتخصيصه موجب ، فهذا النوع اذا صح فيه القولان كان من الصنف الثاني •

ومن الاقوال الموجودة عنهم — ويجعلها بعض الناس اختلافا — أن يعبروا عن المعاني بألفاظ متقاربة ، كما اذا فسر بعضهم (تبسل) بتحبس ، وبعضهم بترتهن ، لأن كلا منهما قريب من الآخر •

(ثم قال فصل) والاختلاف في التفسير على نوعين : منه مامستنده النقل فقط، ومنه مايعلم بغير ذلك ، والمنقول اما عن المعصوم أو غيره ، ومنه مايمكن معرفة الصحيح منه من غيره ، ومنه مالا يمكن ذلك ، وهذا القسم الذي لايمكن معرفة صحيحه من ضعيفه عامته مما لافائدة فيه ، ولاحاجة بنا الى معرفته ،وذلك كاختلافهم في لون كلب أصحاب الكهف واسمه ، وفي البعض الذي ضرب به القتيل من البقرة ، وفي قدر سفينة نوح وخشبها ، وفي اسم الغلام الذي قتله الخضر ، ونحو ذلك ، فهذه الامور طريق العلم بها النقل ، فما كان منه منقولا نقلا صحيحا عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قبل ، ومالا — بان نقل عن أهل الكتاب ككعب ووهب — وقف عن تصديقه وتكذيبه ، لقوله صلى الله عليه وسلم (اذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم) وكذا مانقل عن بعض التابعين وان لم يذكر أنه أخذه عن

---

(١) النجم : ٨ ، ٩

أهل الكتاب ، فمتى اختلف التابعون لم يكن بعض أقوالهم حجة على بعض ، وما نقل في ذلك عن الصحابة نقلا صحيحا فالنفس اليه أسكن مما ينقل عن التابعين ، لأن احتمال أن يكون سمعه من النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أو من بعض من سمعه منه أقوى ، ولأن نقل الصحابة عن أهل الكتاب أقل من نقل التابعين ، ومع جزم الصحابي بما يقوله كيف يقال أنه أخذه عن أهل الكتاب وقد نهوا عن تصديقهم •

وأما القسم الذي يمكن معرفة الصحيح منه فهذا موجود كثير ولله الحمد ، وان قال الامام أحمد ثلاثة ليس لها أصل التفسير والملاحم والمغازي ، وذلك لأن الغالب عليها المراسل ، وأما ما يعلم بالاستدلال لا بالنقل فهذا أكثر مافيه الخطأ من جهتين — حدثنا بعد تفسير الصحابة والتابعين وتابعيهم باحسان ، فان التفاسير التي يذكر فيها كلام هؤلاء صرفا لايكاد يوجد فيها شيء من هاتين الجهتين ، مثل تفسير عبد الرزاق ، والفريابي ، ووكيع ، وعبد ، واسحق ، وأمثالهم — إحداهما : قوم اعتقدوا معاني ، ثم أرادوا حمل ألفاظ القرآن عليها ، والثانية : قوم فسروا القرآن بمجرد مايسوغ أن يريده من كان من الناطقين بلغة العرب ، من غير نظر الى التكلم بالقرآن والمنزل عليه والمخاطب به ، فالاولون راعوا المعنى الذي رأوه من غير نظر الى ماتستحقه ألفاظ القرآن من الدلالة والبيان ، والآخرون راعوا مجرد اللفظ ومايجوز أن يريد به العربي من غير نظر الى مايصلح للمتكلم ولسياق الكلام ، ثم هؤلاء كثيرا مايغلطون في احتمال اللفظ لذلك المعنى في اللغة ، كما يغلط في ذلك الذين قبلهم ، كما أن الاولين كثيرا مايغلطون في صحة المعنى الذي فسروا به القرآن ، كما يغلط في ذلك الآخرون ، وان كان نظر الاولين الى المعنى أسبق ، ونظر الآخرين الى اللفظ أسبق ، والأولون صنفان : تارة يسلبون لفظ القرآن مادل عليه وأريد به ، وتارة يحملونه على مالم يدل عليه ولم يرد به ، وفي كلا الامرين قد يكون ماقصدوا نفيه أو ثباته من المعنى باطلا ، فيكون خطؤهم في الدليل والمدلول ، وقد يكون حقا فيكون خطؤهم في الدليل لا في المدلول ، فالذين أخطؤا فيهما مثل طوائف من أهل البدع اعتقدوا مذاهب باطلة ، وعمدوا الى القرآن فتأولوه على رأيهم ، وليس لهم سلف من الصحابة والتابعين لا في رأيهم ولا في تفسيرهم ، وقد صنفوا تفاسير على أصول مذهبهم ، مثل تفسير عبد الرحمن بن كيسان الاصم ، والجبائي ، وعبد الجبار والرماني ، والزمخشري ، وأمثالهم ، ومن هؤلاء من يكون حسن العبارة ، يدس البدع في كلامه وأكثر الناس لايعلمون ، كصاحب الكشاف ونحوه ، حتى أنه يروج

على خلق كثير من أهل السنة كثيرا من تفاسيرهم الباطلة ، وتفسير ابن عطية وأمثاله اتبع للسنة ، وأسلم من البدعة ، ولو ذكر كلام السلف المأثور عنهم على وجهه لكان أحسن ، فانه كثيرا ماينقل من تفسير ابن جرير الطبري ــ وهو من أجل التفاسير وأعظمها قدرا ــ ثم انه يدع ماينقله ابن جرير عن السلف ويذكر مايزعم أنه قول المحققين ، وانما يعنى بهم طائفة من أهل الكلام ، الذين قرروا أصولهم بطرق من جنس ما قررت به المعتزلة أصولهم ، وان كانوا أقرب الى السنة ، لكن ينبغي أن يعطى كل ذي حق حقه ، فان الصحابة والتابعين والأئمة اذا كان لهم في الآية تفسير وجاء قوم فسروا الآية بقول آخر لأجل مذهب اعتقدوه وذلك المذهب ليس من مذاهب الصحابة والتابعين صار مشاركا للمعتزلة وغيرهم من أهل البدع في مثل هذا .

وفي الجملة من عدل عن مذاهب الصحابة والتابعين وتفسيرهم الى مايخالف ذلك كان مخطئا في ذلك بل مبتدعا لأنهم كانوا أعلم بتفسيره ومعانيه كما أنهم أعلم بالحق الذي بعث الله به رسوله .

وأما الذين أخطئوا في الدليل لا في المدلول ــ كمثل كثير من الصوفية ، والوعاظ ، والفقهاء ، يفسرون القرآن بمعان صحيحة في نفسها ، لكن القرآن لايدل عليها ، مثل كثير مما ذكره السلمى في الحقائق ــ فان كان فيما ذكروه معاني باطلة دخل في القسم الاول ، انتهى كلام شيخ الاسلام ملخصا .

فقد علم من كلامه ــ رحمه الله تعالى ــ أن من فسر القرآن تفسيرا لايخرج به عن السنة ، ولا يذكر فيه شيئا يناقض المنصوص ، ويذكر مادل عليه لفظ القرآن بأوجز عبارة ، وألطفها وأوضحها ، ويبين محاسن مااشتمل عليه الكتاب الكريم من الاحكام ، وما أخبر به من أمور الدنيا والآخرة ، وبيان الحكم المشتمل عليها مما ينطبق على الفنون الصحيحة على ممر الاعصر والايام ــ فكيف يكون المتصدي لمثل هذا التفسير والطالب له ملحدا أو مبتدعا ، ويكون النبهاني الذي يحكم بغير ماأنزل الله من قوانين محاكم العدلية مسلما على المنهج المستقيم ؟! سبحانك هذا بهتان عظيم ! قال الله عز ذكره ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾[1] ومحبة الرسول باتباعه لا بالعمل على خلاف شريعته ، ولا بالغلو فيه كما غلا النبهاني ، حيث

---

(1) آل عمران : ٣١ .

اعتقد أن النبي صلى الله عليه وسلم لايخلو منه زمان ولا مكان ، يريد بذلك أنه ما من زمان الا وهو فيه موجود ، وما من مكان الا وهو فيه موجود ، وهذه مقالة شنيعة في الغلو في النبي صلى الله عليه وسلم ، وانزال له فوق منزلته التي أنزله الله بها ، فان هذا اشراك للنبي صلى الله عليه وسلم في أخص أوصاف الباري جل شأنه(٢) فكيف يدعي محبته من يقول بهذه المقالة ، ثم يصرف عمره في الحكم بغير ماأنزل الله ، ويذب عن البدع ويحث عليها ، ويشتم المحامين عن السنة النبوية ، والمحافظين على التوحيد ، وسائر ماوردت به الشريعة الغراء ، كشيخ الاسلام ابن تيمية وأضرابه ، فهل يتردد المنصف في أن مثل النبهاني أعدى الاعداء لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ؟! •

(الكلام على قول النبهاني أن الوهابية مبتدعة غير أن ضررهم دون من قبلهم)

وأخذ يشتم المسلمين بكل ماهو أهل له ، ولا بد من الكلام على حقيقة ما عليه أهل نجد ، وبيان حال خصومهم وعقائدهم ، ليتبين الناظر المنصف من المبتدع ومن الزائغ عن المحجة البيضاء •

قال العلامة الشيخ عبد اللطيف النجدي ــ من أحفاد الامام الشيخ محمد عليهما الرحمة ــ في كتابه (منهاج التأسيس في الرد على ابن جرجيس) ونقص عليك شيئا عن سيرة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، ونذكر طرفا من أخباره وأحواله ، ليعلم الناظر فيه حقيقة أمره ، فلا يروج عليه تشنيع من استحوذ عليه الشيطان ، وأغراه ، وبالغ في كفره واستهواه ، فنقول : قد عرف واشتهر واستفاض من تقارير الشيخ ومراسلاته ، ومصنفاته المسموعة المقروءة عليه ، وما ثبت بخطه ، وعرف واشتهر من أمره ودعوته ، وما عليه الفضلاء النبلاء من أصحابه وتلامذته : انه على ما كان عليه السلف الصالح ، وأئمة الدين أهل الفقه والفتوى في باب معرفة الله تعالى ، واثبات صفات كماله ، ونعوت جلاله ، التي نطق بها الكتاب العزيز ، وصحت بها الاخبار النبوية ، وتلقاها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقبول والتسليم ، يثبتونها ويؤمنون بها ويمرونها كما جاءت ، من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تكييف ولا تمثيل ، وقد درج على هذا من بعدهم من التابعين وتابعيهم من أهل العلم والايمان ، وسلف الامة وأئمتها ، كسعيد بن المسيب ، وعروة بن الزبير ،

---

(٢) تقدم التنبيه على مثل هذا ص : ٤٨

والقاسم بن محمد ، وسالم بن عبد الله ، وطلحة بن عبيد الله ، وسليمان بن يسار وأمثالهم ، ومن الطبقة الثانية كمجاهد بن جبير ، وعطاء بن أبي رباح ، والحسن البصري ، وابن سيرين ، وعامر الشعبي ، وجنادة بن أبي أمية ، وحسان بن عطية ، وأمثالهم ، ومن الطبقة الثالثة علي بن الحسين ، وعمر بن عبد العزيز ، ومحمد بن مسلم الزهري ، ومالك بن أنس وابن أبي ذئب ، وابن الماجشون ، وكحماد بن سلمة، وحماد بن زيد ، والفضيل بن عياض ، وعبد الله بن المبارك ، وأبي حنيفة النعمان بن ثابت ، ومحمد بن ادريس ، واسحق بن ابراهيم ، وأحمد بن حنبل ، ومحمد بن اسمعيل البخاري ، ومسلم بن حجاج القشيري ، واخوانهم وأمثالهم ونظرائهم من أهل الفقه والاثر في كل مصر وعصر .

وأما توحيد العبادة والالهية فلا خلاف بين أهل الاسلام فيما قاله الشيخ وثبت عنه من المعتقد الذي دعا اليه ، يوضح ذلك أن أصل الاسلام وقاعدته شهادة أن لا اله الا الله ، وهي أصل الايمان بالله وحده ، وهي أفضل شعب الايمان ، وهذا الاصل لابد فيه من العلم والعمل والاقرار باجماع المسلمين ، ومدلوله وجوب عبادة الله وحده لا شريك له ، والبراءة من عبادة ماسواه كائنا من كان ، وهذا هو الحكمة التي خلقت لها الانس والجن ، وأرسل لها الرسل ، وأنزلت بها الكتب ، وهي تتضمن كمال الذل والحب ، وتتضمن كمال الطاعة والتعظيم ، وهذا هو دين الاسلام الذي لايقبل الله دينا غيره ، لا من الاولين ولا من الآخرين ، فان جميع الانبياء على دين الاسلام ، وهو يتضمن الاستسلام لله وحده ، فمن استسلم له ولغيره كان مشركا ، ومن لم يستسلم له كان مستكبرا عن عبادته : قال الله تعالى : (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبوا الطَّاغُوتَ)[1] وقال تعالى : (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إلا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إله إلا أنا فَاعْبُدُونِ)[2] وقال تعالى عن الخليل: (وإِذْ قَالَ إِبراهيمُ لأَبيهِ وَقَومِهِ إِنَّني بَرآءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ . إلاَّ الَّذي فَطَرَني فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ . وَجَعَلَها كَلِمَةً باقِيَةً في عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)[3] وقال تعالى عنه :

---

(١) النحل : ٣٦ (٢) الانبياء : ٢٥ (٣) الزخرف : ٢٦ ــ ٢٨ .

(أَفرَأَيتم ما كنتم تعبدون. أنتم وآباؤكم الأقدمون . فإنهم عدوٌّ لي إلا ربَّ العالمين)[1] وقال : (قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنَّا برآءُ منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده)[2] وقال تعالى : (واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون)[3] وذكر عن رسله نوح وهود وصالح وشعيب وغيرهم أنهم قالوا لقومهم : (اعبدوا الله ما لكم من إله غيره)[4] وقال عن أهل الكهف (إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى . وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض لن ندعو من دونه إلها لقد قلنا إذاً شططاً . هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة لولا يأتون عليهم بسلطان بين فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً)[5] وقال الله تعالى : (إن الله لا يغفر أن يشرك به)[6] في موضعين من كتابه ، وقال تعالى : (إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار)[7] .

قال رحمه الله : والشرك المراد بهذه الايات ونحوها يدخل فيه شرك عباد القبور ، وعباد الانبياء ، والملائكة ، والصالحين ، فان هذا هو شرك جاهلية العرب الذين بعث فيهم عبد الله ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، فانهم كانوا يدعونها ، ويلتجؤن اليها ، ويسألونها على وجه التوسل بجاهها وشفاعتها ، لتقربهم الى الله ، كما حكى الله ذلك عنهم في مواضع من كتابه ، كقوله تعالى : (ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله)[8] وقال تعالى:

---

(١) الشعراء : ٧٥ ـ ٧٧ (٢) الممتحنة : ٤ (٣) الزخرف : ٤٥ (٤) هود : ٥٠ ، ٦١ ، ٨٤ . (٥) الكهف : ١٣ ـ ١٥ (٦) النساء : ٤٨ ، ١١٦ (٧) المائدة : ٧٢ . (٨) يونس : ١٨

(والَّذين اتَّخَذوا من دُونه أَوْلياءَ ما نَعْبُدُهُمْ إلاَّ لِيُقرِّبونا الى الله زُلفى)[1] وقال تعالى : (فَلولا نَصرَهُمُ الَّذينَ اتَّخَذوا من دُون اللهِ قْربانا آلهَةً بلْ ضَلوا عَنهُم ، وذَلِكَ إفكُهُم وما كانُوا يَفتَرون)[2] .

(قال رحمه الله) ومعلوم أن المشركين لم يزعموا أن الانبياء والاولياء والصالحين والملائكة شاركوا الله في خلق السموات والارض ، واستقلوا بشيء من التدبير والتأثير والايجاد ولو في خلق ذرة من الذرات ، قال تعالى : (وَلئن سَألتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّموات والارضَ لَيقولُنَّ اللهُ ، قُلْ أفرَأيْتُمْ ما تَدعونَ من دُون اللهِ إن أرادَني اللهُ بِضرٍّ هَلْ هُنَّ كاشفاتُ ضُرِّه أو أرادَني برَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكاتُ رَحْمَتِه ؟ ! قُلْ : حَسْبيَ اللهُ عَلَيهِ يَتَوكَّلِ المتَوكِّلون)[3] فهم معترفون بهذا مقرون به لاينازعون فيه ، ولذلك حسن موقع الاستفهام ، وقامت الحجة بما أقروا به من هذه الجمل ، وبطلت عبادة من لايكشف الضر ولا يمسك الرحمة ، ولا يخفى مافي التنكير من العموم والشمول المتناول لا قل شيء وأدناه من ضر أو رحمة ، وقال تعالى : (قُلْ لِمَن الأرْضُ وَمَنْ فيْها إنْ كُنتم تَعلَمُونَ) الى (فأنّى تُسحَرُونَ)[4] وقال تعالى : (وما يُؤمِنُ أكْثَرُهُمْ باللهِ إلا وهُمْ مُشرِكُون)[5] ذكر فيه السلف ــ كابن عباس وغيره ــ ايمانهم هنا بما أقروا به من ربوبيته وملكه، وفسر شركهم بعبادة غيره .

(قال رحمه الله) وقد بين القرآن في غير موضع أن من المشركين من أشرك بالملائكة ، ومنهم من أشرك بالانبياء والصالحين ، ومنهم من أشرك بالكواكب ، ومنهم من أشرك بالاصنام ، وقد رد عليهم جميعهم وكفر كل أصنافهم ، كما قال تعالى : (ولا يأمُرَكُم أنْ تَتَّخِذوا الملائكَةَ والنَّبيينَ أرباباً أيأمُرُكُم بالكفر

---

(١) الزمر : ٣ (٢) الاحقاف : ٢٨ (٣) الزمر : ٣٨ (٤) المؤمنون : ٨٤ ــ ٨٩ (٥) يوسف : ١٠٦

بَعد إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ)[1] وقال تعالى: (اتَّخَذُوا أَحْبارهم ورُهْبانَهُمْ أَرباباً من دُونِ اللهِ والمسيحَ ابنَ مَريَم)[2] الآيه. وقال: (لن يَستنكِفَ المسيحُ أَنْ يَكونَ عَبداً للهِ ولا الملائكَةُ المقرّبُونَ)[3] ونحو ذلك في القرآن كثير، وبه يعلم المؤمن أن عبادة الانبياء والصالحين كعبادة الكواكب والاصنام من حيث الشرك والكفر بعبادة غير الله.

(قال رحمه الله) وهذه العبادات التي صرفها المشركون لآلهتهم هي أفعال العبد الصادرة منه، كالحب، والخضوع والانابة، والتوكل والدعاء، والاستعانة والاستغاثة، والخوف والرجاء، والنسك والتقوى، والطواف ببيته رغبة ورجاء، وتعلق القلوب والآمال بفيضه ومده واحسانه وكرمه، فهذه الانواع أشرف أنواع العبادة وأجلها، بل هي لب سائر الاعمال الاسلامية وخلاصتها، وكل عمل يخلو منها فهو خداج مردود على صاحبه، وانما أشرك وكفر من كفر من المشركين بقصد غير الله بهذا وتأهيله لذلك قال تعالى: (أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَن لا يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ)[4] وقال تعالى: (أَمْ لَهم آلهةٌ تَمنعهم من دُونِنا لا يَسْتَطيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ ولا هُمْ منّا يُصْحَبُونَ)[5] وقال تعالى: (إِتَّخَذُوا من دُونِهِ آلِهةً لا يَخْلُقُونَ شَياً وَهُمْ يُخْلَقُونَ)[6] الآية، وحكى عن أهل النار أنهم يقولون لآلهتهم التي عبدوها مع الله: (تَاللهِ إِنْ كُنَّا لَفي ضَلالٍ مُبِينٍ. إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ العالَمِينَ)[7]. ومعلوم أنهم ماسووهم به في الخلق والتدبير والتأثير، وانما كانت التسوية في الحب والخضوع، والتعظيم والدعاء، ونحو ذلك من العبادات.

(قال رحمه الله) فجنس هؤلاء المشركين وأمثالهم ممن يعبد الاولياء والصالحين نحكم بأنهم مشركون، ونرى كفرهم اذا قامت عليهم الحجة الرسالية، وما عدا هذا من الذنوب التي دونه في الرتبة والمفسدة لانكفر بها، ولا نحكم على أحد من أهل القبلة — الذين باينوا عباد الاوثان والاصنام والقبور — بكفر بمجرد ذنب ارتكبوه

---

(١) آل عمران: ٨٠ (٢) التوبة: ٣١ (٣) النساء: ١٧٢ (٤) النحل: ١٧ (٥) الانبياء: ٤٣ (٦) الفرقان: ٣ (٧) الشعراء: ٩٧، ٩٨.

وعظيم جرم اجترحوه ، وغلاة الجهمية والقدرية والرافضة ونحوهم ممن كفرهم السلف لانخرج فيهم عن أقوال أئمة الهدى والفتوى من سلف هذه الامة ، ونبرأ الى الله مما أتت به الخوارج وقالته في أهل الذنوب من المسلمين .

(قال رحمه الله) ومجرد الاتيان بلفظ الشهادة من غير علم بمعناها ولا عمل بمقتضاها لايكون به المكلف مسلما ، بل هو حجة على ابن آدم ، خلافا لمن زعم أن الايمان مجرد الاقرار كالكرامية ، ومجرد التصديق كالجهمية ، وقد أكذب الله المنافقين فيما أتوا به وزعموه من الشهادة ، وسجل على كذبهم مع أنهم أتوا بألفاظ مؤكدة بأنواع من التأكيدات ، قال تعالى : (إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله ، والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون)[1] فأكدوا بلفظ الشهادة وان المؤكدة واللام والجملة الاسمية ، فاكذبهم وأكد تكذيبهم بمثل ماأكدوا به شهادتهم سواء بسواء ، وزاد التصريح باللقب الشنيع والعلم البشيع الفظيع ، وبهذا تعلم أن مسمى الايمان لابد فيه من الصدق والعمل ، ومن شهد أن لا اله الا الله وعبد غيره فلا شهادة له وان صلى وزكى وصام وأتى بشيء من أعمال الاسلام ، قال تعالى لمن آمن ببعض الكتاب ورد بعضا : (أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض)[2] الآية ، وقال تعالى : (إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا)[3] الآية ، وقال تعالى : (ومن يدع مع الله الهاً آخر لا برهان له به فانما حسابه عند ربه)[4] الآية .

(والكفر نوعان) مطلق ومقيد ، فالمطلق أن يكفر بجميع ماجاء به الرسول ، والمقيد أن يكفر ببعض ماجاء به الرسول ، حتى أن بعض العلماء كفر من أنكر فرعا مجمعا عليه ــ كتوريث الجد والاخت ــ وان صلى وصام ، فكيف بمن يدعو الصالحين ، ويصرف لهم خالص العبادة ولبها ، وهذا مذكور في المختصرات من كتب المذاهب الاربعة ، بل كفروا ببعض الالفاظ التي تجري على السن بعض الجهال ، وان صلى وصام من جرت على لسانه .

---

(١) المنافقون : ١ (٢) البقرة : ٨٥ (٣) النساء : ١٥٠ .
(٤) المؤمنون : ١١٧

(قال رحمه الله) والصحابة كفـروا من منع الزكاة وقاتلـــوهم مع اقرارهم بالشهادتين ، والاتيان بالصلاة والصوم والحج •

(قال رحمه الله) واجتمعت الامة على كفر بني عبيد القداح مع أنهم يتكلمون بالشهادتين ويصلون ويبنون المساجد في قاهرة مصر وغيرها •

(وذكر ابن الجوزي) أنه صنف كتابا في وجـوب غزوهم وقتالهم ، سماه (النصر على مصر) قال : وهذا يعرفه من له أدنى المام بشيء من العلم والدين ،فتشبيه عباد القبور بأنهم يصلون ويصومون ويؤمنون بالبعث مجرد تعمية على العوام وتلبيس لينفق شركهم ، ويقال باسلامهم وايمانهم ، ويأبى الله ذلك ورسوله والمؤمنون •

(وأما مسائل القدر والجبر) والارجاء والامامة والتشيـع ونحو ذلـك من المقالات والنحل فهو أيضا فيها على ماكان عليه السلف الصالح ، وأئمة الهدى والدين يبرأ مما قالته القدرية النفاة والقدرية المجبرة ، وما قالته المرجئة والرافضة ، وما عليه غلاة الشيعة والناصبة ، يوالي جميع أصحاب رسول اللـه صلى الله عليه وسـلم ، ويكف عما شجر بينهم ، ويرى أنهم أحق الناس بالعفو عما يصدر منهم ، وأقـرب الخلق الى مغفرة الله واحسانه ، لفضائلهم وسوابقهـم وجهـادهم ، وما جرى على أيديهم من فتح القلوب بالعلم النافع والعمل الصالح ، وفتح البلاد ، ومحو آثـار الشرك ، وعبادة الاوثان والنيران ، والاصنام والكواكب ، ونحو ذلك مما عبـده جهال الانام ، ويرى البراءة مما عليه الرافضة ، وأنهم سفهاء لئام ، ويرى أن أفضـل الامة بعد نبيها أبو بكر ، فعمر ، فعثمان ، فعلي ، رضي الله تعالى عنهم أجمعـين ، ويعتقد أن القرآن الذي نزل به الروح الامين على قلب سيد المرسلين وخاتم النبيين ، كلام الله غير مخلوق ، منه بدا واليه يعود ، ويبرأ من رأى الجهمية القائلين بخلـق القرآن ، ويحكي تكفيرهم عن جمهور السلف أهل العلم والايمان ، ويبرأ من رأى الكلابية أتباع عبد الله بن سعيد ابن كلاب ، القائلين بأن كلام الله هو المعنى القائم بنفس الباري ، وأن ماتزل به جبريل حكاية أو عبارة عن المعنى النفسي ، ويقول هذا من قول الجهمية ، وأول من قسم هذا التقسيم هو ابن كلاب ، وأخذ عنه الاشعري وغيره كالقلانسي ، ويخالف الجهمية في كل ماقالوه وابتدعوه في دين الله ، ولا يرى ما ابتدعه الصوفية من البدع والطرائق المخالفة لهدى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وسنته في العبادات والخلوات والاذكار المخالفة للمشروع ، ولا يرى ترك السنن والاخبار النبوية لرأي فقيه ، ومذهب عالم خالف ذلك باجتهاده ، بل السنة

أجل في صدره وأعظم عنده من أن تترك لقول أحد كائنا من كان ، قال عمر بن عبد العزيز : لا رأى لأحد مع سنة سنها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، نعم عند الضرورة وعدم الاهلية والمعرفة بالسنن والاخبار وقواعد الاستنباط والاستظهار يصار الى التقليد لا مطلقا بل فيما يتعسر ويخفى ، ولا يرى ايجاب ماقاله المجتهد الا بدليل تقوم به الحجة من الكتاب والسنة ، خلافا لغلاة المقلدين ، ويوالي الأئمة الاربعة ، ويرى فضلهم وامامتهم ، وأنهم من الفضل والفضائل في غاية ورتبة يقصر عنها المتطاول ، ويوالي كافة أهل الاسلام وعلماءهم ، من أهل الحديث والفقه والتفسير وأهل الزهد والعبادة ، ويرى المنع من الانفراد عن أئمة الدين من السلف الماضين برأي مبتدع أو قول مخترع ، فلا يحدث في الدين ماليس له أصل يتبع وما ليس من أقوال أهل العلم والاثر ، ويؤمن بما نطق به الكتاب وصحت به الاخبار وجاء الوعيد عليه من تحريم دماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم ، ولا يبيح من ذلك الا ماأباحه الشرع وأهدره الرسول ، ومن نسب اليه خلاف هذا فقد كذب وافترى وقال ماليس له به علم ، وسيجزيه الله ماوعد به أمثاله من المفترين .

وأبدى رحمه الله تعالى من التقارير المفيدة ، والابحاث الفريدة على كلمة الاخلاص والتوحيد ــ شهادة أن لا اله الا الله ــ مادل عليه الكتاب المصدق ، والاجماع المستبين المحقق ، من نفى استحقاق العبادة والالهية عما سوى الله ،واثبات ذلك لله سبحانه على وجه الكمال المنافي لكليات الشرك وجزئياته ، وان هذا هو معناها وضعا ومطابقة ، خلافا لمن زعم غير ذلك من المتكلمين ، كمن يفسر ذلك بالقدرة على الاختراع ، أو بأنه تعالى غني عما سواه ، مفتقر اليه ماعداه ، فان هذا لازم المعنى ، اذ الاله الحق لايكون الا قادرا غنيا عما سواه ، واما كون هذا هو المعنى المقصود بالوضع فليس كذلك ، والمتكلمون خفي عليهم هذا وظنوا أن تحقيق توحيد الربوبية والقدرة هو الغاية المقصودة ، والفناء فيه هو تحقيق التوحيد ، وليس الامر كذلك ، بل هذا لايكفي في الايمان وأصل الاسلام الا اذا أضيف اليه واقترن به توحيد الالهية ، وافراد الله بالعبادة ، والحب ، والخضوع ، والتعظيم ، والانابة ، والتوكل ، والخوف ، والرجاء ، وطاعة الله وطاعة رسوله .

هذا أصل الاسلام وقاعدته ، والتوحيد الاول توحيد الربوبية والقدرة والخلق والايجاد هو الذي بنى عليه توحيد العمل والارادة ، وهو دليله الاكبر ، وأصله

الاعظم ، كما قال تعالى : (وَإِلٰهُكُم إِله واحِدٌ لا إِله الا هُو الرحمنُ الرَّحِيم)[1] إلى آخر الآيات •

قال العلامة ابن القيم رحمه الله :

ان كان ربك واحدا سبحانه فاخصصه بالتوحيد مع احسان
أو كان ربك واحدا أنشاك لم يشركه إذ أنشاك رب ثان
فكذاك أيضا وحده فاعبده لا تعبد سواه يا أخا العرفان

وهذه الجمل منقولة عن السلف والأئمة من المفسرين وغيرهم من أهل اللغة اجمالا وتفصيلا •

(وقد قرر رحمه الله) على شهادة أن محمدا رسول الله ــ من بيان ماتستلزمه هذه الشهادة وتستدعيه وتقتضيه من تجريد المتابعة ، والقيام بالحقوق النبوية من الحب والتوقير والنصرة والمتابعة والطاعة ، وتقديم سنته صلى الله عليه وسلم على كل سنة وقول ، والوقوف معها حيث ماوقفت والانتهاء حيث انتهت ، في أصول الدين وفروعه ، باطنه وظاهره ، خفيه وجليه ، كليه وجزئيه ــ ماظهر به فضله ، وتأكد علمه ونبله ، وأنه سباق غايات ، وصاحب آيات ، لا يشق غباره ، ولا تدرك في البحث والافادة آثاره ، وأن أعداءه ومنازعيه ، وخصومه في الفضل وشانيه ، يصدق عليهم المثل السائر بين أهل المحابر والدفاتر :

حسدوا الفتى اذ لم ينالوا سعيه فالناس أعداء له وخصوم
كضرائر الحسناء قلن لوجهها حسدا وبغيا انه لدميم

(وله رحمه الله) من المناقب والمآثر مالايخفى على أهل الفضائل والبصائر ، ومما اختصه الله به من الكرامة تسلط أعداء الدين وخصوم عباد الله المؤمنين على مسبته ، والتعرض لبهته وغيبته • قال الشافعي رحمه الله تعالى : ماأرى الناس ابتلوا بشتم أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الا ليزيدهم الله بذلك ثوابا عند انقطاع أعمالهم ، وأفضل الامة بعد نبيها أبو بكر وعمر ، وقد ابتليا من طعن أهل الجهالة والسفاهة بما لايخفى ؛ ومما حكيناه عن الشيخ حكاه أهل المقالات عن أهل السنة والجماعة مجملا ومفصلا : قال وهذه عبارة أبي الحسن الاشعري في كتابه (مقالات الاسلاميين واختلاف المصلين) قال أبو الحسن الاشعري :

---

(١) البقرة : ١٦٣

جملة ماعليه أصحاب الحديث وأهل السنة الاقرار بالله ، وملائكته ، وكتبه ورسله ، وما جاء من عند الله ، وما رواه الثقات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لايردون من ذلك شيئا ، والله تعالى اله واحد فرد صمد ، لم يتخذ صاحبة ولا ولدا ، وأن محمدا عبده ورسوله ، وأن الجنة حق وأن النار حق ، وأن الساعة آتية لاريب فيها ، وأن الله يبعث من في القبور ، وأن الله تعالى على عرشه ، كما قال : (الرَّحْمنُ على الْعَرشِ اسْتَوى)[(١)] وأن له يدين بلا كيف ، كما قال : (لما خَلَقْتُ بِيَدَيَّ)[(٢)] وكما قال:(بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتان)[(٣)] وأن له عينين بلا كيف ، وأن له وجها جل ذكره ، كما قال تعالى :(وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الجلالِ والإِكْرام)[(٤)] وأن أسماء الله تعالى لايقال إنها غير الله كما قالت المعتزلة والخوارج ، وأقروا أن لله علما ، كما قال: (أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ)[(٥)] وكما قال :(وَمَا تَحْمِلُ من أُنْثى وَلاَ تَضَعُ إلاَّ بِعِلْمِهِ)[(٦)] وأثبتوا السمع والبصر ، ولم ينفوا ذلك كما نفته المعتزلة ، وأثبتوا لله القوة ، كما قال : (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذي خَلقهم هُوَ أَشَدُّ مِنهم قُوَّة)[(٧)]وقالوا انه لايكون في الارض من خير ولا شر الا ماشاء الله وأن الاشياء تكون بمشيئة الله تعالى ، كما قال : (وَمَا تَشاؤُنَ إلاَّ أَنْ يَشاءَ اللهُ)[(٨)]وكما قال المسلمون ما شاء الله كان ومالم يشأ لم يكن ، وقالوا إن أحدا لايستطيع أن يفعل شيئا قبل أن يفعله ، أو يكون أحد يقدر على أن يخرج عن علم الله ، وأن يفعل شيئا علم الله أنه لايفعله ، وأقروا أنه لاخالق الا الله ، وأن أعمال العباد يخلقها الله ، وأن العباد لايقدرون أن يخلقوا شيئا ، وأن الله تعالى وفق المؤمنين لطاعته ، وخذل الكافرين بمعصيته ، ولطف للمؤمنين ونظر لهم وأصلحهم وهداهم ، ولم يلطف للكافرين ولا أصلحهم ولا هداهم ، ولو أصلحهم لكانوا صالحين ، ولو هداهم لكانوا مهتدين ، وأن الله تعالى يقدر أن يصلح الكافرين ويلطف لهم حتى يكونوا مؤمنين ، ولكنه أراد أن يكونوا كافرين كما علم ، وخذلهم وأضلهم وطبع على قلوبهم ، وأن الخير والشر بقضاء الله وقدره ، ويؤمنون بقضاء الله وقدره ، خيره وشره ، حلوه

---

(١) طه : ٥ (٢) ص : ٧٥ (٣) المائدة : ٦٤ (٤) الرحمن : ٢٧ (٥) النساء : ١٦٦ (٦) فاطر : ١١
(٧) فصلت : ١٦ (٨) التكوير : ٢٩

ومره ، ويؤمنون أنهم لايملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا الا ماشاء الله كما قال . ويلجؤن أمرهم الى الله ، ويثبتون الحاجة الى الله في كل وقت ، والفقر الى الله في كل حال ، ويقولون أن القرآن كلام الله غير مخلوق ، والكلام في الوقف واللفظ ، من قال باللفظ أو بالوقف فهو مبتدع عندهم ، لايقال اللفظ بالقرآن مخلوق ولايقال غير مخلوق ، ويقولون أن الله تعالى يرى بالابصار يوم القيامة كما يرى القمر ليلة البدر ، ويراه المؤمنون ولا يراه الكافرون ، لأنهم عن الله محجوبون ، قال الله تعالى: (كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ)[1] وأن موسى سأل الله سبحانه الرؤية في الدنيا، وأن الله تعالى تجلى للجبل فجعله دكا فأعلمه بذلك أنه لايراه في الدنيا بل يراه في الآخرة ، ولم يكفروا أحدا من أهل القبلة بذنب يرتكبه كنحو الزنا والسرقة وماأشبه ذلك من الكبائر ، وهم بما معهم من الايمان مؤمنون وان ارتكبوا الكبائر ، والايمان عندهم هو الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله وبالقدر خيره وشره ، وحلوه ومره، وان ماأخطأهم لم يكن ليصيبهم ، وان ماأصابهم لم يكن ليخطئهم ، والاسلام هو أن يشهد أن لا اله الا الله على ماجاء في الحديث ، والاسلام عندهم غير الايمان ، ويقرون بأن الله مقلب القلوب ، ويقرون بشفاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنها لأهل الكبائر من أمته ، وبعذاب القبر ، وأن الحوض حق ، والمحاسبة من الله للعباد حق ، والوقوف بين يدي الله حق ، ويقرون بأن الايمان قول وعمل يزيد وينقص ، ولا يقولون مخلوق ولا غير مخلوق ، ويقولون أسماء الله هي الله ، ولا يشهدون على أحد من أهل الكبائر بالنار ، ولا يحكمون بالجنة لأحد من الموحدين حتى يكون الله تعالى نزلهم حيث شاء ، ويقولون أمرهم الى الله ان شاء عذبهم وان شاء غفر لهم ، ويؤمنون بأن الله تعالى يخرج قوما من الموحدين من النار على ماجاءت به الروايات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وينكرون الجدل والمراء في الدين ، والخصومة في القدر ، والمناظرة فيما يتناظر فيه أهل الجدل ويتنازعون فيه من أمر دينهم بالتسليم للروايات الصحيحة ، ولما جاءت به الآثار التي رواها الثقات عدلا عن عدل حتى ينتهي ذلك الى رسول صلى الله عليه وسلم ، ولا يقولون كيف ؟ ولا لم ؟ لأن ذلك بدعة ، ويقولون أن الله لم يأمر بالشر ، بل نهى عنه ، وأمر بالخير ، ولم يرض بالشر وان كان مريدا له ، ويعرفون حق السلف الذين اختارهم الله تعالى

لصحبة نبيه صلى الله عليه وسلم ، ويأخذون بفضائلهم ، ويمسكون عما شجر بينهم صغيرهم وكبيرهم ، ويقدمون أبا بكر ، ثم عمر ، ثم عثمان ، ثم عليا رضي الله تعالى عنهم ، ويقرون أنهم الخلفاء الراشدون المهديون ، وأنهم أفضل الناس كلهم بعد النبي صلى الله عليه وسلم ، ويصدقون بالاحاديث التي جاءت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الله ينزل الى سماء الدنيا فيقول : هل من مستغفر ؟ كما جاء في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويأخذون بالكتاب والسنة ، كما قال الله تعالى: (فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول)[1] ويرون اتباع من سلف من أئمة الدين ، وان لايبتدعوا في دينهم ما لم يأذن به الله ، ويقرون أن الله تعالى يجيء يوم القيمة ، كما قال : (وجاء ربك والملك صفا صفا)[2] وان الله تعالى يقرب من خلقه كيف يشاء ، كما قال تعالى : (ونحن أقرب اليه من حبل الوريد)[3] ويرون العيد والجمعة والجماعة خلف كل امام بر وفاجر ، ويثبتون المسح على الخفين سنة ، ويرونه في الحضر والسفر ، ويثبتون فرض الجهاد للمشركين منذ بعث الله نبيه صلى الله عليه وسلم الى آخر عصابة تقاتل الدجال ، وبعد ذلك يرون الدعاء لأئمة المسلمين بالصلاح ، وأن لايخرج عليهم بالسيف ، وأن لايقاتلوا في الفتنة ، ويصدقون بخروج الدجال ، وأن عيسى بن مريم يقتله ، ويؤمنون بمنكر ونكير ، والمعراج والرؤيا في المنام ، وأن الدعاء لموتى المسلمين والصدقة عنهم بعد موتهم تصل اليهم ، ويصدقون بأن في الدنيا سحرة ، وأن الساحر كافر ، كما قال الله تعالى ، وان السحر كائن موجود في الدنيا ، ويرون الصلاة على كل من مات من أهل القبلة مؤمنهم وفاجرهم ، ويقرون أن الجنة والنار مخلوقتان ، وأن من مات مات بأجله ، وكذلك من قتل قتل بأجله ، وأن الارزاق من قبل الله تعالى يرزقها عباده حلالا كانت أو حراما ، وأن الشيطان يوسوس للانسان ويشككه ويخبطه ، وأن الصالحين قد يجوز أن يخصهم الله تعالى بآيات تظهر عليهم ، وأن السنة لاتنسخ القرآن ، وأن الاطفال أمرهم الى الله ان شاء عذبهم وان شاء فعل بهم ماأراد ، وأن الله عالم ما العباد عاملون ، وكتب أن ذلك يكون ، وأن الامور بيد الله تعالى ، ويرون الصبر على حكم الله تعالى ، والأخذ بما أمر الله به ، والانتهاء عما نهى الله عنه ، واخلاص العمل والنصيحة لجماعة

---

(١) النساء : ٥٩ (٢) الفجر : ٢٢
(٣) ق : ١٦

المسلمين ، واجتناب الكبائر والزنا وقول الزور والمعصية والفخر والكبر والازراء على الناس والعجب ، ويرون مجانبة كل داع الى بدعة ، والتشاغل بقراءة القرآن ، وكتابة الآثار ، والنظر في الفقه ، مع التواضع والاستكانة ، وحسن الخلق ، وبذل المعروف ، وكف الاذى ، وترك الغيبة والنميمة والسعاية ، وتفقد المأكل والمشرب ، فهذه جملة مايأمرون به ويعتقدونه ويرونه ، وبكل ماذكرنا من قولهم نقول ، واليه نذهب ، وما توفيقنا الا بالله ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ، انتهى •

هذاما يعتقده أهل نجد ومن يوافقهم ، فكيف يقال أنهم مبتدعون ؟ ولكن الامر كما قيل : —

ومن يك ذا فم مر مريض　　　يجد مرا به الماء الزلالا

وهذا النبهاني الجاهل من أشد الناس عداوة للذين آمنوا ، ولذلك يرميهم بكل منكر ، واذا ذكر اخوانه المبتدعة ذكرهم بكل تعظيم •

ثم ان الشيخ عبد اللطيف لماذكر في منهاجه معتقد جده واتباعه ذكر طرفا من حال هذا المبتدع واخوانه ، وعقد فصلا لذلك ، فقال : —

ونذكر لك طرفا من معتقد عباد القبور والصالحين ، وحقيقة ماهم عليه من الدين ليعلم الواقف عليه أي الفريقين أحق بالامن ، ان كان الواقف ممن اختصه الله تعالى بالفضل والمن ، ولئلا يلتبس الامر بتسميتهم لكفرهم ومحالهم تشفعا وتوسلا واستظهارا مع مافي التسمية من الهلاك المتناهي عند من عقل الحقائق ، من ذلك محبتهم مع الله محبة تأله وخضوع ورجاء ، ودعاؤهم مع الله في المهمات والملمات والحوادث التي لايكشفها ولا يجيب الدعاء فيها الا فاطر الارض والسموات ، والعكوف حول أجداثهم ، وتقبيل أعتابهم ، والتمسح بآثارهم ، طلبا للغوث ، واستجابة الدعوات ، واظهار الفاقة ، وابداء الفقر والضراعة ، واستنزال الغيوث والامطار ، وطلب السلامة من شدائد البر والبحار ، وسؤالهم تزويجهم الارامل والايامى ، واللطف بالضعفاء واليتامى ، والاعتماد عليهم في المطالب العالية ، وتأهيلهم لمغفرة الذنوب والنجاة من الهاوية ، واعطاء تلك المراتب السامية ، وجماهيرهم لما ألفت ذلك طباعهم ، وفسدت به فطرهم ، وعز عنه امتناعهم ، لايكاد يخطر ببال أحدهم مايخطر ببال آحاد المسلمين من قصد الله تعالى ، والانابة اليه ، بل ليس لذلك عندهم

الا الولي الفلاني ، ومشهد الشيخ فلان ، حتى جعلوا الذهاب الى المشاهد عوضاعن الخروج للاستسقاء ، والانابة الى الله في كشف الشدائد والبلوى ، كل هذا رأيناه وسمعناه عنهم •

قال : وقد حدث الشيخ مصطفى البولاقي أن بعض رؤساء الجامع الازهر عاده لما اشتكى عينيه وقال له هلا ذهبت الى مولد الشيخ أحمد البدوي ؟ فقد حكى أن انسانا شكا اليه ذهاب بصره ، فسمع قائلا يقول من الضريح أعطوه عين كذا وكذا ، فانظر الى ماخطر ببال هذا المتكلم من تعظيم هذا الميت ، وتأهيله لتلك المطالب التي لايقدر عليها الا الله القاهر الغالب ، وقصد الوساطة هنا على مافيها ماأظنها تخطر بباله أصلا ، فهل سمعت عن جاهلية العرب مثل هذه الغرائب ؟ التي ينتهي عندها العجب والكلام مع زكي القلب يقظ الذهن قوي الهمة العارف بالحقائق ، ومن لاترضى نفسه بحضيض التقليد في أصول الديانات والتوحيد ، وأما ميت القلب ، بليد الذهن وضيع النفس جامد القريحة ، ومن لاتفارق همته التشبث بأذيال التقليد والتعلق على مايحكى عن فلان وفلان في معتقد أهل المقابر والتنديد فذاك فاسد الفطرة معتل المزاج ، وخطابه محض عناء ولجاج •

قال : ومما بلغنا عن بعض علماء زبيد أن رجلين قصدا الطائف فقال أحدهما لصاحبه ــ والمسئول ممن يترشح للعلم ــ أهل الطائف لايعرفون الله انما يعرفون ابن عباس ، فأجابه بأن معرفتهم لابن عباس كافية لأنه يعرف الله ، فأي ملة صان الله ملة الاسلام لاتمانع هذه الكفريات ولا تدافعها ، وذكر الزبيدي أيضا أن رجلا كان بمكة عند بعض المشاهد قال لمن عنده أريد الذهاب الى الطواف ، فقال بعض غلاتهم مقامك ههنا أكرم ، ومن وقف على كتاب مناقب الاربعة المعبودين بمصر ــ وهم البدوي والرفاعي والدسوقي ورابعهم فيما أظن أبو العلاء ــ فقد وقف على ساحل كفرهم ، وعرف صفة إفكهم ، وبلغنا عن بعض الثقات أن جماعة من المدعين للعلم بزبيد كانوا يقرؤن صحيح البخاري فاذا فرغوا منه ــ اما أحيانا أو مطلقا ــ ذهبوا الى قبر الجبيرتي أو غيره ، فوقفوا عاكفين ــ ما شاء الله ــ وعليهم السكينة والوقار ، وضرب من الخضوع لنازل الحفرة ، قال من نقله : فالله أعلم أهو شيء وجدوه في صحيح البخاري أو غيره أو ماهو ؟ قال : ورأيت في حاشية الشيخ ابراهيم البيجوري على السنوسية نقلا عن الدردير ــ فيما أظن ــ عن الشعراني أن الله وكل بقبر كل ولي ملكا يقضي حاجة من سأل ذلك الولي •

فقف هنا وانظر ماآل اليه شركهم وأفكهم ، فأين هذا من قوله تعالى : (وإذا سَأَلَكَ عِبادي عَني فإِني قَريبٌ أُجيبُ دَعْوةَ الداعِ إِذا دَعانِ)[1] وقوله : (ادْعوا رَبَّكُم تضرُّعاً وَخفْيَةً)[2] وقوله : (فإذا فرَغْتَ فَانْصَبْ . وإلى رَبِّكَ فارْغَبْ)[3] وقوله تعالى : (أَمَّنْ يُجيبُ الْمضْطَرَّ إذا دَعاهُ)[4] . وقوله تعالى (وَقالَ رَبُّكُم ادْعوني أَسْتَجِبْ لَكُمْ)[5] الآية .

وأي حجة في هذا الذي قال الشعراني لو كانوا يعلمون ؟ ولكن القوم أصابهم داء الأمم قبلهم ، فنبذوا كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لايعلمون ، واتبعوا ماتتلوا الشياطين •ومن هذا الجنس ماذكره الشعراني في ترجمة الملقب شمس الدين الحنفي، أنه قال في مرض موته : من كانت له حاجة فليأت قبري ويطلب أن أقضيها له فانما بيني وبينه ذراع من تراب ، وكل رجل يحجبه عن أصحابه ذراع من تراب فليس برجل ، انتهى •

وقد اجتمع جماعة من الموحدين من أهل الاسلام في بيت رجل من أهل مصر وبقربه رجل يدعى العلم فأرسل اليه صاحب البيت فسأله بمجمع من الحاضرين ، فقال له : كم يتصرف في الكون ؟ قال : ياسيدي سبعة ، قال : من هم ؟ قال : فلان ، وفلان وعد أربعة من المعبودين بمصر ، فقال صاحب الدار لمن بحضرته من الموحدين : انما بعثت لهذا الرجل وسألته لأعرفكم قدر ماأنتم فيه من نعمة الاسلام ، أو كلاما نحو هذا ، وباب تصرف المشائخ والاولياء قد اتسع حتى سلكه جمهور من يدعي الاسلام من أهل البسيطة ، وخرقه قد هلك في بحاره أكثر من سكن الغبراء وأظلته المحيطه ، حتى نسي القصد الاول من التشفع والوساطة ، فلا يعرج عليه عندهم الا من نسي عهود الحمى ، وقد ذكر هذا شيخ الاسلام في منهاجه عن غلاة الرافضة في علي ، فعاد الامر الى الشرك في توحيد الربوبية والتدبير والتأثير ، ولم يبلغ شرك الجاهليةالاولى الى هذه الغاية ، بل ذكر الله جل ذكره أنهم يعترفون له بتوحيد الربوبية ويقرون به ، ولذلك احتج عليهم في غير موضع من كتابه بما أقروا به من الربوبية والتدبير على ماأنكروه من الالهية •

---

(١) البقرة : ١٨٦ (٢) الاعراف : ٥٥ (٣) الشرح : ٧ ، ٨ (٥) النمل : ٦٢ (٥) غافر : ٦٠
ـ ٥ ـ غافر : ٦٠

ومن ذلك ـ وهو من عجيب أمرهم ـ ماذكره حسين بن محمد النعمي اليمني في بعض رسائله أن امرأة كف بصرها فنادت وليها أما الله فقد صنع ماترى ولم يبق الا حسبك • انتهى •

وحدثني سعد بن عبد الله بن سرور الهاشمي رحمه الله أن بعض المغاربة قدموا مصر يريدون الحج ، فذهبوا الى الضريح المنسوب الى الحسين رضي الله عنه بالقاهرة ، فاستقبلوا القبر وأحرموا ، ووقفوا وركعوا وسجدوا لصاحب القبر ، حتى أنكر عليهم سدنة المشهد وبعض الحاضرين ، فقالوا : هذا محبة في سيدنا الحسين رضي الله تعالى عنه ، وذكر بعض المؤلفين من أهل اليمن أن مثل هذا وقع عندهم ، وقد حدثني الشيخ خليل الرشيدي بالجامع الازهر أن بعض أعيان المدرسين هناك قال : لايدق وتد في القاهرة الا باذن السيدأحمد البدوي ، قال فقلت له : هذا لايكون الا لله أو كلا مانحو هذا : فقال : حبي في سيدي أحمد البدوي اقتضى هذا • وحكي أن رجلا سأل الآخر كيف رأيت الجمع عند زيارة الشيخ الفلاني ؟ فقال : لم أر أكثر منه الا في جبال عرفات ، الا أني لم أرهم سجدوا لله سجدة قط ، ولا صلوا مدة الثلاثة أيام ، فقال السائل : قد تحملها الشيخ ، قال بعض الافاضل وباب تحمل الشيخ مصراعاه مابين بصرى وعدن قد اتسع خرقه ، وتتابع فتقه ، ونال رشاش زقومه الزائر والمعتقد ، وساكن البلد ، انتهى •

وقد اشتهر مايقع من السجود على أعتاب المشهد وقصد التبرك مع مافيه لايمنع حقيقة العبادة الصورية ، ومن المعروف عنهم شراء الولدان من الولي بشيء معين ، يبقى رسما جاريا يؤدى كل عام ، وان كانت امرأة فمهرها أو نصف مهرها ، لأنها مشتراة منه ، ولا يمانع هذا الا مكابر ، لأنه استفاض واشتهر فلا ينكره الا مكابر في الحسيات ، وان فقد بعض أنواعه في بعض البلاد فكم له من نظائر ، وهذا أشدوأشنع مما ذكر جل ذكره عن جاهلية العرب بقوله :(وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا ، فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا)[1] الآية ، وكذلك جعل السوائب باسم الولي لايحمل عليها ولا تذبح ، وسوق الهدايا والقرابين الى مشاهد الاولياء وذبحها حبا للشيخ وتقربا اليه ، وهذا وان ذكر اسم الله عليه فهو أشد تحريما مما ذبح للحم وذكر عليه اسم غير الله كعيسى مثلا ، فان الشرك في العبادة أكبر من الشرك

---

(١) الانعام : ١٣٦

بالاستعانة ، ومن ذلك ترك الاشجار والكلأ والعشب اذا كان بقرب المشهد وجعله من ماله •

ومنها الحج الى المشاهد في أوقات مخصوصة مضاهاة لبيت الله ، فيطوفون حول الضريح ، ويستغيثون ، ويهدون لصاحب القبر ويذبحون ، وبعض مشائخهم يأمر الزائر بحلق رأسه اذا فرغ من الزيارة ، كما يفعلون في بيت الله الحرام بعد الاداء وقد صنف بعض غلاتهم كتابا سماه حج المشاهد وهو متداول •

ومنها التعريف في بعض البلاد عند من يعتقدونه من أهل القبور ، فيصلون عشية عرفة عند القبر خاضعين سائلين •

والعراق فيه من ذلك الحظ الاكبر ، والنصيب الاوفى الاوفر ، بل فيه البحر الذي لا ساحل له ، والمهامه التي لاينجو سالكها ولا يكاد ، ومن نحوه عرف الكفر وظهر الشرك والفساد ، كما يعرف ذلك من له المام بالتواريخ ومبدأ الحوادث في الدين •

ومن شاهد مايقع منهم عند مشهد الحسين ومشهد علي والكاظم عند رافضتهم، وعبد القادر والحسن البصري والزبير وأمثالهم عند سنتهم ، من العبادات ، وطلب العطايا والمواهب والتصرفات ، وأنواع الموبقات ، علم أنهم من أجهل الخلق وأضلهم، وأنهم في غاية من الكفر والشرك ماوصل اليها من قبلهم ممن ينتسب الى الاسلام ، والله المسؤول أن ينصر دينه ، ويعلي كلمته بمحو هذه الاوثان ، حتى يعبد وحده ، فتسلم الوجوه له ، وتعود البيضاء كما كانت ليلها كنهارها •

ومن ذلك — وان كان يعلم مما تقدم — اتخاذها أعيادا ومواسم مضاهاة لما شرعه الله ورسوله من الاعياد المكانية والزمانية •

ومنها مايقع ويجري في هذه الاجتماعات من الفجور والفواحش ، وترك الصلوات ، وفعل الخلاعات ، التي هي في الحقيقة خلع لربقة الدين ، والتكليف ، ومشابهة لما يقع في أعياد النصارى والصابئة والافرنج ببلاد فرنسا وغيرها من الفجور والطبول والزمور والخمور ، وبالجملة فما أحدثه عباد القبور يعز حصره أو استيفاؤه انتهى كلام الفاضل الشيخ عبد اللطيف في منهاجه •

فياأيها النبهاني الغافل هذا حال اخوانك ومن هو على شاكلتك ، ثم انك لم ترض بهذه المصائب والمثالب والمعائب حتى زدت في الطنبور نغمة ، وذلك اعتقادك أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم موجود في كل مكان وزمان ، ونظمت قصيدةمن

شعرك الركيك الفاسد في ذلك ، ثم مع ذلك تدعي أنك محب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، كلا ثم كلا ، وقد أرسله الله تعالى لمحق الشرك وازالة الضلال ، وأنت بجهلك تريد تبديل الاحوال(يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ)[1] فمن المبتدع ؟ أمن يحافظ على السنة النبوية ويذب عنها من يحاول نقصها في كل كلية وجزئية ، أم أمثالك الذين يدعون مع الله الها آخر، ويطعنون على أخيار الامة ، وهداة المسلمين ، ويذبون عن البدع وأهل الاهواء ، ويحكمون بغير ماأنزل الله ، ويقدمون المواد القانونية على الآيات القرآنية والاحاديث النبوية ؟! أفلا يستحي من هذه بعض أوصافه أن يثلب أهل الايمان ، وحملة القرآن وحفاظ سنة سيد ولد عدنان ؟! ولكن الامر كما ورد في الحديث الصحيح : (ان مما أدرك الناس من كلام النبوة الاولى اذا لم تستح فاصنع ماشئت) .

ولهذا النبهاني عدة قصائد في الاستغاثة والالتجاء الى غير الله ، وهي مطبوعة مشهورة ، ولولا أن يدنس القلم ذكرها لذكرتها ، فانها تؤيد ماذكره الشيخ عبد اللطيف رحمه الله عنهم ، وها أنا أذكر شعر بعض الغلاة المشتمل على مالهم من الغلو في القبور والمشاهد ، من ذلك قول بعض العراقيين : ـ

نبا من بنات الماء للكوفة الغـرا	سبوح سرت ليلا فسبحان من أسرى
تمد جناحا من قوادمه الصبـا	تروم بأكناف الغرى لها وكـرا
كساها الأسى ثوب الحداد ومن حلي	تجملها بالصبر لاعجها أعرى
جرت فجرى كل الى خير موقف	يقول لعينيه قفا نبك من ذكرى
وكم غمرة خضنا اليه وانما	يخوض عباب البحر من يطلب الدرا
تؤم ضريحا ما الضراح وان علا	بأرفع منه لا وساكنه قدرا
حوى المرتضى سيف القضا أسد الشرى	عليّ الذرى بل زوج فاطمة الزهرا
مقام علي كرم الله وجهه	مقام على رد عين العلى حسرى
أثير مع الافلاك خالف دوره	فمن فوقه الغبرا ومن تحته الخضرا
أحطنا به وهو المحيط حقيقة	بنا فتعالى أن نحيط به خبرا
تطوف من الاملاك طائفة به	فتسجد في محراب جامعه شكرا
وحزب من العالين يهتف بالثنا	عليه بوحي كدت أسمعه جهرا

(١) التوبة : ٣٢

جـدير بأن يأوى الحجيـــج لبــابه ويلمس مــن أركــان كعبتــه الجدرا
حرى بتقسيـم الفيوض وما ســوى أبي الحسنـين الا حسنين بهـا أحرا
ثـرى منه بالدنيـا الثراء لمتــرب وللمذنب الجاني الشفـاعة في الاخرى
بأهــداب أجفـان وأحداق أعـين وحـر وجـوه عفرتهـا يـد الغبـرا
أمطنا القــذى عن جفن سيــف مذكر أجـل سيـوف الله أشهـرها ذكـرا
فوالله مانــدري وقد سطع السنـــا جلـونا قرابـا أم جلينـــا له قبـرا

وجاء من العراقيين من خمس هذه الابيـات فقال :

سرينا لنمحـوا الاثم أو نغنـم الاجرا لـزورة من تمحـو زيارتـه الوزرا
وسارت وقد أرخى علينا الدجى سترا نبـا من بنـات الماء للكـــوفة الغرا
سبوح سرت ليلا فسبحان من أســرى

تخـيرتها دون السفـائن مركبـــا واعددتهـا للســير شـرقا ومغربا
فكانت كمثــل الطير إن رمت مطلبـا تمـد جنـــاحا من قوادمه الصبـــا
تـروم باكنـــاف الغرى لهـا وكرا

وكــانت تحلى قبـــل هذا تجمـــلا وقد غذيت فيـما أمر الذي حـــلا
أظــن على فقــد الشهيــد بكر بــلا كساها الاسى ثوب الحـداد ومن حلى
تجملهـا بالصبـر لاعجهـــا أعرى

الى مــوقف ســرنا بغـير توقف يزيـــد بكائي عنـــده بتلهـــف
ولمـــا تجارينـــا بفلـــك ومدنف جرت فجـرى كل الى خـــير موقف
يقــول لعينيه قفا نبـك من ذكـرى

ترامت بنـا فلـك فيانعـــم مرتمى الى درة الفخـــر التـي لن تقـوما
فخضنـــا اليه البحــر والبحــر قد طما وكـم غمـرة خضنـا اليـه وانمـا
يخوض عباب البـحر من يطلب الدرا

الــى مرقد يعلو السماكين منـــزلا وقــد نال ما نال الضــراح من العلى
نسير ولا نلوى على السير معـــدلا نؤم ضريحا ما الضـراح وان عـــلا
بأرفـــع منه لا وساكنـــه قــدرا

فزوج ابنة المختــار كان غضنفـــرا علا وارتضته الطهر من ســائر الورى
تعــرف من هــذا الذي طال مفخــرا حوى المرتضى سيفالقضا أسد الشرى
على الذرى بـل زوج فاطمة الزهــرا

عيون الورى ان لاحظت منه كنهــــه   ترد عن التشبيــه حســرى فينتهوا
وان مقـــاما لاتــرى العـــين شبهه   مقـــام على كــرم الله وجهـــه
مقــام على رد عــين العلى حســرى

لقــد صــير الغبــراء خضراء قبــره   وأشرق فيهـــا في الحقيقـــة بدره
وقـــد وافـــق الاعجـــاز لله دره   أثـــير مــع الافــلاك خالــف دوره
فمن فوقه الغبــرا ومن تحته الخضــرا

أحاط بنــا علمـــا فليت سليقـــة   تفيـــد علــوما عن عــلاه دقيقــة
مجـــازا وقد جزنا اليه طريقـــة   أحطنـــا بــه وهــو المحيــط حقيقة
بنـــا فتعالى أن نحيط به خبرا

فطف في مقـــام حل فيه ولبــــه   تر العـــالم الاعلــى حفيفـــا بتربه
فكالمسجــد الاقصــى وأي تشبــه   تطـــوف من الامـــلاك طائفة بــه
فتسجـــد في محراب جامعه شكــرا

فأثنــى عليــه من عــلا مثــل من دنا   وكــل بمــا أثنــى أجــاد وأحسنــا
فحــزب من الدانــين اذ ذاك أعلنــا   وحــزب من العــالين يهتف بالثنــا
عليـــه بوحي كــدت أسمعه جهــرا

حججنـــا الى بيت عــلا بجنـــابه   عشيـــة آوينـــا الى باب غـــابه
ومن قد ســمت أركـــان كعبتنا به   جـــدير بأن يأوى الحجيج لبـــابه
ويلمس من أركـــان كعبته الجــدرا

فيوض علــــوم الله من قدم حــوى   فقســـم منهـــا ما أفاد وما احتــوى
ومن قبل مايثــوى ومن بعد ماثــوى   حري بتقسيــم الفيوض وما ســوى
أبي الحسنــين الا حسنــين بها أحرى

ظللنـــا وكم جـــان لــديه ومذنب   وذي حاجـة منا وصـــاحب مطــلب
نقبــل والاجفـــان تهمى بصيـــب   ثرى منــه في الدنيـــا الثراء لمتــرب
وللمذنب الجاني الشفــاعة في الاخرى

خدمنـــا أمير المؤمنــــين بمـــوطن   نعفـــر فيه الوجه قصـــد تيمــن
ويخـــدم قبر المرتضى كــل مؤمن   بأهــــداب أجفان واحـــداق أعين
وحــر وجــوه عفرتهـــا يد الغبـــرا

أزلنـــا غبـــارا كان في قبـــر حيـــدر   فـــلاح كغمـــد المشر في المشهــر

ولا غرو في ذاك المكـــان المطهـــر أمطنـا القذى عن جفن سيف مذكـر
أجـل سيـوف الله أشهـرها ذكـرا
تبـدي سنـى أنـــواره وتبينـــا غـــداة جلونـا قبـره فتزينـــا
فحـــير افهامـــا وأبهـر أعينـــا فوالله ماندري وقد سطـع السنـــا
جلونـا قـرابا أم جلينـــا له قبـرا
وقال صاحب الأصل وقد خمسها آخر من شعراء العراق أيضا :
شمخت رفعة وعـزت منـــــالا واستطـــالت فخــامة وجـــلالا
واستخفت من الجبـال الثقـــالا قبـــة المرتضـى على تعــــالى
شأنها عن موازن وعديـل
بزغـت في الدجى كبـــدر منـــير وتبـــدت تزهـو بحسن نضـــير
فهـــي أكسـير كل قلب كسـير مـــن نضار صيغت بغـير نظـــير
في مثـال منزه عن مثيـل
قـــد صفا كالمرآة منهـــا صقـال فبـــدا للنجـوم فيهـــا مثـــال
فلـــك لايحيـط فيـــه خيـــال فوقهـــا كالاكليـــل لاح هـــلال
رمقتـــه السهـى بطـرف كليـــل
مـلأت قبـــة العـوالم بالضـــو واستقلت بنفسهـا في ذرى الجـــو
بعلـى علت فمـــا ضرهـا لـــو كبـــرت فاستقـلت الفلـك الـدو
وارعنها بأن يرى ببديل
حـــل فيهـا نور الهـــدى فتحلت ودنـت فـوق قبـــره فتـــدلت
ملئـــت هيبـــة فعـــزت وجلت جللـت مرقـــدا جليـــلا تجـلت
فوقـه هيبـــة المليـك الجليـــل
سمكهـــا سـامت السمـاك مقامـا حـــين ضمت ذاك الامام الهمـــاما
أبـــدا شأو شـــأنها لن يسـامى فعلـــى قبـــة السمـاء اذا مـــا
فضلوها أقـــول بالتفضيل
هـــي عـين وللتجـــلي سجنـــجل كـــل ذات بعكسهـــا تتمثـــل
وبمـــرآة فكـــر من يتخيـــل هـــي بـاء مقلـوبة فوق تلـــك اا
نقطة المستحيـلة التـأويل
دار مجـد من بابها السعـد يدخـل دار في صحنهـا الهدى في تسلسل

في عـلاهـا مهمـا تشـا أبدا قـل   هـي فلك بل ما عليـه استـوى الفلـك ومن فوق لوحه من قبيل

كعبـة نحوهـا قطعنـا الفجاجا   بحماهـا قـد آوت الحجـاجا
ماتـرى عنـد بابهـا محتاجـا   هـي كهـف النجـاة طـور المنـاجاة ثمال العفاة مأوى الدخيل

هي كنز لدرة الفخر موئل   قـد حوت كـل جوهـر متفضـل
ليس فيهـا لعـارض الدهر معقـل   هـي حـق للجوهـر الخـاص مالل عرض العام عندها من مقيل

هي شمس الهـدى لمن ضل دومـا   مارأى من بهـا اهتدى قط لومـا
كـم هـدت من غوى الجهـالة قوما   هي ظـل ماضـل من قـال يومـا بحماها من تحت ظـل ظليل

صـدف قـد غلت بـدر ثميـن   وامـام للمؤمنـين مبـين
كنـزها قد حوى لخـير دفـين   هي غمـد لذي فقـار بطـين من سيوف الله العلي صقيل

حضـرة فوقهـا الجـلال تجلى   أجمـة في عرينهـا الليـث حـلا
كيـف تدنو الاسـود منـه محـلا   هي غـاب ثوي به أسد الـلاه عليّ بصدر أشـرف غيل

هـو سيـف القضـا بأيدي قدير   نصلـه ينتضـي بيـوم عسـير
حيـدر يضـرم الوغى بسعـير   ذاك ليـث أردى العـدى بزئـير وحسـام أبادهـم بصليـل

هـي روض ونعـم مرعى ومنهـل   لأمـير النحـل الامـام المفضـل
دار فيها كأس الرحيـق المسلسـل   كـورة لليعسـوب مازج صـرف الشهد منها أطائب الزنجبيل

فلـك دائـر منـير بشـهب   نورهـا ظـاهر بشـرق وغـرب
هـونت في تدبـيرها كـل صعب   كـرة مستـديرة فـوق قطـب دبـر الكائنات بالتعـديل

صـاغها الله من محـاسن تعجب   وطـلاهـا من نـوره المتلـهب

فهي أسنى سبيكة لمذهب أفرغتها يمنى المفاخر من تبر

المعالي في قالب التبجيل

صبغة الله زينت بالتحلى وعليها الاملاك للوحي تملى

مذ دنا الروح نحوها بالتدلي صبغتها بالنور أيدي التجلي

بقدامى من خافقي جبرئيل

لايحيط الخيال وقتا فوقتا بحلاها ولا يخيل نعتا

جمعت ذاتها فضائل شتى فغشاها النور الالهي حتى

بخيال جلت عن التخييل

أحرزت من أزاهر الشرف الغض وأحاطت بالمجد في الطول والعرض

كل فضل من فضلها يتبعض قد حوى فصل بابها جمل الفضـ

ل التي قد غنين عن تفصيل

جليت تزدهى بجسم صقيل فهي زهراء مالها من مثيل

منذ زفت لخير مولى جليل كعروس بدت بوجه جميل

تسبي شمس الضحى بخد أسيل

هي بدر الدجى بغير سرار هي شمس ضاءت بغير استتار

زندها في كلا الجديدين وار هي في الليل مثلها في نهار

وبوقت الضحى كوقت الاصيل

نالت النيرات من ذاك نيلا يستميل المحب للحب ميلا

فتهاوت منها تقبل ذيلا قابلتها البدور باللثم ليلا

وشموس النهار بالتقبيل

كسراج لنا تجلت مساء فاستعارت منها الدراري سناء

زينتها التبر يستنير ضياء صحنها كالقنديل يزهو صفاء

وهي تحكي ذبالة القنديل

هل محب يحنو على ماأقاسي من غرام دك الجبال الرواسي

مالجرحي سواكما اليوم أسى ياخليلي والخليل المواسي

منكما من يحب نفع الخليل

بالغريين حاجة أقتضيها وبكوفان بلغة أرتجيها

فبحق الزهرا وحق بنيها علاني بذكر من حل فيها

ان قلبي يطيب بالتعليل

ذو سجايا أصفى من الدر والدر ومزايا لم نحصها بالتفكر
أخبرت عن نعوته الكتب الغر نعته بالزبور جاء وبالفر
قان بل بالتوراة والانجيل

هل أتى في سواه بالذكر تملى آي وحي بها تسامى محلا
وصفه بالقرآن قد جاء يتلى الامام المبين أحصى به الله
جميع الاشياء في التنزيل

صدره نسخة لما كان في الكو ن قديما من خطها الناس أملو
هو علم الكتاب في علمه أو فهو اللوح بل وما خط في اللو
ح لديه مقيد التسجيل

كم ثملنا منه بكأس رويّ فأمطنا برشفها كل غي
ان ترم أن تفوز منها بري سل سبيلا لسلسبيل عليّ
فعلى ابن السبيل قصد السبيل

زره مهما أصابك الخطب مهما تلق غيثا همى وبحرا خضما
فأجل في راحه عن القلب هما هو ساقي الحوض الذي ليس يظما
من حبته يداه بالتنويل

كم غليل روى بفيض مقيل مارويناه عن فرات ونيل
كم أفاضت كفاه من سلسبيل هو ذات الشفا لكل عليل
وشفاء لذات كل غليل

صاغه الله من ندى وبراه وعلى فطرة السخا سواه
بحر جود ما للعفاة سواه عيلم كل قطرة من نداه
هي غيث لكل عام محيل

جئت أشكو اليه بثي وحزني حاش لله أن يخيب ظني
نلت من فضله قصارى التمني عرض حال لاغر وان طال أني
لذت في جاهه العريض الطويل

غيث فضل يهمي بفيض غزير وغياث من كل أمر عسير
كيف أرضى منه بمن يسير طامع من نواله بكثير
ما أنا منه قانع بقليل

كم عديم أحيا بجود عميم وهدى حائرا لنهج قويم

ولا عتابـــه بقلـــب سليـــم جئت مستهديا هدى من كريـــم

لست مستجديا جدي من بخيـل

لجنـــاحي أراش بعـد تـلافي بقـدامى أفضـاله والخـــوافي

قبـره كعبـــة غـدا للطـــوافي مـن ثــراه لـي ثروة وحـذافي

ردعـاني بهن أغنى معيـــل

كـل من زار قبـره أمن الهـــو ل وان كـان ذنبه يمـلأ الجـــو

ماتـراني وقد أحاط بي السـو زرتـه والدمـوع تنهـل والاو

زار تنهـــال عن كثيب مهيـــل

حبـــه بارز بـدا من ضمـــيري وعلينـــا فـرض ولاء الامـــير

بولاه كــم اغتنى من فقـــير ليـس لي بعـد حبـه من نقـــير

يغن عنـــي شيئـا ولا من فتيـل

(وقال أيضا الشاعر العراقي) :

حضـرة الكاظمـــين منها المرايـا قد حكت قلب صب أهل الطفـوف

صبغتهـــا يـد التجـــلي بكف كبرت عن تشبيهها بالكفـــوف

وروت عن غـدير خـم صفـــاء فتـــراءت لطـرفي المطـــروف

صور الكـــائنات فوجا بفـــوج سابحـات في موجهـا المكفـوف

من قنـــاديل عسجـد زينوهـــا بصفـــوف تلوح أثـر صفـوف

رســـم تعليقهـا الانيـق تبـدى كسطـــور منضـودة من حروف

روضـة للصـدور فيهـــا ورود بأكف الالحـاظ ذات قطـــوف

قد أظلت شمسا بغـير كســـوف وأقلت بدرا بغـــير خســـوف

وطـوت كاظمـــا ولفت جـوادا فازدهـــت بالمطـوى والملفـــوف

شرفت فيهمـــا ومـا كـل ظرف حـاز تشريفـه مـن المظـــروف

وغـدت للقلبين مثـل شغـــاف رق لطفـــا كقلبـــي المشغـوف

وهـــي لما على السمـــاء أنافت بهمـــا قلـت ياسما المجد نـوفي

كلمـــا زرتهـا أقـول لعينـــي هـذه كعبـــة الجلال فطـــوفي

بحماها كـــم من ألوف من الزو ار فازت من المنـى بصنـــوف

أفأخشـــى صروف دهري وانـي بحماهـــا يخشى الزمـان صروفي

حـــرم آمن فمن كان فيـــه قاطنـــا كان آمنـــا من مخوف

ومطاف به استدارت فطافت زمر كاستدارة الخدروف
كم لرشد من حائري هدته وبرفدكم قد كفت من كوفي
شنفتها العلياء لما أصاخت لصرير الاقلام أبهى شنوف
شمخت عزة بأنف أشم مرغم بالتراب شم الانوف
أرعفت مارن الصباح فأجرت دمه من بروقها بسيوف
ألفت نفسي الثناء عليها وهي لاتنثني عن المألوف
لاتلمني على الوقوف بباب تتمنى الاملاك فيه وقوفي
هو باب مجرب ذو خواص كان منها اغاثة الملهوف
ملجأ العاجزين كهف اليتامى مروة المرملين مأوى الضيوف
من يروم الفتوح مما سواه طرقت بابه أكف الحتوف
أنا عنه حيا وميتا بدنيا ي وأخراي لست بالمصروف
هم بنو المرتضى وعترة طه سحب الفضل أبحر المعروف
فليلمني من شاء أني موال رافل من ولائهم بشفوف
فعليهم مني الثنا ما اليهم قطع المدلجون كل تنوف

(وقال)

الا أن صندوقا أحاط بحيدر وذي العرش قدأربى الى حضرة القدس
فان لم يكن لله كرسي عرشه فان الذي في ضمنه آية الكرسي

وقال وقد شاهد الزوار ليلا تتهافت على الصندوق خلال الشموع الموقدة :

صندوق قبر المرتضى زواره بين الشموع لهم عليه تهافت
فكأنه بدربه قد أحدقت سيارة من أنجم وثوابت

(وقال لما زار موسى الكاظم)

خلعنا نفوسا قبل خلع نعالنا غداة حللنا مرقدا منك مأنوسا
وليس علينا من جناح بخلعها لانك بالوادي المقدس ياموسى

الى غير ذلك من شعره الذي جمعه بمجموع سماه (الباقيات الصالحات) وكله على هذا المنهج ،ومن العجب من يسلك هذا المسلك كيف يدعي أنه من أهل السنةوليس من الروافض .

وله أبيات في الشيخ عبد القادر الكيلاني وهي هذه وقد سلك فيها من الغلو مسلك مانقلناه من شعره :

أبيات شعري حكت آيات تنزيل تتلى بحضرة ممدوحي بترتيل

وعت من الملأ الأعلى لها اذن ... فشنفتها بتكبير وتهليل
قد انطوى العالم الاسمى بأحرفها ... فعطر النشر منها طيب تأويل
عن حسنها قاصرات الطرف قدقصرت ... أحبب بكاعبة النهدين عطبول
ماست دلالا تعاطيني الرضاب طلا ... فهمت مابين عسال ومعسول
تاهت على اللؤلؤ المنثور اذ نظمت ... في مدح مولاي عبد القادر الجيلي
قطب عليه مدار العالمين له ... دور تسلسل لا في قيد تعطيل
غوث وغيث لراجيه وخائفه ... يحمى ويهمى بأفضال وتفضيل
سجنجل لتجلى ذاته ظهرت ... لعينه عينه من غير تمثيل
جلاء نقطة غين العين تربته ... كم فزت منها بتعفير وتكحيل
طوفان علم به نوح النبوة في ... فلك الفتوة ينجى كل محمول
خضم فيض بعيد الغور فيه رست ... سفن الولاية لا في ساحل النيل
مصباح فضل بنبراس الجمال زهت ... مشكاته فيه لا في ضوء قنديل
نور بسيط على وجه البسيطة بل ... بحر محيط بمعقول ومنقول
قرآن جمع لاشتات الهبات من الذر ... ات لاقبض بسط العرض والطول
فرقان فرق العلى آياته رسمت ... في جبهة كللت منه باكليل
مفتاح غيب بلا ريب ببرزخه ... باب الشهود لديه غير مقفول
في عالم الغيب قد صحت مشاهدة ... له فجاء بكشف غير معلول
توارثت أولياء الله بعثته ... منذ الست ومن جيل الى جيل
في النشأتين له حال تصرفه ... تالله في كل معقود ومحلول
باب الرجاء وقطب الاولياء وفخر ... الاتقياء ومأوى كل مذلول
عين الكمال وسلطان الرجاء ومم ... دوح الفعال وحامي كل مخذول
ملجا المريدين منجى اللائذين به ... كنز المقلين مذخوري ومأمولي
ذخري وفيه غنى فقري ومدحته ... فخري أنال بحشري منه تنويلي
الى موائده اللاتي حوت مددا ... مددت باعا به علقت كشكولي
تفصيل اجمال جزء من خوارقه ... عن حصرها كل اجمالي وتفصيلي
نلت البقا بغنائي في محبته ... فشاغلي فيه أضحى عين مشغولي
وبان صحوي بمحوي في هواه وعن ... وهمي بأني سواه بان تخييلي
أتى من العلم في مثل الذي أتيا ... موسى وعيسى بتوراة وانجيل

ندب اذا عــم خطب أودجـا حزن — جـلاه في سيف حزم غير مفلــول
تهديــك بهجتــه الغـــرا وغنيته — تغنيـــك عن كل مقصود ومأمول
فنــــاده عند نادية لفـــــادحة — وسلــه ماشئت تلقى خير مسئــول
وقبل التــرب من أعاب ســـدته — وابد الخشوع بدمع منك مسبــول
فســدرة المنتهى لاشك حضـــرته — لقــد تناهى اليهـا علم جبريـــل
ترى المحبــين صرعى تحت قبتــه — وقلبهــم عن هــواه غير مشغــول
أما تراهــم وفي أطمارهم ربضــوا — ببابــه كأســود الغيــل بالغيـــل
اليه من موصل قد جئت منقطعـــا — فيالقطــــع بحبــل الله موصــول
كــم ظن قوم قبولا منــه تم لهــم — وحققوا الظن أني غـير مقبـــول
فدع رجــالا على جهــل تعنفنــي — فهـــل سمعت بصب غير معــذول
وابغ رضــا اللــه في مــدح تقدمه — لفــارق بين مفضال ومفضــــول
عليـــه أزكى ســلام الله تتبعــه — تحيـــة الملأ الاعلى بتبجيــــل
مادوخت ديمــة الرضــوان مرقده — وجللتــه وغشتـــه بمنديــــل

الى غير ذلك من الشعر الكثير في هذا الباب ، ولو استوعبناه لطال به الكتاب ، وهذا حال خواصهم ، وقد سمعت غلوهم فكيف حال عوامهم ؟ وقد حكى العراقيون أن قبر عبد القادر قد غدا اليوم قبلة يطوفون عليه طواف الحجيج ببيت الله الحرام ، وينذرون له النذور ، ويوقدون السرج على رغم ماجاء به دين الاسلام ، وقد اتخذ ذراري الشيخ ذلك غنيمة يرتعون فيها كماترتع الانعام، وبعض سفهاء العقول ،وناقصوا الاحلام يتخذهم وسائل في الدنيا والآخرة ، وحكى العراقيون أن الكيلانيين اليــوم أشر أمة في العراق ، وعائلتهم أصبحت بلاء على بغداد ، ومن العجيب أن كبــير تلك العائلة (النقيب) يدعى أنه سلفي العقيدة ، وهو من سدنة الاصنام ، لم يزل يأكــل النذور المحرمة من الهنديين وغيرهم ، نسأله تعالى أن يطهر الارض من أمثال هؤلاء المعادين لدين الله تعالى ، والمضادين لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما أحق هذا النقيب بقول القائل :

نزلــوا بمكة في قبـــائل هاشــم — ونزلــت في البيداء أبعــد منــزل

وقد سمعت أن بعض أدباء بلدته هجاه بقصائد كثيرة ، منها قصيدة مطلعها :

أأرجــح بغـــداد واني غريبهـــا — على جنة الفردوس لولا نقيبهـــا

واني أسأل الله تعالى أن يبصر المسلمين من أهل الهند وغيرهم حتى لاتكــون

أموالهم غنيمة لهؤلاء السفهاء ، ويصونهم من كيدهم ، انه على كل شيء قدير ، ولولا ملاحظة أن يطول الكتاب لاتينا على مفصل أحوال هؤلاء السدنة وعباد الاصنام ، وما ذكرناه كاف ان شاء الله تعالى في هذا المقام .

فظهر مما ذكرنا أن قول هذا الجاهل : أن الشيخ محمد ومن وافقه من أهل نجد وغيرهم أهل بدعة هو قول عاطل ، بل هم الفرقة الناجية ان شاء الله ، وهم أهل السنة والجماعة ، وهم عصابة الحق ، وان المبتدعة هم هذا الجاهل الغبي ومن على شاكلته لما سمعت من جهلهم وضلالهم ، ولكن الامر كما قيل في المثل السائر : رمتني بدائها وانسلت .

وأما الكلام على ماذكره من القدح والجرح في كتب الشيخين وأضرابهما فسيأتي البحث عنه مفصلا فيما خصص له من فصول كتابه وعادته ودأبه تكرير الكلام من غير طائل ، بل ليعظم حجم الكتاب فيفرح به .

أما قوله : وقد طبعوا الى الآن عشرة كتب ــ ثم عددها مع الطعن والقدح فيها ــ فيقال له : أخطأت في الحساب ، كما قد زغت عن جادة الحق والصواب ، بل ان الذي طبع من كتب الشيخين ونحوهما نحو مائة كتاب مابين مختصر ومفصل ، منها ماطبع في مصر ، ومنها ماطبع في المطابع الهندية ، ومنها ماطبع في مكة شرفها الله ، وكل هذه الكتب كنوز علم ومصابيح هدى والحمد لله ، كما أنها شجى لاعداء الدين والمبتدعة الملحدين ، واني أبشرك أيها المبتدع أن جميع كتب شيخ الاسلام وأصحابه ستطبع قريبا ، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ، حيث يظهر بها زيغ الملحدين ، وافتراء السبكي وابن حجر وأضرابهما من المتبعين لهواهم ، الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين ، ثم ختم كلامه على الكتب بذكر شيء من قصيدته التي سماها طيبة الغراء ، وهي التي ذكر فيها أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم موجود في كل مكان وكل زمان ، غير أنه لم يأت بجميع أبياتها هنا ، وزعم أنه حاكى بها قصيدة بانت سعاد ، فيقال له : لقد حكيت ولكن فاتك الشنب ، وشعره ركيك جدا ، وسنتكلم عليه فيما يناسب من مباحث الكتاب ، ثم نقول : ان هذه القصيدة التي ذكرها لا مناسبة لها مع البحث الذي هو بصدده ، وهكذا مباحث كتابه كلها على هذا المنوال لم يزل يذكر مباحث غير متناسبة ، ويورد أمورا لاتفيده شيئا ، ولم يكن قصده ــ والله أعلم ــ الا انتفاخ كتابه ، وبيان رعونته وجهله ، نسأل الله تعالى العافية مما إبتلاه به .

(ثم ان النبهاني) ذكر القسم الثاني من المقدمة ، وقال : انه يشتمل على اثني عشر تنبيها يلزم معرفتها لمن أراد مطالعة هذا الكتاب ، وذكر التنبيه الاول ، وفيه بيان أحوال ابن تيمية والتحذير عنه ، وأنه ومن وافقه على ضلال ، ثم ذكر التنبيه الثاني وهو بمعنى التنبيه الاول ، غير أنه قال : انه لايكفر ابن تيمية وأصحابه لأنهم من أهل القبلة ، وأطال الكلام في ذلك • ثم ذكر التنبيه الثالث ، وفيه ذكر رؤياه لابن السبكي وابن تيمية قائما والسبكي قاعدا على عجزه مع رجل ثالث ظنه صاحب الصارم المنكى ولم يعلم مقصده من هذا التنبيه • ثم ذكر التنبيه الرابع وقد اشتمل على بيان منزلة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وانه صاحب الشفاعة العظمى ، والمقام المحمود ، وأن أهل العلم حثوا على دعائه والاستغاثة به ، وطلب مايطلب من الله تعالى منه ، وانه لم يمنع منها سوى محمد بن عبد الوهاب وأصحابه ، والسيد صديق حسن خان وحزبه، وأن هذا الرجل هو الذي طبع كتب السنن وأضل الناس بها ، ثم ذكر التنبيه الخامس وفيه الثناء على ابن تيمية وابن القيم ، ودفع التناقض بين ماكان منه من المدح والذم نظرا لاختلاف الحالات ، وتغاير الجهات ، وتأييد ذلك بما نقل من كتاب الصواعق الالهية للشيخ سليمان بن عبد الوهاب الحنبلي ، ثم ذكر التنبيه السادس ، وفيه اعتقاده في ابن تيمية وتلامذته أنهم من أئمة الدين وأكابر علماء المسلمين ، وقد نفعوا الامة المحمدية بعلمهم نفعا عظيما ، وان أساؤا غاية الاساءة في بدعة منع الزيارة والاستغاثة وأضروا بها الاسلام والمسلمين ، وهذا الذي استوجب رده عليهم حسما لمادة الفساد الى آخر ماهذى به ، ثم ذكر التنبيه السابع ، وفيه يقول اياك أيها المسلم أن يخدعك الشيطان بقبول أقوال ابن تيمية وأصحابه ، ويقول لك أنهم من أكابر أهل العلم ، الى آخر هذيانه الذي أورده للتنفير عن أقوال الشيخ ومن يوافقه • ثم ذكر التنبيه الثامن ، وفيه أنه لو كان كلام ابن تيمية حقا في مسألة المنع من شد الرحل لزيارة القبور لترك الناس الزيارة وخربت المدينة • ثم ذكر التنبيه التاسع ، وفيه أنه لم يقصد بما ألف ردع من يقول بأقوال ابن تيمية عن معتقده المبتدع ، فان هذا مما لايفيد ، بل مقصوده تنبيه الناس على فساد عقائد هؤلاء القوم ، وتحذير المسلمين عن اعتقاد قولهم • ثم ذكر التنبيه العاشر ، وفيه أن ابن تيمية وكذلك أصحابه لم يقصدوا بمنعهم من سفر الزيارة الحط من رتبة النبي صلى الله عليه وسلم حاشاهم من ذلك ، فانهم من أكابر علماء المسلمين ، وحماة هذا الدين المبين ، ولكن لهم مذهب فاسد في ذلك سلكوه بحسب ماظهر لهم من الادلة التي قامت عندهم ، وما فهموه من الكتاب والسنة على حسب استعدادهم الخ • وهذه التنبيهات بعضها ينقض بعضا ، ثم نقل

عبارة ابن تيمية في كتاب (العقل والنقل) في تعظيم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ثم تعجب من القائل بهذا القول كيف يمنع من سفر الزيارة والاستغاثة به الخ • ثم ذكر التنبيه الحادي عشر ، وفيه تحذير الناس من مخالطة من يوافق ابن تيمية في الاعتقاد ، فانهم مبتدعة ، وتكلم عليهم بكل مايستبشع ، ثم ذكر التنبيه الثاني عشر ، وفيه بيان أن ابن تيمية لم يخص أحدا بالرد والتضليل ، ولكنه خاصم جميع المسلمين الى أن قال : ويزيد على ذلك تكفير كثير من أئمة الصوفية ، الذين هم سادات الامة الخ ••

أقول : هذا حاصل ماذكر في تنبيهاته ، ويكفي الواقف عليها معرفة مبلغ هذا الرجل من العلم ، وخفة عقله ورعونته ، فان جميع ماذكره في هذه التنبيهات ضرب من الوسواس وكلام المعتوهين ، أو نوع من هذيان المحموم ، ومآل جميعها واحد ، وهو الحط على ابن تيميةوأصحابه ،وتحذير الناس من الميل إليه ومطالعة كتبه والأخذبأقواله بسبب ماظهر له من منع سفر الزيارة والاستغاثة بمخلوق ، وبسبب قوله بهذه المسألتين قد قامت القيامة وفارالتنور ، وهذا والامرلله تعالى من إدبار المسلمين وسوء طوالعهم في هذا العصر ، عصر الترقي والاخذ بنواصي الكمالات ، ونحن سنتكلم على كلا المسألتين في مقامهما ، ونضرب صفحا عن مؤاخذته في كل ماهذى به في هذه التنبيهات وسنبين أقوال أهل العلم في شأن ابن تيمية مما يلقم النبهاني وأضرابه حجر السكوت وذكر في التنبيه الثالث رؤياه ولم يعبرها فوجب تعبيرها له ، وذلك أنه قال : رأيت منذ ثلاث سنوات ونيف الامام ابن تيمية والامام السبكي في رؤيا وهما في مجلس واحد ، والسبكي جالس وهو سمين أسمر عليه هيبة ووقار ، وابن تيمية واقف أسمر أغبر نحيف الوجه والجسم عليه هيبة العلم ، وقد كان أقرب الي من السبكي فقصدته لاقبل يده ، ويغلب على ظني أني قبلتها وسألته عن مقدار عمره فقال ستمائة سنة ، ثم انتبهت •

فيقال له : ان صحت رؤياك أيها النبهاني — وان كان ماتراه يقظة ومناما أضغاث أحلام — دلت على أن الله تعالى كشف لك عن حال مقتداك ، وشيخ بدعك وهو السبكي ، فانه كما هو المعلوم لدى كل منصف كان من ألد الخصوم لشيخ الاسلام ، بل لكل أهل الحق ، وحيث كان جالسا بين يدي خصمه فهو دليل على أن خصمه وهو ابن تيمية قد أقعده على عجزه ، والامر كما رأيت ، فقد تكلم السبكي على ماأفتى به الشيخ ابن تيمية في مسئلتي الطلاق والزيارة ،فرد عليه الشيخابن تيمية بعدة مجلدات

يقول ابن السبكي رأيت منها مجلدا ، وأما سواد الوجه الذي لاح في السبكي فهو بيان ماابتدعه ، قال عز ذكره : (تَرى الَّذيْنَ كَذَبوا على اللهِ وُجُوهُهمْ مُسْوَدَّة)[1]
وأما السمن الذي كان فيه فهو علامة غيظه وشقائه بين يدي خصمه ، وأما وقوف ابن تيمية على ساقه فهو النصر على خصومه ، وانه لم يزل قائما على ساق الهمة ، وأما نحافة وجهه فهو ماكابده من عناء مخاصمة أهل البدع وأعداء الدين ، وتعبير سمرته هو من السؤدد ، وتقبيل يديه ذلك له وضراعتك للحق ، وأما الرجل الذي رأيته وظننته ابن عبد الهادي أو ابن القيم فهو والله أعلم الاول ، لأنه الذي رد على مقتداك السبكي بعد وفاة الشيخ ابن تيمية في كتاب (الصارم المنكى في الرد على السبكي) في كتابه (شفاء السقام) وأقعده على عجزه أيضا ، وبين جهله وغباوته ، وقد رأيت وله الحمد تعبير رؤياك من قبل ، وأما قوله لك في جواب سؤالك عن مدة عمره أنه ستمائة سنة فهو معنى قوله تعالى : (وَلا تَحسَبَنَّ الَّذيْنَ قُتِلُوا في سَبيلِ اللهِ أمواتاً بَلْ أَحْياءٌ عِنْدَ رَبِهِم يُرْزَقُوْنَ)[2] ومثل ابن تيمية لم يمت على تعاقب الازمان .

وما دام ذكر العبد بالفضل باقيا فذلك حي وهو في الترب هالك

وقال آخر :

قد مات قوم وما ماتت مكارمهم وعاش قوم وهم في الناس أموات

فالعالم بما جاء به الرسول العامل به أطوع في أهل الارض من كل أحد ، فاذا مات أحيا الله ذكره ، ونشر له في العالمين أحسن الثناء ، فالعالم بعد وفاته ميت وهو حي بين الناس ، والجاهل في حياته حي وهو ميت بين الناس ، كما قيل :

وفي الجهل قبل الموت موت لأهله وأجسامهم قبل القبور قبور
وأرواحهم في وحشة من جسومهم وليس لهم حتى النشور نشور

ومن تأمل أحوال أئمة الاسلام ـ كأئمة الحديث والفقه ـ كيف هم تحت التراب وهم في العالمين كأنهم أحياء بينهم لم يفقدوا منهم الا صورهم ، والا فذكرهم وحديثهم والثناء عليهم غير منقطع ، وهذه هي الحياة حقا ، حتى عد ذلك حياة ثانية ، كما قال المتنبي :

ذكر الفتى عيشه الثاني وحاجته مافاته وفضول العيش أشغال

ولكن النبهاني على ماحكى لي من رآه أنه كذاب ، كثيرا مايحدث بمنامات

---

(١) الزمر : ٦٠ (٢) آل عمران : ١٦٩

لاأصل لها ، وفي الحقيقة أن غالب هؤلاء المبتدعة كذلك ، وهم بيت الكذب ، كما أنهم المنهمكون على الدنيا ، وهذا من علائم دجاجلة العصر قبحهم الله تعالى •

هذا وماذكره في باقي التنبيهات منه مالا يستحق أن يصغى اليه لأنه لايخفى فساده حتى على صغار الطلبة ، ومنه ماذكره النبهاني في باب مختص به ، فأجلنا البحث عنه والكلام عليه الى وصولنا اليه ، والله الهادي الى سواء السبيل ، وهو حسبنا ونعم الوكيل •

ثم انه عقد بابا في اثبات مشروعية السفر الى زيارة قبره الشريف صلى اللهتعالى عليه وسلم كسائر الانبياء والصالحين ، وجعله الباب الاول ، وافتتحه بارجوزة مدح بها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ثم استدل على مشروعية هذا السفر بما ذكره ابن حجر في كتابه (الجوهر المنظم) وقد أتى بأكثره ، والكتاب مشهور ، وبما ذكره ابن الحاج في مدخله وهو كذلك ، ثم بما ذكره السبكي في (شفاء السقام) ثم بما ذكره الشيخ عبد القادر الكيلاني في (الغنية) ثم عقبه بكلام النووي ، ثم بكلام ابن الهمام الحنفي في (فتح القدير) ثم بما في (مشارق الانوار) للشيخ حسن العدوي ثم ذكر مازوروه من مد اليد للرفاعي ، ثم ذكر أربعين حديثا في فضل المدينة لأبي الحسن البكري ، ثم ختم الباب بخاتمة ذكر اختلاف الناس في التفاضل بين مكة والمدينة ، ثم ذكر فصلا ذكر فيه شيئا مما لاينبغي فعله للزائر ، نقله من كتاب (الجوهر المنظم) لابن الحجر المكي ، ثم نقل عن العدوى كلاما يتعلق بكرامات الاولياء وتصرفهم ، وبه ختم الباب ، وحيث أن هذه المباحث مشهورة ، بل أنها قد ملتها الاسماع لم أذكرها في هذا المقام لطولها ، بل أذكر حاصلها في أثناء الرد عليه ، ومن الله التوفيق والهداية الى أقوم طريق •

أقول : كان من الحزم عدم التعرض لهذه المسائل المفروغ عن تحقيقها ، وقد سبق منا بيان العذر للكلام على هذيان النبهاني ، مع العلم أنه لايفيد في رد من ختم الله على قلبه وسمعه وعلى بصره غشاوة ، فانه قد ألف في هذا الباب كتب مفصلة ومجملة ، قد حقق فيها الكلام على هذه المسائل أتم تحقيق ، ومع ذلك لم يؤثر شيئا في فهم هذا الخصم وأضرابه ، وأعاد وأبدى ، واستدل بما هو مردود مرارا عديدة ، فسبحان من طبع على قلبه •

وهنا كلام لابن القيم يناسب المقام ، قال رحمه الله تعالى : ومن تأمل القرآن والسنة وسير الانبياء في أممهم ودعوتهم لهم وما جرى لهم معهم جزم بخطأ أهل الكلام فيما قالوه ، وعلم أن القرآن مملوء من الاخبار عن المشركين عباد الاصنام أنهم

كانوا يقرون بالله ، وأنه هو وحده ربهم وخالقهم ، وأن الارض وما فيها له وحده ، وأنه رب السموات السبع ورب العرش العظيم ، وأنه بيده ملكوت كل شيء ، وهو يجير ولا يجار عليه ، وأنه هو الذي سخر الشمس والقمر ، وأنزل المطر وأخرج النبات ، والقرآن مناد عليهم بذلك ، محتج بما أقروا به من ذلك على صحة مادعتهم اليه رسله ، فكيف يقال أن القوم لم يكونوا مقرين قط بأن لهم ربا وخالقا ، وهذا بهتان عظيم ، فالكفر أمر وراء مجرد الجهل ، بل الكفر الاغلظ هو ماأنكره هؤلاء وزعموا أنه ليس بكفر •

قالوا : والقلب عليه واجبان لايصير مؤمنا الا بهما جميعا : واجب المعرفة والعلم وواجب الحب والانقياد والاستسلام ، فكما لايكون مؤمنا اذا لم يأت بواجب العلم والاعتقاد لايكون مؤمنا اذا لم يأت بواجب الحب والانقياد والاستسلام ، بل اذا ترك هذا الواجب مع علمه ومعرفته به كان أعظم كفرا ، وأبعد عن الايمان من الكافر جهلا ، فان الجاهل اذا عرف وعلم فهو قريب الى الانقياد والاتباع ، وأما المعاند فلا دواء فيه ، قال تعالى : (كَيفَ يَهدي اللهُ قوماً كَفروا بَعْدَ إيْمانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُوْلَ حَقٌّ وجاءهم البينات ، واللهُ لا يَهدي الْقَوْمَ الظَّالمين)[1] .

قالوا :فحب الله ورسوله بل كون الله ورسوله أحب الى العبد من سواهما لايكون العبد مسلما الا به ، ولا ريب أن الحب أمر وراء العلم ، فما كل من عرف الرسول أحبه كما تقدم •

قالوا : وهذا الحاسد يحمله بغض المحسود على معاداته ، والسعي في أذاه بكل ممكن ، مع علمه بفضله وعلمه ، وأنه لاشيء فيه يوجب عداوته الا محاسنه وفضائله •

ولهذا قيل الحاسد عدو للنعم والمكارم ، فالحاسد لم يحمله على معادات المحسود جهله بفضله وكماله ، وانما حمله على ذلك فساد قصده وارادته ، كما هي حال الرسل وورثتهم مع الرؤساء الذين سلبهم الرسل ووارثوهم رياستهم الباطلة ، فعادوهم وصدوا النفوس عن متابعتهم ، ظنا أن الرياسة تبقى لهم وينفردون بها •

وسنة الله في هؤلاء أن يسلبهم رياسة الدنيا والآخرة ، ويصغرهم في عيون الخلق مقابلة لهم بنقيض قصدهم : (وَمَا رَبُّكَ بِظَلاّمٍ لِلْعَبيد)[2] .

---

(١) آل عمران : ٨٦

(٢) فصلت : ٤٦

قال : فهذا موارد احتجاج الفريقين ، ومواقف اقدام الطائفتين ، فاجلس أيها المنصف منهما مجلس الحكومة ، وتوخ بعلمك وعدلك فصل هذه الخصومة ، فقد أدلى كل منهما بحجج لاتعارض ولا تمانع ، وجاء ببينات لاترد ولا تدافع ، فهل عندك شيء غير هذا يحصل به فصل الخطاب ، وينكشف به لطالب الحق وجه الصواب فيرضى الطائفين ، ويزول به الاختلاف من البين ، والا

فخل المطي وحاديها وأعط القوس باريها

دع الهوى لاناس يعرفون به قد كابدوا الحب حتى لان أصبعه

ومن عرف قدره وعرف لذي الفضل فضله فقد قرع باب التوفيق ، والله الفتاح العليم ، فنقول وبالله التوفيق :

كلا الطائفتين ماخرجت عن موجب العلم ، ولا عدلت عن سنن الحق ، وانما الاختلاف والتباين بينهما من عدم التوارد على محل واحد ، ومن اطلاق ألفاظ مجملة بتفصيل معانيها يزول الاختلاف ، ويظهر أن كل طائفة موافقة للاخرى على نفس قولها ، وبيان هذا أن المقتضى قسمان : مقتض لايتخلف عنه موجبه ومقتضاه ، لقصوره في نفسه عن التمام ، أو لفوات شرط اقتضائه ، أو قيام مانع منع تأثيره ، فان أريد بكون العلم مقتضيا للاهتداء والاقتضاء التام الذي لايتخلف عنه أثره بل يلزمه الاهتداء بالفعل فالصواب قول الطائفة الثانية ، وانه لايلزم من العلم حصول الاهتداء المطلوب ، وان أريد بكونه موجبا أنه صالح للاهتداء مقتض له وقد يتخلف عنه مقتضاه لقصوره أو فوات شرط أو قيام مانع فالصواب قول الطائفة الاولى •

قال : وتفصيل هذه الجملة أن العلم بكون الشيء سببا لمصلحة العبد ولذاته وسروره قد يتخلف عنه عمله بمقتضاه لأسباب عديدة •

(السبب الاول) ضعف معرفته بذلك •

(السبب الثاني) عدم الأهلية ، وقد تكون معرفته به تامة ، لكن يكون مشروطا بزكاة المحل وقبوله للتزكية ، فاذا كان المحل غير زكي ولا قابل للتزكية كان كالارض الصلدة التي لايخالطها الماء ، فانه يمتنع النبات منها لعدم أهليتها وقبولها ، فاذا كان القلب قاسيا حجريا لايقبل تزكية ولا تؤثر فيه النصائح لم ينتفع بكل علم يعلمه ، كما لاتنبت الارض الصلبة ولو أصابها كل مطر وبذر فيها كل بذر ، كما قال تعالى في هذا الصنف من الناس : (إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيهِم كَلِمَةُ رَبِّكَ لا يُؤمِنُونَ وَلَو جَاءَتهم

كُلُّ آيةٍ حتَّى يَروا الْعذابَ الأَليْم)[1] وقال تعالى : (ولَوْ أَنَّنا نَزَّلنا إليهمُ الملائِكة وكَلَّمَهمُ الْموتى وحَشرنا عَليهمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً ما كَانُوا لِيُؤمِنُوا إلاَّ أَنْ يَشاءَ اللهُ)[2] وقال تعالى : (قُلِ انْظروا ماذا في السَّموات والأَرضِ ، وَمَا تُغني الآياتُ والنُّذرُ عَن قَوْمٍ لا يُؤْمِنُوْن)[3] وهذا في القرآن كثير ، فاذا كان القلب قاسيا غليظا جافيا لايعمل فيه العلم شيئــا ، وكذلك اذا كان مريضا مهينا مائيا لا صلابة فيه ولا قوة ولا عزيمة لم يؤثر فيه العلم •

(السبب الثالث) قيام مانع ، وهو اما حسد أو كبر ، وذلك مانــع ابليس من الانقياد للامر ، وهو داء الاولين والآخرين الا من عصم الله ، وبه تخلف الايمان عن اليهود الذين شاهدوا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وعرفوا صحة نبوته ومن جرى مجراهم ، وهو الذي منع عبد الله بن أبي من الايمان ، وبه تخلف الايمان عن أبي جهل وسائر المشركين ، فانهم لم يكونوا يرتابون في صدقه وان الحق معه ، لكن حملهم الكبر والحسد على الكفر ، وبه تخلف الايمان عن أمية وأضرابه ممن كــان عنده علم بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم •

(السبب الرابع) مانع الرياسة والملك ، وان لم يقم بصاحبه حسد ولا تكبر عن الانقياد للحق ، لكن لايمكنه أن يجتمع له الانقياد وملكه ورياسته ، فيضن بملكــه ورياسته ، كحال هرقل وأضرابه من ملوك الكفار الذين علموا نبوته وصدقه ، وأقروا بها باطنا ، وأحبوا الدخول في دينه ، لكن خافوا على ملكهم ، وهذا داء أرباب الملك والولاية والرياسة ، وقل من نجا منه الا من عصم الله ،وهــو داء فرعــون وقومه ، ولهذا قالوا :(أَنُؤمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثلِنا وقومُهُما لنا عابِدون)[4] أنفوا أن يؤمنوا ويتبعــوا موسى وهارون وينقادوا لهما وبنوا اسرائيل عبيد لهم ، ولهذا قيل أن فرعون لما أراد متابعة موسى وتصديقه شاور هامان وزيره ، فقال : بينا أنت اله تعبد تصير عبدا تعبد غيرك ، فأبى العبودية واختار الرياسة والالهية المحال •

(السبب الخامس) مانع الشهوة والمال ، وهو الذي منع كثيرا من أهل الكتاب من الايمان خوفا من بطلان مأكلهم وأموالهم التي تصير اليهم من قومهم ، وقد كــان

---

(١) يونس : ٩٦ ، ٩٧ (٢) الانعام : ١١١ (٣) يونس : ١٠١
(٤) المؤمنون : ٤٧

كفار قريش يصدون الرجل عن الايمان بحسب شهوته فيدخلون عليه منها ، فكانوا يقولون لمن يحب الزنا أن محمدا يحرم الزنا ويحرم الخمر ، وبه صدوا الاعشى الشاعر عن الاسلام ، قال : وقد فاوضت غير واحد من أهل الكتاب في الاسلام وصحته ، فكان آخر ماكلمني به أحدهم أنا لا أترك الخمر وأشربها آمنا ، فاذاأسلمت حلتم بيني وبينها وجلدتموني على شربها ، وقال آخر منهم ــ بعد أن عرف ماقلت له ــ لي أقارب أرباب أموال ، واني ان أسلمت لم يصل الي منها شيء ، وأنا أؤمل أن أرثهم ، أو كما قال • ولا ريب أن هذا القدر في نفوس خلق كثير من الكفار ، فتتفق قوة داعي الشهوة والمال ، وضعف داعي الايمان ، فيجيب داعي الشهوة والمال ويقول لا أرغب بنفسي عن آبائي وسلفي •

(السبب السادس) محبة الاهل والاقارب والعشيرة ، يرى أنه اذا اتبع الحق وخالفهم أبعدوه وطردوه عنهم ، وأخرجوه من بين أظهرهم ، وهذا سبب بقاء خلق كثير على الكفر بين قومهم وأهاليهم وعشائرهم •

(السبب السابع) محبة الدار والوطن ، وان لم يكن له بها عشيرة ولا أقارب ، لكن يرى أن في متابعة الرسول خروجه عن داره ووطنه الى دار الغربة والنوى فيضن بوطنه •

(السبب الثامن) تخيل أن في الاسلام ومتابعة الرسول ازراء ، وطعنا منه على آبائه وأجداده وذما لهم ، وهذا هو الذي منعأبا طالب وأمثالهعن الاسلام ،استعظموا آبائهم وأجدادهم أن يشهدوا عليهم بالكفر والضلال ، وأن يختاروا خلاف مااختار أولئك لأنفسهم ، ورأوا أنهم ان أسلموا سفهوا أحلام أولئك ، وضللوا عقولهم ، ورموهم بأقبح القبائح وهو الكفر والشرك ، ولهذا قال أعداء الله لأبي طالب عند الموت : أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فكان آخر ماكلمهم به : هو على ملة عبد المطلب فلم يدعه أعداء الله الا من هذا الباب ، لعلمهم بتعظيمه أباه عبد المطلب ، وانه انما حاز الفخر والشرف به ، فكيف يأتي أمرا يلزم منه غاية تنقيصه وذمه ، ولهذا قال لولا أن تكون مسبة علي بني عبد المطلب لاقررت بها عينك ، أو كما قال • وهذا شعره يصرح فيه بأنه قد علم وتحقق نبوة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم وصدقه، كقوله :

ولقد علمت بأن دين محمد من خير أديان البرية دينا
لولا الملامة أو حذار مسبة لوجدتني سمحا بذاك مبينا

وفي قصيدته اللامية

فوالله لـــولا أن تكـــون مسبـــة تجـــر على أشيـــاخنا في المحافـــل
لكنـــا اتبعنـــاه على كل حـــالة من الدهـــر جدا غير قول التهـــازل
لقـــد علمـــوا أن ابننا لامكـــذب لدينـــا ولا يعنى بقـــول الاباطـــل

والمسبة التي زعم أنها تجر على أشياخه شهادته عليهم بالكفر والضلال ، وتسفيه الاحلام ، وتضليل العقول ، وهذا هو الذي منعه من الاسلام بعد تيقنه .

(السبب التاسع) متابعة من يعاديه من الناس للرسول ، وسبقه الى الدخول في دينه ، وتخصصه وقربه منه ، وهذا القدر منع كثيرا من أتباع الهـــدى ، يكـــون للرجل عدو ويبغض مكانه ، ولا يحب أرضا يمشي عليها ، ويقصد مخالفته ومناقضته فيراه قد اتبع الحق فيحمله قصد مناقضته ومعاداته على معادات الحق وأهله ، وان كان لا عداوة بينه وبينهم ، وهذا كما جرى لليهود مع الانصار ، فانهم كانوا أعداءهم وكانوا يتوعدونهم بخروج النبي صلى اللهتعالى عليه وسلم، وأنهم يتبعونهويقاتلونهم معه فلما بدرهم اليه الانصار وأسلموا حملهم معاداتهـــم على البقاء على كفـــرهم ويهوديتهم .

(السبب العاشر) مانع الالف والعادة والمنشأ ، فان العادة قد تقوى حتى تغلب حكم الطبيعة ، كما يتربى لحمه وعظمه على الغذاء المعتاد ، ولا يعقل نفسه الا عليهـــا ثم يأتيه العلم وهلة واحدة يريد ازالتها واخراجها من قلبه وأن يسكن موضعهافيعسر عليه الانتقال ، ويصعب عليه الزوال . وهذا السبب وان كان أضعف الاسباب معنى فهو أغلبها على الامم وأرباب المقالات والنحل ، ليس مع أكثرهم بل جميعهـــم ، الا ماعسى أن يشذ الا عادة ومربى تربى عليه طفـــلا لا يعرف غـــيرها ، ولا يحس به ، فدين العوائد هو الغالب على أكثر الناس ، فالانتقال عنه كالانتقال عن الطبيعة الى طبيعة ثانية ، فصلوات الله وسلامه على أنبيائه ورسله خصـــوصا على خاتمهـــم وأفضلهم محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، كيف غيروا عوائد الامـــم البـــاطلة ، ونقلوهم الى الايمان ، حتى استحدثوا به طبيعة ثانيـــة ، خرجوا بها عن عادتهـــم وطبيعتهم الفاسدة ، ولا يعلم مشقة هذا على النفوس الا من زاول نقل رجل واحد عن دينه ومقالته الى الحق ، فجزى الله المرسلين أفضل ما جازى به أحدا من العالمين، انتهى المقصود من نقله .

وهذا كلام حسن يعلم به سبب عناد المبتدعة على بدعهم ، وعدم تأثير الدعوة الحقة فيهم ، اذ هم على قدم أسلافهم الذين لم ينقادوا للحق ، ولم يذعنوا لدعوة المرسلين ، وأظن أن هذا الرجل وهو النبهاني المبتدع المجادل بالباطل وكذلك أضرابه من غلاة الشافعية قد توفرت فيهم الاسباب العشرة السابقة ، ولا سيما السبب الاول والثاني ، فان اليهود قد أخبر الله تعالى عن حال قلوبهم بقوله : (ثُمَّ قَسَتْ قُلوبُكُمْ من بَعدِ ذَلكَ ، فَهِيَ كَالحِجارَةِ أَو أَشدُّ قسوةً وإنَّ من الحجارةِ لَما يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنهارُ ، وإنَّ منها لَما يَشقَّقُ فَيخرجُ مِنه الماءُ ، وإنَّ مِنْها لَما يَهبِطُ من خَشيَةِ اللهِ، وما اللهُ بِغافلٍ عَمَّا تَعمَلُونَ)[1] .

ونعود الى كلام هذا المخذول فنقول : ان مانقله عن ابن حجر والسبكي وغيره كله متحد معنى ، ومن بعد السبكي كلهم قلدوه في رأيه الفاسد ، واعتقاده الكاسد ، الذي ذكره في كتابه (شفاء السقام) وقد علمت حال هذا الكتاب ، وما جرى عليه من الرد والابطال ، فقد رده الامام العالم العلامة الحافظ المحقق أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الهادي الحنلي المقدسي قدس الله روحه ، في كتابه الذي سماه(الصارم المنكى في الرد على السبكي) وقد حقق فيه المسائل المتعلقة بزيارة القبور ، وبين ما كان فيها من حق وزور ، وأظهر جهل السبكي بعلم الاثر والحديث ، وعدم فهمه لمقاصد الشريعة .

ومن نظر الى هذا الكتاب تبين له أن شهرة السبكي بالعلم كانت شهرة كاذبة ، وان نظره كنظر العوام ، وان منزلته من العلماء كقطرة من بحرماء ، ونغبة من داماء(٢) لايعلم شيئا من معقول ولا منقول ، وان اطراء غلاة الشافعية فيه من محض تعصبهم وقسوة قلوبهم ، فهي كالحجارة أو أشد قسوة ، ولهذا ترى هذا المخذول لم يزل يتمنى ان لم يكن ألف هذا الكتاب ، أعني كتاب (الصارم المنكى) فاذا رد هذا الكتاب رد جميع ما ألف في هذه المسألة من كتب الغلاة ، ولو لم يكن سوى (الصارم المنكى) لكفى في ذلك ، مع أن كتب الرد عليهم لاتعد ولا تحصى ، ولا تكاد تستقصى ، ولو وقفت على ردود (الجوهر المنظم) لتبين لك أنه خزف لدى كل

---

(١) البقرة : ٧٤ (٢) كذا في الاصل .

منصف يعلم ، وكل هذه الكتب مشهورة متداولة بين الايـدي ، فاذا تكلمنا علـى ماذكر هذا المخذول كان عبثا وتضييعا للقرطاس •

ولما كانت كتب الخصوم كلها في الرد على شيخ الاسلام ابن تيمية ، وقد ذكروا عنه مالم يقل به وزوروا عليه أمورا كثيرة لم يقل بها ، ننقل جميع ماقاله في الزيارةمن الكتب والفتاوى ، ثم ننبه على بطلان قول الخصم المخذول بأوجز عبارة ، ومن الله نستمـد التوفيق •

(قال شيخ الاسلام) ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ في كتابه (الجـواب الباهر) ، لمن سأل من أولياء الامور عما أفتى به في زيـارة المقابر مانصه ـ بعـد البسملة • (١)

قد ذكرت فيما كتبته من المناسك أن السفر الى مسجده وزيارة قبره ـ كمـا يذكره أئمة المسلمين في مناسك الحج ـ عمل صالح مستحب ، وقد ذكرت في عـدة مناسك الحج السنة في ذلك ، وكيف يسلم عليه ، وهل يستقبل الحجرة أم القبلة ؟ على قولين ، فالاكثرون يقولون : يستقبل الحجرة ، كمالك والشافعي وأحمد ، وأبو حنيفة يقول : يستقبل القبلة ويجعل الحجرة عن يساره في قول وخلفه في قول ، لأن الحجرة لما كانت خارجة المسجد وكان الصحابة يسلمون عليه لم يكن يمكن أحد أن يستقبل وجهه صلى الله عليه وسلم ويستدبر القبلة ، كما صـار ذلك ممكنا بعـد دخولها في المسجد •

ثم قال : وأما ماذكر في المناسك أنه بعد تحية النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وصاحبيه والصلاة والسلام يدعو : فقد ذكر الامام أحمد وغيره أنه يستقبل القبـلة ويجعل الحجرة عن يساره ، لئلا يستدبره ـ وذلك بعد تحيته والصلاة والسلام ـ ثم يدعو لنفسه ، وذكروا أنه اذا حياه وصلى عليه يستقبل وجهه بأبي هـو وأمي صلى الله عليه وسلم ، فاذا أراد الدعاء جعل الحجرة عن يساره واستقبل القبلة ودعا ، وهذا مراعاة منهم لذلك ، فان الدعاء عند القبر لايكره مطلقا ، بل يؤمربه ، كما جاءت به السنة فيما تقدم ضمنا وتبعا ، وانما المكروه أن يتحرى المجيء للقبر للدعاء عنـده ، وكذلك ذكر أصحاب مالك ، قالوا : يدنوا من القبر فيسلم على النبي صلى الله عليه وسلم ثم يدعو مستقبل القبلة يوليه ظهره ، وقيل لا يوليه ظهره ، فانما اختلفوا لمـا فيه من استدباره ، فاما اذ جعل الحجرة عن يساره فقد زال المحذور بلا خلاف ،وصار

---

(١) كتاب (الجواب الباهر) قد طبع ضمن مجموع فتاوى شيخ الاسلام ، يبتديء من صحيفة ٣١٤ حتى ٤٤٢ من جلد ٢٧ ، وما ذكر المؤلف ملخصه هنا يبتديء من قوله : فصل قد ذكرت .. الخ اخر صحيفة ٣٢٩ منه .

في الروضة أو امامها ، ولعل هذا الذي ذكره الائمة أخذوه من كراهة الصلاة الى القبر ، فان ذلك قد ثبت النهي فيه عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فلما نهى أن يتخذ القبر مسجدا أو قبلة أمروا بأن لايتحرى الدعاء اليه كما لايصلى اليه ، ولهذا والله أعلم حرفت الحجرة وثلثت لما بنيت ، فلم يجعل حائطها الشمالي على سمت القبلة ولا جعل مسطحا ، ولذلك قصدوا قبل أن تدخل الحجرة في المسجد .

ثم ان الشيخ رحمه الله أطال الكلام الى أن ذكر مسألة السفر للصلاة في المسجد ثم قال : والصلاة تقصر في هذا السفر المستحب باجماع المسلمين ، لم يقل أحد من أئمة المسلمين أن هذا السفر لاتقصر فيه الصلاة ، ولا نهى أحد عن السفر الى مسجده وان كان المسافر الى مسجده يزور قبره صلى الله عليه وسلم ، بل هذا من أفضل الاعمال الصالحة ، ولا في شيء من كلامي وكلام غيري نهى عن ذلك ، ولا نهى عن المشروع في زيارة قبور الانبياء والصالحين ، ولا عن المشروع في زيارة سائر القبور، بل قد ذكرت في غير موضع استحباب زيارة القبور ، كما كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يزور أهل البقيع وشهداء أحد ، ويعلم أصحابه اذا زاروا القبور أن يقول قائلهم : (السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين ، وانا ان شاء الله بكم لاحقون ، ويرحم الله المستقدمين منا ومنكم والمستأخرين ، ونسأل الله لنا ولكم العافية ، اللهم لاتحرمنا أجرهم ، ولا تفتنا بعدهم ، واغفر لنا ولهم) .

واذا كانت زيارة قبور عموم المؤمنين مشروعة فزيارة قبور الانبياء والصالحين أولى ، لكن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم له خاصة ليست لغيره من الانبياء والصالحين ، وهو انا أمرنا أن نصلي ونسلم عليه في كل صلاة ، وشرع ذلك في الصلاة وعند الاذان وسائر الادعية ، وأن نصلي ونسلم عليه عند دخول مسجده وغير مسجده ، وعند الخروج منه ، وكل من دخل فلا بد أن يصلي فيه ويسلم عليه في الصلاة. والسفر الى غيره مشروع ، لكن العلماء فرقوا بينه وبين غيره ، حتى كره مالك أن يقال زرت قبر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، لان المقصود الشرعي بزيارة القبور السلام عليهم والدعاء لهم ، وذلك السلام والدعاء قد حصل على أكمل الوجوه في الصلاة ، في مسجده وغير مسجده ، وعند سماع الآذان ، وعند كل دعاء ، فشرع الصلاة عليه عند كل دعاء ، فانه أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، ولهذا يسلم المصلي عليه في الصلاة قبل أن يسلم على نفسه وعلى سائر عباد الله الصالحين ، فيقول : السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، ويصلي عليه فيدعو له قبل أن يدعو لنفسه ، وأما غيره فليس عنده مسجد فيستحب السفر

اليه كما يستحب السفر الى مسجده ، وانما يشرع أن يزار قبره كما شـرعت زيارة القبور ، وأما هو فيشرع السفر الى مسجده وينهى عما يوهـم أنه سفـر الى غير المساجد الثلاثة •

ويجب الفرق بين الزيارة الشرعية التي سنها رسول الله صلى الله تعالى عليـه وسلم وبين البدعية التي لم يشرعها ، بل نهى عن مثل اتخاذ قبور الانبياء والصالحين مساجد ، والصلاة الى القبر واتخاذه وثنـاء وقد ثبت في الصحيحـين عنه صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : (لاتشد الرحال الا الى ثلاثة مساجد المسجد الحـرام ومسجدي هذا ، والمسجد الاقصى) حتى أن أبا هريرة سافر الى الطور الذي كلم الله عليه موسى فقال له بصرة ابن أبي بصرة الغفاري : لو أدركتك قبل أن تخـرج لما خرجت ، سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقول : (لاتعمل المطي الا الى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، ومسجدي هذا ، ومسجد بيت المقدس) فهـذه المساجد شرع السفر اليها لعبادة الله فيهابالصلاة والقراءة والذكر والدعاء والاعتكاف والمسجد الحرام يختص بالطواف لايطاف بغيره ، وما سواه من المساجد اذا أتاهـا الانسان وصلى فيها من غير سفر كان ذلك من أفضل الاعمال ، كما ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : (من تطهر في بيته ثم خرج الى المسجد كانت خطواته احداهما تحط خطيئة والاخرى ترفع درجة ، والعبد في صـلاة مادام ينتظر الصلاة ، والملائكة تصلي على أحدكم مادام في مصلاه الذي صلى فيه : اللهم اغفر له ، اللهم ارحمه ، مالم يحدث) ولو سافر من بلد الى بلد مثل أن يسـافر الى دمشق من مصر لأجل مسجدها أو بالعكس أو يسافر الى مسجد قباء من بلد بعيد لم يكن هذا مشروعا باتفاق الائمة الاربعة وغيرهم ، ولو نذر ذلك لم يف بنذره باتفاق الائمة الاربعة وغيرهم ، الا خلاف شاذ عن الليث بن سعد في المساجد ، وقـال ابن مسلمة من أصحاب مالك في مسجد قباء فقط •

ولكن اذا أتى المدينة استحب له أن يأتي مسجد قباء ويصلي فيه ، لأن ذلـك ليس بسفر ولا بشد رحل ، فان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان يأتي مسجـد قباء راكبا وماشيا كل سبت ويصلي فيه ركعتين ، وقال : (من تطهر في بيته ثم أتى مسجد قباء كان له كعمره) رواه الترمذي وابن أبي شيبة ، وقال سعد بن أبي وقاص وابن عمر : صلاة فيه كعمرة •

ولو نذر المشي الى مكة للحج والعمرة لزمه باتفاق المسلمين ، ولو نذر أن يذهب الى مسجد المدينة أو بيت المقدس ففيه قولان : أحدهما ليس عليه الوفاء ،وهو قول أبي حنيفة واحد قولي الشافعي ، لأنه ليس من جنسه مايجب بالشرع ، والثاني عليه الوفاء بذلك ، وهو مذهب مالك وأحمد بن حنبل والشافعي في قوله الآخر ، لأن هذا طاعة لله ، وقد ثبت في صحيح البخاري عن عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (من نذر أن يطيع الله فليطعه ، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه) ولو نذر السفر الى غير المساجد ، أو السفر الى مجرد قبر نبي أو صالح لم يلزمه الوفاء بنذره باتفاقهم ، فان هذا السفر لم يأمر به النبي صلى الله عليه وسلم ، بل قد قال : (لاتشد الرحال الا الى ثلاثة مساجد) وانما يجب بالنذر ماكان طاعة ، وقد صرح مالك وغيره بأن من نذر السفر الى المدينة النبوية ان كان مقصوده الصلاة في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم وفى بنذره ، وان كان مقصوده مجرد زيارة القبر من غير صلاة في المسجد لم يف بنذره ، قال : لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال (لاتعمل المطى الا الى ثلاثة مساجد) والمسألة ذكرها اسماعيل بن اسحق في المبسوط ومعناها في المدونة ، والجلاب وغيرهما من كتب أصحاب مالك ، يقول : ان من نذر اتيان مسجد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لزمه الوفاء بنذره ، لأن المسجد لايؤتى الا للصلاة ، ومن نذر اتيان المدينة النبوية فان كان قصده الصلاة في المسجد وفي بنذره ، وان قصد شيئا آخر مثل زيارة من بالبقيع أو شهداء أحد لم يف بنذره ، لأن السفر انما يشرع الى المساجد الثلاثة ، وهذا الذي قاله مالك وغيره ماعلمت أحدامن أئمة المسلمين قال بخلافه ، بل كلامهم يدل على موافقته •

وقد ذكر أصحاب الشافعي وأحمد في السفر لزيارة القبور قولين : التحريم ، والاباحة ، وقدمائهم وأئمتهم قالوا انه محرم ، وكذلك أصحاب مالك وغيرهم •

وانما وقع النزاع بين المتأخرين لأن قوله صلى الله عليه وسلم : (لاتشد الرحال الا الى ثلاثة مساجد) صيغة خبر ، ومعناه النهي ، فيكون حراما ، وقال بعضهم : ليس بنهي ، وانما معناه أنه لايشرع ، وليس بواجب ولا مستحب ، بل مباح كالسفر في التجارة وغيرها ، فيقال له : تلك الاسفار لايقصد بها العبادة ، بل يقصد بها مصلحة دنيوية مباحة ، والسفر الى القبور انما يقصد به العبادة ، والعبادة انما تكون بواجب أو مستحب ، فاذا حصل الاتفاق على أن السفر الى القبور ليس بواجب ولا مستحب كان من فعله على وجه التعبد مبتدعا مخالفا للاجماع ، والتعبد به بدعة ليس بمباح ،

لكن من لم يعلم أن ذلك بدعة فانه قد يعذر ، فاذا تبينت له السنة لم يجز مخالفة النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا التعبد بما نهى عنه ، كما لاتجوز الصلاة عند طلوع الشمس ولا عند غروبها ، وكما لايجوز صوم يومي العيدين ــ وان كانت الصلاة والصيام من أفضل العبادات ــ ولو فعل ذلك انسان قبل العلم بالسنة لم يكن عليه اثم ، فالطوائف متفقة على أنه ليس مستحبا وما علمت أحدا من أئمة المسلمين قال ان السفر اليها مستحب ، وان كان قاله بعض الاتباع فهو ممكن ، وأما الأئمة المجتهدون فما منهم من قال هذا ، واذا قيل : هذا كان قولا ثالثا في المسألة وحينئذ فيبين لصاحبه أن هذا القول خطأ مخالف للسنة ولاجماع الصحابة ، فان الصحابة في خلافة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وبعدهم الى انقراض عصرهم لم يسافر أحد منهم الى قبر نبي ، ولا رجل صالح .

وقبر الخليل عليه السلام بالشام لم يسافر اليه أحد من الصحابة ، وكانوا يأتون بيت المقدس ويصلون فيه ولا يذهبون الى قبر الخليل ، ولم يكن ظاهرا بل كان في البناء الذي بناه سليمان عليه السلام ، ولا كان قبر يوسف يعرف ، ولكن أظهر ذلك بعد أكثر من ثلثمائة سنة من الهجرة ، ولهذا وقع فيه نزاع ، فكثير من أهل العلم ينكره ، ونقل ذلك عن مالك وغيره ، لأن الصحابة لم يكونوا يزورونه فيعرف ولما استولى النصارى على الشام نقبوا البناء الذي كان على الخليل ، واتخذواالمكان كنيسة ، ثم لما فتح المسلمون البلد بقي مفتوحا ، وأما على عهد الصحابة فكان قبر الخليل عليه السلام مثل قبر نبينا صلى الله عليه وسلم ، ولم يكن أحد من الصحابة يسافر الى المدينة لأجل قبر النبي صلى الله تعالىعليه وسلم ، بل كانواياأتون فيصلون في مسجده ويسلمون عليه في الصلاة ، ويسلم من سلم عند دخول المسجد والخروج منه ، وهو مدفون في حجرة عائشة فلا يدخلون الحجرة ولا يقفون خارجا عنها في المسجد عند السور ، وكان يقدم في خلافة أبي بكر وعمر امداد اليمن الذين فتحوا الشام والعراق ــ وهم الذين قال الله فيهم :(فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ)[1] ويصلون في مسجده كما ذكرنا ، ولم يكن أحد يذهب الى القبر ، ولا يدخل الحجرة ولا يقوم خارجها في المسجد ، بل السلام عليه من خارج الحجرة ، وعمدة مالكوغيره فيه على مافعل ابن عمر .

---

(١) المائدة : ٥٤

وبكل حال فهذا القول لوقاله نصف المسلمين لكان له حكم أمثاله في مسائل النزاع ، وأما أن يجعل هو الدين الحق ويستحل عقوبة من خالفه ويقال بكفره فهذا خلاف اجماع المسلمين ، وخلاف ماجاء به الكتاب والسنة ، فان كان المخالف للرسول في هذه المسألة يكفر فالذي خالف سنته واجماع الصحابة وعلماء أمته فهو الكافر ، ونحن لانكفر أحدا من المسلمين بالخطأ لا في هذه المسائل ولا في غيرها ، ولكن ان قدر تكفير المخطيء فمن خالف الكتاب والسنة واجماع الصحابة والعلماء أولى بالكفر ممن وافق الكتاب والسنة والصحابة وسلف الامة وأئمتها ، فأئمة المسلمين فرقوا بين ما أمر به النبي صلى الله عليه وسلم وبين مانهى عنه في هذا وغيره ، فما أمر به هو عبادة وطاعة وقربة ، ومانهى عنه بخلاف ذلك ، بل قد يكون شركا ، كما يفعله أهل الضلال من المشركين وأهل الكتاب ومن ضاهاهم ، حيث يتخذون المساجد على قبور الانبياء والصالحين ، ويصلون اليها ، وينذرون لها ، ويحجون لها ، بل قد يجعلون الحج الى بيت المخلوق أفضل من الحج الى بيت الله الحرام ، ويسمون ذلك الحج الاكبر ، وصنف لهم شيوخهم في ذلك مصنفات ، كما صنف المفيد ابن النعمان كتابا في مناسك المشاهد ، سماه (مناسك حج المشاهد) وشبه بيت المخلوق ببيت الخالق .

وأصل دين الاسلام أن نعبد الله وحده ، ولانجعل لهمن خلقه ندا ولاكفوا ولا سميا ، قال تعالى : (فَاعْبُدْهُ واصطبِرْ لعبادَتِهِ هَل تَعلم له سَمِيا)[١] وقال : (وَلَم يَكُن له كُفوا أَحد) . وقال : (لَيس كَمثله شَيءٌ وهو السَّمِيْعُ البَصير)[٢] . وقال : (فَلا تَجعلوا لله أَنْدادا)[٣] .

وفي الصحيحين عن ابن مسعود قال : (قلت يارسول الله : أي الذنب أعظم ؟ قال : أن تجعل لله ندا وهو خلقك ، قلت ثم أي ؟ قال : أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك ، قلت ثم أي ؟ قال : أن تزاني بحليلة جارك) وقال تعالى : (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذَ مِنْ دُوْنِ اللهِ أَندادا يُحبُّونَهمْ كَحُبِّ اللهِ والَّذين آمنوا أَشَدُّ حُبًّا لله)[٤] فمن سوى بين الخالق والمخلوق في الحب له ، والخوف منه ، والرجاء له ، فهو مشرك

---

(١) مريم : ٦٥ (٢) الشورى : ١١ (٣) البقرة : ٢٢ (٤) البقرة : ١٦٥

والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم نهى أمته عن دقيق الشرك وجليله ، حتى قال صلى الله عليه وسلم : (من حلف بغير الله فقد أشرك) رواه أبو داود ، وقال له رجل ما شاء الله وشئت ، فقال : (أجعلتني لله ندا ؟!بل ماشاء اللهوحده) وقال :(لاتقولوا ماشاء الله وشاء محمد ، ولكن قولوا ماشاء الله ثم شاء محمد) وجاء معاذ بن جبل مرة فسجد له ، فقال له : (ماهذا يامعاذ ؟ فقال : يارسول الله رأيتهم في الشام يسجدون لاساقفتهم ، فقال : يامعاذ انه لايصلح السجود الالله ، ولو كنت آمرا أحدا لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها) فلهذا فرق النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بين زيارة أهل التوحيد ، وبين زيارة أهل الشرك ، فزيارة أهل التوحيد لقبور المسلمين تتضمن السلام عليهم ، والدعاء لهم ، وهو مثل الصلاة على جنائزهم، وزيارة أهل الشرك تتضمن أنهم يشبهون المخلوق بالخالق ، ينذرون له ، ويسجدون له ، ويدعونه ، ويحبونه مثل مايحبون الخالق ، فيكونون قد جعلوه لله ندا ،وسووه برب العالمين ، وقد نهى الله تعالى أن يشرك به الملائكة والانبياء وغيرهم ، فقال تعالى : (ما كان لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللهُ الكتابَ والحكمَ والنُّبوةَ ثُمَّ يَقُولَ للنَّاسِ كُونُوا عِباداً لي مِنْ دُونِ اللهِ وَلكن كُونوا رَبَّانِيِّين بما كُنْتُم تُعلِّمونَ الكتَابَ وبِما كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ.ولا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الملائكةَوالنبيينَ أَرباباً أيأْمُرُكُمْ بالكُفرِ بَعد اذْ أَنْتُم مُسْلِمونْ [1] وقال تعالى:(قُلِ ادعوا الَّذينَ زعمتْم من دُونِهِ فلا يملكونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُم ولا تحويلا . أُولئكَ الَّذينَ يدعون يَبْتَغُونَ إلى رَبِّهم الوسيلة أَيُّهم أَقربُ وَيَرْجونَ رَحْمَتَهُ ويخافون عَذابَهُ إنَّ عَذابَ رَبِّك كانَ محذورا) [2] .

قالت طائفة من السلف كان أقوام يدعون الانبياء كالمسيح وعزير ، ويدعون الملائكة ، فأخبرهم الله أن هؤلاء عبيده ، يرجون رحمته ويخافون عذابه ، ويتقربون اليه بالاعمال ، ونهى سبحانه أن يضرب له مثل بالمخلوق ، فلا يشبه بالمخلوق الذي يحتاج الى الاعوان والحجاب ونحو ذلك ، قال تعالى :(وإذا سَألكَ عِبادي عَنِّي

---

(١) آل عمران : ٨٠ (٢) الاسراء : ٥٦ ، ٥٧

فإني قريبٌ أُجيبُ دَعْوةَ الدَّاعِ إذا دعانِ ، فَلْيَسْتَجيبوا لي وَليؤْمنوا بي لعَلَّهُم يَرشُدونَ)[1] وقال تعالى : (قُلِ ادْعوا الَّذينَ زعَمْتُمْ من دونِ اللهِ لا يَملكُونَ مثقالَ ذَرةٍ في السمواتِ ولا في الأَرضِ ، وما لَهُمْ فيهما من شِركٍ وما له مِنْهُم من ظَهيرٍ ، ولا تَنفَعُ الشَّفاعةُ عِنْدَهُ إلاَّ لِمنْ أَذِنَ لَه)[2] .

وسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم سيد الشفعاء لديه ، وشفاعته أعظم الشفاعات ، وجاهه عند الله أعظم الجاهات ، ويوم القيامة اذا طلب الخلق الشفاعةمن آدم ثم من نوح ثم من ابراهيم ثم من موسى ثم من عيسى كل واحد يحيلهم على الآخر ، فاذا جاؤا الى المسيح يقول اذهبوا الى محمد عبد غفر الله له ماتقدم من ذنبه وما تأخر ، قال : (فأذهب فاذا رأيت ربي خررت له ساجدا ، وأحمد ربي بمحامد يفتحها علي لاأحسنها الان ، فيقال : أي محمد ارفع رأسك وقل يسمع ، وسل تعطه ، واشفع تشفع ، قال فيحد لي حدا فأدخلهم الجنة) فمن أنكر شفاعة نبينا صلى الله عليه وسلم في أهل الكبائر فهو مبتدع ضال ، كما ينكرها الخوارج والمعتزلة ، ومن قال ان مخلوقا يشفع عند الله بغير اذنه فقد خالف اجماع المسلمين ونصوص القرآن، قال تعالى: (مَنْ ذا الَّذي يَشْفَعُ عنده إلاَّ بإذْنِهِ)[3] وقال تعالى : (ولا يَشفعونَ إلاَّ لمن ارْتَضى)[4] وقال تعالى : (وكَمْ مِنْ مَلَكٍ في السمواتِ لا تُغني شفاعَتُهم شيئاً إلاَّ من بعد أَن يأذَنَ اللهُ لِمنْ يَشاءُ ويَرضى)[5] وقال تعالى : (وخَشَعت الأَصْواتُ للرحمن فلا تسمعُ إلاَّ همساً ، يومئذٍ لا تنفعُ الشَّفاعةُ إلاَّ مَن أَذِنَ له الرحمن ورَضيَ له قَولاً)[6] وقال تعالى : (مَا لكُمْ مِن دُونِه من وَلي ولا شَفيع)[7] ومثل هذا في القرآن كثير .

فالدين هو متابعة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، بأن يأمر به ، وينهى عما نهى عنه ، ويحب ماأحبه الله ورسوله من الاعمالو والاشخاص ، ويبغض ماأبغضه

---

(١) البقرة : ١٨٦ (٢) سبا : ٢٢ (٣) البقرة : ٢٥٥ (٤) الانبياء : ٢٨ (٥) النجم : ٢٦ (٦) طه : ١٠٩
(٧) السجدة : ٤

الله ورسوله من الاعمال والاشخاص ، والله سبحانه وتعالى قد بعث رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم بالفرقان ، ففرق بين هذا وهذا ، فليس لأحد أن يجمع بين مافرق الله بينه .

فمن سافر الى المسجد الحرام أو المسجد الاقصى أو مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم فصلى في مسجده وصلى في مسجد قباء وزار القبور كما مضت به سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فهذا هو الذي عمل العمل الصالح ، ومن أنكر هذا السفر فهو كافر يستتاب فان تاب والا قتل ، وأما من قصد السفر لمجرد زيارة القبر ولم يقصد الصلاة في مسجده وسافر الى مدينته فلم يصل في مسجده صلى الله عليه وسلم ولا سلم عليه في الصلاة بل أتى القبر ثم رجع فهذا مبتدع ضال ، مخالف لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولاجماع أصحابه ولعلماء أمته ، وهو الذي ذكر فيه القولان (أحدهما) أنه محرم (والثاني) لاشيء عليه ولا أجر له .

والذي يفعله علماء المسلمين هو الزيارة الشرعية ، يصلون في مسجده صلى الله عليه وسلم ، ويسلمون عليه في الدخول للمسجد وفي الصلاة ، وهذا مشروع باتفاق المسلمين ، قد ذكرت هذا في المناسك وفي الفتيا ، وذكرت أنه يسلم على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى صاحبيه ، وهذا الذي لم أذكر فيه نزاعا في الفتيا مع أن فيه نزاعا ، اذ من العلماء من لايستحب زيارة القبور مطلقا ، ومنهم من يكرهها مطلقا، كما نقل ذلك عن ابراهيم النخعي ، والشعبي ، ومحمد ابن سيرين ، وهؤلاء من أجلة التابعين ، ونقل ذلك عن مالك ، وعنه أنها مباحة ليست مستحبة ، وأما اذا قدر من أتى المسجد فلم يصل فيه ولكن أتى القبر ثم رجع فهذا هو الذي أنكره الأئمة كمالك وغيره ، وليس هذا مستحبا عند أحد من العلماء ، وهو محل النزاع هل هو حرام أو مباح ، وما علمنا أحدا من علماء المسلمين استحب مثل هذا .

ثم ذكر عليه الرحمة حكم السفر الى القبور من كلامه في الجواب الباهر فقال :
وأما السفر الى قبور الانبياء والصالحين فهذا لم يكن موجودا في الاسلام في زمن مالك ، وانما حدث هذا بعد القرون الثلاثة قرن الصحابة والتابعين وتابعيهم ، فأما هذه القرون التي أثنى عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يكن هذا ظاهرا فيها ، ولكن بعدها ظهر الافك والشرك ، ولهذا لما سأل سائل لمالك عن رجل نذر أن يأتي قبر النبي صلى الله عليه وسلم فقال : ان كان أراد المسجد فليأته وليصل فيه ، وان كان أراد القبر فلا يفعل ، للحديث الذي جاء (لاتعمل المطي الا الى ثلاثة مساجد)

وكذلك من يزور قبور الانبياء والصالحين ليدعوهم أو يطلب منهم الدعاء أو يقصد الدعاء عندهم ــ لكونه أقرب اجابة في ظنه ــ فهذا لم يكن يعرف على عهد مالك ، لا عند قبر النبي صلى الله عليه وسلم ولا غيره ، واذا كان مالك يكره أن يطيل الوقوف عنده للدعاء فكيف بمن لايقصد لا السلام عليه ولا الدعاء له ، وانما يقصد دعاءه ، وطلب حوائجه منه ، ويرفع صوته عنده ، فيؤذي الرسول ، ويشرك بالله ، ويظلم نفسه •

ولم يعتمد الائمة الاربعة ولا غير الاربعة على شيء من الاحاديث التي يرويها بعض الناس في ذلك مثل مايروون أنه قال : (من زارني في مماتي فكانما زارني في حياتي) ومن قوله (من زارني وزار أبي في عام ضمنت له على الله الجنة) ونحو ذلك ، فان هذا لم يروه أحد من أئمة المسلمين ، ولم يعتمدوا عليها ولم يروها لا أهل الصحاح ، ولا أهل السنن التي يعتمد عليها ، كأبي داود ، والنسائي ، لانها ضعيفة بل موضوعة ، كما قد بين العلماء الكلام عليها ، ومن زاره في حياته كان من المهاجرين اليه ، والواحد بعدهم لو أنفق مثل أحد ذهبا مابلغ مد أحدهم ولا نصيفه ، وهو اذا أتى بالفرائض لايكون مثل الصحابة ، فكيف يكون مثلهم في النوافل ، أو بما ليس قربه ، أو بما هو منهى عنه ، وكره مالك رحمه الله أن يقول القائل زرت قبر النبي صلى الله عليه وسلم ، كره هذا اللفظ لأن السنة لم تأت به في قبره •

وقد ذكروا في تعليل ذلك وجوها ، ورخص غيره في هذا اللفظ للاحاديث العامة في زيارة القبور ، ومالك يستحب مايستحبه سائر العلماء من السفر الى المدينة والصلاة في مسجده ، وكذلك السلام عليه وعلى صاحبيه عند قبورهم اتباعا لابن عمر ، ومالك رضي الله عنه من أعلم الناس بهذا ، لانه قد رأى التابعين الذين رأوا الصحابة بالمدينة ، ولهذا كان يستحب اتباع السلف في ذلك ، ويكره أن يبتدع أحد هناك بدعة ، فكره أن يطيل القيام والدعاء عند قبر النبي صلى الله عليه وسلم ، لان الصحابة لم يكونوا يفعلون ذلك ، وكره لأهل المدينة كلما دخل انسان المسجد أن يأتي قبر النبي صلى الله عليه وسلم ، لأن السلف لم يكونوا يفعلون ذلك •

قال مالك : ولا يصلح آخر هذه الامة الا ماأصلح أولها ، بل كانوا يأتون الى مسجده فيصلون خلف أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم أجمعين ، فان

الاربعة صلوا أئمة في مسجده ، والمسلمون يصلون خلفهم ، وهم يقولون في الصلاة السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته كما كانوا يقولون ذلك في حياته ، ثم اذا قضوا الصلاة قعدوا أو خرجوا ولم يكونوا يأتون القبر للسلام ، لعلمهم بأن الصلاة والسلام عليه في الصلاة أكمل وأفضل ، وهي المشروعة .

وأما دخولهم عند قبره للصلاة والسلام عليه هناك أو الصلاة والدعاء فانه لم يشرعه لهم ، بل نهاهم ، وقال : (لاتتخذوا قبري عيدا ، وصلوا علي حيثما كنتم فان صلاتكم تبلغني) فبين أن الصلاة تصل اليه من البعيد ، وكذلك السلام ، ومن صلى عليه مرة صلى الله عليه بها عشرا ، ومن سلم عليه سلم الله عليه عشرا ، وتخصيص الحجرة بالصلاة والسلام جعل لها عيدا! وهو قد نهاهم عن ذلك ، ونهاهم أن يتخذوا قبره أو قبر غيره مسجدا ، ولعن من فعل ذلك ، ليحذروا أن يصيبهم مثل ماأصاب غيرهم من اللعنة ، وكان أصحابه خير القرون ، وهم أعلم الناس بسننه ، وأطوع الامة لأمره ، وكانوا اذا دخلوا الى المسجد لايذهب أحد منهم الى قبره لا من داخل الحجرة ولا من خارجها ، وكانت الحجرة في زمانهم يدخل اليها من الباب اذ كانت عائشة فيها ، وبعد ذلك الى أن بني الحائط الآخر ، وهم مع ذلك التمكن من الوصول الى قبره لايدخلون اليه ، لا لسلام ولا لصلاة ، ولا لدعاء لأنفسهم ، ولا لسؤال عن حديث أو علم ، ولاكان الشيطان يطمع فيهم — حتى يسمعهم كلاما وسلاما فيظنون أنه هو كلمهم وأفتاهم ، وبين لهم الاحاديث ، أو أنه قد رد عليهم السلام بصوت يسمع من خارج — كما طمع الشيطان في غيرهم ، فاضلهم عند قبره وقبر غيره ، حتى ظنوا أن صاحب القبر يحدثهم ويفتيهم ، ويأمرهم وينهاهم في الظاهر ، وانه يخرج من القبر ويرونه خارجا من القبر ، ويظنون أن نفس ابدان الموتى خرجت من القبر تكلمهم ، وأن روح الميت تجسدت لهم فرأوها كما رآهم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ليلة المعراج يقظة لامناما .

فان الصحابة رضوان الله عليهم خير قرون هذه الامة التي هي خير أمة أخرجت للناس ، وهم تلقوا الدين عن النبي صلى الله عليه وسلم بلا واسطة ، ففهموا من مقاصده وعاينوا من أفعاله وسمعوا منه شفاها مالم يحصل لمن بعدهم ، وهم قد فارقوا جميع أهل الارض وعادوهم ، وهجروا جميع الطوائف وأديانهم ، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم . قال صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح : (لاتسبوا

أصحابي ، فوالذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبا مابلغ مد أحدهم ولا نصيفه) وهذا قاله لخالد بن الوليد لما تشاجر هو وعبد الرحمن بن عوف ، لأن عبد الرحمن بن عوف كان من السابقين الاولين ، وهم الذين أنفقوا من قبل الفتح وقاتلوا وهو فتح الحديبية ، وخالد هو وعمرو ابن العاص وعثمان بن طلحة أسلموا في مدة الهدنة بعد الحديبية وقبل فتح مكة ، فكانوا من المهاجرين التابعين لا من المهاجرين الاولين •

وأما الذين أسلموا عام فتح مكة فليسوا بمهاجرين ، لانه لا هجرة بعد الفتح بل كان الذين أسلموا من أهل مكة يقال لهم الطلقاء ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم أطلقهم بعد الاستيلاء عليهم عنوة كما يطلق الاسير ، والذين بايعوه تحت الشجرة ومن كان من مهاجرة الحبشة هم السابقون الاولون من المهاجرين والانصار •

وفي الصحيح عن جابر قال : قال لنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يوم الحديبية : (أنتم خير أهل الارض ، وكنا ألفا وأربعمائة) ولهذا لم يطمع الشيطان أن ينال منهم من الاضلال والاغواء مانال ممن بعدهم ، فلم يكن فيهم من يتعمد الكذب على النبي صلى الله عليه وسلم — وان كان له أعمال غير ذلك قد تنكر عليه — ولم يكن فيهم من أهل البدع المشهورة ، كالخوارج ، والروافض ، والقدرية ، والمرجئة ، والجهمية ، بل كل هؤلاء انما حدثوا فيمن بعدهم ، ولم يكن فيهم من طمع الشيطان أن يترائى له في صورة بشر ويقول أنا الخضر ، أو أنا ابراهيم ، أو موسي ، أو عيسى أو المسيح ، أو أن يكلمه عند قبر حتى يظن أن صاحبه كلمه ، بل هذا انما ناله فيمن بعدهم ، وناله أيضا من النصارى ، حيث أتاهم بعد الصلب وقال : أناهو المسيح وهذه مواضع المسامير — ولا يقول أنا الشيطان فان الشيطان لايكون جسدا — أو كما قال • وهذا هو الذي اعتمد عليه النصارى في أنه صلب لا في مشاهدته فان أحدا منهم لم يشاهد الصلب ، وانما حضره بعض اليهود ، وعلقوا المصلوب وهم يعتقدون أنه المسيح ، ولهذا جعل الله هذا من ذنوبهم وان لم يكونوا صلبوه ، ولكنهم قصدوا هذا الفعل وفرحوا به ، قال تعالى : (وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَاناً عَظِيماً. وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللهِ ، وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـٰكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ ، وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ،

وما قتلوهُ يقيْناً . بَلْ رَفعهُ اللهُ إليْه)[1] . وبسط هذا له موضع آخر .

(والمقصود) أن الصحابة رضي الله عنهم لم يطمع الشيطان أن يضلهم كما أضل غيرهم من أهل البدع الذين تأولوا القرآن على غير تأويله ، وجهلوا السنة اذا رأوا أو سمعوا أمورا من الخوارق فظنوها من جنس آيات الانبياء والصالحين ، وكانت من أفعال الشياطين ، كما أضل النصارى وأهل البدع بمثل ذلك ، فهم يتبعون المتشابه من الكتاب ، ويدعون المحكم ، ولذلك يتمسكون بالمتشابه من الحجج العقلية والحسية ، كما يسمع ويرى أمورا فيظن أنه رحماني وانما هو شيطاني ، ويدعون البين الحق الذي لا اجمال فيه ، ولذلك لم يطمع الشيطان أن يتمثل في صورته ، ويغيث من استغاث به ، أو أن يحمل صوتا يشبه صوته ، لأن الذين رأوه قد علموا أن هذا شرك لايحل ، ولهذا أيضا لم يطمع فيهم أن يقول أحد منهم لاصحابه اذا كانت لكم حاجة فتعالوا الى قبري ، ولا تستغيثوا بي لا في محياي ولا في مماتي ، كما جرى مثل هذا لكثير من المتأخرين ، ولا طمع الشيطان أن يأتي أحدهم ويقول : أنا من رجال الغيب ، أو الاوتاد الاربعة ، أو من السبعة ، أو الاربعين أو يقول له : أنت منهم ، اذ كان هذا عندهم من الباطل الذي لاحقيقة له ، ولا طمع الشيطان أن يأتي أحدهم فيقول : أنا رسول الله ـ ويخاطبه عند القبر ـ كما وقع ذلك لكثير ممن بعدهم عند قبره وقبر غيره ، وعند غير القبور ، كما يقع كثير من ذلك للمشركين وأهل الكتاب ، يرون بعد الموت من يعظمونه ، فأهل الهند يرون من يعظمونه من شيوخهم الكفار وغيرهم ، والنصارى يرون من يعظمونه من الانبياء والحواريين وغيرهم ، والضلال من أهل القبلة يرون من يعظمونه : إما النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وإما غيره من الانبياء ـ يقظة ، ويخاطبهم ويخاطبونه ، وقد يستفتونه ويسئلونه عن أحاديث فيجيبهم ، ومنهم من يخيل له أن الحجرة قد انشقت وخرج منها النبي صلى الله عليه وسلم وعانقه هو وصاحباه ، ومنهم من يخيل اليه أنه رفع صوته بالسلام حتى وصل مسيرة أيام الى مكان بعيد ، وهذا وأمثاله أعرف ممن وقع له هذا وأشباهه عددا كثيرا ، وقد حدثني بما وقع له في ذلك وبما أخبر به غيره من الصادقين من يطول هذا الموضع بذكرهم .

وهذا موجود عند خلق كثير ، كما هو موجود عند النصارى والمشركين ، لكن كثير من الناس يكذب بهذا ، وكثير منهم اذا صدق به يعتقد أنه من الآيات الالهية ،

---

(١) النساء : ١٥٦ ـ ١٥٨

وان الذي رأى ذلك رآه لصلاحه ودينه ، ولم يعلم أنه من الشيطان ، وأنه أضل من فعل به ذلك ، وأنه بحسب قلة علم الرجل يضله ، ومن كان أقل علما قال له مايعلم أنه مخالف للشريعة خلافا ظاهرا ، ومن عنده علم بها لا يقول له ما يعلم أنه مخالف للشريعة ولا مفيد فائدة في دينه ، بل يضله عن بعض ما كان يعرفه ، فان هذا فعل الشياطين ، وهو وان ظن أنه استفاد شيئا فالذي خسره من دينه أكثر ، ولهذا لم يقل قط أحد من الصحابة أن الخضر أتاه ، ولا موسى ولا عيسى ، ولا أنه سمع رد النبي صلى الله عليه وسلم ، وابن عمر كان يسلم ولم يقل قط أنه سمع الرد ، وكذلك التابعون وتابعوهم ، وانما حدث هذا في بعض المتأخرين ، وكذلك لم يكن أحد من الصحابة يأتيه فيسأله عند القبر عن بعض ماتنازعوا فيه وأشكل عليهم من العلم ، لا خلفاؤه الاربعة ولا غيرهم ، مع أنهم أخص الناس به ، حتى ابنته فاطمة لم يطمع الشيطان أن يقول لها اذهبي الى قبره فسليه هل يورث ، كما أنهم أيضا لم يطمع الشيطان فيهم فيقول لهم اطلبوا منه أن يدعو لكم بالمطر لما أجدبوا ، ولا قال اطلبوا منه أن يستنصر لكم ولا أن يستغفر كما كانوا في حياته يطلبون منه أن يستسقي لهم وأن يستغفر لهم ، فلم يطمع الشيطان فيهم بعد موته أن يطلبوا منه ذلك ، ولا طمع بذلك في القرون الثلاثة ، وانما ظهرت هذه الضلالات ممن قل علمه بالتوحيد والسنة فأضله الشيطان كما أضل النصارى في أمور لقلة علمهم بما جاء به المسيح ومن قبله من الانبياء صلوات الله عليهم وسلامه ، وكذلك لم يطمع الشيطان أن يطير بأحدهم في الهواء ، ولا أن يقطع به الارض في مدة قريبة ، كما يقع مثل هذا لكثير من المتأخرين ، لأن الاسفار التي كانوا يسافرونها كانت طاعات ، كسفر الحج والعمرة والجهاد ، وهم يثابون على كل خطوة يخطونها فيه ، وكلما بعدت المسافة كان الاجر أعظم ، كالذي يخرج من بيته الى المسجد فخطواته احداهما ترفع درجة والاخرى تحط خطيئة ، فلم يمكن الشيطان أن يفوتهم ذلك الاجر ، بأن يحملهم في الهواء أو يؤزهم في الارض ازا حتى يقطعوا المسافة بسرعة .

وقد علموا أن النبي صلى الله عليه وسلم انما أسرى به الله من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى ليريه من آياته ، وأنه أراه من آياته الكبرى ، وكان هذا من خصائصه ، فليس لمن بعده مثل هذا المعراج ، ولكن الشيطان يخيل اليه معاريج شيطانية كما خيلها لجماعة من المتأخرين ، وأما قطع النهر الكبير بالسير على الماء فهذا قد يحتاج اليه المؤمنون أحيانا ، مثل أن لايمكنهم العبور الى العدو وتكميل الجهاد

الا بذلك ، فلهذا كان الله يكرم من يحتاج الى ذلك من الصحابة والتابعين بمثل ذلك، كما أكرم به العلاء بن الحضرمي وأصحابه ، وأبا مسلم الخولاني وأصحابه ، وبسط هذا له موضع آخر غير هذا الكتاب •

لكن المقصود أن يعرف أن الصحابة خير القرون ، وأفضل الخلق بعد الانبياء ، فما ظهر فيمن بعدهم مما يظن أنها فضيلة للمتأخرين ولم تكن فيهم فانها من الشيطان ، وهي نقيصة لا فضيلة ، سواء كانت من جنس العلوم ، أو من جنس العبادات ، أو من جنس الخوارق والآيات ، أو من جنس السياسة والملك ، بل خير الناس بعدهم أتبعهم لهم ، قال ابن مسعود رضي الله عنه : من كان منكم مستنا فليستن بمن قد مات ، فان الحي لاتؤمن عليه الفتنة ، أولئك أصحاب محمد صلى الله تعالى عليه وسلم : أبر هذه الامة قلوبا ، وأعمقها علما ، وأقلها تكلفا ، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه ، ولاقامة دينه ، فاعرفوا لهم حقهم ، وتمسكوا بهديهم ، فانهم كانوا على الهدى المستقيم • وبسط هذا له موضع آخر •

والمقصود هنا : أن الصحابة تركوا البدع المتعلقة بالقبور بقبره وقبر غيره لنهيه صلى الله عليه وسلم عن ذلك ، ولئلا يتشبهوا بأهل الكتاب الذين اتخذوا قبور الانبياء أوثانا ، وانما كان بعضهم يأتي من خارج فيسلم عليه اذا قدم من سفر ، كما كان ابن عمر يفعل ، بل كانوا في حياته يسلمون عليه ثم يخرجون من المسجد لا يأتون اليه عند كل صلاة ، واذا جاء أحد سلم عليه رد عليه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وكذلك من سلم عليه عندقبره رد عليه ، وكانوا يدخلون على عائشة فكانوا يسلمون عليه كما كانوا يسلمون في حياته ، ويقول أحدهم : السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، وقد جاء هذا عاما ، ما من رجل يمر بقبر الرجل كان يعرفه في الدنيا فيسلم عليه الا رد الله عليه روحه حتى يرد عليه السلام ، فاذا كان رد السلام موجودا في عموم المؤمنين فهو في أفضل الخلق أولى ، واذا سلم المسلم عليه في صلاته فانه وان لم يرد عليه لكن الله يسلم عليه عشرا ، كما في الحديث : (من سلم علي مرة سلم الله عليه عشرا) فالله يجزيه على هذا السلام أفضل مما يحصل بالرد ، كما أنه من صلى عليه مرة صلى الله عليه بها عشرا ، وكان ابن عمر يسلم عليه ثم ينصرف ولا يقف لا لدعاء له إلا لنفسه ، لأن ذلك لم ينقل عن أحد من الصحابة فكان بدعةمحضة قال مالك : لن يصلح آخر هذه الامة الا ماأصلح أولها ، مع أن فعل ابن عمر اذا لم يفعل مثله سائر الصحابة انما يحصل للتسويغ ، كأمثال ذلك فيمايفعله بعض الصحابة•

وأما القول بأن هذا الفعل مستحب أو منهى عنه أو مباح فلا يثبت الا بدليل شرعي ، فالوجوب والندب والاباحة والاستحباب والكراهة والتحريم لايثبت شيء منها الا بالادلة الشرعية ، والادلة الشرعية كلها مرجعها اليه ، فالقرآن هو الذي بلغه ، والسنة هي التي علمها ، والاجماع بقوله عرف أنه معصوم ، والقياس انما يكون حجة اذا علمنا أن الفرع مثل الاصل ، أو أن علة الاصل في الفرع ، وقد علمنا أنه صلى الله عليه وسلم لايتناقض فلا يحكم في المتماثلين بحكمين متناقضين ، ولا يحكم بالحكم لعلة تارة ويمنعه أخرى مع وجود العلة الا لاختصاص احدى الصورتين بما يوجب التخصيص ، فشرعه هو ماشرعه ، وسنته هي ماسنها ، لايضاف اليه قول غيره وفعله وان كان من أفضل الناس اذا وردت سنته ، بل ولا يضاف اليه الا بدليل يدل على الاضافة ، ولهذا كان الصحابة كأبي بكر وعمر وابن مسعود يقولون باجتهادهم، ويكونون مصيبين موافقين لسنته ، لكن يقول أحدهم : أقول في هذا برأيي ، فان يكن صوابا فمن الله ، وان كان خطأ فمني ومن الشيطان ، والله ورسوله بريئان منه، فان كان ماخالف سنته فهو شرع منسوخ مبدل ، لكن المجتهدون وان قالوا برأيهم وأخطئوا فلهم أجر وخطأهم مغفور لهم ، وكان الصحابة اذا أراد أحدهم أن يدعو لنفسه استقبل القبلة ودعا لنفسه كما كانوا يفعلون في حياته ، لايقصدون الدعاء عند الحجرة ، ولا يدخل أحدهم الى القبر ، والسلام عليه قد شرع للمسلمين في كل صلاة ، وشرع للمسلمين اذا دخل أحدهم المسجد أي مسجد كان •

(فالنوع الاول) كل صلاة يقول المصلي : السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، ثم يقول : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، قال النبي صلى الله عليه وسلم (فاذا قلتم ذلك أصابت كل عبد صالح لله في السماء والارض) فقد شرع للمسلمين في كل صلاة أن يسلموا على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم خصوصا وعلى عباد الله الصالحين من الملائكة والانس والجن ، وفي الصحيحين عن ابن مسعود رضي الله عنه قال (كنا نقول خلف النبي صلى الله عليه وسلم في الصلاة : السلام على فلان وفلان ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ان الله هو السلام ، فاذا قعد أحدكم في الصلاة فليقل التحيات لله والصلوات والطيبات ، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، أشهد أن لا اله الا الله ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله) وقد روى عنه التشهد بألفاظ أخر ، كما رواه مسلم من حديث ابن عباس ، وكما كان ابن عمر يعلم الناس التشهد ، ورواه

مسلم من حديث أبي موسى ، لكن مثل تشهد ابن مسعود ، ولكن لم يخرج البخاري الا تشهد ابن مسعود ، وكل ذلك سائغ فان القرآن أنزل على سبعة أحرف ، فالتشهد أولى .

والمقصود : أنه صلى الله عليه وسلم ذكر أن المصلي اذا قال السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين أصابت كل عبد صالح في السماء والارض ، وهذا يتناول الملائكة والانس والجن ، كما قال تعالى عنهم : (وأَنَّا مِنَّا الصَّالِحونَ ومِنَّا دُوْنَ ذلكَ كُنَّا طَرائقَ قِدَدَاً)[1] .

(والنوع الثاني) السلام عليه عند دخول المسجد ، كما في المسند والسنن عن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (اذا دخل أحدكم المسجد فليقل باسم الله والصلاة والسلام على رسول الله ، اللهم اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب رحمتك ، واذا خرج قال باسم الله والصلاة والسلام على رسول الله ، اللهم اغفر لي ذنوبي ، وافتح لي أبواب فضلك) .

وروى مسلم في صحيحه الدعاء عند دخول المسجد بأن يفتح له أبواب رحمته، وعند خروجه بسؤال الله من فضله ، وهذا الدعاء مؤكد في دخول مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولهذا ذكره العلماء فيما صنفوه من المناسك لمن أتى الى مسجده أن يقول ذلك ، فان السلام عليه مشروع عند دخول المسجد والخروج ، وفي نفس كل صلاة ، وهذا أفضل وأنفع من السلام عند قبره وأدوم ، وهذا مصلحة محضة لامفسدة ، فبها يرضي الله ، ويوصل نفع ذلك الى رسول الله والى المؤمن ، وهذا مشروع في كل صلاة ، وعند دخول المسجد والخروج منه ، بخلاف السلام عند القبر ، مع أن قبره من حين دفن لم يمكن أحد من الدخول اليه ، لا لزيارة ولا لصلاة ولا لدعاء ولا غير ذلك ، ولكن كانت عائشة فيه لأنه بيتها ، وكانت ناحية عن القبور لأن القبور في مقدم الحجرة ، وكانت هي في مؤخرة الحجرة ، ولم يكن الصحابة يدخلون الى هناك .

وكانت الحجرة على عهد الصحابة خارجة عن المسجد متصلة به ، وانما دخلت فيه في خلافة عبد الملك بن مروان بعد موت العبادلة ابن عمر وابن عباس وابن الزبير وابن عمرو ، بل موت جميع الصحابة الذين كانوا بالمدينة ، ولم يكن الصحابة يدخلون

---

(١) الجن : ١١

الى عند القبر ، ولا يقفون عنده خارجا ، مع أنهم يدخلون الى مسجده ليلا ونهارا ، وقد قال صلى الله تعالى عليه وسلم : (صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه من المساجد الا المسجد الحرام) وقال : (لاتشد الرحال الا الى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، ومسجدي هذا ، ومسجد بيت المقدس) وكانوا يقدمون من الاسفار للاجتماع بالخلفاء الراشدين وغير ذلك فيصلون في مسجده ، ويسلمون عليه في الصلاة ، وعند دخول المسجد والخروج منه ، ولا يأتون القبر ، اذ كان عندهم مما لم يأمرهم به ، ولم يسنه لهم ، وانما أمرهم وسن لهم الصلاة والسلام عليه في الصلاة ، وعند دخولهم المساجد وغير ذلك ، ولكن ابن عمر كان يأتيه فيسلم عليه وعلى صاحبيه عند قدومه من السفر ، وقد يكون فعله غير ابن عمر أيضا ، فهكذا رأي من رأى من العلماء هذا جائزا اقتداء بالصحابة رضي الله عنهم ، وابن عمر كان يسلم ثم ينصرف ولا يقف يقول : السلام عليك يارسول الله ، السلام عليك ياأبا بكر ، السلام عليك ياأبت ، ثم ينصرف ولم يكن جمهور الصحابة يفعلون ذلك اذ لم يكن هذا سنة سنها لهم •

وكذلك أزواجه كن على عهد الخلفاء وبعدهم يسافرون للحج ، ثم ترجع كل واحدة الى بيتها كماوصاهن بذلك ، وكانت امداد اليمن الذين قال الله فيهم (فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبهمْ وَيُحِبُّونَه)[1] على عهد أبي بكر وعمر يأتون أفواجا من اليمن للجهاد في سبيل الله ، ويصلون خلف أبي بكر وعمر في مسجده ، ولا يدخل أحد منهم الى داخل الحجرة ، ولا يقف في المسجد خارجا منها ، لا لدعاء ولا صلاةولا سلام ولا غير ذلك ، وكانوا عالمين بسنته ، كما علمهم الصحابة والتابعون أن حقوقه ملازمة لحقوق الله ، وأن جميع ماأمر الله به وأحبه من حقوقه وحقوق رسوله فان صاحبها يؤمر بها في جميع المواضع والبقاع ، فليست الصلاة والسلام عليه عند قبره بأوكد من ذلك في غير ذلك المكان ، بل صاحبها مأمور بها حيث كان ، اما مطلقا واما عندالاسباب المؤكدة لها ، كالصلاة والدعاء والاذان ، ولم يكن شيء من حقوقه ولا شيء من العبادات هو عند قبره أفضل منه في غير تلك البقعة ، بل نفس مسجده له فضيلة لكونه مسجده ، ومن اعتقد أنه قبل القبر لم يكن له فضيلة ــ اذ كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يصلي فيه والمهاجرون والانصار وانما حدثت له الفضيلة في

---

(١) المائدة : ٥٤

خلافة الوليد بن عبد الملك لما أدخل الحجرة في مسجده ـ فهذا لايقوله الا جاهل مفرط في الجهل ، أو كافر ، فهو مكذب لما جاء ، مستحق للقتل •

وكان الصحابة يدعون في مسجده كما كانوا يدعون في حياته ، لم يتجدد لهم شريعة غير الشريعة التي علمهم اياها في حياته ، وهو لم يأمرهم اذا كان لأحدهم حاجة أن يذهب الى قبر نبي أو صالح فيصلي عنده ويدعوه ، أو يدعو بلا صلاة ، أو يسأله حوائجه ، أو يسأله أن يسأل ربه ، فقد علم الصحابة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يأمرهم بشيء من ذلك ، ولا أمرهم أن يخصوا قبره أو حجرته لا بصلاة ولا دعاء ، لا له ولا لأنفسهم ، بل قد نهاهم أن يتخذوا بيته عيدا ، فلم يقل لهم كما يقول بعض الشيوخ الجهال لاصحابه اذا كان لكم حاجة فتعالوا الى قبري ، بل نهاهم عما هو أبلغ من ذلك أن يتخذوا قبره أو قبر غيره مسجدا يصلون فيه لله ، ليسد ذريعة الشرك ، فصلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلم تسليما ، وجزاه عنا أفضل ماجزى نبيا عن أمته ، قد بلغ الرسالة وأدى الامانة ، ونصح الامة ، وجاهد في الله حق جهاده ، وعبد الله حتى أتاه اليقين من ربه ، فكان انعام الله به أفضل نعمة أنعم بها على أهل الارض •

وقد دلهم صلى الله عليه وسلم على أفضل العبادات ، وأفضل البقاع ، كما في الصحيحين عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال : (قلت يارسول الله : أي العمل أفضل ؟ قال : الصلاة على مواقيتها ، قلت ثم أي ؟ قال : ثم بر الوالدين ، قلت ثم أي ؟ قال : الجهاد في سبيل الله سألته عنهن ، ولو استزدته لزادني) وفي المسند وسنن ابن ماجه عن ثوبان عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (استقيموا ولن تحصوا، واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة ، ولا يحافظ على الوضوء الا مؤمن) والصلاة قد سن للامة أن تتخذ لها مساجد ، وهي أحب البقاع الى الله ، كما ثبت عنه في صحيح مسلم وغيره أنه قال : (أحب البقاع الى الله المساجد ، وأبغض البقاع الى الله الاسواق) ومع هذا فقد لعن من يتخذ قبور الانبياء والصالحين مساجد ـ وهو في مرض الموت ـ نصيحة للامة ، وحرصا منه على هذا ، كما نعته الله بقوله : (لَقَدْ جاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ ، عَزِيزٌ عَلَيْهِ ما عَنِتُّمْ ، حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالمؤمنينَ ، رَؤُفٌ رَحِيمٌ)[1]

---

(1) التوبة : ١٢٨

وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله تعالى عنها أنها قالت : (قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ في مرضه الذي لم يقم منه ـ لعن الله اليهود والنصارى ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ، قالت عائشة : ولولا ذلك لابرز قبره ، ولكن كره أن يتخذ مسجدا) ، وعن عائشة وابن عباس قالا : لما نزل برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم طفق يطرح خميصة له على وجهه ، فاذا اغتم كشفها عن وجهه ، فقال ـ وهو كذلك ـ (لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ، يحذر ماصنعوا) •

ومن حكمة الله تعالى أن عائشة أم المؤمنين صاحبة الحجرة التي دفن فيها تروي هذه الاحاديث وقد سمعتها منه ، وان كان غيرها من الصحابة سمعها أيضا ، كابن عباس وأبي هريرة وجندب وابن مسعود رضي الله تعالى عنهم ، وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : (قاتل الله اليهود ، اتخذوا قبور أنبياءهم مساجد) وفي الصحيحين عن عائشة أن أم حبيبة وأم سلمة ذكرتا كنيسة رأينها بأرض الحبشة ـ فيها تصاوير ـ لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : (ان أولئك اذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بنوا على قبره مسجدا ، وصوروا فيه تلك الصور ، أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة) وفي صحيح مسلم عن جندب قال : (سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يموت بخمس وهو يقول : اني أبرأ الى الله أن يكون لي منكم خليل ، فان الله قد اتخذني خليلا كما اتخذ ابراهيم خليلا ، ولو كنت متخذا من أهل الارض خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ، ألا وان من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد ، فاني أنهاكم عن ذلك) وفي صحيح مسلم عن أبي مرثد الغنوي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (لاتجلسوا على القبور ولا تصلوا اليها) وفي المسند وصحيح أبي حاتم أنه قال (إن من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء ، والذين يتخذون القبور مساجد) •

وقد تقدم نهيه أن يتخذ قبره عيدا ، فلما علم الصحابة أنه قد نهاهم عن أن يتخذوه مصلى للفرائض التي يتقرب بها الى الله ـ لئلا يتشبهوا بالمشركين الذين يتخذونها ويصلون بها وينذرون لها ـ كان نهيهم عن دعائها أعظم وأعظم ، كما أنه لما نهاهم عن الصلاة عند طلوع الشمس وغروبها ـ لئلا يتشبهوا بمن يسجد للشمس ـ كان نهيهم عن السجود للشمس أولى ، فكان الصحابة يقصدون الصلاة والدعاء والذكر

في المساجد التي بنيت لله دون قبور الانبياء والصالحين التي نهوا أن يتخذوهامساجد وانما هي بيوت المخلوقين ، وكانوا يفعلون بعد موته ماكانوا يفعلون في حياته •

ثم ذكر فصلا في جوابه عن غلو بعض الناس في تعظيم القبور حتى قال ان البلاء يندفع عن أهل البلد أو الاقليم بمن هو مدفون عندهم من الانبياء والصالحين •

قال شيخ الاسلام في أثناء كلامه في (الجواب الباهر) وأما مايظنه بعض الناس أنه يندفع البلاء عن أهل بغداد بقبور ثلاثة : أحمد بن حنبل ، وبشر الحافي ، ومنصور ابن عمار ، ويظن بعضهم أنه يندفع البلاء عن أهل الشام بمن عندهم من قبور الانبياء ، الخليل وغيره عليهم السلام ، وبعضهم يظن أنه يندفع البلاء عن أهل مصر بنفيسة أو غيرها ، أو يندفع عن أهل الحجاز بقبر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وأهل البقيع أو غيرهم : فكل هذا غلو مخالف لدين المسلمين ، مخالف للكتاب والسنة والاجماع ، فالبيت المقدس كان عنده من قبور الانبياء والصالحين ماشاء الله فلما عصوا الانبياء وخالفوا ماأمر الله به ورسله سلط عليهم من انتقم منهم ، والرسل الموتى ماعليهم الا البلاغ ، وقد بلغوهم رسالة ربهم ، وكذلك نبينا قال الله تعالى في حقه: (إنْ عَلَيْكَ إلاَّ الْبَلاغُ)[1] وقال:(وَمَا عَلى الرَّسُوْلِ إلاَّ البَلاغُ المبيْن)[2] .

وقد ضمن الله لكل من أطاع الرسول أن يهديه وينصره ، فمن خالف الرسول استحق العذاب ولم يغن عنه أحد من الله شيئا ، كما قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم : (ياعباس عم رسول الله لاأغني عنك من الله شيئا ، يافاطمة بنت محمد لاأغني عنك من الله شيئا) وقال لمن ولاه من أصحابه : (لاألفين أحدكم يأتي يوم القيامة على رقبته بعير له رغاء ، يقول : يارسول الله أغثني ! فأقول : لا أملك لك من الله شيئا قد بلغتك) وكان أهل المدينة في خلافة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي أفضل أهل الدنيا والآخرة ، لتمسكهم بطاعة الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ، ثم تغيروا بعض التغير ، فقتل عثمان ، وخرجت الخلافة خلافة النبوة من عندهم وصاروا رعية لغيرهم ، ثم تغيروا بعض التغيرفجرى عليهمعام الحرة من النهب والقتل وغير ذلك من المصائب مالم يجر عليهم قبل ذلك ، والذي فعل بهم ذلك وان كانظالما متعديا فليس هو أظلم ممن فعل بالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم وأصحابه مافعل ، وقد قال الله تعالى : (أَوَلَمَّا أصابتكُمْ مُصيبةٌ قَدْ أَصَبتُمْ مِثْلَيْها قُلتم أَنَّى هٰذا ؟

---

(١) الشورى : ٤٨ (٢) العنكبوت : ١٨

قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ)[1]

وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم والسابقون الاولون مدفونين بالمدينة ، وكذلك الشام كان أهله في أول الاسلام في سعادة الدنيا والدين ، ثم جرت فتن وخرج الملك من أيديهم ، ثم سلط عليهم المنافقون الملاحدة والنصارى بذنوبهم ، واستولوا على بيت المقدس وقبر الخليل ، وفتحوا البناء الذي كان عليه ، وجعلوه كنيسة ، ثم صلح دينهم فأعزهم الله ونصرهم على عدوهم لما أطاعوا الله ورسوله ، واتبعوا ماأنزل اليهم من ربهم ، فطاعة الله ورسوله هي قطب السعادة وعليها تدور : (وَمَنْ يُطِعِ اللهَ والرَّسولَ فأُولئكَ مَعَ الَّذين أَنعَمَ اللهُ عَلَيهم منَ النَّبِيين والصديقين والشُّهداءِ والصَّالحينَ وحَسُنَ أُولئكَ رَفيقا)[2] .

وكان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يقول في خطبته : (من يطع اللهورسوله فقد رشد ، ومن يعصهما فلا يضر الا نفسه ولا يضر الله شيئا) .

ومكة نفسها لايدفع البلاء عن أهلها ويجلب لهم الرزق الا بطاعتهم لله ورسوله كما قال الخليل عليه السلام : (رَبّنا إني أَسْكنت مِن ذُرِّيَّتي بِوادٍ غَيْرِ ذي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ المحرَّم ، ربَّنا ليقيموا الصَّلاةَ ، فاجْعَلْ أَفئدةً من الناسِ تَهْوي إليهِمْ وارْزُقْهُمْ من الثَّمرات لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ)[3] .

وكانوا في الجاهلية يعظمون حرمة الحرم ، ويحجون ويطوفون بالبيت ، وكانوا خيرا من غيرهم من المشركين ، والله لايظلم مثقال ذرة ، فكانوا يكرمون مالا يكرم غيرهم ، ويؤتون مالا يؤتاه غيرهم ، لكونهم كانوا متمسكين من دين ابراهيم أعظم ماتمسك به غيرهم ، وهم في الاسلام ان كانوا أفضل من غيرهم كان جزاؤهم بحسب فضلهم ، وان كانوا اسوأ عملا من غيرهم كان جزاؤهم بحسب سيئاتهم ، فالمساجد والمشاعر انما تنفع فضيلتها لمن عمل فيها بطاعة الله ، والا فمجرد البقاع لايحصل بها ثواب ولا عقاب ، وانما الثواب والعقاب على الاعمال المأمور بها والمنهى عنها ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد آخى بين سلمان الفارسي وأبي الدرداء ، وكان أبو الدرداء بدمشق وسلمان بالعراق ، فكتب أبو الدرداء الى سلمان هلم الى الارض المقدسة فكتب اليه سلمان إن الارض لاتقدس أحدا وانما يقدس

(١) آل عمران : ١٦٥ (٢) النساء : ٦٩ (٣) ابراهيم : ٣٧ .

الرجل عمله . والمقام بالثغور للجهاد أفضل من سكنى الحرمين باتفاق العلماء ، ولهذا كان سكنى الصحابة بالمدينة أفضل للهجرة .

والله هو الذي خلق الخلق وهو الذي يهديهم ويرزقهم وينصرهم ، وكل من سواه لايملك شيئا من ذلك ، كما قال تعالى : (قُلِ ادعوا الَّذينَ زعمتمْ من دُونِ اللهِ لا يملكونَ مِثْقالَ ذرَّةٍ في السَّموات ولا في الأَرضِ ، وما لَهمْ فيهما من شِركٍ وما لَهُ مِنْهم من ظَهيرٍ . ولا تَنفعُ الشَّفاعةُ عِندَهُ إلاَّ لِمنْ أَذِنَ لَهُ)[1]

وقد فسروها بأن يؤذن للشافع والمشفوع له جميعا ، فان سيد الشفعاء يوم القيامة محمد صلى الله عليه وسلم ، واذا أراد الشفاعة قال : (فاذا رأيت ربي خررت له ساجدا ، فأحمده بمحامد يفتحها علي لاأحسنها الآن ، فيقال لي : ارفع رأسك ، وقل يسمع ، وسل تعطه ، واشفع تشفع ، قال : فيحد لي حدا فأدخلهم الجنة) وكذلك ذكره في المرة الثانية والثالثة .

ولهذا قال : (ولا يَملِكُ الَّذين يَدعُونَ من دونِهِ الشَّفاعَةَ إلاَّ من شَهِدَ بالحق)[2] .
فأخبر أنه لايملكها أحد دون الله ، وقوله (الا من شهد بالحق وهم يعلمون) استثناء منقطع ، أي من شهد بالحق وهم يعلمون ، هم أصحاب الشفاعة ، منهم الشافع ، ومنهم المشفوع له . وقد ثبت في الصحيح عن أبي هريرة أنه قال : (من أسعد الناس بشفاعتك يارسول الله ، فقال : لقد ظننت ياأبا هريرة أن لايسألني عن هذا الحديث أول منك لما رأيت حرصك على الحديث ، أسعد الناس بشفاعتي من قال لا اله الا الله خالصا من قلبه) رواه البخاري ، فجعل أسعد الناس بشفاعته أكملهم اخلاصا ، وقال في الحديث : (اذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل مايقول ، ثم صلوا علي ، فانه من صلى علي مرة صلى الله عليه بها عشرا ، ثم سلوا الله لي الوسيلة ، فانها درجة في الجنة لاتنبغي الا لعبد من عباد الله ، وأرجو أن أكون ذلك العبد ، فمن سأل الله لي الوسيلة حلت عليه شفاعتي يوم القيامة) فالجزاء من جنس العمل ، فقد أخبر صلى الله عليه وسلم أنه من صلى عليه مرة صلى الله عليه بها عشرا ، قال : (ومن سأل لي الوسيلة حلت عليه شفاعتي يوم القيامة ولم يقل : (كان أسعد الناس بشفاعتي) بل قال (أسعد الناس بشفاعتي من قال

---

(١) سبا : ٢٢ ، ٢٣ (٢) الزخرف : ٨٦

لا اله الا الله خالصا من قلبه) فعلم أن مايحصل للعبد بالتوحيد والاخلاص من شفاعة الرسول وغيرها لايحصل بغيره من الاعمال وان كان صالحا ، كسؤال الوسيلة للرسول ، فكيف بما لم يأمر به من الاعمال بل نهى عنه ، فذاك لاينال به خيرا لافي الدنيا ولا في الآخرة ، مثل غلو النصارى في المسيح ، فانه يضرهم ولا ينفعهم ، ونظير هذا في الصحيح عنه أنه قال : (ان لكل نبي دعوة مستجابة ، واني اختبأت دعوتي شفاعة لامتي يوم القيامة ، فهي نائلة ان شاء الله من مات لايشرك بالله شيئا) وكذلك في أحاديث الشفاعة كلها انما يشفع في أهل التوحيد ، فبحسب توحيد العبد لربه واخلاصه دينه لله يستحق كرامة الله بالشفاعة وغيرها ، وهو سبحانه علق الوعد والوعيد والثواب والعقاب والحمد والذم بالايمان به وتوحيده وطاعته ، فمن كان أكمل في ذلك كان أحق بتولي الله له بخير الدنيا والآخرة ، ثم جميع عباده مسلمهم وكافرهم هو الذي رزقهم ، وهو الذي يدفع عنهم المكاره ، وهو الذي يقصدونه في النوائب ، قال تعالى : (وما بِكُم من نِعمةٍ فَمن اللهِ ثُمَّ إذا مَسَّكم الضُّر فإليه تَجأَرُون)[1] وقال تعالى: (قُلْ من يكلؤُكم باللَّيلِ والنَّهارِ من الرحْمن)[2] أي بدلا عن الرحمن هذا أصح القولين كقوله تعالى : (ولوْ نَشَاءُ لجعَلْنا منْكمْ ملائكةً في الأَرْضِ يَخلُفُوْن)[3] أي لجعلنا بدلا منكم ، كما قاله عامة المفسرين ومنه قول الشاعر :

فليت لنا من ماء زمزم شربة   مبردة باتت على طهيان

أي بدلا من ماء زمزم ، فلا يكلأ الخلق بالليل والنهار فيحفظهم ويدفع عنهم المكاره الا الله ، قال تعالى : (أَمَّنْ هذا الَّذي هُوَ جُندٌ لَكُمْ يَنْصُرُكم من دُون الرَّحمن إنِ الكافرُوْنَ إلاَّ في غُرُور . أَمَّنْ هذا الذي يَرزُقُكُم إنْ أَمسَكَ رِزْقَهُ بَل لَّجوا في عتوٍ و نُفور)[4] ومن ظن أن أرضا معينة تدفع عن أهلها البلاء مطلقا بخصوصها أو لكونها فيها قبور الانبياء والصالحين فهو غالط ، فأفضل البقاع مكة وقد عذب الله أهلها عذابا شديدا عظيما فقال : (ضَربَ اللهُ مَثلاً قَريةً كانَت

---

(١) النحل : ٥٣ (٢) الانبياء : ٤٢ (٣) الزخرف : ٦٠ (٤) الملك : ٢٠ ، ٢١

آمنةً مُطمئنةً يأتيها رِزْقُها رَغداً من كُلِّ مكانٍ فَكَفرتْ بأَنْعم اللهِ فأذاقَها اللهُ لِباسَ الجوعِ والخوفِ بِما كانوا يَصْنعون . وَلَقَدْ جاءَهم رَسُولٌ مِنهمفكذَّبوهُ فأَخذَهم الْعَذابُ وَهُمْ ظالمونَ)[1] .

ومن فصول (الجواب الباهر لمن سأل من ولاة الامر عما أفتى به في زيارة المقابر) كلام في أن الزيارة المتضمنة ترك مأمور أو فعل محظور ليست بمشروعة •

قال شيخ الاسلام ـ قدس الله روحه ـ وقد تنازع المسلمون في زيارة القبور ، فقال طائفة من السلف : ان ذلك كله منهي عنه لم ينسخ ، فان أحاديث النسخ لم يروها البخاري ولم تشتهر ، ولما ذكر البخاري (باب زيارة القبور) احتج بحديث المرأة التي بكت على القبر ، ونقل ابن بطالعن الشعبي قال : لولا أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم نهى عن زيارة القبور لزرت قبر ابنتي ، وقال النخعي كانوا يكرهون زيارة القبور ، وعن ابن سيرين مثله ، قال : وقد سئل مالك عن زيارة القبور فقال قد كان نهى عنه عليه السلام ثم أذن ، فلو فعل ذلك انسان ولم يقل الا خيرا لم أر بذلك بأسا وليس من عمل الناس ، وروى عنه أنه كان يضعف زيارتها ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد نهى أولا عن زيارة القبور باتفاق العلماء ، فقيل : لأن ذلك يفضي الى الشرك ، وقيل : لاجل النياحة عندها ، وقيل لأنهم كانوا يتفاخرون بها ، وقد ذكر طائفة من العلماء في قوله(أَلهاكُمُ التَّكاثُرُ حتى زُرْتُمُ المقابِر)انهم كانوا يتكاثرون بقبور الموتى وممن ذكره ابن عطية في تفسيره ، قال : وهذا تأنيب على الاكثار من زيارة القبور ، أي حتى جعلتم أشغالكم القاطعة عن العبادة والعلم زيارة القبور تكثرا بمن سلف واشادة بذكره •

ثم قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم (كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها ولا تقولوا هجرا) وكان نهيه في معنى الآية ، ثم أباح الزيارة بعد لمعنى الاتعاظ ، لا لمعنى المباهاة والتفاخر ، وتسنيمها بالحجارة الرخام وتكوينها سربا وبنيان النواويس عليها ، هذا لفظ ابن عطية •

---

(1) النحل : ١١٢ ، ١١٣

(والمقصود) أن العلماء متفقون على أنه كان نهى عن زيارة القبور ، ونهى عن الانتباذ في الدباء والحنتم والمزفت والنقير ، واختلفوا هل نسخ ذلك ؟ فقالت طائفة : لم ينسخ ذلك ، لأن أحاديث النسخ ليست مشهورة ، ولهذا لم يخرج البخاري مافيه نسخ عام . وقال الاكثرون : بل نسخ ذلك ، ثم قالت طائفة منهم انما نسخ الى الاباحة ، فزيارة القبور مباحة لا مستحبة ، وهذا قول في مذهب مالك وأحمد ، وقالوا لأن صيغة أفعل بعد الحظر انما تفيد الاباحة ، كما قال في الحديث (كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها ، وكنت نهيتكم عن الانتباذ في الاوعية فانتبذوا ، ولا تشربوا مسكرا) وقد روى (ولا تقولوا هجرا) وهذا يدل على أن النهي كان لما يقال عندها من الاقوال المنكرة سدا للذريعة ، كالنهي عن الانتباذ في الاوعية كان ، لأن الشدة المطربة تدب فيها ولا يدرى بذلك ، فيشرب الشارب الخمر وهو لايدري ، وقال الاكثرون : زيارة قبور المؤمنين مستحبة للدعاء للموتى مع السلام عليهم ، كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يخرج الى البقيع فيدعو لهم ، وكما ثبت في الصحيحين أنه خرج الى شهداء أحد فصلى عليهم صلاته على الموتى كالمودع للاحياء والاموات ، وثبت في الصحيح (أنه كان يعلم أصحابه اذا زاروا القبور أن يقولوا السلام عليكم أهل دار قوم مؤمنين ، وانا ان شاء الله بكم لاحقون ، يرحم الله المستقدمين منا ومنكم والمستأخرين ، نسأل الله لنا ولكم العافية ، اللهم لاتحرمنا أجرهم ، ولا تفتنا بعدهم واغفر لنا ولهم) وهذا في زيارة قبور المؤمنين ، وأما زيارة قبر الكافر فرخص فيه لاجل تذكار الآخرة ، ولا يجوز الاستغفار لهم ، وقد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه زار قبر أمه فبكى وأبكى من حوله ، وقال : (استأذنت ربي في أن أزور قبرها فأذن لي ، واستأذنته في أن أستغفر لها فلم يأذن لي ، فزوروا القبور فانها تذكركم الآخرة) .

والعلماء المتنازعون ، كل منهم يحتج بدليل شرعي ، ويكون عند بعضهم من العلم ماليس عند الآخر ، فان العلماء ورثة الانبياء ، قال الله تعالى :(وداودَ وسليمان إذْ يَحكُمانِ في الحرْثِ إذْ نَفَشَتْ فيهِ غَنَمُ القوم وكُنَّا لحكْمِهِمْ شَاهِدينَ . فَفَهمناها سليمانَ وكلاً آتينا حكْماً وعِلْماً)[1] .

---

(1) الانبياء : ٧٨ ، ٧٩

والاقوال الثلاثة صحيحة باعتبار ، فان الزيارة اذا تضمنت أمرا محرما من شرك أو كذب أو ندب أو نياحة وقول هجر فهي محرمة بالاجماع ، كزيارة المشركين بالله والساخطين لحكم الله ، فان هؤلاء زيارتهم محرمة ، فانه لايقبل دين الا الاسلام ، وهو الاستسلام لخالقه وآمره ، فنسلم لما قدره الله وقضاه ، ونسلم لما يأمر به ونحبه ، وهذا نفعله وندعو اليه ، وذلك نسلمه ونتوكل فيه عليه ، فنرضى بالله ربا وبالاسلام دينا ، وبمحمد نبيا ونقول في صلاتنا (إيَّاكَ نعبُدُو إياكَ نَستَعين) مثل قوله :(اسْتَعينُوا بالصَّبْرِ والصَّلاةِ إن اللهَ مَعَ الصابرين)[1] وقوله:(وأَقم الصَّلاةَ طَرفي النَّهارِ وزُلفاً منَ اللّيلِ إنَّ الحسناتِ يُذهِبْنَ السَّيئاتِ ذلكَ ذكرى للذَّاكرين. واصْبِرْ فإنَّ اللهَ لا يُضيْعُ أَجْرَ المحْسنينَ)[2] .

والنوع الثاني : زيارة القبور لمجرد الحزن على الميت لقرابته أو صداقته ، فهذه مباحة كما يباح البكاء على الميت بلا ندب ولا نياحة ، كما زار النبي صلى الله عليه وسلم قبر أمه فبكى وأبكى من حوله ، وقال : (زوروا القبور فانها تذكركم الآخرة) فهذه الزيارة كان ينهى عنها لما كانوا يصنعون من المنكر ، فلما عرفوا الاسلام أذن فيها ، لأن فيها مصلحة وهو تذكر الموت ، فكثير من الناس اذا رأى قريبه وهو مقبور ذكر الموت واستعد للآخرة ، وقد يحصل منه جزع فيتعارض الامران ، ونفس الجنس مباح ان قصد به طاعة ، وان عمل معصية كان معصية •

وأما النوع الثالث : فهو زيارتها للدعاء لها ــ كالصلاة على الجنازة ــ فهذا هو المستحب الذي دلت السنة على استحبابه ، لأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فعله ، وكان يعلم أصحابه مايقولون اذا زاروا القبور •

وأما زيارة قباء فيستحب لمن أتى المدينة أن يأتي قباء فيصلي في مسجدها ، وكذلك يستحب له عند الجمهور أن يأتي البقيع وشهداء أحد ، كما كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يفعل ، فزيارة القبور للدعاء للميت من جنس الصلاة على الجنائز يقصد فيها الدعاء لهم ، لايقصد فيها أن يدعو مخلوقا من دون الله ، ولا يجوز أن تتخذ مساجد ، ولاتقصد لكون الدعاء عندها أو بها أفضل من الدعاء في المساجد والبيوت •

---

(١) البقرة : ١٥٣ (٢) هود : ١١٤ ، ١١٥

والصلاة على الجنائز أفضل باتفاق المسلمين من الدعاء للموتى عند قبورهم ، وهذا مشروع ، بل هو فرض على الكفاية متواتر متفق عليه بين المسلمين ، ولو جاء انسان الى سرير الميت يدعوه من دون الله ويستغيث به كان هذا شركا محرما باجماع المسلمين ، ولو ندبه وناح لكان أيضا محرما وهو دون الاول .

فمن احتج بزيارة النبي صلى الله عليه وسلم لأهل البقيع وأهل أحد على الزيارة التي يفعلها أهل الشرك وأهل النياحة فهو أعظم ضلالا ممن يحتج بصلاته على الجنازة على أنه يجوز أن يشرك بالميت ، ويدعى من دون الله ، ويندب ويناح عليه ، كما يفعل ذلك من يستدل بهذا الذي فعله الرسول ـ وهو عبادة لله وطاعة له ، يثاب عليه الفاعل وينتفع المدعو له ويرضى به الرب ـ على أنه يجوز أن يفعل ماهو شرك بالله ، وايذاء للميت ، وظلم من العبد لنفسه ، كزيارة المشركين وأهل الجزع ، الذين لايخلصون له الدين ، ولا يسلمون لما حكم به سبحانه وتعالى ، فكل زيارة تتضمن فعل مانهى عنه وترك ماأمر به كالتي تتضمن الجزع ، وقول الهجر ، وترك الصبر ، أو تتضمن الشرك ، أو دعاء غير الله وترك اخلاص الدين لله ، فهي منهى عنه . وهذه الثانية أعظم اثما من الاولى ، ولا يجوز أن يصلى اليها ، بل ولا عندها ، بل ذلك مما نهى عنه النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : (لاتصلوا الى القبور ، ولا تجلسوا عليها) رواه مسلم في صحيحه .

فزيارة القبور على وجهين : وجه نهى عنه صلى الله تعالى عليه وسلم ، واتفق العلماء على أنه غير مشروع ، وهو أن يتخذها مساجد ويتخذها وثنا ، ويتخذها عيدا ، فلا يجوز أن تقصد للصلاة الشرعية ، ولا أن تعبد كما تعبد الاوثان ، ولا أن تتخذ عيدا يجتمع اليها في وقت معين كما يجتمع المسلمون في عرفة ومنى .

وأما الزيارة الشرعية : فهي مستحبة عند الاكثرين وقيل : مباحة ، وقيل : كلها منهى عنه كما تقدم ، والذي تدل عليه الادلة الشرعية أنه يحمل المطلق من كلام العلماء على المقيد .

وتفصيل الزيارة على ثلاثة أنواع : منهى عنه ، ومباح ، ومستحب ، وهو الصواب ، قال مالك وغيره لا تأت الا هذه الآثار : (مسجد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ومسجد قباء ، وأهل البقيع ، وأحد) فان النبي صلى الله تعالى عليه

وسلم لم يكن يقصد الا هذين المسجدين وهاتين المقبرتين ، كان يصلي يوم الجمعة في مسجده ، ويوم السبت يذهب الى قباء ، كما في الصحيحين عن ابن عمر : (أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يأتي قباء كل سبت راكبا وماشيا فيصلي فيه ركعتين) وأما أحاديث النهي فكثيرة مشهورة في الصحيحين وغيرهما ، كقوله صلى الله تعالى عليه وسلم : (لعن الله اليهود والنصارى ، اتخذوا قبور أنبياءهم مساجد) ثم ذكر الاحاديث الواردة في ذلك ، وقد سبق ذكرها غير مرة ، ومنها : قوله صلى الله تعالى عليه وسلم فيما رواه ابن مسعود : (ان من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء ، والذين يتخذون القبور مساجد) رواه الامام أحمد في مسنده ، وأبو حاتم في صحيحه ، وفي سنن أبي داود عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : (لاتتخذوا قبري عيدا ، وصلوا علي فان صلاتكم تبلغني) وفي موطأ مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (اللهم لاتجعل قبري وثنا يعبد ، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) ثم ذكر الأثر المشهور في سنن سعيد بن منصور ، وقال : فلما أراد الأئمة اتباع سنته في زيارة قبره والسلام طلبوا مايعتمدون عليه من سنته ، فاعتمد الامام أحمد على الحديث الذي في السنن عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (ما من رجل يسلم علي الا رد الله علي روحي حتى أرد عليه السلام) وعنه أخذ أبو داود ذلك ، فلم يذكر في زيارة قبره غير هذا الحديث ، وترجم عليه (باب زيارة القبر) مع أن دلالة الحديث على المقصود فيها نزاع وتفصيل ، فانه لايدل على كل مايسميه الناس زيارة باتفاق المسلمين ، ويبقي الكلام المذكور فيه هل هو السلام عند القبر ـ كما كان من دخل على عائشة يسلم عليه ـ أو يتناول هذا والسلام عليه من خارج الحجرة ؟ فالذين استدلوا به جعلوه متناولا لهذا وهذا ، وهو غاية ما كان عندهم في هذا الباب عنه صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو صلى الله عليه وسلم يسمع السلام من القبر ، وتبلغه الملائكة الصلاة والسلام عليه من البعيد كما في النسائي عنه صلى الله عليه وسلم : (أن لله ملائكة سياحين يبلغوني عن أمتي السلام) وفي السنن عن أوس بن أوس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (أكثروا علي من الصلاة يوم الجمعة وليلة الجمعة فان صلاتكم معروضة علي ، قالوا : كيف تعرض صلاتنا عليك وقد أرمت ؟ فقال ان الله حرم على الارض أن تأكل لحوم الانبياء) صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليما .

وذكر مالك في موطئه أن عبد الله بن عمر كان يأتي فيقول : السلام عليك يارسول الله ، السلام عليك ياأبا بكر ، السلام عليك ياأبت ، ثم ينصرف ، وفي رواية كان اذا قدم من سفر ، وعلى هذا اعتمد مالك رحمه الله فيما يفعل عند الحجرة اذ لم يكن عنده الا أثر ابن عمر ، وأما مازاد على ذلك مثل الوقوف للدعاء للنبي صلى الله عليه وسلم مع كثرة الصلاة والسلام عليه ـ فقد كرهه مالك ، وذكر أنه بدعة لم يفعلها السلف ، ولا يصلح آخر هذه الامة الا ماأصلح أولها ، والله تعالى أعلم •

هذا ماوجدناه من (الجواب الباهر) وبه علم مذهب الشيخ في زيارة القبور ، وان ماتكلم به الخصوم من غلاة الشافعية ونحوهم هو محض بهتان وزور ، وله رضي الله تعالى عنه كتاب آخر في مباحث الزيارة ، بحث فيه مع بعض من اعترض عليه من علماء المالكية ، وهو أبسط مما ذكرنا ، وفيه مسائل مهمة أيضا ، فنذكر منه مايخص المقام :

(قال المعترض المالكي) وورد في زيارة قبره صلى الله عليه وسلم أحاديث صحيحة وغيرها مما لم تبلغ درجة الصحيح ، لكنها يجوز الاستدلال بها على الاحكام الشرعية ، ويحصل بها الترجيح •

(قال شيخ الاسلام رحمه الله تعالى) والجواب من وجوه : (أحدها) أن يقال : لو ورد من ذلك ماهو صحيح لكان انما يدل على مطلق الزيارة ، وليس في جواب الاستفتاء نهي مطلق عن الزيارة ، ولا حكى في ذلك نزاع في الجواب ، وانما فيه ذكر النزاع فيمن لم يكن سفره الا لمجرد زيارة قبور الانبياء والصالحين ، وحينئذ فلو كان في هذا الباب حديث صحيح لم يتناول محل النزاع ، ولا فيه رد على ماذكره المجيب من النزاع والاجماع •

(الثاني) أنه لو قدر أنه ورد في زيارة قبره أحاديث صحيحة لكان المراد بها هو المراد بقول من قال من العلماء : انه يستحب زيارة قبره ، ومرادهم بذلك السفر الى مسجده ، وفي مسجده يسلم عليه ويصلي عليه ، ويدعى له ويثنى عليه ، ليس المراد أنه يدخل الى قبره ويصلي عليه ، وحينئذ فهذا المراد قد استحبه المجيب ، وذكر أنه مستحب بالنص والاجماع ، فمن حكى عن المجيب أنه لايستحب مااستحبه علماء المسلمين من زيارة قبره على الوجه المشروع فقد استحق مايستحقه الكاذب المفتري ، واذا كان يستحب هذا وهو المراد بزيارة قبره فزيارة قبره بهذا المعنى من مواقع الاجماع لا من موارد النزاع •

(الثالث) أن نقول : قول القائل أنه ورد في زيارة قبره أحاديث صحيحة قول لم يذكر عليه دليلا ، فاذا قيل له : لانسلم أنه ورد في ذلك حديث صحيح احتاج الى الجواب ، وهو لم يذكر شيئا من تلك الاحاديث كما ذكر قوله : (كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها) وكما ذكر زيارته لأهل البقيع وأحد ، فان هذا صحيح ، وهنا لم يذكر شيئا من الحديث الصحيح ، فبقي ماذكره دعوى مجردة تقابل بالمنع •

(الوجه الرابع) أن نقول : هذا قول باطل ، لم يقله أحد من علماء المسلمين العارفين بالصحيح ، وليس في الاحاديث التي رويت بلفظ زيارة قبره حديث صحيح عند أهل المعرفة ، ولم يخرج أرباب الصحيح شيئا من ذلك ولا أرباب السنن المعتمدة ، كسنن أبي داود والنسائي والترمذي ونحوهم ، ولا أهل المساند التي من هذا الجنس ، كمسند أحمد وغيره ، ولا في موطأ مالك ، ولا في مسند الشافعي ونحو ذلك شيء من ذلك ، ولا احتج امام من أئمة المسلمين ــ كأبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد وغيرهم ــ بحديث فيه ذكر زيارة قبره ، فكيف يكون في ذلك أحاديث صحيحة ولم يعرفها أحد من أئمة الدين ولا علماء الحديث ؟ ومن أين لهذا وأمثاله أن تلك الاحاديث صحيحة وهو لايعرف هذا الشأن ؟!

(الوجه الخامس) قوله : وغيرها مما لم تبلغ درجة الصحيح ، لكنها يجوز الاستدلال بها على الاحكام الشرعية ويحصل بها الترجيح ، فيقال له : اصطلاح الترمذي ومن بعده أن الاحاديث ثلاثة أقسام : صحيح ، وحسن ، وضعيف ، والضعيف قد يكون موضوعا فعلم أنه كذب ، وقد لايكون كذلك ، فما ليس بصحيح ان كان حسنا على هذا الاصطلاح احتج به ، وهو لم يذكر حديثا وبين أنه حسن يجوز الاستدلال به ، فنقول له : لانسلم أنه ورد من ذلك مايجوز الاستدلال به ، وهو لم يذكر الا دعوى مجردة فتقابل بالمنع •

(الوجه السادس) أن يقال : ليس في هذا الباب مايجوز الاستدلال به ، بل كلها ضعيفة ، بل موضوعة ، كما قد بسط في مواضع ، وذكرت هذه الاحاديث ، وذكرت كلام الائمة عليها حديثا حديثا ، بل ولا عرف عن أحد من الصحابة أنه تكلم بلفظ زيارة قبره البتة فلم يكن هذا اللفظ معروفا عندهم ، ولهذا كره مالك التكلم بخلاف لفظ زيارة القبور مطلقا ، فان هذا اللفظ معروف عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وعن أصحابه ، وفي القرآن (أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ) لكن معناه عند الاكثرين الموت ، وعند طائفة هي زيارتها للتفاخر بالموتى والتكاثر ، وأما

لفظ قبر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم المخصوص فلا يعرف لا عن النبي صلى الله عليه وسلم ولا عن أصحابه ، وكل مايروى فيه فهو ضعيف ، بل هو كذب موضوع عند أهل العلم بالحديث ، كما قد بسط هذا في مواضع .

(الوجه السابع) أن يقال : الذين أثبتوا استحباب السلام عليه عند الحجرة ـ كمالك ، وابن حبيب ، وأحمد بن حنبل ، وأبي داود ـ احتجوا بفعل ابن عمر ، كما احتج بذلك مالك وأحمد وغيرهما ، وأما الحديث الذي رواه أبو داود وغيره باسناد جيد عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (ما من رجل يسلم علي الا رد الله علي روحي حتى أرد عليه السلام) فهذا عمدة أحمد وأبي داود وابن حبيب وأمثالهم ، وليس في لفظ الحديث المعروف في السنن والمسند عند قبري ، لكن عرفوا أن هذا هو المراد ، وأنه لم يرد على كل مسلم عليه في صلاة في شرق الارض وغربها مع أن هذا المعنى ان كان هو المراد بطل الاستدلال بالحديث من كل وجه على اختصاص تلك البقعة بالسلام ، وان كان المراد السلام عليه عند قبره ـ كما فهمه عامة العلماء ـ فهل يدخل فيه من سلم من خارج الحجرة ؟ هذا مما تنازع فيه الناس ، وقد توزعوا في دلالته : فمن الناس من يقول هذا انما يتناول من سلم عليه عند قبره ، كما كانوا يدخلون الحجرة على زمن عائشة فيسلمون على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وكان يرد عليهم ، فأولئك سلموا عليه عند قبره وكان يرد عليهم ، وهذا قد جاء عموما في حق المؤمنين (ما من رجل يمر بقبر الرجل كان يعرفه في الدنيا فيسلم عليه الا رد الله عليه روحه حتى يرد عليه السلام) قالوا فأما من كان في المسجد فهؤلاء لم يسلموا عليه عند قبره ، بل سلامهم عليه كالسلام عليه في الصلاة وكالسلام عليه اذا دخل المسجد وخرج ، وهذا هو السلام الذي أمر الله به في حقه بقوله(صلوا عليه وسلموا تسليما)وهذا السلام قد ورد أنه من سلم عليه مرة سلم الله عليه عشرا ، كما أنه من صلى عليه مرة صلى الله عليه بها عشرا ، فاما أثر من صلى عليه مرة صلى الله عليه بها عشرا فهو ثابت من وجوه ، بعضها في الصحيح كما في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (اذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل مايقول ، ثم صلوا علي ، فانه من صلى علي مرة صلى الله عليه بها عشرا ، ثم سلوا الله لي الوسيلة ، فانها درجة في الجنة لاتنبغي الا لعبد من عباد الله ، وأرجو أن أكون ذلك العبد ، فمن سأل الله لي الوسيلةحلت عليهشفاعتي يوم القيامة) وهذا مروي عن النبي صلى الله عليه وسلم من غير هذا الوجه ، كما في حديث العلاء ابن

عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (من صلى علي واحدة صلى الله عليه عشرا) •

وأما السلام فقد جاء أيضا في أحاديث ، من أشهرها حديث عبد الله بن المبارك، عن حماد بن سلمة ، عن ثابت البناني ، عن سليمان مولى الحسن بن علي ، عن عبد الله بن أبي طلحة، عن أبيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أنه جاء ذات يوم والبشر يرى في وجهه ، فقال : أنه جاءني جبريل فقال : أما يرضيك يامحمد أن الله يقول انه لايصلي عليك أحد من أمتك الا صليت عليه عشرا ، ولا يسلم عليك أحد من أمتك الا سلمت عليه عشرا ؟!) وقد روى في عدة أحاديث أن الله يصلي على كل من صلى عليه ، ويسلم على كل من سلم عليه ، ولم يذكر عددا لكن الحسنة بعشر أمثالها، فالمقيد يفسر المطلق • قال القاضي عياض من رواية عبد الرحمن ابن عوف عنه عليه السلام قال : (لقيت جبريل فقال لي : أبشرك أن الله يقول من سلم عليك سلمت عليه ، ومن صلى عليك صليت عليه) قال ونحوه من رواية أبي هريرة ، ومالك بن أوس بن الحدثان وعبدالله بن أبي طلحة ، قلت وبسط الكلام على هذه الاحاديث له موضع آخر •

والمقصود هنا : أن ماأمر الله به من الصلاة والسلام عليه هو كما أمر به صلى الله عليه وسلم من الدعاء له بالوسيلة ، وهذا أمر اختص هو به ، فان الله أمر بذلك في حقه بعينه مخصوصا بذلك ، وان كان السلام على جميع عباد الله الصالحين مشروعا على وجه العموم ، وقد قيل : ان الصلاة تكره على غير الانبياء ، وغلا بعضهم فقال تكره على غيره من الانبياء ، وكذلك قال بعض المتأخرين في السلام على غير الانبياء ، ولكن الصواب الذي عليه عامة العلماء أنه يسلم على غيره ، وأما الصلاة فقد جوزها أحمد وغيره والنزاع فيها معروف • وفي تفسير شيبان عن قتادة قال حدث أنس بن مالك عن أبي طلحة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (اذا سلمتم علي فسلموا على المرسلين فانما أنا رسول من المرسلين) وهكذا رواه ابن أبي عاصم في كتاب الصلاة ، ورواه ابن أبي حاتم وغيره ، ولم يذكروا فيه سماع قتادة له ، وهو في تفسير سعيد ابن أبي عروبة عن قتادة مرسلا ، وقد قال الله تعالى في كتابه : (قُلِ الحمدُ للهِ ، وَسَلامٌ على عِبادِهِ الَّذين اصْطَفى) [1] وقال : (وسلامٌ على المرْسَلين

---

(1) النمل : ٥٩

والحمدُ للهِ رَبِّ العالمينَ)[1] وقال لما ذكر نوحا ، وابراهيم ،وموسى، وهارون والياسين : (وتَرَكْنا عَليهِ في الآخرين سلام على نوح في العالمين)[2] (وتركنا عليه في الآخرين سلام على ابراهيم)[2] (وتركنا عليهما في الآخرين سلام على موسى وهارون)[2] (وتركنا عليه في الآخرين سلام على الياسين)[2] .

والمقصود هنا : أن هذا السلام ـ المأمور به خصوصا والمشروع في الصلاة وغيرها عموما على كل عبد صالح كقول المصلي السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين فان هذا ـ ثابت في التشهدات المروية عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كلها ، مثل حديث ابن مسعود الذي في الصحيحين ، وحديث أبي موسى وابن عباس اللذين رواهما مسلم ، وحديث ابن عمر وعائشة وجابر وغيرهم التي في المساند والسنن ، وهذا السلام لايقتضي ردا من المسلم عليه ، بل هو بمنزلة دعاء المؤمن للمؤمنين واستغفاره لهم ، فيه الاجر والثواب من الله ، ليس على المدعو لهم مثل ذلك الدعاء بخلاف سلام التحية فانه مشروع بالنص والاجماع في حق كل مسلم ، وعلى المسلَّم عليه أن يرد السلام ولو كان المسلِّم عليه كافرا ، فان هذا من العدل الواجب ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يرد على اليهود اذا سلموا بقوله : (وعليكم) واذا سلم على معين تعين الرد ، واذا سلم على جماعة فهل ردهم فرض على الاعيان أو على الكفاية ؟ على قولين معروفين ، هما قولان في مذهب أحمد وغيره ، وسلام الزائر للقبر على الميت المؤمن هو من هذا الباب ، ولهذا روى أن الميت يرد السلام مطلقا • فالصلاة والسلام عليه صلى الله عليه وسلم في مسجده وسائر المساجد وسائر البقاع مشروع بالكتاب والسنة والاجماع ، وأما السلام عليه عند قبره من داخل الحجرة فهذا كان مشروعا لما كان ممكنا بدخول من يدخل على عائشة ، وأما تخصيص هذا السلام والصلاة بالمكان القريب من الحجرة فهذا محل النزاع ، وللعلماء في ذلك ثلاثة أقوال :

منهم من ذكر استحباب الصلاة والسلام عليه اذا دخل المسجد ، ثم بعد أن يصلي في المسجد استحب أيضا أن يأتي الى القبر ويصلي ويسلم ، كما ذكر ذلك طائفة من أصحاب مالك والشافعي وأحمد •

---

١) الصافات : ١٨١ ، ١٨٢ (٢) الصافات : ٧٨ ، ٧٩ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢٩ ، ١٣٠

ومنهم من لم يذكر الا الثاني فقط ، وكثير من السلف لم يذكروا الا النوع الاول فقط ، فأما النوع الاول فهو المشروع لأهل البلد وللغرباء في هذا المسجد وغير هذا المسجد ، وأما النوع الثاني فهو الذي فرق من استحبه بين أهل البلد والغرباء ، سواء فعله مع الاول أو مجردا عنه ، كما ذكر ذلك ابن حبيب وغيره اذا دخل مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم قال : باسم الله ، وسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، السلام علينا من ربنا ، وصلى الله وملائكته على محمد ، اللهم اغفر لي وافتح لي أبواب رحمتك وجنتك ، وجنبني من الشيطان الرجيم • ثم اقصد الى الروضة وهي مابين القبر والمنبر فاركع فيها ركعتين قبل وقوفك بالقبر ، تحمد الله فيها ، وتسأله تمام ماخرجت اليه والعون عليه ، وان كانت ركعتاك في غير الروضة اجزاتك وفي الروضة أفضل • وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (مابين قبري ومنبري روضة من رياض الجنة ، ومنبري على ترعة من ترع الجنة) ثم تقف بالقبر متواضعا ، وتصلي عليه ، وتثني بما يحضر ، وتسلم على أبي بكر وعمر ، وتدعو لهما ، وأكثر من الصلاة في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم بالليل والنهار ، ولا تدع أن تأتي مسجد قباء وقبور الشهداء •

قلت : وهذا الذي ذكره من استحباب الصلاة في الروضة قول طائفة ، وهو المنقول عن الامام أحمد في مناسك المروزي •

واما مالك فنقل عنه يستحب التطوع في موضع صلاة النبي صلى الله عليه وسلم •

وقيل لايتعين لذلك موضع من المسجد ، وأما الفرض فيصليه في الصف الاول مع الامام بلا ريب والذي ثبت في الصحيح عن سلمة بن الاكوع أنه كان يتحرى الصلاة عند الاسطوانة ، وأما ما قصد تخصيصه بالصلاة فيه فالصلاة فيه أفضل ، وأما مقامه فانما كان يقوم فيه اذا كان إماما يصلي بهم الفرض ، والسنة أن يقف الامام وسط المسجد امام القوم ، فلما زيد في المسجد صار موقف الامام في الزيادة •

والمقصود معرفة ماورد عن السلف من الصلاة والسلام عليه صلى الله تعالى عليه وسلم عند دخول المسجد وعند القبر ، ففي مسند أبي يعلي الموصلي :حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة ، حدثنا زيد بن الحباب ، حدثنا جعفر بن ابراهيم من ولد ذي الجناحين ، حدثنا علي بن عمر عن أبيه علي ابن الحسين ، أنه رأى رجلا يجيء الى فرجة كانت عند قبر النبي صلى الله عليه وسلم فيدخل فيها فيدعو فنهاه ، فقال : ألا أحدثكم حديثا سمعته من أبي عن جدي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

(لاتتخذوا قبري عيدا ولا بيوتكم قبورا فان تسليمكم يبلغني أينما كنتم) وهذا الحديث مما أخرجه الحافظ أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد المقدسي فيما اختاره من الاحاديث الجياد الزائدة على مافي الصحيحين ، وهو أعلى مرتبة من تصحيح الحاكم ، وهو قريب من تصحيح الترمذي وأبي حاتم البستي ونحوهما ، فان الغلط في هذا قليل ، ليس هو مثل صحيح الحاكم ، فان فيه أحاديث كثيرة يظهر أنها كذب موضوعة ، فلهذا انحطت درجته عن درجة غيره ، فهذا علي بن الحسين زين العابدين وهو من أجل التابعين علما ودينا ، حتى قال الزهري مارأيت هاشميا مثله ، وهو يذكر هذا الحديث باسناده ولفظه : (لاتتخذوا بيتي عيدا ، فان تسليمكم يبلغني أينما كنتم) وهذا يقتضي أنه لامزية للسلام عليه عند بيته ، كما لامزية للصلاة عليه عند بيته ، بل قد نهى عن تخصيص بيته بهذا ، وهذا وحديث الصلاة مشهور في سنن أبي داود وغيره من حديث عبد الله بن نافع ، قال : أخبرني ابن أبي ذئب عن سعيد المقبري عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لاتجعلوا بيوتكم قبورا ، ولا تجعلوا قبري عيدا ، وصلوا علي فان صلاتكم تبلغني حيث كنتم) وهذا حديث حسن ، ورواته ثقات مشاهير ، لكن عبد الله بن نافع الصائغ فيه لين لايمنع الاحتجاج به ، قال يحيى بن معين : هو ثقة وحسبك بابن معين موثقا . وقال أبو زرعة : لابأس به . وقال أبو حاتم الرازي : ليس بالحافظ هو لين تعرف وتنكر ، قلت : ومثل هذا قد يخاف أنه يغلط أحيانا ، فاذا كان لحديثه شواهد علم أنه محفوظ ، وهذا له شواهد متعددة قد بسطت في غير هذا الموضع ، كما رواه سعيد ابن منصور في سننه ، حدثنا حبان ، حدثنا علي ، حدثني محمد بن عجلان عن أبي سعيد مولى المهدى ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لاتتخذوا بيتي عيدا ، ولا بيوتكم قبورا ، وصلوا علي حيثما كنتم فان صلاتكم تبلغني) وقال سعيد أيضا : حدثنا عبد العزيز بن محمد ، أخبرني سهيل بن أبي سهيل ، قال : رآني الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب عند القبر فناداني ــ وهو في بيت فاطمة يتعشى ــ فقال : هلم الى العشاء ، فقلت : لاأريده ، فقال : مالي رأيتك عند القبر ؟ فقلت : سلمت على النبي صلى الله عليه وسلم فقال : اذا دخلت المسجد فسلم عليه . ثم قال : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (لاتتخذوا بيتي عيدا ، ولا بيوتكم مقابر ، لعن الله اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ، وصلوا علي فان صلاتكم تبلغني حيثما كنتم ، ماأنتم ومن بالاندلس منه الا سواء) رواه اسماعيل بن اسحق

في كتاب الصلاة على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولم يذكر هذه الزيادة وهي قوله : (ماأنتم ومن بالاندلس الا سواء) لأن مذهبه أن القادم من سفر والمريد للسفر سلامه أفضل ، وأن الغرباء يسلمون اذا دخلوا وخرجوا ، وهذه مزية على من بالاندلس ، والحسن ابن الحسن وغيره لايفرقون بين أهل المدينة والغرباء ، ولا بين المسافر وغيره ، فرواه القاضي اسمعيل عن ابراهيم بن حمزة ، حدثنا عبد العزيز بن محمد ، عن سهل بن أبي سهل قال : جئت أسلم على النبي صلى الله عليه وسلم وحسن بن حسن يتعشى في بيت عند النبي صلى الله عليه وسلم فدعاني فجئته ، فقال: أدن فتعش ، قال قلت لاأريده ، قال : مالي رأيتك وقفت ؟ قلت وقفت أسلم على النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : اذا دخلت فسلم عليه ، ثم قال ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (صلوا في بيوتكم ، ولا تجعلوا بيوتكم مقابر ، لعن الله اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ، وصلوا علي فان صلاتكم تبلغني حيثما كنتم) ولم يذكر قول الحسن ، فهذا فيه أنه أمره أن يسلم عند دخول المسجد ، وهو السلام المشروع الذي روى عن النبي صلى الله عليه وسلم وجماعة من السلف ، كانوا يسلمون عليه اذا دخلوا المسجد ، وهذا مشروع في كل مسجد ، وهذا الحسن بن الحسن المثنى وهو من التابعين وهو من ظهر علي بن الحسين هذا ابن الحسن وهذا ابن الحسين ، وقد ذكر القاضي عياض هذا عن الحسن بن علي نفسه — رضي الله عنهم أجمعين — فقال : وعن الحسن بن علي عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (حيثما كنتم فصلوا علي فان صلاتكم تبلغني) قال : وعن الحسن بن علي اذا دخلت المسجد فسلم على النبي صلى الله عليه وسلم ، فان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (لاتتخذوا بيتي عيدا ، ولا تتخذوا بيوتكم قبورا ، وصلوا علي حيثما كنتم فان صلاتكم تبلغني حيث كنتم) •

قلت والصلاة والسلام عليه عند دخول المسجد مأثور عنه صلى الله عليه وسلم وعن غير واحد من الصحابة والتابعين ، مثل الحديث الذي في المسند والترمذي وابن ماجة عن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قالت : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا دخل المسجد صلى على محمد وسلم ، وقال رب اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب فضلك) هذا لفظ الترمذي ، وفي غيره أنه صلى الله عليه وسلم أمر بذلك ، وفي سنن أبي داود عن أبي أسيد أو أبي حميد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (اذا دخل أحدكم المسجد فليسلم وليصل على النبي صلى الله عليه

وسلم ، وليقل ••) وذكر الحديث • وقال الضحاك ابن عثمان : حدثنا سعيد المقبري عن أبي هريرة ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (اذا دخل أحدكم المسجد فليسلم على النبي صلى الله عليه وسلم ، وليقل اللهم أجرني من الشيطان الرجيم) أخرجه ابن خزيمة في صحيحه ، قال القاضي عياض : ومن مواطن الصلاة والسلام عليه دخول المسجد ، قال أبو اسحق بن شعبان : وينبغي لمن دخل المسجد أن يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى آله ، ويترحم عليه وعلى آله ، ويبارك عليه وعلى آله ، ويسلم عليه تسليما ، ويقول : اللهم اغفر لي وافتح لي أبواب رحمتك وفضلك ، قال : وقال عمرو بن دينار في قوله (فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلَى أَنفُسِكُمْ)[1]

قال : ان لم يكن في البيت أحد فقل السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، السلام على أهل البيت ورحمة الله وبركاته ، قال : وقال ابن عباس : المراد بالبيوت المساجد ، وقال النخعي : اذا لم يكن في البيت أحد فقل السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، قال : وعن علقمة قال اذا دخلت المسجد أقول السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، صلى الله وملائكته على محمد ، قال ونحوه عن كعب اذا دخل وخرج ولم يذكر الصلاة ، قال : واحتج ابن شعبان لما ذكره بحديث فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يفعله اذا دخل المسجد ، قال : ومثله عن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم ، وذكر السلام والرحمة ، قال : وروى ابن وهب عن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (اذا دخلت المسجد فصل على النبي صلى الله عليه وسلم ، وقل اللهم اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب رحمتك) وفي رواية أخرى فليسلم وليصل ويقول اذا خرج اللهم إني أسألك من فضلك ، وفي أخرى اللهم احفظني من الشيطان ، وعن محمد بن سيرين كان الناس يقولون اذا دخلوا المسجد : صلى الله وملائكته على محمد ، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، باسم الله دخلنا وباسم الله خرجنا ، وعلى الله توكلنا ، وكانوا يقولون اذا خرجوا مثل ذلك ، قلت هذا فيه حديث مرفوع في سنن أبي داود وغيره أنه يقال عند دخول المسجد : (اللهم اني أسألك خير المولج وخير المخرج ، باسم الله ولجنا وباسم الله خرجنا وعلى الله توكلنا) قال القاضي عياض وعن أبي هريرة اذا دخل أحدكم المسجد فليصل على النبي صلى الله عليه وسلم ، وليقل اللهم

---

(١) النور : ٦١

افتح لي ، وقلت وروى ابن أبي حاتم من حديث سفيان الثوري عن ضرار بن مرة عن مجاهد في هذه الآية (فإذا دَخلتم بُيوتاً فسَلِّموا على أنفسِكم تحيَّةً من عِندِ اللهِ مُباركةً طيِّبة) قال اذا دخلت بيتا ليس فيه أحد فقل السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، واذا دخلت المسجد فقل السلام على رسول الله ، واذا دخلت على أهلك فقل السلام عليكم ، قلت والآثار مبسوطة في مواضع •

والمقصود هنا : أن نعرف ماكان عليه السلف من الفرق بين ماأمر الله به من الصلاة والسلام عليه وبين سلام التحية الموجب للرد ، الذي يشترك فيه كل مؤمن حي ، ويرد فيه على الكافر ، ولهذا كان الصحابة بالمدينة على عهد الخلفاء الراشدين ومن بعدهم ــ اذا دخلوا المسجد لصلاة أو اعتكاف أو تعليم أو تعلم أو ذكر لله ودعاء له ونحو ذلك مما شرع في المساجد ــ لم يكونوا يذهبون الى ناحية القبر فيزورونه هناك ، ولا يقفون خارج الحجرة ، كما لم يكونوا يدخلون الحجرة أيضا لزيارة قبره ، فلم يكن الصحابة بالمدينة يزورون قبره لا من المسجد خارج الحجرة ولا داخل الحجرة ، ولا كانوا أيضا يأتون من بيوتهم لمجرد زيارة قبره ، بل هذا من البدع التي أنكرها الأئمة والعلماء ، وان كان الزائر منهم ليس مقصوده الا الصلاة والسلام عليه ، وبينوا أن السلف لم يفعلوها ، كما ذكره مالك في (المبسوط) وقد ذكره أصحابه ، كأبي الوليد الباجي ، والقاضي عياض وغيرهما •

قيل لمالك : ان ناسا من أهل المدينة لايقدمون من سفر ولا يريدونه إلا يفعلون ذلك ، أي يقفون على قبر النبي صلى الله عليه وسلم فيصلون عليه ويدعون له ولأبي بكر وعمر ، يفعلون ذلك في اليوم مرة أو أكثر ، وربما وقفوا في الجمعة والايام المرة والمرتين أو أكثر عند القبر يسلمون ويدعون ساعة فقال : لم يبلغني هذا عن أهل الفقه ببلدنا ، ولن يصلح آخر هذه الأمة الا ماأصلح أولها ، ولم يبلغني هذا عن أول هذه الامة وصدرها أنهم يفعلون ذلك ، ويكره الا لمن جاء من سفر أو أراده ، فقد كره مالك رحمه الله هذا ، وبين أنه لم يبلغه هذا عن أهل العلم بالمدينة ولا عن صدر هذه الامة وأولها وهم الصحابة ، وأن ذلك يكره لأهل المدينة الا عند السفر ،ومعلوم أن أهل المدينة لايكره لهم زيارة قبور أهل البقيع وشهداء أحد وغيرهم ، بل هم في ذلك ليسوا دون سائر الامصار ، فاذا لم يكره لأولئك زيارة القبور بل يستحب لهم زيارتها عند جمهور العلماء ــ كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يفعل ــ فأهل

المدينة أولى أن لايكره لهم ، بل يستحب لهم زيارة القبور كما يستحب لغيرهم اقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم ، ولكن قبر النبي صلى الله عليه وسلم خص بالمنع شرعا وحسا ، كما دفن في الحجرة ومنع الناس من زيارة قبره من الحجرة ، كما يزار سائر القبور فيصل الزائر الى عند القبر ، وقبر النبي صلى الله عليه وسلم ليس كذلك ، فلا تستحب هذه الزيارة في حقه ولا تمكن ، وهذا لعلو قدره وشرفه لا لكون غيره أفضل منه ، فان هذا لايقوله أحد من المسلمين فضلا عن الصحابة والتابعين وعلماء المسلمين بالمدينة وغيرها .

ومن هنا غلط طائفة من الناس ، يقولون : اذا كانت زيارة قبر آحاد الناس مستحبة فكيف بقبر سيد الاولين والآخرين صلوات الله وسلامه عليه ، وهؤلاء ظنوا أن زيارة قبر الميت مطلقا هو من باب الاكرام والتعظيم له ، والرسول صلى الله عليه وسلم أحق بالاكرام والتعظيم من كل أحد ، وظنوا أن ترك الزيارة فيها تنقص لكرامته ، وخالفوا السنة واجماع الامة سلفها وخلفها ، فقولهم نظير قول من يقول اذا كانت زيارة القبور يصل الزائر فيها الى قبر المزور فان ذلك أبلغ في الدعاء له ، وان كان مقصوده دعاءه ، كما يقصده أهل البدع ، فهو أبلغ في دعائه ، فالرسول صلى الله عليه وسلم أولى أن نصل الى قبره اذا زرناه .

وقد ثبت بالتواتر واجماع الامة أن الرسول صلى الله عليه وسلم لايشرع الوصول الى قبره للدعاء له ، ولا لدعائه ، ولا لغير ذلك ، بل غيره يصلى على قبره عند أكثر السلف ، كما دلت عليه الاحاديث الصحيحة ، والصلاة على القبر كالصلاة على الجنازة تشرع مع القرب والمشاهدة ، وهو بالاجماع لايصلى على قبره ، سواء كان للصلاة حد محدود أو كان يصلى على القبر مطلقا ، ولم يعرف أن أحدا من الصحابة الغائبين لما قدم صلى على قبره صلى الله عليه وسلم ، وزيارة القبور المشروعة هي مشروعة مع الوصول الى القبر بمشاهدته ، وهذه الزيارة غير مشروعة في حقه بالنص والاجماع ، ولا هي أيضا ممكنة ، فتبين غلط هؤلاء الذين قاسوه على عموم المسلمين وهذا من باب القياس الفاسد ، ومن قاس قياس الاولى ولم يعلم مااختص به كل واحد من القياس والمقيس به كان قياسه من جنس قياس المشركين الذين كانوا يقيسون الميتة على المذكى ، ويقولون للمسلمين أتأكلون ماقتلتم ولا تأكلون ماقتل الله ؟ فأنزل الله تعالى : (وإنَّ الشَّياطِينَ لَيوحُونَ إلى أوْليائِهِمْ ليُجَادِلوكُمْ وإنْ أطَعْتُمُوهُمْ

إنكم لمشركون)[١] وكذلك لما أخبر الله أن الاصنام التي تعبد هي وعابدوها حصب جهنم قاس ابن الزبعري قبل أن يسلم هو وغيره من المشركين عيسى بها ، وقالوا يجب أن يعذب عيسى ، قال : (ولَما ضُرِبَ ابنُ مَريَمَ مَثلاً إذا قَومُكَ منه يَصدُّونَ . وقالوا أَآلِهتُنا خَيرٌ أمْ هُو ما ضرَبُوهُ لَكَ إلاَّ جدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ)[٢] ثم قال :(إنْ هُوَ إلاَّ عَبْدٌ أَنعَمْنا عَلَيه وَجعلناهُ مَثلاً لبني إسْرائيل)[٢] وبين تعالى الفرق بقوله : (إنَّ الَّذينَ سَبقَتْ لَهُم منَّا الحسنى أُولئكَ عَنْها مُبْعَدُونَ)[٣] بين أن من كان صالحا نبيا أو غير نبي لم يعذب لأجل من أشرك به وعبده وهو بريء من اشراكهم ، وأما الاصنام فهي حجارة تجعل حصبا للنار ، وقد قيل أنها من الحجارة التي قال الله تعالى فيها وقودها الناس والحجارة ، وقال تعالى : (وأَمَّا القاسِطُونَ فَكانُوا لجهَنَّمَ حَطَباً) وبسط هذا له موضع آخر .

(والمقصود هنا) أن يعرف أن مامضت به سنته وكان عليه خلفاؤه وأصحابه وأهل العلم والدين بالمدينة من تركهم لزيارة قبره أكمل في القيام بحق الله وحق رسوله صلى الله عليه وسلم ، فهو أكمل وأفضل وأحسن مما يفعل مع غيره ، وهو أيضا في حق الله وتوحيده أكمل وأتم وأبلغ .

وأما كونه أتم في حق الله فلأن حق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا ، كما ثبت ذلك في الصحيحين عن معاذ بن جبل عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ويدخل في العبادة جميع خصائص الرب ، فلا يتقى غيره ، ولا يخاف غيره ، ولا يتوكل على غيره ، ولا يدعى غيره ، ولا يصلى لغيره ، ولا يصام لغيره ، ولا يتصدق الا له ، ولا يحج الا الى بيته ، قال تعالى : (وَمَنْ يُطِع اللهَ ورَسُولَهُ وَيَخش اللهَ وَيَتَّقْهِ فأُلئِكَ هُمُ الفائزون)[٤] فجعل الطاعة لله والرسول ، وجعل الخشية والتقوى لله وحده، وقال : (ولو أَنَّهم رَضُوا ما آتاهم اللهُ وَرَسُولُه وقالوا حَسبُنا اللهُ سيؤتينا

---

(١) الانعام : ١٢١ (٢) الزخرف : ٥٧ ــ ٥٩ (٣) الانبياء : ١٠١ (٤) النور : ٥٢

اللهُ من فَضْلِهِ ورسُولُه إنّا الى اللهِ راغِبُون)[١] فجعل الايتاء لله والرسول ، وجعل التوكل والرغبة لله وحده وقال: (فــإذا فرَغتَ فانْصَبْ . وإلى ربِّكَ فارْغَبْ) وقال : (وقالَ اللهُ لا تتّخذُوا إلهين اثْنَيْنِ إنَّما هُوَ إلهٌ واحدٌ فإيايَ فارْهبون. ولَهُ ما في السَّموات والأَرض ولَه الدِّينُ واصباً أفغير الله تتَّقون)[٢] وقال تعالى : (قُل ادْعُوا الَّذين زَعَمْتُمْ من دُونه فَلا يَملِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عنكُمْ ولا تحْويلاً)[٣] وقال تعالى : (قُلْ أَرأيتمْ ما تَدعُونَ من دُونِ اللهِ أروني ماذا خَلَقوا من الارض أَمْ لهم شِرْكٌ في السَّموات ائتوني بكِتاب من قَبلِ هذا أَو أَثارةٍ من علم إنْ كُنتم صَادقين)[٤] وقال تعالى : (قُل ادْعُوا الَّذين زَعَمْتُمْ من دُونِ اللهِ لا يملكونَ مثْقالَ ذَرَّةٍ في السَّموات ولا في الأَرضِ وما لهم فيهما من شِرْكٍ وما لَهُ منْهُمْ من ظَهِيرٍ . ولا تنفعُ الشَّفاعةُ عِنْدَهُ إلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ)[٥] وهذا الباب واسع ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم لابن عباس (اذا سألت فاسأل الله ، واذا استعنت فاستعن بالله) وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم في صفة السبعين ألفا الذين يدخلون الجنة بغير حساب (هم الذين لايسترقون ولا يكتوون ، ولا يتطيرون ، وعلى ربهم يتوكلون) فهم لايطلبون من غيرهم أن يرقيهم ، والرقية دعاء فكيف بما هو أبلغ من ذلك .

ومعلوم أنه لو اتخذ قبره عيدا ومسجدا ووثنا صار الناس يدعونه ويتضرعون اليه ، ويسألونه ويتوكلون عليه ، ويستغيثون ويستجيرون به ، وربما سجدوا له وطافوا به ، وصاروا يحجون اليه ، وهذه كلها من حقوق الله وحده الذي لايشركه فيها مخلوق ، وكان من حكمة الله دفنه في حجرته ، ومنع الناس من مشاهدة قبره ، والعكوف عليه والزيارة له ونحو ذلك لتحقيق توحيد الله وعبادته وحده لاشريك له واخلاص الدين لله .

---

(١) التوبة : ٥٩ (٢) النحل : ٥١ ، ٥٢ (٣) الاسراء : ٥٦ (٤) الاحقاف : ٤ (٥) سبأ : ٢٢ ، ٢٣

وأما قبور أهل البقيع ونحوهم من المؤمنين : فلا يحصل ذلك عندها ، واذا قدر أن ذلك فعل عندها منع من يفعل ذلك وهدم ماينخذ عليها من المساجد ، وان لم تزل الفتنة الا بتعفية قبره وتعميته فعل ذلك كما فعله الصحابة بأمر عمر بن الخطاب في قبر دانيال ، وأما كون ذلك أعظم لقدره وأعلى لدرجته فلأن المقصود المشروع بزيارةقبور المؤمنين ــ كأهل البقيع وشهداء أحد ــ هو الدعاء ، كما كان هو يفعل ذلك ، كما زارهم وكما سنه لامته .

فلو سن للأمة أن يزوروا قبره للصلاة عليه والسلام عليه والدعاء له ــ كما كان بعض أهل المدينة يفعل ذلك أحيانا ، وبين مالك أنه بدعة لم تبلغه عن صدر هذه الامة ولا عن أهل العلم بالمدينة ، وأنها مكروهة ، فانه لن يصلح آخر هذه الامة الا ماأصلح أولها ــ لكان بعض الناس يزوره ثم لتعظيمه في القلوب ، وعلم الخلائق بأنه أفضل الرسل وأعظمهم جاها ، وأنه أوجه الشفعاء الى ربه تدعو النفس أن تطلب منهحاجاتها وأغراضها وتعرض عن حقه من الصلاة والسلام عليه والدعاء له ، فان الناس مع ربهم كذلك ، الا من أنعم الله عليه بحقيقة الايمان ، وانما يعظمون الله عند ضرورتهم اليه، كما قال تعالى : (وإذا مسَّ الانسانَ الضُّر دعانا لجنْبه أَوْ قاعـــداً أَوْ قائماً ، فلما كَشَفنا عنهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأن لم يَدعُنا إلى ضُـــرٍّ مَسَّه . كَذلك زُيِّنَ للمُسْرفيْن ما كَانوا يَعْملُوْن)[1] وقال تعالى : (وإذا مسَّكم الضُّر في البَحْر ضَلَّ من تدْعُونَ إلاَّ إيّاهُ فَلمـا نَجَّا كم الى البَّر أَعْرَضْتُم وكانَ الأْنسانُ كَفُوْراً)[2] وقال تعالى : (وإذا مَسَّ الإِنسانَ ضُرٌّ دعا رَبَّهُ منيباً اليهِ ثُمَّ إذا خَوله نعمَةً منهُ نسي ما كان يَدْعُوا إليهمن قَبْلُ وجَعَلَ للهِ أَنْداداً لِيُضِلَّ عن سَبيله قُلْ تَمَتَّعْ بكُفْركَ قليْلاً إنَّكَ من أَصْحابِ النَّار)[3]

ونظائر هذا في القرآن متعددة فاذا كانوا ــ الا من شاء الله ــ انما يعظمون ربهـم ويوحدونه ويذكرونه عند ضرورتهم لاغراضهم ، ولا يعرفون حقه اذا خلصهم ، فلا يحبونه ويعبدونه ، ولا يسألونه ، ولا يقومون بطاعته ، فكيف يكونون مع المخلوق،

---

(١) يونس : ١٢ (٢) الاسراء : ٥٧ (٣) الزمر : ٨

فهم يطلبون من الانبياء والصالحين أغراضهم ، وذلك مقدم عندهم على حقوق الانبياء والصالحين ، فاذا أيقنوا أن في زيارة قبر نبي أو صالح تحصيل أغراضهم بسؤاله ودعائه وجاهه وشفاعته أعرضوا عن حقه واشتغلوا بأغراضهم ، كما هو الموجود في عامة الذين يحجون الى القبور المعظمة ويقصدونها لطلب الحوائج ، فلو أذن الرسول صلى الله عليه وسلم لهم في زيارة قبره ومكنهم من ذلك لاعرضوا عن حق الله الذي يستحقه من عبادته وحقه ، وعن حق الرسول صلى الله عليه وسلم الذي يستحقه من الصلاة والسلام عليه والدعاء له ، بل ومن جعله واسطة بينهم وبين الله في تبليغ أمره ونهيه وخبره ، فكانوا يهضمون حق الله وحق رسوله ، كما فعلت النصارى ، فانهم بغلوهم في المسيح تركوا حق الله من عبادته وحده ، وتركوا حق المسيح ، فهم لايدعون له بل هو عندهم رب يدعى ، ولا يقومون بحق رسالته فينظرون ماأمر به وما أخبر به ، بل اشتغلوا بالشرك به وبغيره وبطلب حوائجهم ممن يستغيثون به من الملائكة والانبياء وصالحيهم عما يجب من حقوقهم .

وأيضا فلو جعلت الصلاة والسلام عليه والدعاء له عند قبره أفضل منها في غير تلك البقعة — كما قد يكون الدعاء للميت عند قبره أفضل — لكانوا يخصون تلك البقعة بزيادة الدعاء له ، واذا غابوا عنها تنقص صلاتهم وسلامهم ودعاؤهم ، فان الانسان لايجتهد في الدعاء في المكان المفضول كما يجتهد في المكان الفاضل ، وهم قد أمروا أن يقوموا بحق الرسول صلى الله عليه وسلم في كل مكان ، وأن لايكون البعيد عن قبره أنقص ايمانا وقياما بحقه من المجاور لقبره ، وقال لهم صلى الله عليه وسلم : (لاتتخذوا بيتي عيدا وصلوا علي حيثما كنتم فان صلاتكم تبلغني) وقد شرع لهم أن يصلوا عليه ويسألوا له الوسيلة اذا سمعوا المؤذن حيث كانوا ، وأن يسلموا عليه في كل صلاة ، ويصلوا عليه في الصلاة ، ويسلموا عليه اذا دخلوا المسجد واذا خرجوا منه ، فهذا الذي أمروا به عام في كل مكان ، وهو يوجب من القيام بحقه ورفع درجته واعلاء منزلته مالايحصل لو جعل ذلك عند قبره أفضل ، ولا اذا سوى بين قبره وقبر غيره ، بل انما يحصل كمال حقه مع حق ربه بفعل ماشرعه ومنه لأمته من واجب ومستحب ، وهو أن يقوموا بحق الله ثم بحق رسوله صلى الله عليه وسلم حيث كانوا من المحبة والموالاة والطاعة وغير ذلك من الصلاة والسلام والدعاء وغير ذلك ، ولا يقصد تخصيص القبر لما يفضي اليه ذلك من ترك حق الله وحق رسوله صلى الله عليه وسلم ، فهذا وغيره مما يبين أن مانهى عنه الناس ومنعوا

منه كان السلف لايفعلونه من زيارة قبره ، وان كان زيارة قبر غيره مستحبة فهو أعظم لقدره وأرفع لدرجته وأعلى في منزلته ، وان ذلك أقوم بحق الله ، وأتم وأكمل في عبادته وحده لاشريك له ، واخلاص الدين له ، ففي ذلك تحقيق شهادة أن لااله الا الله وأن محمدا عبده ورسوله ، وان كان أهل البدع الذين فعلوا مالم يشرعه بل مانهى عنه ، وخالفوا الصحابة والتابعين لهم باحسان فاستحبوا ماكان أولئك يكرهونه ويمنعون منه : هم مضاهون للنصارى ، وأنهم نقصوا من تحقيق الايمان باللهورسوله والقيام بحق الله وحق رسوله صلى الله عليه وسلم بقدر مادخلوا فيه من البدعةالتي ضاهوا بها النصارى ، فهذا هذا والله أعلم .

وأيضا فانه اذا أطيع أمره واتبعت سنته كان له من الاجر بقدر أجر من أطاعه واتبع سنته ، لقوله صلى الله عليه وسلم : (من دعى الى هدى كان له من الاجر مثل أجور من اتبعه من غير أن ينقص من أجورهم شيئا) وقوله : (من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها الى يوم القيامة) .

وأما البدع التي لم يشرعها بل نهى عنها ـ وان كانت متضمنة للغلو فيه والشرك به والاطراء له كما فعلت النصارى فانه ـ لايحصل بها أجر لمن عمل بها ، فلا يكون للرسول صلى الله عليه وسلم فيها منفعة ، بل صاحبها ان عذر كان ضالا لاأجر له فيها ، وان قامت عليه الحجة استحق العذاب ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح : (لاتطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم ، فانما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله) صلى الله عليه وسلم .

فان قال هؤلاء الذين قاسوا زيارة قبره على زيارة سائر القبور : أن الناس منعوا من الوصول اليه تعظيما لقدره ، وجعل سلامهم وخطابهم له من وراء الحجرة لأن ذلك أبلغ في الادب والتعظيم .

قيل : فهذا موجب الفرق ، فان الزيارة المشروعة ان كان مقصودها الدعاء له فيكون ذلك قريبا من الحجرة أفضل منه في سائر المساجد والبقاع ، فالذي يدعو له داخل الحجرة أقرب ، وان كان القرب مستحبا فكلما كان أقرب كان أفضل كسائر

القبور ، وان كان مقصودها مايقوله أهل الشرك والضلال من دعائه ودعاؤه من القرب أولى فينبغي أن يكون من داخل الحجرة أولى ، ولما ثبت أن هذا القرب من القبر ممنوع منه بالنص والاجماع وهو أيضا غير مقدور علم أن القرب من ذلك ليس بمستحب ، بخلاف زيارة قبر غيره والصلاة على قبره ، فان القرب منه مستحب مالم يفض الى مفسدة من شرك أو بدعة أو نياحة ، فان أفضى الى ذلك منع ذلك .

ومما يوضح هذا : أن الشخص الذي يقصد أتباعه زيارة قبره يجعلون قبره بحيث تمكن زيارته ، فيكون له باب يدخل منه الى القبر ، ويجعل عند القبر مكان للزائر اذا دخل بحيث يتمكن من القعود فيه ، بل يوسع المكان ليسع الزائرين ، ومن اتخذه مسجدا جعل عنده صورة محراب أو قريبا منه ، واذا كان الباب مغلقا جعل له شباك على الطريق ليراه الناس فيه فيدعونه ، وقبر النبي صلى الله عليه وسلم بخلاف هذا كله لم يجعل للزائر طريق اليه بوجه من الوجوه ، ولا قبر في مكان كبير يتسع للزوار ، ولا جعل للمكان شباك يرى منه القبر ، بل منع الناس من الوصول اليه والمشاهدة له ، ومن أعظم ما من الله على رسوله صلى الله عليه وسلم وعلى أمته واستجاب دعاءه أن دفن في بيته بجانب مسجده ، فلا يقدر أحد أن يصلي الا الى المسجد ، والعبادة المشروعة في المسجد معروفة ، بخلاف مالو كان قبره منفردا عن المسجد ، والمسافر اليه انما يسافر الى المسجد ، واذا سمي هذا زيارة لقبره فهو اسم لامسمى له ، انما هو اتيان الى مسجده ، ولهذا لم يطلق السلف هذا اللفظ (١) ولا عند قبره قناديل معلقة ، ولا ستور مسبلة ، بل انما يعلق القناديل في المسجد المؤسس على التقوى ، ولا يقدر أحد أن يخلق نفس قبره بزعفران أو غيره ، ولا ينذر له زيتا ولا شمعا ولا سترا ولا غير ذلك مما ينذر لقبر غيره ، وان كان في بعض الاحوال قد ستر بعض الناس الحجرة أو خلقها بعضهم بزعفران فهذا انما هو للحائط الذي يلي المسجد لانفس باطن الحجرة والقبر كما يفعل بقبر غيره وان فعل شيء في ظاهر الحجرة ، فعلم أن الله سبحانه وتعالى استجاب دعاءه حيث قال : (اللهم لاتجعل قبري وثنا يعبد) وان كان كثير من الناس يريدون أن يجعلوه وثنا ويعتقدون أن ذلك تعظيم له كما يريدون ذلك ويعتقدون في قبر غيره ، فهم لايتمكنون من ذلك ، بل هذا القصد والاعتقاد خيال في نفوسهم لاحقيقة له في الخارج ، بخلاف القبر الذي جعل وثنا وان كان الميت وليا لله لا اثم عليه من فعل من أشرك به ، كما لا اثم على المسيح

---

(١) كذا في الاصل

من اثم من اشرك به ، قال تعالى : (وإذْ قال اللهُ يا عيسى بنَ مَرْيَمَ أأنتَ قُلْتَ للنّاسِ اتّخِذوني وأمّي إلهين من دُوْنِ اللهِ قالَ سُبْحانَكَ ما يَكُونُ لي أنْ أقول ما ليْسَ لي بحقٍّ إنْ كُنْتُ قُلْتُه فقَدْ علِمْتَه تعْلَمُ مـــا في نَفْسي ولا أعْلَمُ ما في نَفْسِكَ إنّكَ أنتَ عَلاّمُ الغُيوب . ما قُلْتُ لهم إلاّ ما أمرتَني بِهِ أنِ اعْبُدوا اللهَ رَبّي ورَبّكُمْ وكُنْتُ علَيْهِمْ شَهيداً ما دُمْتُ فيهم فَلما توَفّيتني كُنْتَ أنْتَ الرّقيبَ عَليهم وأنْتَ على كُلِّ شيءٍ شهيد)[1] وقال تعالى : (وقالَ المسيحُ يا بني اسْرائيلَ اعبدُوا اللهَ رَبّي ورَبّكُم إنّه مَنْ يُشْرِكْ باللهِ فقـــد حَرّمَ اللهُ عليه الجنةَ ومَأواه النّارُ وما للظّالمينَ من أنْصار)[2] وقال تعالى : (ويَوْمَ يحشُرهم وما يعبدُونَ من دُوْنِ اللهِ فيقولُ أأنتم أضْللتم عبادي هؤلاءِ أمْ هم ضَلوا السّبيلَ . قالوا سُبْحانَكَ ما كانَ يَنْبَغي لنا أنْ نَتّخِذَ من دُونِكَ من أولياءَ ولكن متّعْتَهم وآباءَهُمْ حَتّى نَسوا الذّكْر وكانوا قَوماً بُورا . فَقَدْ كَذّبوكُمْ بما تَقُوْلون فَما تَسْتَطيْعون صَرْفاً ولا نَصْراً وَمَنْ يَظلِم منكُمْ نُذِقْهُ عذاباً كبيراً)[3] .

فالمعبودون من دون الله ــ سواء كانوا أولياء كالملائكة والانبياء والصالحين أو كانوا أوثانا ــ قد تبرؤا ممن عبدهم ، وبينوا أنه ليس لهم أن يوالوا من عبـدهم ، ولا أن يواليهم من عبدهم ، فالمسيح وغيره وان كانــوا برءاء من الشرك بهم لكــن المقصود بيان مافضل الله به محمدا صلى الله عليه وسلم وأمته ، وما أنعم به عليهم من اقامة التوحيد لله ، والدعوة الى عبادته وحده ، واعلاء كلمته ودينه ، واظهار مابعثه الله به من الهدى ودين الحق ، وما صانه الله به وصان قبره من أن يتخذ مسجــدا ، فان هذا من أقوى أسباب ضلال أهل الكتاب ، ولهذا لعنهم النبي صلى الله عليــه وسلم على ذلك تحذيرا لأمته ، وبين أن هؤلاء شرار الخلق عند الله يوم القيامة ، ولما كان أصحابه أعلم الناس بدينه وأطوعهم له لم يظهر فيهم من البدع ماظهر فيمن بعدهم

(١) المائدة : ١١٦ ، ١١٧ (٢) المائدة : ٧٢ (٣) الفرقان : ١٧ ــ ١٩

لا في أمور القبور ولا في غيرها ، فلا يعرف من الصحابة من كان يتعمد الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم وان كان فيهم من له ذنوب ، لكن هذا الباب مما عصمهم الله فيه من تعمد الكذب على نبيهم ، وكذلك البدع الظاهرة المشهورة مثل بدعة الخوارج والروافض والقدرية والمرجئة لم يعرف عن أحد من الصحابة شيء من ذلك ، بل النقول الثابتة عنهم تدل على موافقتهم للكتاب والسنة ، وكذلك اجتماع رجال الغيب بهم أو الخضر أو غيره ، وكذلك مجيء الانبياء اليهم في اليقظة وحمل من يحمل منهم الى عرفات ونحو ذلك مما وقع فيه كثير من العباد وظنوا أنه كرامة من الله وكان من اضلال الشياطين لهم لم تطمع الشياطين أن توقع الصحابة في مثل هذا ، فانهم كانوا يعلمون أن هذا كله من الشيطان ورجال الغيب هم الجن ، قال تعالى : (وأَنّه كانَ رجالٌ مِنَ الإِنْسِ يَعوذُونَ برجالٍ منَ الجنِّ فزادوهُم رَهقاً)

وكذلك الشرك بأهل القبور لم يطمع الشيطان أن يوقعهم فيه فلم يكن على عهدهم في الاسلام قبر نبي يسافر اليه ، ولا يقصد للدعاء عنده أو لطلب بركته أو شفاعته أو غير ذلك ، بل أفضل الخلق محمد خاتم الرسل صلوات الله وسلامه عليه وقبره عندهم محجوب لايقصده أحد منهم لشيء من ذلك ، وكذلك كان التابعون لهم باحسان ، ومن بعدهم من أئمة المسلمين ، وانما تكلم العلماء والسلف في الدعاء للرسول صلى الله عليه وسلم عند قبره ، منهم من نهى عن الوقوف للدعاء دون السلام عليه ، ومنهم من رخص في هذا وهذا ، ومنهم من نهى عن هذا وهذا ، وأما دعاؤه هو وطلب استغفاره وشفاعته بعد موته فهذا لم ينقل عن أحد من أئمة المسلمين لا من الأئمة الاربعة ولا غيرهم ، بل الادعية التي ذكروها خالية عن ذلك .

أما مالك فقد قال القاضي عياض : وقال مالك في المبسوط : لا أرى أن يقف عند قبر النبي صلى الله عليه وسلم يدعو ويسلم ، ولكن يسلم ويمضي ، وهذا الذي نقله القاضي عياض ذكره القاضي اسمعيل ابن اسحق في المبسوط ، قال : وقال مالك لاأرى أن يقف الرجل عند قبر النبي صلى الله عليه وسلم يدعو ولكن يسلم على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى أبي بكر وعمر ثم يمضي ، وقال مالك ذلك لأن هذا المنقول عن ابن عمر أنه كان يقول السلام عليك يارسول الله السلام عليك ياأبا بكر السلام عليك ياأبت أو ياأبتاه ثم ينصرف ولا يقف يدعو ، فرأى مالك ذلك من البدع قال : وقال مالك في رواية ابن وهب اذا سلم على النبي صلى الله عليه وسلم ودعا

يقف ووجهه الى القبر لا الى القبلة ، ويدنو ويسلم ولا يمس القبر بيده ، فقوله في هذه الرواية اذا سلم ودعا قد يريد بالدعاء السلام ، فانه قال يدنو ويسلم ولا يمس القبر بيده ، ويؤيد ذلك أنه قال في رواية ابن وهب يقول السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، وقد يراد أنه يدعو له بلفظ الصلاة ، كما ذكر في الموطأ من رواية عبد الله بن دينار أنه كان يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى أبي بكر وعمر ، وفي رواية يحيى بن يحيى وقد غلطه ابن عبد البر وقالوا انما لفظ الروايةعلى ماذكره ابن القاسم والقعنبي وغيرهما يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم ويسلم على أبي بكر وعمر ، وقال أبو الوليد الباجي وعندي أنه يدعو للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم بلفظ الصلاة ولابي بكر وعمر ، لما في حديث ابن عمر من الخلاف ، قال القاضي عياض : وقال في المبسوط : لا بأس لمن قدم من سفر أو خرج الى سفر أن يقف على قبر النبي صلى الله عليه وسلم فيصلي عليه ويدعو له ولأبي بكر وعمر ،فان أراد بالدعاء السلام والصلاة فهو موافق لتلك الرواية ، وان أراد دعاء زائدا فهي رواية أخرى ، وبكل حال فانما أراد الدعاء اليسير .

وأما ابن حبيب فقال : ثم يقف بالقبر متواضعا موقرا فيصلي عليه ويثني بما حضر ، ويسلم على أبي بكر وعمر ، فلم يذكر الا الثناء عليه مع الصلاة .

وأما الامام أحمد فذكر الثناء عليه بلفظ الشهادة له بذلك مع الدعاء له بغير الصلاة ، ومع دعاء الداعي لنفسه أيضا لم يذكر أن يطلب منه شيئا ، ولا يقرأ عند القبر قوله تعالى : (ولو أنهم اذ ظلموا أنفسهم جاؤك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما) ، كما لم يذكر مالك ذلك ولا المتقدمون من أصحابنا ولا جمهورهم ، بل قال في منسك المروزي : ثم ائت الروضة وهي بين القبر والمنبر فصل فيها وادع بما شئت ، ثم ائت قبر النبي صلى الله عليه وسلم فقل : السلام عليك يارسول الله ورحمة الله وبركاته ، السلام عليك يامحمد بن عبد الله ، أشهد أن لا اله الا الله ، وأشهد أنك رسول الله ، وأشهد أنك بلغت رسالة ربك ، ونصحت لأمتك ، وجاهدت في سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، وعبدت الله حتى أتاك اليقين ، فجزاك الله أفضل ماجزى نبيا عن أمته ، ورفع درجتك العليا ، وتقبل شفاعتك الكبرى ، وأعطاك سؤلك في الآخرة والاولى ، كما تقبل من ابراهيم اللهم احشرنا في زمرته ، وتوفنا على سنته ، وأوردنا حوضه ، واسقنا بكأسه مشربا رويا لانظمأ بعده أبدا .

وما من دعاء وشهادة وثناء يذكر عند القبر الا وقد وردت السنة بذلك وما هو منه في سائر البقاع ولا يمكن أحدا أن يأتي بذكر يشرع عند القبر دون غيره ، وهذا تحقيق لنهيه أن يتخذ قبره أو بيته عيدا ،فلا يقصد تخصيصه بشيء من الدعاء للرسول صلى الله عليه وسلم فضلا عن الدعاء لغيره ، بل يدعي بذلك للرسول صلى الله تعالى عليه وسلم حيث كان الداعي ، فان ذلك يصل اليه صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهذا بخلاف ماشرع عند قبر غيره ، كقوله : (السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين وانا ان شاء الله بكم لاحقون ، يرحم الله المستقدمين منا ومنكم والمستأخرين) فان هذا لايشرع الا عند القبور ، ولا يشرع عند غيرها ، وهذا مما يظهر به الفرق بينه وبين غيره ، وان ماشرعه وفعله أصحابه من المنع من زيارة قبره كما تزار القبور هو من فضائله ، وهو رحمة لأمته ومن تمام نعمة الله عليها ، فالسلف كلهم متفقون على أن الزائر لايسأله شيئا ، ولا يطلب منه مايطلب منه في حياته ويطلب منه يوم القيامة لا شفاعة ولا استغفار ولا غير ذلك ، وانما كان نزاعهم في الوقوف للدعاء له والسلام عليه عند الحجرة ، فبعضهم رأى هذا من السلام الداخل في قوله صلى الله عليه وسلم : (ما من رجل يسلم علي إلا رد الله علي روحي حتى أرد عليه السلام) واستحبه لذلك ، وبعضهم لم يستحبه ، إما لعدم دخوله ، وإما لأن السلام المأمور به في القرآن مع الصلاة ــ وهو السلام الذي لايوجب الرد ــ أفضل من السلام الموجب للرد ، فان هذا مما يدل عليه الكتاب والسنة ، واتفق عليه السلف ، فان السلام المأمور به في القرآن كالصلاة المأمور بها في القرآن كلاهما لايوجب عليه الرد ، بل الله يصلي على من صلى عليه ويسلم على من سلم عليه ، ولأن السلام الذي يوجب الرد هو حق للمسلم كما قال تعالى : (وإذا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيّوا بأَحسَنَ منها أَو رُدُّوها) (1)
ولهذا يرد السلام على من سلم وان كان كافرا ، وكان اليهود اذا سلموا عليه يقول : (عليكم) وأمر أمته بذلك ، وانما قال : (عليكم) لأنهم يقولون السام والسام الموت، فيقول : (عليكم) قال صلى الله عليه وسلم : (يستجاب لنا فيهم ولا يستجاب لهم فينا) ولما قالت عائشة : وعليكم السام واللعنة قال : (مهلا ياعائشة فان الله رفيق يحب الرفق في الامر كله ، أو لم تسمعي ما قلت لهم ؟!) يعني رددت عليهم فقلت

---

(1) النساء : ٨٦

عليكم ، فهذا اذا قالوا السام عليكم ، وأما اذا علم أنهم قالوا السلام فلا يخصون في الرد فيقال عليكم فيصير بمعنى السلام عليكم لا علينا بل يقال وعليكم .

واذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم وأمته عليكم جزاء دعائهم وهو دعاء بالسلامة والسلام أمان فقد يكون المستجاب هي سلامتهم منا أي من ظلمنا وعداوتنا وكذلك كل من رد السلام على غيره فانما دعا له بالسلامة ، وهذا مجمل ، ومن الممتنع أن يكون كل من رد على النبي صلى الله عليه وسلم السلام من الخلق دعا له بالسلامة من عذاب الدنيا والآخرة ، فقد كان المنافقون يسلمون عليه ويرد عليهم ، ويرد على المسلمين أصحاب الذنوب وغيرهم ، لكن السلام فيه أمان ، ولهذا لايبتدأ الكافر الحربي بالسلام ، بل لما كتب النبي صلى الله عليه وسلم كتابه الى قيصر قال فيه : (من محمد رسول الله الى قيصر عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى) كما قال موسى لفرعون ، والحديث في الصحيحين من رواية ابن عباس عن أبي سفيان بن حرب في قصته المشهورة لما قرأ قيصر كتاب النبي صلى الله عليه وسلم وسأله عن أحواله .

وقد نهى صلى الله عليه وسلم عن ابتداء اليهود بالسلام ، فمن العلماء من حمل ذلك على العموم ، ومنهم من رخص اذا كان للمسلم اليه حاجة يبتدئه بالسلام بخلاف اللقاء ، والكفار كاليهود والنصارى يسلمون عليه وعلى أمته سلام التحية الموجب للرد ، وأما السلام المطلق فهو كالصلاة عليه انما يصلي عليه ويسلم عليه أمته ،فاليهود والنصارى لايصلون عليه ويسلمون عليه ، وكانوا اذا رأوه يسلمون عليه ، فذلك الذي يختص به المؤمنون ابتداء وجوابا أفضل من هذا الذي يفعله الكفار معه ومع أمته ابتداء وجوابا ، ولايجوز أن الكفار اذا سلموا عليه سلام التحية فان الله يسلم عليهم عشرا ، بل كان النبي صلى الله عليه وسلم يجيبهم على ذلك فيوفيهم كما لوكان لهم دين فقضاه .

وأما مايختص بالمؤمنين فاذا صلوا عليه صلى الله على من صلى عليه عشرا ، واذا سلم عليه سلم الله عليه عشرا ، وهذا الصلاة والسلام هو المشروع في كل مكان بالكتاب والسنة والاجماع ، بل هو مأمور به من الله سبحانه وتعالى ، لافرق في هذا بين الغرباء وبين أهل المدينة عند القبر .

وأما السلام عليه عند القبر فقد عرف أن الصحابة والتابعين المقيمين بالمدينة لم يكونوا يفعلونه اذا دخلوا المسجد وخرجوا منه ، ولو كان هذا كالسلام عليه لو كان

حيا لكانوا يفعلونه كلما دخلوا المسجد وخرجوا منه كما لو دخلوا المسجد في حياته وهو فيه فانه مشروع لهم كلما رأوه أن يسلموا عليه ، بل السنة لمن جاء الى قوم أن يسلم عليهم اذا قدم واذا قام ، كما أمر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بذلك ، وقال: (ليست الأولى أحق من الآخرة) فهو لما كان حيا كان أحدهم اذا أتى يسلم ، واذا قام يسلم ، ومثل هذا لايشرع عند القبر باتفاق المسلمين ، وهو معلوم بالاضطرار من عادة الصحابة ، ولو كان سلام التحية خارج الحجرة كان مستحبا لكل أحد ، ولهذا كان أكثر السلف لايفرقون بين الغرباء وأهل المدينة ، ولا بين حال السفر وغيره ، فان استحباب هذا لهؤلاء وكراهته لهؤلاء حكم شرعي يفتقر الى دليل شرعي ، ولا يمكن أحدا أن ينقل عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه شرع لأهل المدينة الاتيان عند الوداع للقبر ، وشرع لهم ولغيرهم ذلك عند القدوم من سفر ، وشرع للغرباء تكرير ذلك كلما دخلوا المسجد وخرجوا منه ولم يشرع ذلك لأهل المدينة ، فمثل هذه الشريعة ليس منقولا عن النبي صلى الله عليه وسلم ولا عن خلفائه ، ولا هو معروف من عمل الصحابة ، وانما نقل عن ابن عمر السلام عند القدوم من السفر ، وليس هذا من عمل الخلفاء وأكابر الصحابة • قلت : روى عبد الرزاق في مصنفه عن معمر عن أيوب عن نافع ، قال : كان ابن عمر اذا قدم من سفر أتى قبر النبي صلى الله عليه وسلم فقال : السلام عليك يارسول الله ، السلام عليك ياأبا بكر ، السلام عليك ياأبتاه ، وأنبأه عبيد الله بن عمر عن نافع عن ابن عمر ، قال معمر : فذكرت ذلك لعبيد الله بن عمر فقال : مانعلم أحدا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فعل ذلك الا ابن عمر ، هكذا قال عبيد الله بن عمر العمري الكبير ، وهو أعلم آل عمر في زمانه وأحفظهم وأثبتهم ، قال الشيخ كما كان ابن عمر يتحرى الصلاة والنزول والمرور حيث حل ونزل وغير ذلك في السفر •

وجمهور الصحابة لم يكونوا يصنعون ذلك بل أبوه عمر كان ينهى عن مثل ذلك ، كما روى سعيد بن منصور في سننه : حدثنا أبو معاوية عن الاعمش عن المعرور بن سويد عن عمر قال : خرجنا معه في حجة حجها فقرأ بنا في صلاة الفجر (ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل) و (لايلاف قريش) في الثانية فلمارجع من حجته رأى الناس ابتدروا المسجد ، فقال : ماهذا ؟ فقالوا : مسجد صلى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : هكذا هلك أهل الكتاب قبلكم اتخذوا آثار الانبياء بيعا من عرضت له منكم فيه الصلاة فليصل ومن لم تعرض له فليمض ، وما اتفق عليه الصحابة

ابن عمر وغيره ـــ من أنه لايستحب لأهل المدينة الوقوف عند القبر للسلام اذا دخلوا المسجد وخرجوا بل يكره ذلك ـــ يبين ضعف حجة من احتج بقوله : (ما من رجل يسلم علي الا رد الله علي روحي حتى أرد عليه السلام) فان هذا لو دل على استحباب السلام عليه من المسجد لما اتفق الصحابة على ترك ذلك ، ولم يفرق في ذلك بين القادم من السفر وغيره ، فلما اتفقوا على ترك ذلك مع تيسيره علم أنه غير مستحب ، بل لو كان جائزا لفعله بعضهم ، فدل على أنه كان من المنهى عنه كما دلت عليه سائر الاحاديث .

وعلى هذا فالجواب عن الحديث اما بتضعيفه على قول من يضعفه ، واما بأن ذلك يوجب فضيلة الرسول صلى الله عليه وسلم لافضيلة المسلم بالرد عليه اذا كان هذا من باب المكافأة والجزاء ، حتى أنه يشرع للبر والفاجر التحية بخلاف مايقصد به الدعاء المجرد وهو السلام المأمور به ، وإما بأن يقال : هذا مما هو فيمن سلم عليه من قريب ، والقريب أن يكون في بيته ، فانه ان لم يحد بذلك لم يبق له حد محدود من جهة الشرع ، كما تقدم ذكر هذا .

وأما الوجه : فتوجيهه أن الحديث ليس فيه ثناء على المسلم ولا مدح له ولا ترغيب له في ذلك ، ولا ذكر أجر له كما جاء في الصلاة والسلام المأمور بهما ، فانه قد وعد أن من صلى عليه مرة صلى الله عليه عشرا ، وكذلك من سلم عليه ، وأيضا فهو مأمور بهما وكل مأمور به ففاعله محمود مشكور مأجور وأما قوله : (ما من رجل يمر بقبر الرجل فيسلم عليه الا رد الله عليه روحه حتى يرد عليه السلام ، وما من رجل يسلم علي الا رد الله علي روحي حتى أرد عليه السلام) فانما فيه مدح المسلم عليه والاخبار بسماعه السلام ، وأنه يرد السلام فيكافيء المسلم عليه لايبقى للمسلم عليه فضل ، فانه بالرد يحصل المكافأة ، كما قال تعالى : (وَإِذا حُيِّيتُمْ بِتَحية فَحيُّوا بِأَحْسَنَ منْهاأَ ورُدُّوها) ولهذا كان الرد من باب العدل المأمور به الواجب لكل مسلم اذا كان سلامه مشروعا ، وهذا كقوله : (من سألنا أعطيناه ومن لم يسألنا أحب الينا) هو اخبار باعطائه السائل ، ليس هذا أمر بالسؤال وان كان السلام ليس مثل السؤال لكن هذا اللفظ انما يدل على مدح الراد .

وأما المسلم فيقف الأمر فيه على الدليل ، واذا كان المشروع لأهل المدينة أن لايقفوا عند الحجرة ويسلموا عليه علم قطعا أن الحديث لم يرغب في ذلك ، ومما يبين ذلك أن مسجده كسائر المساجد لم يختص بجنس من العبادات لاتشرع في غيره ، وكذلك المسجد الاقصى ، ولكن خصا بأن العبادة فيهما أفضل ، بخلاف المسجد الحرام فانه مخصوص بالطواف واستلام الركن وتقبيل الحجر وغير ذلك ، وأما المسجدان الآخران فما يشرع فيهما من صلاة وذكر واعتكاف وتعلم وتعليم وثناء على الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم وصلاة عليه وتسليم وغير ذلك من العبادات فهو مشروع في سائر المساجد ، والعمل الذي يسمى زيارة لقبره لايكون الا في مسجده لاخارجا عن المسجد ، فعلم أن المشروع من ذلك العمل مشروع في سائر المساجد لا اختصاص لقبره بجنس من أجناس العبادات ، ولكن العبادة في مسجده أفضل منها في غيره لأجل المسجد لا لأجل القبر ، قال الشيخ ومما يوضح هذا أنه لم يعرف عن أحد من الصحابة أنه تكلم باسم زيارة قبره لاترغيبا في ذلك ولا غير ترغيب ،فعلم أن مسمى هذا الاسم لم يكن له حقيقة عندهم ، ثم ذكر ماحكيناه عنه فيما تقدم .

ثم قال : والمقصود أن هذا كله يبين ضعف حجة المفرق بين الصادر من المدينة والوارد عليها ، والوارد على مسجدهمن الغرباء والصادر عنه ،وذلك أنه يمتنعأنيقال أنه يرد على هؤلاء ولا يرد على أحد من أهل المدينة المقيمين بها ، فان أولئك هم أفضل أمته وخواصها ، وهم الذين خاطبهم بهذا ، فيمتنع أن يكون المعنى من سلم منكم ياأهل المدينة لم أرد عليه مادمتم مقيمين بها ، فان المقام بها هو غالب أوقاتهم ، وليس في الحديث تخصيص ، ولا عن النبي صلى الله عليه وسلم مايدل على ذلك .

يبين هذا : أن الحجرة لما كانت مفتوحة وكانوا يدخلون على عائشة لبعض الامور فيسلمون عليه انما كان يرد عليهم اذا سلموا .

فان قيل : انه لم يكن يرد عليهم فهذا تعطيل للحديث .

وان قيل : كان يرد عليهم من هناك ولا يرد اذا سلموا من خارج فقد أظهر الفرق .

وان قيل : بل هو يرد على الجميع فحينئذ ان كان رده لايقتضي استحباب هذا السلام بطل الاستدلال به ، وان كان رده يقتضي الاستحباب وهو الآن مختص بمن سلم من خارج لزم أن يستحب لأهل المدينة عند الحجرة كلما دخلوا المسجد وخرجوا وهو خلاف ماأجمع عليه الصحابة والتابعون لهم باحسان وخلاف قول المفرقين ، ومن

أهل المدينة من قد لايسافر منها أولا يسافر الا للحج والقادم قد يقيم بالمدينة العشر والشهر ، فهذا يرد عليه عشر مرات في اليوم والليلة وأكثر كلما دخل وخرج وذاك المدني المقيم لايرد عليه قط في عمره ولا مرة •

وأيضا فاستحباب هذا للوارد والصادر تشبيه له بالطواف الذي يشرع للحاج عند الورود الى مكة — وهو الذي يسمى طواف القدوم وطواف التحية وطواف الورود — وعند الصدور — وهو الذي يسمى طواف الوداع — وهذا تشبيه لبيت المخلوق ببيت الخالق ، ولهذا لايجوز الطواف بالحجرة بالاجماع ولا الصلاة اليها ، كما ثبت عنه صلى الله عليه وسلم في صحيح مسلم عن أبي مرثد الغنوي أنه قال : قال صلى الله تعالى عليه وسلم : (لاتجلسوا على القبور ولا تصلوا اليها) وأيضا فالطواف بالبيت لأهل مكة ولغيرهم كلما دخلوا المسجد والوقوف عند القبر كلما دخل المدني لايشرع بالاتفاق ، فلم يبق الفرق بين المدني وغير المدني له أصل في السنة ولا نظير في الشريعة ، ولا هو مما سنه الخلفاء الراشدون وعمل به عامة الصحابة ، فلا يجوز أن يجعل هذا من شريعته وسنته ، واذا فعله من الصحابة الواحد والاثنان والثلاثة وأكثر دون غيرهم كان غايته أنه يثبت به التسويغ ، بحيث يكون هذا مانعا من دعوى الاجماع على خلافه ، بل يكون كسائر المسائل التي ساغ فيها الاجتهاد لبعض العلماء ، أما أن يجعل من سنة الرسول صلى الله عليه وسلم وشريعته وحكم ماتدل عليه سنته لكون بعض السلف فعل ذلك فهذا لايجوز ، ونظير هذا مسحه للقبر قال أبو بكر الاثرم قلت لأبي عبد الله يعني الامام أحمد قبر النبي صلى الله عليه وسلم يلمس ويتمسح به قال ماأعرف هذا ، قلت فالمنبر ، قال أما المنبر فنعم قد جاء فيه ، قال أبو عبد الله شيء يروونه عن ابن أبي فديك عن ابن أبي ذئب عن ابن عمر أنه مسح على المنبر ، قال ويروونه عن سعيد بن المسيب في الرمانة ، قلت ويروى عن يحيى بن سعيد يعني الانصاري شيخ مالك وغيره أنه حيث أراد الخروج الى العراق جاء الى المنبر فمسحه ودعا فرأيته استحسن ذلك ، ثم قال لعله عند الضرورة ، قلت لأبي عبد الله أنهم يلصقون بطونهم بجدار القبر وقلت له ورأيت أهل العلم من أهل المدينة لايمسونه ويقومون ناحيته فيسلمون ، فقال أبو عبد الله نعم وهكذا كان ابن عمر يفعل ذلك ، ثم قال أبو عبد الله بأبي وأمي صلى الله تعالى عليه وسلم •

وقد ذكر أحمد بن حنبل أيضا في منسك المروزي نظير مانقل عن ابن عمر وابن المسيب ويحيى ابن سعيد ، وهذا كله يدل على التسويغ وأن هذا مما فعله بعض

الصحابة ، فلا يقال انعقد اجماعهم على تركه بحيث يكون فعل من فعل ذلك اقتداء ببعض السلف لم يبتدع هو شيئا من عنده ، وأما أن الرسول صلى الله عليه وسلم ندب الى ذلك ورغب فيه وجعله عبادة وطاعة يشرع فعلها فهذا يحتاج الى دليل شرعي لايكفي في ذلك فعل بعض السلف ، ولا يجوز أن يقال أن الله ورسوله يحب ذلك أو يكرهه ، وأنه سن ذلك وشرعه أو نهى عن ذلك وكرهه أو نحو ذلك الا بدليل يدل على ذلك ، لاسيما اذا عرف أن جمهور أصحابه لم يكونوا يفعلون ذلك ، فيقال: لو كان هو ندبهم الى ذلك وأحبه لفعلوه ، فانهم كانوا أحرص الناس على الخير ونظائر هذا متعددة والله أعلم •

والمؤمن قد يتحرى الدعاء والصلاة في مكان دون مكان لاجتماع قلبه فيه ، وحصول خشوعه فيه ، لا لأنه يرى الشارع فضل ذلك المكان كصلاة الذي يكون في بيته ونحو ذلك ، فمثل هذا اذا لم يكن منهيا عنه فلا بأس به ويكون ذلك مستحبا في حق ذلك الشخص لكون عبادته فيه أفضل ، كما اذا صلى القوم خلف امام يحبونه كانت صلاتهم أفضل من أن يصلوا خلف من هم له كارهون ، وقد يكون العمل المفضول في حق بعض الناس أفضل لكونه أنفع له وكونه أرغب فيه وهو أحب اليه من عمل أفضل منه لكونه يعجز عنه فهذا يختلف بحسب اختلاف الاشخاص ، وهو غير ماثبت فضل جنسه بالشرع كما ثبت أن الصلاة أفضل ، ثم القراءة ، ثم الذكر بالادلة ، مع أن العمل المفضول في مكانه هو أفضل من الفاضل في غير مكانه ، كفضيلة الذكر والدعاء والقراءة بعد الفجر والعصر على الصلاة المنهى عنها في هذا الوقت ، وكفضيلة التسبيح في الركوع والسجود على القراءة لأنه نهى أن يقرأ القرآن راكعا أو ساجدا ، وكفضيلة آخر القرآن هناك (١) لأنه موطن الدعاء ، ونظائر هذا متعددة ، وبسط هذا له موضع آخر •

لكن المقصود هنا : أن يعلم أن ماقيل إنه مستحب للأمة قد ندبهم اليه الرسول صلى الله عليه وسلم ورغبهم فيه فلا بد له من دليل يدل على ذلك ، ولا يضاف الى الرسول صلى الله عليه وسلم الا ماصدر عنه ، والرسول صلى الله عليه وسلم هو الذي فرض الله على جميع الخلق الايمان به وطاعته واتباعه ، وايجاب ماأوجبه وتحريم ماحرمه ، وشرع ماشرعه ، وبه فرق الله بين الهدى والضلال ، والرشاد والغي ، والحق والباطل ، والمعروف والمنكر ، وهو الذي شهد الله له بأنه يدعو اليه

---

(١) كذا في الاصل

باذنه ويهدي الى صراط مستقيم ، وهو الذي جعل الرب طاعته طاعة له في مثل قوله : (مَن يُطِعِ الرَّسولَ فَقَدْ أَطاعَ اللهَ)[١] وقوله : (وما أَرْسَلنا من رَسُولٍ إلاّ لِيُطاعَ بإذْنِ اللهِ)[٢] وهو الذي لاسبيل لأحد الى النجاة الا بطاعته ، ولا يسأل الناس يوم القيامة الا عن الايمان به واتباعه وطاعته ، وبه يمتحنون في القبور ، قال تعالى: (فلنَسْألَنَّ الَّذينَ أُرْسِلَ إليْهِم ولَنسألَنَّ الْمرْسَلين)[٣] وهو الذي أخذ الله الميثاق على النبيين وأمرهم أن يأخذوا على أممهم الميثاق أنه اذا جاءهم أن يؤمنوا به ويصدقوه ، وهو الذي فرق الله به بين أهل الجنة والنار ، فمن آمن به وأطاعه كان من أهل الجنة ، ومن كذبه وعصاه كان من أهل النار ، قال تعالى : (ومَنْ يُطِعِ اللهَ ورسُولَهُ يُدخلهُ جَنَّاتٍ تَجري من تَحتها الأَنْهارُ خالدِينَ فيها وذلكَ الْفَوْزُ العَظِيمُ . ومَنْ يَعْصِ اللهَ ورسُولَهُ ويَتعَدَّ حُدودَهُ يُدْخِلْهُ ناراً خالداً فيهَا ولَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ)[٤] والوعد بسعادة الدنيا والآخرة ، والوعيد بشقاوة الدنيا والآخرة يتعلق بطاعته ،فطاعته هي الصراط المستقيم ، وهي حبل الله المتين ، وهي العروة الوثقى ، وأصحابهاهم أولياء الله المتقون ، وحزبه المفلحون ، وجنده الغالبون والمخالفون لهم هم أعداءالله ، حزب ابليس اللعين ، قال تعالى :(ويَوْمَ يعَضُّ الظَّالِمُ عَلى يَدَيْهِ يقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا . يا وَيْلَتى لَيْتني لَمْ أَتَّخِذْ فُلاناً خَليلاً . لَقَدْ أَضَلَّني عَن الذِّكْرِ بعْدَ إذْ جاءَني وكَانَ الشَّيْطانُ للانسَانِ خَذُولا)[٥] وقال تعالى : (يومَ تُقَلَّبُ وُجوهُهم في النَّارِ يقُولونَ يا لَيْتَنا أَطعْنَا اللَّهَ وأَطعْنَا الرَّسوْلا . وقالُوا ربنَا إنا أَطعْنَا سادَتَنا وكُبرَاءَنا فأَضلّونا السّبيلا . ربّنا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ منَ العَذابِ والْعَنْهم لَعْناً كبيراً)[٦] وقال تعالى:(قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ والرّسولَ فإنْ تَولَّوا فإنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الكَافِرين)[٧] وقال تعالى : (فَلاَ وربِّكَ لا يُؤمنُون

---

(١) النساء : ٦٤ (٢) النساء : ٨٠ (٣) الاعراف : ٦ (٤) النساء : ١٣ ، ١٤ (٥) الفرقان : ٢٧ ـ ٢٩
(٦) الاحزاب : ٦٦ ـ ٦٨ (٧) آل عمران : ٣٢

حتَّى يُحكمُوكَ فيما شَجَرَ بينَهُم ثمّ لا يجِدوا في أَنفُسهم حَرجَاً مِمَّا قضَيْتَ ويُسلِّموا تَسْليما)[1] وقـال تعالى: (فَلْيحْذرِ الذين يُخالفون عنْ أَمرِه أَنْ تُصيبَهُم فتنَة أَو يُصيبَهم عذَاب أَليم)[2] وقال تعالى (ومنْ يُطع اللهَ والرَّسول فاولئك معَ الَّذينَ أَنعَمَ اللهُ عليْهم منَ النَّبيين والصِّديقينَ والشّهَداءِ والصَّالحينَ وحسُنَ أُولئكَ رفيقاً. ذلكَ الفضْلُ منَ الله)[3] وجميع الرسل أخبروا بأن الله أمر بطاعتهم ، كما قال تعالى : (وما أَرسلْنا منْ رسولٍ إلاّ ليُطاع باذنِ الله) يامرون بعبادة الله وحده وتقواه وحده وخشيته وحده ويأمرون بطاعتهم كما قال تعالى : (ومن يُطِع اللهَ ورَسو لَهُ ويَخْشَ اللهَ و يتَّقْه فاولئِـكَ هُمُ الفَائزونَ)[4] وقال نوح (اعْبُدوا اللهَ و اتقُوه وأَطيعُون) وقال في الشعراء:(فاتَّقوا اللهَ واطيعون) وكذلك قال هود وصالح ولوط وشعيب

والناس محتاجون الى الايمان بالرسول صلى الله عليه وسلم فطاعته في كل زمان ومكان ليلا ونهارا سفرا وحضرا سرا وعلانية جماعة وفرادى وهم أحوج الى ذلك من الطعام والشراب بل من النفس فانهم متى فقدوا ذلك فالنار جزاء من كذب بالرسول وتولى عن طاعته كما قال تعالى (فأَنذَرْتكُم ناراً تلَظّى.لا يصْلاها إلاّ الأَشقى الّذي كـذَّب وتـولّى) أي كذب بما أخبر به وتولى عن طاعته كما قال تعالى في موضع آخر: (فـلا صـدّق ولا صلّى . ولـكِنْ كذَّبَ وتولّى)أي كذب بما أخبر به وتولى عن طاعته وقال تعـالى : (إنا أَرسلْنا اليْكُم رسولاً شاهِداً عليْكم كما أَرْسلْنا إلى فرعونَ رسولا فعَصى فرْعونُ الرّسولَ فأَخذْناهُ أَخذاً وبيلاً)[5] وقال: (فكَيف إذا جئْنا منْ كُل أُمة بشَهيدٍ وجئْنا بكَ علىَ هؤُلاءِ شَهيداً. يوْمئذٍ يودُّ الذين كفَروا وعصَوا الرّسـولَ لَوْ تُسوّى بِهمُ الأَرضُ ولا يكْتُمونَ اللهَ حـديثاً)[6]

والله تعالى قد سماه سراجا منيرا وسمى الشمس سراجا وهاجا ، والناس الى

---

(١) النساء : ٦٥ (٢) النور : ٦٣ (٣) النساء ، ٦٩ ، ٧٠ (٤) النور : ٥٢ (٥) المزمل : ١٥ (٦) النساء : ٤١ ، ٤٢

السراج المنير أحوج منهم الى السراج الوهاج ، فانهم يحتاجون اليه ليلا ونهارا سرا وعلانية ، وهو أنفع لهم ، فانه منير ليس فيه أذى ، بخلاف الوهاج فانه ينفع تارة ويضر أخرى ، ولما كانت حاجة الناس الى الرسول صلى الله عليه وسلم والايمان به وطاعته ومحبته وموالاته وتعظيمه وتعزيره وتوقيره عامة في كل مكان وزمان كان مايؤمر به من حقوقه عاما لايختص بقبره ، فمن خص قبره بشيء من الحقوق كان جاهلا بقدر الرسول صلى الله عليه وسلم وقدر ماأمر الله به من حقوقه ، وكل من اشتغل بما أمر الله به من طاعته شغله عما نهى عنه من البدع المتعلقة بقبره وقبر غيره، ومن اشتغل بالبدع المنهي عنها ترك ماأمر به الرسول صلى الله عليه وسلم من حقه ، فطاعته هي مناط السعادة والنجاة ، والذين يحجون الى القبور ويدعون الموتى من الانبياء وغيرهم عصوا الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأشركوا بالرب ، ففاتهم ماأمروا به من تحقيق التوحيد ، والايمان بالرسول صلى الله عليه وسلم ، وهو تحقيق شهادة أن لا اله الا الله ، وأن محمدا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وجميع الخلق يأتون يوم القيامة فيسألون عن هذين الأصلين : ماذا كنتم تعبدون ؟ وماذا أجبتم المرسلين ؟ كما بسط هذا في موضعه .

والمقصود : أن الصحابة كانوا في زمن الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم أجمعين يدخلون المسجد ، ويصلون فيه الصلوات الخمس ، ويصلون على النبي صلى الله عليه وسلم ويسلمون عليه عند دخول المسجد وبعد دخوله ، ولم يكونوا يذهبون ويقفون الى جانب الحجرة ويسلمون عليه هناك ، وكان على عهد الخلفاء الراشدين والصحابة حجرته خارجة عن المسجد ، ولم يكن بينهم وبينه الا الجدار ، ثم إنه انما أدخلت الحجرة في المسجد في خلافة الوليد بن عبد الملك بعد موت عامة الصحابة الذين كانوا بالمدينة ، وكان من آخرهم موتا جابر بن عبد الله ، وتوفي في خلافة عبد الملك ، فانه توفي سنة ثمان وسبعين ، والوليد تولى سنة ست وثمانين وتوفي سنة ست وتسعين فكان بناء المسجد وادخال الحجرة فيه فيما بين ذلك ، وقد ذكر أبو زيد عمر بن شبه النميري في كتاب أخبار المدينة ــ مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ــ عن أشياخه وعمن حدثوا عنه أن عمر بن عبد العزيز لما كان نائبا للوليد على المدينة في سنة احدى وتسعين هدم المسجد وبناه بالحجارة المنقوشة ، وعمل سقفه بالساج وماء الذهب ، وهدم حجرات أزواج النبي صلى الله عليه وسلم فأدخلها في المسجد ، وأدخل القبر فيه .

ثم ذكر الشيخ الآثار المروية في عمارة عمر بن عبد العزيز المسجد وزيادته فيه ، وذكر أن حكم الزيادة حكم المزيد ، فقال : وقد جاءت الآثار بأن حكم الزيادة في مسجده حكم المزيد ، تضعف فيه الصلاة بألف صلاة ، كما أن المسجد الحرام حكم الزيادة فيه حكم المزيد ، فيجوز الطواف فيه والطواف لا يكون الا في المسجد لا خارجا منه ، ولهذا اتفق الصحابة على أنهم يصلون في الصف الاول من الزيادة التي زادها عمر ثم عثمان ، وعلى ذلك عمل المسلمين كلهم ، فلولا أن حكمه حكم مسجده لكانت تلك صلاة في غير مسجده ، والصحابة وسائر المسلمين بعدهم لايحافظون على العدول عن مسجده الى غير مسجده ويأمرون بذلك ، قال أبو زيد : حدثني محمد بن يحيى ، حدثني من أثق به أن عمر زاد في المسجد من القبلة الى موضع المقصورة التي هي به اليوم ، قال ، فأما الذي لايشك فيه أهل بلدنا أن عثمان هو الذي وضع القبلة في موضعها اليوم ثم لم تغير بعد ذلك .

قال أبو زيد : حدثنا محمد بن يحيى عن محمد عن عثمان عن مصعب بن ثابت عن خباب أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ــ وهو يوما في مصلاه ــ لو زدنا في مسجدنا وأشار بيده نحو القبلة ، حدثنا محمد بن يحيى ، عن محمد بن اسمعيل ، عن ابن أبي ذئب ، قال : قال عمر : لو مد مسجد النبي صلى الله عليه وسلم لكان منه حدثنا محمد بن يحيى ، عن سعد بن سعيد ، عن أخيه عن أبيه عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو بني هذا المسجد الى صنعاء لكان مسجدي ، فكان أبو هريرة يقول : والله لو مد هذا المسجد الى داري ماعدوت أن أصلي فيه ، حدثنا عبد العزيز بن عمران ، عن فليح بن سليمان ، عن ابن أبي عمرة ، قال : زاد عمر في المسجد في شاميه ، ثم قال : لو زدنا فيه حتى يبلغ الجبانة كان مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : وهذا الذي جاءت به الآثار هو الذي يدل عليه كلام الأئمة المتقدمين وعملهم ، فانهم قالوا ان الصلاة الفرض خلف الامام أفضل ، وهذا الذي قالوه هو الذي جاءت به السنة ، وكذلك كان الامر على عهد عمر وعثمان ، فان كليهما زاد من قبلي المسجد ، فكان مقامه في الصلاة الخمس في الزيادة ، وكذلك مقام الصف الاول الذي هو أفضل مايقام فيه بالسنة والاجماع ، واذا كان كذلك فيمتنع أن تكون الصلاة في غير مسجده أفضل منها في مسجده ، وأن يكون الخلفاء والصفوف الاول كانوا يصلون في غير مسجده ، وما بلغني عن أحد من السلف خلاف هذا ، لكن رأيت بعض المتأخرين قد ذكر أن الزيادة ليست من مسجده ، وما علمت

لمن ذكر ذلك سلفا من العلماء ، قال : وهذه الامور نبهنا عليها ههنا ، فانه يحتاج الى معرفتها ، وأكثر الناس لايعرفون الامر كيف كان ، ولا حكم الله ورسوله في كثير من ذلك •

وكان من المقصود أن المسجد لما زاد فيه الوليد وأدخلت فيه الحجرة كان قد مات عامة الصحابة ، ولم يبق الا من أدرك النبي صلى الله عليه وسلم ، ولم يبلغ من التمييز الذي يؤمر فيه بالطهارة والصلاة ، ومن المعلوم بالتواتر أن ذلك كان في خلافة الوليد بن عبد الملك ، وقد ذكروا أن ذلك كان سنة احدى وتسعين ، وأن عمر بن عبد العزيز مكث في بنائه ثلاث سنين ، وسنة ثلاث وتسعين مات فيها خلق كثير من التابعين ، مثل سعيد بن المسيب وغيره من الفقهاء السبعة ــ ويقال لها سنة الفقهاء ــ وجابر بن عبد الله ، وكان من السابقين الاولين ممن بايع بالعقبة تحت الشجرة ، ولم يكن بقي من هؤلاء غيره لما مات ، وذلك قبل تغيير المسجد بسنين ، ولم يبق بعده ممن كان بالغا حين موت النبي صلى الله عليه وسلم الا سهل بن سعد الساعدي ، فانه توفي سنة ثمان وثمانين ، وقيل سنة احدى وتسعين ، ولهذا قيل فيه أنه آخر من مات بالمدينة من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كما قاله أبو حاتم البستي وغيره •

وأما من مات بعد ذلك فكانوا صغارا : مثل السائب بن زيد الكندي ابن أخت نمر ، فانه مات بالمدينة سنة احدى وتسعين ، وقيل انه مات بعده عبد الله بن طلحة الذي حنكه النبي صلى الله عليه وسلم ، وكذلك محمود بن الربيع الذي عقل مجة مجها رسول الله صلى الله عليه وسلم في وجهه من بئر كانت في دارهم وله خمس سنين ، مات سنة تسع وتسعين وله ثلاث وتسعون سنة ، وأبو أمامة بن سهل بن حنيف سماه النبي صلى الله عليه وسلم أسعد باسم أسعد بن زرارة ، مات سنة مائة، لكن هؤلاء لم يكن لهم في حياته من التمييز ماينقلون عنه أقواله وأفعاله التي ينقلها الصحابة ، مثل ماينقلها جابر وسهل بن سعد وغيرهما •

وأما ابن عمر فكان قد مات قبل ذلك بعد قتل ابن الزبير بمكة سنة أربع وسبعين وابن عباس مات قبل ذلك بالطائف سنة ثمان وستين ، فهؤلاء وأمثالهم من الصحابة لم يدرك أحد منهم تغيير المسجد وادخال الحجرة فيه ، وأنس بن مالك كان بالبصرة ولم يكن بالمدينة ، وقيل إنه آخر من مات بها من الصحابة •

وكانت حجر أزواج النبي صلى الله عليه وسلم شرقي المسجد وقبليه ــ وقيل

وشاميه ــ فاشتريت من ملاكها ورثة أزواجه وزيدت في المسجد فدخلت حجرة عائشة، وكان الذي تولى ذلك عمر بن عبد العزيز نائب الوليد على المدينة ، فسد باب الحجرة وبنوا حائطا آخر عليها غير الحائط القديم ، فصار المسلم عليه من وراء الجدار أبعد من المسلم عليه لما كان جدارا واحدا •

قال هؤلاء : ولو كان سلام التحية الذي يرده على صاحبه مشروعا في المسجد لكان له حد ذراع أو ذراعان أو ثلاثة ، فلا يعرف الفرق بين المكان الذي يستحب فيه هذا والمكان الذي لايستحب • فان قيل : من سلم عليه عند الحائط الغربي رد عليه ، قيل : وكذلك من كان خارج المسجد والا فما الفرق حينئذ ، فيلزم أن يرد على جميع أهل الارض ، وعلى كل مصل في صلاة ــ كما ظنه بعض الغالطين ــ ومعلوم بطلان ذلك ، وان قيل يختص بقدر بين المسلم وبين الحجرة ، قيل : فما حد ذلك ؟ وهم لهم قولان : منهم من يستحب القرب من الحجرة كما استحب ذلك مالك وغيره، ولكن يقال فما حد ذلك القرب ؟ واذا جعل له حد فهل يكون من خرج عن الحد فعل المستحب ؟! وآخرون من المتأخرين يستحبون التباعد عن الحجرة ، كما ذكر ذلك من ذكره من أصحاب أبي حنيفة والشافعي ، فهل هو بذراع أو باع أو أكثر ؟ وقدره من قدره من أصحاب أبي حنيفة بأربعة أذرع ، فانهم قالوا يكون حين يسلم عليه مستقبل القبلة ، ويجعل الحجرة عن يساره ، ولا يدنوا أكثر من ذلك ، وهذا والله أعلم قاله المتقدمون ، لأن المقصود به السلام المأمور به في القرآن كالصلاة عليه ، ليس المقصود به سلام التحية الذي يرد جوابه المسلم عليه ، فان هذا لايشرع فيه هذا البعد ، ولا يستقبل به القبلة ، ولا يسمع اذا كان بالصوت المعتاد •

وبالجملة : فمن قال إنه يسلم سلام التحية الذي يقصد به الرد فلا بد من تحديد مكان ذلك ، فان قال الى أن يسمع ويرد السلام فان حد في ذلك ذراعا أو ذراعين أو عشرة أذرع أو قال ان ذلك في المسجد كله أو خارج المسجد فلا بد له من دليل ، والاحاديث الثابتة عنه فيها أن الملائكة يبلغونه صلاة من صلى عليه وسلام من يسلم عليه ، ليس في شيء منها أنه يسمع بنفسه ذلك ، فمن زعم أنه يسمع ويرد من خارج الحجرة من مكان دون مكان فلا بد له من حد ، ومعلوم أنه ليس في ذلك حد شرعي وما أحد يحد في ذلك حدا الا عورض بمن يزيده أو ينقصه ولا فرق •

وأيضا فذلك يختلف باختلاف ارتفاع الاصوات وانخفاضها ، والسنة للمسلم

في السلام عليه خفض الصوت ، ورفع الصوت في مسجده منهى عنه بالسلام والصلاة وغير ذلك ؛ بخلاف المسلم من الحجرة ، فانه فرق ظاهر بينه وبين المسلم عليه من المسجد ، ثم السنة لمن دخل مسجده أن يخفض صوته ، فالمسلم عليه ان رفع الصوت أساء الادب برفع الصوت في المسجد ، وان لم يرفع لم يصل الصوت الى داخل الحجرة ، وهذا بخلاف السلام الذي أمر الله به ورسوله ، الذي يسلم الله على صاحبه كما يصلي على من صلى عليه ، فان هذا مشروع في كل مكان لايختص بالقبر .

وبالجملة : فهذا الموضع فيه نزاع قديم بين العلماء على كل تقدير ، فلم يكن عند أحد من العلماء الذين استحبوا سلام التحية في المسجد حديث في استحباب زيارة قبره يحتجون به ، فعلم أن هذه الاحاديث ليست مما يعرفه أهل العلم ، ولهذا لما تتبعت وجدت رواتها اما كذاب واما ضعيف سيء الحفظ ونحو ذلك كما قد بين في غير هذا الموضع ، وهذا الحديث الذي فيه (ما من مسلم يسلم علي الا رد الله علي روحي حتى أرد عليه السلام) قد احتج به أحمد وغيره من العلماء ، وقيل هو على شرط مسلم ، وهو معروف من حديث حيوة بن شريح المصري الرجل الصالح الثقة ، عن أبي صخر ، عن يزيد ابن عبد الله بن قسيط ، عن أبي هريرة ، وأبو صخر هذا متوسط ، ولهذا اختلف فيه عن يحيى بن معين ، فمرة قال هو ضعيف ووافقه النسائي ومرة قال لابأس به ووافقه أحمد ، فلو قدر أن هذا مخالف لما هو أصح منه وجب تقديم ذاك عليه ، ولكن السلام على الميت ورده السلام على من سلم عليه قد جاء في غير هذا الحديث ، ولو أريد اثبات سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم بمثل هذا الحديث لكان هذا مختلفا فيه ، فالنزاع في اسناده وفي دلالة متنه ، ومسلم روى بهذا الاسناد قوله صلى الله عليه وسلم : (من خرج مع جنازة من بيتها وصلى عليها ثم تبعها حتى تدفن كان له قيراطان من الاجر كل قيراط مثل أحد ، ومن صلى عليها ثم رجع كان له من الاجر مثل أحد) وهذا الحديث قد رواه البخاري ومسلم وغيرهما من حديث أبي هريرة وعائشة من غير هذا الطريق ، ومسلم قد يروى عن الرجل في المتابعات مالا يرويه فيما انفرد به ، وهذا معروف منه في عدة رجال ، يفرق بين من يروى عنه ماهو معروف من رواية غيره وبين من يعتمد عليه فيما ينفرد به ، ولهذا كثير من أهل العلم يمتنعون أن يقولوا في مثل ذلك هو على شرط مسلم أو البخاري ، كما بسط هذا في موضعه .

(الوجه الثامن) أنه لو كان في هذا الباب حديث صحيح لم يخف على الصحابة والتابعين بالمدينة ، ولو كان ذلك معروفا عندهم لم يكره أهل العلم بالمدينة مالك وغيره أن يقول القائل زرت قبر النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما كرهوا هذا القول دل على أنه ليس عندهم فيه أثر لا عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ولا عن أصحابه .

(الوجه التاسع) ان الذين كرهوا هذا القول والذين لم يكرهوه من العلماء متفقون على أن السفر الى زيارة قبره انما هو سفر الى مسجده ، ولو لم يقصد الا السفر الى القبر لم يمكنه أن يسافر الا الى المسجد ، لكن قد يختلف الحكم بنيته كما تقدم ، وأما زيارة قبره — كما هو المعروف في زيارة القبور — فهذا ممتنع غير مقدور ولا مشروع ، وبهذا يظهر أن الذين كرهوا أن يسموا هذا زيارة لقبره قولهم أولى بالصواب ، فان هذا ليس زيارة لقبره ولا فيه مايختص بالقبر ، بل كل مايفعل فانما هو عبادة يفعل في المساجد كلها أو في غير المساجد أيضا ، ومعلوم أن زيارة القبر لها اختصاص بالقبر ، ولما كانت زيارة قبره المشروعة انما هي سفر الى مسجده وعبادة في مسجده ليس فيها مايختص بالقبر كان قول من كره أن يسمى هذا زيارة لقبره أولى بالشرع والعقل واللغة ، ولم يبق الا السفر الى مسجده ، وهذا مشروع بالنص والاجماع ، والذين قالوا يستحب زيارة قبره انما أرادوا هذا ، فليس بين العلماء خلاف في المعنى بل في التسمية والاطلاق ، والمجيب لم يحك نزاعا في استحباب هذه الزيارة الشرعية التي تكون في مسجده ، وبعضهم يسميها زيارة لقبره ، وبعضهم يكره أن تسمى زيارة لقبره ، والمجيب يستحب مايستحب بالنص والاجماع ، وقد ذكر مافيه النزاع ، فكان الحاكي عنه خلاف هذا كاذبا مفتريا يستحق مايستحقه أمثاله من المفترين .

(قال المعترض المالكي) وتضافرت النصوص عن الصحابة والتابعين ، وعن السادة العلماء المجتهدين ، بالحض على ذلك والندب اليه ، والغبطة لمن سارع لذلك ودوام عليه ، حتى نحا بعضهم في ذلك الى الوجوب ، ورفعه عن درجة المباح والمندوب ، ولم يزل الناس مطبقين على ذلك قولا وعملا ، لايشكون في ندبه ولا يبغون عنه حولا ، وفي مسند ابن أبي شيبة (من صلى علي عند قبري سمعته ، ومن صلى علي نائيا سمعته) .

(قال الشيخ) هكذا في النسخة التي حضرت الي مكتوبة عن المعترض ، وقد صحح (ومن صلى علي نائيا سمعته)وهو غلط ، فانلفظ الحديث (من صلى عليعند قبري سمعته ، ومن صلى علي نائيا بلغته) هكذا ذكره الناس ، وهكذا ذكره القاضي عياض عن ابن أبي شيبة ، وهذا المعترض عمدته في مثل هذا كتاب القاضي عياض ، وهذا الحديث قد رواه البيهقي وغيره من حديث العلاء بن عمرو الحنفي ، حدثنا أبو عبد الرحمن عن الاعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، قال : (من صلى علي عند قبري سمعته ، ومن صلى علي نائيا بلغته) قال البيهقي أبو عبد الرحمن هذا هو محمد بن مروان السدي فيما أرى وفيه نظر . وقد مضى مايؤكده .

قلت : هو تبليغ صلاة أمته وسلامهم عليه ، كما في الاحاديث المعروفة ، مثل الحديث الذي في سنن أبي داود وغيره عن حسين الجعفي ، حدثنا عبد الرحمن بن يزيد بن جابر ، عن أبي الاشعث الصنعاني ، عن أوس ابن أوس الثقفي ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (أفضل أيامكم يوم الجمعة ، فيه خلق آدم وفيه قبض ، وفيه النفخة ، وفيه الصعقة ، فأكثروا علي من الصلاة فيه ، فان صلاتكم معروضة علي ، قالوا وكيف تعرض صلاتنا عليك وقد أرمت ــ يقولون بليت ــ فقال: ان الله حرم على الارض أن تأكل أجساد الانبياء) وهذا الحديث رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه ، ورواه أبو حاتم ، قال البيهقي : وله شواهد ، وروى حديثين عن ابن مسعود وأبي أمامة وله شواهد أكثر مما ذكر البيهقي .

(منها) مارواه ابن ماجة ، حدثنا عمرو بن سواد المصري ، حدثنا عبد الله بن وهب ، عن عمرو بنالحار ث ، عن سعيد ابن أبي هلال ، عن زيد بن أيمن ، عن عبادة بن نسي ، عن أبي الدرداء رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أكثروا علي من الصلاة يوم الجمعة ، فانه مشهود تشهده الملائكة ، وان أحدا لن يصلي علي الا عرضت علي صلاته حتى يفرغ منها ، قال قلت وبعد الموت ، قال وبعد الموت ، ان الله حرم على الارض أن تأكل أجساد الانبياء) ورواه أبو جعفر محمد بن جرير الطبري في تهذيب الآثار من حديث سعيد بن أبي هلال كما تقدم .

(ومنها) مارواه أبو داود وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى

الله عليه وسلم أنه قال : (لاتجعلوا بيوتكم قبورا ، ولا تجعلوا قبري عيدا ، وصلوا علي فان صلاتكم تبلغني حيث كنتم) وهذا له شواهد مراسيل من وجوه مختلفة يصدق بعضها بعضها .

(ومنها) مارواه سعيد بن منصور في سننه : حدثنا حبان بن علي ، حدثنا محمد بن عجلان عن أبي سعيد مولى المهري ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لاتتخذوا بيتي عيدا ولا بيوتكم قبورا ، وصلوا علي حيث كنتم فان صلاتكم تبلغني) وقال سعيد : حدثنا عبد العزيز بن محمد ، أخبرني سهيل ابن أبي سهيل ، قال : رآني الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب عند القبر فناداني — وهو في بيت فاطمة يتعشى — فقال : هلم الى العشاء ، فقلت : لاأريده ،فقال : مالي رأيتك عند القبر ؟ فقلت :سلمت على النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : اذا دخلت المسجد فسلم عليه ، ثم قال : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (لاتتخذوا بيتي عيدا ، ولا بيوتكم مقابر ، لعن الله اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ، وصلوا علي فان صلاتكم تبلغني حيثما كنتم ، ماأنتم ومن بالاندلس منه الا سواء) ورواه اسمعيل بن اسحق القاضي في كتاب فضل الصلاة على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولفظه قال : مالي رأيتك وقفت ؟ قلت : وقفت أسلم على النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : اذا دخلت المسجد فسلم وذكر الحديث ولم يذكر قول الحسن ، وقال اسمعيل : حدثنا ابراهيم بن الحجاج عن وهيب عن أيوب السختياني قال : بلغني والله أعلم أن ملكا موكل بكل من صلى على النبي صلى الله عليه وسلم حتى يبلغه .

وأما السلام : ففي النسائي وغيره من حديث سفيان الثوري ، عن عبد الله ابن السائب ، عن زاذان ، عن عبد الله بن مسعود ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : (ان لله ملائكة سياحين يبلغوني عن أمتي السلام) وفي الحديث الذي تقدم من رواية أبي يعلي الموصلي — وقد تقدم اسناده — عن علي بن الحسين ، أنه رأى رجلا يجيء الى فرجة كانت عند قبر النبي صلى الله عليه وسلم فيدخل فيها فنهاه ، وقال : ألا أحدثكم حديثا سمعته من أبي عن جدي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (لاتتخذوا بيتي عيدا ولا بيوتكم قبورا فان تسليمكم يبلغني أينما كنتم) فهذه الاحاديث المعروفة عند أهل العلم التي جاءت من وجوه حسان يصدق بعضها بعضا ، وهي متفقة على أن من صلى عليه وسلم من أمته فان ذلك يبلغه ويعرض عليه،

وليس في شيء منها أنه يسمع صوت المصلى عليه والمسلم بنفسه ، انما فيها أن ذلك يعرض عليه ويبلغه صلى الله عليه وسلم تسليما .

ومعلوم أنه أراد بذلك الصلاة والسلام الذي أمر الله به ، سواء صلى عليه وسلم في مسجده أو مدينته أو مكان آخر ، فعلم أن ماأمر الله به من ذلك فانه يبلغه . وأما من سلم عليه عند قبره فانه يرد عليه ، وذلك كالسلام على سائر المؤمنين ، ليس هو من خصائصه ، ولا هو السلام المأمور به الذي يسلم الله على صاحبه عشرا كما يصلي على من صلى عليه عشرا ، فان هذا هو الذي أمر الله به في القرآن ، وهو لايختص بمكان دون مكان وقد تقدم حديث أبي هريرة أنه يرد السلام على من سلم عليه ، والمراد عند قبره ، لكن النزاع في معنى كونه عند القبر هل المراد في بيته كما يراد مثل ذلك في سائر ماأخبر به من سماع الموتى انما هو لمن كان عند قبورهم قريبا منها ، أو يراد به من كان في الحجرة كما قاله طائفة من السلف والخلف ؟ وهل يستحب ذلك عند الحجرة لمن قدم من سفر أو لمن أراده من أهل المدينة أو لايستحب بحال ؟ وليس الاعتماد في سماعه مايبلغه من صلاة أمته وسلامهم الا على هذه الاحاديث الثابتة . فأما ذاك الحديث وان كان معناه صحيحا فاسناده لايحتج به وانما يثبت معناه بأحاديث أخر ، فانه لايعرف الا من حديث محمد بن مروان السدي الصغير ، عن الاعمش ، كما ظنه البيهقي ، وما ظنه في هذا هو متفق عليه عند أهل المعرفة ، وهو عندهم موضوع على الاعمش . قال عباس الدوري عن يحيى بن معين محمد بن مروان ليس بثقة . وقال البخاري سكتوا عنه لايكتب حديثه البتة . وقال الجوزجاني ذاهب الحديث ، وقال النسائي متروك الحديث ، وقال صالح جزرة كان يضع الحديث ، وقال أبو حاتم الرازي والازدي متروك الحديث ، وقال الدارقطني ضعيف ، وقال ابن حبان لايحل كتب حديثه الا اعتبارا ولا الاحتجاج به بحال ، وقال ابن عدي عامة مايرويه غير محفوظ والضعف على رواياته بين ، فهذا الكلام على ماذكره من الحديث مع أنا قد بينا صحة معناه بأحاديث أخر ، وهو لو كان صحيحا فانما فيه أنه يبلغ صلاة من صلى نائيا ، ليس فيه أنه يسمع ذلك كما قد وجدته منقولا عن هذا المعترض فان هذا لم يقله أحد من أهل العلم ولا يعرف في شيء من الحديث ، انما يقوله بعض الجهال ، يقولون انه يوم الجمعة وليلة الجمعة يسمع باذنيه صلاة من صلى عليه

فالقول بأنه يسمع ذلك من نفس المصلي باطل ، وانما في الاحاديث المعروفة أنه يبلغ ذلك ويعرض عليه ، وكذلك تبلغه الملائكة •

وقول القائل أنه يسمع الصلاة من بعيد ممتنع فانه ان أراد وصول صوت المصلي اليه فهذه مكابرة ، وان أراد أنه بحيث يسمع أصوات الخلائق من البعد فليس هذا الا لله رب العالمين الذي يسمع أصوات العباد كلهم ، قال تعالى : (أَمْ يَحسبُونَ أَنّا لا نسْمَعُ سِرَّهم ونَجواهم بلى ورُسُلُنا لديهم يَكتبُونَ)[1] وقال (ما يكونُ منْ نَجْوى ثلاثةٍ إلاّ هو رابعُهُم) الى قوله :(ولا أَكثر إلاّ هوَ معهم أينما كانوا) الى قوله (إنَّ اللهَ بكُلِّ شيءٍ عليم)[2] وليس أحد من البشر بل ولا من الخلق يسمع أصوات العباد كلهم ، ومن قال هذا في بشر فقوله من جنس قول النصارى الذين يقولون ان المسيح هو الله ، وأنه يعلم مايفعله العباد ، ويسمع أصواتهم ويجيب دعائهم ، قال تعالى : (لقَدْ كفَرَ الذينَ قالوا إنَّ الله هوالمسيحُ ابْنُ مريمَ وقال المسيحُ يا بَني إسرائيل اعبُدوا اللهَ ربيّ وربّكم إنهُ منْ يُشرِكْ باللهِ فقدْ حرَّمَ اللهُ عليْهِ الجنَّةَ ومأْواهُ النّارُ وما للظّالمينَ من أَنصار . لقَدْ كفَرَ الذينَ قالوا إنّ اللهَ ثالثُ ثلاثةٍ وما منْ إلهٍ إلاّ إلهٌ واحدٌ وإنْ لمْ ينتَهوا عمّا يقولون ليَمَسَّنَّ الّذينَ كفَروا منهُم عذابٌ أَليم . أَفلا يتوبونَ الى اللهِ ويستَغْفرونَهُ واللهُ غفورٌ رحيمٌ . ما المسيح ابنُ مريمَ إلاّ رسولٌ قدْ خلَت منْ قبْلِه الرّسلُ وأمّهُ صدّيقةٌ كانا يأكُلان الطّعامَ ، انظُرْ كيفَ نُبيِّنُ لَهُم الآياتِ ثُمَّ انظُر أنّى يؤفَكونَ . قُل أَتعبُدونَ منْ دونِ اللهِ ما لا يَمْلكُ لكُم ضَراً ولا نفْعاً واللهُ هوَ السَّميعُ العليم)[3] فلا المسيح ولا غيره من البشر ولا أحد من الخلق يملك لأحد من الخلق ضرا ولا نفعا بل ولا لنفسه ، وان كان أفضل الخلق ، قال تعالى : (قل انيّ لا أَملكُ لكُم ضَراً ولا رَشَداً وقال تعالى (قُلْ لا أَقولُ لكُم عندي خزائنُ اللَّهِ ولا أَعلَمُ الغيْب)[4] الآية

---

(١) الزخرف : ٨٠ (٢) المجادلة : ٧ (٣) المائدة : ٧٢ ــ ٧٦ (٤) الانعام : ٥٠

وقال تعالى (قُل لا أَملِكُ لنَفسي نفْعاً ولاضراً إِلاَّ ماشاءالله ولوْ كُنتُ أَعلَمُ الغَيب لَاستَكثَرتُ منَ الخَيْرِ وما مسَّني السُّوءُ انْ أنا الاَّ نذيرٌ وبشيرٌ لقومٍ يُؤمنون)[1]

وقوله : (إلا ماشاء الله) فيه قولان : قيل : هو استثناء متصل ، وأنه يملك من ذلك ما ملكه الله ، وقيل : هو منقطع والمخلوق لايملك لنفسه نفعا ولا ضرا بحال فقوله : (الا ماشاء الله) استثناء منقطع ، أي لكن يكون من ذلك ماشاء الله ، كقول الخليل (ولا أَخافُ ما تُشركون به الاَّ أنْ يشاء ربي شيْئاً)[2] أي لاأخاف أن يفعلوا شيئا لكن ان شاء ربي شيئا كان والا لم يكن والا فهم لايفعلون شيئا وكذلك قوله : (ولايملكُ الذينَ يَدْعُونَ منْ دونهِ الشَّفاعة ، ثم قال(الا منْ شهدَ بالحقِّ وهم يعلَمون)[3] تنفعه الشهادة وتنفع شهاداته ، كقوله : (ولا تَنفعُ الشَّفاعةُ عندَهُ الاَّ لمنْ أذِنَ لهُ)[4] وقال (قُل لِلَّه الشَّفاعةُ جميعاً)[5] وبسط هذا له موضع آخر •

قال الشيخ : وأما ماذكره من تضافر النقول عن السلف بالحض على ذلك واطباق الناس عليه قولا وعملا •

فيقال : الذي اتفق عليه السلف والخلف وجاءت به الاحاديث الصحيحة هو السفر الى مسجده ، والصلاة والسلام عليه في مسجده ، وطلب الوسيلة له ، وغير ذلك مما أمر الله به ورسوله ، فهذا السفر مشروع باتفاق المسلمين سلفهم وخلفهم ، وهذا هو مراد العلماء الذين قالوا يستحب السفر الى زيارة قبر نبينا صلى الله عليه وسلم ، فان مرادهم بالسفر لزيارته هو السفر الى مسجده ، وذكروا في منسك الحج أنه يستحب زيارة قبره ، وهذا هو مراد من ذكر الاجماع على ذلك ، كما ذكر القاضي عياض •

قال : وزيارة قبره سنة مجمع عليها ، وفضيلة مرغب فيها ، فمرادهم الزيارة التي بينوها وشرحوها كما ذكر ذلك القاضي عياض في هذا الفصل فصل زيارته ، قال : وقال اسحق بن ابراهيم الفقيه : ومما لم يزل شأن من حج المرور بالمدينة والقصد الى الصلاة في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم ، والتبرك برؤية روضته ومنبره ، وقبره ومجلسه ، وملامس يديه ومواطيء قدميه ، والعمود الذي كان يستند اليه ، ونزل

---

(١) الاعراف : ١٨٨ (٢) الانعام : ٨٠ (٣) الزخرف : ٨٦ (٤)سبأ : ٢٣ (٥) الزمر : ٤٤

جبريل بالوحي عليه فيه ، وبمن عمره وقصده من الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين ، والاعتبار بذلك كله .

قلت وذلك أن لفظ زيارة قبره ليس المراد بها نظير المراد بزيارة قبر غيره ، يوصل اليه ويجلس عنده ، ويتمكن الزائر مما يفعله الزائرون للقبور عندها من سنة وبدعة ، وأما هو صلى الله عليه وسلم فلا سبيل لأحد أن يصل الا الى مسجده لايدخل أحد بيته ، ولا يصل الى قبره ، بل دفنوه في بيته ، بخلاف غيره فانهم دفنوه في الصحراء ، كما في الصحيحين عن عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في مرض موته : (لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ، يحذر مافعلوا : قالت عائشة : ولولا ذلك لأبرز قبره ، ولكن كره أن يتخذ مسجدا) فدفن في بيته لئلا يتخذ قبره مسجدا ولا وثنا ولا عيدا ، فان في سنن أبي داود من حديث أحمد بن صالح عن عبد الله ابن نافع ، أخبرني ابن أبي ذئب ، عن سعيد المقبري ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : (لاتجعلوا بيوتكم قبورا ، ولا تجعلوا قبري عيدا ، وصلوا علي فان صلاتكم تبلغني حيث كنتم) وفي الموطأ وغيره عنه أنه قال : (اللهم لاتجعل قبري وثنا يعبد ، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) وفي صحيح مسلم عنه أنه قال قبل أن يموت بخمس : (إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد ، فاني أنهاكم عن ذلك) فلما لعن من يتخذ القبور مساجد تحذيرا لأمته من ذلك ونهاهم عن ذلك ونهاهم أن يتخذوا قبره عيدا دفن في حجرته لئلا يتمكن أحد من ذلك ، وكانت عائشة ساكنة فيها فلم يكن في حياتها أحد يدخل لذلك ، إنما يدخلون اليها هي ، ولما توفيت لم يبق بها أحد ، ثم لما أدخلت في المسجد سدت وبنى الجدار البراني عليها ، فما بقي أحد يتمكن من زيارة قبره كالزيارة المعروفة عند قبر غيره ، سواء كانت سنية أو بدعية ، بل إنما يصل الناس الى مسجده .

ولم يكن السلف يطلقون على هذا زيارة لقبره ، ولا يعرف عن أحد من الصحابة لفظ زيارة قبره البتة ، ولم يتكلموا بذلك ، وكذلك عامة التابعين لايعرف هذا في كلامهم ، فان هذا المعنى ممتنع عندهم فلا يعبروا عن وجوده وهو قد نهى عن اتخاذ بيته وقبره عيدا ، وسأل الله تعالى أن لايجعل وثنا ، ونهى عن اتخاذ القبور مساجد ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : (اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) ولهذا كره مالك وغيره أن يقال زرنا قبر النبي صلى الله عليه

وسلم ، ولو كان السلف ينطقون بهذا لم يكرهه مالك وقد باشر التابعين بالمدينة ، وهو أعلم الناس بمثل ذلك .

ولو كان في هذا حديث معروف عن النبي صلى الله عليه وسلم لعرفه هؤلاء ، ولم يكره مالك وأمثاله من علماء المدينة الاخبار بلفظ تكلم به الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقد كان رضي اللهعنه يتحرى ألفاظ الرسول في الحديث فكيف يكره النطق بلفظه ، لكن طائفة من العلماء سموا هذا زيارة لقبره وهم لايخالفون مالكا ومن معه في المعنى ، بل الذي يستحبه أولئك من الصلاة والسلام وطلب الوسيلة ونحو ذلك في مسجده يستحبه هؤلاء ، لكن هؤلاء سموا هذا زيارة لقبره وأولئك كرهوا أن يسمواهذازيارةلقبره ، وقدحدثمن بعض المتأخرين في ذلكبدع لم يستحبها أحد من الأئمة الاربعة ، كسؤاله الاستغفار ، وزاد بعض جهال العامة ماهو محرم أو كفر باجماع المسلمين كالسجود للحجرة والطواف بها وأمثال ذلك مما ليس هذا موضعه ، ومبدأ ذلك من الذين ظنوا أن هذا زيارة لقبره ، وظن هؤلاء أن الأنبياء والصالحين تزار قبورهم لدعائهم والطلب منهم واتخاذ قبورهم أوثانا ، حتى قد يفضلون تلك البقعة على المساجد ، وان بني عليها مسجد فضلوه على المساجد التي بنيت لله ، وحتى قد يفضلون الحج الى قبر من يعظمونه على الحج الى البيت العتيق، الى غير ذلك مما هو كفر وردة عن الاسلام باتفاق المسلمين .

فالذي تضافرت به النقول عن السلف قاطبة وأطبقت عليه الامة قولا وعملا هو السفر الى مسجده المجاور لقبره ، والقيام بما أمر الله به من حقوقه في مسجده ، كما يقام بذلك في غير مسجده ، لكن مسجده أفضل المساجد بعد المسجد الحرام عند الجمهور ، وقيل : إنه أفضل مطلقا كما نقل عن مالك وغيره ، ولم يتطابق السلف والخلف على اطلاق زيارة قبره ، ولا ورد بذلك حديث صحيح ولا نقل معروف عن أحد من الصحابة ، ولا كان الصحابة المقيمون بالمدينة من المهاجرين والانصار اذا دخلوا المسجد وخرجوا منه يجيئون الى القبر ويقفون عنده ويزورونه ، فهذا لم يعرف عن أحد من الصحابة ، وقد ذكر مالك وغيره أن هذا من البدع التي لم تنقل عن السلف وان هذا منهي عنه ، وهذا الذي قاله مالك مما يعرفه أهل العلم الذين لهم عناية بهذا الشأن ، يعرفون أن الصحابة لم يكونوا يزورون قبره لعلمهم بأنه قد نهى عن ذلك ، ولو كان قبره يزار كما تزار القبور قبور أهل البقيع والشهداء شهداء أحد لكان الصحابة يفعلون ذلك : إما بالدخول الى حجرته ، واما بالوقوف عند قبره

اذا دخلوا المسجد ، وهم لم يكونوا يفعلون لا هذا ولا هذا ، بل هذا من البدع كما بين ذلك أئمة العلم ، وهذا كما ذكره القاضي عياض ، وهو الذي قال : زيارة قبره سنة مجمع عليها ، وفضيلة مرغب فيها ، وهو في هذا الفصل ذكر عن مالك أنه كره أن يقال : زرنا قبر النبي صلى الله عليه وسلم ، وذكرفيه أيضا :قال مالك فيالمبسوط وليس يلزم من دخل المسجد وخرج منه من أهل المدينة الوقوف بالقبر وإنما ذلك للغرباء ، وقال مالك في المبسوط أيضا : ولا بأس لمن قدم من سفر أن يقف على قبر النبي صلى الله عليه وسلم ويدعو له ولأبي بكر وعمر ، قيل له : فان ناسا من أهل المدينة لايقدمون من سفر ولا يريدونه يفعلون ذلك في اليوم مرة أو أكثر وربما وقفوا في الجمعة أو الايام المرة والمرتين أو أكثر عند القبر فيسلمون ويدعون ساعة ، فقال : لم يبلغني هذا عن أهل الفقه ببلدنا وتركه واسع ، ولن يصلح آخر هذه الامة الا ماأصلح أولها ، ولم يبلغني عن أول هذه الامة وصدرها أنهم كانوا يفعلون ذلك ويكره الا لمن جاء من سفر أو أراده ، فقد بين مالك أنه لم يبلغه عن السلف من الصحابة المقيمين بالمدينة أنهم كانوا يقفون بالقبر عند دخول المسجد الا لمن قدم من سفر ، مع أن الذي يقصد السفر فيه نزاع مذكور في غير هذا الموضع .

وقد ذكر القاضي عياض عن أبي الوليد الباجي أنه احتج لما كرهه مالك ، فقال أهل المدينة مقيمون بها لم يقصدوها من أجل القبر والتسليم ، وقال صلى الله تعالى عليه وسلم : (اللهم لاتجعل قبري وثنا يعبد ، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) وقوله : (لاتتخذوا قبري عيدا) واذا كانت هذه الزيارة مما نهى عنها في الاحاديث فالصحابة أعلم بنهيه وأطوع له ، فلهذا لم يكن بالمدينة منهم من يزور قبره باتفاق العلماء ، وهذا الوقوف الذي يسميه غير مالك زيارة لقبره ــ الذي بين مالك وغيره أنه بدعة لم يفعلها السلف ــ هي زيارة مقصود صاحبها الصلاة والسلام عليه ، كما بين ذلك في السؤال لمالك ، لكن لما قال النبي صلى الله عليه وسلم : (لاتتخذوا قبري عيدا ، وصلوا علي حيثما كنتم فان صلاتكم تبلغني) وروى مثل ذلك في السلام عليه : علم أنه كره تخصيص تلك البقعة بالصلاة والسلام ، بل يصلى عليه ويسلم في جميع المواضع ، وذلك واصل اليه ، فاذا كان مثل هذه الزيارة للقبر بدعة منهيا عنها فكيف بمن يقصد مايقصده من قبور الانبياء والصالحين ليدعوهم ويستغيث بهم ليس قصده الدعاء لهم ، ومعلوم أن هذا أعظم في كونه بدعة وضلالة .

فالسلف والخلف إنما تطابقوا على زيارة قبره بالمعنى المجمع عليه من قصد

مسجده والصلاة فيه كما تقدم ، وهذا فرق بينه وبين سائر قبور الانبياء والصالحين، فانه يشرع السفر الى عند قبره لمسجده الذي أسس على التقوى ، فهذا السفر مشروع باتفاق المسلمين ، والصلاة مقصورة فيه باتفاق المسلمين ، ومن قال ان هذا السفر لاتقصر فيه الصلاة فانه يستتاب فان تاب والا قتل ، وليس ذلك سفرا لمجرد الزيارة بل لابد أن يقصد إتيان المسجد والصلاة فيه ، وإن لم يقصد الا القبر فهذا يندرج في كلام المجيب ، حيث قال : أما من سافر لمجرد زيارة قبور الانبياء والصالحين فهل يجوز له قصر الصلاة ؟ على قولين معروفين ، فهو ذكر القولين فيمن سافر لمجرد قصد زيارة القبور ، أما من سافر لقصد الصلاة في مسجده عند حجرته التي فيهاقبره فهذا سفر مشروع مستحب باتفاق المسلمين ، وقد تقدم قول مالك للسائل الذي سأله عمن نذر أن يأتي قبر النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : ان أراد مسجد النبي صلى الله عليه وسلم فليأته وليصل فيه ، وإن كان إنما أراد القبر فلا يفعل للحديث الذي جاء (لاتعمل المطي الا الى ثلاثة مساجد) فالسائل سأله عمن نذر أن يأتي الى قبر النبي صلى الله عليه وسلم ، ففصل مالك في الجواب بين أن يريد القبر أو المسجد مع أن اللفظ انما هو نذر أن يأتي القبر ، فعلم أن لفظ اتيان القبر وزيارة القبر ، والسفر الى القبر ونحو ذلك يتناول من يقصد المسجد وهذا مشروع ، ويتناول من لم يقصد إلا القبر وهذا منهى عنه كما دلت عليه النصوص وبينه العلماء مالك وغيره .

فمن نقل عن السلف أنهم استحبوا السفر لمجرد القبر دون المسجد بحيث لايقصد المسافر المسجد ولا الصلاة فيه بل إنما يقصد القبر كالصورة التي نهى عنها مالك : فهذا لايوجد في كلام أحد من علماء السلف استحباب ذلك فضلا عن اجماعهم عليه ، وهذا الموضع يجب على المسلمين عامة وعلمائهم تحقيقه ، ومعرفة ماهو المشروع والمأمور به الذي هو عبادة لله وحده ، وطاعة له ولرسوله صلى الله عليه وسلم ، وبر وتقوى وقيام بحق الرسول ، وما هو شرك وبدعة وضلالة منهى عنها ، لئلا يلتبس هذا بهذا ، فان السفر الى مسجد المدينة مشروع باتفاق المسلمين ، لكن إنما الاعمال بالنيات ، وانما لكل امريء مانوى ، وقد تقدم عن مالك وغيره أنه اذا نذر اتيان المدينة ان كان قصده الصلاة في المسجد وإلا لم يوف بنذره ، وأما اذا نذر اتيان المسجد لزمه ، لأنه انما يقصد الصلاة فلم يجعل السفر الى المدينة سفرا مأمورا به الا سفر من قصد الصلاة في المسجد ، وهو الذي يؤمر به الناذر بخلاف غيره ،

لقوله صلى الله تعالى عليه وسلم : (لاتشد الرحال الا الى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، ومسجدي هذا ، والمسجد الاقصى) وجعل من سافر الى المدينة أو الى بيت المقدس لغير العبادة الشرعية في المسجدين سفرامنهيا عنه لايجوز أن يفعله وان نذره ، وهذا قول جمهور العلماء .

فمن سافر الى مدينة الرسول أو بيت المقدس لقصد زيارة ما هناك من القبور أو من آثار الانبياء والصالحين كان سفره محرما عند مالك والاكثرين ، وقيل انه سفر مباح ليس بقربة كما قاله طائفة من أصحاب الشافعي وأحمد ، وهو قول ابن عبد البر ، وما علمنا أحدا من علماء المسلمين المجتهدين الذين تذكر أقوالهم في مسائل الاجماع والنزاع ذكر أن ذلك مستحب ، فدعوى من ادعى أن السفر الى مجرد القبور مستحب عند جميع علماء المسلمين كذب ظاهر ، وكذلك ان ادعى أن هذا قول الأئمة الاربعة أو جمهور علماء المسلمين فهو كذب بلا ريب ، وكذلك ان ادعى أن هذا قول عالم معروف من الائمة المجتهدين وان قال : هذا قول المتأخرين أمكن أن يصدق في ذلك وهو ــ بعد أن تعرف صحة نقله ــ نقل قولا شاذا مخالفا لاجماع السلف ، مخالفا لنصوص الرسول ،فكفى بقوله فسادا أن يكون قولا مبتدعا في الاسلام مخالفا للسنة والجماعة ، لما سنه الرسول صلى الله عليه وسلم ولما أجمع عليه سلف الامة وأئمتها .

والنقل عن علماء السلف يوافق ما قال، مالك ، فمن نقل عنهم ضد ذلك فقد كذب ، وأقل مافي الباب أن يجعل ممن طواب بصحة نقله والالفاظ المجملة والتي يقولها طائفة قد عرف مرادهم ، وعياض نفسه الذي ذكر أن زيارته سنة مجمع عليها قد بين الزيارة المشروعة في ذلك ، وقد ذكر عياض في قوله (لاتشد الرحال الا الى ثلاثة مساجد) ماهو ظاهر مذهب مالك أن السفر الى غيرها محرم ، فهو أيضا يقول ان السفر لمجرد زيارة القبور كما قاله مالك وسائر أصحابه مع ماذكره من استحباب الزيارة الشرعية مع ماذكر من كراهة مالك أن يقول القائل زرت قبر النبي صلى الله عليه وسلم والله أعلم .

ثم ان المعترض المالكي احتج في زيارة قبره صلى الله عليه وسلم بالقياس على زيارة الحي ، فقال المعارض المناقض : وروى مسلم في صحيحه في الذي سافر لزيارة أخ له في الله ، ولفظ الحديث : (أن رجلا زار أخا له في قرية أخرى ، فارصد الله

على مدرجته ملكا ، فلما أتى عليه قال : أين تريد ؟ قال : أريد أخا لي في تلك القرية ، قال : هل لك عليه من نعمة تربها ؟ قال لا إلا أني أحببته في الله ، فقال : اني رسول الله اليك بأن الله أحبك كما أحببته فيه) ، وفي موطأ مالك عن معاذ بن جبل في حديث ذكر فيه (سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ـ أي عن الله ـ وجبت محبتي للمتحابين في ، والمتجالسين في والمتزاورين في والمتباذلين في) قال : فقد علمت أيها الاخ بهذا فضيلة زيارة الاخوان ، وما أعد الله بها للزائرين من الفضل والاحسان فكيف بزيارة من هو حي الدارين ، وامام الثقلين ، الذي جعل الله حرمته في حال مماته كحرمته في حال حياته ، ومن شرفه الحق بما أعطاه من جميع صفاته ، ومن هدانا ببركته الى الصراط المستقيم ، وعصمنا به من الشيطان الرجيم ، ومن هو آخذ بحجزنا أن نقتحم في نار الجحيم ، ومن هو بالمؤمنين رؤوف رحيم •

(قال الشيخ ابن تيمية) والجواب : أما زيارة الاخ الحي في الله كما في الحديث فهذا نظير زيارته في حياته ، يكون الانسان بذلك من أصحابه وهم خير القرون ، وأما جعل زيارة القبر كزيارته حيا كما قاسه هذا المعترض فهذا قياس ماعلمت أحدا من علماء المسلمين قاسه ، ولا علمت أحدا منهم احتج في زيارة قبره بالقياس على زيارة الحي المحبوب في الله ، وهذا من أفسد القياس فانه من المعلوم أن من زار الحي حصل له بمشاهدته وسماع كلامه ومخاطبته وسؤاله وجوابه وغير ذلك مالا يحصل لمن لم يشاهده ولم يسمع كلامه ، وليس رؤية قبره أو رؤية ظاهر الجدار الذي بني على بيته بمنزلة رؤيته ومشاهدته ومجالسته وسماع كلامه ، ولو كان هذا مثل هذا لكان كل من زار قبره مثل واحد من أصحابه ، ومعلوم أن هذا من أبطل الباطل •

وأيضا : فالسفر اليه في حياته اما أن يكون لما كانت الهجرة اليه واجبة كالسفر قبل الفتح فيكون المسافر اليه مسافرا للمقام عنده بالمدينة مهاجرا من المهاجرين اليه ، وهذا السفر انقطع بفتح مكة ، فقال صلى الله عليه وسلم : (لاهجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية) ولهذا لما جاء صفوان بن أمية مهاجرا أمره أن يرجع الى مكة ، وكذلك سائر الطلقاء كانوا بمكة لم يهاجروا ، واما أن يكون المسافر اليه وافدا اليه ليسلم ويتعلم منه مايبلغه قومه ، كالوفود الذين كانوا يفدون عليه لاسيما سنة تسع وعشر سنة الوفود ، وقد أوصى في مرضه بثلاث ، فقال : (أخرجوا النصارى من جزيرة العرب ، وأجيزوا الوفود بنحو ماكنت أجيزهم) ومن الوفود وفد عبد القيس لما قدموا عليه ورجعوا الى قومهم بالبحرين ، لكن هؤلاء أسلموا قديما قبل فتح

مكة ، وقالوا : لانستطيع أن نأتيك الا في شهر حرام ، لأن بيننا وبينك هذا الحي من كفار مضر ــ وهم أهل نجد كأسد وغطفان وتميم وغيرهم ، فانهم لم يكونوا قد أسلموا بعد ــ وكان السفر اليه في حياته لتعلم الاسلام والدين ، ولمشاهدته وسماع كلامه وكان خيرا محضا ، ولم يكن أحد من الانبياء والصالحين عبد في حياته بحضرته فانه كان ينهى من يفعل ماهو دون ذلك من المعاصي فكيف بالشرك ، كما نهى الذين سجدوا له ، ونهى الذين صلوا خلفه قياما ، وقال : (إن كدتم تفعلون فعل فارس والروم فلا تفعلوا) رواه مسلم ، وفي المسند باسناد صحيح عن أنس قال : (لم يكن شخص أحب اليهم من رسول صلى الله عليه وسلم ، وكانوا اذا رأوه لم يقوموا له لما يعلمون من كراهته لذلك) وفي الصحيح أن جارية قالت عنده وفينا نبي يعلم مافي غد ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : (دعي هذا وقولي الذي كنت تقولين) ومثل هذا كثير من نهيه عن المنكر بحضرته ، فكل من رآه في حياته لم يتمكن أن يفعل بحضرته منكرا يقر عليه ــ الى أن قال ــ ومعلوم أنه لو كان حيا في المسجد لكان قصده في المسجد من أفضل العبادات ، وقصد القبر الذي اتخذ مسجدا مما نهى عنه ولعن أهل الكتاب على فعله ، وأيضا : فليس عند قبره مصلحة من مصالح الدين وقربة الى رب العالمين إلا وهي مشروعة في جميع البقاع ، فلا ينبغي أن يكون صاحبها غير معظم للرسول صلى الله عليه وسلم التعظيم التام والمحبة التامة الا عند قبره ، بل هو مأمور بهذا في كل وقت .

وزيارته في حياته مصلحة راجحة لامفسدة فيها ، والسفر الى القبر بمجرده بالعكس مفسدة راجحة لا مصلحة فيها ، بخلاف السفر الى مسجده فانه مصلحة راجحة ، وهنا يفعل من حقوقه مايفعل في سائر المساجد .

وهذا مما يتبين به كذب الحديث الذي يقال فيه : (من زارني بعد مماتي فكأنما زارني في حياتي) وهذا الحديث معروف من رواية حفص بن سليمان الغاضري صاحب عاصم ، عن ليث ابن أبي سليم ، عن مجاهد ، عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (من حج فزار قبري بعد موتي كان كمن زارني في حياتي) وقد رواه عنه غير واحد وهو عندهم معروف من طريقه ، وهو عندهم ضعيف في الحديث الى الغاية حجة في القراءة ، قال يحيى بن معين حفص ليس بثقة ، وقال البخاري تركوه ــ ثم سرد الشيخ كلام الائمة فيه وقال ــ وقد رواه الطبراني في المعجم من حديث الليث ابن أبي سليم عن زوجة جده عائشة عن ليث ، وهذا الليث وزوجة جده

مجهولان ، ونفس المتن باطل ، فان الاعمال التي فرضها الله ورسوله لايكون الرجل بها مثل الواحد من الصحابة ، بل في الصحيحين عنه أنه قال : (لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه) فالجهاد والحج ونحوهما أفضل من زيارة قبره باتفاق المسلمين ، ولا يكون الرجل بها كمن سافر اليه في حياته ورآه ، كيف وذلك اما أن يكون مهاجرا اليه كما كانت الهجرة قبل الفتح أو من الوفود الذين كانوا يفدون اليه يتعلمون الاسلام ويبلغونه عنه الى قومهم ، وهذا عمل لايمكن أحدا بعدهم أن يفعل مثلهم ، ومن شبه من زار قبر شخص بمن كان يزوره في حياته فهو مصاب في عقله ودينه .

والزيارة الشرعية لقبر الميت مقصودها الدعاء له والاستغفار ؛ كالصلاة على جنازته .

والدعاء المشروع المأمور به في حق نبينا ــ كالصلاة عليه ، والسلام عليه ، وطلب الوسيلة له ــ مشروع في جميع الامكنة لايختص بقبره ، فليس عند قبره عمل صالح تمتاز به تلك البقعة ، بل كل عمل صالح يمكن فعله في سائر البقاع ، لكن مسجده أفضل من غيره ، فالعبادة فيه فضيلة بكونها في مسجده ، كما قال : (صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيماسواه الا المسجد الحرام) والعبادات المشروعة فيه بعد دفنه مشروعة فيه قبل أن يدفن النبي صلى الله عليه وسلم في حجرته ، وقبل أن تدخل حجرته في المسجد ، ولم يتجدد بعد ذلك فيه عبادة غير العبادات التي كانت على عهد النبي صلى الله عليه وسلم وغير ماشرعه هو لأمته ورغبهم فيه ودعاهم اليه ، وما يشرع للزائر من صلاة وصيام ودعاء له وثناء عليه كل ذلك مشروع في مسجده في حياته ، وهي مشروعة في سائر المساجد ، بل وفي سائر البقاع التي تجوز فيها الصلاة ، وهو صلى الله عليه وسلم قد جعلت له ولأمته الارض مسجدا وطهورا ، فحيث ماأدركت أحدا الصلاة فليصل ، فانه مسجد ، كما ثبت ذلك في الحديث الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم ، ومن ظن أن زيارة القبر تختص بجنس من العبادة لم تكن مشروعة في المسجد وانما شرعت لأجل القبر فقد أخطأ ، لم يقل هذا أحد من الصحابة والتابعين ، وانما غلط في هذا بعض المتأخرين ، وغاية مانقل عن بعض الصحابة كابن عمر أنه كان اذا قدم من سفر يقف عند القبر ويسلم .

وجنس السلام عليه مشروع في المسجد وغير المسجد ، قبل السفر وبعده ،

وأما كونه عند القبر فهذا كان يفعله ابن عمر اذا قدم من سفر ، وكذلك الذين استحبوه من العلماء استحبوه للصادر والوارد من المدينة واليها من أهلها ، وللوارد والصادر من المسجد من الغرباء ، مع أن أكثر الصحابة لم يكونوا يفعلون ذلك ، ولا فرق أكثر السلف بين الصادر والوارد ، بل كلهم ينهون عما نهى عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد قال أبو الوليد الباجي : انما فرق بين أهل المدينة وغيرها لأن الغرباء قصدوا لذلك ، وأهل المدينة مقيمون بها ولم يقصدوها من أجل القبر والتسليم ، قال: وقال النبي صلى الله عليه وسلم : (اللهم لاتجعل قبري وثنا يعبد ، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) وقال (لاتجعلوا قبري عيدا) وهذا الذي ذكره من أدلة من سوى في النهي ، فان قوله صلى الله تعالى عليه وسلم : (لاتجعلوا ولا تتخذوا بيتي عيدا) نهى لكل أمته أهل المدينة والقادمين اليها ، وكذلك نهيه عن اتخاذ القبور مساجد ، وخبره بأن غضب الله اشتد على من فعل ذلك : هو متناول للجميع ، وكذلك دعاؤه بأن لايتخذ قبره وثنا عام ، وما ذكره من أن الغرباء قصدوا لذلك تعليق على العلة ضد مقتضاها ، فان القصد لذلك منهى عنه ، كما صرح به مالك وجمهور أصحابه ، وكما نهى عنه ، واذا كان منهيا عنه أو ليس بقربة لم يشرع الاعانة عليه .

وابن عمر لم يكن يسافر الى المدينة لأجل القبر بل المدينة وطنه ، فكان يخرج منها لبعض الامور ثم يرجع الى وطنه فيأتي المسجد فيصلي فيه ويسلم .

فأما السفر لأجل القبور فلا يعرف عن أحد من الصحابة ، بل ابن عمر كان يقدم الى بيت المقدس ولا يزور قبر الخليل صلى الله عليه وسلم ، وكذلك أبوه عمر رضي الله عنه ومن معه من المهاجرين والانصار قدموا الى بيت المقدس ولم يذهبوا الى قبر الخليل عليه السلام ، وكذلك سائر الصحابة الذين كانوا ببيت المقدس وسائر أهل الشام لم يعرف عن أحد منهم أنه سافر الى قبر الخليل عليه السلام ولا غيره ، كما لم يكونوا يسافرون الى المدينة لأجل القبر ، وما كان قربة للغرباء فهو قربة لأهل المدينة وما لم يكن قربة لهم لم يكن قربة لغيرهم ، كاتخاذ بيته عيدا ، واتخاذ قبره وقبر غيره مسجدا ، وكالصلاة الى الحجرة والتمسح بها ، والصاق البطن بها والطواف بها ،وغير ذلك مما يفعله جهال القادمين ، فان هذا — باجماع المسلمين — ينهى عنه الغرباء كما ينهى عنه أهل المدينة ، ينهون عنه صادرين ووادرين باتفاق المسلمين .

وبالجملة فجنس الصلاة والسلام عليه والثناء عليه صلى الله عليه وسلم ونحو ذلك مما استحبه بعض العلماء عند القبر للواردين والصادرين هو مشروع في مسجده وسائر المساجد ، وأما ما كان سؤالا له فهذا لم يستحبه أحد من السلف لا الأئمة الاربعة ولا غيرهم •

ثم بعض من يستحب هذا من المتأخرين يدعوا به مع البعد فلا يختص هذا عندهم بالقبر ، وأما نفس بيته عند قبره فلا يمكن أحدا الوصول ، ولم يشرع هناك عمل يكون هناك منه في غيره ، ولو شرع لفتح باب الحجرة للامة ، بل قد قال : (لاتتخذوا بيتي عيدا ، وصلوا علي فان صلاتكم تبلغني حيثما كنتم) صلوات الله وسلامه عليه •

وقد تقدم مارواه سعيد بن منصور في سننه عن عبد العزيز الدراوردي ، عن سهيل بن أبي سهيل ، قال : رآني الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب فناداني ، فقال : مالي رأيتك عند القبر ؟ فقلت : سلمت على النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : اذا دخلت المسجد فسلم على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (لاتتخذوا بيتي عيدا ، وصلوا علي حيثما كنتم فان صلاتكم تبلغني ماأنتم ومن بالاندلس الا سواء) وكذلك سائر الصحابة الذين كانوا ببيت المقدس وغيرها من الشام ، مثل معاذ بن جبل ، وأبي عبيدة ابن الجراح ،وعبادة ابن الصامت ، وأبي الدرداء وغيرهم : لم يعرف عن أحد منهم أنه سافر لقبر من القبور التي بالشام لاقبر الخليل ولا غيره ، كما لم يكونوا يسافرون الى المدينة لأجل القبر ، وكذلك الصحابة الذين كانوا بالحجاز والعراق وسائر البلاد ، كما قد بسطنا هذا في غير هذا الموضع •

(فان قيل) الزائر في الحياة انما أحبه الله لكونه يحبه في الله ، والمؤمنون يحبون الرسول صلى الله عليه وسلم أعظم ،وكذلك يحبون سائر الانبياء والصالحين، فاذا زاروهم أثيبوا على هذه المحبة •

(قيل) حب الرسول من أعظم واجبات الدين ، وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الايمان : من كان الله ورسوله أحب اليه مما سواهما ، ومن يحب المرء لايحبه الا لله ، ومن كان يكره أن يرجع في الكفر بعد اذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار) وفي الحديث

الصحيح عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (لايؤمن أحدكم حتى أكون أحب اليه من ولده ووالده والناس أجمعين) رواه البخاري عن أبي هريرة ، قال والذي نفسي بيده ، وفي صحيح البخاري عن عبد الله بن هشام قال : (كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم وهو آخذ بيد عمر فقال : يارسول الله لأنت أحب الي من كل شيء الا نفسي ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : لا والذي نفسي بيده حتى أكون أحب اليك من نفسك ، فقال عمر : فانه الآن والله لأنت أحب الي من نفسي ، قال: الآن ياعمر) وتصديق ذلك في القرآن قوله : (النَّبي أَولى بالمؤمنين منْ انفُسِهم)[1] وقوله : (قُلْ إن كان آباؤكم وأَبناؤكم واخوانكم وأَزواجُكم وعشيرتُكم وأموالٌ اقترفْتموها وتجارةٌ تخشَونَ كسادَها ومساكنُ ترضَونها أَحبَّ اليكُم منَ الله ورسوله وجهادٍ في سَبيله فتربَّصوا حتَّى يأْتي اللهُ بأمره واللهُ لايهدي القَوم الفاسقينَ)[2] وقال : (لا تَجدُ قوْماً يُؤمنونَ بالله واليوم الآخرِ يُوادّونَ مَن حادَّ اللهَ ورسولَهُ ولَوْ كانوا آباءَهم او أَبناءَهم او إخوانَهم او عشيرتَهم اولئك كَتبَ في قلوبهم الايمانَ وأيدَهم بروحٍ منْهُ)[3] وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال : (ما من مؤمن الا وأنا أولى به في الدنيا والآخرة اقرؤا ان شئتم : النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم) وذكر الحديث ، وفي حديث آخر (لايؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به) لكن حبه وطاعته وتعزيره وتوقيره وسائر ماأمر الله به من حقوقه مأمور به في كل مكان ، لايختص بمكان دون مكان ، وليس من كان في المسجد عند القبر بأولى بهذه الحقوق ووجوبها عليه ممن كان في موضع آخر .

ومعلوم أن مجرد زيارة قبره كالزيارة المعروفة للقبور غير مشروعة ولا ممكنة ، ولو كان في زيارة قبره عبادة زائدة للامة لفتح باب الحجرة ومكنوا من فعل تلك العبادة عند قبره ، وهم لم يمكنوا الا من الدخول الى مسجده ، والذي يشرع في مسجده يشرع في سائر المساجد ، لكن مسجده أفضل من سائرها غير المسجد الحرام على نزاع في ذلك ، وما يجده المسلم في قلبه من محبته والشوق اليه والانس بذكره

---

(1) الاحزاب : ٦ (2) التوبة : ٢٤ (3) المجادلة : ٢٢

وذكر أحواله فهو مشروع له في كل مكان ، وليس في مجرد زيارة ظاهر الحجرة مايوجب عبادة لاتفعل بدون ذلك ، بل نهى عن أن يتخذ ذلك المكان عيدا ، وأمر أن يصلى عليه حيث كان العبد ويسلم عليه ، فلا يخص بيته وقبره لابصلاة عليه ولاتسليم عليه فكيف بما ليس كذلك ، واذا خص قبره بذلك صار ذلك في سائر الامكنة ـ دون ماهو عند قبره ـ ينقص حبه وتعظيمه وتعزيره وموالاته والثناء عليه عند غير قبره عما يفعل عند قبره ، كما يجده الناس في قلوبهم اذا رأوا من يحبونه ويعظمونه ، يجدون في قلوبهم عند قبره مودة له ورحمة ومحبة أعظم مما يكون بخلاف ذلك ، والرسول صلى الله عليه وسلم هو الواسطة بينهم وبين الله في كل مكان وزمان ، فلا يؤمرون بما يوجب نقص محبتهم وايمانهم في عامة البقاع والازمنة ، مع أن ذلك لو شرع لهم لاشتغلوا بحقوقهم عن حقه ، واشتغلوا بطلب الحوائج منه كما هو الواقع، فيدخلون في الشرك بالخالق وفي ترك حق المخلوق ، فينقص تحقيق الشهادتين : شهادة أن لا اله الا الله ، وأن محمداً رسول الله •

وأما ماشرعه لهم من الصلاة والسلام عليه في كل مكان ، وأن لايتخذوا بيته عيدا ولا مسجدا ، ومنعهم من أن يدخلوا اليه ويزوروه كما تزار القبور : فهذا يوجب كمال توحيدهم للرب تبارك وتعالى ، وكمال ايمانهم بالرسول صلى الله عليه وسلم ومحبته وتعظيمه حيث كانوا ، واهتمامهم بما أمروا به من طاعته ، فان طاعته هي مدار السعادة ، وهي الفارقة بين أولياء الله وأعدائه ، وأهل الجنة وأهل النار ، فأهل طاعته هم أولياء الله المتقون ، وجنده المفلحون ، وحزبه الغالبون ، وأهل مخالفته ومعصيته بخلاف ذلك ، والذين يقصدون الحج الى قبره وقبر غيره ويدعونهم ويتخذونهم أندادا من أهل معصيته ومخالفته ، لا من أهل طاعته وموافقته ، فهم في هذا الفعل من جنس أعدائه لا من جنس أوليائه ، وان ظنوا أن هذا من موالاته ومحبته كما يظن النصارى أن ماهم عليه من الغلو في المسيح والشرك به من جنس محبته وموالاته ، وكذلك دعاؤهم للانبياء والموتى ، كابراهيم وموسى وغيرهما عليهم السلام ، ويظنون أن هذا من محبتهم وموالاتهم وانما هو من جنس معاداتهم ، ولهذا يتبرؤن منهم يوم القيامة ، وكذلك الرسول صلى الله عليه وسلم يتبرأ ممن عصاه ، وان كان قصده تعظيمه والغلو فيه ، قال تعالى :(وانذرعشيرتكَ الأَقربين واخْفض جناحَكَ لمن اتَّبعَكَ من المؤْمنينَ ، فإنْعَصَوكَ فقُلْ إني بَريء ممَّا تعمَلون)[1]

---

(1) الشعراء : ٢١٤

فقد أمر الله المؤمنين أن يتبرؤا من كل معبود غير الله ومن كل من عبده ، قال تعالى (قدْ كانت لَكمْ اسوةٌ حسنةٌ في ابراهيمَ والَّذين معَهُ إذقالوا لقومهم انَّا بُرآءُ منْكم وممَّا تَعْبُدونَ منْ دونِ اللَّه كفرنا بكم وبدا بيْننا وبيْنكُمُ العداوة والبغْضاءُ ابداً حتَّي تؤْمنوا باللَّه وحدَهُ)[1]

وكذلك سائر الموتى ليس في مجرد رؤية قبورهم مايوجب لهم زيادة المحبة ، الا لمن عرف أحوالهم بدون ذلك فيتذكر أحوالهم فيحبهم ، والرسول صلى الله عليه وسلم يذكر المسلمون أحواله ومحاسنه وفضائله وما من الله به عليه وما من به على أمته ، فبذلك يزداد حبهم له وتعظيمهم له لا بنفس رؤية القبر ، ولهذا تجد العاكفين على قبور الانبياء والصالحين من أبعد الناس عن سيرتهم ومتابعتهم ،وانما قصد جمهورهم التأكل والترأس بهم ، فيذكرون فضائلهم ليحصل لهم بذلك رياسة أو مأكلة لا ليزدادوا هم حبا وخيرا، وفي مسند الامام أحمد وصحيح أبي حاتم عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : (ان من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء ،والذين يتخذون القبور مساجد) وما ذكره هذا من فضائله فبعض مايستحقه صلى الله عليه وسلم ، والامر فوق ماذكره أضعافا مضاعفة ، لكن هذا يوجب ايماننا به وطاعتنا له ، واتباع سنته والتأسي به ، والاقتداء به ومحبتنا له ، وتعظيمنا له ، وموالاة أوليائه ومعاداة أعدائه ، فان هذا هو طريق النجاة والسعادة ، وهو سبيل الحق ووسيلتهم الى الله تعالى ، ليس في هذا مايوجب معصيته ومخالفة أمره ، والشرك بالله ، واتباع غير سبيل المؤمنين السابقين الاولين والتابعين لهم باحسان ، وهو صلى الله عليه وسلم قد قال : (لاتشد الرحال الا الى ثلاثة مساجد) وقال : (لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد يحذر مافعلوا) وقال : (لاتتخذوا قبري عيدا ، وصلوا علي حيثما كنتم فان صلاتكم تبلغني) وقال : (خير الكلام كلام الله ، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم ، وشر الامور محدثاتها ، وكل بدعة ضلالة وقال : (انه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافا كثيرا، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، واياكم ومحدثات الامور فان كل بدعة ضلالة) الى غير ذلك من الادلة التي تبين أن الحجاج الى القبور هم من المخالفين للرسول صلى الله عليه وسلم الخارجين عن

---

(١) الممتحنة : ٤

شريعته وسنته ، لا من الموافقين له المطيعين له ، كما قد بسط في غير هذا الموضع ، هذا آخر مانقلناه من كتاب شيخ الاسلام فيما يتعلق بالزيارة ، وقد علم مما نقلناه أن شيخ الاسلام رحمه الله لم يحرم زيارة القبور على الوجه المشروع في شيء من كتبه ، ولم ينه عنها ، ولم يكرهها ، بل استحبها وحض عليها ، ومناسكه ومصنفاته طافحة بذكر استحباب زيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم وسائر القبور ، ولم ينكر زيارتها في موضع من المواضع ، ولا ذكر في ذلك خلافا الا نقلا غريبا ذكره في بعض كتبه عن بعض التابعين، وانما تكلم على مسألة شد الرحال واعمال المطي الى مجرد زيارة القبور ، وذكر في ذلك قولين للعلماء المتقدمين والمتأخرين (أحدهما) القول باباحة ذلك كما يقوله بعض أصحاب الشافعي وأحمد (والثاني) أنه منهي عنه كما نص عليه امام دار الهجرة مالك بن أنس ، ولم ينقل عن أحد من الأئمة الثلاثة خلافه ، واليه ذهب جماعة من أصحاب الشافعي وأحمد ، هكذا ذكر الشيخ الخلاف في شد الرحال وأعمال المطي الى القبور ، ولم يذكره في الزيارة الخالية عن شد رحل واعمال مطي ، والسفر الى زيارة القبور مسألة وزيارتها من غير سفر مسألة أخرى ، ومن خلط هذه المسألة بهذه المسألة وجعلهما مسألة واحدة وحكم عليهما بحكم واحد وأخذ في التشنيع على من فرق بينهما وبالغ في التنفير عنه فقد حرم التوفيق ، وحاد عن سواء الطريق •

واحتج الشيخ لمن قال بمنع شد الرحال وأعمال المطي الى القبور بالحديث المشهور المتفق على صحته ، وهو (لاتشد الرحال) الحديث ، وذكر وجه الاستدلال في الكتابين السابقين ، وكذا في (كتاب اقتضاء الصراط المستقيم) بما لامزيد عليه •

فما نقله النبهاني الغافل الغبي عن السبكي وابن حجر وغيرهما من غلاة أسلافه ساقط عن درجة الاعتبار ، بل هو افتراء محض وبهتان صرف على الشيخ في هذه المسألة وغيرها ، والمسألة فرضية لا وقوع لها البته ، فان كل من سافر الى المدينة من أجل آماله الصلاة في مسجده صلى الله تعالى عليه وسلم ونية زيارة القبر فقط ان وقعت كان حكمها ماذكره الشيخ حسبما دل عليه الحديث الصحيح ، فلا يرد ماذكره هذا الغبي في التنبيه الثامن من الهذيان ، وهو قوله : اعلم أنه لو كان حكم السفر لزيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم التحريم كما زعمه ابن تيمية لامتنع الناس لذلك من زيارته عليه الصلاة والسلام ، ولصارت المدينة المنورة من أحقر المدن ، بل من أحقر القرى ، وكادت تكون خرابا بلقعا ، فان عمارتها انما هو لوجود قبره

الشريف صلى الله عليه وسلم فيها ، فان زيارة المؤمنين لها وانتيابهم اياها وترددهم اليها ومجاورتهم فيها كل ذلك انما هو لأجله صلى الله عليه وسلم ، ليكون وسيلتهم الى الله تعالى في سعادتهم ، لأنه ثبت عندهم ثبوتا أوضح من الشمس أنه صلى الله عليه وسلم أقرب الوسائل وأجلها وأنجحها الى الله تعالى .. الى آخر ماهذى به في ذلك التنبيه .

فانظر أيها المنصف الى جهل هذا الغبي وما أدت اليه حماقته ، فانه الى الآن لم يعرف أن عمارة المدن بأي شيء تكون ، ولا درى أسباب الخراب ماهي ، وظن أن زيارة القبور هي سبب عمارة البلاد ، والاعراض عنها هو المستوجب لخرابها ، ولا بدع أن اعتقد الغلاة الضالون هذا الاعتقاد الفاسد ، فمثل ذلك هو اللائق بقلوبهم المختوم عليها .

ويقال له : ان الشيخ لم يحرم الزيارة ولا السفر اليها مطلقا حتى يرد ماذكرت ، وان الصلاة في المسجد النبوي اذا كانت بتلك المنزلة فلا شك أن المسلمين لايهملونها، وما ذكره من قلة زوار البيت المقدس فكذب ، وعلى مقتضى تعليله يلزم أن يكون البيت المقدس خرابا لقلة زواره ، ومن المعلوم مابلغ اليه من العمارة والمدنية ،والرجل لايستحي من الكذب والزور ، ومقصوده بيان أنه كان رئيس المحكمة الجزائية ليعلم الناس مبلغه من العلم والايمان قاتله الله ماأعظم حماقته ورعونته .

ثم يقال : ان عمارة البلاد بالعلم والتقوى ، والايمان الكامل والعمل الصالح ، والسعي للدنيا والآخرة ، وأما زيارة القبور أي قبر كان انما هي للدعاء للميت والاعتبار به فهي شعبة من شعب الطرق الاخروية .

وقد ذكر هذا الغبي أيضا في تضاعيف كلامه نقلا عن بعض أسلافه الغلاة : أن زيارة القبور تعظيم ، وتعظيم النبي صلى الله عليه وسلم واجب ، فلا يجوز اهماله .

قال الامام الحافظ ابن قدامة في (الصارم المنكى) الكلام عليه من وجوه :

(أحدها) أن يقال : هاتان المقدمتان ان أخذتا على اطلاقهما أنتجتا أن زيارة قبره واجبه ، وهو انتاج لازم للمقدمتين لزوما بينا ، فان الضرب الاول من الشكل الاول ، والحد الاوسط فيه محمول في الاولى موضوع في الثانية ، فتكون النتيجة موضوع الاولى ومحمول الثانية ، وهي زيارة قبره واجبة ، ثم يلزم على هذا لوازم : منها أن تارك زيارة قبره عاص آثم مستحق للعقوبة منتفي العدالة لاتصح شهادته ولا تقبل روايته ولا فتواه ، وفي هذا تفسيق جميع الصحابة الا من صح عنه منهم الزيارة ، ولا ريب أن هذا شر من قول الرافضة الذين فسقوا جمهورهم بتركهم

تولية علي ، بل هو من جنس قول الخوارج الذين يكفرون بالذنب ، لأن تارك هذه الزيارة عنده تارك لتعظيمه ، وترك تعظيمه كفر أو ملزوم للكفر ، فان تعظيم الرسول من لوازم الايمان فعدمه مستلزم المكفر ، وعلى هذا فكل من لم يزر قبره فهو كافر ، لأنه تارك لتعظيمه صلى الله عليه وسلم ، ولا ريب أن الروافض والخوارج لم يصلوا الى ماوصل اليه هؤلاء من الجهل والكذب على الله ورسوله وعلى الامة .

(يوضحه الوجه الثاني) أن الخوارج انما كفروا الامة بمخالفة أمره ومعصيته وتمسكوا بنصوص متشابهة لم يردوها الى المحكم ، وأماعباد القبور فكفروا بموافقة الرسول في نفس مقصوده ، وجعلوا تجريد التوحيد كفرا وتنقصا ، فأين المكفر بالذنب من المكفر بموافقة الرسول وتجريد التوحيد .

(يوضحه الوجه الثالث) ان زيارة قبره لو كانت تعظيما له لكانت مما لايتم الايمان الا بها ، ولكانت فرضا معينا على كل من استطاع اليها سبيلا من قرب أو بعد ، ولما أضاع السابقون الاولون من المهاجرين والانصار والذين اتبعوهم باحسان هذا الفرض ، وقام به الخلف الذين خلفوا من بعدهم ويزعمون أنهم بذلك أولياء الرسول ، وحزبه القائمون بحقوقه ، وما كانوا أولياءه ان أولياؤه الا أهل طاعته ، والقيام بما جاء به علما ومعرفة وعملا وارشادا وجهادا ، الذين جردوا توحيد الخالق وعرفوا للرسول حقه ، ووافقوه في تنفيذ ماجاء به والدعوة اليه والذب عنه .

(الوجه الرابع) أنه اذا كانت زيارة قبره واجبة على الاعيان كانت الهجرة الى القبر آكد من الهجرة اليه في حياته ، فان الهجرة الى المدينة انقطعت بعد الفتح ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : (لاهجرة بعد الفتح) وعند عباد القبور أن الهجرة الى القبر فرض معين على من استطاع اليه سبيلا ، وليس بخاف أن هذا مراغمة صريحة لما جاء به الرسول ، واحداث في دينه مالم يأذن به ، وكذب عليه وعلى الله ، وهذا من أقبح التنقص.

وقد ذكر السبكي في موضع من كتابه (شفاء السقام) أنه رأى فتيا بخط شيخ الاسلام وفيها : ولهذا كانت زيارة القبور على وجهين : زيارة شرعية ، وزيارة بدعية ، فالزيارة الشرعية مقصودها السلام على الميت والدعاء له ان كان مؤمنا ، وتذكر الموت سواء كان الميت مؤمنا أم كافرا ، قال وقال بعد ذلك : فالزيارة لقبر المؤمن نبيا كان أو غير نبي من جنس الصلاة على جنازته ، وأما الزيارة البدعية فمن جنس زيارة النصارى مقصودها الاشراك بالميت ، مثل طلب الحوائج منه أو به ، أو

التمسح بقبره وتقبيله ، أو السجود له ونحو ذلك ، فهذا كله لم يأمر الله به ولا رسوله صلى الله عليه وسلم ، ولا استحبه أحد من أئمة المسلمين ، ولا أحد من السلف لاعند قبر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ولا غيره •

قال السبكي ــ بعد حكايته هذا الكلام عن الشيخ ــ وبقي قسم لم يذكره ، وهو أن تكون للتبرك به من غير اشراك به ، فهذه ثلاثة أقسام أولها السلام والدعاء له ، وقد سلم جوازه وأنه شرعي • والقسم الثاني التبرك به والدعاء عنده للزائر،قال وهذا القسم يظهر من فحوى كلام ابن تيمية أنه يلحقه بالقسم الثالث ، ولا دليل له على ذلك ، بل نحن نقطع ببطلان كلامه فيه ، وان المعلوم من الدين وسير السلف الصالحين التبرك ببعض الموتى من الصالحين فكيف بالانبياء والمرسلين ، ومن ادعى أن قبور الانبياء وغيرهم من أموات المسلمين سواء فقد أتى أمرا عظيما نقطع ببطلانه وخطئه فيه ، وفيه حط لرتبة النبي صلى الله عليه وسلم الى درجة من سواه من المؤمنين ، وذلك كفر بيقين ، فان من حط رتبة النبي صلى الله عليه وسلم عما يجب له فقد كفر ، فان قال : ان هذا ليس بحط ولكنه منع من التعظيم فوق مايجب له ، قلت : هذا جهل وسوء أدب ، وقد تقدم في أول الباب الخامس الكلام في ذلك ، ونحن نقطع بأن النبي صلى الله عليه وسلم يستحق من التعظيم أكثر من هذا المقدار في حياته وبعد موته ، ولا يرتاب من في قلبه شيء من الايمان ، هذا كله كلام المعترض •

فانظر الى ماتضمنه من الغلو والجهل والتكفير بمجرد الهوى وقلة العلم ، أفلا يستحي من هذا مبلغ علمه أن يرمي أتباع الرسول وحزبه وأولياءه برأيه الذي يشهد به عليه كلامه ؟ لكن من يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا •

(الوجه الخامس) أن يقال لهذا المعترض وأشباهه من عباد القبور : أتوجبون كل تعظيم للرسول صلى الله عليه وسلم أو نوعا خاصا من التعظيم ، فان أوجبتم كل تعظيم لزمكم أن توجبوا السجود لقبره وتقبيله واستلامه والطواف به لأنه من تعظيمه ، وقد أنكر صلى الله عليه وسلم على من عظمه بما لم يأذن به كتعظيم من سجد له ، وقال : (لاتطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم ، فانما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله) ومعلوم أن مطريه انما قصد تعظيمه •

وقال صلى الله عليه وسلم لمن قال له : يامحمد ، ياسيدنا وابن سيدنا ، وخيرنا وابن خيرنا (عليكم بقولكم ، ولايستهوينكم الشيطان ، أنا محمد عبد الله ورسوله، ماأحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله عز وجل) فمن عظمه بما لايحب

فانما أتى بضد التعظيم ، وهذا نفس ماحرمه الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، ونهى عنه وحذر منه .

وأيضا : فان الحلف به تعظيم له ، فقولوا يجب على الحالف أن يحلف به لأنه تعظيم له وتعظيمه واجب ، وكذلك تسبيحه وتكبيره والتوكل عليه والذبح باسمه كل هذا تعظيم له ، ومعلوم أن ايجاب هذا مثل ايجاب الحج اليه بالزيارة على من استطاع اليه سبيلا ولا فرق بينهما ، وان قلتم انما نوجب نوعا خاصا من التعظيم طولبتم بضابط هذا النوع وحده ، والفرق بينه وبين التعظيم الذي لايجب ولا يجوز ، وبيان أن الزيارة من هذا النوع الواجب ، والا كنتم متناقضين موجبين في الدين مالم يوجبه الله وشارعين شرعا لم يأذن به الله .

(الوجه السادس) أن يقال : الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم كلما خطر بالبال تعظيم له فأوجبوا له هذا التعظيم ، واحكموا على من قال لايجب بأنه تارك لتعظيمه ، بل احكموا على من قال لاتجب الصلاة عليه كلما ذكر ولا تجب الصلاة عليه في الصلاة أولا تجب في العمر الا مرة أولا تجب أصلا بأنه تارك للتعظيم لأن الصلاة عليه تعظيم له بلا ريب ، فهل كان أئمة الاسلام وعلماء الامة نافين لتعظيمه تاركين له بنفيهم الوجوب ؟ أم كانوا أشد تعظيما له منكم واعرف بحقوقه وأحفظ لدينه أن يزاد فيه ماليس منه ؟!

(يوضحه الوجه السابع) أن الذين كرهوا من الفقهاء الصلاة عليه عند الذبح يكونون على قولكم تاركين لتعظيمه وذلك قادح في ايمانهم ، وكذلك من كره أو حرم الحلف به وقال لاتنعقد يمين الحالف به يكون على قولكم تاركا لتعظيمه لأن الحالف به تعظيم له بلا ريب .

(الوجه الثامن) أن القول بعدم وجوب زيارة قبره أو بعدم استحبابها أو بعدم جوز شد الرحال لايقدح في تعظيمه بوجه من الوجوه ، وهو بمنزلة قول من قال من أئمة الاسلام لاتجب الصلاة عليه في التشهد الاخير ، وبمنزلة قول من قال منهم تكره الصلاة عليه عند الذبح ، وبمنزلة قول من قال لاتستحب الصلاة عليه في التشهد الاول ، ولا عند التشهد في الأذان ، بل قول من نفى وجوب الزيارة أو جواز شد الرحال الى القبر أولى أن لايكون منافيا للتعظيم من قول من نفى وجوب الصلاة عليه أو استحبابها في بعض المواضع ، لأن الصلاة عليه مأمور بها ، وقد ضمن للمصلي عليه مرة أن يصلى عليه عشرا ، بل الصلاة عليه محض التعظيم له ، فنفي وجوبها أو استحبابها في موضع ليس بترك للتعظيم وليس انكار وجوب كل

من الامرين قادحا في تعظيمه ، بل ذلك عين تعظيمه .

(يدل عليه الوجه التاسع) أن تعظيمه هو موافقته في محبة مايحب ، وكراهة مايكره ، والرضي بما يرضى به ، وفعل مأمر به ، وترك مانهى عنه ، والمبادرة الى مارغب فيه ، والبعد عما حذر منه ، وأن لايتقدم بين يديه ، ولا يقدم على قوله قول أحد سواه ، ولا يعارض ماجاء به بمعقول ثم يقدم المعقول عليه كما يقوله أئمة هذا المعترض ، الذين تلقى عنهم أصول دينه وقدم آراءهم وهواجس ظنونهم على كلام الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، ثم ينسب ورثة الرسول الواقفين مع أقواله المخالفين لما خالفها الى ترك التعظيم ، وأي اخلال بتعظيم وأي تنقص فوق من عزل كلام الرسول صلى الله عليه وسلم عن افادة اليقين ، وقدم عليه آراء الرجال ، وزعم أن العقل يعارض ماجاء به ، وأن الواجب تقديم المعقول وآراء الرجال على قوله ؟!

(الوجه العاشر) أن ايجاب زيارة قبره واستحبابها وشد الرحال اليه لأجل تعظيمه يتضمن جعل القبر منسكا يحج اليه كما يحج الى البيت العتيق كما يفعله عباد القبور ، سيما فانهم يأتون عنده بنظير ما يأتي به الحاج من الوقوف والدعاء والتضرع ، وكثير منهم يطوف بالقبر ويستلمه ويقبله ويمسح عليه ، فلم يبق عليهمن أعمال المناسك الا الحلق والنحر ورمي الجمار ، فايجاب الوسيلة الى هذا المحذور واستحبابها من أعظم الامور منافاة لما شرعه الله ورسوله ، وقد آل الامر بكثير من الجهال الى النحر عند قبور من يشدون الرحال الى قبورهم ، وحلق رؤسهم عند قبورهم ، وتسمية زيارتها حجا ومناسك ، وصنف فيه بعضهم كتابا سماه مناسك حج المشاهد ، وكان سبب هذا هو الغلو الذي يظنه من قل علمه تعظيما ، ولا ريب أن هذا أكره شيء الى الرسول قصدا ووسيلة .

(الوجه الحادي عشر) أن هذا الذي قصده عباد القبور من التعظيم هو بعينه السبب الذي لأجله حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم اتخاذ القبور مساجد ، وايقاد السرج عليها ، ولعن فاعل ذلك ، ونهى عن الصلاة اليها ، وحرم اتخاذ قبره عيدا ، ودعا ربه أن لايجعل قبره وثنا يعبد ، ولأجله نهى فضلاء الامة وساداتها عن ذلك ، ولأجله أمر عمر بتعفية قبر دانيال لما ظهر في زمان الصحابة ولأجله منع مالك من نذر اتيان المدينة وأراد القبر أن يوفي بنذره ولأجله كره الشافعي أن يعظم قبر مخلوق حتى يجعل مسجدا كما قال : وأكره أن يعظم مخلوق حتى يجعل قبره مسجدا ولأجله كره مالك أن يقول القائل زرت قبر النبي صلى الله عليه وسلم لما يوهم هذا

اللفظ من أنه انما قصد المدينة لأجل زيارة القبر ، ولما فيه من تعظيم القبر باضافة الزيارة اليه مع كونه أعظم القبور على الاطلاق وأجلها وأشرف قبر على وجه الارض، فالفتنة بتعظيمه أقرب من الفتنة بتعظيم غيره من القبور ، فحمى مالك رحمه اللهتعالى الذريعة حتى في اللفظ ، ومنع الناذر من اتيانه ، ولو كان اتيانه قربة عنده لأوجب الوفاء به ، فان من أصله ان كل طاعة تجب بالنذر سواء كان من جنسها واجب بالشرع أو لم يكن ، ولهذا يوجب اتيان مسجد المدينة على من نذر اتيانه ، وقد منع ناذر اتيان القبر من الوفاء بنذره ، فلو كان ذلك عنده قربة لألزمه الوفاء به ، ومن رد هذا النقل عنه وكذب الناقل فهو من جنس من افترى الكذب وكذب بالحق لما جاءه ، فان ناقله ممن له لسان صدق في الامة بالعلم والامانة والصدق والجلالة ، وهو القاضي أبو اسحق اسمعيل بن اسحق بن اسمعيل بن حماد بن زيد أحد الأئمة الاعلام ، وكان نظير الشافعي ، وإماماً في سائر العلوم ، حتى قال المبرد اسمعيل القاضي أعلم مني بالتصريف ، وروى عن يحيى بن أكثم أنه رآه مقبلا فقال : قد جاءت المدنية ، وقد ذكر هذا النقل عن مالك في أشهر كتبه عند أصحابه وأجلها عندهم وهو المبسوط ، فمن كذبه فهو بمنزلة من كذب مالكا والشافعي وأبا يوسف ونظرائهم ، ومن وصل الهوى بصاحبه الى هذا الحد فقد فضح نفسه وكفى خصمه مؤنته ، ومن جمع أقوال مالك وأجوبته وضم بعضها الى بعض ثم جمعها الى أقوال السلف وأجوبتهم قطع بمرادهم ، وعلم نصيحتهم للامة وتعظيمهم للرسول ، وحرصهم على اتباعه وموافقته في تجريد التوحيد وقطع أسباب الشرك ، وبهذا جعلهم الله أئمة ، وجعل لهم لسان صدق في الامة ، فلو ورد عنهم شيء خلاف هذا لكان من المتشابه الذي يرد الى المحكم من كلامهم وأصولهم ، فكيف ولم يصح عنهم حرف واحد يخالفه ، فتبين أن هذا التعظيم الذي قصده عباد القبور هو الذي كرهه أهل العلم ، وهو الذي حذر منه رسول الله صلى الله عليه وسلم ونهى أمته عنه ولعن فاعله ، وأخبر بشدة غضب الله عليه حيث يقول (اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) ومعلوم قطعا أنهم انما فعلوا ذلك تعظيما لهم ولقبورهم ، فعلم أن التعظيم للقبور مما يلعن الله فاعله ويشتد غضبه عليه .

(الوجه الثاني عشر) أن هذا الذي يفعله عباد القبور من المقاصد والوسائل ليس بتعظيم ، فان التعظيم محله القلب واللسان والجوارح وهم أبعد الناس منه ، فالتعظيم بالقلب مايتبع اعتقاد كونه رسولا من تقديم محبته على النفس والولد

والوالد والناس أجمعين ، ويصدق هذه المحبة أمران :

(أحدهما) تجريد التوحيد ، فانه صلى الله عليه وسلم كان أحرص الخلق على تجريده ، حتى قطع أسباب الشرك ووسائله من جميع الجهات ، ونهى عن عبادة الله بالتقرب اليه بالنوافل من الصلوات في الاوقات التي يسجد فيها عباد الشمس لها ،بل قبل ذلك الوقت بعد أن تصلي الصبح والعصر لئلا يتشبه الموحدون بهم في وقت عبادتهم ، ونهى أن يقال ماشاء الله وشاء فلان ، ونهى أن يحلف بغير الله ، وأخبر أن ذلك شرك ، ونهى أن يصلى الى القبر ويتخذ مسجدا أو عيدا أو يوقد عليها سراج ، وذم من شرك بين اسمه واسم ربه تعالى في لفظ واحد ، فقال له : (بئس الخطيب أنت) بل مدار دينه على هذا الاصل الذي هو قطب رحى النجاة ، ولم يقرر أحد ماقرره صلى الله عليه وسلم بقوله وفعله وهديه وسد الذرائع المنافية له ، فتعظيمه صلى الله عليه وسلم بموافقته على ذلك لا بمناقضته فيه .

(الثاني) تجريد متابعته وتحكيمه وحده في الدقيق والجليل من أصول الدين وفروعه ، والرضا بحكمه ، والانقياد له والتسليم ، والاعراض عمن خالفه ، وعدم الالتفات اليه حتى يكون وحده الحاكم المتبع المقبول قوله ، كما كان ربه تعالى وحده المعبود المألوه المخوف المرجى المستغاث به المتوكل عليه ، الذي اليه الرغبة والرهبة واليه الوجهة والعمل ، الذي يؤمل وحده لكشف الشدائد وتفريج الكربات ومغفرة الذنوب ، الذي خلق الخلق وحده ورزقهم وحده وأحياهم وحده ويبعثهم وحده ويغفر ويرحم ويهدي ويضل ويسعد ويشقي وحده وليس لغيره من الامر شيء كائنا من كان ، بل الامر كله لله ، وأقرب الخلق اليه وسيلة وأعظمهم عنده جاها وأرفعهم لديه ذكرا وقدرا وأعمهم عنده شفاعة ليس له من الامر شيء ، ولا يعطى أحدا شيئا ، ولا يمنع أحدا شيئا ، ولا يملك لأحد ضرا ولا رشدا ، وقد قال لاقرب الخلق اليه وهم ابنته وعمه وعمته : (يافاطمة بنت محمد لاأغني عنك من الله شيئا ، ياعباس عم رسول الله لاأغني عنك من الله شيئا ، ياصفية عمة رسول الله لاأغني عنك من الله شيئا) فهذا هو التعظيم الحق ، المطابق لحال المعظم ، النافع للمعظم في معاشه ومعاده ، الذي هو لازم ايمانه وملزومه .

وأما التعظيم باللسان فهو الثناء عليه بما هو أهله مما أثنى به على نفسه ،وأثنى به عليه ربه من غير غلو ولا تقصير ، فكما أن المقصر المفرط تارك لتعظيمه فالغالي

المفرط كذلك ، وكل منهما شر من الآخر من وجه دون وجه ، وأولياؤه سلكوا بين ذلك قواما •

وأما التعظيم بالجوارح فهو العمل بطاعتـه ، والسعي في اظهار دينه واعـلاء كلماته ، ونصر ماجاء به وجهاد ماخالفه •

وبالجملة : فالتعظيم النافع هو تصديقه فيما أخبر ، وطاعته فيما أمر ، والموالاة والمعاداة ، والحب والبغض لاجله وفيه ، وتحكيمه وحـده والرضا بحكمـه ، وأن لايتخذ من دونه طاغوت يكون التحاكم الى أقواله ، فما وافقها من قول الرسـول قبله وما خالفها رده أو تأوله أو أعرض عنه ، والله سبحانه يشهـد ـ وكفى بالله شهيدا ـ وملائكته ورسله وأولياؤه أن عباد القبور وخصوم الموحدين ليسوا كذلك وهم يشهدون على أنفسهم بذلك ، وما كان لهم أن ينصروا دينه ورسوله صلى الله عليه وسلم ، شاهدين على أنفسهم بتقديم آراء شيوخهم وأقوال متبوعيهم على قوله ، وأنه لايستفاد من كلامه يقين ، وأنه اذا عارضته آراء الرجال قدمت عليه وكان الحكم ماتحاكم به •

أفلا يستحي من الله من العقلاء من هذا حاله في أصول دينه وفروعه أن يتستر بتعظيم القبر ليوهم الجهال أنه معظم لرسول الله صلى الله عليـه وسلم ناصـر له ، منتصر له ممن ترك تعظيمه وتنقصه ؟ ويأبى الله ذلك ورسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنون • (وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)[1] (وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ، وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)[2] انتهى •

وقد أكثر شيخ الاسلام ـ قدس الله روحه ـ من الرد على الغلاة القبوريين في كتابه اقتضاء الصراط المستقيم وغيره من كتبه ، وما ذكرنـاه واف بالغـرض على اختصاره ، والله أعلم •

ثم ان النبهاني الغبي ذكر قصة بلال التي ذكرها السبكي ، وهي أن بلالا رأى في منامه النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقول له ماهذه الجفوة يابلال ، أما آن لك أن تزورني يابلال ، فانتبه حزينا وجلا خائفا ، فركب راحلته وقصد المدينة ، فأتى قبر النبي صلى الله عليه وسلم فجعل يبكي عنده ويمرغ وجهه عليه الى آخرها ، وقـد تكلم عليها الحافظ ابن قدامة في كتابه (الصارم المنكى في الرد على السبكي) وبين

---

(١) الانفال : ٣٤ (٢) التوبة : ١٠٥

وذكر النبهاني الغبي أيضا الاكذوبة المشهورة المسندة لاحمد الرفاعي ، فقال ان الزيارة وصلة مع الحبيب ، وقد وقع لبعض العارفين مخاطبته له صلى الله عليه وسلم ورده عليه ، ومن ذلك المعنى ماذكره بعض العارفين عن القطب الرفاعي في حال زيارته للقبر الشريف من قوله :

في حالة البعد روحي كنت أرسلها تقبل الارض عني وهي نائبتي
وهذه دولة الاشباح قد حضرت فامدد يمينك كي تحظى بها شفتي

قال : فمد يده الشريفة من الشباك فقبلها ، انتهى كلامه .

(أقول الكلام) على هذه الخرافة في مقامين ، (المقام الاول) في تكذيب وقوع هذه القصة وافترائها على أحمد الرفاعي ، (المقام الثاني) في بيان عدم امكان رؤية النبي صلى الله عليه وسلم بعد موته وأن من ادعى ذلك فهو كاذب .

(أما المقام الاول) وهو بيان كذب هذه القصة فمن وجوه كثيرة نذكر منها ماخطر بالبال .

(الاول) أنه قد ترجم أحمد الرفاعي هذا جماعة من المؤرخين على اختلافهم في المذهب ، ولم يذكروا هذه القصة في ترجمته ، ولو كانت ثابتة لعدوها من أعظم مآثره وأكبر مفاخره ، لاسيما التاج السبكي لتعصبه للمتصوفة ولاسيما من هو على مذهبه ونحلته ، ومع ذلك لم يذكر هذه القصة في ترجمة أحمد الرفاعي لما ترجمه في طبقاته ، فانه قال :

(أحمد بن علي بن أحمد بن يحيى بن حازم بن علي بن رفاعه) الشيخ الزاهد الكبير أحد أولياء الله العارفين ، والسادات المشمرين ، أهل الكرامات الباهرة ، أبو العباس بن أبي الحسن بن الرفاعي المغربي ، قدم أبوه الى العراق وسكن ببعض القرى وتزوج باخت الشيخ منصور الزاهد ورزق منها أولادا ،منهم الشيخ أحمد هذا لكنه مات وأحمد حمل ، فلما ولد رباه وأدبه خاله منصور ، وكان مولده في المحرم سنة خمسمائة ، وتفقه على مذهب الشافعي ، وكان كتابه التنبيه (١) ولو أردنا استيعاب فضائله لضاق الوقت ، ولكنا نورد مافيه بلاغ ، ثم ذكر كلاما في محاسن أخلاقه الى أن قال : وقال الشيخ أحمد : سلكت كل طريق فما رأيت أقرب ولا أسهل ولا أصلح من الذل والافتقار والانكسار لتعظيم أمر الله ، والشفقة على خلق الله ، والاقتداء بسنة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكان يجمع الحطب ويحمله

(١) كذا في الاصل .

الى بيوت الارامل والمساكن ، وربما كان يحمل الماء لهم ، الى أن قال : وكان لايجمع بين قميصين لا في شتاء ولا في صيف ، ولا يأكل الا بعد يومين أو ثلاثة أكلة ، ثم قال: وعن يعقوب ــ وقد سئل عن أوراد سيدي أحمد ، فقال ــ كان يصلي أربع ركعات بألف (قل هو الله أحد) ويستغفر كل يوم مرة ، واستغفاره أن يقول : لا اله الاأنت سبحانك اني كنت من الظالمين ، عملت سوء وظلمت نفسي وأسرفت في أمري ، ولا يغفر الذنوب الا أنت ، فاغفر لي وتب علي انك أنت التواب الرحيم ، ياحي ياقيوم لا اله الا أنت ، توفي يوم الخميس ثاني عشر جمادى الاولى سنة ثمان وسبعين وخمسمائة ، ومناقبه أكثر من أن تحصى ، وقد أفرد لها بعض الصلحاء كتابا يخصها ، انتهى •

فلم يذكر قصة مد اليد التي هي من أعظم الخوارق وأعجبها لو صحت ، مع أنه ذكر أعظم مفاخره وهي قصة الهرة التي كانت نائمة على كمه فقطع الكم ، وقصة البعوضة التي كانت على يده تمتص دمه ، وقصة الكلاب التي كانت تأكل التمر من القوصرة في دار الطعام وهم يتهارجون ، فوقف على الباب لئلا يدخل اليهم أحد يؤذيهم •

وذكر القاضي أحمد الشهير بابن خلكان في كتابه وفيات الاعيان مانصه : أبو العباس أحمد ابن أبي الحسن على بن أبي العباس أحمد المعروف بابن الرفاعي ، كان رجلا صالحا فقيها شافعي المذهب ، أصله من الغرب ، وسكن في البطائح بقرية يقال لها أم عبيدة ، وانضم اليه خلق عظيم من الفقراء ، وأحسنوا الاعتقاد فيه وتبعوه والطائفة المعروفة بالرفاعية والبطائحية من الفقراء منسوبة اليه ولاتباعه ، ولهم أحوال عجيبة من أكل الحيات وهي حية ، والنزول في التنانير وهي تتضرم بالنار فيطفؤنها الى أن قال : ولم يكن له عقب ، وانما العقب لأخيه وأولاده يتوارثون المشيخة والولاية على تلك الناحية الى الآن ، وأمورهم مشهورة مستفيضة فلا حاجة الى الاطالة فيها ، انتهى •

فلم يذكر تلك القصة من مناقبه ، ولو صحت روايتها لكانت غرة وجه مناقبه ، وهكذا ذكر كل من ترجمه من الثقاة ، وهذه مما اختلقها له أصحابه بعد موته بعدة سنين ، كما ادعوا له الانتساب الى ابراهيم المرتضى بن موسى الكاظم رضي الله عنه ولا أصل له أيضا ، قال في مختصر عمدة الطالب : ان الشيخ أحمد رحمه الله لم

يدع ذلك ، وانما ادعاه البطن الثالث من ولده ، ويقولـون هم أحمـد بن علي بن الحسين بن المهدي بن أبي القاسم بن محمد بن الحسين ابن أحمد الاكبر بن موسى أبي شجه بن ابراهيم المذكور ، قال أبو نصر البخاري : لايصـح لابراهيم المرتضى عقب الا من موسى وجعفر ومن انتسب الى غيرهما فهو كاذب انتهى المقصود منه •

والمقصود : أن قصة مد اليد ونحوها من المزايا والمآثر لو صحت لكانت أحق بالذكر من جميع ماذكروه ، فلما لم يذكروها علمنا أنها من أفك أفاك أثيم •

(الوجه الثاني) أن أحسن من رواها الامام السيوطي ، وقد أسندها الى بعض المجاميع ولم يذكر لها سندا واهيا فضلا عن أن يكون صحيحا ، مع أن حاله في الرواية معلوم ، فقال في كتابه (تنوير الحلك في رؤية النبي والملك) وفي بعض المجاميع وذكر القصة والبيتين على وجه الاختصار مع أن هذه القصة لو صحت لتوفرت الدواعـي على نقلها ، لأنها حادث عظيم وخارق عجيب ، فالشيء الذي تتوفر الدواعي على نقله ولم يذكره أحد من الثقات بل ذكره الدجالون الضالون المضلون فهو لاشك تزويـر وبهتان ، وكذب من أفك شيطان •

(الوجه الثالث) أن الدجالين الذين رووا هذه القصة المكذوبة ادعوا أن من كان حاضرا هناك ورأوا اليد وسمعوا رد السلام نحو مائة ألف أو يزيدون ، سبحانك هذا بهتان عظيم ! كيف يمكن أن يكون هناك هذا العدد الكثير ؟ وأي محل في المسجد يسعهم أو يسع عشر معشارهم ؟! ثم ان القبر قد أحاطت به الجدران فمن أي شباك خرجت اليد ؟ ومن المعلوم اذا كان أمر عجيب وشيء غريب يتهاجم على رؤيته الرآؤن فلا يمكن الرؤية الا للقريب ، وكذلك سماع رد السلام كيف أمكن للجميع ؟ فانظر الى هذه الاكذوبة التي لاتروج حتى على ضعفاء العقول ، ومع ذلك فقد تمسك بها قوم سلب الله منهم الحياء واتخذوها حبالة من حبائل مصائدهم ، وأغراهم الله على مثل هذه الدعاوي الكاذبة ليفضحهم بها في الدنيا والآخرة انتقاما لأهل الحق منهم •

(الوجه الرابع) أن كثيرا من أهل العلم والادب نسب البيتين الى غير أحمـد الرفاعي • قال الشيخ صلاح الدين الصفدي في تذكرته : حكي أن ابن الفارض لمـا اجتمع بالشهاب السهروردي في مكة أنشده :

في حالة البعد روحي كنت أرسلهـا ... تقبـل الارض عنـي وهي نائبتـي
وهـذه نوبة الاشباح قد حضـرت ... فامدد يمينك كـي تحظى بها شفتي

وكفى بما ذكره الشيخ صلاح الدين هذا شـاهدا على بطلان مادعاه غـلاة الرفاعية ومبتدعتهم ، فان هذا الشيخ كان اماما أديبا ناظمـا ناثرا ، ولـد سنة ست وتسعين وستمائة ، وقد عقد له ابن السبكي ترجمة مجملة في طبقاته ، وممن نقل ذلك الشهاب الخفاجي الشافعي في كتابه (طراز المجالس) وأن البيتين من شعر ابن الفارض لما اجتمع بالسهر وردي في مكة قال : وقد نسب هذا لغيره ، ولم يذكر الغير ولم يصرح باسمه •

(الوجه الخامس) حسن الظن بأحمد الرفاعي رحمه الله يقتضي عدم مخالفته للسنة النبوية والشريعة المحمدية ، فقد كان على ماروى الثقـاة بخـلاف من يدعي الانتماء اليه من المبتدعة الغلاة ، وأنه لم يزل على المنهج المستقيم والصراط القويم ، فمن البعيد عنه الزيارة البدعية التي وردت عن الجهلة الشيطانية ، بل لابد أن يزور الزيارة التي ذكرها الأئمة الاعلام ، وأساطين دين الاسلام ، وقد مر بيان ذلك مفصلا فيما نقلناه من كتابي الشيخ ، فكيف يسوغ لمن تأدب بالآداب النبوية أن يتجاسر في ذلك المقام ، ويطلب منه مالم يطلبه غيره من أكابر الصحابة وأئمة أهل البيت وغيرهم، ويقول له امدد يمينك كي تحظى بها شفتي ، فهل هذا إلا قول أفاك أثيـم أراد أن يروج زيف كلامه على الجهلة والعوام الطغام ، فمن اليقين لدى العارفين أن هذه القصة كذب وزور لعن الله من وضعها وافتراها •

(المقام الثاني في الكلام على رؤية النبي صلى الله عليه وسلم بعد الموت)

قد ذكرنا سابقا بعض الوجوه على القدح برواية مد اليد وقصدنا الاختصار في القول اذ الكلام عليه طويل جدا ، وقد آن أن نتكلم على المقام الثاني وهو أيضا من بعض الوجوه السابقة ، فنقول وبالله التوفيق : ان رؤية النبي صلى الله عليه وسلم قد ادعاها قوم كثيرون بعد وفاته بزمن طويل ، وقد ألف الجلال السيوطي رسالتـه المسماة (بتنوير الحلك في رؤية النبي والملك) لأجل تأييـد هذا القول ، وحـال السيوطي وتلونه معلوم ، حتى جعله بعض أهل العلم حاطب ليل ، وبعد أن نقـل عنه صاحب روح المعاني في هذه المسألة مانقل وكذا عن غيره قال في تفسيره : —

ثم اني أقول بعد هذا كله : ان مانسب الى بعض الكاملين من أرباب الاحوال من رؤية النبي صلى الله عليه وسلم بعد وفاته وسؤاله والاخذ عنه لم نعلم وقـوع مثله في الصدر الاول ، وقد وقع اختلاف بين الصحابة رضي الله تعالى عنهم من حين

توفي الى ماشاء الله تعالى في مسائل دينية وأمور دنيوية ، وفيهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله تعالى عنهم ، والى أبي بكر وعلي ينتهي أغلب سلاسل الصوفية الذين تنسب اليهم تلك الرؤية ، ولم يبلغنا أن أحدا منهم ادعى أنه رأى في اليقظة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخذ عنه ماأخذ ، وكذا لم يبلغنا أنه صلى الله عليه وسلم ظهر لمتحير في أمر من أولئك الصحابة الكرام فأرشده وأزال تحيره .

وقد صح عن عمر رضي الله تعالى عنه أنه قال في بعض الامور : ليتني كنت سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه ، ولم يصح عندنا أنه توسل الى السؤال منه صلى الله عليه وسلم بعد الوفاة نظير مايحكى عن بعض أرباب الاحوال ، وقد وقفت على اختلافهم في حكم الجد مع الاخوة ، فهل وقفت على أن أحدا منهم ظهر له الرسول صلى الله عليه وسلم فأرشده الى ماهو الحق فيه ، وقد بلغك ماعرى فاطمة البتول رضي الله تعالى عنها من الحزن العظيم بعد وفاته صلى الله عليه وسلم وما جرى لها في أمر فدك ، فهل بلغك عنه عليه الصلاة والسلام أنه ظهر لها كما يظهر للصوفية قبل لوعتها وهون حزنها وبين الحال لها ؟ وقد سمعت بذهاب عائشة الى البصرة وما كان من وقعة الجمل ، فهل سمعت تعرضه صلى الله عليه وسلم لها قبل الذهاب وصده اياها عن ذلك لئلا يقع أو تقوم الحجة عليها على أكمل وجه ؟ الى غير ذلك مما لايكاد يحصى كثرة .

(والحاصل) أنه لم يبلغنا ظهوره عليه الصلاة والسلام لأحد من أصحابه وأهل بيته مع احتياجهم الشديد لذلك ، وظهوره عند باب مسجد قباء كما يحكيه بعض الشيعة افتراء محض وبهت بحت .

وبالجملة عدم ظهوره لأولئك الكرام وظهوره لمن بعدهم مما يحتاج الى توجيه يقنع به ذوو الافهام ، ولا يحسن مني أن أقول كل مايحكى عن الصوفية من ذلك كذب لا أصل له لكثرة حاكيه وجلالة مدعيه ، وكذا لايحسن مني أن أقول انهم انما رأوا النبي صلى الله عليه وسلم مناما فظنوا ذلك لخفة النوم وقلة وقته يقظة ، فقالوا رأينا يقظته لما فيه من البعد ، ولعل في كلامهم مايأباه ، وغاية ماأقول أن تلك الرؤية من خوارق العادة كسائر كرامات الاولياء ومعجزات الانبياء عليهم السلام ، وكانت الخوارق في الصدر الاول لقرب العهد بشمس الرسالة قليلة جدا ، وأنى يرى النجم تحت الشعاع أو يظهر كوكب وقد انتشر ضوء الشمس في البقاع ، فيمكن أن يكون قد وقع ذلك لبعضهم على سبيل الندرة ولم تقتض المصلحة افشاءه ، ويمكن أن يقال

انه لم يقع لحكمة الابتلاء ، أو لخوف الفتنة ، أو لأن في القوم من هو كالمرآة لـه صلى الله عليه وسلم ، أو ليهرع الناس الى كتاب الله تعالى وسنته صلى الله تعـالى عليه وسلم فيما يهمهم ، فيتسع باب الاجتهاد ، وتنشر الشريعة ، وتعظم الحجة التي يمكن أن يعقلها كل أحد ، أو لنحو ذلك ، وربما يدعى أنه عليه الصلاة والسلام ظهر ولكن كان مستترا في ظهوره ، كما روي أن بعض الصحابة أحب أن يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاء الى ميمونة فأخرجت له مرآته فنظـر فيها فرأى صـورة رسول الله عليه الصلاة والسلام ولم ير صورة نفسه ، فهذا كالظهور الذي يدعيـه الصوفية الا أنه بحجاب المرآة وليس من باب التخيل الذي قوى بالنظر الى مرآته عليه الصلاة والسلام ، وملاحظة أنه كثيرا ماظهرت فيها صـورته حسبما ظنه ابـن خلدون ، فان قبل قولي هذا وتوجيهي لذلك الامر فبها ونعمت ، والا فالامر مشكل فاطلب لك مايحله ، والله سبحانه الموفق للصواب ، انتهى كلامه .

وتوجيهه الذي وجه به غير مقبول ، اذ لايدل عليه كتاب ولا سنة صحيحـة ، وليس الامر مشكلا اذا لم يقبل توجيهه كما زعمه ، لأن غلـط الحس كثـير ، فاذا صدقوا برواياتهم نجيب حينئذ بما أجاب شيخ الاسلام في كتابه الجواب الباهر ،وقد ذكرناه سابقا برمته فانه قد قال : وكان الصحابة خير القرون ، وهـم أعلم النـاس بسنته وأطوع الامة لامره ، وكانوا اذا دخلوا الى المسجد لايذهب أحد منهـم الى قبره لا من داخل الحجرة ولا من خارجها ، وكانت الحجرة في زمانه يدخل اليها من الباب اذ كانت عائشة فيها وبعد ذلك الى أن بني الحائط الآخر ،وهم مع ذلك التمكن من الوصول الى قبره لايدخلون اليه لا لسلام ، ولا لصلاة ، ولا لدعاء لأنفسهـم ، ولا لسؤال عن حديث أو علم ، ولا كان الشيطان يطمع فيهـم حتى يسمعهم كـلاما وسلاما فيظنون أنه هو كلمهم وأفتاهم وبين لهم الاحاديث أو أنه قد رد عليهم السلام بصوت يسمع من خارج كما طمع الشيطان في غيرهم ، فأضلهم عند قبره وقبر غيره ، حتى ظنوا أن صاحب القبر يحدثهم ويفتيهم ويأمرهم وينهاهم في الظاهر ، وأنه يخرج من القبر ويرونه خارجا من القبر ، ويظنون أن نفس أبدان الموتى خرجت من القبـر تكلمهم ، وأن روح الميت تجسدت لهم فرأوها كما رآهم النبي صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج يقظة لا مناما ، فان الصحابة رضوان الله عليهم خير قرون هذه الامةالتي هي خير أمة أخرجت للناس ، وهم تلقوا الدين عن النبي صلى الله عليه وسلم بـلا واسطة ففهموا من مقاصده وعاينوا من أفعاله ، وسمعوا منه شفاها مالم يحصل لمـن

بعدهم ، وهم قد فارقوا جميع أهل الارض وعادوهم ، وهجروا جميع الطوائف وأديانهم ، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم الى آخر ماذكره هناك .

ثم انه يؤيد ماذكره الشيخ أن العرب في الجاهلية كثيرا ماكانوايسمعون كلاما من أصنامهم كما سمعوا من صنمهم المسمى بالجلسد وهو صنم كان بحضر موت ، وفي كتاب أبي أحمد الحسن ابن عبد الله العسكري قال :أخبرنا ابن‌دريد قال أخبرني عمي الحسين بن دريد قال أخبرني حاتم ابن قبيصة المهلبي عن هشام بن الكلبي عن أبي مسكين ، قال : كان بحضر موت صنم يسمى الجلسد تعبده كنده وحضر موت ، وكانت سدنته بني شكامة بن شبيب بن السكون بن أشرس بن ثور بن مرتع وهو كنده ، ثم الى أهل بيت منهم يقال لهم بنو علاق ، وكان الذي يسدنه منهم يسمى الاخزر ابن ثابت ، وكان للجلسد حمى ترعاه سوامه وغنمه ، وكانت هوا في الغنم اذا رعت حمى الجلسد حرمت على أربابها ، وكانوا يكلمون منه ، وكان كجثة الرجل العظيم ، وهو من صخرة بيضاء لها كالرأس أسود ، واذا تأمله الناظر رأى فيه كصورة وجه الانسان (قال الاخزر) ، اني كنت يوما عند الجلسد وقد ذبح له رجل من بني الامري بن مهرة ذبحا اذ سمعنا فيه كهمهمة الرعد فأصغينا فاذا قائل يقول : شعارأهل عدم ، انه قضاء حتم ، ان بطش سهم ، فقد فاز سهم ، فقلنا ربنا وضاح فأعاد الصوت وهو يقول : ناء نجم العراق ، ياأخزر بن علاق ، هل أحسست جمعا عما ، وعدد أجما ، يهوى من يمن وشام ، الى ذات الاجام ، نور أظل وظلام أفل ، وملك انتقل من محل الى محل ، ثم سكت فلم ندر ماهو فقلنا هذا أمر كائن ، فلما كان في العام المقبل ــ وقد راث علينا ماكنا نسمع من كلام الصنم وساءت ظنوننا،وقربناقربانا ولطخنا بدمه وكذلك كنا نفعل ــ فاذا الصوت قد عاد الينا فتباشرنا ، فقلنا عم صباحا ربنا لامصد عنك ولا محيد تشارت الشؤن وسأت الظنون ، فالعياذ من‌غضبك والأياب الى صفحك ، فاذا النداء من الصنم يقول : قلبت البنات ، وعزاها واللات ، وعلياها ومناة ، منعت الافق فلا مصعد ، وحرست فلا مقعد ، وأبهمت فلا متلدد ، وكان قد ناجم نجم ، وهاجم الجم ، وصامت زجم ، وقابل رجم ، وداع نطق ، وحق سبق ، وباطل زهق ، ثم سكت فتحدثت القبائل بهذا في مخاليف اليمن ، فانا لعلى أفان ذلك ، اذ أضل رجل من كندة ابلا فأقبل الى الجلسد فنحر جزورا واستعار ثوبين من ثياب السدنة واكتراهما فلبسهما ــ وكذلك كانوا يفعلون ــ ثم قال : ــ أنشدك يارب أبكرا ضخما مدمومة دما مخلوقة بالافخاذ ، مخلوطة بالحاذ ، أضللتها

بين جماهير النخرة ، حيث الشقيقة والصفرة ، فاهد رب وارشد فلم يجب ، قال الاخزر فانكسر لذلك ، وقد كان فيما مضى يخبرنا بالاعاجيب ، فلما جن علينا الليل بت مبيتي عنده ، فاذا هاتف يقول : لا شأن للجلسد ولا رئي لهدد ، استقام الاود ، وعبد الواحد الصمد ، واكفى الحجر الاصلد ،والرأس الاسود ، قال فنهضت مذعورا فأتيت الصنم فاذا هو منقلب على رأسه ، وكان لو اجتمع فئام من الناس ماحلحلوه فوالذي نفسي بيده ماعرجت على أهل ولا مال حتى أتيت راحلتي وخرجت حتى أتيت صنعاء ، فقلت هل من خائبة خبر ؟ فقيل : ظهر رجل بمكة يدعو الى خلع الاوثان ، ويزعم أنه نبي ، فلم أزل أطوف في مخاليف اليمن حتى ظهر الاسلام ، فأتيت النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فأسلمت ، وفي اشعارهم :

فبات يجتاب شقارى كما … بيقر من يمشي الى الجلسد

والبيقر مشية يطأطيء الرجل فيها رأسه ، والبيت للمثقب العبدي ، ومنهم من قال انه لعدي بن الرقاع ، ويروى كما كبر من يمشي الى الجلسد .

وسمعوا أيضا كلاما من صنمهم المسمى بالضمار ــ وهو بكسر الضاد المعجمة وميم مخففة بعدها ألف ثم راء مهملة ــ كان صنما لبني سليم ، ولما حضرت مرداسا الوفاة قال للعباس ولده أي بني أعبد ضمارا فانه ينفعك ويضرك فبينما عباس يوما عند ضمار اذ سمع من جوف ضمار مناديا يقول :

من للقبائل من سليم كلها … أودى ضمار وعاش أهل المسجد

ان الذي ورث النبوة والهدى … بعد ابن مريم من قريش مهتد

أودى ضمار وكان يعبد مدة … قبل الكتاب الى النبي محمد

فحرق عباس ضمارا ولحق بالنبي صلى الله عليه وسلم ، وفي لفظ أن عباس بن مرداس كان في لقاح له نصف النهار اذ طلع عليه راكب على نعامة بيضاء وعليه ثياب بيض فقال له ياعباس ألم تر أن السماء قد تعب أحراسها ، وأن الحرب قد حرقت أنفاسها ، وأن الخيل وضعت أحلاسها ، وأن الذي نزل عليه البر والتقوى صاحب الناقة القصوا ؟ فقال عباس : فراعني ذلك فجئت وثنا لنا يقال له الضمار كنا نعبده ، ونكلم من جوفه فكنست ماحوله ثم تمسحت به ، فاذا صائح يصيح من جوفه :

قل للقبـــائل من قريش كلهـــا هلـــك الضمار وفاز أهل المسجـــد
هلك الضمـــار وكان يعبد مـــدة قبـــل الصـــلاة على النبي محمـــد
ان الـــذي ورث النبوة والهـــدى بعـــد ابن مريـــم من قريش مهتـــد

قال عباس فخرجت مع قوم بني حارثة الى رسول الله صلى الله تعالى عليـــه وسلم بالمدينة فدخلت المسجد ، فلما رآني رسول الله صلى الله عليه وسلم تبسم ، فقال : ياعباس كيف اسلامك ؟! فقصصت عليه القصة ، فقال : صدقت وأسلمت أنا وقومي •

وما كفى مبتدعة الرفاعية وغلاتهم تلك الاكذوبة الظاهرة العوار ، البينةالفساد حتى اتخذوا لها يوم عيد ، ولا يأكلون قبله بسبعة أيام شيئا من اللحـــوم ، وبعد انقضائها يكون العيد فيهنيء بعضهم بعضا به ويسمونه عيد مد اليد • ولهم في ذلك رسائل ومصنفات ، منها القواعد المرعية في أصول الطريقة الرفاعية ، وفيها قاعدة في الخلوة الاسبوعية المحرمية ، وفيها اشترط رجال هذه الطريقة العلية دخول الخلوة المحرمية في كل سنة في اليوم الثاني عشر من محرم الحرام الى مساء اليوم السابـــع عشر ، وقد اشترطوا ذلك على كل من انتسب الى هذه الطريقة ، وقالوا يلزم المختلي أن يتخذ له فراشا خالصا لايشاركه فيه النساء ، وأن يديم الوضوء كلما حدث لـــه ناقض جدده ، ولا يتكلم بمالا يعنيه ، ولا يكثر الكلام لغير ضرورة ، وليلزم بيته الا لعذر وينفرد ، وليكن طعامه خاليا عن كل ذي روح ، ثم ذكر مايشرع للســـالك في تلك الايام من أوراد واذكار •

ومنها الفخر المخلد في منقبة مد اليد ، وفيها بيان مايشـــرع ليلة عيد الخلـــوة المحرمية من البدع والاهواء ، ولم ينزل الله بها من سلطان ، ولم يتكلم بما حوتـــه عالم من العلماء الاعلام ، وكلها قد تلقوها عن اخوانهم الباطنية ، والنحل الرافضية •

وليس هذا المقام مقام الرد عليهم ، وبيان مانسب من الضلال اليهم ، وقـــد رد عليهم شيخ الاسلام في عدة مواضع ، وألف فيهم كتبا مفصلة ، منها كتابه الذي سماه (كشف حال المشائخ الاحمدية وبيان أحوالهم الشيطانية) نذكر منهان شاء الله تعالى مايناسب مقامه •

وأظن أن ماكتبه النبهاني الغبي في هذه المسألة انمـــا هو ارضاء لشيخه شيـــخ الضلال ومقدمة الدجال ، عدو المسلمين ، وناصر المبتدعين ، الذي كان قربه من ولى

الامر من أعظم المصائب وأدهى النوائب ، وقد روج بدع الرفاعية أي رواج ، وعدل بالمسلمين عن سواء السبيل وأقوم منهاج ، هذا مع ماهو عليه من الفسق والفجور ، والزيغ عن الحق في كل الامور ، وما اكتفى بذلك حتى بث حزبه ومردته يصدون عن الحق في كل سبيل ، وأقعدهم على صراط الله المستقيم للاغواء والتضليل ، حتى استفحل أمرهم ، وعم البر والبحر شرهم ، فذكر النبهاني الجاهل هذه القضية التي هي احدى حبائل شيخه ليستجلب رضاه ، فعليه وعلى شيخه مايستحقان ، والردود المؤلفة في القدح على شيخه هذا كثيرة ، وكلها مطبوعة ومشتهرة منها كتاب(المسامير) ومنها (الفتح المبين) ومنها (السيف الرباني) ومنها غير ذلك ، ولكن الامر كما قيل:

من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميت ايلام

ثم ان النبهاني أخذ يتكلم على فضل المدينة النبوية ، وذكر للشيخ البكري أربعين حديثا في فضلها ، والبكري هذا هو الذي رد عليه الشيخ في كتاب(الاستغاثة) وهو مجلد كبير ، ثم ذكر الخلاف في مكة والمدينة أيهما أفضل الخ .

أقول : فضل المدينة مما لاشك فيه ، والكتب مملوءة من ذلك ، قال ابن‌خلدون اعلم أن الله سبحانه وتعالى فضل من الارض بقاعا اختصها بتشريفه ، وجعلها مواطن لعبادته يضاعف فيها الثواب وينمو بها الاجور ، وأخبرنا بذلك على ألسن رسله وأنبيائه لطفا بعباده وتسهيلا لطرق السعادة لهم ، وكانت المساجد الثلاثة هي أفضل بقاع الارض حسبما ثبت في الصحيحين ، وهي مكة ، والمدينة ، وبيت المقدس ، أما بيت الحرام الذي بمكة فهو بيت ابراهيم صلوات الله وسلامه عليه ، أمره الله ببنائه وأن يؤذن في الناس بالحج اليه ، فبناه هو وابنه اسماعيل كما نصه القرآن ، وقام بما أمره الله فيه وسكن اسماعيل به مع هاجر ومن نزل معهم من جرهم الى أن قبضهما الله ودفنا بالحجر منه .

وبيت المقدس بناه داود وسليمان عليهما السلام ، أمرهما الله ببناء مسجده ونصب هياكله ، ودفن كثير من الانبياء من ولد اسحق عليه السلام حواليه .

قال : والمدينة مهاجر نبينا محمد صلوات الله وسلامه عليه ، أمره الله تعالى بالهجرة اليها ، واقامة دين الاسلام بها ، فبنى مسجده الحرام بها ، وكان ملحده الشريف في تربتها .

قال : فهذه المساجد الثلاثة قرة عين المسلمين ، ومهوى أفئدتهم ، وعظمة دينهم،

وفي الآثار من فضلها ومضاعفة الثواب في مجاورتها والصلاة فيها كثير معروف •

ثم انه أشار الى شيء من الخبر عن أولية هذه المساجد الثلاثة ، وكيف تدرجت أحوالها الى أن كمل ظهورها في العالم ، وقد ذكر ياقوت الحموي ذلك بتفصيل أكثر على أنه قد أفرد لذلك كتب مخصوصة مشهورة ، فلا تتعب القلم بذكرها •

(وقد ذكر شيخ الاسلام ابن تيمية) في جواب سؤال ورده عن صحة أصول مذهب أهل المدينة ومنزلة مالك المنسوب اليه مذهبهم في الامامة والديانة وضبط علوم الشريعة عند أئمة علماء الامصار وأهل الثقة والخبرة من سائر الاعصار •

(أجاب رضي الله عنه) الحمد لله : مذهب أهل المدينة النبوية ــ دار السنة ودار الهجرة ودار النصرة اذ فيها سن الله لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم سنن الاسلام وشرائعه واليها هاجر المهاجرون الى الله ورسوله وبها كان الانصار أنصار الله الذين تبوؤاا لدار والايمان من قبلهم مذهبهم ــ في زمن الصحابة والتابعين وتابعيهم أصح مذاهب أهل المذاهب الاسلامية شرقا وغربا في الاصول والفروع ، وهذه الاعصار الثلاثة هي أعصار القرون المفضلة التي قال فيها النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح من وجوه (خير القرون القرن الذي بعثت فيهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم) فذكر ابن حبان بعد قرنه قرنين بلا نزاع ، وفي بعض الاحاديث الشك في القرن الثالث بعد قرنه ، وقد روى في بعضها بالجزم باثبات القرن الثالث بعد قرنه فتكون أربعة ، واعتمد على ذلك أبو حاتم السلمي ونحوه من علماء أهل الحديث في طبقات هذه الامة بأن هذه الزيادة ثابتة في الصحيح ، ثم انه ذكر أحاديث الثلاثة والاحاديث التي فيها ذكر القرن الرابع ــ الى أن قال ــ وفي القرون التي أثنى عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم كان مذهب أهل المدينة ، أصح مذاهب أهل المدائن ، فانهم كانوا يتأسون بأثر رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر من سائر الامصار ، وكان غيرهم من أهل الامصار دونهم في العلم بالسنة النبوية واتباعها ، حتى أنهم لايفتقرون الى نوع من سياسة الملوك ، وأن افتقار العلماء ومقاصد العباد أكثر من افتقار أهل المدينة حيث كانوا أغنى من غيرهم عن ذلك كله بما كان عندهم من الآثار النبوية التي يفتقر الى العلم بها واتباعها كل أحد ، ولهذا لم يذهب أحد من علماء المسلمين الى أن اجماع أهل مدينة من المدائن حجة يجب اتباعها غير المدينة ، لا في تلك الاعصار ولا فيما بعدها ، لا اجماع أهل مكة ولا الشام ولا العراق ولا غير ذلك من أمصار المسلمين ، ومن حكى عن أبي حنيفة أو أحد من

أصحابه أن اجماع أهل الكوفة حجة يجب اتباعها على كل مسلم فقد غلط على أبي حنيفة وأصحابه في ذلك •

وأما المدينة فقد تكلم الناس في اجماع أهلها ، واشتهر عن مالك وأصحابه أن اجماع أهلها حجة ، وأن بقية الأئمة ينازعونهم في ذلك ، والكلام انما هو في اجماعهم في تلك الاعصار المفضلة • وأما بعد ذلك فقد اتفق الناس على أن اجماع أهلها ليس بحجة ، اذ كان حينئذ في غيرها من العلماء مالم يكن فيها ، لاسيما من حين ظهر بهـا الرفض ، فان أهلها مستمسكون بمذهبهم القديم ، منتسبين الى مذهب مالـك الى أوائل المائة السادسة أو قبل ذلك أو بعد ذلك ، فانهم قدم اليهم من رافضة المشرق من أهل قاشان وغيرهم من أفسد مذهب كثير منهم ، لاسيما المنتسبون منهم الى العترة النبوية ، وقدم عليهم بكتب أهل البدع المخالفة للكتاب والسنة ، وبذل لهم أموالا فكثرت البدعة بها من حينئذ ، فأما الاعصار المفضلة فلـم يكن فيها بالمـدينة النبوية بدعة ظاهرة البتة ، ولا خرج منها بدعة في أصول الدين ، كما خرج من سائر الامصار فان الامصار الكبار التي سكنها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وخرج منها العلم والايمان خمسة : البحران ، والعراقان ، والشامان ، منها خرج القرآن والحديث والفقه والعبادة وما يتبع ذلك من أمور الاسلام •

وخرج من هذه الامصار بدع أصولية غير المدينة النبوية ، فالكوفة خرج منها التشيع والارجاء ، وانتشر بعد ذلك في غيرها ، والبصرة خرج منها القدر والاعتزال الفاسد ، وانتشر بعد ذلك في غيرها • والشام كان بها النصب والقدر ، وأما التجهم فانما ظهر من ناحية خراسان ، وهو شر البدع ، ولأن ظهور البدع بحسب البعد عن الدار النبوية ، فلما حدثت الفرقة بعد مقتل عثمان ظهرت بدعة الحرورية ، وتقـدم بعقوبتها الشيعة من الاصناف الثلاثة الغالية حيث حرقهم علي بالنار ، والمفضلة حيث تقدم جلدهم ثمانين ، والسبائية حيث طلب أن يعاقب ابن سبا بالقتل أو بغيره فهرب منه ، ثم في أواخر عصر الصحابة حدثت القدرية في آخر عصر ابن عمر وابن عبـاس وجابر وأمثالهم من الصحابة وحدثت المرجئة قريبا من ذلك •

وأما الجهمية فانما حدثوا في أواخر عصر التابعين بعد موت عمر بن عبد العزيز، وقد روي أنه أنذر بهم ، وكان ظهور جهم بخراسان في خلافة هشام بن عبد الملك ، وقد قتل المسلمون شيخهم الجعد بن درهم قبل ذلك ، ضحى به خالـد بن عبد الله القسري ، وقال : ياأيها الناس ضحوا تقبل الله ضحاياكم فاني مضح بالجعد بن درهم

انه زعم أنه لم يتخذ الله ابراهيم خليلا ، ولم يكلم موسى تكليما ، تعالى عما يقول الجعد بن درهم علوا كبيرا ، ثم نزل فذبحه ، وقد روى أن ذلك بلغ الحسن البصري وأمثاله من التابعين فشكروا ذلك •

(وأما المدينة النبوية) فكانت سليمة من ظهور هذه البدع ، وان كان بها من هو مضمر لذلك كان عندهم مهانا مذموما ، اذ كان بها قوم من القدرية وغيرهم ، لكن كانوا مذمومين مقهورين ، بخلاف التشيع والارجاء بالكوفة ، والاعتزال وبدع النساك بالبصرة ، والنصب بالشام ، فانه كان ظاهرا ، وقد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أن الدجال لايدخلها ، ويحكى أن عمرو بن عبيد وهو رأس المعتزلة ممن كان يساجي سفيان الثوري ولم يعلم سفيان به فقال عمرو لرجل من هذا فقال سفيان الثوري أو قال من أهل الكوفة قال ولو علمت بذلك لدعوته الى رأيي ولكن ظننته من هؤلاء المدنيين الذين يجيئونك من فوق •

ولم يزل العلم والايمان بها ظاهرا الى زمن أصحاب مالك ، وهم أصل القرن الرابع ، حيث أخذ ذلك القرن عن مالك وأهل طبقته ، كالثوري والاوزاعي والليث بن سعد وحماد بن زيد وحماد بن سلمة وسفيان بن عيينة وأمثالهم ، وهؤلاء أخذوا عن طوائف من التابعين ، وأولئك أخذوا عمن أدركوا من الصحابة ،والكلام في اجماع أهل المدينة في تلك الاعصار •

(والتحقيق في مسألة اجماع أهل المدينة) أن منه ماهو متفق عليه بين المسلمين ومنه ماهو قول جمهور أئمة المسلمين ، ومنه مالا يقول به الا بعضهم ، وذلك أن اجماع أهل المدينة على أربع مراتب •

(الاولى) مايجري مجرى النقل عن النبي صلى الله عليه وسلم ، مثل نقلهم لمقدار الصاع والمد ، وكترك صدقة الخضراوات والاجناس ، فهذا مما هو حجة باتفاق العلماء •

أما الشافعي وأحمد وأصحابهما فهذا حجة عندهم بلا نزاع ، كما هو حجة عند مالك ، وذلك مذهب أبي حنيفة وأصحابه ، قال أبو يوسف رحمه الله — وهو أجل أصحاب أبي حنيفة ، وأول من لقب قاضي القضاة ، لما اجتمع بمالك وسأله عن هذه المسائل ، وأجابه مالك بنقل أهل المدينة المتواتر رجع أبو يوسف الى قوله وقال — لو رأى صاحبي مثل مارأيت لرجع مثل مارجعت •

فقد نقل أبو يوسف أن مثل هذا النقل حجة عند صاحبه أبي حنيفة كما هو حجة عند غيره ، لكن أبو حنيفة لم يبلغه هذا النقل كما لم يبلغه ولم يبلغ غيره من الأئمة كثير من الحديث فلا لوم عليهم في ترك مالم يبلغهم علمه ، وكان رجوع أبي يوسف الى هذا النقل كرجوعه الى أحاديث كثيرة اتبعها هو وصاحبه محمد وتركا قول شيخهما لعلمهما بأن شيخهما كان يقول ان هذه الاحاديث أيضا صحت لكن لم تبلغه ، ومن ظن بأبي حنيفة أو غيره من أئمة المسلمين أنهم يتعمدون مخالفة الحديث الصحيح لقياس أو غيره فقد أخطأ عليهم ، وتكلم اما بظن واما بهوى ، فهذا أبوحنيفة يعمل بحديث التوضي بالنبيذ بالسفر مخالفة للقياس ، وبحديث القهقهة في الصلاة مع مخالفته للقياس ، لاعتقاده صحتهما وان كان أئمة الحديث لم يصححوه ، قال : وقد بينا هذا في رسالة (رفع الملام ، عن الائمة الاعلام) وبينا أن أحدا من أئمة الاسلام لايخالف حديثا صحيحا بغير عذر ، بل لهم نحو من عشرين عذرا : مثل أن يكون أحدهم لم يبلغه الحديث ، أو بلغه من وجه لم يثق به ، أو لم يعتقد دلالتهعلى الحكم ، أو اعتقد أن ذلك الدليل قد عارضه ماهو أقوى منه ، كالناسخ أو مايدل على الناسخ وأمثال ذلك ، والاعذار يكون العالم في بعضها مصيبا فيكون له أجران ، ويكون في بعضها مخطئا بعد اجتهاده فيثاب على اجتهاده وخطؤه مغفور له ، لقوله تعالى: (رَبَّنا لا تؤَاخذنا إن نسينَا أوْ اخطأنا) وقد ثبت في الصحيح أن الله استجاب هذا الدعاء وقال قد فعلت ، ولأن العلماء ورثة الانبياء •

وقد ذكر الله عن داود وسليمان أنهما حكما في قضية ، وأنه فهمها أحدهما ،ولم يعب الآخر بل أثنى على كل واحد منهما بأنه حكما وعلما ، فقال : (وداودَ وسُليمانَ إذ يحكمان في الحرثِ إذ نَفَشَتْ فيه غنَمُ القوم وكنَّا لحكمْهم شاهِدين ففهَّمْناها سُليمانَ وكُلاً آتيْنا حُكْماً وعِلْماً)[1]

وهذه الحكومة تتضمن مسألتين تنازع فيهما العلماء : مسألة نفش الدواب في الحرث بالليل وهو مضمون عند جمهور العلماء كمالك والشافعي وأحمد ، وأبوحنيفة لم يجعله مضمونا ، والثانية : ضمان بالمثل والقيمة ، وفي ذلك نزاع في مذهب الشافعي وأحمد وغيرهما ، والمأثور عن أكثر السلف في نحو ذلك يقتضي الضمان بالمثل اذا أمكن ، كما قضى به سليمان ، وكثير من الفقهاء لايضمنون ذلك الا بالقيمة

(١) الانبياء : ٧٨

كالمعروف من مذهب أبي حنيفة والشافعي وأحمد •

والمقصود هنا : أن عمل أهل المدينة الذي يجري مجري النقل حجة باتفاق المسلمين ، قال مالك لأبي يوسف ــ لما سأله عن الصاع والمد وأمر أهل المدينة باحضار صيعانهم وذكروا له أن اسنادها على أسلافهم ــ أترى هؤلاء ياأبايوسف يكذبون ؟ قال لا والله مايكذبون ، فانا حررت هذه الصيعان فوجدتها خمسة أرطال وثلث بأرطالكم ياأهل العراق ، فقال : رجعت الى قولك ياأبا عبد الله ، ولو رأى صاحبي مارأيت لرجع كما رجعت •

وسأله عن صدقة الخضراوات ، فقال : هذه مباقيل أهل المدينة لم يؤخذ منها صدقة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا أبي بكر ولا عمر رضي الله تعالى عنهما يعني وهي تنبت فيها الخضراوات •

وسأله عن الاجناس ، فقال : هذا جنس فلان وهذا جنس فلان ، يذكر لبيان الصحابة ، فقال أبو يوسف في كل منهما : قد رجعت ياأبا عبد الله ، ولو رأى صاحبي مارأيت لرجع كما رجعت •

وأبو يوسف ومحمد وافقا بقية الفقهاء في أنه ليس في الخضراوات صدقة كمذهب مالك والشافعي وأحمد ، وفي أنه ليس فيما دون خمسة أوسق صدقة كمذهب هؤلاء ، وأن الوقف عنده لازم كمذهب هؤلاء •

وانما قال برطالكم ياأهل العراق لأنه لما انقرضت الدولة الاموية وجاءت دولة ولد العباس قريبا فقام أخوه أبو جعفر الملقب بالمنصور فبنى بغداد فجعلها دار ملكه، وكان أبو جعفر يعلم أن أهل الحجاز حينئذ كانوا أعنى بدين الاسلام من أهل العراق•

ويروى أنه قال ذلك لمالك أو غيره من علماء المدينة ، قال نظرت في هذا الامر فوجدت أهل العراق أهل كذب وتدليس أو نحو ذلك ، ووجدت أهل الشام انما هم أهل غزو وجهاد ، ووجدت هذا الامر فيكم •

ويقال انه قال لمالك وأنت أعلى أهل الحجاز أو كما قال ، فطلب أبو جعفر علماء الحجاز أن يذهبوا الى العراق وينشروا العلم فيه ،فقدم عليهم هشام بن عروة ،ومحمد بن اسحق ، ويحيى بن سعيد الانصاري ، وربيعة بن أبي عبد الرحمن ، وحنظلة بن أبي شقيق الجمحي ، وعبد العزيز ابن أبي سلمة الماجشون ، وغير هؤلاء ، وكان أبو

يوسف يختلف في مجالس هؤلاء ويتعلم منهم الحديث وأكثر ممن قدم الحجاز •

ولهذا يقال في أصحاب أبي حنيفة : أبو يوسف أعلمهم بالحديث ، وزفر أطردهم للقياس ، والحسن بن زيـاد اللؤلؤي أكثـرهم تفريعا ، ومحمد أعلمهـم بالعربية والحساب ، وربما قيل أكثرهم تفريعا ، فلما صارت العراق دار الملك واحتاج الناس الى تعريف أهلها بالسنة والشريعة غير المكيال الشرعي برطل أهل العراق ، وكـان رطلهم بالحنطة الثقيلة والعدس اذ ذاك تسعين مثقالا ، مائة وثمانية وعشرون درهما وأربعة أسباع الدرهم ، فهذا هو المرتبة الاولى لاجماع أهل المدينة وهو حجة باتفاق المسلمـين •

(المرتبة الثانية) العمل القديم بالمدينة قبل مقتل عثمان بن عفان ، فهذا حجة في مذهب مالك ، وهو المنصوص عن الشافعي ، قال في رواية يونس بن عبد الاعلى اذا رأيت قدماء أهل المدينة على شيء فلا تتوقف في قلبك ريبا انه الحق ، وكذا ظاهـر مذهب أحمد أن ماسنه الخلفاء الراشدون فهو حجة يجب اتباعها ، وقال أحمد كـل بيعة كانت في المدينة فهي خلافة النبوة ، ومعلـوم أن بيعة أبي بكر وعمـر وعثمان كانت بالمدينة ، وكذلك بيعة علي كانت بالمدينة ، ثم خرج منها وبعد ذلك لم يعقـد بالمدينة بيعة ، وقد ثبت في الحديث الصحيح حديث العرباض بن سـارية عن النبي صلى الله تعالى عليهو سلم أنه قال : (عليكم بسنتي وسنة الخلفاءالراشدين المهديين من بعدي ، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ ، واياكم ومحدثات الامور ، فان كـل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار) وفي السنن من حديث سفينة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (خلافة النبوة ثلاثون سنة ثم تكون ملكا عضوضا) فالمحكي عن أبي حنيفة يقتضي أن قول الخلفاء الراشدين يخالف سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم •

(والمرتبة الثالثة) اذا تعارض في المسألة دليلان كحديثين وقياسين جهل أيهمـا أرجح وأحدهما يعمل به أهل المدينة : ففيه نزاع ، فمذهب مالك والشافعي أنه يرجح بعمل أهل المدينة ، ومذهب أبي حنيفة أنه لايرجح بعمل أهل المدينة ولاصحاب أحمد وجهان :

(أحدهما) وهو قول القاضي أبي يعلىوابن عقيل أنه لايرجح •

(والثاني) وهو قول أبي الخطاب وغيره أنه يرجح به ، قيل هذا هو المنصوص عن أحمد ، ومن كلامه قال اذا رأى أهل المدينة حديثا وعملوا به فهو الغاية ، وكـان

يفتي على مذهب أهل المدينة ويقدمه على مذهب أهل العراق تقريرا كثيرا ، وكان يدل المستفتي على مذاهب أهل الحديث ومذهب أهل المدينة ، ويدل المستفتي على اسحق وأبي عبيدة وأبي ثور ونحوهم من فقهاء أهل الحديث ، ويدله على حلقة المدنيين حلقة أبي مصعب الزهري ونحوه ، وأبو مصعب هو آخر من مات من رواة الموطأ عن مالك ، مات بعد أحمد بسنة سنة اثنين وأربعين ومائتين ، وكان أحمد يكره أن يرد على أهل المدينة كما يرد على أهل الرأي ، ويقول انهم اتبعوا الآثار ، فهذا مذهب جمهور الأئمة يوافق مذهب مالك في الترجيح لأقوال أهل المدينة •

(وأما المرتبة الرابعة) فهي العمل المتأخر بالمدينة فهذا هل هو حجة شرعية يجب اتباعها أم لا ؟ فالذي عليه أئمة الناس انه ليس بحجة شرعية ، هذا مذهب الشافعي وأحمد وأبي حنيفة وغيرهم ، وهو قول المحققين من أصحاب مالك ، كما ذكر ذلك الفاضل عبد الوهاب في كتابه أصول الفقه وغيره ، ذكر أن هذا ليس اجماعا ولا حجة عند المحققين من أصحاب مالك ، وربما جعله حجة بعض أهل الغرب من أصحابه ، وليس معه للأئمة نص ولا دليل ، بل هم أهل تقليد • قلت : ولم أر في كلام مالك ما يوجب جعل هذا حجة ، وهو في الموطأ انما يذكر الاصل المجمع عليه عندهم فهو يحكي مذهبهم ، وتارة يقول الذي لم يزل عليه أهل العلم ببلدنا يصير الى الاجماع القديم ، وتارة لايذكر ، ولو كان مالكا يعتقد أن العمل المتأخر حجة يجب على جميع الامة اتباعها ــ وان خالفت النصوص ــ لوجب عليه أن يلزم الناس بذلك حد الامكان ، كما يجب عليه أن يلزمهم اتباع الحديث والسنة الثابتة التي لاتعارض فيها ، وبالاجماع •

وقد عرض عليه الرشيد أو غيره أن يحمل الناس على موطئه فامتنع من ذلك ، وقال : ان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم تفرقوا في الامصار وانما جمعت على أهل بلدي أو كما قال •

واذا تبين أن اجماع أهل المدينة تفاوت فيه مذاهب جمهور الائمة علم بذلك أن قولهم أصح أقوال أهل الامصار رواية ورأيا ، وأنه تارة يكون حجة قاطعة ، وتارة حجة قوية ، وتارة مرجحا للدليل ، اذ ليست هذه الخاصية لشيء من أمصار المسلمين، ومعلوم أن من كان بالمدينة من الصحابة هم خيار الصحابة اذ لم يخرج منها أحد قبل الفتنة الا وأقام بها من هو أفضل منه ، فانه لما فتح الشام والعراق وغيرهما أرسل عمر بن الخطاب الى الامصار من يعلمهم الكتاب والسنة ، فذهب الى العراق عبد

الله بن مسعود ، وحذيفة ابن اليمان ، وعمار ابن ياسر ، وعمران ابن حصين ،وسلمان الفارسي وغيرهم • وذهب الى الشام معاذ بن جبل ، وعبادة بن الصامت ، وأبوالدرداء وبلال بن رباح وأمثالهم • وبقي عنده مثل عثمان وعلي وعبد الرحمن بن عوف ،ومثل أبي بن كعب ومحمد بن مسلمة وزيد ابن ثابت وغيرهم ، وكان ابن مسعود وهو أعلم من كان بالعراق من الصحابة يفتي بالفتيا ، ثم يأتي المدينة فيسأل علماء أهل المدينة فيردونه عن قوله فيرجع ، كما جرى في مسألة أمهات النساء لما ظن ابن مسعود أن الشرط فيها وفي الربيبة ، وأنه اذا طلق امرأته قبل الدخول حلت أمها كما تحل ابنتها، فلما جاء الى المدينة وسأل عن ذلك أخبره علماء الصحابة أن الشرط في الربيبة دون الامهات فرجع الى قولهم ، وأمر الرجل بفراق امرأته بعدما حلت •

وكان أهل المدينة فيما يعملون : إما سنة من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإما أن يرجعوا الى قضايا عمر بن الخطاب : ويقال : إن مالكا أخذ جل الموطأ عن ربيعة ، وربيعة عن سعيد بن المسيب ، وسعيد ابن المسيب عن عمر ، وعمر محدث ، وفي الترمذي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لو لم أبعث فيكم لبعث فيكم عمر) وفي الصحيحين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : (كان في الامم قبلكم محدثون فان يكن في أمتي أحد فعمر) ، وفي السنن عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال (اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر) وكان عمر يشاور أكابر الصحابة كعلي وعثمان وطلحة والزبير وسعد وعبد الرحمن وهم أهل الشورى ، ولهذا قال الشعبي انظروا ماقضى به عمر فانه كان يشاور ، ومعلوم أن ماكان يقضي أو يفتي به عمر يشاور فيه هؤلاء أرجح مما يقضي أو يفتي به ابن مسعود أو نحوه رضي الله تعالى عنهم أجمعين •

وكان عمر ــ في مسائل الدين والاصول والفروع ــ انما يتبع لما قضى به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان يشاور عليا وغيره من أهل الشورى ، كما شاوره في المطلقة المعتدة الرجعية في المرض اذا مات زوجها هل ترث وأمثال ذلك ، فلما قتل عثمان وحصلت الفتنة والفرقة وانتقل علي الى العراق هو وطلحة والزبير لم يكن بالمدينة من هو مثل هؤلاء ، ولكن كان بها من الصحابة مثل سعد بن أبي وقاص وأبي أيوب ومحمد بن مسلمة وأمثالهم من هو أجل ممن مع علي من الصحابة ، فأعلم من كان بالكوفة من الصحابة علي وابن مسعود ، وعلي كان بالمدينة اذكان بها عمروعثمان وابن مسعود وهو نائب عمر وعثمان ، ومعلوم أن عليا مع هؤلاء أعظم علما وفضلا

من جميع من معه من أهل العراق ، ولهذا كان الشافعي يناظر بعض أهل العـراق في الفقه محتجا على المناظر بقول علي وابن مسعود ، فصنف الشافعي كتاب اختلاف علي وعبد الله يبين فيه ماتركه المناظر وغيره من أهل العلم من قولهما ، وجاء بعده محمد بن نصر المروزي صنف في ذلك أكثر مما صنف الشافعي ــ الى أن قال ــ ومما يوضح الامر في ذلك أن سائر أمصار المسلمين ــ غير الكوفة ــ كانوا منقادين لعلم أهـل المدينة لايعدون أنفسهم أكفاءهم في العلم كأهل الشام ومصر ، مثـل الاوزاعي ومن قبله وبعده من الشاميين ، ومثل الليث بن سعد ومن قبل ومن بعد من المصريين وان تعظيمهم لعمل أهل المدينة واتباعهم لمذاهبهم القديمة ظاهر بين ، وكذلك علماء أهـل البصرة كأيوب وحماد بن زيد وعبد الرحمن بن مهدي وأمثالهم ، ولهذا ظهر مذهب أهل المدينة في هذه الامصار ، فان أهل مصر صاروا ناصرة لقول أهل المدينة ، وهـم أجلاء أصحاب مالك المصريين كابن وهب وابن القاسم وأشهب وعبد الله بن الحكم ، والشاميون مثل الوليد بن مسلم ومروان ابن محمد وأمثالهم لهم روايات معروفة عن مالك ، وأما أهل العراق كعبد الرحمن بن مهدي وحماد ابن زيد ، ومثل اسمعيل بن اسحق القاضي وأمثالهم كانوا على مذهب مالـك ، وكانوا قضـاة القضاة واسمعيل ونحوه كانوا من أجل علماء الاسلام .

وأما الكوفيون بعد الفتنة والفرقة يدعون مكافأة أهل المدينة ، وأما قبل الفتنة والفرقة فقد كانوا متبعين لأهل المدينة ومنقادين لهم ، لايعرف بعد مقتل عثمـان أن أحدا من أهل الكوفة أو غيرها يدعي أن أهل مدينته أعلم من أهل المدينة ، فلما قتل عثمان وتفرقت الامة وصاروا شيعا ظهر من أهل الكوفة من يساوي بعلمـاء أهـل الكوفة علماء أهل المدينة ، ووجه الشبهة في ذلك أنه ضعف أمر المدينة لخروج خلافة النبوة منها ، وقوي أمر أهل العراق لحصول علي فيها .

لكن مافيه الكلام من مسائل الفروع والاصول قد استقـر في خلافة عمـر ، ومعلوم أن قول أهل الكوفة مع سائر الامصار قبل الفرقة أولى من قولهم وحديثهم بعد الفرقة .

قال عبيدة السلماني ــ قاضي علي كرم الله وجهه ــ رأيك مع عمر في الجماعة أحب الينا من رأيك وحدك في الفرقة ، ومعلوم أنه كان بالكوفة من الفتنة والتفرق مادل عليه النص والاجماع ، لقول النبي صلى الله عليه وسلم : (الفتنة من ههنا ، الفتنة من ههنا ، الفتنة من ههنا ، من حيث يطلع قرن الشيطان) وهذا الحديث قـد

ثبت عنه في الصحيح من غير وجه •

ومما يوضح الامر في ذلك : أن العلم اما رواية واما رأي ، وأهل المدينة أصح أهل المدن رواية ورأيا ، وأما حديثهم فأصح الاحاديث ، وقد اتفق أهل العلم بالحديث على أن أصح الاحاديث أحاديث أهل المدينة ، ثم أحاديث أهل البصرة • وأما أحاديث أهل الشام : فهي دون ذلك ، فانه لم يكن لهم من الاسناد المتصل وضبط الالفاظ مالهؤلاء ، ولم يكن منهم — يعني أهل المدينة ، ومكة ، والبصرة ، والشام — من يعرف بالكذب ، لكن منهم من يضبط ، ومنهم من لايضبط •

وأما أهل الكوفة : فلم يكن الكذب في أهل بلد أكثر منه فيهم ، ففي زمن التابعين كان بها خلق كثير منهم معروفون بالكذب ، لاسيما الشيعة ، فانهم أكثر الطوائف كذبا باتفاق أهل العلم ، ولاجل هذا يذكر عن مالك وغيره من أهل المدينة أنهم لم يكونوا يحتجون بعامة أحاديث أهل العراق ، لأنهم قد علموا أن فيهم كذابين ، ولم يكونوا يميزون بين الصادق والكاذب ،فاما إذا علموا صدق الحديث فانهم يحتجون به ، كما روى مالك عن أيوب السختياني وهو عراقي ، فقيل له ذلك ، فقال ماحدثتكم عن أحد الا وأيوب أفضل منه أو نحو هذا ، وهذا القول هو القول القديم للشافعي ، حتى روي أنه قيل له : اذا روى سفيان عن منصور عن علقمة عن عبد الله حديثا ألا يحتج به ؟ فقال : ان يكن له أصل بالحجاز والا فلا • ثم ان الشافعي رجع عن ذلك ، وقال لأحمد بن حنبل أنتم أعلم بالحديث منا ، فاذا صح الحديث فأخبرني به حتى أذهب اليه ، شاميا كان أو بصريا أو كوفيا ، ولم يقل مكيا أو مدنيا لأنه كان يحتج بهذا قبل •

وأما علماء أهل الحديث كشعبة ويحيى بن سعيد وأصحاب الصحيح والسنن فكانوا يميزون بين الثقات الحفاظ وغيرهم ممن بالكوفة والبصرة من الثقات الذين لاريب فيهم ، وان فيهم من هو أفضل من كثير من أهل الحجاز ، ولا يستريب عالم في مثل أصحاب عبد الله ابن مسعود : كعلقمة ، والاسود ، وعبيدة السلماني ، والحارث التيمي ، وشريح القاضي ، ثم مثل ابراهيم النخعي ، والحكم بن عتيبة وأمثالهم من أوثق الناس وأحفظهم ، فلهذا صار علماء الاسلام متفقين على الاحتجاج بما صححه أهل العلم بالحديث من أي مصر كان ، وصنف أبو داود السجستاني مفاريد أهل الامصار يذكر فيه ماانفرد أهل كل مصر من المسلمين من أهل العلم بالسنة •

(وأما الفقه والرأي) فقد علم أن أهل المدينة لم يكن فيهم من ابتدع بدعة في أصول الدين ، ولما حدث الكلام في الرأي في أوائل الدولة العباسيه وفرع لهم ربيعة

بن هرمز فرعا كما فرع عثمان الليثي وأمثاله بالبصرة ، وأبو حنيفة وأمثاله بالكوفة ، وصار في الناس من يقبل ذلك وفيهم من يرد ، وصار الرادون لذلك مثل هشام ابن عروة وأبي الزناد والزهري وابن عيينة وأمثالهم ، فان ردوا ماردوا من الرأي المحدث بالمدينة فهم للرأي المحدث بالعراق أشد ردا ، فلم يكن أهل المدينة أكثر من أهل العراق فيما لايحمد ، وهم فوقهم فيما يحمدونه ، وبهذا يظهر الرجحان •

وأما ماقال هشام بن عروة : لم يزل أمر بني اسرائيل معتدلا حتى نشأ فيهم المولدون ــ أبناء سبايا الامم ــ فقالوا فيهم بالرأي فضلوا وأضلوا ، قال ابن عيينة : فنظرنا في ذلك فوجدنا ماحدث من الرأي انما هو من المولدين أبناء سبايا الامم ، وذكر بعض من كان بالمدينة وبالبصرة وبالكوفة ، والذين بالمدينة أحمد عند هذا ممن بالعراق من أهل المدينة •

ولما قال مالك رضي الله تعالى عنه عن احدى الدولتين انهم كانوا اتبع للسنن من الدولة الاخرى ، قال ذلك لأجل ماظهر بمقاربتها من الحدثان ، لأن أولئك أولى بالخلافة نسبا وقرنا •

وقد كان المنصور والمهدي والرشيد ــ وهم سادات خلفاء بني العباس ــ يرجحون علماء الحجاز وقولهم على علماء أهل العراق ، كما كان خلفاء بني أمية يرجحون أهل الحجاز على علماء الشام ، ولما كان فيهم من لم يسلك هذا السبيل بل عدل الى الآراء المشرقية كثر الاحداث فيهم وضعفت الخلافة •

ثم ان بغداد انما صار فيها من العلم والايمان وترجحت على غيرها بعد موت مالك وأمثاله من علماء أهل الحجاز ، وسكنها من أفشى السنة بها وأظهر حقائق الاسلام ، مثل أحمد بن حنبل ، وأبي عبيدة ، وأمثالهما من فقهاء أهل الحديث ، ومن ذلك الزمان ظهرت بها السنة في الاصول والفروع ، وكثر ذلك فيها وانتشر منها الى الامصار ، وانتشر أيضا من ذلك الوقت من المشرق والمغرب ، فصار في المشرق مثل اسحق بن ابراهيم بن راهويه وأصحابه ، وأصحاب عبد الله بن المبارك ، وصار الى المغرب من علم أهل المدينة مانقل اليهم من علماء الحديث ، فصار في بغداد وخراسان والمغرب من العلم مايكون مثله اذ ذاك بالحجاز والبصرة ، ولم يكن بعد عصر مالك وأصحابه من علماء الحجاز من يفضل على علماء العراق والمشرق والمغرب ، وهذا باب يطول تتبعه ولو استقصينا فضل علماء أهل المدينة وصحة أصولهم لطال الكلام •

(اذا تبين ذلك) فلا ريب عند أحد أن مالكا رضي الله عنه أقوم الناس بمذهب أهل المدينة رواية ورايا ، فانه لم يكن في عصره ولا بعده أقوم بذلك منه ، كان له من المكانة عند أهل الاسلام ـ الخاص منهم والعام ـ مالايخفى على من له بالعلم أدنى المام ، وقد جمع الحافظ أبو بكر الخطيب أخبار الرواة عن مالك فبلغوا ألفا وسبعمائة أو نحوها ، وهؤلاء الذين اتصل الى الخطيب حديثهم بعد قريب من ثلاثمائة سنة ، فكيف بمن انقطعت أخبارهم ولم يتصل اليه خبرهم ، فان الخطيب توفي سنة اثنين وسبعين وأربعمائة ، وعصره وعصر ابن عبد البر والبيهقي والقاضي أبي يعلي وأمثال هؤلاء واحد ، ومالك توفي سنة تسع وسبعين ومائة ، وتوفي أبو حنيفة سنة خمسين ومائة ، وتوفي الشافعي سنة أربع ومائتين ، وتوفي أحمد بن حنبل سنة احدى وأربعين ومائتين ، ولهذا قال الشافعي : ماتحت أديم السماء كتاب أكثر صوابا بعد كتاب الله من موطأ مالك ، وهو كما قال الشافعي رضي الله عنه .

وهذا لايعارض ماعليه أئمة الاسلام من أنه ليس بعد القرآن كتاب أصح من صحيح البخاري ومسلم ، مع أن الأئمة على أن البخاري أصح من مسلم ، ومن رجح مسلما فانه رجحه بجمعه ألفاظ الحديث في مكان واحد ، فان ذلك أيسر على من يريد جمع ألفاظ الحديث .

وأما من زعم أن الاحاديث التي انفرد بها مسلم أو الرجال الذين انفرد بهم أصح من الاحاديث التي انفرد بها البخاري ، ومن الرجال الذين انفرد بهم : فهذا غلط لايشك فيه عالم ، كما لايشك أحد أن البخاري أعلم من مسلم بالحديث والعلل والتاريخ ، وأنه أفقه منه ، اذ البخاري وأبو داود أفقه أهل الصحيح والسنن المشهورة ، وان كان قد يتفق لبعض ماانفرد به مسلم أن يرجح على بعض ماانفرد به البخاري فهذا قليل والغالب بخلاف ذلك ، فان الذي اتفق عليه أهل العلم انه ليس بعد القرآن كتاب أصح من كتاب البخاري ومسلم ، وانما كانا كذلك لأنه جرد فيهما الحديث الصحيح المسند ، ولم يكن القصد بتصنيفهما ذكر آثار الصحابة والتابعين ولا سائر الحديث من الحسن والمرسل وشبه ذلك ، ولا ريب أن ماجرد فيه الحديث الصحيح المسند عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو أصح الكتب ، لانه أصح منقولا عن المعصوم من الكتب المصنفة .

وأما الموطأ ونحوه فانه صنف على طريقة العلماء المصنفين اذ ذاك ، فان الناس على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يكتبون القرآن ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد نهاهم أن يكتبوا عنه غير القرآن ، وقال : (من كتب عني شيئا غير

القرآن فليمحه) ثم نسخ ذلك عن جمهور العلماء حيث أذن في الكتابة لعبد الله بن عمر ، وقال اكتبوا لأبي شاه ، وكتب لعمرو بن حزم كتابا ، قالوا وكان النهي أولا خوفا من اشتباه القرآن بغيره ، ثم أذن لما أمن ذلك ، فكان الناس يكتبون من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم مايكتبون ،وكتبوا أيضا غيره ،ولم يكونوا يصنفون ذلك في كتب مصنفة الى زمن تابعي التابعين ، فصنف العلم ، فأول من صنف ابن جريج شيئا في التفسير ، وشيئا في الاموات ، وصنف سعيد ابن أبي عروبة ، وحماد بن سلمة ، ومعمر وأمثال هؤلاء يصنفون مافي الباب عن النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين ، وهذه هي كانت كتب الفقه والعلم والاصول والفروع بعد القرآن ، فصنف مالك الموطأ على هذه الطريقة ، وصنف بعد عبد الله ابن المبارك ، وعبد الله بن وهب ، ووكيع بن الجراح ، وعبد الرحمن بن مهدي ، وعبد الرزاق ، وسعيد بن منصور ، وغير هؤلاء ، فهذه الكتب التي كانوا يعدونها في ذلك الزمان هي التي أشار اليها الشافعي رحمه الله تعالى ، فقال : ليس بعد القرآن كتاب أكثر صوابا من موطأ مالك ، فان حديثه أصح من حديث نظرائه ، وكذلك الامام أحمد — لما سئل عن حديث مالك ورأيه ، وحديث غيره ورأيهم — رجح حديث مالك ورأيه على حديث أولئك ورأيهم ، وهذا يصدق الحديث الذي رواه الترمذي وغيره عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (يوشك أن يضرب الناس أكباد الابل في طلب العلم فلا يجدون عالما أعلم من عالم المدينة) فقد روي عن غير واحد كابن جريج وابن عيينة وغيرهما أنهم قالوا هو مالك .

والذين نازعوا في هذا لهم مأخذان (أحدهما) الطعن في الحديث ، فزعم بعضهم أن فيه انقطاعا (والثاني) أنه أراد غير مالك كالعمري الزاهد ونحوه ، فيقال : مادل عليه الحديث وأنه مالك أمر مقرر لمن كان موجودا وبالتواتر لمن كان غائبا ، فانه لاريب أنه لم يكن في عصر مالك أحد ضرب اليه الناس أكباد الابل أكثر من مالك ، وهذا يقرر بوجهين (أحدهما) بطلب تقديمه على مثل الثوري ، والاوزاعي ، والليث وأبي حنيفة ، وهذا فيه نزاع ولا حاجة اليه في هذا المقام (والثاني) أن يقال : ان مالكا تأخر موته عن هؤلاء كلهم ، فانه توفي سنة تسع وسبعين ومائة ، وهؤلاء كلهم ماتوا قبل ذلك ، فمعلوم أنه بعد موت هؤلاء لم يكن في الامة أعلم من مالك في ذلك العصر ، وهذا لاينازع فيه أحد من المسلمين ، ولا رحل الى أحد من علماء المدينة مارحل الى مالك لاقبله ولا بعده ، رحل اليه من المشرق والمغرب ، ورحل اليه الناس على اختلاف طبقاتهم من العلماء والزهاد ، والملوك والعامة ، وانتشر موطؤه في الارض

حتى لايعرف في ذلك العصر كتاب بعد القرآن كان أكثر انتشارا من الموطأ ، وأخذ الموطأ عنه أهل الحجاز والشام والعراق ، ومن أصغر من أخذ عنه الشافعي ومحمد بن الحسن وأمثالهما ، وكان محمد بن الحسن اذاحدث بالعراق عن مالك والحجازيين يمتليء داره ، واذا حدث عن أهل العراق يقل الناس لعلمهم بأن علم مالك وأهل المدينة أصح وأثبت ، وأجل من أخذ عنه الشافعي العلم اثنان مالك وابن عيينه ، ومعلوم عند كل أحد أن مالكا أجل من ابن عيينه ، حتى أنه كان يقول : اني ومالك كما قال القائل :

وابن اللبون اذا مالز في قرن لم يستطع صولة البزل القناعيس

ومن زعم أن الذي ضربت اليه أكباد الابل في طلب العلم هو العمري الزاهدمع كونه كان رجلا صالحا زاهدا آمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر ، لم يعرف أن الناس احتاجوا الى شيء من علمه ، ولا رحلوا اليه فيه ، وكان اذا أراد أمرا يستشير مالكا ويستفتيه ، كما نقل أنه استشاره لما كتب اليه من العراق أن يتولى الخلافة ، فقال حتى أشاور مالكا ، فلما استشاره أشار عليه أن لايدخل في ذلك ، وأخبره أن هذا لايتركه ولد العباس حتى تراق فيه دماء كثيرة ، وذكر له ماذكر عمر بن عبد العزيز — لما قيل له : ولى القاسم بن محمد — ان بني أمية لايدعون هذا الامر حتى تراق فيه دماء كثيرة ، وهذه علوم التفسير والحديث والفتيا وغيرها من العلوم لم يعلم أن الناس أخذوا عن العمري الزاهد منها مايذكر ، فكيف يقرن هذا بمالك في العلم ورحلة الناس اليه •

ثم هذه كتب الصحيح التي أجل ما فيها كتاب البخاري : أول مايستفتح الباب بحديث مالك ، وان كان في الباب شيء من حديث مالك لايقدم على حديثه غيره ، ونحن نعلم أن الناس ضربوا أكباد الابل في طلب العلم فلم يجدوا عالما أعلم من مالك في وقته ، والناس كلهم مع مالك ، وأهل المدينة اما موافق ، واما منازع ، فالموافق لهم عضد ونصير ، والمنازع لهم معظم لهم مبجل لهم عارف بمقدارهم ، وما تجد من يستخف بأقوالهم ومذاهبهم الا من ليس معدودا من أئمة العلم ، وذلك لعلمهم أن مالكا هو القائم بمذهب أهل المدينة ، وهو أظهر عند الخاصة والعامة من رجحان مذهب أهل المدينة على سائر الامصار ، فان موطأة مشحون اما بحديث أهل المدينة ، واما بما اجتمع عليه أهل المدينة ، اما قديما ، واما حديثا • وأما مسألة تنازع فيها أهل المدينة وغيرهم فيختار فيها قولا ويقول هذا أحسن ماسمعت ، فاما بآثار معروفة عند علماء المدينة ولو قدر أنه كان في الازمان المتقدمة من هو أتبع لمذهب أهل المدينةمن

مالك فقد انقطع ذلك • ولسنا ننكر أن من الناس من أنكر على مالك مخالفته أولا لاحاديثهم في بعض المسائل ، كما يذكر عن عبد العزيز الدراوردي أنه قال له في مسألة تقدير المهر بنصاب السرقة تعرقت يا أبا عبد الله أي صرت فيها الى قول أهل العراق الذين يقدرون أقل المهر بنصاب السرقة ، لكن النصاب عند أبي حنيفة وأصحابه عشرة دراهم ، وأما مالك والشافعي وأحمد فالنصاب عندهم ثلاثة دراهم أو ربع دينار كما جاءت بذلك الاحاديث الصحيحة ، فقال أولا ان مثل هذه الحكاية تدل على ضعف أقاويل أهل العراق عند أهل المدينة ، وأنهم كانوا يكرهون للرجل أن يوافقهم، وهذا مشهور عندهم يعيبون الرجل بذلك ، كما قال ابن عمر لما استفتاه عن دم البعوض ، وكما قال ابن المسيب لربيعة لما سأله عن عقل أصابع المرأة ، وأما ثانيا : فمثل هذا في قول مالك قليل جدا ، وما من عالم الا وله مايرد عليه ، وما أحسن ماقال ابن خويز منداد في مسألة بيع كتب الرأي والاجارة عليها لا فرق عندنا بين رأي صاحبنا مالك وغيره في هذا الحكم ، لكنه أقل خطأ من غيره •

(وأما الحديث) فأكثره تجد مالكا قد قال به في احدى الروايتين ، وانما ترك طائفة من أصحابه كمسألة رفع اليدين عند الركوع والرفع منه ، وأهل المدينة رووا عن مالك الرفع موافقا للحديث الذي رواه ، لكن ابن القاسم ونحوه من البصريين هم الذين قالوا بالرواية الاولى ، ومعلوم أن رواية ابن القاسم أصلها مسائل أسد بن فرات التي فرعها أهل العراق ، ثم سأل عنها أسد ابن القاسم ، فأجابه بالنقل عن مالك ، وتارة بالقياس على قوله ، ثم أصحها في رواية سحنون ، فلهذا يقع في كلام ابن القاسم طائفة من الميل الى قول أهل العراق ، وان لم يكن ذلك من أصول أهل المدينة ، ثم اتفق أنه لما انتشر مذهب مالك بالاندلس وكان يحيى بن يحيى عامل الاندلس والولاة يستشيرونه ، فكانوا يأمرون القضاة أن لايقضوا الا بروايته عن مالك ، ثم رواية غيره ، ثم انتشرت رواية ابن القاسم عن مالك لأجل من عمل بها ، وقد تكون مرجوحة في المذهب ، وعمل أهل المدينة والسنة حتى صاروا يتركون رواية الموطأ ــ الذي هو متواتر عن مالك ، ومازال يحدث به حتى مات ــ لرواية ابن القاسم ، وان كان طائفة من أئمة المالكية أنكروا ذلك ، فمثل هذا ان كان فيه عيب فانما هو على من نقل ذلك لا على مالك ، ويمكن المتبع لمذهبه أن يتبع السنة في عامة الامور ، اذ قل من سنة الا وله قول يوافقها ، بخلاف كثير من مذهب أهل الكوفة فانهم كثيرا مايخالفون السنة وان لم يتعمدوا ذلك •

ثم من تدبر أصول الاسلام وقواعد الشريعة وجد أصول مالك وأهل المدينة

أصح الاصول والقواعد ، وقد ذكر ذلك الشافعي وأحمد وغيرهما ، حتى ان الشافعي لما ناظر محمد بن الحسن حين رجع محمد بصاحبه على صاحب الشافعي فقال له الشافعي بالانصاف أو بالمكاثرة ؟ قال له : بالانصاف ، فقال : ناشدتك الله صاحبنا أعلم بكتاب الله أم صاحبكم ؟ فقال : بل صاحبكم • فقال : صاحبنا أعلم بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم أم صاحبكم ؟ فقال بل صاحبكم • فقال : صاحبنا أعلم بأقوال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أم صاحبكم ؟ فقال : صاحبكم ، فقال : مابقي بيننا وبينكم الا القياس ونحن نقول بالقياس ، ولكن من كان بالاصول أعلم كان قياسه أصح ، وقالوا للامام أحمد من أعلم بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم مالك أم سفيان ؟ فقال : بل مالك ، فقيل له أيما أعلم بآثار أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مالك أم سفيان ؟ فقال : بل مالك ، فقيل له : أيما أزهد مالك أم سفيان ؟ فقال : هذه لكم ، ومعلوم أن سفيان الثوري أعلم أهل العراق ذلك الوقت بالفقه والحديث ، فان أبا حنيفة ، والثوري ، ومحمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى ، والحسن بن صالح بن جني ، وشريك ابن عبد الله النخعي القاضي كانوا متقاربين في العصر ، وهم أئمة فقهاء الكوفة في ذلك العصر ، وكان أبو يوسف يتفقه أولا على محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى القاضي ، ثم انه اجتمع بأبي حنيفة فرأى أنه أفقه منه فلزمه ، وصنف كتاب اختلاف أبي حنيفة وأبي ليلى ، وأخذه عنه محمد بن الحسن ونقله الشافعي عن محمد بن الحسن ، وذكر فيه اختياره ، وهو المسمى بكتاب (اختلاف العراقيين) ومعلوم أن سفيان الثوري أعلم هذه الطبقة في الحديث مع تقدمه في الفقه والزهد ، والذين أنكروا من أهل العراق وغيرهم ماأنكروا من الرأي المحدث بالكوفة لم ينكروا ذلك على سفيان الثوري ، بل سفيان عندهم امام العراق، فتفضيل أحمد لمذهب مالك على مذهب سفيان تفضيل له على مذهب أهل العراق ، وقد قال الامام أحمد في علمه وعلم مالك بالكتاب والسنة والآثار ماتقدم ، مع أن أحمد يقدم سفيان الثوري على هذه الطبقة كلها ، وهو يعظم سفيان غاية التعظيم ، ولكنه كان يعلم أن مذهب أهل المدينة وعلمائها أقرب الى الكتاب والسنة من مذهب أهل الكوفة وعلمائها ، وأحمد كان معتدلا عالما بالامور يعطي كل ذي حق حقه ، ولهذا كان يحب الشافعي ويثني عليه ويدعو له ويذب عنه عند من يطعن في الشافعي أو من ينسبه الى بدعة ، ويذكر تعظيمه للسنة واتباعه لها ، ومعرفته بأصول الفقه كالناسخ والمنسوخ ، والمجمل والمفسر ، ويثبت خبر الواحد ومناظرته عن مذهب أهل الحديث من خالفه بالرأي وغيره •

وكان الشافعي يقول : سموني ببغداد ناصر الحديث ، ومناقب الشافعي واجتهاده في اتباع الكتاب والسنة واجتهاده في الرد على من يخالف ذلك كثير جدا ، وهو كان على مذهب أهل الحجاز ، وكان تفقه على طريقة المكيين أصحاب ابن جريج، كمسلم بن خالد ، والزنجي ، وسعيد بن سالم القداح ، ثم رحل الى مالك وأخذ عنه الموطأ ، وكمل أصول أهل المدينة ، فكان أجل علما وفقها وقدرا من أهل مكة من عهد النبي صلى الله عليه وسلم الى عهد مالك ، ثم اتفقت له محنة ذهب فيها الى العراق ، فاجتمع بمحمد بن الحسن وكتب كتبه وناظره ، وعرف أصول أبي حنيفة وأصحابه ، وأخذ من الحديث ماأخذه على أهل العراق ، ثم ذهب الى الحجاز ، ثم قدم الى العراق مرة ثانية ، وفيها صنف كتابه القديم المعروف (بالحجة) واجتمع به أحمد بن حنبل في هذه القدمة بالعراق ، واجتمع به بمكة ، وجمع بينه وبين اسحق بن راهويه، وتناظرا بحضور أحمد رضي الله تعالى عنهم أجمعين ، ولم يجتمع بأبي يوسف ولا بالاوزاعي وغيرهما ، فمن ذكر ذلك في الرحلة المضافة اليه فهو كاذب ، فان تلك الرحلة فيها من الاكاذيب عليه وعلى مالك وأبي يوسف ومحمد وغيرهم من أهل العلم مالايخفى على عالم ، وهي من جنس كذب القصاص ، ولم يكن أبو يوسف ومحمد سعيا في أذى الشافعي قط ، ولا كان حال مالك معه ماذكر في تلك الرحلة الكاذبة .

ثم رجع الشافعي الى مصر وصنف كتابه الجديد ، وهو في خطابه وكتابه ينسب الى مذهب أهل الحجاز ، فيقول : قال بعض أصحابنا ــ وهو يعني أهل المدينة أو بعض علماء أهل المدينة كمالك ــ ويقول في أثناء كلامه وخالفنا بعض المشرقيين ، وكان الشافعي عند أصحاب مالك واحدا منهم ينسب الى أصحابهم ، واختار سكنى مصر اذ ذاك لأنهم كانوا على مذهب أهل المدينة ومن يشبههم من أهل مصر كالليث بن سعد وأمثاله .

وكان أهل الغرب بعضهم على مذهب هؤلاء ، وبعضهم على مذهب الاوزاعي وأهل الشام ، ومذهب أهل الشام ومصر والمدينة متقارب ، لكن أهل المدينة أجل عند الجميع .

(ثم ان الشافعي رضي الله عنه) لما كان مجتهدا في العلم ورأى من الاحاديث الصحيحة وغيرها من الادلة مايجب عليه اتباعه ــ وان خالف قول أصحابه المدنيين ــ قام بما رآه واجبا عليه ، وصنف الاملاء على مسائل ابن القاسم ، وأظهر خلاف مالك فيما خالفه فيه .

وقد أحسن الشافعي فيما فعل ، وقام بما يجب عليه ، وان كان قد كره ذلك من

كرهه وآذوه ، وجرت محنة مصرية معروفة ، والله يغفر لجميع المؤمنين والمؤمنات الاحياء منهم والاموات •

(وأبو يوسف ومحمد) هما أصحاب أبي حنيفة ، وهما مختصان به كاختصاص الشافعي بمالك ، ولعل خلافهما له يقارب خلاف الشافعي لمالك ، وكل ذلك اتباعا للدليل وقياما بالواجب •

والشافعي قرر أصول أصحابه والكتاب والسنة ، وكان كثير الاتباع لما صح عنده من الحديث ، ولهذا كان عبد الله بن الحكم يقول لابنه يابني الزم هذا الرجل فانه صاحب حجج ، فما بينك وبين أن تقول قال ابن القاسم فيضحك منك الا أن تخرج من مصر •

قال محمد : فلما صرت الى العراق جلست الى حلقة فيها ابن أبي دؤاد ، فقلت قال ابن القاسم ، فقال : ومن ابن القاسم ؟ فقلت : رجل مفت يقول من مصر الى أقصى المغرب ، وأظنه قال : قلت رحم الله أبي ، وكان مقصود أبيه اطلب الحجة لقول أصحابك ولا تتبع ، فالتقليد انما يقبل حيث يعظم المقلد بخلاف الحجة ، فانه يقبل في كل مكان ، فان الله أوجب على كل مجتهد أن يقول بموجب ماعنده من العلم ، والله يخص هذا من العلم والفهم مالا يختص به هذا ، وقد يكون هذا هو المخصوص بمزيد العلم والفهم في نوع من العلم ، أو باب منه ، أو مسألة ، وهذا هو مخصوص بذلك في نوع آخر ، لكن جملة مذاهب أهل المدينة النبوية راجحة في الجملة على مذاهب أهل المغرب والمشرق ، وذلك يظهر بقواعد جامعة •

هذا آخر مانقلناه من كلام شيخ الاسلام في ترجيح مذهب أهل المدينة وبه يعلم ما كان عليه من الاعتقاد الصحيح ، والفطنة الزائدة ، والفهم الكثير ، فان كل من تكلم على فضل المدينة تكلم اجمالا ولم يبين الفضل بالدليل والسبب ، وكتابه هذا كتاب جليل ، وقد نقلنا منه مانقلنا حرصا على حفظ فوائده ، وقد بقي منه كلام طويل تكلم فيه على قواعد جامعة تفيد رجحان مذهب المدنيين فعليك به ان أردته •

مقصودنا مما ذكرنا بيان افلاس النبهاني الجاهل من كل فضيلة ، وأنه ينقل في كتابه مايقصد به تعظيم حجم الكتاب من غير فهم لما ينقله ولا محاكمة ، بل انه يقلد غلاة شيوخه تقليد أعمى ، ومع ذلك يجعل نفسه من المتبعين ، ويرمي شيخ الاسلام ومن هو على مسلكه بأنهم من المبتدعين ، ولا بدع منه فانه ممن قال الله فيه : (وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ماكنا في أصحاب السعير) •

ثم ان النبهاني عقد فصلا في ذكر شيء مما لاينبغي فعله للزائر ، ونقل أقوالا

عن ابن حجر وأضرابه ينقض بعضها بعضا ، وساق منها جملة من العبارات ، انظر الى ماقاله ابن حجر في التحفة والزواجر مع ماذكره في الجوهر المنظم تجد المناقضة ظاهرة قال في التحفة : وقد أفتى جمع بهدم كل مافي قرافة مصر من الابنية ، حتى قبة امامنا الشافعي التي بناها بعض الملوك ، وينبغي لكل أحد هدم ذلك مالم يخش منه مفسدة فيتعين الرفع للامام أخذا من كلام ابن الرفعة انتهى •

وقال في الزواجر : ومن أعظم أسباب الشرك الصلاة عند القبور واتخاذها مسجدا ، ويجب ازالة كل منكر عليها ، ويجب المبادرة لهدمها وهدم القباب التي على القبور ، اذ هي أضر من مسجد الضرار ، لأنها أسست على معصية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأنه نهى عن ذلك وأمر بهدم القبور ، ويجب ازالة كل قنديل أو سراج على قبر ، ولا يصح وقفه أو نذره •

وقال أيضا في الزواجر : ومن الكبائر اتخاذ القبور مساجد ، وايقاد السرج عليها ، واتخاذها أوثانا ، والطواف بها ، والصلاة اليها انتهى •

وقد نقض ذلك كله في كتابه (الجوهر المنظم) فأباح كل مامنعه في ذينك الكتابين ، حتى قال بجواز السجود للقبور اذا غلب الحال على أهل الاحوال ، وذكر فيه من الغلو مافيه قرة لعيون الغلاة ، ولولا خوف التطويل لنقلنا كلامه كله والكتاب متداول بين الناس •

ثم ان النبهاني عقد بابا آخر في مشروعية الاستغاثة به صلى الله عليه وسلم ، وضمنه أربعة فصول •

أولها ذكر فيه أحاديث وردت في استغاثة الناس به صلى الله عليه وسلم في حياته •

وثانيها في أحاديث الشفاعة يوم القيامة •

وثالثها في بعض ماقاله العلماء وأثبتوا به مشروعية الاستغاثة به صلى الله عليه وسلم •

ورابعها : في توضيح هذه المسألة من قبل مؤلف الكتاب •

أقول ــ ومن الله المعونة وبيده أزمة التوفيق ــ ان الكلام على ماحواه كلامه من الكذب والزور والبطلان يطول جدا فضلا عما اشتملت عليه عبارته من الغلط وفساد التركيب وسوء التعبير ، فكتابه كله ظلمات بعضها فوق بعض ، فلو تكلمنا

على ذلك كله لطال الكلام ، وكلت عن رقمه الاقلام ، فان النبهاني هذا هو من أعظم الغلاة المحادين لله ورسوله ، وكلامه كله باطل ، وجهل مركب ، وبهت لأهل الحق ، وليس فيه جملة واحدة توافق الحق أصلا ، فالحمد لله الذي خذل أعداء دينه ، وجعلهم عبرة لأوليائه وعباده المؤمنين •

أما مشروعية الاستغاثة : ففيها تفصيل ، اذ الاستغاثة بالشيء — على ماذكره بعض المحققين — طلب الاغاثة والغوث منه ، كما أن الاستعانة طلب الاعانة منه ، فاذا كانت بنداء من المستغيث للمستغاث كان ذلك سؤالا منه ، وظاهر أن ذلك ليس توسلا به الى غيره ، اذ قد جرت العادة أن من توسل بأحد عند غيره أن يقول لمستغاثه أستغيثك على هذا الامر بفلان ، فيوجه السؤال اليه ويقصر أمر شكواه عليه ، ولا يخاطب المستغاث به ويقول له أرجو منك أو أريد منك وأستغيث بك ، ويقول إنه وسيلتي الى ربي ، وان كان كما يقول فما قدر المتوسل اليه حق قدره ، وقد رجا وتوكل والتجأ الى غيره ، كيف واستعمال العرب يأبى عنه ، فان من يقول صار لي ضيق فاستغثت بصاحب القبر فحصل الفرج يدل دلالة جلية على أنه قد طلب الغوث منه ، ولم يفد كلامه أنه توسل به ، بل انما يراد هذا المعنى اذا قال توسلت أو استغثت عند الله بفلان ، أو يقول لمستغاثه استغثت اليك بفلان ، فيكون حينئذ مدخول الباء متوسلا به ، ولا يصح ارادة هذا المعنى اذا قلت استغثت بفلان وتريد التوسل به ، سيما اذا كنت داعيه وسائله ، بل قولك هذا نص على أن مدخول الباء مستغاث وليس مستغاثا به ، والقرائن التي تكتنفه من الدعاء وقصر الرجاء والالتجاء شهود عدول ، ولا محيد عما شهدت به ولا عدول ، فهذه الاستغاثة وتوجه القلب الى المسؤل بالسؤال والانابة محظورة على المسلمين ، لم يشرعها لاحد من أمته رسول رب العالمين ، وهل سمعتم أن أحدا في زمانه صلى الله عليه وسلم أو ممن بعده في القرون المشهود لأهلها بالنجاة والصدق — وهم أعلم منا بهذه المطالب وأحرص على نيل مثل تلك الرغائب — استغاث بمن يزيل كربته التي لايقدر على ازالتها الا الله ؟ أم كانوا يقصرون الاستغاثة على مالك الامور ولم يعبدوا الا اياه ، ولقد جرت عليهم أمور مهمة ، وشدائد مدلهمة في حياته صلى الله عليه وسلم وبعد وفاته ، فهل سمعت عن أحد منهم أنه استغاث بالنبي صلى الله عليه وسلم ؟ أو قالوا انا مستغيثون بك يارسول الله ، أم بلغك أنهم لاذوا بقبره الشريف وهو سيد القبور حين ضاقت منهم الصدور ؟ كلا ، لايمكن لهم ذلك ، وان الذي كان بعكس ما هنالك ، فلقد أثنى الله

عليهم ورضي عنهم ، فقال عز من قائل : (إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ) مبينا لنا أن هذه الاستغاثة أخص الدعاء وأجلى أحوال الالتجاء ، وهي من لوازم السائل المضطر ، الذي يضطر الى طلب الغوث من غيره ، فيخص نداءه لدى استغاثته بمزيد الاحسان في سره وجهره ، ففي استغاثته بغيره تعالى عند كربته تعطيل لتوحيد معاملته •

(فان قلت) ان للمستغاث بهم قدرة كسبية وتسببية فتنسب الاغاثة اليهم بهذا المعنى •

(قلنا له) ان كلامنا فيمن يستغاث به عند الملم مالا يقدر عليه الا الله ، أو لسؤال مالا يعطيه ويمنعه الا الله ، وأما فيما عدى ذلك مما يجري فيه التعاون والتعاضد بين الناس واستغاثة بعضهم ببعض فهذا شيء لانقول به ، ونعد منعه جنونا كما نعد اباحة ماقبله شركا وضلالا ، وكون العبد له قدرة كسبية لايخرج بها عن مشيئة رب البرية لايستغاث به فيما لايقدر عليه الا الله ، ولا يستعان به ، ولا يتوكل عليه ، ولا يلتجأ في ذلك اليه ، فلا يقال لاحد — حي أو ميت ، قريب أو بعيد — ارزقني أو أمتني ، أو أحي ميتي ، أو اشف مريضي ، الى غير ذلك مما هو من الافعال الخاصة بالواحد الاحد ، الفرد الصمد ، بل يقال لمن له قدرة كسبية قد جرت العادة بحصولها ممن أهله الله لها ، أعني في حمل متاعي أو غير ذلك ، والقرآن ناطق بحظر الدعاء عن كل أحد لا من الاحياء ولا من الاموات ، سواء كانوا أنبياء أو صالحين أو غيرهم ، وسواء كان الدعاء بلفظ الاستغاثة أو بغيرها ، فان الامور الغير مقدورة للعباد لاتطلب الا من خالق القدر ، ومنشيء البشر ، كيف والدعاء عبادة وهي مختصة به سبحانه ، أسبل الله علينا بفضله عفوه ورضوانه ، فالقصر على ماتعبدنا فيه من محض الايمان ، والعدول عنه عين المقت والخذلان •

وهذا خلاصة ماذكروه من جعل الاستغاثة والاستشفاع بغير الله شركا ظاهرا لايغفر ، ومتعاطيه جاعل لله ندا ، فيذبح بأمر الله تعالى ، وشرع رسول الله صلى الله عليه وسلم ان لم يتب ويستغفر •

(وبالجملة) فالاستغاثة والاستعانة والتوكل أغصان دوحة التوحيد ، المطلوب من العبيد •

---

(١) الانفال : ١٠

بقي ههنا شيء يورده المجيزون على هؤلاء المانعين ، وهو أنه لاشك أن من عبد غير الله مشرك حلال الدم والمال ، وان الدعاء المختص بالله سبحانه عبادة ، بل هو مخ العبادة ، ولكن لانسلم أن طلب الاغاثة ممن استغيث بهم شرك مطلقا ، وانما يكون شركا لو كان المستغيث معتقدا أنهم هم الفاعلون لذلك خلقا وايجادا ، فحينئذ يكون من الشرك الاعتقادي قطعا ، أما من اعتقدهم الفاعلين كسبا وتسببا فليس بمسلم ، ولئن سلمنا فليس المقصود من طلب الاغاثة منهم وندائهم الا التوسل بهم وبجاههم ، وان كان اللفظ ظاهرا يدل على الطلب منهم وأنهم المطلوبون بهذا النداء ، لكن مقصود المستغيث التشفع والتوسل بهم الى ربهم ، وهو صلى الله عليه وسلم من أشرف الوسائل الى الله سبحانه ، وقد أمرنا سبحانه بطلب مايتوسل به ، فقال تعالى(وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الوَسِيْلَةَ) فكيف تحظرونها بل تجعلونها شركا مخرجا عن الملة ، وليس في قلوب المسلمين الا هذا المعنى ، وان في ذلك تكفير أكثر الناس ، من غير ارتياب والتباس ، وكيف تحكمون على أناس قد أظهروا شعائر الاسلام من أذان وصلاة ، وصوم وحج ، وإيتاء زكاة ، يأتون بكلمة التوحيد ، ويحبون الله ويحبون سيد المرسلين ، ويتبلغون بالقبول التام ماجاء عنهما من أمور الدين ، وغاية الامر أنهم لرهبتهم من ربهم ومعرفتهم بعلو مرتبة نبيهم وما وعده الله سبحانه من ارضاءه في أمته ، كما قال سبحانه :(وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى)ولا يرضى صلى الله عليه وسلم إلا بأن يقف لأمته في مثل هذه التوسلات فينالوا الرغبات ، وليس في أقوالكم هذه الا تنقص بحق هذا النبي الذي أوجب الله علينا حبه أكثر من محبتنا لأنفسنا ، وفي مثل ذلك بشاعة في القول ، وشناعة بطريق الاول •

(فالجواب عنه منهم أن قالوا) أما أول اعتراضكم وقولكم إنه ليس مقصودهم الا التوسل ــ وان تكلموا بما يفيد غيره فانه ــ يدل على أن الشرك لايكون الا اعتقاديا ، وأنه لايكون كفر إلا اذا طابق الاعتقاد ، وهذا يقتضي سد أبواب الشرائع بأسرها ، ومحو الابواب التي ذكرها الفقهاء في الردة ومحقها ، كيف وأن الله سبحانه يقول : (وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الكُفْرِ وكَفَروا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ)[1] وقال سبحانه : (أَبِاللهِ وآياتهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُم تَسْتَهْزِؤونَ. لاَ تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرتُم بَعْدَ إِيمانِكُمْ)[2]

---

(١) التوبة : ٧٦ (٢) التوبة : ٦٥ ، ٦٦

وقد ذكر المفسرون أنهم قالوها على جهة المزح ، وكذلك العلماء كفروا بألفاظ سهلة جدا ، وبأفعال تدل على ماهو دون ذلك ، ولو فتحنا هذا الباب لامكن لكل من تكلم بكلام يحكم على قائله بالردة أن يقول : لم تحكمون بردتى ؟ فيذكر احتمالا ولو بعيدا يخرج به عما كفر فيه ، ولما احتاج الى توبة ، ولا توجه عليه لوم أبدا ، ولساغ لكل أحد أن يتكلم بكل ماأراد ، فتنسد الابواب المتعلقة بأحكام الالفاظ من حد قذف ، وكفارة يمين ، وظهار ، ولانسدت أبواب العقود من نكاح وطلاق ، وغير ذلك من الفسوخ والمعاملات ، فلا يتعلق حكم من الاحكام بأي لفظ كان — إلا اذا اعتقد المعنى — وان أفيد بوضع الالفاظ .

وأما ماذكرتم من أنه أشرف الوسائل فهي كلمة حق أريد بها باطل ، كقولكم انه ذو الجاه العريض والمقام المنيع ، ونحن أولى بهذا المقام منكم لاتباعنا لاقواله وأفعاله واقتدائنا به صلى الله عليه وسلم في جميع أحواله ، مقتفين لآثاره واقفين عند أخباره فهو صلى الله عليه وسلم نبينا وهادينا الى سبل الاسلام ، ومنقذنا برسالته من مهاوي أولئك الجفاة الطغام ، فلا نعمل الا بأمره ، وتتلقى ذلك بالسمع والطاعة في حلوه ومره ، وقد أوجب علينا أن تتبع سبيل المؤمنين ، ونهانا عن الغلو في الدين ، فان غلونا فاننا اذا عن الصراط ناكبون ، ولئن عدلنا انا اذا لخاسرون .

وكيف يحسن طريق يؤدي الى الاشراك ، وأنى يليق بالموحدين هذا الوجه المؤدي للارتباك ؟ وهذا طريق سلفنا الصالح ، وهو الاعتقاد الصحيح الراجح ، هذا وان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم — وأرواحنا له الفداء — لايرضى بما يغضب الرب المتعال ، وكيف لا وقد بعث بحماية التوحيد من هذه الاقوال والافعال ، وقد قالت عائشة رضي الله عنها عن خلق النبي صلى الله عليه وسلم : كان خلقه القرآن ، يرضى لرضاه ويسخط لسخطه ، فليس لنا وسيلة الى الله الا الدعاء المبني على أصول الذل والافتقار والثناء ، فهو الوسيلة التي أمرنا الله سبحانه بالتوسل به ، وجعله من أفضل الوسائل ، وأخبرنا أنه مخ عبادته تحقيقا لعبديتنا ، فسد به عن غيره أبواب الذرائع .

وقد اختلف العلماء — بعد أن اتفقوا على استحباب سؤال الله تعالى به وبأسمائه وبصفاته وأفعاله وبصالح أعمالنا التي حصلت لنا بمحض كرمه وأفضاله — في جواز

التوسل بالذوات المنيفة والاماكن والاوقات الشريفة ، فعن العز بن عبد السلام ومن تابعه عدم الجواز الا بالنبي صلى الله عليه وسلم حيث صح الحديث فيجوز ، ويكون ذلك خاصا به لعلو رتبته •

وعن الحنابلة في أصح القولين مكروه كراهة تحريم •

ونقل الفقهاء الحنفية عن بشر بن الوليد أنه قال سمعت أبا يوسف، يقول قال أبو حنيفة لاينبغي لأحد أن يدعو الله الا به ، وفي جميع متونهم أن قول الداعي المتوسل بحق الانبياء والرسل وبحق البيت والمشعر الحرام مكروه كراهة تحريم ، وقال القدوري المسألة بخلقه تعالى لاتجوز لأنه لاحق للمخلوق على الخالق •

وأما أحاديث : (أسألك بحق السائلين عليك وبحق ممشاي هذا وبحق نبيك والانبياء من قبلي) ففيها وهن ، وعلى تسليمها فالمراد بهذا الحق ماأوجبه الله تعالى على نفسه ، وذلك من أفعاله ، لأن حق السائلين الاجابة ، وحق المطيعين الاثابة ، وحق الانبياء التقريب والتفضيل بما يخص أولئك العصابة صلى الله تعالى عليهم وسلم ، وذلك كقوله تعالى :(وكانَ حقاً عَليْنا نصْرُ المؤْمنينَ)[1] وقوله تعالى : (وعْداً عَليْهِ حقاً في التَّوْراةِ والانجْيلِ والقُرآنِ)[2] وقوله:(كَتَبَ ربُّكُم على نفسِهِ الرَّحْمَةَ)[3] وقوله صلى الله تعالى عليهوسلم : (حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا ، وحق العباد على الله أن لايعذبهم)

والسؤال بالاعمال لأن المشى الى الطاعة امتثالا لامره عمل طاعة ، وذلك من أعظم الوسائل المأمور بها في قوله تعالى : (يا أَيُّها الذينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وابْتغوا إليْهِ الوَسيلةَ)[4] ومن نظر الى الادعية الواردة في الكتاب والسنة لم يجدها خارجة عما ذكرنا ، قال الله تعالى في دعاء المؤمنين : (ربَّنا إنَّنا سَمِعْنا مُنادياً يُنادِي للايمانِ أنْ آمِنوا بربِّكُم فآمَنَّا)[5] وقوله تعالى : (إنَّهُ كانَ فَريقٌ منْ عِبادي يقولُونَ رَبَّنا آمنَّا فاغْفرْ لنَا وارْحَمْنا وأَنْتَ خَيرُ الرَّاحمينَ)[6] وقوله تعالى

---

(١) الروم : ٤٨ (٢) التوبة : ١١٣ (٣) الانعام : ٥٤ (٤) المائدة : ٣٩ (٥) آل عمران : ١٩٤ (٦) المؤمنون : ١١١

عن الحواريين :(ربنا آمنّا بما أنزلت واتّبعنا الرّسول فاكتبنا مع الشّاهدين)[١]

وكان ابن مسعود يقول : اللهم انك أمرتني فأطعتك ودعوتني فأجبتك فاغفر لي ودعاء النبي صلى الله عليه وسلم الذي جمعه العلماء لايخرج عن هذا النمط ، وخلاف ذلك يعد كالخروج عن جادة الصواب والشطط ، فاتبع أيها الناظر نبيك المصطفى تسلم من اللغط والغلط ، هذا ماكان من تحرير مدعي المانعين ، وتقريره على وجه أبان عن لباب تلخيصهم بتسطيره ، ثم أخذ يذكر الجواب عما استدل به المجوزون فان أردت الوقوف عليه فارجع الى كتاب العقد الثمين .

فتبين مما نقلناه أن الاستغاثة بمخلوق بما لايقدر عليه الا الله تعالى مما لايجوز فان الاستغاثة دعاء والدعاء عبادة بل مخ العبادة ، وغير الله تعالى لايعبد بل هو المخصوص بالعبادة ، فاذا أصاب الناس جدب وقحط فلا يقال يارسول الله ارفع عنا القحط والجدب ، واذا نزل بالناس بلاء أو وباء فلا يقال يارسول الله أو ياجبريل أو يامیكائيل ارفع عنا البلاء والوباء ، واذا مرض أحد فلا يقول يارسول الله شافني وعافني ولا غيره ، واذا احتاج أحد الى رزق فلا يقول يارسول الله ارزقني ولا غيره، واذا لم يكن لأحد ولد فلا يجوز له أن يقول يارسول الله أعطني ولدا ، واذا كان في شدة في بر أو بحر فلا يجوز أن يقول يارسول الله أدركني أو التجيء اليك أو أستغيث بك أو نحو ذلك ، بل كل ذلك شرك مخرج عن الدين ، لانه عبادة لغير الله ونحن نوضح المسألة فقد زلت فيها أقدام ، فنبين أولا معنى العبادة ، ثم نذكر ماهو من خصائص الالوهية ومن الله نستمد التوفيق .

(أما العبادة) فهي في اللغة الذل والانقياد ، واصطلاحا اسم جامع لكل مايحبه الله ويرضاه من الاقوال والاعمال الباطنة والظاهرة ، كالتوحيد فانه عبادة في نفسه والصلاة ، والزكاة ، والحج ، وصيام رمضان ، والوضوء ، وصلة الارحام ، وبر الوالدين ، والدعاء ، والذكر ، والقراءة ، وحب الله ، وخشية الله ، والانابة اليه ، واخلاص الدين له ، والصبر لحكمه ، والشكر لنعمه ، والرضاء بقضائه ، والتوكل عليه ، والرجاء لرحمته ، والخوف من عذابه ، وغير ذلك مما رضيه وأحبه ، فأمر به وتعبد الناس فيه ، قال العلامة عمر بن عبد الرحمن الفارسي في كشفه على الكشاف

---

(١) آل عمران : ٥٤

للزمخشري ـ عند تفسير قوله تعالى : (يا أَيُّها النَّاسُ اعْبُدوا رَبَّكُمُ الَّذي خَلَقَكُم) وهو خطاب لمشركي أهل مكة ، ونقل عن علقمة أن كل خطاب بياأيها الناس فهو مكي وبياأيها الذين آمنوا فهو مدني ـ مالفظه تحرير الكلام فيه أن العبادة قد تطلق على أعمال الجوارح بشرط قصد القربة ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : (لفقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد) وهي على هذا غير الايمان بمعنى التصديق ، والنية والاخلاص ، بل مشروطة بها ، وقد تطلق على التحقق بالعبدية بارتسام مأمر السيد جل وعلا أو نهى ، وعلى هذا يتناول الاعمال والعقائد القلبية أيضا ، فيدخل فيها الايمان وهو عبادة في نفسه ، وشرط لسائر العبادات انتهى .

وقال ابن القيم في (شرح منازل السائرين) مانصه : فالعبادة تجمع أصلين : غاية الحب بغاية الذل والخضوع ، والعرب تقول طريق معبد أي مذلل ، والتعبد التذلل والخضوع ، فمن أحببته ولم تكن خاضعا له لم تكن عابدا له ، ومن خضعت له بلا محبة لم تكن عابدا له حتى تكون محبا خاضعا .

ثم قال في مكان آخر من شرحه هذا : مراتب العبودية واحكامها لكل واحد من القلب واللسان والجوارح ، فواجب القلب منه متفق على وجوبه ، ومختلف فيه ، فالمتفق على وجوبه كالاخلاص والتوكل والمحبة والصبر والانابة والخوف والرجاء والتصديق الحازم والنية للعبادة ، وهذه قدر زائد على الاخلاص ، فان الاخلاص إفراد المعبود عن غيره .

ونية العبادة لها مرتبتان : (إحداهما) تمييز العبادة عن العادة (والثانية) تمييز مراتب العبادات بعضها عن بعض ، والاقسام الثلاثة واجبة ، وكذلك الصدق ، والفرق بينه وبين الاخلاص أن للعبد مطلوبا وطلبا ، فالاخلاص توحيد مطلوبه والصدق توحيد الطلب ، فالاخلاص أن لايكون المطلوب منقسما ، والصدق أن لايكون الطلب منقسما ، فالصدق بذل الجهد ، والاخلاص أفراد المطلوب .

واتفقت الامة على وجوب هذه الاعمال على القلب من حيث الجملة ، وكذلك النصح في العبودية ، ومدار الدين عليه ، وهو بذل الجهد في ايقاع العبودية على الوجه المحبوب للرب المرضى به ، واصل هذا واجب ، وكماله مرتبة المقربين ، وكذلك

كل واحد من هذه الواجبات القلبية له طرفان واجب مستحق وهو مرتبة أصحاب اليمين ، وكمال مستحب وهو مرتبة المقربين ، انتهى بعض ماقاله في بعض عبودية القلب ، وعقبه بعبودية اللسان الواجب منها والمستحب ، وعبودية الجوارح الواجب منها والمستحب أيضا ، ومن اشتغل بالنظر الى أنواع العبادات هان عليه تمييزها ، والله الهادي الى سواء السبيل •

(وبالجملة) فكل عبادة فهي مقصورة على الاله الواحد من أعمال القلوب والجوارح ، فكما لو صلى لغير الله أو صام على وجه التقرب اليه كان كافرا مشركا عند جميع الناس فكذلك من تقرب اليه بالاعمال القلبية المذكورة من التوكل والانابة والخوف والرجاء ، وغير ذلك ، لكن لما كانت هذه الامور القلبية من التأله ــ وكان الاولون يتألهون بها ويسمون من تأله بها الها ، وكان مرجع كل ذلك الى القلب وأعماله التي هي منبع التوحيد ومصدر هذا الدين والمرجع اليه في الشك واليقين ، ومع ذلك فهي الفارقة بين الاله الحق الذي اختص بها على الدوام ، والاله الباطل الذي لايحوم الموحد حوله بهذا المقام ــ كان ذلك هو الداعي للتخصيص والموجب للتنصيص ، وأيضا فالكلام على من حصل منه الشرك بما تألهه في قلبه ورسخ بفؤاده ولبه من الاعمال الغير المختصة بالمسلمين ، وأما هذه الاعمال الظاهرة الشرعيةالمختصة بهم فلا يتعاطاها أحد لمن سواه ، ولم نرها تعمل الا لله ، ولم يعبدوا بها الا اياه ، فهذا هو الذي أوجب تخصيصهم لهذه الاعمال القلبية وبعض البدنية ، كالسجود وحلق الرأس عبودية ، وإلا فجميع العبادات قلبيها وقوليها وبدنيها مختصة به سبحانه وتعالى لاتصلح الا له •

قال المحقق السعد التفتازاني في شرحه للمقاصد مانصه :اعلم أن حقيقة التوحيد اعتقاد عدم الشريك في الالوهية وخواتمها ، ولا نزاع بين أهل الاسلام ان خلق الاجسام وتدبير العالم واستحقاق العبادة من الخواص ، ثم قال في آخر هذا المبحث : وبالجملة فان التوحيد في الالوهية واجب شرعا وعقلا ، وفي استحقاق العبادة شرعا ، وما أمروا الا ليعبدوا الها واحدا سبحانه وتعالى عما يشركون ، انتهى •

وقد أفرد شيخ الاسلام لتحقيق معنى العبادة رسالة مفيدة وهي رسالة العبودية فراجعها •

(وأما الثاني أعني ماهو من خصائص الالوهية) فاعلم أن توحيد الله تعالى بالتعظيم ــ كما قاله العلامة القرافي في كتاب الفروق ــ ثلاثة أقسام : واجب اجماعا ،

وغير واجب اجماعا ، ومختلف فيه هل يجب توحيد الله تعالى به أم لا •

(القسم الاول) الذي يجب توحيد الله تعالى به من التعظيم بالاجماع ، فذلك كالصلوات على اختلاف أنواعها ، والصوم على اختلاف رتبه في الفرض والنفل والنذر فلا يجوز أن يفعل شيء من ذلك لغير الله تعالى ، وكذلك الحج ونحو ذلك ، أي كالاستغاثة والاستعانة والالتجاء ، وكذلك الخلق والرزق والاماتة والاحياء والبعث والنشر والسعادة والشقاء والهداية والاضلال والطاعة والمعصية والقبض والبسط ، فيجب على كل أحد أن يعتقد توحيد الله تعالى وتوحده بهذه الامور على سبيل الحقيقة ، وان أضيف شيء منها لغيره تعالى فانما ذلك على سبيل الربط العادي لا أن ذلك المشار اليه فعل شيأ حقيقة ، كقولنا : قتله السم ، وأحرقته النار ، وأرواه الماء ، فليس شيء من ذلك يفعل شيأ مما ذكر حقيقة ، بل الله تعالى ربط هذه المسببات بهذه الاسباب كما شاء وأراد ، ولو شاء لم يربطها ، وهو الخالق لمسبباتها عند وجودها ، لا أن تلك الاسباب هي الموجدة ، وكذلك اخبار الله تعالى عن عيسى عليه السلام أنه كان يحيي الموتى ، ويبريء الاكمه والابرص ، معناه أن الله تعالى كان يحيي الموتى ويبريء عند ارادة عيسى عليه السلام لذلك ، لا أن عيسى عليه السلام هو الفاعل لذلك حقيقة ، بل الله تعالى هو الخالق لذلك ، ومعجزة عيسى عليه السلام في ذلك ربط وقوع ذلك الاحياء وذلك الابراء بارادته ، فان غيره يريد ذلك ولا يلزم ارادته ذلك ، فاللزوم بارادته هو معجزته عليه السلام ، وكذلك جميع مايظهر على أيدي الانبياء والاولياء من المعجزات والكرامات الله تعالى هو خالقها ، وكذلك يجب توحيده تعالى باستحقاق العبادة والالهية ، وعموم تعلق صفاته تعالى ، فيتعلق علمه بجميع المعلومات ، وارادته بجميع الكائنات ، وبصره بجميع الموجودات الباقيات والفانيات ، وسمعه بجميع الاصوات ، وخبره بجميع المخبرات فهذا ونحوه توحيد واجب بالاجماع من أهل الحق لا مشاركة لأحد فيه •

(ثم ذكر القسم الثاني) وهو المتفق على عدم التوحيد فيه والتوحد ، ومثل له بالوجود والعلم ونحوهما وأطنب فيه •

(ثم ذكر القسم الثالث) وهو الذي اختلف فيه هل يجب توحيد الله تعالى به أم لا ؟ قال فهذا هو التعظيم بالقسم ، فهل يجوز أن يقسم بغير الله تعالى فلا يكون من التعظيم الذي وجب التوحيد فيه أو لايجوز فيكون من التعظيم الذي وجب

التوحيد فيه ، وأطال الكلام فيه أيضا ، ومرادنا القسم الاول ، لأن فيه قوله : وكذلك يجب توحيده تعالى باستحقاق العبادة .. الخ وهذا هو المقصود بالنقل ، ولا يخفى مافي كلامه من المخالفة للنصوص بسبب القول بأقوال الكلابية ، وليس هذا موضع مناقشته بما ذكر .

وحيث اتسع الكلام بحسب المقام ننقل ماقاله الفاضل ابن القيم في كتابه (الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي) مانصه : ـ

ومن خصائص الالهية الكمال المطلق من جميع الوجوه ، الذي لانقص فيه بوجه من الوجوه ، وذلك يوجب العبادة كلها له وحده ، والتعظيم والاجلال ، والخشية والدعاء ، والرجاء والانابة ، والتوبة ، والتوكل والاستعانة ، وغاية الذل مع غاية الحب ، كل ذلك يجب عقلا وشرعا وفطرة أن يكون له وحده ، ويمنع الغير التشبيه ممن لاشبيه له ، ولا مثل له ، ولا ند له ، وذلك أقبح التشبيه وأبطله ، ولشدة قبحه وتضمنه غاية الظلم أخبر سبحانه عباده أنه لايغفره مع أنه كتب على نفسه الرحمة .

(ومن خصائص الالهية) العبودية التي قامت على ساقين لا قوام لها بدونهما ، وهما غاية الحب مع غاية الذل ، هذا تمام العبودية ، وتفاوت منازل الخلق فيها بحسب تفاوتهم في هذين الاصلين فمن أعطى حبه وذله وخضوعه لغير الله فقد شبهه به في خالص حقه ، وهذا من المحال أن تجيء به شريعة من الشرائع ، وقبحه مستقر في كل فطرة وعقل ، ولكن غيرت الشياطين فطر أكثر الخلق وعقولهم وأفسدتها عليهم واجتالتهم عنها ، ومضى على الفطرة الاولى من سبقت له من الله تعالى الحسنى ، فأرسل اليهم رسله صلى الله عليهم وسلم ، وأنزل كتبه بما يوافق فطرهم وعقولهم ، فازدادوا بذلك نورا على نور ، يهدي الله لنوره من يشاء .

اذا عرفت هذا فمن خصائص الالوهية السجود ، فمن سجد لغيره فقد شبه المخلوق به ، ومنها التوكل ، فمن توكل على غيره فقد شبهه به ، ومنها التوبة ، فمن تاب الى غيره فقد شبهه به ، ومنها الحلف باسمه تعظيما واجلالا ، فمن حلف بغيره على هذا الوجه فقد شبهه به ، انتهى ماقاله .

(والمقصود من ذلك كله) القيام بالقسط الذي هو التوحيد ، وهو عبادة الله وحده لاشريك له ، قال عز من قائل : (قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالقِسْطِ وأَقِيموا وُجوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مسْجِدٍ وادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لهُ الدِّينَ)[1] وقال تعالى : (واسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنا

---

(١) الاعراف : ٢٩

مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنا أَجَعَلْنا مِنْ دُونِ الرَّحْمنِ آلهةً يُعْبَدون)[1] فهذا التوحيد أعظم العدل وأقومه ، وأصل الدين ومحكمه ، وذلك بأن يكون الدين كله لله قولا وعملا واعتقادا باخلاص هذه الكلمة الطيبة في لفظها ومعناها ، شهادة أن لا اله الاالله وحده لاشريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله ، وروح هذه الكلمة افراد الرب ــ جل ثناؤه وتقدست أسماؤه ، ولااله غيره ــ بالمحبة والاجلال ،والتعظيم والخوف ،والرجاء وتوابع ذلك من التوكل والانابة ، والرغبة والرهبة ، فلا يحب سواه ، وكلما يحبغيره فانما يحبه تبعا لمحبته ، وكونه وسيلة الى زيادة محبته ، ولا يخاف سواه ، ولا يرجو سواه، ولا يتوكل الا عليه ، ولا يرغب الا اليه ، ولا يرهب الا منه ، ولايعملعملا قد تعبد الناس به الا أفرده به ، ولايشركغيرهمعه ، فيكونقد جمع جميع أنواع العبادات فيه قولا وعملا واعتقادا ، وتحقق بما قال وهو كلمة لا اله الا الله ، ولا نعبد الا اياه، مخلصين له الدين ولو كره المشركون .

وبهذه الحقوق التي هي حق الله تعالى على جميع عباده ، وحكمه الذي أوجبه على سائر مخلوقه ، تميز المسلمون ، واستسلم اليه المستسلمون .

ولما كان الدعاء لايصدر في الغالب الا ممن قام بقلبه كمال الذل والافتقار ، لاسيما في حالة الانكسار والاضطرار : كان كما ورد في الحديث مخ العبادة ، ومن وفق له فقد أوتي الحسنى وزيادة ، وهذا الذي ذكرته ملخص ماأشار اليه المحققون انتهى .

وبما ذكرنا من معنى الاستغاثة واختصاصها بالله تعالى سقط ماذكره النبهاني وغيره من الغلاة الزائغين من أن الاستغاثة بالاصفياء جائزة ، ولو كانت بالامور التي لايقدر عليها الا الله تعالى ، وهذا شرك محض وعبادة لغير الله تعالى ، وهو قول ليس عليه شبهة فضلا عن الدليل المقبول لدى أهل العلم .

ثم انه عقد فصلا ذكر فيه أربعين حديثا من أحاديث الشفاعة ولا كلام لنا فيها اذا طلبت منهم يوم القيامة ، وأما في الدنيا فانها تطلب من الله أن يشفع فيهم من يشفع ، وسيأتي بعض الكلام عليها ان شاء الله .

ثم انه عقد فصلا آخر ــ وهو الثالث ــ زعم أنه ذكر ماقاله أئمة العلماء ، وأثبتوا به مشروعية الاستغاثة بغير الله تعالى ، ونقل عبارة ابن حجر في (الجوهر

---

(١) الزخرف : ٤٦

المنظم) المشتملة على الاعتراض على الشيخ ابن تيمية في انكاره الاستغاثة بغير الله تعالى ، وأن التوسل بالنبي صلى الله عليه وسلم حسن في كل حال قبل خلقه وبعد خلقه في الدنيا والآخرة .

قال ابن حجر :

فمما يدل لطلب التوسل به صلى الله عليه وسلم ماأخرجه الحاكم وصححه أنه صلى الله عليه وسلم وذكر الحديث ، وفيه استغاثة آدم به ، وذكر حديث الاعمى ، وحديث التوسل بالاعمال ، وحديث استسقاء الرجل بقبر النبي صلى الله عليه وسلم •

ثم ذكر كلام السبكي الذي نقله ابن حجر بعينه ، قال : وعبارة ابن حجر السابقة وان كانت كافية وافية فلا بأس بذكر بعض ماذكره السبكي وان تكرر بعضه مع ماتقدم عن ابن حجر ، لأنه نقل كثيرا من عباراته وان لم ينسب بعضها اليه ، وساق كلام السبكي ، ونقل مثل ذلك عن أمثال هؤلاء الغلاة ثم قال : وقد يتوسل بذي الجاه الى من هو أعلى جاها منه ، والاستغاثة طلب الغوث ، والمستغيث يطلب من المستغاث به أن يحصل له الغوث من غيره وان كان ذلك الغير أعلى منه ، فالتوجه والاستغاثة به صلى الله عليه وسلم وبغيره ليس لهما معنى في قلوب المسلمين غير ذلك، ولا يقصد بهما أحد منهم سواه ، فمن لم ينشرح صدره لذلك فليبك على نفسه ، والمستغاث به في الحقيقة هو الله تعالى ، والنبي صلى الله عليه وسلم واسطة بينه وبين المستغيث ، فهو سبحانه مستغاث به والغوث منه خلقا وايجادا ، والنبي مستغاث والغوث منه سببا وكسبا انتهى مالخص من كلامه •

(أقول وبالله التوفيق) أما مافي كلام هذا الجاهل الغبي من فساد التركيب وبشاعة التعبير فلسنا بصدد بيانه ، والكلام عليه يطول ، والغرض ابطال الدعوى ومعارضتها ، والكشف عن حالها وحال أئمته السابقين من الامم ، المعارضين للرسل بآرائهم وأهوائهم ، ثم نتكلم ان شاء الله بعد الكلام على هذه المقالة على جميع شبههم الفاسدة •

قال العلامة الشيخ عبد اللطيف رحمه الله تعالى في كتابه (منهاج التأسيس في الرد على ابن جرجيس) بعد أن نقل عن العراقي مثل مانقلنا عن النبهاني (والجواب) عن هذه الشبهة من وجوه :ـ

(الاول) أن الله سبحانه انما خلق خلقه لعبادته الجامعة لمعرفته ومحبته ، والخضوع له وتعظيمه ، وخوفه ورجائه ، والتوكل عليه والانابة اليه ، والتضرع بين

يديه ، وهذه زبدة الرسالة الالهية ، وحاصل الدعوة النبوية ، وهو الحق الذي خلقت له السموات والارض ، وأنزل به الكتاب ، وهو الغاية المطلوبة والحكمة المقصودة من ايجاد المخلوقات ، وخلق سائر البريات ، قال تعالى :(وما خَلَقْتُ الجن والانسَ إلاَّ لِيَعْبُدونِ)، دعا سبحانه عباده الى هذا المقصود ، وافترض عليهم القيام به حسب ماأمر ، والبراءة من الشرك والتنديد المنافي لهذا الاصل الذي هو المراد من خلق سائر العبيد ، قال الله تعالى : (إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ به ويَغْفِرُ ما دونَ ذلكَ لِمَنْ يشاءُ)[1] وقال : (إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيهِ الجَنَّةَ ومَأْواهُ النَّارُ وما لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصارٍ)[2] وقال : (وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَكَأَنَّما خَرَّ مِنَ السَّماءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَو تَهْوي بِهِ الرِّيحُ في مَكانٍ سَحيقٍ)[3] .

فالقول بجواز الاستغاثة بغير الله ودعاء الانبياء والصالحين وجعلهم وسائط بين العبد وبين الله ، والتقرب اليهم بالنذور والنحر ، والتعظيم بالحلف وما أشبهه : مناقضة ومنافاة لهذه الحكمة التي هي المقصودة بخلق السموات والارض ، وانزال الكتب ، وارسال الرسل ، وفتح لباب الشرك في المحبة والخضوع والتعظيم ، ومشاقة ظاهرة لله ولرسله ، ولكل نبي كريم ، والنفوس مجبولة على صرف ذلك المذكور من العبادات ، الى من أهلته لكشف الشدائد وسد الفاقات ، وقضاء الحاجات ، من الامور العامة التي لايقدر عليها الا فاطر الارض والسموات .

(الوجه الثاني) أن هذا بعينه قول عباد الانبياء والصالحين من عهد قوم نوح الى أن بعث اليهم خاتم النبيين ، ولم يزيدوا على ماقال هؤلاء الغلاة فيما انتحلوه من الشرك الوخيم ، والقول الذميم ، كما حكى الله عنهم ذلك في كتابه الكريم ، قال تعالى : (ويَعْبُدونَ مِنْ دونِ اللهِ مَالا يَضُرُّهمْ ولا يَنْفَعُهمْ ويَقولونَ هَؤلاءِ شُفَعاؤُنا عِنْدَ اللهِ)[4] وقال تعالى : (والَّذينَ اتَّخذوا مِنْ دونِه أَوْلياء ما نَعْبُدُهُم إلاَّ لِيُقَرِّبونا إلى اللهِ زُلفَى)[5] وقال تعالى : (فَلولا نَصَرَهُم الَّذينَ اتَّخَذُوا مِنْ دونِ اللهِ قُرباناً آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنهُم وذلكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كانوا يَفْتَرونَ)[6] .

---

(١) النساء : ١١٦ (٢) المائدة : ٧٦ (٣) الحج : ٣٢ (٤) يونس : ١٩ (٥) الزمر : ٤ (٦) الاحقاف : ٢٩

فهذه النصوص المحكمة صريحة في أن المشركين لم يقصدوا الا الجاه والشفاعة والتوسل ، بمعنى جعلهم وسائط تقربهم الى الله ، وتقضى حوائجهم منه تعالى ، وقد أنكر القرآن هذا أشد الانكار ، وأخبر أن أهله هم أصحاب النار ، وأن الله تعالى حرم عليهم الجنة دار أوليائه الابرار ، وجمهور هؤلاء المشركين لم يدعوا الاستقلال ولا الشركة في توحيد الربوبية ، بل قد أقروا واعترفوا بأن ذلك لله وحده ، كما حكى سبحانه اقرارهم واعترافهم بذلك في غير موضع من كتابه •

فحاصل ماذكر من جواز الاستغاثة والدعاء والتعظيم بالنذر والحلف ــ مع نفي الاستقلال ، وأن الله يفعل لأجله ــ هو عين دعوى المشركين ، وتعليلهم وشبهتهم لم يزيدوا عليه حرفا واحدا ، إلا أنهم قالوا قربان وشفعاء ، والغلاة سموا ذلك توسلا فالعلة واحدة ، والحقيقة متحدة •

(الوجه الثالث) أن الله سبحانه أمر عباده بدعائه ومسألته والاستغاثة به ، وانزال حاجتهم وفاقتهم وضرورتهم به قال تعالى : (وإذا سألك عبادي عني فاني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون)[1] وقال تعالى : (وقال ربكم ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين)[2] وقال تعالى : (أمن يجيب المضطر اذا دعاه) الاية[3] وقال تعالى : (فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه)[4] وقال تعالى : (يسأله من في السموات والأرض كل يوم هو في شأن) وقال تعالى : (فاذا فرغت فانصب ، وإلى ربك فارغب)

وفي الحديث (من لم يسأل الله يغضب عليه) وفيه : (الدعاء سلاح المؤمن وعماد الدين) وحديث النزول كل ليلة الى السماء الدنيا ، يقول تعالى : (هل من سائل فأعطيه ؟ هل من مستغفر فأغفر له ؟ هل من تائب فأتوب عليه) وعلى مذهب الغلاة وقولهم باستحباب الاستغاثة بغير الله تعالى ، وجعل الوسائط بين العباد وبينه تعالى يهدم هذا الاصل الذي هو أصل الدين ، ويسد بابه ، ويستغاث بالانبياء والصالحين، ويرغب اليهم في حاجات الطالبين والسائلين ، وضرورات المضطرين من خلق الله أجمعين •

---

(١) البقرة : ١٨٧ (٢) المؤمن ٦١ (٣) النمل : ٦٢ (٤) العنكبوت : ١٨

(الوجه الرابع) أن الله تعالى دعا عباده بربوبيته العامة الشاملة لكليات الممكنات وجزئياتها في الدنيا والآخرة ، وانفراده بالايجاد والتدبير ، والتأثير والتقدير ، والعطاء والمنع ، والخفض والرفع ، والعز والذل ، والاحياء والاماتة ، والسعادة والشقاوة ، والهداية والمغفرة ، والتوبة على عباده ، الى غير ذلك من أفعال الربوبية وآثارها المشاهدة المصنوعة : الى معرفته وعبادته ، الجامعة لمحبته والخضوع له ، وتعظيمه ودعائه ، وترك التعلق على غيره محبة وتعظيما واستغاثة ، قال تعالى : (أَمَّنْ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ) الى قوله : (قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)[1] وقال تعالى : (قُل لِمَنِ الأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) الى قوله : (فَأَنَّى تُسْحَرُونَ)[2] وقال تعالى : (قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ) الى قوله : (أَفَلَا تَتَّقُونَ)[3]

فتأمل هذه الآيات وما تضمنته من تقرير أفعال الربوبية التي لايخرج عنها فرد من أفراد الكائنات ، واعرف ماسيقت له ودلت عليه من وجوب محبته تعالى وعبادته وحده لاشريك له ، وترك عبادة ماعبد من دونه من الانداد والآلهة والبراءة من ذلك .

وانظر هل القوم المخاطبون بهذا زعموا الاستقلال لغير الكبير المتعال ، أم أقروا له سبحانه بالاستقلال والتدبير والتأثير ، وانما أتوا من جهة الواسطة والشفاعة ، والتوسل بدعاء غير الله وقصد سواه فيما يحتاجه العبد وما يهواه ، وهذا صريح من تلك الحجج البينات ، ونص هذه الآيات المحكمات ، احتج سبحانه بما أقروا به من الربوبية والاستقلال على ابطال قصد غيره بالعبادة والدعاء والاستغاثة كما يفعله أهل الجهل والضلال ، فاذا قيل تجوز الاستغاثة بالانبياء والصالحين ودعاؤهم والنذر لهم على أنهم وسائط ووسائل بين الله وبين عباده وأن الله يفعل لأجلهم : انهدمت القاعدة الايمانية ، وانتقضت الاصول التوحيدية ، وفتح باب الشرك الاعظم ، وعادت الرغبات والرهبات ، والمقاصد والتوجهات ، الى سكان القبور والاموات ، ومن دعي مع الله من سائر المخلوقات ، وهذه هي الغاية الشركية ، والعبادة الوثنية ، فنعوذ بالله من الضلال والشقاء والانحراف عن أسباب الفلاح والهدى .

(الوجه الخامس) أنه لافلاح ولا صلاح ولا نجاح ولا نعيم ولا لذة للعبد الا

---

(١) النمل : ٦٠ ــ ٦٤ (٢) المؤمنون : ٨٦ ــ ٩١ (٣) يونس : ٣٢

بأن يكون الله سبحانه هو الهه ومحبوبه ومستغاثه ، الذي اليه مفزعه عند الشدائد، واليه مرجعه في عامة المطالب والمقاصد ، والعبد به فاقة وضرورة وحاجة إلى أن يكون الله هو معبوده ومستغاثه ، اليه انابته ومفزعه ، ولو حصلت له كل الكائنات وتوجه الى جميع المخلوقات لم تسد فاقته ، ولا تدفع ضرورته ، ولا يحصل نعيمه وفرحه ويزول همه وكربه وشقاؤه الا بربه الذي من وجده وجد كل شيء ، ومن فاته فاته كل شيء ، وهو أحب اليه من كل شيء ، وهذه فاقة وضرورة وحاجات لايشبهها شيء فتقاس به ، وانما تشبه من بعض الوجه حاجة العبد الى طعامه وشرابه وقوته الذي يقوم بدنه به ، فان التدن لايقوم الا بذلك ، وفقده غاية انعدام البدن وموته .

وأما فقد محبة الله وعبادته ودعائه فعذاب وشقاء ، وجحيم في الآخرة والاولى لاينفك بحال من الاحوال ، قال تعالى : (اهْبِطا منْها جَميعاً بعْضُكُم لِبعْضٍ عَدوٌّ فإمَّا يأْتينَّكم مِنِّي هُدى فمَنْ اتَّبعَ هُداي فلا يضِلُّ ولايشْقى) الى قوله : (ولعذاب الاخرةِ أَشدُّ وأَبقى)[1] وقال تعالى : (الَّذينَ آمَنوا وتَطمئِنَّ قُلوبُهمْ بِذكْرِ اللهِ أَلا بِذكْرِ اللهِ تطْمئِنُّ القُلوبَ . الَّذينَ آمنُوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ طُوبى لَهُمْ وحُسْنُ مآبٍ)[2] .

وفي الحديث القدسي ــ حديث الاولياء ــ يقول الله تعالى : (من عادى لي وليا فقد بارزني بالمحاربة ، وما تقرب الي عبدي بمثل أداء ماافترضت عليه ، ولايزال عبدي يتقرب الي بالنوافل حتى أحبه ، فاذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، فبي يسمع ، وبي يبصر ، وبي يبطش) الحديث .

وعلى القول بجعل الوسائط والشفعاء بين العباد وبين الله تقلع أصول هذا الاصل العظيم ، الذي هو قطب رحى الايمان ، وينهدم أساسه الذي ركب عليه البنيان ، فأي فرح وأي نعيم وأي فاقة سدت وأي ضرورة دفعت وأي سعادة حصلت وأي أنس ، واطمئنان اذا كان التوجه والدعاء والاستغاثة والذبح والنذر لغير الملك الحنان المنان ، سبحان الله ماأجرأ هذا المعترض على الله وعلى رسله وعلى دينه وعلى عباده المؤمنين ؟!

---

(١) طه : ١٢٤ (٢) الرعد : ٣١ ، ٣٢

اللهم انا نبرأ اليك مما جاء به هذا المفتري ، وما قاله في دينك وكتابك ، وعلى عبادك وأوليائك ، قال تعالى : (لو كانَ فيهِما آلِهَةٌ إلاَّ اللهُ لفَسَدَتا فسُبْحانَ اللهِ ربِّ العرْشِ عَمَّا يصِفون)[1] فصلاح السموات والارض بأن يكون الله سبحانه هو الهها دون ماسواه ، ومستغاثها الذي تفزع اليه وتلجأ اليه في مطالبها وحاجاتها ، وقرر المتكلمون هنا تمانع وجود ربين مدبرين ، وانه لاصلاح للعالم الا بأن يكون الله قيومه ومدبره ، وقرر غيرهم من المحققين امتناع الصلاح بوجود آلهة تعبد وتقصد وترجى ، فالاول يرجع الى الربوبية ، والثاني الى الالهية .

(الوجه السادس) أن الشرع الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم والسنة التي سنها في قبور الانبياء والصالحين وعامة المؤمنين تنافي هذا القول الشنيع ــ الذي افتراه هذا الجاهل ــ وتبطله وتعارضه ، فانه صلى الله عليه وسلم سن عند القبور ماصحت به الاحاديث النبوية ، وجرى عليه عمل علماء الامة من السلام عند زيارتها والدعاء لأصحابها ، وسؤال الله العافية لهم ، من جنس ماشرعه من الصلاة على جنائزهم ، ونهى عن عبادة الله عند القبور والصلاة فيها واليها ، وخص قبور الانبياء والصالحين بلعن من اتخذهامساجد يعبدفيها تعالى ويدعى ،وتواترت بذلكالاحاديث خرجها أصحاب الصحيحين وأهل السنن ومالك في موطئه .

(فمنها) قوله صلى الله عليه وسلم : (اللهم لاتجعل قبري وثنا يعبد ، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) وحديث ابن مسعود (ان من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء ، والذين يتخذون القبور مساجد) ، وحديث أبي هريرة رضي الله عنه : (قاتل الله اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) وحديث جابر بن عبد الله : (سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يموت بخمس يقول : اني أبرأ الى الله أن يكون لي منكم خليل ، فان الله قد اتخذني خليلا كما اتخذ ابراهيم خليلا ، ولو كنت متخذا من أهل الارض خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ، ألا وان من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فاني أنهاكم عن ذلك) وحديث عائشة : (لما نزل برسول الله صلى الله عليه وسلم طفق يطرح خميصة له على وجهه ، فاذا اغتم بها كشفها ، فقال ــ وهو كذلك ــ لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ،قالت عائشة يحذر ماصنعوا

---

(١) الانبياء : ٢٣

ولولا ذلك لابرز قبره ، ولكن خشي أن يتخذ مسجد) وفي رواية لمسلم :(وصالحيهم)

وانما نهى عن الصلاة عندها واتخاذها مساجد لما يفضى اليه من دعائها والاستغاثة بها ، وقصدها للحوائج والمهمات ، والتقرب اليها بالنذور والنحر ونحو ذلك من القربات ، فجاء الغلاة فهتكوا ستر الشريعة ، واقتحموا الحمى ، وشاقوا الله ورسوله ، وقالوا تدعى ويستغاث بها وترجى .

ومن شم رائحة العلم وعرف شيئا مما جاءت به الرسل عرف أن هذا الذي قاله الغلاة من جنس عبادة الاصنام والاوثان مناقض لما دلت عليه السنة والقرآن ، ولا يستريب في ذلك عاقل من نوع الانسان .

(الوجه السابع) أن الله تعالى نهي عن الغلو ومجاوزة الحد فيما شرعه من حقوق أنبيائه وأوليائه ، قال تعالى :(يا أَهْلَ الكِتابِ لا تَغْلوا في دينِكُمْ ولا تقولوا عَلَى اللهِ إلاَّ الحقَّ)[1] وقال تعالى : (قُلْ يا أَهْلَ الكتابِ لا تغْلوا في دينِكُمْ غَيْرَ الحَقِّ ولا تتَّبعوا أَهْواء قومٍ قدْ ضَلوُّا مِن قبْلُ وأَضَلُّوا كثيراً وضَلوُّا عن سواء السَّبيلِ)[2] .

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لاتطروني كما أطرت النصارى ابن مريم ، إنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله) وعن ابن عباس في قوله تعالى : (وقالوا لا تذَرُنَّ آلِهتَكُمْ ولا تذرُنَّ وَداً ولا سُواعاً ولا يَغوثَ ويعوقَ ونَسْراً) هذه أسماء رجال صالحين في قوم نوح ، فلما ماتوا أوحى الشيطان الى قومهم أن انصبوا لهم أنصابا وصوروا تماثيلهم ، فلما مات أولئك ونسي العلم عبدت ، وقال ابن القيم : قال غير واحد من السلف عكفوا على قبورهم وصوروا تماثيلهم ، فما طال عليهم الامد عبدت ، انتهى .

فانظر الى ماآل اليه الغلو بالتصاوير والعكوف من غير دعاء ولا عبادة ، فكيف بالدعاء والاستغاثة والتوسل ؟ والقول بأن الله تعالى يفعل لأجلهم هذا نفس الشرك، والاول وسيلته التي حدث الشرك بسببها .

---

(١) النساء : ١٧١ (٢) المائدة : ٨١

وقد قطع النبي صلى الله عليه وسلم وسيلة هذا الشرك وحمى الحمى وسد الذريعة حتى نهى عن الصلاة عندها ، واعتياد المجيء اليها بقوله في أشرف القبور : (لاتجعلوا قبري عيدا ، ولا بيوتكم قبورا ، وصلوا علي حيثما كنتم ، فان صلاتكم تبلغني) ونهى عن رفع القبور ، وبعث علي ابن أبي طالب أن لايدع تمثالا الا طمسه ولا قبرا مشرفا الا سواه ، ونهى عن تعظيمها بايقاد السرج ، كل هذا صيانة للتوحيد وحماية لجانبه ، فرحم الله امرأ آمن بالجنة والنار ، وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم امامه ومعلمه وقدوته ، ولم يلتفت عما جاء به ، ولم يبال بمن خالفه وسلك غير سبيله ، وحن الى ما كان عليه السلف الصالح وأئمة الهدى في هذا الباب وفي غيره : (اولئكَ الَّذين هَدى اللهُ فَبهُداهُم اقْتدهْ)[1] (قُل إن كُنتُم تُحبُّونَ اللهَ فاتَّبِعوني يُحبِبْكُم اللهُ ويغفِرْ لكُم ذُنوبَكُم واللهُ غفورٌ رحيمٌ . قُل أَطيعوا اللهَ والرسولَ فإنْ توَلَّوْا فإنَّ اللهَ لا يُحبُّ الكافرينَ)[2]

(الوجه الثامن) أن من أعرض عن الله وقصد غيره وأعد ذلك الغير لحاجته وفاقته واستغاث به ونذر له ولاذ به فقد أساء الظن بربه ، وأعظم الذنوب عند الله تعالى اساءة الظن به ، فان المسيء به الظن قد ظن به خلاف كما له المقدس ، فظن به ما يناقض أسماءه وصفاته ، ولهذا توعد سبحانه وتعالى الظانين به ظن السوء بما لم يتوعد به غيرهم ، كما قال تعالى : (عَليهمْ دائرةُ السَّوءِ وغضِبَ اللهُ عليهمْ ولعنَهُم وأَعدَّ لَهم جهنَّم وساءتْ مصيراً)[3] وقال تعالى لمن أنكر صفة من صفاته : (وذلِكُم ظَنُّكُم الَّذي ظننْتم بربِّكُم أَرداكُم فأَصبحتُم من الخاسرينَ)[4] وقال تعالى عن خليله ابراهيم عليه الصلاة والسلام : (إذْ قال لأَبيه وقَومه ماذا تعبُدونَ . أَئفْكاً آلهَةً دونَ اللهِ تُريدونَ . فما ظَنُّكُم بربِّ العالَمينَ)[5] أي فما ظنكم أن يجازيكم اذا لقيتموه وقد عبدتم غيره ، وما ظننتم بأسمائه وصفاته وربوبيته من النقص حتى أحوجكم ذلك الى عبودية غيره ، فلو ظننتم به ما هو أهله من أنه بكل شيء عليم ، وعلى كل شيء قدير ، وأنه غني عن كل ماسواه فقير اليه كل من عداه ، وأنه قائم بالقسط على خلقه ، وأنه المنفرد بتدبير خلقه لايشرك فيه غيره ،

(١) الانعام : ٩١ (٢) آل عمران : ٣٢ ، ٣٣ (٣) الفتح : ٧ (٤) فصلت : ٢٤ (٥) الصافات : ٨٦ ـ ٨٨

والعالم بتفاصيل الامور فلا تخفى عليه خافية من خلقه ، والكافي لهم وحده لايحتاج الى معين ، والرحمن بذاته فلا يحتاج في رحمته الى من يستعطفه ، وهـذا بخلاف الملوك وغيرهم ، من الرؤساء ، فانهم محتاجون الى من يعرفهم أحوال الرعية وحوائجهم ، من الوسطاء الذين يعينونهم على قضاء حوائجهم ، والى من يسترحمهم ويستعطفهم بالشفاعة ، فاحتاجوا الى الوسائط ضرورة لحاجتهم وعجزهم وضعفهم وقصور علمهم .

فأما القادر على كل شيء ، الغني بذاته عن كل شيء ، العالم بكل شيء الرحمن الرحيم ، الذي وسعت رحمته كل شيء : فادخال الوسائط بينه وبين خلقه تنقص بحق ربوبيته والهيته وتوحيده ، وظن به ظن السوء ، وهذا يستحيل أن يشرعه لعباده ويمتنع في العقول والفطر ، وقبحه مستقر في العقول السليمة فوق كل قبح .

يوضح هذا أن العابد معظم لمعبوده متأله له خاضع ذليل له ، والرب تبارك وتعالى وحده هو الذي يستحق كمال التعظيم والاجلال ، والتأله والخضوع والذل ، وهذا في خالص حقه ، فمن أقبح الظلم أن يعطى حقه لغيره ويشرك بينه وبينه فيه ، ولا سيما اذا كان الذي جعل شريكه في حقه هو عبده ومملوكه ، كما قال تعالى : (ضَربَ لكمُ مثلاً من أَنفُسِكم هَل لكُم مما مَلَكَتْ أَيمانكم من شُركاء فيما رزقناكم فأَنتم فيهِ سواء تَخافونهم كخيفَتِكُم أَنفُسَكُم) [1] أي إذا كان أحدكم يأنف أن مملوكه شريكه في رزقه فكيف تجعلون لي من عبيدي شركاء فيما أنا منفرد به وهي الالهية التي لاتنبغي لغيري ، ولا تصلح لسواي ، فمن زعم ذلك فما قدرني حق قدري ، ولا عظمني حق تعظيمي ، ولا أفردني بما أنا منفرد به وحدي دون خلقي .

فما قدر الله حق قدره من عبد معه غيره ، كما قال تعالى : (ومـا قَدَروا اللهَ حَقَّ قدْرِهِ والارضُ جميعاً قبْضَتُهُ يومَ القيامةِ والسَّمٰواتُ مطْويَّاتٌ بيمينِهِ سُبحانَهُ وتعالىٰ عَمَّا يُشرْكونَ) [2]

فما قدر من هذا شأنه وعظمته حق قدره من أشرك معه في عبادته من ليس له شيء من ذلك البتة ، بل هو أعجز شيء وأضعفه ، فما قدر القوي العزيز حق قدره من

---

(١) الروم : ٢٩ (٢) الزمر : ٦٨

أشرك معه الضعيف الذليل •

وكذلك ماقدره حق قدره من قال انه لم يرسل الى خلقه رسولا ولا أنزل كتابا بل نسبه الى مالايليق به ولا يحسن منه من اهمال خلقه وتركهم سدى ، وخلقهم باطلا عبثا •

ولا قدره حق قدره من نفى حقائق أسمائه الحسنى وصفاته العليا فنفى سمعه وبصره وارادته واختياره وعلوه فوق خلقه وكلامه وتكليمه لمن شاء من خلقه بما يريد ، أو نفى عموم قدرته وتعلقها بأفعال عباده من طاعتهم ومعاصيهم فأخرجها عن قدرته ومشيئته وخلقه ، وجعلهم يخلقون لانفسهم مايشاؤن بدون مشيئة الرب تبارك وتعالى ، فيكون في ملكه مالا يشاء ويشاء مالا يكون ، تعالى الله عز وجل عن قول أشباه المجوس علوا كبيرا •

وكذلك ماقدره حق قدره من قال : انه يعاقب عبده على مالا يفعله العبد ولا له عليه قدرة ، ولا تأثير له فيها البتة بل هو نفس فعل الرب جل جلاله ، فيعاقب عبده على فعله ، وهو سبحانه وتعالى الذي جبر العبد عليه ، وجبره على الفعل أعظم من اكراه المخلوق المخلوق ، فاذا كان من المستقر في الفطر والعقول أن السيد لو أكره عبده على فعل وألجأه اليه ثم عاقبه عليه لكان قبيحا :فأعدل العادلين وأحكم الحاكمين وأرحم الراحمين كيف يجبر العبد على فعل لايكون للعبد فيه صنع ولا تأثير ، ولا هو واقع بارادته بل ولا هو فعله البتة ، ثم يعاقب عليه عقوبة الابد ؟ تعالى الله عز وجل عن ذلك علوا كبيرا • وقول هؤلاء شر من أقوال المجوس ، والطائفتان ماقدروا الله حق قدره •

وكذلك ماقدره من لم يصنه عن بئر ولا حش ولا مكان يرغب عن ذكره ، بل جعله في كل مكان وصانه عن عرشه أن يكون مستويا عليه ، يصعد اليه الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ، وتعرج الملائكة والروح اليه وتنزل من عنده ، ويدبر الامر من السماء الى الارض ثم يعرج اليه ، فصانه عن استوائه على سرير الملك ، ثم جعله في كل مكان يأنف الانسان بل غيره من الحيوان أن يكون فيه •

وما قدره حق قدره من نفي حقيقة محبته ورحمته ورأفته ورضاه وغضبه ومقته ولا من نفى حقيقة حكمته التي هي الغايات المحمودة المقصودة بفعله ، ولا من نفى حقيقة فعله ولم يجعل له فعلا اختياريا يقوم به ، بل أفعاله مفعولات منفصله عنه ،

فنفى حقيقة محبته واتيانه واستوائه على عرشه ، وتكليمه موسى صلى الله عليه وسلم من جانب الطور ، ومجيئه يوم القيامة لفصل القضاء بين عباده بنفسه ، الى غير ذلك من أفعاله وأوصاف كماله التي نفوها وزعموا أنهم بنفيها قدروا الله حق قدره •

وكذلك لم يقدره حق قدره من جعل له صاحبة وولدا ، وجعله يحل في مخلوقاته وجعله عين هذا الوجود •

وكذلك لم يقدره حق قدره من قال أنه رفع أعداء رسوله وأهل بيته وأهمل ذكرهم وجعل فيهم الملك والخلافة والعفو ، ووضع أولياء رسوله وأهانهم وأذلهم ، وضرب عليهم الذلة أينما ثقفوا ، وهذا يتضمن غاية القدح في الرب ــ تبارك وتعالى عن قول الرافضة علوا كبيرا ــ وهذا القول مشتق من قول اليهود والنصارى في رب العالمين انه أرسل ملكا ظالما فادعى النبوة لنفسه ، وكذب على الله تعالى ، ومكث زمنا طويلا يكذب عليه كل وقت ، ويقول قال كذا وأمر بكذا ونهى عن كذا ، وينسخ شرائع أنبيائه ورسله ، ويستبيح دماء اتباعهم وأموالهم وحريمهم ، ويقول الله تعالى أباح لي ذلك ، والرب تبارك وتعالى يظهره ويؤيده ، ويعليه ويقويه ، ويجيب دعواته ، ويمكنه ممن يخالفه ، ويقيم الادلة على صدقه ، ولا يعاديه أحد الاظفر به فيصدقه بقوله وفعله وتقريره ، ويحدث أدلة تصدقه شيئا بعد شيء ، ومعلوم أن هذا يتضمن أعظم القدح والطعن في الرب سبحانه وتعالى ، وعلمه وحكمته ورحمته وربوبيته ، تعالى عن قول الجاحدين علوا كبيرا •

فوازن بين قول هذا وقول اخوانه من الرافضة تجد القولين :

رضيعا لبان ثدي أم تقاسما   باسحم داج عوض لايتفرق

وكذلك لم يقدره حق قدره من قال انه يجوز أن يعذب أولياءه ومن لم يعصه طرفة عين ويدخلهم دار الجحيم ، وينعم أعداءه ومن لم يؤمن به طرفة عين ويدخلهم دار النعيم ، وان كلا الامرين بالنسبة اليه سواء وانما الخبر المحض جاء عنه بخلاف ذلك فمعناه الخبر لا مخالفة حكمته وعدله وقد أنكر سبحانه وتعالى في كتابه على من يجوز عليه ذلك غاية الانكار ، وجعل الحكم به من أسوء الاحكام •

وكذلك لم يقدره حق قدره من زعم أنه لايحيي الموتى ، ولا يبعث من في القبور ، ولا يجمع خلقه ليوم يجازي فيه المحسن باحسانه والمسيء باساءته ، ويأخذ للمظلوم فيه حقه من ظالمه ، ويكرم المتحملين المشاق في هذه الدار من أجله وفي مرضاته بأفضل كرامته ، ويبين لخلقه الذي يختلفون فيه ، وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين •

وكذلك لم يقدره حق قدره من هان عليه أمره فعصاه ، ونهيه فارتكبه ، وحقه فضيعه ، وذكره فأهمله وغفل قلبه عنه ، وكان هواه آثر عنده من طلب رضاه ، طاعته المخلوق أهم عنده من طاعته ، فلله الفضلة من قلبه وقوله وعمله ، وسواه المقدم في ذلك لانه المهم عنده ، يستخف بنظر الله اليه واطلاعه عليه وهو في قبضته وناصيته بيده ، ويعظم نظر المخلوق اليه واطلاعهم عليه بكل قلبه وجوارحه ، يستحي من الناس ولا يستحي من الله عز وجل ، ويخشى الناس ولا يخشى الله عز وجل ، ويعامل الخلق بأفضل مايقدر عليه ، وان عامل الله عز وجل عامله بأهون ماعنده وأحقره ، وان قام في خدمة الهه من البشر قام بالجد والاجتهاد وبذل النصيحة ، قد فرغ له قلبه وجوارحه ، وقدمه على كثير من مصالحه ، حتى اذا قام في حق ربه — ان ساعده القدر — قام قياما لايرضاه مثله لمخلوق من مخلوقاته ، وبدا له مالم يستح أن يواجه به مخلوقا لمثله ، فهل قدر الله حق قدره من هذا وصفه ؟ وهل قدره حق قدره من شارك بينه وبين عدوه في محض حقه من الاجلال والتعظيم والطاعة والذل والخضوع والخوف والرجاء ؟ فلو جعل من أقرب الخلق اليه شريكا في ذلك لكان ذلك جزاءه ، وتوثبا على محض حقه واستهانة به ، وتشريكا بينه وبين غيره فيما لاينبغي ولا يصلح الا له سبحانه وتعالى ، فكيف وانما شرك بينه وبين أبغض الخلق اليه وأهونهم عليه وأمقتهم عنده وهو عدو على الحقيقة ، فانه ماعبد من دون الله الا الشيطان ، كما قال تعالى : (أَلَمْ أَعهَدْ اليكُم يا بَني آدمَ أَنْ لا تعبُدوا الشَّيطانَ إنهُ لكُم عدوٌّ مُبينٌ . وأَنِ اعبُدوني هذا صِراطٌ مستقيمٌ)(١) ولما عبد المشركون الملائكة بزعمهم وقعت عبادتهم في نفس الامر للشيطان ، وهم يظنون أنهم يعبدون الملائكة ، كما قال تعالى : (ويومَ يَحشُرُهم جميعاً ثم يقولُ للملائِكةِ أَهؤُلاءِ إيَّاكُم كانوا يعبُدونَ . قالوا سُبحانكَ أَنتَ وليُّنا من دونِهم بلْ كانوا يعبُدونَ الجِنَّ أَكثرُهمْ بِهم مُؤمنون)(٢)

فالشيطان يدعو المشرك الى عبادته ويوهمه أنه ملك ، وكذلك عباد الشمس والقمر والكواكب يزعمون أنهم يعبدون روحانيات هذه الكواكب ، وهي التي تخاطبهم وتقضي لهم الحوائج ، ولهذا اذا طلعت الشمس قارنها الشيطان لعنه الله

---

(١) يس : ٦١ ، ٦٢ (٢) سبأ : ٤١ ، ٤٢ .

تعالى فيسجد لها الكفار فيقع سجودهم له وكذلك عند غروبها •

وكذلك من عبد المسيح وأمه لم يعبدهما وانما عبد الشيطان فانه يزعم أنه يعبد من أمره لعبادته وعبادة أمه ورضيها لهم وأمرهم بها ، وهذا هو الشيطان الرجيم ــ لعنه الله تعالى ــ لاعبد الله ورسوله ، ونزل هذا كله على قوله تعالى : (أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ) فما عبد أحد من بني آدم غير الله عز وجل كائنا من كان الا وقعت عبادته للشيطان ، فيستمتع العابد بالمعبود في حصول غرضه ، ويستمتع المعبود بالعابد في تعظيمه له واشراكه مع الله الذي هو غاية رضا الشيطان ، ولهذا قال تعالى : (وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ) من اغوائهم واضلالهم (وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ)[1] فهذه اشارة لطيفة الى السر الذي لاجله كان الشرك أكبر الكبائر عند الله تعالى ، وأنه لايغفر بغير التوبة منه ، وانه يوجب الخلود في النار ، وأنه ليس تحريمه وقبحه بمجرد النهي عنه، بل يستحيل على الله سبحانه وتعالى أن يشرع عبادة اله غيره كما يستحيل عليه ماينافض أوصاف كماله ونعوت جلاله ، وكيف يظن بالمنفرد بالربوبية والالهية والعظمة والجلال أن يأذن في مشاركته في ذلك ، أو يرضي به ، تعالى الله عز وجل عن ذلك علوا كبيرا ، انتهى ، وانما سقنا هذا المبحث العظيم الذي يعقد عليه الخناصر ويعض عليه بالنواجذ لما فيه من الفوائد التي لايستغنى عنها من نصح نفسه ، وانما الغرض بيان مافي التوسل والاستغاثة بالاموات والغائبين من سوء الظن بالله رب العالمين •

(الوجه التاسع) أن الله تعالى حرم القول عليه بغير علم وجعله أعظم من الشرك ، قال تعالى : (قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً)[2] الآية ، فرتب المحرمات منتقلا من الادنى الى الاعلى ، وقال تعالى : (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً

---

(١) الانعام : ١٢٨ (٢) الاعراف : ٣٣

اولئكَ يُعرَضُونَ على ربهِّم ويقولُ الأَشهادُ هؤُلاء الَّذينَ كذَبوا على ربهِّم الا لعنَةُ الله على الظَّالمين. الَّذينَ يصُدُّون عن سبيلِ الله ويبغونها عِوجاً وهُم بالآخِرَة هُم كافِرونَ)[1] ومن عرف الشرك حق المعرفة يعلم أن من قال تجوز الاستغاثة والتوسل بالانبياء والصالحين والنذر لهم والحلف وما أشبهه من التعظيم : له نصيب وافر من الكذب على الله وعلى رسوله ، ومن الصد عن سبيل الله وابتغاء العوج والله المستعان ، وقال تعالى :(قالوا اتَّخذَ اللهُ ولداً سُبحانهُ هو الغنيُّ لهُ ما في السَّمٰواتِ وما في الأَرضِ إنْ عندَكُم مِّن سُلطانٍ بِهذا أَتقولونَ على الله مالا تعلمونَ . قُلْ إنَّ الذينَ يَفترون على اللهِ الكَذبَ لا يُفلحونَ . متاعٌ في الدُّنيا ثُمَّ إلينا مرجِعُهم ثُمَّ نُذيقُهم العذابَ الشَّديدَ بما كانوا يكْفُرونَ)[2] .

(ويتبين) كذب الغلاة على الله وعلى رسوله وعلى عباده الصالحين بالكلام على ماساقه هذا المعترض من الادلة التي يزعم أنها تدل على دعواه ، وتنصر ما قاله وافتراه .

فأما قوله : اعلم أن المجوزين للاستغاثة بالانبياء والصالحين مرادهم أنها أسباب ووسائل بدعائهم ، وأن الله يفعل لأجلهم لا أنهم الفاعلون استقلالا من دون الله ،فان هذا كفر بالاتفاق : فجواب هذا تقدم في الوجه الثاني ، وذكرنا أن المشركين من عهد نوح الى عهد خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم لم يقصدوا سوى هذا ، ولم يدعوا لآلهتهم غيره ، وأنهم مازادوا حرفا واحدا على هذا العراقي وشيعته ، وهو يظن أن النزاع في دعواه الاستقلال وليس الامر كذلك ، فان النزاع بين الرسل وقومهم انما هو في توحيد العبادة ، فكل رسول أول مايقرع أسماع قومه بقوله : (يا قَومِ اعبُدوا اللهَ ما لكُم مِن إلهٍ غيْره) وكان المشركون من الجاهلية يقولون في تلبيتهم : لبيك لاشريك لك ، الا شريكا هو لك تملكه وما ملك ، فأثبتوا الشرك في العبادة واعتقدوا أن آلهتهم مملوكة لا مستقلة ، وهذا ظاهر في القرآن

---

(١) هود : ١٩ ، ٢٠ (٢) يونس : ٦٩ — ٧١

والسنة ، لايجهله من عرف ما الناس فيه من أمر دينهم ، وانما خفي ذلك على هـذا المعترض لفرط جهله وقلة فهمه ، ولأنه نشأ بين عباد القبور المتوسلين بها وبأهلها ، فظن أن هذا هو الاسلام ، والمسكين لم يعرف ربه وما يجب له من الحقوق على كافة الانام .

ولم يتخرج على امام يعتمد في بيان الشرائع والاحكام ، مع أن عباد القبور في هذه الازمان اعتقدوا التدبير والتصريف لمن يعتقدونه ، فطائفة قالت يتصرف في الكون سبعة ، وطائفة قالت يتصرف أربعة ، وطائفة قالت يتصرف سبعون واختلفوا في قطبهم الذي اليه يرجعون ــ تعالى الله عما يقول الظالمون ــ فأهل مصر يرون أنه البدوي ، وأهل العراق يرجحون الشيخ عبد القادر ، والرافضة يرون ذلك للأئمة من أهل البيت ، وهذا مشتهر عنهم لاينكره الا مكابر ، وقد حكم المعترض الجاهل بأن دعوى الاستقلال كفر بالاتفاق ، وعلى قول غلاة عباد القبور مصدر التصريف عنهم يستقلون به ، لأن الوكيل يستقل بتدبير ماوكل اليه ، وحينئذ فاذا لم يعرف العبادة ومسألة النزاع كيف يجادل عن قوم جزم بكفرهم وحكى عليه الاتفاق ، فالرجل مخلط لايدري مايقول .

وأما قوله ولا يخطر ببال مسلم جاهل فضلا عن عالم الخ .

فيقال : أين العنقاء لتطلب ؟ وأين السمندل ليجلب ؟ اذا صح الاسلام لم يرغب أهله الى دعاء غير الله من العباد والاوثان والاصنام .

وأما قوله : بل ليس هذا خاصا بنوع الاموات ، فان الاحياء وغيرهم من الاسباب العادية ، كالقطع للسكين والشبع للاكل والري والدفء لو اعتقد أحد أنها فاعلة ذلك بنفسها من غير استنادها الى الله يكفر اجماعا .

فيقال : اذا كان اسناد الفعل اليها استقلالا يكفر فاعله اجماعا ــ وهي من الاسباب العادية التي أودع الله تعالى فيها قوة فاعلة ــ فكيف لايكفر من أسند مالا يقدر عليه الا الله من اغاثة اللهفات ، وتفريج الكربات ، واجابة الدعوات الى غير الله من الصالحين أو غيرهم ، وزعم أنهم وسائل ، أو أن الله وكل اليهم التدبير كرامة لهم ، هذا أولى بالكفر وأحق به ممن قبله .

ويقال للزائغ : أنت لاترضى تكفير أهل القبور لاحتمال العذر والشبهة ، وأنه شرك أصغر ، يثاب من أخطأ فيه ، فكيف جزمت بكفر من أسند القطع للسكين من

غير استناد الى الله ؟ وما الفرق بين من عذرته وجزمت باثابته وبين من كفرته وجزمت بعقابه ؟ ليست احدى المسألتين بأظهر من الاخرى ، وما يقال من الجواب فيما أثبته من الكفر يقال فيما نفيته •

يوما بجزوى ويوما بالعقيق وبالعذيب يوما ويوما بالخليصاء

أي مذهب وافق هواك تمذهبت به •

ويقال : جمهور العقلاء على الفرق بين الاسباب العادية وغيرها ، فالشبع والري والدفء أسباب عادية فاعلة ، وانما يكفر من أنكر خلق الله لهذه الاسباب وقال بفعلها دون مدبر عليم حكيم ، وهذا البحث يتعلق بتوحيد الربوبية ، وأما جعل الاموات أسبابا يستغاث بها وتدعى وترجى وتعظم على أنها وسائط : فهذا دين عباد الاصنام ، يكفر فاعله بمجرد اعتقاده وفعله وإن لم يعتقد الاستقلال ، كما نص عليه القرآن في غير موضع ، فالغلاة معارضون للقرآن مصادمون لنصوصه •

وأما قوله : إن السبكي والقسطلاني والسمهودي وابن حجر في الجوهر المنظم قالوا والاستغاثة به صلى الله تعالى عليه وسلم وبغيره في معنى التوسل الى الله تعالى بجاهه الخ •

فيقال : مسألة الاستغاثة به وبجاهه ليست هي مسألة النزاع ، ومراد أهل العلم أن يسأل الله بجاه عبده ورسوله لا أن يسأل الرسول نفسه ، فان هذا لايطلق عليه توسل بل هو دعاء واستغاثة ، وأن لفظ التوسل صار مشتركا ، فعباد القبور يطلقون التوسل على الاستغاثة بغير الله ودعائه رغبا ورهبا ، والذبح والنذر والتعظيم بما لم يشرع في حق مخلوق ، وأهل العلم يطلقونه على المتابعة والاخذ بالسنة ، فيتوسلون الى الله بما شرعه لهم من العبادات ، وبما جاء به عبده ورسوله محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهذا هو التوسل في عرف القرآن والسنة كما يأتيك مفصلا ان شاءالله تعالى ، ومنهم من يطلقه على سؤال الله ودعائه بجاه نبيه أو بحق عبده الصالح أو بعباده الصالحين ، وهذا هو الغالب عند الاطلاق في كلام المتأخرين كالسبكي والقسطلاني وابن حجر •

(وبالجملة) فما نقله هنا عمن ذكر ليس من مسألة النزاع في شيء وان كابر الغلاة وزعموا أنهم قصدوا دعاء الانبياء والصالحين والاستغاثة بهم أنفسهم وأن هذا

يسمى توسلا ، فهذا عين الدعوى والدعوى يحتج لها لابها ، فبطل كلامه على كل تقدير •

(وأما قوله) أو بان يدعو الله كما في حال الحياة اذ هو غير ممتنع •

(فيقال) هذا جرأة على الله وعلى رسوله ، وتقدم اليه بما لم يشرعه ولم يأذن فيه ، وأعلم الخلق به أصحابه وأهل بيته وأئمة الدين من أمته لم يفعل أحد منهم ذلك ألبتة ولا نقله من يعتد به ، وهم أعلم الخلق به ودينه وشرعه ، وما يجوز وما يمتنع ، فلا يخلو اما ان تسلم هذه المقامات ويجزم بأن الخروج عن هديهم من أفظع الجهالات وأضل الضلالات ، أو تسلم تلك المقدمات ويدعي أن الخلف الذين يقولون مالا يفعلون ويفعلون مالا يؤمرون أحق بالصواب والعلم والمتابعة في تلك المسائل والمقالات ، وهذا اخلال بجملة الدين ، وقدح في القرون المفضلة بنص **سيد المرسلين** ، وكفى بهذا فضيحة وجهلا لو كانوا يعلمون •

(وأما قوله) مع علمه بسؤال من سأله والمستغيث يطلب من المستغاث به أن يحصل له الغوث من غيره •

(فيقال) أما دعوى عموم العلم بسؤال السائلين لمن يستغيث به جهلة القبوريين فالاخذ به واطلاقه على غير الله كفر صريح باتفاق أهل العلم ، فان من زعم احاطة العلم وعمومه لغير الله أو عموم القدرة أو الرزق أو الخلق لغيره سبحانه يكفر كفرا واضحا ، كما ذكره شراح الاسماء وغيرهم من أهل العلم ، وأما دعوى تخصيص ذلك بالنبي صلى الله عليه وسلم فهي — وان كانت من جنس ماقبلها في الرد والمنع — تبطل مذهب عباد القبور ، ودعائهم لغير الله من الغائبين والاموات ، فان دعاء الغافل الذي لايعلم بحال الداعي ولا يدريها ضلال مستبين ، قال تعالى :(وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يدعو مِنْ دونِ اللهِ مَن لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إلى يومِ القيامةِ وهُم عن دُعائِهم غافلونَ)[1]

(وأما قوله) والمستغيث يطلب من المستغاث به أن يحصل له الغوث من غيره ممن هو أعلى منه وليس لها في قلوب المسلمين غير ذلك الى آخره •

(فيقال) هذا يدل على جهل هذا الغبي باللغة والشرع ، فان الداعي السائل لغيره لايسمى مغيثا ، والمغيث من يفعل الاغاثة ويحصل الغوث بفعله •

---

(١) الاحقاف : ٦

قال شيخ الاسلام : من زعم أن مسألة الله بجاه عبده تقتضي أن يسمى العبد مغيثا ، أو يكون ذلك استغاثة بالعبد فهذا جهل ، ونسبته الى اللغة أو الى أمة من الامم كذب ظاهر ، فان المغيث هو فاعل الاغاثة ومحدثها لا من تطلب بجاهه وحقه ، ولم يقل أحد أن التوسل بشيء هو الاستغاثة به ، بل العامة الذين يتوسلون في أدعيتهم بأمور ــ كقول أحدهم نتوسل اليك بحق الشيخ فلان أو بحرمته أو باللوح والقلم أو بالكعبة في أدعيتهم ــ يعلمون أنهم لايستغيثون بهذه الامور ، وأن المستغيث بالشيء طالب منه سائل له ، والمتوسل به لايدعى ولا يطلب منه ولا يسأل وانما يطلب به ، فكل أحد يفرق بين المدعو به والمدعو ، وتقدم ذلك •

فقول هذا الزائغ : والنبي صلى الله عليه وسلم مستغاث والغوث منه تسببا وكسبا •

(فيقال) نعم هذا معتقد من يعبد الانبياء والصالحين ويستغيث بهم ، يقول هم سببي وواسطتي ، يحصلون لي بكسبهم ، والله هو الخالق ولا أدعي غير ذلك ، ولا نازع في الخلق والربوبية الا فرعون ، والذي حاج ابراهيم في ربه ، وجمهور المشركين على الاول كما تقدم تقريره فبطل تعليله •

(وأما قوله) ولا يعارض ذلك خبر أبي بكر الصديق رضي الله عنه قوموا بنا نستغيث برسول الله صلى الله عليه وسلم الخ لأن في سنده ابن لهيعة والكلام فيه مشهور •

(فيقال) ابن لهيعة خرج له البخاري ومسلم فجاوز القنطرة ، ولا يقدح فيما رواه ابن لهيعة الا جاهل بالصناعة والاصطلاح ، وهو قاضي مصر وعالمها ومسندها ، روي عن عطاء ابن أبي رباح ، والاعرج ، وعكرمة ، وخلق ، وعنه روي شعبة ابن الحجاج أمير المؤمنين في الحديث ، وعمرو بن الحارث ، والليث بن سعد ، وابن وهب وخلق ، ومن طعن في ابن لهيعة بقول بعض الناس فيه لزمه الطعن في كثير من الاكابر المحدثين ، كسعيد المقبري ، وسعيد بن أياس الجريري ، وسعيد بن أبي عروبة ، واسمعيل بن أبان ، وأزهر بن سعد السمان البصري ، وأحمد بن صالح المصري ، وأبو اليمان ، وأمثالهم ممن خرج له البخاري وغيره من الأئمة •

فدع عنك الكتابة لست منها ... ولو سودت وجهك بالمداد

(وأما قوله) وبفرض صحته فهو على حد قوله تعالى : (وما رَمَيْتَ إذ رَمَيْت ولـكنَّ اللهَ رَمَى وقوله صلى الله عليه وسلم : (ما أنا حملتكم ولكن الله حملكم)

وهذا من نوادر جهل هؤلاء الضلال ، فان لفظ الاستغاثة طلب الغوث ممن هو بيده لمن أصابته شدة ووقع في كرب ، والأنجح والاولى لمن أصابه ذلك أن يستغيث بمن يجيب المضطر اذا دعاه الموصوف بأنه غياث المستغيثين مجيب المضطرين أرحم الراحمين ، فلفظ الاستغاثة يستعمل في مخ العبادة ومالا يقدر عليه الا الله عالم الغيب والشهادة ، فكره صلى الله عليه وسلم اطلاقه عليه فيما يستطيعه ويقدر عليه حماية لحمى التوحيد ، وسدا لذريعة الشرك ، وان كان يجوز اطلاقه فيما يقدر عليه المخلوق فحماية جانب التوحيد من مقاصد الرسول ومن قواعد هذه الشريعة المطهرة ، فأين هذا من قوله : (وَمَـا رَمَيْـتَ إذ رَمَيْتَ ولـكنَّ اللهَ رَمَى) (1) فان الرمي المنفي هو ايصال مارمى به الى أعين المشركين جملتهم ، وهزيمتهم **بذلك** ، والرمي المثبت مافعله النبي صلى الله عليه وسلم من رمي ماأخذ بكفه الشريفة من التراب واستقبال وجوه العدو بــه .

(وأما قوله) وكثيرا ماتجيء السنة بنحـــو هذا من بيان حقيقـــة العلـم ويجيء القرآن من اضافة الفعل الى مكتسبه ، كقوله صلى الله عليه وسلـم : (لن يدخل أحد الجنة بعمله) مع قوله تعالى (ادْخُلوا الجَنَّةَ بِما كُنتُم تعملونَ) فالامر ليس كما توهمه هذا الزائغ ، فان الباء في الحديث باء المعاوضة والمبادلة ، وفي الآية هـي باء السببية لا باء المعاوضة ، فالمنفي غير المثبت كما نص عليه أهل العلم وأهل التفسير ، وكل فاضل وعارف بصير ، نعوذ بالله من القول على الله وعلى كتابه بغـير علم ولا سلطان منير .

(وأما قوله) ان اطلاق لفظ الاستغاثة لمن يحصل منه غوث ولو تسببا أمـر معلوم لاشك فيه لغة ولا شرعا (فقد) تقدم كلام شيخ الاسلام في نفي الاستغـاثة عمن يسأل الله بجاهه وحقه وعمن يدعو لغيره ، وأن من قال ذلك قد كذب على سائر اللغات والامم ، وأما من يسأل ويدعو وينادي ــ كما يفعله عباد القبور بمن يدعونه ــ فهذا يسمى استغاثة ، كما يسمى عبادة لغير الله وشركا بالله ، وهذا النوع ليس

---

(1) الانفال : ١٧

النزاع في اسمه وانما النزاع في جوازه وحله ، وأما حديث الشفاعة فهو فيما يقدرعليه البشر من الدعاء كما يسأل الحي الحاضر أن يدعو الله وأن يستسقى •

(وأما كلام الشيخ ابن تيمية) الذي نقله عن المصنفين في أسماء الله فهو حجة لنا على عباد القبور ، فانهم استغاثوا بغير الله فيما لايقدر عليه الا الله •

(وقوله) وان حصلت من غيره تعالى فهو مجاز •

(جوابه) أن الاستغاثة التي هي من جنس الاسباب العادية التي يقدر عليها المخلوق وفي وسعه ، فهذه وان حصلت من العبد فهي حقيقة لامجاز ، ولا ينازع في هذا من عرف شيئا من اللغة ، والعبد يفعل حقيقة ، فيأكل حقيقة ، ويشرب حقيقة ، ويهب حقيقة ، وينصر أخاه ظالما أو مظلوما حقيقة ، والله سبحانه خلق العبد وما يعمل ، وهذا معروف من عقائد أهل السنة والجماعة ، وانما ينفي الفعل حقيقة عن فاعله ومن قام به القدرية المجبرة الذين يزعمون أن العبد مجبور ، وأنه لا اختيار له ولا مشيئة ، كما هو مبسوط في موضعه ، والغلاة صفر اليدين من هذه المباحث المهمة •

(وكذلك قوله) الاستغاثة بمعنى أن يطلب منه ماهو اللائق بمنصبه : لاينازع فيها مسلم ، فاللائق بمنصبه الشريف أن يطلب منه مايستطيعه ويقدر عليه ، كالدعاء وسائر الاسباب العادية ونحو ذلك ، وأما مالا يقدر عليه الا الله كهداية القلوب ، ومغفرة الذنوب والانقاذ من النار ونحو ذلك من المطالب التي لايقدر عليها الا الله الواحد القهار : فهذا انما يليق بمقام الربوبية ، قال تعالى : (إِنَّكَ لا تَهدي مَن أَحبَبْتَ ولكنَّ اللهَ يهدي مَن يشاءُ)[1] وقال : (ومَن يَغفِرُ الذُّنوب إلاَّ اللهُ)[2] وقال تعالى : (أَفأَنتَ تُنقِذُ من في النَّارِ)[3] وقال تعالى : (لَيْسَ لكَ منَ الأَمرِ شَيْءٌ)[4] وقال رجل : أتوب الى الله ولا أتوب الى محمد ، فقال صلى الله عليه وسلم : (عرف الحق لأهله)

(وأما قوله) وقد ذكر المجوزون أن جعل النبي صلى الله عليه وسلم متسببا لا مانع من ذلك شرعا وعقلا •

(فيقال) هذه العبارة ركيكة التركيب ، والمجوزون للاستغاثة بغير الله فيما

---

(١) القصص : ٥٧ (٢) آل عمران : ١٣٦ (٣) الزمر : ٢٠ (٤) آل عمران : ١٢٩

لايقدر عليه الا الله هم خصومنا فلا حجة في كلامهم ، بل الشرع والعقل يرد مذهبهم ويبطله كما مر تقريره عن ابن القيم ، وأما الاسباب العادية فانها قد تجب ، وقد تستحب ، وقد تباح ، وقد تكره ، وليس الكلام فيها والمستغيث بغير الله فيما لايقدر عليه الا الله لاينجيه مجرد اعتقاده أن ذلك باذن الله ، بل لابد من اخلاص الدعاء والاستغاثة ، ودعاء المستغيث من أجل العبادات فيجب اخلاصه لله .

(وقول الغلاة) ومن أقر بالكرامة وأنها باذن الله لم يجد بدا من اعترافه بجواز ذلك .

(فيقال) بل البد والسعة واليسر في القول بأنه لايستغاث بالمخلوق فيما يختص بالخالق ، ولو كان المخلوق قد ثبت له من الكرامة ماثبت فالكرامة فعل الله لافعل غيره ، والمستغاث هو الله لا غيره ، ولم يكن الصحابة يستغيثون ويسألون من ظهرت له كرامة أو حصلت له خارقة من الخوارق ، فهذا الكلام الذي قاله الغلاة جهل مركب يليق بقائله ، وكل اناء بالذي فيه ينضح .

(وأما قوله) والاخبار النبوية قد عاضدته ، والآثار قد ساعدته : فبالوقوف على ما مر من كلا منا تعرف أن الاخبار النبوية قد عارضته وما عاضدته ، بل أبطلته والآثار السلفية قد ردته وماساعدته .

(وأما قوله) ومن جعل الله فيه قدرة كاسبة للفعل مع اعتقاده أن الله هو الخالق كيف يمتنع عليه طلب ذلك الشيء ؟

(فجوابه) أن الله لم يجعل للعباد قدرة على مايختص به من الاغاثة المطلقة . وأما الاغاثة بالاسباب العادية وماهو في طوق البشر وقدرتهم فهذا ليس الكلام فيه ، والاموات لاقدرة لهم على الاسباب العادية ، وما يطلب من الحي الحاضر ، فما هنا ليس من ذلك القبيل ، وما يستوي الاحياء ولا الاموات ، وقد يجعل الله للعبد قدرة على بعض الاشياء ويمنع من سؤاله وطلبه ، وفي الحديث : (لاتزال المسألة بأحدكم حتى يلقى الله وليس على وجهه مزعة لحم) وفيه : (من سأل الناس وله مايغنيه جاءت مسألته يوم القيامة خدوشا أو خموشا في وجهه) فهذا له قدرة ، وقد منع السائل الغني من سؤاله ، بل والسحرة جعل الله لهم قدرة على أنواع السحر والشعبذة وسؤالهم ذلك من أكبر الكبائر ، فبطل قول هذا الزائغ أن من جعل الله له قدرة لا مانع من سؤاله ، وكون الله قد قرب أنبيائه ورسله وأوجب على العباد برهم

وتعظيمهم لايقتضي ذلك أن يستغاث بهم أو يطلب منهم مالا يقدر عليه أحد الا الله •

والتعظيم اللائق بمناصبهم ليس من هذا الجنس ، بل تعظيمهم محبتهم وطاعتهم وتعزيرهم وتوقيرهم ، والاقتداء بهديهم ، والاخذ بما جاؤا به ، وعباد القبور تركوا هذا التعظيم الواجب ، وعظموهم بالاستغاثة والعبادة ، والذبح والنذر ، من جنس تعظيم أهل الكتاب لانبيائهم ورهبانهم وأحبارهم ، وهذا الزائغ ــ من جهله ــ يدعو الناس الى طريقة الغلاة من أهل الكتاب ، ويعرض عما جاءت به الرسل ، ويصد عن السنة والكتاب ، قال تعالى : (إِنَّ شَرَّ الدوابِّ عِنْدَ اللهِ الصُّمُ البُكمُ الَّذينَ لا يعقِلونَ)(١).

(وأما قوله) وقد خلق الله فيه قوة كاسبة : فان أراد القوة العادية البشرية الانسانية فليس النزاع في هذا ، وان أراد مايعتقده عباد القبور في معبوداتهم من الصالحين وغيرهم وان لهم قدرة على اجابة المضطر واغاثة الملهوف وقضاء حوائج السائلين فهذا شرك في الربوبية لم يبلغه شرك المشركين من أهل الجاهلية ، بل هوقول غلاة المشركين الذين يرون لآلهتهم تصرفا وتدبيرا ، وان أراد أنهم يدعون ويسألون ويستغاث بهم والله يعطي لأجلهم : فهذا هو قول الجاهلية من الاميين والكتابيين ، وتقدمت الآيات الدالة على ذلك ، وتقدم ماحكاه الشيخ من قول النصارى ياوالدة الاله اشفعي لنا الى الاله (٢) فهم طلبوا منها الشفاعة والجاه ليس الا ، وهذا من كفرهم وشركهم مع ماهم عليه من القول في عيسى وأمه قاتلهم الله ، فان كان هذا الزائغ أراد هذا الثاني فهو شرك غليظ ، وقد تقدم له التصريح بذلك وعبارته هنا توهم الاول ، وهو الغالب على عباد القبور في هذه الازمان ، نسأل الله العفو والعافية •

وأما كون الاولياء والصالحين في حال مماتهم كحال حياتهم يدعون لمن قصدهم ويتسببون في انقاذه فهذا جهل عظيم ، وقول على الله بلا علم ، لم يرد به كتاب ولا سنة ، ولا قاله ولا فعله أحد يعتد به ويقتدي به من أهل العلم والايمان ، وقد مضت القرون الثلاثة المفضلة ولم يعهد عن أحد منهم أنه قال ذلك أو فعله ، وعندهم أشرف القبور على الاطلاق ولم يعرف عن أحد منهم أنه سأل الرسول صلى الله عليه وسلم أو دعاه ولا غيره من الصالحين ، وخبر العتبى سيأتي الكلام عليه وان فاعل ذلك

---

(١) الانفال : ٢٣ (٢) هنا لم يتقدم شيء ، والكلام منقول من (المنهاج) كما أشار اليه المؤلف آنفا .

اعرابي ليس مما يقتدى به ويحتج بقوله ، وان كان بعض المتأخرين احتج بحكاية الاعرابي فهو احتجاج مدخول ، وقد نازعهم من هو أقدم منهم وأجل من الاكابر والفحول •

وأما قوله في قوله تعالى :(فاسْتغاثهُ الَّذي مِن شِيعتِه على الَّذي منْ عدوِّهِ)

فان قال قائل هذا في الحي وله قدرة ، قلنا : لايجوز نسبة الافعال الى أحد حي أو ميت على أنه الفاعل استقلالا من دون الله ، فهذا الكلام أورده بناء على أن النزاع في دعوى الاستقلال ، وبزعمه أنه اذا لم يعتقد الاستقلال فالاسباب العادية كغيرها ، ودعاء الاموات والغائبين يجوز عنده اذا لم يعتقد الاستقلال ، هذه دعواه كررها مرارا واحتج بها ، والدعوى تحتاج لدليل لاتصلح هي دليلا ، لاسيما هذه الدعوى الضالة الكاذبة الخاطئة ، والله سبحانه حكى استغاثة المخلوق الحي الحاضر فيما يقدر عليه من نصره على عدوه ، وهذا جائز لانزاع فيه ، واعتقاد الاستقلال من دون الله وأن العبد يخلق أفعال نفسه هذه مسألة أخرى لم يقل بها الا قدرية النفاة ، والناس مختلفون في تكفيرهم بهذا القول •

(وبالجملة) فالنزاع في غير هذه المسألة ، وانما هو في دعاء الاموات والغائبين، وان لم يستقل بذلك المطلوب من دون الله •

(وأما قوله) وقد جعل الله الاغاثة في غيره : فهو قول ركيك فاسد المعنى ، فان الله لم يجعل الاغاثة في غيره ، بل هو المغيث على الاطلاق ، وانما جعل لعباده عملا وكسبا في فرد جزئي مما يستطيعه العبد ويكون في قدرته ، وعبارة الزائغ في غاية البشاعة •

(وأما قوله) فلهذا نفى النبي صلى الله عليه وسلم الاغاثة كما تقدم حيث قال إنه لايستغاث الا بالله : فليس النفي لما ذكره الزائغ ، فان المخاطبين يعلمون أن الله خالق أفعال العباد ، وانما نفى الاستغاثة عنه حماية للتوحيد وصيانة لجانبه ، كما قال لمن قال له : أنت سيدنا وابن سيدنا (السيد الله ، انما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله) ولو كان كما زعم الزائغ لنفى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كل فعل وكل قول صدر منه ، لأنه لايفعله استقلالا ، قال الله تعالى (والله خلقكم وماتعملون) والزائغ قد خاض فيما لايدريه وما هو أجنبي عنه ، فالحد في الالفاظ النبوية وحرفها وكابر الحس والمعقول ، والمنفي في الحديث الاستغاثة لا الاغاثة ، وأظن المعترض لايفرق بينهما •

(الشبهة الاولى) ماأورده ابن حجر في (الجوهر المنظم) والسبكي في كتابه عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال : لما اقترف آدم الخطيئة قال يارب أسألك بمحمد صلى الله عليه وسلم الا ما غفرت لي ، قال الله : ياآدم كيف عرفت محمدا ولم أخلقه ؟ قال يارب لما خلقتني بيدك ونفخت في من روحك رفعت رأسي فرأيت على قوائم العرش مكتوبا لا اله الا الله محمد رسول الله فعلمت أنك لم تضف الى اسمك الا أحب الخلق اليك ، فقال له الله صدقت ياآدم ، انه لأحب الخلق الي ، واذ سألتني بحقه فقد غفرت لك ، ولولا محمد ما خلقتك ، والمراد بحقه صلى الله عليه وسلم رتبته ومنزلته لديه تعالى ، أو الحق الذي جعله الله سبحانه وتعالى له على الخلق ، أو الحق الذي جعله الله تعالى بفضله له عليه الخ •

(الجواب) أن يقال : هذا الحديث لا أصل له ، بل الثابت عند أهل العلم والمفسرين أن قوله تعالى : (فتلقّى آدمُ مِنْ ربِّهِ كلماتٍ فتابَ عليهِ إنَّهُ هوَ التوّابُ الرَّحيمُ)[1] نزل في توبة آدم ، وهذه الكلمات هي المفسرة بقوله تعالى : (ربَّنا ظلَمنا أنفُسَنا وإنْ لمْ تغفِرْ لنا وترْحمنا لنَكونَنَّ مِنَ الخاسِرينَ)[2] وهذا مروي عن سعيد بن جبير ، ومجاهد ، وأبي العالية ، والربيع بن أنس ، والحسن ، وقتادة ، ومحمد بن كعب القرضي ، وخالد بن معدان ، وعطاء الخراساني ، وعبد الرحمن بن يزيد ، وعن ابن عباس قال علم شأن الحج ، وعن عبيد بن عمير أنه قال قال آدم يارب خطيئتي التي أخطأت شيء كتبته علي قبل أن تخلقني أو شيء ابتدعته من قبل نفسي ؟ قال : بل كتبته عليك قبل أن أخلقك ، قال : فكما كتبته علي فاغفره لي فذلك قوله : (فتلقّى آدمُ منْ ربِّه كلمات) وعن ابن عباس قال آدم عليه السلام ألم تخلقني بيدك قيل له بلى ، ونفخت في من روحك قيل له بلى ، وعطست فقلت يرحمك الله وسبقت رحمتك غضبك قيل بلى ، وكتبت علي أن أعمل هذا قيل له بلى ، قال أفرأيت إن تبت هل أنت راجعي الى الجنة قال نعم ، وكذا رواه العوفي وسعيد بن جبير وسعيد بن معبد ، ورواه الحاكم في مستدركه الى ابن عباس ، وروى ابن أبي حاتم حديثا مرفوعا شبيها بهذا ، وعن مجاهد قال الكلمات : اللهم لا اله الا أنت سبحانك

---

(١) البقرة : ٣٧ (٢) الاعراف : ٢٣

وبحمدك ربي اني ظلمت نفسي فاغفر لي انك خير الغافرين ، اللهم لا اله الا أنت سبحانك وبحمدك اني ظلمت نفسي فاغفر لي انك خير الراحمين ، اللهم لا اله الا أنت سبحانك وبحمدك رب اني ظلمت نفسي فتب علي انك أنت التواب الرحيم، هذا ما عليه المفسرون لا ماقاله الغلاة ، فان كان بعض من لا بصيرة له قد ذكره فالحجة فيما ثبت عن الصحابة وعن سلف الامة وأئمتها ، ولا يجوز تفسير القرآن بأقوال شاذة أو موضوعة لاتثبت عند أهل العلم والحديث وأئمة التصحيح والترجيح ، ولما روي ابن حميد الرازي الحكاية المنسوبة الى مالك رحمه الله مع أبي جعفر المنصور ـ وفيها أنه سأل مالكا فقال ياأبا عبد الله أستقبل القبلة وأدعو أم أستقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقال : ولم تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم عليه السلام الى الله يوم القيامة بل استقبله واستشفع به ـ فرد الحفاظ على ابن حميد هذه الحكاية ؟ وذكروا أن اسنادها مظلم منقطع ، مشتمل على من يتهم بالكذب ، وقالوا ابن حميد كثير المناكير ، ولم يسمع من مالك شيئا ، بل روايته عنه منقطعة ، ومحمد بن حميد الرازي هذا تكلم فيه غير واحد من الأئمة ونسبه بعضهم الى الكذب .

(الشبهة الثانية) أن رجلا ضريرا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : ادع الله لي أن يعافيني ، فقال : (إن شئت دعوت وان شئت صبرت وهو خير لك الى أن قال : فأمره أن يتوضأ فيحسن وضوءه ويدعو بهذا الدعاء : اللهم اني أسألك وأتوجه اليك بنبيك محمد صلى الله عليه وسلم نبي الرحمة ، يامحمد اني أتوجه بك الى ربي في قضاء حاجتي لتقضي لي ، اللهم شفعه فيّ ، فقام وقد أبصر الخ) .

(والجواب) ماذكره بعض أهل الحديث حيث قال : اعلم أن الجواب عنه يعلم من تأمل معناه ، فقوله : اللهم إني أسألك أي أطلب منك وأتوجه اليك بنبيك محمد صرح باسمه مع ورود النهي عن ذلك تواضعا منه صلى الله عليه وسلم لكون التعليم من قبله ، وفي ذلك قصر السؤال الذي هو أصل الدعاء على الله الملك المتعال ، ولكنه توسل بالنبي أي بدعائه ، ولذا قال في آخره : اللهم فشفعه فيّ ، إذ شفاعته لاتكون الا بالدعاء لربه قطعا ، ولو كان المراد التوسل بذاته فقط لم يكن لذلك التعقيب معنى ، اذ التوسل بقوله بنبيك كاف في افادة هذا المعنى ، فقوله : يامحمد اني توجهت بك الى ربي قال الطيبي : الباء في بك للاستعانة ، وقوله إني توجهت بك بعد قوله اليك فيه معنى قوله : (مَنْ ذا الَّذي يشْفَعُ عِندَهُ إلا بِإذنه)

فيكون خطابا لحاضر معاين في قلبه مرتبط بما توجه به عند ربه من سؤال نبيه بدعائه الذي هو عين شفاعته ، ولذلك أتى بالصيغة الماضوية بعد الصيغة المضارعية المفيد كل ذلك أن هذا الداعي قد توسل بشفاعة نبيه في دعائه ، فكانه استحضره وقت ندائه ، ومثل ذلك كثير في المقامات الخطابية والقرائن الاعتبارية ، فقوله في حاجتي هذه لتقضي لي أي ليقضيها لي ربي بشفاعته في" أي دعائه ، وذلك مشروع مأمور به ، فان الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين كانوا يطلبون منه الدعاء وكان يدعو لهم ، وكذلك يجوز الآن أن تأتي رجلا صالحا فتطلب منه الدعاء لك بل يجوز للاعلى أن يطلب من الادنى الدعاء له كما طلب النبي صلى الله عليه وسلم الدعاء من عمر بن الخطاب رضي الله عنه في عمرته ، بأن قال لاتنسنا ياأخي من دعائك ، قال عمر رضي الله عنه : مايسرني بها حمر النعم .

قال المناوي : سأل الله أولا أن يأذن لنبيه أن يشفع له ، ثم أقبل على النبي ملتمسا شفاعته له ، ثم كر مقبلا على ربه أن يقبل شفاعته ، والباء في بنبيك للتعدية وفي بك للاستعانة ، وقوله : اللهم فشفعه في أي اقبل شفاعته في حقي ، والعطف علي مقدر أي اجعله شفيعا لي فشفعه ، وكل هذه المعاني دالة على وجود شفاعته بذلك ، وهو دعاؤه صلى الله عليه وسلم بكشف عاهته ، وليس ذلك بمحظور ، غاية الامر أنه توسل من غير دعاء ، بل هو نداء لحاضر ، والدعاء أخص من النداء ، إذ هو نداء عبادة شاملة للسؤال بما لايقدر عليه الا الله ، وانما المحظور السؤال بالذوات لامطلقا بل على معنى أنهم وسائل لله بذواتهم ، وأما كونهم وسائل بدعائهم فغير محظور ، واذا اعتقد أنهم وسائل لله بذواتهم فسأل منهم الشفاعة للتقرب اليهم فذلك عين ماكان عليه المشركون الاولون .

وأما ورود هذا الحديث عن عثمان بن حنيف رضي الله عنه في زمن عثمان ففي سنده مقال فكيف يعارض به جميع كتب الله وسنة رسوله وعمل أصحابه ، وهل سمعت أحدا منهم جاء اليه صلى الله عليه وسلم بعد وفاته الى قبره الشريف فطلب منه مالا يقدر عليه الا الله ؟ وهم حريصون على مثل هذه المثوبات لاسيما والنفوس مولعة بقضاء حوائجها تتشبث بكل ماتقدر عليه ، فلو صح عند أحدهم أدنى شيء من ذلك لرأيت أصحابه يتناوبون قبره الشريف في حوائجهم زمرا زمرا ، ومثل ذلك تتوفر الدواعي على نقله ولا وسع الله طريقا لم يتسع للصحابة والتابعين وصلحاء علماء الدين .

(الشبهة الثالثة) أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه توسل بالعباس رضي الله عنه في الاستسقاء ولم ينكر عليه ، وكان حكمة توسله به دون النبي صلى الله عليه وسلم وقبره اظهار غاية التواضع لنفسه والرفعة لقرابته صلى الله عليه وسلم ، ففي توسله بالعباس توسل بالنبي صلى الله عليه وسلم وزيادة الخ .

(والجواب) أن المراد من التوسل الدعاء لهم ، يدل عليه ثبوت دعائه لهم بطلب السقيا كما جاءت به بقية الروايات ، وهذا المعنى هو الذي عناه الفقهاء في كتبهم ومرادهم التوجه الى الله بدعاء الصالحين بأن يدعو لهم ، ولو كان التوسل بالذوات هو المطلوب والمدلول الذي أقاموا عليه الدليل ــ وهم بمقتضى دليلهم لايخصون الاحياءبهذا التوسل ، ويستحبون التوسل بالذوات الشريفة ، ولو بندائهم ودعائهم كما مر تقريره من دليلهم ، وأنه على معنى أن الشفعاء يدعون لهم ، وقالوا لامانع من ذلك عقلا وشرعا فانهم أحياء في قبورهم ــ لكان التوسلبالنبي صلى الله عليه وسلم في ذلك الامر المهم وهم عنده بالمدينة أولى ، ولكان قولهم ــ كما في رواية البخاري أن عمر بن الخطاب استسقى بالعباس ، وقال اللهم إنا كنا اذا أجد بنا توسلنا اليك بنبيك فتسقينا وانا تتوسل اليك بعم نبينا فاسقنا ، فيسقون ــ عبثا ضائعا ، بل مخلا بما يقولون ويدعون ، بل هو أقوى الادلة وأرجحها وأعلاها وأوثقها وأصحها وأصدقها لما ندعيه ، فان قول عمر اللهم انا كنا اذا أجدبنا توسلنا الخ يدل دلالة ظاهرة على انقطاع ذلك الذي هو الدعاء بدليل قوله انا كنا ، ولما كان العباس حيا طلبوه منه فلما مات فات ، فقصرهم له على الموجودين ولو كانوا مفضولين دليل ساطع وبرهان لامع على هذا المراد ، ولو كان المقصود الذوات كما يقولون لبقيت هذه التوسلات عندهم على حالها لم تتغير ولم تتبدل الى المفضولين بعد وجود الفاضلين ، سيما الانبياء والمرسلين ، فتأمل في هذا فانه أحسن مافي هذه الأوراق ، حقيق بأن يضرب عليه رواق الاتفاق ، والله يهديك السبيل فهو نعم المولى ونعم الوكيل .

وأما باقي الشبه التي أوردها النبهاني من كلام أسلافه الغلاة : فمنها مالا يمس مقصودنا ، ومنها أحاديث لاتخلو عن ضعف أو كذب راوٍ أو غير ذلك مما يمنع العمل بموجبه كما ذكره من رد عليهم ، ولو نظرت اليها بعين الايمان وجدت آثار الوضع لائحة عليها ، وأحوال الصحابة وأعمالهم تدل على أنهم غير معترفين بما فيها ، ولو كان عندهم من ذلك أدنى رائحة لجاؤا الى قبر النبي صلى الله عليه وسلم في جميع ماينوبهم على الرواحل ، وتركوا عند ذلك جميع المشاغل .

(ذكر شبه أخرى للمجوزين للاستغاثة وابطالها)

لم يزل خصوم أهل الحق في كل عصر يسعون في تأييد باطلهم ويستندون الى شبه هي أو هي من بيت العنكبوت وأنها لمن أوهن البيوت ، ويتشبثون لترويج باطلهم حتى بحبال القمر ، وقد رأيت رسالة مختصرة صنفها العلامة أبو عبد الله الشيخ محمد رحمه الله سماها (كشف الشبهات) أودعها نبذة من ذلك ، وهي على اختصارها نافعة جدا لطالب الحق فأحببت ايراد شيء منها اتماما للفائدة ، قال رحمه الله :

(اعلم أن الله سبحانه من حكمته لم يبعث نبيا بهذا التوحيد الا جعل له أعداء، كما قال تعالى : (وكذلكَ جعلْنا لِكلِّ نبيٍّ عَدواً شياطينَ الأنسِ والجنِّ يُوحي بعضُهم الى بعضٍ زُخرُفَ القَوْلِ غُروراً)[1] وقد يكون لأعداء التوحيد علوم كثيرة وكتب وحجج ، كما قال تعالى : (فلمَّا جاءَتْهُم رُسُلهمْ بالبيِّناتِ فَرِحوا بما عِنْدَهُم منَ العلْمِ)[2] اذا عرفت ذلك وعرفت أن الطريق الى الله تعالى لابد له من أعداء أهل فصاحة وعلم وحجج ، فالواجب عليك أن تعلم من دين الله مايكون لك سلاحا تقاتل به هؤلاء الشياطين ، الذين قال امامهم ومقدمهم لربك عز وجل : (لأَقْعُدَنَّ لَهم صِراطَكَ المستَقيمَ . ثُم لآتيَنَّهم منْ بينِ أيديهم ومن خَلفِهمْ وعن أَيمانِهم وعن شمائِلهم)[3] ولكنك اذا أقبلت على الله تعالى وأصغيت الى حججه وبيناته فلا تخف ان كيد الشيطان كان ضعيفا ، والعامي من الموحدين يغلب الفا من خصومه بأذن الله ، كما قال تعالى : (وإنَّ جُندَنا لهمُ الغالبون)[4] فجند الله هم الغالبون بالحجة والبيان كما أنهم الغالبون بالسيف والسنان ، وانما الخوف على الموحد الذي يسلك الطريق وليس معه سلاح ، وقد من الله تعالى علينا بكتابه الذي جعله تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين ، فلا يأتي صاحب باطل بحجة الا وفي القرآن ماينقضها ويبين بطلانها ، كما قال تعالى : (ولا يأتونَكَ بمثَلٍ إلاَّ جئناكَ بالحقِّ وأَحسَنَ تفسيراً)[5] قال بعض المفسرين هذه الآية عامة في كل حجة يأتي بها أهل الباطل الى يوم القيامة .

---

(١) الانعام : ١١٢ (٢) غافر : ٨٣ (٣) الاعراف : ١٦ ، ١٧ (٤) الصافات : ١٧٣ (٥) الفرقان : ٣٣

وأنا أذكر لك أشياء مما ذكر الله تعالى في كتابه جوابا لكلام احتج به خصوم أهل الحق في زماننا هذا علينا ، فنقول : ان جواب أهل الباطل من طريقين : مجمل ومفصل .

(أما المجمل) فهو الامر العظيم والفائدة الكبيرة لمن عقلها ، وذلك قوله تعالى : (هوَ الَّذي أنزلَ عليْكَ الكتابَ منْهُ آياتٌ محكماتٌ هُنَّ أُم الكتاب وأُخَرُ متشابهاتٌ فأَمَّا الَّذين في قُلوبهم زَيغٌ فيتَّبعونَ ما تشابهَ منهُ ابتغاءَ الفتْنَة وابتغاء تأويلِه وما يعْلَمُ تأْويلَه إلاَّ اللهُ والرَّاسخونَ في العِلم يقولونَ آمنَّا بِه كلٌّ منْ عنْدِ ربِّنا وما يتذكَّرُ إلاَّ اولوا الألبابِ)[1] وقد صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : (اذا رأيتم الذين يتبعون ماتشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم) .

(مثال ذلك) اذا قال لك بعض الخصوم : (أَلا إنَّ اوْلياءَ اللهِ لا خوْفٌ عليهم ولاهُم يحزنونَ)[2] وأن الشفاعة حق ، وأن الانبياء عليهم السلام لهم جاه عند الله ، أو ذكر كلا ما للنبي صلى الله عليه وسلم يستدل به على شيء من باطله ، فأجبه بقولك : إن الله تعالى ذكر أن الذين في قلوبهم زيغ يتركون المحكم ويتبعون المتشابه ، وأن الله تعالى ذكر أن المشركين يقرون بالربوبية ، وأنه كفرهم بتعلقهم على الملائكة والانبياء والاولياء ، مع أنهم قالوا هؤلاء شفعاؤنا عند الله ، فهذا أمر محكم بين لايقدر أحد أن يغير معناه ، وماذكرت لي أيها الخصم من الكتاب الكريم أو كلام النبي صلى الله عليه وسلم لا أعرف معناه ، ولكن أقطع أن كلام الله تعالى لايتناقض وأن كلام النبي صلى الله عليه وسلم لايخالف كلام الله .

(وهذا جواب سديد) ولكن لايفهمه الا من وفقه الله تعالى ، فلا تستهونه ، فانه كما قال تعالى : (وما يُلَقَّاها إلاَّ الَّذينَ صَبروا ، وما يُلَقَّاها إلاَّ ذو حظٍّ عظيمٍ)[3]

(وأما الجواب المفصل) فان أعداء الحق لهم اعتراضات كثيرة يصدون بها الناس :

---

(١) آل عمران : ٧ (٢) يونس : ٦٢ (٣) فصلت : ٣٥

(منها) قولهم نحن لانشرك بالله بل نشهد أنه لايخلق ولا يرزق ولا ينفع ولا يضر الا الله تعالى وحده لا شريك له ، وأن محمدا صلى الله عليه وسلم لايملك لنفسه نفعا ولا ضرا فضلا عن غيره ، ولكن أنا مذنب والصالحون لهم جاه عند الله واطلب من الله بهم .

(فأجبه) أن الذين قاتلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا مقرين بما ذكرت ، ومقرين أن أوثانهم لاتدبر شيئا وانما أرادوا الجاه والشفاعة ، واقرأ عليه ماذكر الله في كتابه ووضحه له ، فان قال : إن هذه الآيات نزلت فيمن يعبد الاصنام فكيف تجعلون الصالحين أصناما ، فأجبه بأنه اذا أقر أن الكفار كانوا يشهدون بالربوبية كلها لله وأنهم ماأرادوا ممن قصدوا الا الشفاعة ، واذا أراد أن يفرق بين فعلهم وفعله بما ذكر فاذكر له أن الكفار منهم من كان يدعو الصالحين والاصنام ، ومنهم من كان يدعو الاولياء الذين قال الله فيهم : (اولئكَ الَّذينَ يدعُونَ يبتَغونَ إلى ربِّهم الوسيلةَ أَيُّهم أقربُ)[1] وقال تعالى :(ما المسيحُ ابنُ مريمَ إلاَّ رسولٌ قدْ خَلتْ منْ قبله الرسُلُ وأُمهُ صدِّيقةٌ كانا يأكُلانِ الطَّعامَ انظُرْ كيفَ نُبين لهُم الآيات ثُم انظُر أنَّى يُؤفَكونَ)[2] واذكر قوله تعالى : (ويومَ يَحشرُهم جميعاً ثُم يقولُ للملائكَةِ أهؤلاء إياكُم كانوا يعبُدونَ . قالوا سُبحانَكَ انتَ وليُّنا مِنْ دونِهم بلْ كانوا يعبُدونَ الجِنَّ أكثرُهم بهم مُؤمنونَ)[3] .

فقل له : أعرفت أن الله تعالى كفر من قصد الاصنام ، وكفر أيضا من قصد الصالحين ، وقاتلهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ؟

فان قال : ان الكفار يريدون منهم ، وأنا أشهد أن الله تعالى هو النافع الضار المدبر لا أريد الا منه ، والصالحون ليس لهم من الامر شيء ولكني بقصدهم أرجو من الله تعالى شفاعتهم .

---

(١) الاسراء : ٥٧ (٢) المائدة : ٧٥ (٣) سبأ : ٤٠ ، ٤١

فأجبه أن هذا قول الكفار سواء بسواء ، فاقرأ عليه قوله تعالى : (ما نَعْبُدُهم إلاَّ ليُقَرِّبونا إلى اللهِ زُلفَى)[1] وقوله تعالى : (هؤُلاءِ شُفعاؤُنا عِندَ اللهِ)[2] .

(واعلم) أن هذه الشبه الثلاث هي أكبر ماعندهم ، فاذا عرفت أن اللـه تعالى وضحها في كتابه وفهمتها فهما جيدا فما بعدها أيسر منها .

(فان قال) أنا لاأعبد إلا الله والالتجاء الى الصالحين ودعاؤهم ليس بعبادة ، فقل له : أنت تقر أن الله تعالى فرض عليك اخلاص العبادة وهو حقه عليك ؟ فاذا قال : نعم ، فقل له : بين لي هذا الذي فرض عليك وهو اخلاص العبادة لله وحده وهو حقه عليك ، فانه لايعرف العبادة ولا أنواعها فبينها له بقولك قال الله تعالى : (أُدعوا رَبَّكُم تضَرُّعاً وخُفيةً)[3] إذا علمت بهذا هل هو عبادة فلا بد أن يقول نعم والدعاء مخ العبادة، فقل له : اذاأقررت أنها عبادة ودعوت الله ليلا ونهارا خوفا وطمعا، ثم دعوت في تلك الحاجة نبيا أو غيره هل أشركت في عبادة الله غيره ـ إذ قال الله تعالى: (فصَلِّ لِرَبِّكَ وانحَرْ)وأطعت الله ونحرت له ؟ فلا بد أن يقول نعم ، فقل له : اذا نحرت لمخلوق نبي أو جني أو غيرهما هل أشركت في هذه العبادة غير الله تعالى ؟ فلا بد أن يقر ويقول نعم .

(وقل له أيضا) ان المشركين الذين نزل فيهم القرآن هل كانوا يعبدون الملائكة والصالحين واللات والعزى وغير ذلك ؟ فلا بد أن يقول نعم : فقل له : وهل كانت عبادتهم اياهم الا في الدعاء والذبح والالتجاء ونحو ذلك ، والا فهم مقرون أنهم عبيد لله تحت قهره ، وان الله تعالى هو الذي يدبر الامر ولكن دعوهم والتجؤا اليهم للجاه والشفاعة وهذا ظاهر جدا .

فان قال : أتنكر شفاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم وتبرأ منها ؟ فقل له : لاأنكرها ولا أتبرأ منها ، بل هو صلى الله تعالى عليه وسلم الشافع المشفع وأرجو شفاعته ، لكن الشفاعة كلها لله كما قال تعالى : (قُلْ للهِ الشَّفاعةُ جميعاً)[4] ولا تكون الا من بعد اذنه سبحانه ، كما قال عز وجل : (منْ ذا الَّذي يشفَعُ عنْدَهُ إلاَّ بإذْنِهِ)[5] ولا يشفع لأحد الا من بعد أن يأذن الله فيه ، كما قال جل جلاله ولايشفعونَ

(١) الزمر : ٣ (٢) يونس : ١٨ (٣) الاعراف : ٥٥ (٤) الزمر : ٤٤ (٥) البقرة : ٢٥٥

إلاَّ لِمَنِ ارتضى)[1] وهو لايرضى إلا التوحيد ، كما قال تعالى : (وَمَنْ يبْتَغِ غيرَ الاسْلامِ دِيناً فلنْ يُقبلَ منهُ وهوَ في الآخرَةِ منَ الخاسِرينَ)[2]

فاذا كانت الشفاعة كلها لله ولا تكون الا بعد اذنه ولا يشفع النبي صلى الله عليه وسلم ولا غيره في أحد حتى يأذن الله فيه ولا يأذن الا لأهل التوحيد : تبين أن الشفاعة كلها لله ، واطلبها منه وأقول اللهم لاتحرمني شفاعته ، اللهم شفعه فيَّ ، وأمثال هذا .

(فان قال) إن النبي صلى الله عليه وسلم أعطى الشفاعة وأنا أطلب مما أعطاه الله (فقل له)ان الله تعالى أعطاه الشفاعة ونهاك عن هذا ، وقال : (فلا تدْعوا معَ اللهِ أَحداً)[3] وأيضا فان الشفاعة أعطيها غير النبي صلى الله عليه وسلم ، فقد صح أن الملائكة يشفعون والاولياء يشفعون ، أتقول ان الله أعطاهم الشفاعة وأنا أطلبها منهم ؟ فان قلت هذا رجعت الى عبادة الصالحين التي ذكرها الله تعالى في كتابه وان قلت لا بطل قولك ان الله تعالى أعطاه الشفاعة وأنا أطلب مما أعطاه الله .

(فان قال) أنا لا أشرك بالله شيئا حاشا وكلا والالتجاء الى الصالحين ليس بشرك (فقل له) إذا كنت تقر أن الله تعالى قد حرم الشرك أعظم من تحريمه الزنا ، وتقر أن الله لايغفره ، فما هذا الامر الذي عظمه الله وذكر أنه لايغفره ؟ فانه لايدري (فقل له) كيف تبريء نفسك من الشرك وأنت لاتعرفه ؟ أم كيف يحرم الله عليك هذا ويذكر أنه لايغفره ولا تسأل عنه ولا تعرفه ؟ أتظن أن الله يحرمه ولا يبينه لنا (فان قال) الشرك عبادة الاصنام ونحن لانعبد الاصنام (فقل له) مامعنى عبادة الاصنام أتظن أنهم كانوا يعتقدون أن تلك الاخشاب والاحجار تخلق وترزق وتدبر أمر من دعاها ؟ فهذا يكذبه القرآن (وإن قال) هو قصد خشبة أو حجر أو بنية على قبر أو غيره يدعون ذلك ويذبحون له ويقولون انه يقربنا الى الله زلفى ويدفع عنا ببركته ، (فقل) له صدقت وهذا هو فعلكم عند الاحجار ، والابنية التي على القبور وغيرها ، فهذا قد أقر أن فعلهم هذا هو عبادة الاصنام .

(ويقال له أيضا) قولك الشرك عبادة الاصنام هل مرادك أن الشرك مخصوص

---

(١) الانبياء : ٢٨ (٢) آل عمران : ٨٥ (٣) الجن : ١٨

بهذا وأن الاعتماد على الصالحين ودعائهم لايدخل في هذا ؟ فهذا يرده ماذكره الله تعالى في كتابه من كفر من تعلق على الملائكة وعيسى والصالحين ، فلا بد أن يقر لك أن من أشرك في عبادة الله أحدا من الصالحين فهو الشرك المطلوب في القرآن وهذا هو المطلوب •

(وسر المسألة) أنه اذا قال لك أنا لاأشرك بالله ، فقل له وما الشرك بالله فسره لي ، فان قال هو عبادة الاصنام فقل له ومامعنى عبادة الاصنام فسرها لي ، فان فسرها بما بينه القرآن فهو المطلوب ، وان لم يعرفه فكيف يدعي شيئا وهو لايعرفه وان فسر ذلك بغير معناه فبين له الآية الواضحة في معنى الشرك بالله وعبادة الاوثان مما يفعل في هذا الزمان بعينه ، وأن عبادة الله وحده لاشريك له هي التي ينكرون عليها ويصيحون كما صاح اخوانهم ، حيث قالوا : أجعل الآلهة الها واحد ان هذا لشيء عجاب •

(فاذا عرفت) أن هذا الذي يسميه خصوم الحق في وقتنا الاعتقاد هو الشرك الذي أنزل فيه القرآن ، وقاتل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الناس عليه ، فاعلم أن شرك الاولين أخف من شرك أهل عصرنا من وجهين •

(أحدهما) أن الاولين لايشركون ولا يدعون الملائكة والاولياء والاوثان مع الله تعالى الا في الرخاء ، وأما في الشدة فيخلصون لله الدين ، كما قال تعالى :
(وإذا مسَّكُمُ الضُّرُّ في البحْرِ ضَلَّ مَنْ تدعونَ إلاَّ إيَّاهُ فلمَّا نَجَّاكُم إلى البَرِّ اعرَضْتُم وكانَ الانسانُ كَفوراً)[1] وقال تعالى : (قُلْ أَرأيتكُمْ إنْ أَتاكُمْ عذابُ اللهِ او أتتْكُم السَّاعةُ أَغيْرَ اللهِ تدعونَ إنْ كُنتمْ صادقينُ . بَلْ إيَّاهُ تدْعونَ فيكْشِفُ ما تدعونَ اليه إنْ شاءَ وتنْسَونَ ما تُشْركونَ)[2] وقال تعالى : (وإذا مسَّ الانسانُ ضُرٌّ دعا ربَّه مُنيباً اليهِ) الى قوله : (قُلْ تمتَّعْ بِكُفركَ قليلاً إنَّك منْ أصحابِ النَّارِ)[3] وقال تعالى : (واذا غشيَهُم موْجٌ كالظُّلَلِ دَعو اللهَ مُخلصينَ لهُ الدِّينَ)[4] فمن فهم هذه المسألة التي أوضحها الله

---

(١) الاسراء : ٦٧ (٢) الانعام : ٤٠ ، ٤١ (٣) الزمر : ٨ (٤) لقمان : ٣٢

تعالى في كتابه ، وهي أن المشركين الذين قاتلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعون الله ويدعون غيره في الرخاء ، وأما في الضر والشدة فلا يدعون الا الله تعالى وحده لاشريك له وينسون ساداتهم :تبين له الفرق بين شرك أهل زماننا وشرك الاولين ولكن أين من يفهم قلبه هذه المسألة فهما راسخا والله المستعان •

(والامر الثاني) أن الاولين يدعون مع الله أناسا مقربين عند الله ، إما أنبياء ، واما أولياء ، واما ملائكة ، ويدعون أشجارا وأحجارا مطيعة لله ليست عاصية ، وأهل زماننا يدعون مع الله أناسا من أفسق الناس والذين يدعونهم هم الذين يحكون عنهم الفجور من الزنا والسرقة وترك الصلاة وغير ذلك ، ومن يعتقد في الصالحين ومن يعبد مالا يعصى كالخشب والحجر أهون ممن يعتقد فيمن يشاهد فسقه وفساده ويشهد به •

(اذا تحققت) أن الذين قاتلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أصح عقولا وأخف شركا من هؤلاء ، فاعلم أن لهؤلاء شبهة يوردونها على ماذكرنا وهي من أعظم شبههم ، فاصغ سمعك لجوابها ، وهي أنهم يقولون أن الذين نزل فيهم القرآن لايشهدون أن لا اله الا الله ، ويكذبون الرسول وينكرون البعث ، ويكذبون القرآن ويجعلونه سحرا ، ونحن نشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ، ونصدق القرآن ونؤمن بالبعث ، ونصلي ونصوم ، فكيف تجعلوننا مثل أولئك ؟ •

(فالجواب) أنه لاخلاف بين العلماء كلهم ان الرجل اذا صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم في شيء وكذبه في شيء انه كافر لم يدخل في الاسلام ، وكذلك اذاآمن ببعض القرآن وجحد بعضه كمن أقر بالتوحيد وجحد وجوب الصلاة ، أو أقر بهذا كله وجحد الصوم أو أقر بهذا كله وجحد الحج •

ولما لم ينقد أناس في زمن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم للحج أنزل الله تعالى في حقهم : (وللهِ على النَّاسِ حِجُّ البَيْتِ مَنِ استطاعَ إليهِ سَبيلاً ومَنْ كَفرَ فإنَّ اللهَ غَنيٌّ عنِ العالمينَ) [1] ومن أقر بهذا كله وجحد البعث كفر بالاجماع وحل دمه وماله ، كما قال جل جلاله : (إنَّ الَّذينَ يكْفرون باللهِ

---

(1) آل عمران : ٩٨

ورُسُلِهِ ويريدونَ أن يُفرِّقوا بينَ اللهِ وَرُسُلِهِ ويقولونَ نُؤمنُ ببعْضٍ ونكْفُرُ ببعضٍ ويُريدونَ أنْ يتَّخِذوا بينَ ذلكَ سَبيلاً ، اولئكَ هُم الكافرون حقاً)[١]
فاذا كان الله تعالى قد صرح في كتابه أن من آمن ببعض وكفر ببعض فهو الكافر حقا زالت هذه الشبهة عن قلبه .

(ويقال) إذا كنت تقر أن من صدق الرسول في كل شيء وجحد وجوب الصلاة انه كافر حلال الدم والمال بالاجماع ، وكذلك اذا أقر بكل شيء الا البعث ، وكذلك لو جحد وجوب صوم رمضان لايجحد هذا ولا تختلف المذاهب فيه ، وقد نطق به القرآن كما قدمنا ، فمعلوم أن التوحيد هو أعظم فريضة جاء بها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو أعظم من الصلاة والزكاة والصوم والحج : فكيف اذا جحد الانسان شيئا من هذه الامور كفر وان عمل بكل ماجاء به الرسول ، واذا جحد التوحيد الذي هو دين الرسل كلهم لايكفر ، سبحان الله ماأعجب هذا الجهل ؟!

(ويقال أيضا) هؤلاء أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قاتلوا بني حنيفة ، وقد أسلموا مع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهم يشهدون أن لا اله الا الله ، وأن محمدا رسول الله ، ويصلون ويؤذنون . فان قال : إنهم يقولون أن مسيلمة نبي ، قلنا : هذا هو المطلوب ، إذا كان من رفع رجلا في رتبة النبي صلى الله عليه وسلم كفر وحل ماله ودمه ولم تنفعه الشهادتان ولا الصلاة فكيف بمن رفع وليا أو صحابيا أو نبيا في مرتبة جبار السموات والارض ، سبحان الله ماأعظم شأنه (كذلِكَ يطبعُ اللهُ على قلوبِ الَّذين لا يعلمون)[٢]

(ويقال أيضا) إن الذين حرقهم علي بن أبي طالب كلهم يدعون الاسلام ، وهم من أصحاب علي بن أبي طالب كلهم يدعون الاسلام ، وهم من أصحاب علي ، وقد تعلموا العلم من الصحابة ، ولكن اعتقدوا في علي مثل الاعتقاد في الصلحاء ، فكيف أجمع الصحابة على قتلهم وكفرهم ؟ أتظنون أن الصحابة يكفرون المسلمين ؟ أم تظنون أن الاعتقاد في صلحاء العصر لايضر ، والاعتقاد في علي ابن أبي طالب يكفر ؟

(ويقال أيضا) إن بني عبيد القداح الذين ملكوا المغرب ومصر أيام بني العباس كلهم كانوا يشهدون أن لا إله الا الله وأن محمدا رسول الله ، ويدعون الاسلام ،

---

(١) النساء : ١٥٠ ، ١٥١ (٢) الروم : ٦٠

ويصلون الجمعة والجماعة ، فلما أظهروا مخالفة الشريعة في أشياء دون مانحن فيه أجمع العلماء على كفرهم وقتالهم ، وأن بلادهم بلاد حرب ، وغزاهم المسلمون حتى استنقذوا مابأيديهم من بلدان المسلمين •

(ويقال أيضا) اذا كان الاولون لم يكفروا الا من جمع بين الشرك وتكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم والقرآن وانكار البعث وغير ذلك فما معنى الباب الذي ذكره الفقهاء من كل مذهب وهو باب حكم المرتد وهو المسلم الذي يكفر بعد اسلامه ؟ وذكروا أنواعا كثيرة كل نوع منها يكفر ويحل دم الرجل وماله ، حتى أنهم ذكروا أشياء يسيرة عند من فعلها مثل كلمة يذكرها بلسانه دون قلبه أو كلمة يذكرها على وجه المزح واللعب •

(ويقال أيضا) ان الذين قال تعالى فيهم (يَحلِفون باللهِ ما قالوا ولقَدْ قالوا كلمةَ الكُفرِ وكفروا بعدَ إسْلامِهم) [1] أما سمعت الله تعالى كفرهم بكلمة مع أنهم في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم يجاهدون معه ، ويصلون معه ، ويزكون ويحجون ويوحدون ، وكذلك الذين قال الله تعالى فيهم : (قُلْ أبالله وآياته ورسولِهِ كُنتُم تستهزِؤنَ . لا تعتذروا قدْ كفرتُم بعد إيمانِكُمْ) [2] فهؤلاء الذين أخبر الله تعالى عنهم أنهم كفروا بعد ايمانهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك قد قالوا كلمة ذكروا أنهم قالوها على وجه المزح •

فتأمل هذه الشبهة وهي قولهم تكفرون المسلمين أناسا يشهدون أن لا اله الا الله ويصلون ويصومون ثم تأمل جوابها فانه من أنفع مافي هذه الاوراق •

(ومن الدليل على ذلك أيضا) ماحكى الله تعالى عن بني اسرائيل مع اسلامهم وعلمهم وصلاحهم أنهم قالوا لموسى : (اجعَلْ لنا إلهاً كما لَهمْ آلِهَةٌ قال إنكم قومٌ تَجهلون) [3] وقال ناس من الصحابة اجعل لنا ذات أنواط فحلف صلى الله عليه وسلم أن هذا نظير قول بني اسرائيل اجعل لنا الها ، ولكن لخصوم الحق شبهة يدلون بها عند هذه القصة ، وهي أنهم يقولون أن بني اسرائيل لم يكفروا وكذلك الذين قالوا اجعل لنا ذات أنواط لم يكفروا •

---

(١) التوبة : ٧٦ (٢) التوبة : ٦٧ ، ٦٨ (٣) الاعراف : ١٣٨

(فالجواب) أن نقول : ان بني اسرائيل لم يفعلوا ذلك ، وكذلك الذين سألوا النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا خلاف أن بني اسرائيل لم يفعلوا ذلك ولو فعلوا ذلك لكفروا ، وكذلك لاخلاف أن الذين نهاهم النبي صلى الله عليه وسلم لو لم يطيعوه واتخذوا ذات أنواط بعد نهيه لكفروا ، وهذا هو المطلوب .

(وهذه القصة) تفيد أن المسلم بل العالم قد يقع في أنواع من الشرك وهو لايدري ، فتفيد التعلم والتحرز ومعرفة أن قول الجاهل فهمنا التوحيد من أكبر الجهل ومن مكائد الشيطان ، وتفيد أيضا أن المسلم المجتهد اذا تكلم بكلام كفر ــ وهو لايدري ــ فنبه على ذلك وتاب من ساعته أنه لايكفر ، كما فعل بنو اسرائيل ، والذين سألوا النبي صلى الله عليه وسلم ، وتفيد أيضا أنه لولم يكفر فانه يغلظ عليه الكلام تغليظا شديدا كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(ولخصوم الحق وأعداء الدين شبهة أخرى) وهي أنهم يقولون : أن النبي صلى الله عليه وسلم أنكر على أسامة قتل من قال لا اله الا الله وقال : (أقتلته بعدما قال لا اله الا الله) وكذلك قوله : (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا اله الاالله) الى أحاديث أخر في الكف عمن قالها ومراد هؤلاء الجهلة أن من قالها لايكفر ولايقتل ولو فعل مافعل .

(فيقال لهم) من المعلوم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قاتل اليهود وسألهم وهم يقولون لا اله الا الله ، وأن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قاتلوا بني حنيفة وهم يشهدون أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ، ويصلون ويدعون الاسلام ، وكذلك الذين حرقهم علي بن أبي طالب بالنار ، وهؤلاء الجهلة يقرون أن من أنكر البعث كفر وقتل ولو قال لا اله الا الله ، وأن من جحد شيئا من أركان الاسلام كفر وقتل ولو قالها ، فكيف لاتنفعه اذا جحد فرعا من الفروع وتنفعه اذا جحد التوحيد الذي هو أساس دين الرسل ورأسه ، ولكن أعداء الله لم يفهموا معنى الاحاديث .

(فأما أحاديث أسامة) فانه قتل رجلا ادعى الاسلام بسبب أنه ظن أنه مادعى الاسلام الا خوفا على دمه وماله ، والرجل اذا أظهر الاسلام وجب الكف عنه حتى يتبين منه مايخالف ذلك ، وأنزل الله تعالى في ذلك : « يا أَيُّها الَّذينَ آمنوا إذا ضَرَبْتُم

في سبيلِ الله فتبيَّنوا)[1] أي تثبتوا ، فالآية تدل على أنه يجب الكف عنه والتثبت فاذا تبين منه بعد ذلك مايخالف الاسلام قتل لقوله : (فتبينوا) ولو كان لايقتل اذا قالها لم يكن للتثبت معنى ، وكذلك الاحاديث الأخر معناها ماذكرناه ، وأن من أظهر التوحيد والاسلام وجب الكف عنه ، الا أن يتبين منه مايناقض ذلك .

(والدليل على هذا) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذي قال : (أقتلته بعدما قال لا اله الا الله) وقال : (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا اله الا الله) ، وهو الذي قال في الخوارج : (أينما لقيتموهم فاقتلوهم ، لئن أدركتهم لاقتلنهم قتل عاد) مع كونهم من أكثر الناس عبادة وتهليلا ، حتى أن الصحابة رضي الله عنهم يحقرون أنفسهم عندهم ، وقد تعلموا العلم من الصحابة فلم تنفعهم كلمة لا اله الا الله ، ولا كثرة العبادة ، ولا ادعاء الاسلام لما ظهر منهم مخالفة الشريعة .

(وكذلك) ماذكرناه من قتال اليهود وقتال الصحابة رضي الله عنهم بني حنيفة.

(وكذلك) أراد صلى الله عليه وسلم أن يغزو بني المصطلق لما أخبره رجل منهم أنهم منعوا الزكاة حتى أنزل الله تعالى : (يا أيُّها الَّذين آمنوا إنْ جاءكُم فاسِقٌ بِنبأ فتبيَّنوا)[2] وكان الرجل كاذبا عليهم ، وكل هذا يدل على أن مراد النبي صلى الله عليه وسلم بالاحاديث التي احتجوا بها ماذكرناه .

(ولهم شبهة أخرى) وهي أن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر أن الناس يوم القيامة يستغيثون بآدم ، ثم بنوح ، ثم بابراهيم ، ثم بموسى ، ثم بعيسى فكلهم يعتذر حتى ينتهوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قالوا فهذا يدل على أن الاستغاثة بغير الله ليست شركا .

(والجواب) أن نقول : سبحان من طبع على قلوب أعدائه ، فان الاستغاثة بالمخلوق فيما يقدر عليه لاتنكرها ، كما قال تعالى في قصة موسى : (فاسْتغاثَهُ الَّذي منْ شِيعتِه على الَّذي منْ عدوِّهِ)[3] وكما يستغيث الانسان بأصحابه في الحرب أو غيره في أشياء يقدر عليها المخلوق ، ونحن أنكرنا استغاثة العبادة التي يفعلونها عند

---

(١) النساء : ٩٤ (٢) الحجرات : ٧ (٣) القصص : ١٦

قبور الاولياء أو في غيبتهم في الاشياء التي لايقدر عليها الا الله ، اذا ثبت ذلك فاستغاثتهم بالانبياء يوم القيامة يريدون منهم أن يدعوا الله أن يحاسب الناس حتى يستريح أهل الجنة من كرب الموقف ، وهذا جائز في الدنيا والآخرة ، مثل أن تأتي عند رجل صالح حي يجالسك ويسمع كلامك ، تقول له ادع الله لي كما كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يسألونه في حياته ، وأما بعد موته فحاشا وكلا انهم لم يسألوا ذلك ، بل أنكر السلف على من قصد دعاء الله عند قبره ، فكيف بدعائه نفسه ، صلى الله عليه وسلم •

(ولهم شبهة أخرى) وهي قصة ابراهيم عليه السلام لما ألقي في النار ، اعترض له جبريل في الهواء ، وقال له : ألك حاجة ، فقال ابراهيم عليه السلام : أما اليك فلا • قالوا فلو كانت الاستغاثة شركا لم يعرضها على ابراهيم عليه السلام •

(والجواب) أن هذا من جنس الشبهة الاولى ، فان جبريل عليه السلام عرض عليه أن ينفعه بأمر يقدر عليه ، فانه كما قال الله تعالى فيه شديد القوى ذو مرة ، فلو أذن له أن يأخذ نار ابراهيم عليه السلام وما حولها ويلقيها في المشرق أو المغرب لفعل، ولو أمره الله تعالى أن يضع ابراهيم عليه السلام عنهم في مكان بعيد لفعل ، ولو أمره أن يرفعه الى السماء لفعل ، وهذا كرجل غني له مال كثير يرى رجلا محتاجا فيعرض عليه أن يقرضه أو يهبه شيئا يقضي به حاجته ، فيأبى ذلك المحتاج أن يأخذ ويصبر الى أن يأتيه الله برزق لامنة فيه لأحد ، فأين هذا من استغاثة العبادة والشرك لو كانوا يفقهون •

هذا آخر ماقصدنا نقله من كتاب (كشف الشبهات) وقد خطر لي بيتان من الشعر في قصة ابراهيم عليه السلام نظمهما بعض الادباء العصريين وهما :

أصبحت ملة ابراهيم متبعا ... لا أبتغي من سوى رب العلى بدلا
لو قال لي الروح جبرائيل هل لك من ... حاج لقلت له أما اليك فلا

وهذا هو التوحيد الذي يرغم أنف النبهاني وأضرابه من الغلاة الطغاة ، ومانقلناه عن الشيخ كلام مفيد لذوي البصائر والافهام ، وقد سقط به ماذكره النبهاني من توضيح مسألة الاستغاثة ، فان كلامه هنا مجرد اعادة عبارة سابقة ليعظم لديه حجم كتابه ، نسأله تعالى أن يهدينا سبلنا ، ويصلح لنا أحوالنا بمنه وكرمه •

(ثم ان النبهاني الغبي) ذكر في آخر الفصل الرابع تتمة زعم أنها اشتملت على

كلام بعض أئمة أهل العلم والاولياء في زيارة قبور الصالحين والانتفاع بزيارتها وصفاء أرواحهم بعد مماتهم ، ثم نقل عن ابن دحلان هذيانه الذي في كتابه تقريب الاصول لتسهيل الوصول ، وهو قوله : قد صرح كثير من العارفين أن الولي بعد وفاته تتعلق روحه بمريديه ، فيحصل لهم ببركتهأنوار وفيوضات ، قال وممن صرح بذلك قطب الارشاد سيدي عبد الله بن علوي الحداد ، فانه قال : الولي يكون اعتناؤه بقرابته واللائذين به بعد موته أكثر من اعتنائه بهم في حياته ، لأنه في حياته كان مشغولا بالتكليف وبعد موته طرح عنه الاعباء وتجرد ، والحي فيه خصوصية وبشرية ، وربما غلبت احداهما الاخرى ، وخصوصا في هذا الزمان فانها تغلب البشرية والميت مافيه الا الخصوصية فقط — ثم بقي يهذي الى أن قال — وكان الشيخ أبو المواهب أيضا يقول : من الاولياء من ينفع مريده الصادق بعد مماته أكثر مما ينفعه حال حياته ، ومن العباد من تولى الله تعالى تربيته بنفسه بغير واسطة ، ومنهم من تولاه بواسطة بعض أوليائه ولو ميتا في قبره فيربى مريده وهو في قبره ويسمع مريده صوته من القبر ، ولله عباد يتولى تربيتهم النبي صلى الله عليه وسلم بنفسهمن غير واسطة لكثرة صلاتهم عليه صلى الله عليه وسلم ، ثم نقل كلام الامام فخر الدين الرازي — الذي ذكره في الفصل الثالث عشر من كتابه المطالب العالية في بيان كيفية الانتفاع بزيارة القبور والموتى — وهو قوله : ان الانسان اذا ذهب الى قبر انسان قوي النفس كامل الجواهر ووقف هناك ساعة وحصل تأثير في نفسه حين حصل من الزائر تعلق بزيارة تلك التربة فلا يخفى أن لنفس ذلك الميت تعلقا بتلك التربة أيضا فحينئذ يحصل لنفس الزائر الحي ولنفس ذلك الانسان الميت تعلق بتلك التربة وملاقاة بسبب اجتماعهما بتلك التربة أيضا ، فصار هاتان النفسان شبيهتين بمرآتين صقيلتين متقابلتين بحيث ينعكس الشعاع من كل واحدة منهما الى الاخرى ، فكل ماحصل في نفس هذا الزائر الحي من المعارف والبراهين والعلوم الكسبية والاخلاق الفاضلة من الخشوع لله تعالى والرضا بقضاء الله تعالى ينعكس منه نور الى روح هذا الحي الزائر ، وبهذه الطريقة تصير تلك الزيارة سببا لحصول تلك المنفعة الكبرى والبهجة العظمى لروح هذا الزائر ، فهذا هو السبب والاصل في مشروعية الزيارة ، ولا يبعد أن يحصل منها أسرار أخرى أدق وأخفى مما ذكرنا ، وتمام الحقائق ليس الا عند الله تعالى انتهى كلام الرازي •

ثم قال : قال الشيخ أبو المواهب : قال بعض العارفين وللاولياء عند زيارة

الاولياء وقائع كثيرة تدل على اعتناء المزور بالزائر وتوجهه اليه بالكلية على قدر توجهه وقابليته ، قال النبهاني : انتهى مانقلته من تقريب الاصول للسيد أحمد دحلان

أقول : انما نقلت كلام ابن دحلان الذي استدل به النبهاني على باطله من أوله الى آخره ـ وان كان فيه تضييع المداد والقرطاس ويؤسف على مايصرف مدة نقله على الانفاس ـ ليقف عليه المؤمن فيحمد الله على الايمان والاسلام ، ونجاته من ظلمات مثل هذه الاوهام ، ولشناعتها وبشاعتها لدى ذوي العقول السليمة لاتحتاج الى اقامة دليل ولا برهان على ماحوته من بداهة البطلان ، وجميع من نقل عنه ذلك الهذيان كانوا من غلاة الشافعية فقط ، ومن الاسف على مثل هذا المذهب أن دنسه هؤلاء الغلاة وأضرابهم مع ماكان عليه الامام الشافعي من الاتباع للسنة ، وقد صان الله تعالى السادة الحنفية والمالكية والحنابلة عن مثل هذه العقيدة الزائغة والقول الباطل ، ومن المعلوم لديك أن النبهاني عقد بابا لزيارة القبور ، وبابا للسفر اليها ، وهذى بما هذى في كلا البابين ، وكأنه نسي أن يذكر هذا الكلام في موضعه فتداركه في هذا المقام ، فان له تعلقا به من حيث الاستعداد والاستفاضة اللذان ادعاهما في الزيارة قاتله الله ماأعظم جهله وغباوته .

ثم انا قد أسلفنا الكلام على الزيارة ، وبينا مافيه الكفاية لمن كان له قلب سليم، وقلنا : ان الزيارة منها ماهو سني وهو الذي كان يعلمه الرسول صلى الله عليه وسلم أصحابه من شأنها ، ومنها ماهو بدعي لم ينزل الله به من سلطان ، وأطنبنا الكلام على كل ذلك ، ونقلنا ماكتبه شيخ الاسلام في (الجواب الباهر) وكتابه في الرد على المعترض المالكي وهو الذي لم يسبقه أحد اليه ، ومنه يعلم أن ماكتبه ابن دحلان وما نقله عن الرازي كلام ساقط كل السقوط ، وليس عليه دليلا لا من كتاب ولا من سنة ولا من كلام السلف الصالح ، وكان الذي قال يقول الرازي من المتقدمين والمتأخرين انما أخذوه عن الاشراقيين من فلاسفة اليونان ، ومن الاسف على مثل الرازي أن يتفوه بمثل مانقل عنه ومنزلته في العلم ماتعلم ، لكن الامام الذهبي قد بين حقيقته ومبلغه من علوم الدين ، وابن السبكي تأثر من شيخه الذهبي اذ بين حقيقته وأطال اللسان عليه في طبقاته في الكلام على ترجمة الرازي ، وابن دحلان ليس مما يلام على جهله ، وغباوته ودعواه في العلم معلومة ، وعجبه وكبره مما يقتضي مارأيت من جهله ، والحاصل أنه لو لم يكن لنا دليل على بطلان مانقله النبهاني عمن نقله سوى مخالفته للنقل الصحيح والعقل الصريح لكفانا ذلك ، فكيف والادلة على

بطلانه كثيرة كما يعلم مما سبق •

(ثم ان النبهاني) نقل كلام ابن دحلان في كتابه (خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام) وعقد له بابا وجعله ثالث الابواب ، وهو كلام اليس عليه اثارة من علم ، ونقله النبهاني بأسره ، فذكر الشبه التي تمسك بها الوهابية على زعمه ، فقال : ينبغي أولا أن نذكر الشبهات التي تمسك بها ابن عبد الوهاب في اضلال العباد ، ثم نذكر الرد عليه ببيان أن كل ماتمسك به زور وافتراء وتلبيس على عوام الموحدين •

(قال فمن شبهاته) التي تمسك بها زعمه أن الناس مشركون في توسلهم بالنبي صلى الله عليه وسلم وبغيره من الانبياء والاولياء والصالحين ، وفي زيارتهم قبره صلى الله عليه وسلم وندائهم له بقولهم يارسول الله نسألك الشفاعة ، وزعم أن ذلك كله اشراك وحمل الآيات القرآنية التي نزلت في المشركين على الخواص والعوام من المؤمنين ، كقوله تعالى : (فلا تدْعوا مَع الله أَحداً) [1] وقوله تعالى : (ومَنْ أضلُّ مِمن يَدعو مِن دون الله مَن لا يستجيبُ لهُ إلى يومِ القيامةِ وهُم عن دُعائِهم غافِلونَ . وإذا حُشرَ النَّاسُ كانوا لهم أعداء وكانوا بِعبادتِهم كافرينَ) [2] وقوله تعالى : (فلا تَدْعُ مع اللهِ إلهاً آخر فتكونَ منَ المعذَّبينَ) [3] وقوله تعالى : (ولا تدْعُ منْ دونِ اللهِ ما لا يَنفَعكَ ولا يضرُّكَ فإنْ فعلْتَ فإنَّكَ إذاً من الظَّالمينَ) [4] وقوله تعالى : (والَّذينَ تَدعونَ من دونهِ ما يَملِكونَ مِنْ قِطْميرٍ انْ تدعوهُم لا يسمعوا دُعاءَكُم ولوْ سَمِعوا ما استجابوا لكُم ويومَ القيامةِ يكفرونَ بِشرْكِكُم ولا يُنبِّئكَ مثْلُ خبيرٍ) [5] وقوله تعالى : (قُل ادْعوا الَّذين زعمْتُم من دونِهِ فلا يملكونَ كَشْفَ الضُّرِ عنكُم ولا تَحويلا. اولئكَ الَّذينَ يدعُونَ يبْتغونَ الى ربِّهم الوسيلةَ أيُّهم أقربُ ويرجونَ رحمتَهُ ويخافون عذابهُ إنَّ عذابَ ربِّكَ كانَ محذوراً) [6] وأمثال هذه الآيات كثيرة في القرآن كلها حملها على الموحدين الخ •

---

(١) الجن : ١٨ (٢) الاحقاف : ٥ ، ٦ (٣) الشعراء : ٢١٣ (٤) يونس : ١٠٦ (٥) فاطر : ١٣ ، ١٤ (٦) الاسراء : ٥٦ ، ٥٧

(أقول ومن الله أستمد التوفيق) ان النبهاني لم يزل يكرر مباحث كتابه ويعيد حتى يعظم حجم كتابه ، وما أدري ماذا قصد بنقل كلام ابن دحلان ، فهل للاستدلال به على باطله وهو لايفيد ذلك فان الرجل ليس ممن يحتج بقوله ، بل ولا ممن يوثق به فانه مبتدع بل من الغلاة المشهورين ، وان كان نقله لكلامه ليبين للناس أن له أمثالا في الغلو والضلال فهذا مما لايحتاج ، فقد قيل :

ومهما تكن عند امريء من خليقة وان خالها تخفى على الناس تعلم

وعلى كل حال فان مانقله النبهاني عن صاحبه مؤلف كتاب خلاصة الكلام وكتاب الدرر السنية في الرد على الوهابية قد رددناه سابقا كما قد رد عليه من قبلي علماء أفاضل محققون ، وقد انتشرت كتبهم ، منها كتاب (صيانة الانسان عن وسوسة الشيخ دحلان) للعلامة المحدث الشيخ عبد الله بن الشيخ عبد الرحمن بن الشيخ عبد الرحيم السندي رحمه الله تعالى ، وقد أجاد في رده عليه وأظهر زيغه وعواره ، فقد قال في خطبة كتابه : أما بعد ، فاني وقفت على الرسالة التي جمعها الشيخ أحمد بن زيني دحلان وسماها (الدرر السنية في الرد على الوهابية) ورأيت مؤلفها يدعي في ديباجة رسالته الباطلة الساقطة الدنية الردية أنه جمع فيها ماتمسك به أهل السنة في زيارة النبي صلى الله عليه وسلم والتوسل به من الدلائل والحجج القوية ، من الآيات والاحاديث النبوية ، فتعجبت منه التعجب الصراح ، كيف وليس في الباب حديث واحد حسن فضلا عن الصحاح ، فتأملت فيها تأمل الناقد البصير لكي أعلم به هل صدق في تلك الدعوى أم كذب كذب المجادل الضرير ، فوجدت دعواها عارية عن لباس الصدق والحق المبين ، محلاة بحلية الزور والكذب والباطل المهين ، فانه ليس فيها من الاحاديث الا ماأورده التقي السبكي في شفاء السقام ، وهي دائرة بين الاحتمالات الثلاثة السقام ، اما موضوعة عملتها أيدي الوضاع اللئام ، أوضعاف واهية رواها من وسم بمثل كثرة الغلط والخطأ والاوهام ، أو شيء يسير من الصحيح والحسن في زعمه قاصر عن افادة المرام ، كما بين ذلك كله الامام أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الهادي في كتابه (الصارم المنكي) وليس فيها من الآيات والاحاديث الصحاح والحسان مايدل على المطلوب المحكى ، وكان حقا على المؤلف تعاطي واحد مما يذكر ، لئلا يعد كلامه مما يهجر وينكر ، اما ايراده لاحاديث صحيحة أو حسنة دالة على المطلوب غير ماأورد في الشفاء ، أو الاجابة عما تكلم به عليها صاحب الصارم وغيره من الائمة الاذكياء ، وان لم يفعل هذا ولا ذاك فليس لها فائدة ، ولا يؤل هذا

الطول الى منفعة وفائدة ، ومن عجائب صنيعه أن المؤلف مع زعمه أنه من جملة المقلدين يستدل بالادلة الشرعية وهو منصب المجتهدين ، فعن لي أن أنبه على ماوقع فيها من مساويء المفاهيم ، وزخارف الاقوال ، وأراجيف الاستدلال ، لئلا يغتر بها من يقف عليها ممن لاخبرة له بحقائق علم السنة من المتون والرجال ، فبالله أستعين وأقول الى آخر ماقال •

فاذا عرفت ماكان من الردود على أقوال ابن دحلان فالتعرض لها في مثل هذا المقام فضول ، ومع ذلك نشير اشارة اجمالية الى الرد عليها ، فنقول : قوله فمن شبهاته التي تمسك بها زعمه أن الناس مشركون في توسلهم بالنبي صلى الله عليه وسلم الخ لا أصل له ، بل أن له دلائل قطعية من الكتاب والسنة على أن العبادة مختصة بالله تعالى لايشركه غيره ، لقوله تعالى : (إياكَ نعْبـدُ . واياكَ نسْتعينُ) وقوله صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري ومسلم : (اذا استعنت فاستعن بالله) الخ وبين أن مالا يقدر عليه الا الله فطلبه منه مخ العبادة ، فمن صرفه لغيره فلا شك أنه عبد الغير ، ومن عبد الغير فقد أشرك على ماسبق فيما نقل عنه من كتاب (كشف الشبهات) •

ثم انه لم يقل أن زيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم أو قبور سائر الانبياء والصلحاء الزيارة المشروعة شرك بل ندبها واستحبها ، نعم ان الزيارة المخالفة لما ورد فهي ليست بمقبولة ، كما أنها كذلك عند المحققين من الائمة ، وقد سبق بيان ذلك فيما نقلناه عن شيخ الاسلام ، وكذلك التوسل به بمعنى جعله وسيلة والطلب من الله تعالى ليس مما نوزع فيه •

وقوله : وندائهم له الخ قد أسلفنا لك فيما نقلناه من كتاب (كشف الشبهات) أن الشفاعة تطلب من الله تعالى ، وتقدم تفصيله •

(وقوله) وحمل الآيات القرآنية التي نزلت في المشركين على الخواص والعوام من المؤمنين الخ (فقد تقدم أيضا) بيان ذلك مفصلا في (كشف الشبهات) وحاصل ماأسلفناه أن من عبد غير الله شملته نصوص المشركين وان صام وان صلى ، فلا حاجة الى تكرير الكلام في هذا المقام ، وقد تكلم على هذه الاعتراضات على وجه البسط أيضا الشيخ عبد الله السندي في رده على ابن دحلان فراجعه ان شئت فانه مفيد •

(ثم ان النبهاني) نقل كلام ابن دحلان بجملته وهو عين ماهذى به في كتابه الدرر السنية ، وما فيها منقول عن الجوهر المنظم وشفاء السقام ، وقد عرفت ماكان من الكتابين ، وما كان من الرد عليهما فلا تتعب البنان برده ، ثم قال بعد كلام طويل : ان الذين اعتنوا بالرد على محمد ابن عبد الوهاب خلائق لايحصون من مشارق الارض ومغاربها من أرباب المذاهب الاربعة في كتب مبسوطة ومختصرة ثم ذكر أحاديث الزيارة التي سبق الكلام عليها وبها ختم الباب .

أقول يجاب عن هذا الكلام من وجوه :

(الوجه الاول) أن كثيرا من العلماء المحققين انتصروا للشيخ ، وردوا على من من رد عليه بكتب مفصلة مفيدة لايسع المقام ذكرها .

(الوجه الثاني) أن رد كثير من العلماء على الشيخ لايقتضي بطلان ماكان عليه ولا حقية ماكان عليه خصومه ، انما معيار الحق شهادة الكتاب العزيز والسنةالنبوية، واذا كان قوله وعمله موافقا للنقلين فلا مبالاة بمخالفة الغير كائنا من كان .

اذا رضيت عني كرام عشيرتي فلا زال غضبانا على لئامها

(الوجه الثالث) أن الامة لم تزل بين راد ومردود ، ولا يزالون مختلفين ولذلك خلقهم ، وكثير من علماء الصحابة والتابعين وتابعي التابعين قد خالفهم كثير من العلماء هؤلاء المذاهب الاربعة كل واحد منهم له من المخالفين أكثر من الموافقين ، وكل منهم قد رد عليه خصومه بردود مفصلة ، وهذا من المسلمات التي لايسوغ النزاع فيها ، فالشيخ الدحلاني كأنه غض طرفه عما جرى بين أئمته وأتباعهم ، وما كان من خراب الديار بسبب تنازعهم ، ورأى مااعترض به خصوم ابن عبد الوهاب عليه لما أظهر زيفهم وزيغهم وباطلهم وضلالهم ، والحق بيد الشيخ الدحلاني فانه على جهله قد ادعى الرياسة على قوم لم يميزوا بين يمينهم وشمالهم ، وأطاعوه لموافقته لهم على ماألفوه من الضلال والغي ، فاذا علمت أقوال هذا الرجل وتبصر بها من تبصر تقطعت حبائل ابن دحلان وأمثاله من حزب الشيطان ، ثم انه ليس هو بأول من رد عليه ولا أول من عودي وحسد ، ففي البخاري : (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أخبر ورقة بن نوفل مارأى قال له ورقة : هذا الناموس الذي نزل الله على موسى، ياليتني فيها جذعا ، ليتني أكون حيا اذ يخرجك قومك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أو مخرجي هم ؟ قال : نعم ، لم يأت رجل قط بمثل ماجئت به الا عودي،

وان يدركني يومك أنصرك نصرا مؤزرا) ولو أخذنا نذكر ماجرى على الأئمة طال الكلام •

(وقد ذكر الشيخ عبد اللطيف) في كتابه (منهاج التأسيس ، في الرد على ابن جرجيس) كلاما مفيدا يعلم منه السبب في معاداة الناس لجده الشيخ محمد ، ولابأس بذكره فانه يرد به على الخصوم قال عليه الرحمة : ان الله بعث محمدا صلى الله عليه وسلم بالهدى ودين الحق ليظهره علىا لدين كله ولو كره المشركون ، وكان الناس قبل مبعثه على أديان متفرقة ، ونحل متباينة ، وطرائق مختلفة ، وضلال مستبين ، كما في صحيح مسلم من حديث عياض بن حمار عن النبي صلى الله عليه وسلم : (أن الله نظر الى أهل الارض فمقتهم عربهم وعجمهم الا بقايا من أهل الكتاب) فقام صلى الله عليه وسلم بأعباء النبوة والرسالة ، وصدع بالانكار على كافة أهل الجهالة والضلالة ، ودعى الناس الى معرفة الله تعالى وتوحيده ، وأمرهم باخلاص الدين لله وتجريده ، ولم يزل صلى اللهعليه وسلم الى الله داعيا ، والى سبيله هاديا ، حتى أظهره الله على سائر فرق المشركين ، الاميين منهم والكتابيين ، واستعلن الدين واستنار ، وقهر الاسلام كل مشرك جبار ،فأكمل الله للامة الدين ، وأتم النعمة بما جاء به رسوله الامين ، فدخل الناس في دين الله أفواجا ، وأشرقت الارض بنور النبوة واهتزت طربا وابتهاجا ، ومحا الله آثار الاصنام والاوثان ، وخمدت معابد الصلبان والنيران ، ورفعت أعلام السنة والقرآن ، حتى تركهم صلى الله عليه وسلم علىالبيضاءليلهاكنهارها ،لايضل سالكهاولا تلتبس عليهمناهجهاومسالكها ، ولم يزل خلفاؤه الراشدون ومن بعدهم من تلك الاعصار الفاضلة والقرون على هذا المنهج المنير متفقون ، وبعروته مستمسكون ، فاستمر الامر على ذلك ، ومضى الصالحون على تلك المناهج الواضحة والمسالك ، ثم نشأ في الاسلام من لايعرف الجاهلية ، ولم يميز بين شعب الشرك والاصول الاسلامية ، فانتقضت من الدين عراه ، وعز خلاصه وعظمت بالجهال محنته وبلواه ، وآلت الرياسة الى الجهال والاغمار ، وجاءت دولة غربة الدين واشتد الادبار ، فوقع الشرك بالصالحين وغيرهم صرفا لم يشب ، هرم عليه الكبير ونشأ الصغير وشب ، واستحكم الامر استحكاما لامزيد عليه ، حتىجزم الاكثر بكفر من أنكر ذلك وأشير به اليه ، وهذا من أعلام نبوة نبينا المصطفى ، زاده الله تعالى صلاة وسلاما وشرفا ، فقد روى الشيخان وغيرهما من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال : (لتتبعن

سننن من كان قبلكم شبرا بشبر وذراعابذراع ،حتى لو سلكوا جحر ضب لسلكتموه قلنا يارسول الله اليهود والنصارى ؟ قال : فمن ؟) وجاء نحوه عن ابن عباس رضي الله تعالى عنه وفيه زيادة : (وباعا بباع) وفيه : (حتى لو أن أحدهم دخل جحر ضب لدخلتموه ، وحتى لو أن أحدهم جامع أمه في الطريق لفعلتموه) وفي الباب عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه وشداد بن أوس ، وعن عمرو ابن شعيب عن أبيه عن جده، فصار الامر طبق ماأخبر به هذه الامة نبيها ، وظهر وجه الشبه بينهم وبينها ، وانتهى الحال الى أن قيل بالاتحاد والحلول ، وكثرت في ذلك اشارات القوم والنقول ، وصار هو مذهب الخاصة والخلاصة عند الاكثرين ، ومن أنكره فهو عندهم ليس على شيء من العلم والدين ، وعبدت الكواكب والنجوم ، وصنف في ذلك مثل أبي معشر وصاحب السر المكتوم ، وعظمت القبور وبنيت عليها المساجد ، وعبدت تلك الضرائح والمشاهد ، وجعلت لها الاعياد الزمانية والمكانية ، وصرفت لها العبادات المالية والبدنية ونحرت لها النحائر والقرابين ، وطاف بها الفوج بعد الفوج من الزائرين والسائلين ، وحلقت لأربابها رؤوس الوافدين ، وهتف بدعائها ورجائها من حضر أو غاب من المعتقدين والمحبين ، واعتمدوا عليها في المهمات من دون الله رب العالمين ، وانتهكت بأعيادها وموالدها محظورات الشريعة والمحرمات ، واستبيح فيها مااتفق على تحريمه جميع الشرائع والنبوات ، وكثر المكاء والتصدية بتلك الفجاج والعرصات ، وبارزوا بتلك القبائح والعظائم فاطر الارض والسموات ، وصنف في استحبابه بعض شيوخهم كابن المفيد ، وظنه الاكثر من دين الاسلام والتوحيد ، وأشير الى من أنكره بالكفر الشديد ، وقد ضمن الله تعالى لهذه الامة أن لاتجتمع على ضلالة ، وان لايزال فيها من يعبد الله تعالى قائما على أي وصف وحالة ، وجاء الحديث بأنه تعالى يبعث لهذه الامة على رأس كل قرن من يجدد لها أمر الدين ، ويقوم من الحجة بالواضح المستبين، فمنهم من قص علينا نبؤه ووصل ، ومنهم من انقطع عنا خبره وما اتصل ، وأحق أهل القرن الثاني عشر — عند من خبر الامور وسبر ، ووقف على ماقرره أهل العلم والاثر ، من حصول الوصف الكاشف المعتبر — شيخ الاسلام والمسلمين ، المجدد لما درس من أصول الملة والدين ، السلفي الاول وان تأخر زمانه عند من عقل وتأمل، محمد ابن عبد الوهاب ، رحمه الله تعالى وأجزل له الثواب ، وكان قيامه رحمه الله تعالى بعد الخمسين ومائة وألف من سني الهجرة المحمدية ، وابتداء التواريخ الاسلامية ، فشمر رحمه الله تعالى عن ساعدي جده واجتهاده ، وأعلن بالنصح لله

ولكتابة ولرسوله وسائر عباده ، وصبر على مانا له من أعباء تلك الرتبة والدعــوة ، وماقصد به من أنواع المحنة والجفوة ، وقرر رحمه الله تعالى أن الواقع الذي حكينا، والصنيع الذي رأينا وروينا ، عن عباد القبور والصالحين ، هو بعينه فعل الجاهليــة الوثنيين ، وهو الذي جاءت الرسل بمحوه وابطاله ، وتكفير فاعله ورد باطله ومحاله، وقال ان حقيقة دين الاسلام وزبدة ماجاءت به الرسل الكرام : هو افراد الله تعالى بالقصد والعبادة ، واسلام الوجه له بالعمل والارادة ، وترك التعلق على الاولياء من دونه والانداد ، والبراءة من عبادة ماسواه من سائر المخلوقات والعباد ، وهذا معنى كلمة الاخلاص والتوحيد ، وهو الحكمة المقصودة بخلق جميع الكائنات والعبيد ، وقرر رحمه الله أن مجرد الاتيان بلفظ الشهــادة مع مخالفة مادلت عليه الاصــول المقررة ومع الشرك الاكبر في العبادة لايدخل المكلف في الاسلام ، إذ المقصــود من الشهادتين حقيقة الاعمال التي لايقوم الايمان بدونها ، كمحبة الله وحده ، والخضوع له ، والانابة اليه ، والتوكل عليه ، وافراده بالاستعانة ، والاستغاثة فيما لايقدر عليه سواه ، وعدم الاشراك به فيما يستحقه من العبادات ، كالــذبح والنذر والتقــوى والخشية ونحو ذلك من الطاعات •

واستدل لذلك بنصوص قاطعة ، وبراهين واضحة ساطعة ، وحكى الاجمــاع على ذلك عن الائمة الفضلاء ، والسادة النبلاء ، من سائر أهل الفقه والفتوى ، وذكر عبارة من حكى الاجماع من أهل المذاهب الاربعة وغيرهم ، وألف في ذلك التآليف ، وقرر الحجة وصنف التصانيف ، وقد عارضه من الغلاة المارقــين ، ومن الدعاة الى عبادة الاولياء والصالحين : أناس من أهل وقته ، فباؤا بغضب الله ومقته ، وأظهره الله عليهم بعدا لامتحان ، وحقت كلمة ربك على أهل الكفر والطغيان ، وهذه سنــة الله التي قد خلت من قبل ، وحكمته التي يظهــر بها ميزان الفضل والعدل ، وقــد جمع أعداؤه شبهات في رد ماأبداه ، وجحد ماقرره وأملاه ، واستعانوا بملئهــم من العجم والعرب ، ونسبوه الى مايستحي من ذكره أهل العقل والادب ، فضلا عن ذوي العلوم والرتب ، وزعموا أنه خارجي مخالف للسنةوالجماعة ، كمقالة أسلافهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم انه صابئي صاحب إفك وصناعة ، انتهى ماقصدنا نقله من الكــلام •

(ثم ان النبهاني) عقد بابا رابعا نقل فيه على زعمه أقوال علماء المذاهب الاربعة في الرد على ابن تيمية ، والكلام على بعض كتبه ، ومخالفتــه أهل السنــة في بعض

المسائل المهمة ، ومنها اعتقاد الجهة في جانب الله تعالى وتقدس ، قال : فممن عاصره الامام صدر الدين ابن الوكيل المعروف بابن مرحل الشافعي وقد ناظره .

(أقول ومن الله المدد والاعانة) هذا الباب هو عمدة أبواب كتاب النبهاني وبيت قصيده ، ولأجل ذكره ألف كتابه ، فان الغلاة بغضهم لشيخ الاسلام ابن تيمية مما لاشبهة فيه ، والنبهاني في هذا من حثالتهم وفضلاتهم ، فلا شك أنه من أشد الناس عداوة لهذا الامام ، لأن غالب كتبه في الرد على المبتدعة وأهل الزيغ والضلال والالحاد . ثم إنه ذكر ابن الوكيل قبل كل أحد من أعداء الشيخ لأنه كان عريقا في البدع ، مبغضا للسنة النبوية ، وكان من غلاة الشافعية أيضا ، وقعت بينه وبين شيخ الاسلام قدس الله روحه مناظرات ،و قد أثار عليه فتنا كثيرة ، وقد رأيت أن أذكر ماكان من المناظرة بين الشيخ وخصومه ليتبين للناظر أعداؤه من محبيه ، ورأيت رسالة من جملة الرسائل الكبرى التي طبعت حديثا في مصر مشتملة على بيان مناظرته ، ورأيت فيها تحريفا كثيرا ونقصانا ، مع أن الشيخ ألف كتابا فيما عقد له من المجالس وما جرى له فيها ، فأحببت أن أذكر ماوجدته من ذلك ، ليكون المنصف على بصيرة من أمره ، وكلام صاحب الواقعة أصح من غيره ، ولذلك أتحفت أهل العلم بذكرها لما اشتملت عليه من الفوائد الغزيرة والمسائل الكثيرة .

(ذكر المجالس التي انعقدت لمناظرة شيخ الاسلام ابن تيمية في عقيدته الواسطية)
(وهي من مصنفاته رضي الله تعالى عنه) (١)

قال بعد البسملة : الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين ، وأشهد أن لا اله الا الله وحده لاشريك له ولا ظهير ولا معين ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله الذي أرسله الى الخلق أجمعين ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا وعلى سائر عباد الله الصالحين .

(أما بعد) فقد سئلت غير مرة أن أكتب ماحضرني ذكره مما جرى في المجالس الثلاثة المعقودة للمناظرة في أمر الاعتقاد ، بمقتضى ماورد من كتاب ذي السلطان من الديار المصرية الى نائبه أمير البلاد ، لماسعى اليه قوم من الجهمية والاتحادية والرافضة وغيرهم من ذوي الاحقاد ، فأمر الامير بجمع القضاة الاربعة ، قضاة المذاهب الاربعة وغيرهم من نوابهم والمفتين والمشايخ ممن له حرمة وبه اعتداد ، وهم لايدرون ماقصد بجمعهم في هذا الميعاد ، وذلك يوم الاثنين ثامن رجب المبارك عام خمس وسبعمائة ،

---

(١) ذكر هذا البحث فى (مجموع فتاوي شيخ الاسلام) جلد ٣ صحيفة ١٦٠ فما بعد .

فقال لي : هذا المجلس عقد لك ، فقد ورد مرسوم السلطان بأن أسألك عن اعتقادك وعما كتبت به الى الديار المصرية من الكتب التي تدعو بها الناس الى الاعتقاد ، وأظنه قال وان أجمع القضاة والفقهاء ويتباحثون في ذلك •

فقلت : أما الاعتقاد فلا يؤخذ عني ولا عمن هو أكبر مني ، بل يؤخذ عن اللـه ورسوله صلى الله عليه وسلم وما أجمع عليه سلف الامة ، فما كان في القرآن وجب اعتقاده ، وكذلك ماثبت في الاحاديث الصحيحة مثل صحيح البخاري ومسلم ، وأما الكتب فما كتبت الى أحد كتابا ابتداء أدعوه بهالى شيء من ذلك ،ولكني كتبتأجوبة أجبت بها من سألني من أهل الديار المصرية وغيرهم ، وكان قد بلغني أنه زور على كتاب الى الامير ركن الدين الجاشنكير أستاذ ذي السلطان يتضمن ذكر عقيدةمحرفة ولم أعلم بحقيقته لكن علمت أنه مكذوب •

وكان يرد علي من مصر وغيرها من يسألني عن مسائل في الاعتقاد فأجبته بالكتاب والسنة وما كان عليه سلف الامة ، فقال : نريد أن تكتب لنا عقيدتك فقلت اكتبوا •

فأمر الشيخ كمال الدين أن يكتب فكتب له جمل الاعتقاد في أبواب الصفات والقدر ، ومسائل الايمان والوعيد والامامة والتفضيل ، وهو أن اعتقاد أهل السنة والجماعة الايمان بما وصف الله به نفسه ، وبما وصفه به رسوله ، من غير تحريف ولا تعطيل ، ولا تكييف ولا تمثيل ، وان القرآن كلام الله غير مخلوق ، منه بداواليه يعود ، والايمان بأن الله خالق كل شيء من أفعال العباد وغيرها ، وانه ماشاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، وأنه أمر بالطاعة وأحبها ورضيها ، ونهى عن المعصية وكرهها ، والعبد فاعل حقيقة ، والله خالق فعله ، وان الايمان والدين قول وعمل يزيد وينقص وان لانكفر أحدا من أهل القبلة بالذنوب ، ولا نخلد في النار من أهل الايمان أحدا ، وأن أفضل الخلفاء بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو بكر ، ثم عمر ، ثم عثمان ثم علي ، وترتيبهم في الفضل كترتيبهم فيالخلافة ، ومن قدم علياعلى عثمان فقد أزرى بالمهاجرين والانصار ، وذكرت هذا أو نحوه ، فاني الآن قد بعد عهدي ولم أحفظ لفظ ماأمليته لكنه كتب اذ ذاك •

ثم قلت للامير والحاضرين : أنا أعلم أن أقواما يكذبون علي كما قد كذبوا غير مرة ، وان أمليت الاعتقاد من حفظي ربما يقولون كتم بعضه أو داهن وداری ، فأنا

أحضر عقيدة مكتوبة من نحو سبع سنين قبل أن يجيء التتر الى الشام ، وقلت قبل حضورها كلاما قد بعد عهدي به ، وغضبت غضبا شديدا ، لكني أذكر أني قلت أنا أعلم أن أقواما كذبوا علي ، وقالوا للسلطان أشياء وتكلمت بكلام احتجت اليه ، مثل أن قلت من قام بالاسلام أوقات الحاجة غيري ، ومن الذي أوضح دلائله وبينه وجاهد أعداءه وأقامه لما مال حين تخلى عنه كل أحد ، ولا أحد ينطق بحجته ولا أحد يجاهد عنه ، وقمت مظهرا الحجة مجاهدا عنه مرغبا فيه ،فاذا هؤلاء يطمعون في الكلام فيّ فكيف يصنعون بغيري ، ولو أن يهوديا طلب من السلطان الانصاف لوجب عليه أن ينصفه ، وأنا قد أعفو عن حقي وقد لاأعفو بل أطلب الانصاف منه ، وأن يحضر هؤلاء الذين يكذبون ليكافئوا على افترائهم ، وقلت كلاما أطول من هذا الجنس لكن بعد عهدي به .

فأشار الامير الى كاتب الدرج محي الدين بأن يكتب في ذاك ، وقلت أيضا : كل من خالفني في شيء مما كتبته فأنا أعلم بمذهبه منه ، وما أدري هل قلت هذا قبل حضورها أو بعده ، لكن قلت أيضا بعد حضورها وقرائتها ماذكرت فيها فصلا الا وفيه مخالف من المنتسبين الى القبلة ، وكل جملة فيها خلاف لطائفة من الطوائف ، ثم أرسلت من أحضرها ومعه كراريس بخطي من المنزل ، فحضرت العقيدة الواسطية ، وقلت لهم : هذه كان سبب كتابتها أنه قدم عليّ من أرض واسط بعض قضاة نواحيها شيخ يقال له رضي الدين الواسطي من أصحاب الشافعي ، قدم علينا حاجا وكان من أهل الخير والدين ، وشكا ما الناس فيه بتلك البلاد في دولة التتر من غلبة الجهل والظلم ودروس الدين والعلم ، وسألني أن أكتب له عقيدة تكون عمدة له ولأهل بيته ، فاستعفيت من ذلك وقلت قد كتبا لناس عقائد متعددة فخذ بعض عقائد أئمة السنة ، فألح في السؤال وقال ماأحب الا عقيدة تكتبها أنت ، فكتبت له هذهالعقيدة وأنا قاعد بعد العصر ، وقد انتشرت بها نسخ كثيرة في مصر والعراق وغيرهما ، فأشار الامير بأن لاأقرأها أنا لرفع الريبة ، وأعطاها لكاتبه الشيخ كمال الدين فقرأها على الحاضرين حرفا حرفا ، والجماعة الحاضرون يسمعونها ويورد المورد منهم ماشاء ويعارض فيما شاء ، والامير أيضا سأل عن مواضع فيها ، وقد علم الناس ماكان في نفوس طائفة من الحاضرين من الخلاف والهوى ماقد علم الناس بعضه ، وبعضه بسبب الاعتقاد وبعضه بغير ذلك ، ولا يمكن ذكر ماجرى من الكلام والمناظرات في هذه المجالس ، فانه كثير لاينضبط لكن اكتب ملخص ماحضرني من ذلك مع بعد العهد بذلك ، ومع أنه كان يجري رفع أصوات ولغط لاينضبط .

فكان مما اعترض عليه بعضهم لما ذكر في أولها : ومن الايمان بالله الايمان بما وصف به نفسه ووصفه به رسوله ، من غير تحريف ولا تعطيل ، ولا تكييف ولا تمثيل ، فقال : ماالمراد بالتحريف والتعطيل ؟ ومقصوده أن هذا ينفى التأويل الذي أثبته أهل التأويل الذي هو صرف اللفظ عن ظاهره اما وجوبا واما جوازا ، فقلت : تحريف الكلم عن مواضعه ، كما ذمه الله تعالى في كتابه ، وهو ازالة اللفظ عما دل عليه من المعنى ، مثل تأويل بعض الجهمية لقوله تعالى(وكَلَّم اللهُ موسى تكليماً)[1] جرحه بأظافير الحكمة تجريحا ، ومثل تأويلات القرامطة والباطنية وغيرهم من الجهمية والرافضة والقدرية وغيرهم ، فسكت وفي نفسه مافيها •

وذكرت في غير هذا المجلس أني عدلت عن لفظ التأويل الى لفظ التحريف لأن التحريف اسم جاء القرآن بذمه ، وأنا تحريت في هذه العقيدة اتباع الكتاب والسنة ، فبينت ماذمه الله من التحريف ، ولم أذكر فيها لفظ التأويل بنفى ولا اثبات ، لأنه لفظ له عدة معان ، كما بينته في موضعه من القواعد ، فان معنى لفظ التأويل في كتاب الله غير معنى لفظ التأويل في اصطلاح المتأخرين من أهل الاصول والفقه ، وغير معنى وكان أحب الي من لفظ ليس في كتاب الله ولا سنة رسوله ، وان كان قد يعنى بنفيه معنى تسمى تأويلا ماهو صحيح منقول عن بعض السلف فلم أنف ماتقوم به الحجة على صحته ، اذ ماقامت الحجة على صحته وهو منقول عن السلف فليس من التحريف •

وقلت لهم أيضا : ذكرت في النفي التمثيل ولم أذكر التشبيه لأن التمثيل نفاه الله بنص كتابه ، حيث قال :(ليسَ كمِثْلِهِ شيء)[2] وقال :(هَلْ تعلَمُ لَهُ سَمِياً)[3] وكان أحب الي من لفظ ليس في كتاب الله ولا سنة رسوله ، وان كان قد يعنى بنفيه معنى صحيح كما قد يعنى به معنى فاسد ، ولما ذكرت أنهم لاينفون عنه ماوصف به نفسه ويحرفون الكلم عن مواضعه ويلحدون في أسماء الله وآياته جعل بعض الحاضرين يتمعض من ذلك لاستشعاره مافي ذلك من الرد الظاهر عليه ، ولكن لم يتوجه له مايقوله ، وأراد أن يدور بالاسئلة التي أعلمها فلم يتمكن لعلمه بالجواب •

ولما ذكرت آية الكرسي أظنه سال الامير عن قولنا لايقر به شيطان حتى يصبح وذكرت حديث أبي هريرة في الذي كان يسرق صدقة الفطر ، وذكرت أن البخاري

---

(١) النساء : ١٦٤ (٢) الشورى : ١٢ (٣) مريم : ٦٦

رواه في صحيحه ، وأخذوا يذكرون نفي التشبيه والتجسيم ، ويطنبـون في هذا ، ويعرضون لما ينسبه بعض الناس الينا من ذلك •

وقلت : قولي من غير تكييف ولا تمثيل ينفي كل باطل ، وانما اختـرت هذين الاسمين لأن التكييف مأثور نفيه عن السلف ، كما قـال ربيعة ومالك وابن عيينـة وغيرهم المقالة التي تلقاها العلماء بالقبول : الاستواء معلـوم ، والكيف مجهـول ، والايمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة ، فاتفق هؤلاء السلف على أن التكييف غير معلوم لنا ، فنفيت ذلك اتباعا لسـلف الامة ، وهو أيضـا منفى بالنص ، فان تأويل آيات الصفات يدخل فيها حقيقة الموصوف وحقيقة صفاته ، وهذا من التأويل الذي لايعلمه إلا الله ، كما قد قررت ذلك في قاعدة مفردة ذكرتها في التأويل ، والفرق بين علمنا بمعنى الكلام وبين علمنا بتأويله •

وكذلك التمثيل منفيّ بالنص والاجماع القديم مع دلالة العقل على نفيه ونفي التكييف ، اذ كنه الباري غير معلوم للبشر ، وذكرت في ضمن ذلك الخطأ الذي نقل أنه مذهب السلف وهو اجراء الصفات وأحاديث الصفات على ظاهرها مع نفي الكيفية والتشبيه عنها اذ الكلام في الصفات فرع على الكلام في الذات ، يحتذى فيه حذوه ويتبع فيه مثاله ، فاذا كان اثبات الذات اثبات وجود لااثبات تكييف : فكذلك اثبات الصفات اثبات وجود لا اثبات تكييف •

وقال أحد كبار المخالفين : فحينئذ يجوز أن يقال هو جسم لا كالاجسام ، فقلت له أنا وبعض الفضلاء الحاضرين : إنما قيل أنه يوصف الله بما وصف به نفسه وبمـا وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم وليس في الكتاب والسنة أن الله جسم حتى يلزم هذا السؤال •

وأخذ بعض القضاة المعروفين بالديانة يريد اظهار أن ينفي عنا مايقول وينسبه البعض الينا فجعل يريد المبالغة في نفي التشبيه والتجسيم ، فقلت ذكرت فيها في غـير موضع من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تكييف ولا تمثيل •

وقلت في صدرها : ومن الايمان بالله الايمان بما وصف به نفسه في كتابه ، وبما به رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تكييف ولا تمثيل •

ثم قلت : وما وصف الرسول به ربه من الاحاديث الصحاح التي تلقاها أهـل

المعرفة بالقبول وجب الايمان بها كذلك ، الى أن قلت : الى أمثال هذه الاحاديث التي يخبر فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم بما أخبر به ، فان الفرقة الناجية أهل السنة والجماعة يؤمنون بذلك ، كما يؤمنون بما أخبر الله في كتابه ، من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل ، بل هم وسط في فرق الامة ، كما أن الامة هي الوسط في الامم ، فهم وسط في باب صفات الله بين أهل التعطيل الجهمية وبين أهل التمثيل المشبهة .

ولما رأى هذا الحاكم العدل ممالأتهم وتعصبهم ورأي قلة العارف الناصر وخافهم قال : أنت صنفت اعتقاد الامام أحمد ، فتقول هذا اعتقاد أحمد ؟ يعني والرجل يصنف على مذهبه فلا يعترض عليه ، فان هذا مذهب متبوع ، وغرضه بذلك قطع مخاصمة الخصوم ، فقلت : ماجمعت الا عقيدة السلف الصالح جميعهم ، ليس للامام أحمد اختصاص بهذا ، والامام أحمد انما هو مبلغ العلم الذي جاء به النبي صلى الله عليه وسلم ، ولو قال أحمد من تلقاء نفسه مالم يجيء به الرسول لم نقبله ، وهذه عقيدة سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم .

وقلت مرات : قد أمهلت كل من خالفني في شيء منها ثلاث سنين ، فان جاء بحرف واحد عن أحد من القرون الثلاثة التي أثنى عليها النبي صلى الله عليه وسلم ــ حيث قال (خير القرون القرن الذي بعثت فيهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم) ــ يخالف ماذكرناه فأنا أرجع عن ذلك ، وعليَّ أن آتي بنقول جميع الطوائف عن القرون الثلاثة يوافق ماذكرناه ، من الحنفية والمالكية والشافعية والحنبلية والاشعرية وأهل الحديث والصوفية وغيرهم .

وقلت أيضا في غير هذا المجلس : الامام أحمد رضي الله تعالى عنه لما انتهى اليه من السنة ونصوص رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر مما انتهى الى غيره ،وابتلى بالمحنة والرد على أهل البدع أكثر من غيره : كان كلامه وعلمه في هذا الباب أكثر من غيره ، فصار اماما في السنة أظهر من غيره ، والا فالامر كما قاله بعض شيوخ المغاربة العلماء الصلحاء ،قال : المذهب لمالك والشافعي ، والظهور لأحمد بن حنبل ، يعني أن الذي كان عليه أحمد عليه جميع أئمة الاسلام ، وان كان لبعضهم من الزيادة أو البيان أو اظهار الحق ودفع الباطل ماليس لبعض .

ولما جاء فيها : وما وصف به النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ربه في الاحاديث الصحاح التي تلقاها أهل العلم بالقبول ، ولما جاء حديث أبي سعيد ــ المتفق عليه في

الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم : (يقول الله يوم القيامة ياآدم ، فيقول لبيك وسعديك ، فينادي بصوت أن الله يأمرك أن تبعث بعثا الى النار) الحديث ــ سألهم الامير هل الحديث صحيح ؟ فقلت : نعم هو في الصحيحين ، ولم يخالف في ذلك أحد ، واحتاج المنازع الى الاقرار به ووافق الجماعة على ذلك •

وطلب الامير الكلام في مسألة الحرف والصوت ، لأن ذلك طلب منه ، فقلت : هذا الذي يحكيه كثير من الناس عن الامام أحمد وأصحابه أن صوت القارئين ومداد المصاحف قديم أزلي ــ كما نقله مجد الدين الخطيب وغيره ــ كذب مفترى ، لم يقل ذلك أحمد ، ولا أحد من علماء المسلمين ، لا من أصحاب أحمد ولا غيرهم ، وأخرجت كراسا قد أحضرته مع العقيدة فيه ألفاظ أحمد مما ذكره الشيخ أبو بكر الخلال في (كتاب السنة) عن الامام أحمد ، وما جمعه صاحبه أبو بكر المروزي من كلام الامام أحمد ، وكلام أئمة زمانه وسائر أصحابه ، فان من قال لفظي بالقرآن مخلوق فهو جهمي ، ومن قال غير مخلوق فهو مبتدع •

قلت : وهذا هو الذي نقله الاشعري في كتاب المقالات عن أهل السنة وأصحاب الحديث ، وقال : انه يقول به ، قلت : فكيف بمن يقول لفظي قديم ؟ فكيف بمن يقول صوتي غير مخلوق ؟ فكيف بمن يقول صوتي قديم ؟ ونصوص الامام أحمد : في الفرق بين تكلم الله بصوت وبين صوت العبد ، كما نقله البخاري صاحب الصحيح في كتاب (خلق أفعال العباد) وغيره من أئمة السنة •

وأحضرت جواب مسألة ، كنت سئلت عنها قديما فيمن حلف بالطلاق في مسألة الحرف والصوت ، ومسألة الظاهر في العرش ، فذكرت من الجواب القديم في هذه المسألة وتفصيل القول فيها وان اطلاق القول أن القرآن هو الحرف والصوت أوليس بحرف ولا صوت كلاهما بدعة حدثت بعد المائة الثالثة ، وقلت : هذا جوابي ، وكانت هذه المسألة قد أرسل بها طائفة من المعاندين المتجهمة ممن كان بعضهم حاضرا في المجلس ، فلما وصل اليهم الجواب أسكتهم ، وكانوا قد ظنوا أنه ان أجبت بما في ظنهم أن أهل السنة تقوله حصل مقصودهم من الشناعة ، وان أجبت بما يقولونه هم حصل مقصودهم من الموافقة ، فلما أجيبوا بالفرقان الذي عليه أهل السنة وليس هو كما يقولونه هم ولا ماينقلونه عن أهل السنة أو قد يقوله بعض الجهال بهتوا لذلك ، وفيه أن القرآن كله كلام الله حروفه ومعانيه ، ليس القرآن اسما لمجرد الحروف ولا لمجرد المعاني •

وقلت في ضمن الكلام لصدر الدين بن الوكيل ــ لبيان كثرة تناقضه وأنه لايستقر على مقالة واحدة وانما يسعى في الفتن والتفريق بين المسلمين ــ عندي عقيدة للشيخ أبي البيان فيها أن من قال ان حرفا من القرآن مخلوق فقد كفر ، وقد كتبت عليها بخطك أن هذا مذهب الشافعي وأئمة أصحابه ، وأنك تدين الله بها ، فاعترف بذلك ، فأنكر عليه الشيخ كمال الدين بن الزملكاني ذلك ، فقال ابن الوكيل : هذا نص الشافعي وراجعه في ذلك مرارا ، فلما اجتمعنا في المجلس الثاني ذكر لابن الوكيل أن ابن درباس نقل في كتاب الانتصار عن الشافعي مثل مانقلت ، فلما كان في المجلس الثالث أعاد ابن الوكيل الكلام في ذلك ، فقال الشيخ كمال الدين لصدر الدين بن الوكيل : قد قلت في ذلك المجلس للشيخ تقي الدين أنه من قال أن حرفا من القرآن مخلوق فهو كافر ، فأعاده مرارا ، فغضب هنا الشيخ كمال الدين غضبا شديدا ورفع صوته ، وقال : هذا يكفر أصحابنا المتكلمين الاشعرية ، الذين يقولون ان حروف القرآن مخلوقة مثل امام الحرمين وغيره ، وما نصبر على تكفير أصحابنا ، فأنكر ابن الوكيل أنه قال ذلك ، وقال ماقلت ذلك وانما قلت ان من أنكر حرفا من القرآن فقد كفر ، فرد ذلك عليه الحاضرون ، وقالوا ماقلت الا كذا وكذا ، وقالوا ماينبغي لك أن تقول قولا وترجع عنه ، وقال بعضهم ماقال هذا ، فلما حرفوا : قال ماسمعناه قال هذا ، حتى قال نائب السلطان واحد يكذب ، وآخر يشهد ، والشيخ كمال الدين مغضب ، فالتفت الى قاض القضاة نجم الدين الشافعي يستصرخه للانتصار على ابن الوكيل حيث كفر أصحابه ، فقال القاضي نجم الدين : ماسمعت هذا ، فغضب الشيخ كمال الدين وقال كلاما لم أضبط لفظه الا أن معناه أن هذا غضاضة على الشافعي ، وعار عليهم أن أئمتهم يكفرون ولا ينتصر لهم ، ولم أسمع من الشيخ كمال الدين ماقال في حق القاضي نجم الدين ، واستثبت غيري ممن حضر هل سمع منه في حقه شيئا فقالوا لا ، لكن القاضي اعتقد أن التعيير لأجله ولكونه قاضي المذهب ولم ينتصر لأصحابه وأن الشيخ كمال الدين قصده بذلك فغضب قاضي القضاة نجم الدين ، وقال اشهدوا عليّ أني عزلت نفسي ، وأخذ يذكر مايستحق به التقديم والاستحقاق وعفته عن التكلم في أعراض الجماعة ، ويستشهد بنائب السلطان في ذلك ، وقلت له كلاما مضمونه تعظيمه واستحقاقه لدوام المباشرة في هذه الحال .

(ولما جاءت مسألة القرآن) ومن الايمان به الايمان بأن القرآن كلام الله غير مخلوق ، منه بدأ واليه يعود : نازع بعضهم في كونه منه بدأ واليه يعود وطلبوا

تفسير ذلك ، فقلت : أما هذا القول فهو المأثور الثابت عن السلف ، مثل مانقله عمرو بن دينار ، قال : أدركت الناس منذ سبعين سنة يقولون : الله الخالق وماسواه مخلوق إلا القرآن فانه كلام الله غير مخلوق ، منه بدأ واليه يعود ، وقد جمع غير واحد مافي ذلك من الآثار عن النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين ، كالحافظ أبي الفضل بن ناصر ، والحافظ أبي عبد الله المقدسي ، وأما معناه : فان قولهم منه بدأ أي هو المتكلم به وهو الذي أنزله من لدنه ، ليس هو كما تقوله الجهمية أنه خلق في الهواء أو غيره وبدا من عند غيره ، وأما اليه يعود فانه يسري به في آخر الزمان من المصاحف والصدور ، فلا يبقى في الصدور منه كلمة ، ولا في المصاحف منه حرف ، ووافق على ذلك غالب الحاضرين وسكت المنازعون •

وخاطبت بعضهم في غير هذا المجلس بأن أريته العقيدة التي جمعها الامام القادري وفيها أنه كلام الله خرج منه ، فتوقف في هذا اللفظ ، فقلت : هكذا قال النبي صلى الله عليه وسلم (ماتقرب العباد الى الله بمثل ماخرج منه) يعني القرآن ، وقال خباب بن الارت : ياهذا تقرب الى الله بما استطعت ، فلن يتقرب اليه بشيء أحب اليه مما خرج منه ، وقال أبو بكر الصديق لما قرأ قرآن مسيلمة الكذاب : ان هذا الكلام لم يخرج من إل يعنى رب •

وجاء فيها : ومن الايمان به الايمان بأن القرآن كلام الله ، منزل غير مخلوق ، منه بدأ واليه يعود ، وأن الله تكلم به حقيقة ، وأن هذا القرآن الذي أنزله الله على محمد صلى الله عليه وسلم هو كلام الله حقيقة لا كلام غيره ، ولا يجوز اطلاق القول بأنه حكاية عن كلام الله أو عبارة ، بل اذا قرأه الناس أو كتبوه في المصاحف لم يخرج بذلك عن أن يكون كلام الله ، فان الكلام انما يضاف حقيقة الى من قاله مبتديا لا الى من قاله مبلغا موديا فتمعض بعضهم من اثبات كونه كلام الله حقيقة بعد تسليمه أن الله تعالى تكلم به حقيقة ، ثم انه سلم ذلك لما بين له أن المجاز يصح نفيه وهذا لايصح نفيه ، ولما بين له أن أقوال المتقدمين المأثورة عنهم وشعر الشعراء المضاف اليهم هو كلامهم حقيقة فلا يكون شبه القرآن بأقل من ذلك ، فوافق الجماعة كلهم على ماذكر في مسألة القرآن ، وأن الله متكلم حقيقة ، وأن القرآن كلام الله حقيقة لا كلام غيره •

ولما ذكر فيها أن الكلام انما يضاف حقيقة الى من قاله مبتديا لا الى من قاله مبلغا مؤديا : استحسنوا هذا الكلام وعظموه ، وأخذ أكبر الخصوم يظهر تعظيم هذا الكلام

كابن الوكيل وغيره ، وأظهر الفرح بهذا التلخيص ، وقال : انك قد أزلت عنا هذه الشبهة ، وشفيت الصدور ، ويذكر شيئا من هذا النمط .

ولما جاء ماذكر من الايمان باليوم الآخر وتفصيله ونظمه استحسنوا ذلك وعظموه ، وكذلك لما جاء ذكر الايمان بالقدر وأنه على درجتين ، الى غير ذلك من القواعد الجليلة ، وكذا لما جاء ذكر الكلام في الفاسق الملي وفي الايمان ، لكن اعترضه على ذلك بما سأذكره ، وكان مااعترض به المنازعون المعاندون بعد انقضاء قراءة جميعها والبحث فيها عن أربعة أسئلة .

(الاول) قولنا ومن أصول الفرقة الناجية أن الايمان والدين قول وعمل ، يزيد وينقص ، قول القلب واللسان ، وعمل القلب واللسان والجوارح ، قالوا : اذا قيل إن هذا من أصول الفرقة الناجية خرج عن الفرقة الناجية من لم يقل ذلك ، مثل أصحابنا المتكلمين ، الذين يقولون أن الايمان هو التصديق ، ومن يقول الايمان هو التصديق والاقرار ، واذا لم يكونوا من الناجين لزم أن يكونوا هالكين .

(وأما الاسئلة الثلاثة) وهي التي كانت عمدتهم فأوردوها على قولنا :وقددخل فيما ذكرناه من الايمان بالله الايمان بما أخبر الله في كتابه ، وتواتر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأجمع عليه سلف الامة ، من أنه سبحانه فوق سمواته على عرشه عليّ على خلقه ، وهو معهم أينما كانوا ، يعلم ماهم عاملون ، كما جمع بين ذلك في قوله تعالى: (هُوالَّذي خَلقَ السموات والأَرضَ في سِتَّةِ أيام ثُمَّ استوى على العَرْشِ يعلمُ ما يَلِجُ في الأَرضِ وما يَخرُجُ منها وما يَنْزلُ من السَّماء وما يَعرُجُ فيها وهو مَعكُم أينَمَا كنْتم واللهُ بما تعْمَلونَ بصيرٌ)[1] وليس معنى قوله : (وهو معكم) أنه مختلط بالخلق ، فان هذا لا توجبه اللغة ، وهو خلاف ماأجمع عليه سلف الامة ، وخلاف مافطر الله عليه الخلق ، بل القمر آية من آيات الله من أصغر مخلوقاته وهو موضوع في السماء وهو مع المسافر أينما كان وغير المسافر ، وهو سبحانه فوق العرش رقيب على خلقه مهيمن عليهم مطلع اليهم ، الى غير ذلك من معاني ربوبيته ، وكل هذا الكلام الذي ذكره الله تعالى من أنه فوق العرش وأنه معنا حق على حقيقته لايحتاج الى تحريف ، ولكن يصان عن الظنون الكاذبة .

---

(١) الحديد : ٤

(السؤال الثاني) قال بعضهم نقرباللفظ الوارد ،مثل حديث العباس حديث الاوعال والله فوق العرش ، ولا نقول فوق السموات ، ولا نقول على العرش استوى ، ولا نقول مستو ، وأعادوا هذا المعنى مرارا أن اللفظ الذي ورد يقال اللفظ بعينه ، ولا يبدل بلفظ يرادفه ، ولا يفهم له معنى أصلا ، ولا يقال أنه يدل على صفة لله أصلا ، ويبسط الكلام في هذا في المجلس الثاني كما سنذكره ان شاء الله تعالى .

(السؤال الثالث) قالوا التشبيه بالقمر فيه تشبيه كون الله في السماء بكون القمر في السماء .

(السؤال الرابع) قالوا قولك حق على حقيقته : الحقيقة هي المعنى اللغوي ، ولا نفهم من الحقيقة اللغوية الا استواء الاجسام وفوقيتها ، ولم تضع العرب ذلك إلا لها ، فاثبات الحقيقة هو محض التجسيم ، ونفي التجسيم مع هذا تناقض ومصانعة .

فأجبتهم عن الاسئلة بأن قولي اعتقاد الفرقة الناجية : هي الفرقة التي وصفها النبي صلى الله عليه وسلم بالنجاة ، حيث قال : (تفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة ، اثنتان وسبعون في النار وواحدة في الجنة ، وهي من كان على مثل ماأنا عليه اليوم وأصحابي) فهذا الاعتقاد هو المأثور عن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم ، وهم ومن اتبعهم الفرقة الناجية ، فانه قد ثبت عن غير واحد من الصحابة أنه قال الايمان يزيد وينقص ، وكل ماذكرته في ذلك فانه مأثور عن الصحابة بالاسانيد الثابتة لفظه ومعناه ، واذا خالفهم من بعدهم لم يضر في ذلك .

ثم قلت لهم : وليس كل من خالف في شيء من هذا الاعتقاد يجب أن يكون هالكا ، فان المنازع قد يكون مجتهدا مخطئا يغفر الله خطأه ، وقد لايكون بلغه في ذلك من العلم ماتقوم به عليه الحجة ، وقد تكون له من الحسنات مايمحو الله به سيئاته ، واذا كانت ألفاظ الوعيد المتناولة له لايجب أن يدخل فيها المتأول والقانت وذو الحسنات الماحية والمغفور له وغير ذلك فهذا أولى ، بل موجب هذا الكلام أن من اعتقد ذلك نجا في هذا الاعتقاد ، ومن اعتقد ضده فقد يكون ناجيا ، وقد لايكون ناجيا ، كما يقال من صمت نجا .

(وأما السؤال الثاني) فأجبتهم أولا بأن كل لفظ قلته فهو مأثور عن النبي صلى الله عليه وسلم ، مثل لفظ فوق السموات ، ولفظ على العرش ، وفوق العرش

وقلت : اكتبوا الجواب ، فأخذ الكاتب في كتابته ، ثم قال بعض الجماعة قد طال المجلس اليوم فيؤخر هذا الى مجلس آخر ، وتكتبون أنتم الجواب وتحضرونه في ذلك المجلس ،فأشاربعض الموافقين بأن يتمم الكلام بكتابة الجواب ،لئلا تنتشرأسئلتهم واعتراضهم ، وكان الخصوم لهم غرض في تأخير كتابة الجواب ، ليستعدوا لانفسهم ويطالعوا ويحضروا من غاب من أصحابهم ، ويتأملوا العقيدة فيما بينهم ، ليتمكنوامن الطعن والاعتراض ، فحصل الاتفاق أن يكون تمام الكلام يوم الجمعة ، وقمنا على ذلك ، وقد أظهر الله من قيام الحجة وبيان المحجة ماأعز به السنة والجماعة ، وأرغم به أهل البدعة والضلالة .

وفي نفوس كثير من الناس أمور لم تحدث في المجلس الثاني ، وأخذوا في تلك الايام يتأملونها ويتأملون ماأجبت به في مسائل تتعلق بالاعتقاد مثل (المسألة الحموية في الاستواء والصفات الخبرية) وغيرها .

قال عليه الرحمة (فصل) فلما كان المجلس الثاني يوم الجمعة في اثني عشررجب وقد أحضروا أكثر شيوخهم ممن لم يكن حاضرا ذلك المجلس ، وأحضروا معهم زيادة صفي الدين الهندي ، وقالوا هذا أفضل الجماعة وشيخهم في علم الكلام ، وبحثوا فيما بينهم ، واتفقوا وتواطئوا وحضروا بقوة واستعداد للمخاطب الذي هو المسئول والمجيب والمناظر ، فلما اجتمعنا ــ وقد أحضرت ماكتبته من الجواب عن أسئلتهم المتقدمة التي طلبوا تأخيره الى اليوم ــ حمدت الله بخطبة الحاجة خطبة ابن مسعود رضي الله عنه ، ثم قلت : ان الله تعالى أمرنا بالجماعة والائتلاف ، ونهانا عن الفرقة والاختلاف ، وقال لنا في القرآن : (واعتصِموا بِحبْلِ اللهِ جَميعاً ولا تفرَّقوا)(١) وقال : (انَّ الّذين فرّقوا دينَهم وكانوا شِيعاً لستَ مِنهم في شَيء) (٢) وقال : (ولا تكُونوا كالَّذين تفرَّقوا واختلفوا من بعْد ما جاءتهمُ البيِّناتُ) (٣) وربنا واحد ، وكتابنا واحد ، ونبينا واحد ، وأصول الدين لاتحتمل التفرق والاختلاف ، وأنا أقول مايوجب الجماعة بين المسلمين وهو متفق عليه بين السلف ، فان وافق الجماعة فالحمد لله ، والا فمن خالفني بعد ذلك كشفت الاسرار ، وهتكت الاستار ، وبينت المذاهب الفاسدة التي أفسدت الملل والدول ، وأنا أذهب الى سلطان الوقت على البريد ، وأعرفه من الامور مالا أقوله في هذا المجلس ، فان للسلم

---

(١) آل عمران : ١٠٣ (٢) الانعام : ١٥٩ (٣) آل عمران : ١٠٥

كلاما ، وللحرب كلاما ، وقلت : لاشك أن الناس يتنازعون : يقول هذا أنا حنبلي ، ويقول هذا أنا أشعري ، ويجري بينهم تفرق وفتن واختلاف على أمور لايعرفون حقيقتها ، وأنا قد أحضرت مايبين اتفاق المذاهب فيما ذكرته ، وأحضرت كتاب (تبيين كذب المفتري فيما ينسب الى الشيخ أبي الحسن الاشعري) رضي الله عنه ، تأليف الحافظ أبي القاسم ابن عساكر رحمه الله ، وقلت : لم يصنف في أخبار الاشعري المحمودة كتاب مثل هذا ، وقد ذكر فيه لفظه الذي ذكره في كتابه (الابانة) .

فلما انتهيت الى ذكر المعتزلة سأل الامير عن معنى المعتزلة ، فقلت : كان الناس في قديم الزمان قد اختلفوا في الفاسق الملي — وهو من أول اختلاف حدث في الملة — هل هو كافر أو مؤمن ، فقالت الخوارج انه كافر ، وقالت الجماعة انه مؤمن ، وقالت طائفة تقول هو فاسق لا مؤمن ولا كافر ، ننزله منزلة بين المنزلتين ، وخلدوه في النار ، واعتزلوا حلقة الحسن البصري وأصحابه رحمه الله تعالى فسموا معتزلة .

وقال الشيخ الكبير بجبته وردائه : ليس كما قلت ، ولكن أول مسألة اختلف فيها المسلمون مسألة الكلام ، وسمي المتكلمون متكلمين لأجل تكلمهم في ذلك ، وكان أول من قالها عمرو بن عبيد ، ثم خلف بعد موته عطاء بن واصل .

هكذا قال ، وذكر نحوا من هذا .

فغضبت عليه ، وقلت : أخطأت ، وهذا كذب مخالف للاجماع ، وقلت له : لا أدب ولا فضيلة ، لا تأدبت معي في الخطاب ، ولا أصبت في الجواب .

قلت : الناس اختلفوا في مسألة الكلام في خلافة المأمون ، وبعدها في أواخر المائة الثانية ، وأما المعتزلة فقد كانوا قبل ذلك بكثير من زمن عمرو بن عبيد بعد موت الحسن البصري في أوائل المائة الثانية ، ولم يكن أولئك قد تكلموا في مسألة الكلام ولا تنازعوا فيها ، وانما أول بدعتهم تكلمهم في مسائل الاسماء والاحكام والوعيد ، فقال : هذا ذكره الشهرستاني في كتاب (الملل والنحل) فقلت الشهرستاني ذكره في اسم المتكلمين لم سموا متكلمين ، لم يذكره في اسم المعتزلة ، والامير انما سأل عن اسم المعتزلة ، وأنكر الحاضرون عليه وقالوا غلطت ، وقلت في ضمن كلام أنا أعلم كل بدعة حدثت في الاسلام وأول من ابتدعها وما كان سبب ابتداعها ، وأيضا فما ذكره الشهرستاني ليس بصحيح في اسم المتكلمين ، فان المتكلمين كانوا يسمون بهذا الاسم قبل منازعتهم في مسألة الكلام ، وكانوا يقولون عن واصل بن عطاء إنه متكلم ويصفونه بالكلام ، ولم يكن الناس اختلفوا في مسألة الكلام ، وقلت أنا وغيري انما هو واصل بن عطاء أي لاعطاء بن واصل كما ذكره المعترض ، قلت : وواصل لم يكن

بعد موت عمرو بن عبيد وانما كان قرينه ، وقد روي أن واصلا تكلم مرة بكلام فقال عمرو بن عبيد لو بعث نبيا ماكان يتكلم بأحسن من هذا ، وفصاحته مشهورة حتى قيل انه كان الثغ وكان يحترز عن الراء ، حتى قيل له أمر الامير أن يحفر بئر فقال أوعز القائد أن يقلب قليب •

ولما انتهى الكلام الى ماقاله الاشعري قال الشيخ المقدم فيهم : لاريب أن الامام أحمد إمام عظيم القدر من أكبر أئمة الاسلام لكن قد انتسب اليه أناس ابتدعوا أشياء ، فقلت : أما هذا فحق ، وليس هذا من خصائص أحمد ، بل ما من امام الا وقد انتسب اليه أقوام هو منهم بريء ، قد انتسب الى مالك أناس مالك بريء منهم ، وانتسب الى الشافعي أناس هو بريء منهم ، وانتسب الى أبي حنيفة أناس هو بريء منهم ، وقد انتسب الى موسى عليه السلام أناس هو منهم بريء ، وانتسب الى عيسى عليه السلام أناس هو منهم بريء ، وقد انتسب الى علي بن أبي طالب أناس هو بريء منهم ، ونبينا صلى الله عليه وسلم قد انتسب اليه من القرامطة والباطنية وغيرهم من أصناف الملحدة والمنافقين من هو بريء منهم •

وذكر في كلامه أنه انتسب الى أحمد من الحشوية والمشبهة ونحو هذا الكلام •

فقلت : المشبهة والمجسمة في غير أصحاب الامام أحمد أكثر منهم فيهم ، هؤلاء أصناف : الاكراد كلهم شافعية وفيهم من التشبيه والتجسيم مالا يوجد في صنف آخر وأهل جيلان فيهم شافعية وحنبلية ، قلت : وأما الحنبلية المحضة فليس فيهم من ذلك مافي غيرهم ، وكان من تمام الجواب أن الكرامية المجسمة كلهم حنفية •

وتكلمت على لفظ الحشوية ــ ماأدري جوابا عن سؤال الامير أو غيره أو غير جواب ــ فقلت هذا اللفظ أول من ابتدعه المعتزلة ، فانهم يسمون الجماعة والسواد الاعظم الحشو ، كما تسميهم الرافضة الجمهور ، وحشو الناس هم عموم الناس وجمهورهم ، وهم غير الاعيان المتميزين ، يقولون هذا من حشو الناس ، كما يقال هذا من جمهورهم ، وأول من تكلم بهذا عمرو بن عبيد ، قال : وكان عبد الله بن عمر رضي الله عنه حشويا ، فالمعتزلة سموا الجماعة حشوا كما تسميهم الرافضة الجمهور •

وقلت ــ لاأدري في المجلس الاول أو الثاني ــ أول من قال ان الله جسم هشام بن الحكم الرافضي •

وقلت لهذا الشيخ : من في أصحاب الامام أحمد رحمه الله حشوي بالمعنى الذي تريده ؟ الاثرم ، أبو داود ، المروزي ، الخلال ، أبو بكر عبد العزيز ، أبو الحسن التميمي ، ابن حامد ، القاضي أبو يعلى ، أبو الخطاب ، ابن عقيل ؟ ورفعت صوتي ، وقلت سمهم ، قل لي من هم ؟ من هم ؟ أبكذب ابن الخطيب وافترائه على الناس في مذاهبهم تبطل الشريعة وتندرس معالم الدين ؟ كما نقل هو وغيره عنهم أنهم يقولون ان القرآن القديم هو أصوات القارئين ومداد الكاتبين وان الصوت والمداد قديم أزلي من قال هذا ؟ وفي أيّ كتاب وجد هذا عنهم قل لي ؟ وكما نقل عنهم أن الله لايرى في الآخرة باللزوم الذي ادعاه والمقدمة التي نقلها ، وأخذت أذكر مايستحقه هذا الشيخ من أنه كبير الجماعة وشيخهم وأن فيه من العقل والدين مايستحق أن يعامل بموجبه .

وأمرت بقراءة العقيدة جميعها عليه ، فانه لم يكن حاضرا في المجلس الاول ، وانما أحضروه في الثاني انتصارا ، وحدثني الثقة عنه بعد خروجه من المجلس أنه اجتمع به وقال له : أخبرني عن هذا المجلس ؟ فقال : مالفلان ذنب ولا لي ، فان الامير سأل عن شيء فأجابه عنه فظننته سأل عن شيء آخر وقال : قلت أنتم مالكم على الرجل اعتراض ، فانه نصر ترك التأويل وأنتم تنصرون قول التأويل ، وهما قولان للاشعري وقال : أنا أختار قول ترك التأويل ، وأخرج وصيته التي أوصى بها وفيها قولي ترك التأويل .

قال الحاكي لي : فقلت له بلغني عنك أنك قلت في آخر المجلس لما أشهد الجماعة على أنفسهم بالموافقة لاتكتبوا عني نفيا ولا اثباتا فلم ذاك ؟ فقال : لوجهين : (أحدهما) أني لم أحضر قراءة جميع العقيدة في المجلس الاول ، (والثاني) لأن أصحابي طلبوني لينتصروا بي فما كان يليق أن أظهر مخالفتهم فسكت عن الطائفتين .

وأمرت غير مرة أن يعاد قراءة العقيدة جميعها على هذا الشيخ ، فرأى بعض جماعة أن ذلك تطويل ، وأنه لايقرأ عليه الا الموضع الذي لهم عليه سؤال ، وأعظموه لفظ الحقيقة ، فقرأوه عليه ، فذكر هو بحثا حسنا يتعلق بدلالة اللفظ ، فحسنته ومدحته عليه ، وقلت : لاريب أن الله حي حقيقة ، عليم حقيقة ، سميع حقيقة ، بصير حقيقة ، وهذا متفق عليه بين أهل السنة والصفاتية من جميع الطوائف ، ولو نازع بعض أهل البدع في بعض ذلك فلا ريب أن الله موجود والمخلوق موجود ، ولفظ الوجود سواء كان مقولا عليهما بطريق الاشتراك الاشتراك اللفظي ، أو بطريق

التواطؤ المتضمن للاشتراك لفظا ومعنى ، أو بالتشكيك الذي هو نوع من التواطؤ ، فعلى كل قول فالله موجود حقيقة ، والمخلوق موجود حقيقة ، ولا يلزم من اطلاق الاسم على الخالق والمخلوق بطريق الحقيقة محذور ، ولم أر أرجح في ذلك المقام قولا من هذه الثلاثة على الآخر ، لأن غرضي تحصل على كل مقصودي ، وكان مقصودي تقرير ماذكرته على قول جميع الطوائف ، وأن أبين اتفاق السلف ومن تبعهم على ماذكرت ، وأن أعيان المذاهب الاربعة والاشعري وأكابر أصحابه على ماذكرته ، فانه قبل المجلس الثاني اجتمع بي من أكابر علماء الشافعية والمنتسبين الى الاشعرية والحنفية وغيرهم من عظم خوفهم من هذ المجلس ، وخافوا انتصار الخصوم فيه وخافوا على نفوسهم أيضا من تفرق الكلمة ، فلو أظهرت الحجة التي ينتصر بها ماذكرته ، ولم يكن من أئمة أصحابهم من يوافقها صارت فرقة وتعصب عليهم أن يظهروا في المجالس العامة الخروج عن أقوال طوائفهم بما في ذلك من تمكن أعداؤهم من اعتراضهم ، فاذا كان من أئمة مذهبهم من يقول ذلك وقامت عليه الحجة وبان أنه مذهب السلف أمكنهم اظهار القول به مايعتقدونه في الباطن من أنه الحق ، حتى قال بعض الاكابر من الحنفية — وقد اجتمع بي — لو قلت هذا مذهب أحمد وتثبت ذلك لانقطع النزاع ، ومقصوده أنه يحصل دفع الخصوم عنك بأنه مذهب متبوع ويستريح المنتصر والمنازع من اظهار الموافقة ، فقلت : لا والله ليس لاحمد بن حنبل في هذا اختصاص ، وانما هذا اعتقاد سلف الامة وأئمة أهل الحديث ، وقلت أيضا هذا اعتقاد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكل لفظ ذكرته فانا أذكر به آية أو حديثا أو اجماعا سلفيا ، وأذكر من ينقل الاجماع عن السلف من جميع طوائف المسلمين والفقهاء الاربعة والمتكلمين وأهل الحديث والصوفية ، وقلت لمن خاطبني من أكابر الشافعية لاتبين أن ماذكرته هو قول السلف وقول أئمة أصحاب الشافعي وأذكر قول الاشعري وأئمة أصحابه التي ترد على هؤلاء الخصوم ، ولينتصرن كل شافعي وكل من قال بقول الاشعري الموافق لمذهب السلف ، وأبين أن القول المحكي عنه في تأويل الصفات الخبرية قول لا أصل له في كلامه ، وانما هو قول طائفة من أصحابه ، فللاشعرية قولان ليس للاشعري قولان •

فلما ذكرت في المجلس أن جميع أسماء الله التي سمي بها المخلوق كلفظ الوجود الذي هو مقول بالحقيقة على الواجب والممكن على الاقوال الثلاثة : تنازع كبيران هل هو مقول بالاشتراك أو بالتواطؤ ؟ فقال أحدهما هو متواطيء ، وقال الآخر هو

مشترك لتلازم التركيب ، وقال هذا قد ذكر فخر الدين أن هذا النزاع مبني على أن وجوده هل هو عين ماهيته أم لا ؟ فمن قال وجود كل شيء عين ماهيته قال انه مقول بالاشتراك ، ومن قال ان وجوده قدر زائد على ماهيته قال انه مقول بالتواطؤ ، فأخذ الاول يرجح قول من يقول ان الوجود زائد على الماهية لينصر أنه مقول بالتواطؤ ، فقال الثاني مذهب الاشعري وأهل السنة أن وجوده عين ماهيته ، فانكر الاول ذلك فقلت : أما متكلموا أهل السنة فعندهم أن وجود كل شيء عين ماهيته ، وأما القول الآخر فهو قول المعتزلة ان وجود كل شيء قدر زائد على ماهيته ، وكل منهما أصاب من وجه ، فان الصواب أن هذه الاسماء مقولة بالتواطؤ كما قد قررته في غير هذا الموضع ، وأجبت عن شبهة التركيب بالجوابين المعروفين ، وأما بناء ذلك على كون وجود الشيء عين ماهيته أو ليس عينه فهو من اللغط المضاف الى ابن الخطيب ، فأنا وان قلنا ان وجود الشيء عين ماهيته لايجب أن يكون الاسم مقولا عليه وعلى نظيره بالاشتراك اللفظي فقط ، كما في جميع أسماء الاجناس ، فان اسم السواد مقول على هذا السواد وهذا السواد بالتواطؤ ، وليس هذا السواد عين هذا السواد ، اذ الاسم دال على القدر المشترك بينهما وهو المطلق الكلي ، لكنه لايوجد مطلقا بشرط الاطلاق الا في الذهن ، ولا يلزم من ذلك نفي القدر المشترك بين الاعيان الموجودة في الخارج، فانه على ذلك تنتفي الاسماء المتواطئة وهي جمهور الاسماء في الغالب ، وهي أسماء الاجناس اللغوية ، وهو الاسم المطلق على الشيء وعلى كل ماأشبهه ، سواء كان اسم عين أو اسم صفة ، جامدا أو مشتقا ، وسواء كان جنسا منطقيا أو فقهيا أو لم يكن ، بل اسم الجنس في اللغة يدخل فيه الاجناس والاصناف والانواع ونحو ذلك ، وكلها أسماء متواطئة وأعيان مسمياتها في الخارج متميزة .

وطلب بعضهم اعادة قراءة الاحاديث المذكورة في العقيدة ليطعن في بعضها فعرفت مقصوده ، فقلت : كأنك قد استعددت للطعن في حديث الاوعال حديث العباس ابن عبد المطلب ـ وكانوا قد تعبوا حتى ظفروا بما تكلم به زكي الدين عبد العظيم من قول البخاري في تاريخه : عبد الله بن عمرة لايعرف له سماع من الاحنف ـ فقلت: هذا الحديث ـ مع أنه رواه أهل السنن كأبي داود وابن ماجه والترمذي وغيرهم فهو ـ مروي من طريقين مشهورين ، فالقدح في أحدهما لايقدح في الآخر ، فقال : أليس مداره على ابن عمرة وقد قال البخاري لايعرف له سماع من الاحنف ؟ فقلت : قد رواه امام الأئمة ابن خزيمة في (كتاب التوحيد) الذي اشترط فيه أنه لايحتج فيه الا بما

نقله العدل عن العدل موصولا الى النبي صلى الله عليه وسلم ، قلت والاثبات مقدم على النفي ، والبخاري انما نفى معرفة سماعه من الاحنف لم ينف معرفة الناس بهذا ، فاذا عرف غيره ماثبت به الاسناد كانت معرفته واثباته مقدما على نفي غيره وعدم معرفته ، ووافق الجماعة على ذلك ، وأخذ بعض الجماعة يذكر من المدح مالا يليق أن أحكيه ، وأخذوا يناظرون في أشياء لم تكن في العقيدة ، ولكن انما تعلقوا بما أجبت به في مسائل وله تعلق بما قد يفهمونه من العقيدة •

فأحضر بعض أكابرهم (كتاب الاسماء والصفات) للبيهقي رحمه الله تعالى ، فقال : هذا فيه تأويل الوجه عن السلف ، فقلت : لعلك تعني قوله تعالى : (ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله)[1] فقال : نعم قد قال مجاهد والشافعي يعني قبلة الله ، فقلت : نعم هذا صحيح عن مجاهد والشافعي وغيرهما وهذا حق ، وليست هذه آية من آيات الصفات ، ومن عدها في الصفات فقد غلط كما فعل طائفة ، فان سياق الكلام يدل على المراد حيث قال : (ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله) والمشرق والمغرب الجهات ، والوجه هو الجهة ، يقال أي وجه تريد أي أيّ جهة ، وأنا أريدهذا الوجه أي هذه الجهة ، كما قال تعالى : (ولكلّ وجهةٌ هو مُولّيها) ولهذا قال : (فأينما تُولوُّ فثمَّ وجهُ الله) أي تستقبلوا وتتوجهوا انتهى •

هذا ماوجدناه منقولا عمن نقل من خط المصنف شيخ الاسلام تقي الدين قدس الله روحه ، وغرضنا من نقله أن يتبين للناظر في هذا الكتاب أن من ينقل عنهم الغبي النبهاني من مطاعن الشيخ كصدر الدين ابن الوكيل وابن الزملكاني وصفي الدين الهندي والعز بن جماعة والسبكي ونحوهم من غلاة الشافعية كلهم كانوا خصوما ألداء للشيخ فلا يلتفت الى قدحهم وجرحهم ، والشيخ قد كابد منهم ماكابد ، وهؤلاء وأضرابهم الذين شيدوا أركان البدع ، ونفثوا سم ضلالهم في أفواه متبعيهم قاتلهم الله أجمعين ، على أن ماذكر في هذه المناظرة تنفع في مباحث كثيرة تأتي ان شاء الله ، وبها يرتدع الخصم الألد •

قال النبهاني : ومنهم الامام أبو حيان وكان صديقا له ، فلما اطلع على بدعه رفضه رفضا بتا وحذر الناس منه •

---

(١) البقرة : ١١٧

(أقول) نعم ، كان الشيخ أبو حيان من المثنين على ابن تيمية بالثناء الحسن الجميل، وله شعر جيد في مدحه نذكره في مناقبه المنقولة عن الشيخ مرعي الحنبلي ، وما ذكره من الرفض لم نعلمه ممن يوثق به ، نعم ذكر الامام الذهبي أنه بعد أن مدحه دار بينهما كلام فجري ذكر سيبويه فأغلظ الشيخ ابن تيمية القول في سيبويه ، فناظره أبو حيان بسببه ، ثم عاد ذاما له ، وصير ذلك ذنبا لايغفر ، ويقال أن ابن تيمية قال له ماكان سيبويه نبي النحو ولا معصوما بل أخطأ في الكتاب في ثمانين موضعا ماتفهمها أنت ، فكان ذلك سبب مقاطعته اياه ، وذكره في تفسيره البحر بكل سوء ، وكذا في مختصره النهر انتهى ، فمن الممكن أن يقع بين العلماء مثل ذلك ، ولكن من المعلوم أن طعن أبي حيان انما كان بعد تخطئة ابن تيمية له والحط على سيبويه ، وما ذكره النبهاني الجاهل أن رفضه كان بعد أن اطلع على بدعه قول ساقط ، والسبب الذي كان من أجله المنافرة قد ذكره أهل العلم ، وأي بدعة تنسب للشيخ تقي الدين حتى يهجره بسببها أبو حيان النحوي ؟ وما ذهب اليه من الاختيارات كلها مبرهنة بالكتاب والسنة ، كما في كتاب (الاختيارات) ولكن النبهاني الجاهل الغافل ظن ذلك هيعة قطار اليها [1] ثم ان من مدح وذم فقد كذب مرتين ، على أن قدح المعاصر معلوم حاله ، والرجل ليس من أهل الجرح والتعديل حتى يعول عليه .

(قال النبهاني) ومنهم الامام عز الدين بن جماعة رد عليه وشنع عليه كثيرا .

(جوابه) أن العز هذا كان من أعظم خصوم الشيخ وحسدته ، وكانت أقواله في الشيخ تقي الدين وبهتانه عليه من أنكى سلاح ابن حجر المكي في الطعن على أهل التوحيد وأعداء الغلاة ، وقد عقد ابن السبكي ترجمة له في طبقاته فلا تتعب القلم بها .

(قال النبهاني) ومنهم الامام كمال الدين الزملكاني الشافعي المتوفي سنة سبع وعشرين وسبعمائة ، ثم نقل ترجمته عن تاريخ ابن الوردي والثناء عليه ، ثم نقل عن كتاب كشف الظنون كتاب الدرة المضية في الرد على ابن تيمية ، قال : وقد ناظره في مسائله التي شذ بها عن المذاهب الاربعة ، ثم قال : ومن أشنعها مسألة منعه شد الرحل وإعمال المطي لزيارة القبور ، ومنعه الاستغاثة بغير الله ، ثم أورد له أبياتا التجأ فيها بغير الله ، إلى آخر ماقال .

(جوابه) أن كمال الدين هذا قد سبق ذكره في مجالس المناظرة ، وأنه أحد خصوم الشيخ تقي الدين ، ومثله لايرجى منه أن يثنى عليه ، ومع ذلك فقد أثنى عليه كل الثناء ، وسيأتي بيانه عند الكلام على مناقب الشيخ عليه الرحمه ، ثم ان الرد على

---

(١) كذا في الاصل

بعض مسائل ابن تيمية لايقتضي الجرح فيه ، فمن المعلوم ماألف من الردود على العلماء والمجتهدين ، هؤلاء الأئمة الاربعة كم ردوا عليهم وكم خالفهم من مخالف ، حتى أن أصحاب الائمة يردون على أئمتهم ، ولم يقل أحد إن كل من يرد عليه كلامه يكون من المبتدعين والسالكين غير سبيل المؤمنين ، كما يزعمه هذا الغبي وأضرابه من غلاة الشافعية .

(قال النبهاني) ومنهم الامام الكبير الشهير تقي الدين السبكي ، ثم نقل عنه عبارته التي في كتاب (شفاء السقام) المشتملة على القدح في شيخ الاسلام ابن تيمية، ومنها قوله : وحسبك أن انكار ابن تيمية للاستغاثة والتوسل قول لم يقله عالم قبله ، وصار به بين أهل الاسلام مثله ، الى آخر ماقال مما هو على هذا المنوال .

(أقول في الجواب) عن هذا الهذيان والكلام العاري عن الدليل والبرهان :ان السبكي هذا شيخ أعداء ابن تيمية وعميدهم ،وعليه يعتمدالطاعنون شقيهم وسعيدهم والمناظرات التي كانت بين السبكي وبين الشيخ قد ملأت الدفاتر ، ونفذت منها المحابر ، وماهذى به السبكي في حق الشيخ كله قد رد عليه وعاد وباله اليه ، وماكتبه في مسألة الطلاق من الاعتراض قد رد عليه شيخ الاسلام بمجلدات رأى ابن السبكي منها مجلدا ، وشفاء السقام رد عليه الشيخ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الهادي المقدسي ، وبرد السبكي على الشيخ في المسألتين السابقتين لم يزل يفتخر على أهل الحق نظما ونثرا ، ومن نظمه في ذلك ماقاله في أبياته المشهورة :

لو كان حيا يرى قولي ويسمعه ... رددت ماقال ردا غير مشتبه
كما رددت عليه في الطلاق وفي ... ترك الزيارة أقفو اثر سببه
وبعده لا أرى للرد فائدة ... هذا وجوهره مما أضن به
والرد يحسن في حالين واحدة ... لقطع خصم قوي في تغلبه
وحالة لانتفاع الناس حيث به ... هدى وربح لديهم في تكسبه

وما أحسن مارد عليه الامامأبو المظفر الحنبلي معارضا لابياته هذه :

وقلت من بعد هذا قول ذي حسد ... أخطا الهدى وتجارى في تنكبه
(لو كان حيا يرى قولي ويسمعه ... رددت ماقال ردا غير مشتبه)
(كما رددت عليه في الطلاق وفي ... ترك الزيارة أقفو اثر سببه)
فضحت نفسك في هذا المقال ولم ... تشعر وعجت عن المرعى وأخصبه

عرفتنا ان ما قد قلت ليس لوجـــ ... ـه الله بل للمرا أقبـــح بمنصبــه

اذ لو أردت بيـــان الحـــق فهت به ... في محضر الخصـــم اما في مغيبــه

ماذاك صدك بل خوف الجواب كما ... أجبت قبـــل بسهم من مصـــوبه

ذا شـــأن من لم يجرد صارما ذكـــرا ... ماضي الغـــرارين غضبـــا من مجربه

لكن اذا الاسد الضرغام غاب عن الـ ... عرين تسمــــع فيه ضج ثعلبــــه

كذا الجبان خـــلا في البر صـــاح الا ... مبـــارز وتغـــالى في توثبــــه

ولو سمعت جواب الرد رحت فتـــى ... من أعظم الخلـــق عن جرم واتوبــه

وقـــد كفاني أبـــو العباس كلفتـــه ... كـــذا أرحـــت لساني غير متعبــه

ووافقتـــه سراة النـــاس عن كثب ... من أهـــل مذهبه أو غير مذهبــه

من أهل بغداد والآيات شاهـــــدة ... لهم وللحـــق مصبـــاح يبين بــه

عبت الذي قال مافيه الخلاف من ايـ ... قـــاع الثـــلاث ولـــو أفتى بأغربه

وقلت تنكـــح زوجا غـــيره ونكـــا ... حها مع الخـــلف باق في تذبذبــه

وكيف تنكـــح من لم تبر عصمتها ... بلا خـــلاف لشخص مع تجنبــه

وفي الزيارة لم تنصـــف رددت على ... مالـــم يقلــه ولـــم تمرر بسببــه

ردا ملخصــــه أشيـــاء أذكرها ... أما حديث ضعيـــف عند مطلبــه

أما صحيـــح ولكن لادليـــل بـــه ... علـــى مرادك بل هـــدم لمنصبــــه

اما بمجمل لفظ قول خصمـــك من ... أقـــوى المقـــال به قسـرا وأصوبه

أما بلا علـــم لي والجهـــل غايته ... أيعـــذر الشخص فيمـــا لاأحاط به

فأي رد لعمـــري قد رددت ومـــا ... ذا قلت اذ قلت أقفـــو أثر سببــه

ان كان عندك في شد الرحال الى الـ ... قبور نقـــل فعارضــــه بموكبــه

ليعرف الحـــــق من كان أخا نظـــر ... خال عن العلـــم ناء عن تعصبـــه

أني وذلـــك كالعنقـــاء في عـــدم ... وكالسمنـــدل يحكي مع تغيبـــه

ماأنت الا كمـــا قـــد قيل في مثـــل ... خالـــف لتعرف مشهـــور لضرّبه

فشيخنـــا بصريح الحـــق حجته ... ونقـــد نقلـــك زيف في تقلبــــه

فمن أحق بحق القـــول ان ظهر الـ ... انصاف مرتفعـــا من فـــوق مرقبه

(وقلـــت مابعـــده للرد فائـــدة ... هـــذا وجوهـــره ممـــا أضن به)

ماذا الكـــلام وما معنـــاه قله لنا ... أمدح أم هجـــو أعرب عن معربــه

ما ذلك الجوهر المضنون ويحك هل ... تعني به الشيـــخ أو ردا لمذهبــه

فان يـك ماذا الطعـــن فيه أو الـ جواب عن قـــوله نور بغيهبــــه
(والرد يحسن في حالـين واحـدة لقطع خصـــم قوي في تغلبــه)
(وحالة لاتنفـاع النـاس حيث به هدى وربح لديهـم في تـكسبـه)
كتم العلوم حرام لايجـــوز لذي علـم يضـن بعلـم عند طلبـــه
والرد في الحالة الاولى مضي هدرا فاستدرك الحال الاخرى قبل مذهبه
فقل ورد ان اسطعت السبيـل اذا وانفع به الناس كـي تحظى بأثوبه
حاشـا وكـلا واني بالسبيـل الى رد الصواب وقد وافى بكبكبــه
قل كي ترى سننا تستن في سنن الـ هـدى تنكس جهمـــا عن توثبه
ورهطـه وتريك الحـــق أظهر من شمس الضحى وهـلالا وسط غيهبه

وقال الامام أبو عبد الله محمـدبن جمال الدين الشافعي رحمه اللهمن جمـلة قصيدته التي عارض السبكي بها :

وما رددت عليـه في الطـلاق فما حققت نقـلا ولا عقـلا ظفرت بـه
بل فاسد القصد أعمى الذهن منك كما هي عادة الله فيمن شان مذهبه
نـزلت حـول حماه كي تنـازله فما علـوت عليـه بل علـوت به
وقد أجابك فانظر في الجـواب ترى سيفـا تجـول المنايا عند مضـربه
أخذت منه علـوما فانتصرت بهـا على ســواه وكانت من مهـذبه
وحزتهـــا مجملات من مفصـــلة ففصــل الآن ماأجملت تحظ بـه
وهكـــذا كل من سارت ركائبـه يقفو خطـاه فســائل من مجربه
وان تبجـحت بالردين لست لـــه كفـوا ولا أهل هذا العصر فانتبه
كـم بحـــر علم أتاه عاد ساقيـة وكـم جهـول أتاه صار منتبـــه
وما نـرى لكم في الخلـق فائـدة غـير التنعـم في النعماء من شبـه
أيـن الثـريا مكانا في ترفعهـــا من الثرى قـال هذا كل منتبـــه
من ذا يقيس نقي الجلد من درن الـ دنيـا وأمراضهــا يوما بأجربـه
لو كان عندك أنصـــاف ومكرمة وجود معـــرفة أو ذهن منتبــــه
لكنت تقفـو وراه قفو مجتهـــد علمـا ودنيـــا وأمرا تفلحن بـه
لو وفق الله أهـل الارض قاطبــة الى الصواب لساروا خلف مذهبـه
وما نسبتم اليـه عنـــد ذكركـم تـرك الزيـــارة أمر لايقـول به
فقـد أجابكـــم عن ذا بأجوبــة أزال فيها صدى الاشكال والشبــه

وقــد تبـــين هذا في مناسكـــه — لكــل ذي فطنة في القــول معربه
رميتمـــوه ببهتان يشـــان بــه — واللـــه ينصفـــه ممن رمـاه بــه
وفي الجواب أمـــور من تدبرهـــا — سقى الانـــام بها من صفو مشـــربه
ولم يكـــن مانعـــا نفس الزيارة بل — شـــد الرحال اليهـــا فادر واتتبه
تمسكا بصحيـــح النقـــل متبعـــا — خـــير القرون أولى التحقيق والنبه
مـــع الأئمـــة أهل الحق كلهـــم — قالـــوا كمـــا قال قـــول غير مشتبه
وقـــد علمت يقينـــا حين وافقـــه — أهـــل العراق على فتيـــاه فافت به
هذا وقـــد قلت فيما قلت مرتجـــلا — فيما تقـــدم قولا غـــير منجبـــه
(لو كان حيا يرى قولي ويسمعـــه — رددت ماقـــال ردا غير مشتبـــه)
فابـــرز ورد ترى واللـــه أجوبة — مثـــل الصواعق تردى من تمـــر به
عقـــلا ونقـــلا وآيـــات مفصـــلة — من كـــل أروع شهم القلب منتبـــه
ماضي الجنان كحد السيـــف فكرته — يريـــك نثرا ونظمـــا في تأدبـــه
وقـــاد ذهـــن اذا جالت قريحتـــه — يكـــاد يخشـــى عليـــه من تلهبـــه
يقابلـــون الذي يأتي بمشتبـــه — من الكـــلام ولا يخشون ذا النبـــه
فنـــزل القـــوم في أعلى منازلهـــم — فليس ذو منصب يحمـــى بمنصبـــه
وانظر الى من طغى في الارض من أمم — ولا تكـــن سالكا في أثر سببـــه
أن الاله يجـــازي كـــل ذي عمـــل — بمثـــل احســـانه أو قبح مكسبـــه
هـــذا جوابـــك ياهـــذا موازنـــة — بحـــرا وقافيـــة في النظـــم والشبه
والحمـــد لله حمدا لانفـــاد له — جـــار على مرما يقضـــي وأطيبـــه
ثم الصـــلاة على خير الورى شرفا — محمـــد المصطفى الهـــادى بمذهبه
وآلـــه والصحاب الغر كلهـــم — ماأشرق الجـــو من أنوار كوكبـــه

وكلا القصيدتين مشهورتان ، وقد رأيت مالقي السبكي من الويـــل والعطب بسبب مجاوزته حده في الجهل والحسد ، وما أحسن ماوصف به الحافظ أبو عبـــد الله بن قدامه كتاب (شفاء السقام) وترجم مؤلفه السبكي •

(أما وصف الكتاب) فهو هذا : قال الحافظ أما بعد فاني وقفت على الكتاب الذي ألفه بعض قضاة الشافعية ، في الرد على شيخ الاسلام تقي الدين أبي العباس أحمد بن تيمية ، في مسألة شد الرحال وإعمال المطي الى القبور ، وذكر أنه قد سماه شن الغارة على من أنكر سفر الزيارة ، ثم زعم أنه اختار أن يسميه (شفاء السقـــام

في زيارة خير الانام) فوجدت كتابه مشتملا على تصحيح الاحاديث الضعيفة والموضوعة ، وتقوية الآثار الواهية والمكذوبة ، وعلى تضعيف الاحاديث الصحيحة الثابتة ، والآثار القوية المقبولة وتحريفها عن مواضعها ، وصرفها عن ظاهرها ، بالتأويلات المستنكرة المردودة .

ثم أخذ يصف المؤلف ويترجم أحواله فقال : ورأيت مؤلف هذا الكتاب المذكور رجلا مماريا معجبا برأيه ، متبعا لهواه ، ذاهبا في كثير مما يعتقده الى الاقوال الشاذة والآراء الساقطة ، صار في أشياء مما يعتمده الى الشبه المخيلة ، والحجج الداحضة وربما خرق الاجماع في مواضع لم يسبق اليها ، ولم يوافقه أحد من الأئمة عليها ، وهو في الجملة لون غريب وبناء عجيب ، تارة يسلك فيما ينصره ويقويه مسلك المجتهدين فيكون مخطئا في ذلك الاجتهاد ، ومرة يزعم فيما يقوله ويدعيه أنه من جملة المقلدين فيكون من قلده مخطئا في ذلك الاعتقاد ، نسأل الله سبحانه أن يلهمنا رشدنا ويرزقنا الهداية والسداد ، هذا مع أنه ان ذكر حديثا مرفوعا أو أثرا موقوفا ــ وهو غير ثابت ــ قبله اذا كان موافقا لهواه ، وان كان ثابتا رده اما بتأويل أو غيره اذا كان مخالفا لهواه ، وان نقل عن بعض الأئمة الاعلام ــ كمالك وغيره ــ مايوافق رأيه قبله وان كان مطعونا فيه غير صحيح عنه ، وان كان مما يخالف رأيه رده ولم يقبله وان كان صحيحا ثابتا ، وان حكى شيئا مما يتعلق بالكلام على الحديث وأحوال الرواة عن أحد من أئمة الجرح والتعديل ــ كالامام أحمد بن حنبل وأبي حاتم الرازي ، وأبي حاتم البستي ، وأبي جعفر العقيلي ، وأبي أحمد بن عدي ، وأبي عبد الله الحاكم صاحب المستدرك ، وأبي بكر البيهقي ، وغيرهم من الحفاظ ، وكان مخالفا لما ذهب اليه ــ لم يقبل قوله ورده عليه وناقشه فيه ، وان كان ذلك الامام قد أصاب في ذلك القول ووافقه غيره من الائمة عليه ، وان كان موافقا لما صار اليه تلقاه بالقبول واحتج به واعتمد عليه ، وان كان ذلك الامام قد خولف في ذلك ولم يتابعه غيره من الأئمة عليه ، وهذا هو عين الجور والظلم وعدم القيام بالقسط ، نسأل الله التوفيق ونعوذ به من الخذلان واتباع الهوى ، هذا مع أنه حمله اعجابه برأيه وغلبه اتباع هواه على أن نسب سوء الفهم والغلط في النقل الى جماعة من العلماء الاعلام ، المعتمد عليهم في حكاية مذاهب الفقهاء واختلافهم وتحقيق معرفة الاحكام ، حتى زعم أن مانقله الشيخ أبو زكريا النووي في شرح مسلم عن الشيخ أبي محمد الجويني من النهي عن شد الرحال وإعمال المطي الى غير المساجد الثلاثة

كالذهاب الى قبور الانبياء والصالحين والى المواضع الفاضلة ونحو ذلك ـ هو مما غلط فيه على الشيخ أبي محمد ، وأن ذلك وقع منه على سبيل السهو والغفلة ، قال : ولو قاله يعني الشيخ أبا محمد أو غيره ممن يقبل كلامه الغلط لحكمنا بغلطه وأنه لم يفهم مقصود الحديث .

فانظر الى كلام هذا المعترض المتضمن لرد النقل الصحيح بالرأي الفاسد ، واجمع بينه وبين ماحكاه عن شيخ الاسلام من الافتراء العظيم ، والافك المبين ، والكذب الصراح ، وهو مانقله عنه من أنه جعل زيارة قبر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وقبور الانبياء عليهم السلام معصية بالاجماع مقطوعا بها ، هكذا ذكر المعترض عن بعض قضاة الشافعية عن الشيخ أنه قال هذا القول الذي لايشك عاقل من أصحابه وغير أصحابه أنه كذب مفترى ، لم يقله قط ولا يوجد في شيء من كتبه ولا دل كلامه عليه ، بل كتبه كلها ومناسكه وفتاويه وأقواله وأفعاله تشهد ببطلان هذا النقل عنه ، ومن له أدنى علم وبصيرة يقطع بأن هذا مفتعل مختلق على الشيخ ، وأنه لم يقله قط ، وقد قال الله تعالى : (يا أَيُّها الَّذينَ آمنوا إنْ جاءَكمْ فاسِقٌ بِنبأ فَتبيَّنو ا أنْ تُصيبوا قوْماً بِجهالةٍ فتُصْبِحوا على ما فعَلْتُم نادِمينَ)[1]
وهذا المعترض يعلم أن مانقله هذاالقاضي المشهور ـ بمالاأحب حكايته عنه ـ في هذا المقام عن شيخ الاسلام من هذا الكلام كذب مفترى لا يرتاب في ذلك ، ولكنه يطفف ويداهن ويقول بلسانه ماليس في قلبه ، قال : ولقد أخبرني الثقة أنه ألف هذا الكتاب لما كان بمصر قبل أن يلي القضاء بالشام بمدة كبيرة ، ليتقرب به الى القاضي الذي حكى عنه هذا الكذب ويحظى لديه فخاب أمله ولم ينفق عنده ، وقد كان هذا القاضي الذي جمع المعترض أعني السبكي كتابه هذا لأجله من أعداء الشيخ المشهورين ، وقد زعم هذا المعترض أيضا ـ مع هذا الامر الفظيع الذي ارتكبه من التكذيب بالصدق ، والتصديق بالكذب ـ أن الفتاوى المشهورة التي أجاب بها علماء أهل بغداد موافقة للشيخ مختلقة موضوعة ، وضعها بعض الشياطين ـ هكذا زعم ـ مع علم الخاص والعام بأن هذه الفتاوي مما شاع خبرها وذاع ، واشتهر أمرها وانتشر ، وهي صحيحة ثابتة متواترة عمن أفتى بها من العلماء ، وقد رأيت أنا وغيري خطوطهم بها ، فانظر الى تكذيب هذا المعترض بما لم يحط به علما ، وجرأته على

(١) الحجرات : ٧

انكار ماشتهر وتواتر ، وكيف يحل لمن ينتسب الى شيء من الدين أن ينسب أمــرا مقطوعا بكذبه الى من لم يقله ، ويقدح في أمر مشاهد مقطوع بصحته ، ويزعم أنه مختلق من بعض الشياطين ، هذه عثرة لاتقال وله مثلها كثيرا ، ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور ، قال : فلما وقفت على هذا الكتاب المذكور وهو (شفاء السقام) أحببت أن أنبه على ماوقع فيه من الامور المنكرة ، والاشياء المردودة ، وخلط الحق بالباطل ، لئلا يغتر بذلك بعض من يقف عليه ممن لاخبرة له بحقائق الدين ، مع أن كثيرا مما فيه من الوهم والخطأ يعرفه خلق من المبتدئين في العلم بأدنى تأمــل ولله الحمد ، ولو نوقش مؤلف هذا الكتاب على جميع ماشتمل عليه من الظلم والعدوان والخطأ والخبط والتخليط والغلو والتشنيع والتلبيس لطال الخطاب ، ولبلغ الجواب مجلدات ، ولكن التنبيه على القليل مرشد الى معرفة الكثير لمن له أدنى فهم ، والله المستعان ، انتهى .

(وقال الحافظ أبو عبد الله أيضا) في موضع آخر من كتابه (الصارم المنكي) وقد سمعت أخا شيخ الاسلام يذكر هذا النص الذي حكــاه القاضي اسمعيــل في المبسوط عن مالك لهذا المعترض بحضرة بعض ولاة الامر ، فغضب المعترض وهــو السبكي غضبا شديدا ولم يجبه بأكثر من قوله هذا كذب على مالك ؛ فانظر الى جرأة هذا المعترض واقدامه على تكذيب مالم يحط بعلمه بغير برهان ولا حجة بل بمجرد الهوى والتخرص ، وليس هذا ببدع منه فانه قد عرف منه مثل ذلك في غير موضع ، وهو من أشد الناس مخالفة لمالك في هذه المواضع التي لايعرف لأحد من كبــار الأئمة أنه خالف مالكا فيها ، بل قد حمله فرط غلوه ومتابعته هواه على نسبة أمور عظيمة — لاأحب ذكرها — الى من قال بقول مالك في هذه المواضع التي لايعرف عن امام متبوع مخالفته فيها ، نعوذ بالله من الخذلان ، ومن عجب أن هذا المعترض صحح الحكاية المنقولة عن مالك مع أبي جعفر المنصور لأنفيها مايتابع هواه ، مع أنها غير صحيحة ، بل هي باطلة موضوعة ، وكذّب هذا النقل الثابت الذي ذكره القاضي اسمعيل في المبسوط لشدة مخالفته لهواه ومقصده وما ذهب اليه ، وأعرض عما ذكره أيضا في المبسوط من قول مالك لا أرى أن يقف عند قبر النبي صلى الله عليه وسلم يدعو ، ولكن يسلم ويمضي ، لأنه مخالف لهواه ، وتمسك بما في كتاب (الموازنة) لمتابعته هواه في ظنه ، وهكذا عادته ودأبه يكذب النصوص الثابتة أو يعرض عنها ، ويقبل الاشياء الواهية التي لم تثبت والامور المجملة الخفية ويتمسك بها بكلتا يديه،

وليس هذا شأن من يقصد الحق وايضاح الدين للخلق ، نسأل الله تعالى التوفيق ،

وذكر هذا الامام الحافظ في أثناء كتابه كثيرا من أحوال السبكي التي لاترضي الله تعالى ولا رسوله صلى الله عليه وسلم ، فلا بدع من هذا المبتدع بل القبوري وهو النبهاني أن يحتج على ترويج مقاصده بالسبكي وأمثاله من أسلافه غلاة الشافعية ، بل الفرقة الزائغة الحلولية أعداء الحق وأهله ، وخصوم الدين ومن أخذ به •

(قال النبهاني) ورأيت للامام السبكي عبارة موجودة الآن بخط يده في المكتبة الخالدية في القدس ، وقد أرسلت فاستكتبتها وهذه صورتها بحروفها : (قال رحمه الله تعالى) في سنة احدى وخمسين وسبعمائة وقفت على كتاب العقل والنقل لابن تيمية ، فوجدت فيه مواضع أنكرتها وكتبت على بعضها حواشي ، فتحركت أنوف خلق له ، ففكرت في انتشار أصحاب هذا الرجل وما يخشى من انتشار بدعته وعدم من يقاومهم ، فكتبت ليلة السبت عاشر شوال سنة أحد وخمسين وسبعمائة رقعةالى سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم أسأل الله فيها ذلك • (وفي آخرها) إن كنت مصيبا في اعتقادي فقوّني ، وان كنت مخطئا فاهدني ، ثم أصبحت ورفعتها للشيخ نور الدين السخاوي ليحملها فانه عزم على الحج وكان ذلك قبل الظهر ، فلما كان الظهر جاءني شخص فأخبرني عن ابن تيمية بخبر يوجب شوطي فيه ، وكنت سمعت عنه من شخص مسألة من نحو أربعين سنة فلم أصدقها فلما تابعها هذا وقع في قلبي صحة ذلك ، ثم جاء آخر وآخر وآخر بمثل ذلك ، ثم نظمت قصيدة أرسلتها مع الشيخ نور الدين أيضا ، فلما أكملت نظمها في ليلة الاثنين ثاني عشر الشهر المذكور وقع في قلبي أن الله تعالى ما هيأ لي تلك الاخبار في ذلك اليوم الا هداية وجوابا عما سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فانظر هذه القضية ماأعجبها ، وفضل رسول الله صلى الله عليه وسلم عليّ •

وها أنا أذكر نص ماكتبته في تلك الورقة وما نظمته ان شاء الله ، والمرجو من الله ارسالهما ووصولهما الى النبي صلى الله عليه وسلم ونجحهما ان شاء الله ، أما الورقة فنص مافيها :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يارسول الله اني عبيد ضعيف عاجز مسكين ، وجميع ماحصل لي من خير الدنيا

والآخرة أنت كنت سببه ، وأنت وسيلتي الى الله سبحانه ، واني نشأت على ديـن الاسلام سالما عن الشبه والبدع والاهوية والاغراض والميل الى جانب من الجوانب ، لاأعرف غير أشهد أن لا اله الا الله ، وأشهد أن محمـدا رسول اللـه ، ثم اشتغلت بالقرآن ، ثم بالفقه على مذهب الشافعي ، لا أعرف غير ذلك ، ولم أسمع ولم يدخل في قلبي شيء غير ذلك ، لا من العقائد ولا من غـيرها ، ثم اشتغلت بنحو وأصـول وفرائض ، ثم بعلم الحديث ذا تصويب فيه اليك ، ثم نظـرت في شيء من العلـوم العقلية ، واشتغلت بعلم الكلام على طريقة الاشعري ، لأنها المشهورة في بلادنا التي رأيت عليها أهلي وقومي ، وبقيت أراها طريقة وسطى بين الحشو والاعتزال ، ولازلت على تلك حتى جاوزت عشرين سنة من عمري وأنا بالديار المصرية ، فشاع عندنا خبر ابن تيمية وما يتفق له بدمشق ، وكان بها اذ ذاك علماء يقاومونه وفي مصر القاهـرة علماء وأكابر ، فأحضروه واتفق له مااتفق بسبب العقائد ، ثم كتبت كلامه في التوسل والاستغاثة ، وتكلم معه من هو أكبر مني ورأيته واجتمعت به كثـيرا ، ثم عاد الى الشام ، ثم بلغنا كلامه في الطلاق وأن من علق الطـلاق على قصد اليمـين ثم حنث لايقع عليه طلاق ، ورددت عليه في ذلك ، ثم بلغنا كلامه في السفر الى زيارتك ومنعه اياه ورددت عليه في ذلك ، ثم توفي وله أصحاب كثيرون يشيعـون رأيه وينشـرون تصانيفه ، وجئت الى دمشق كما يقال نائب شريعتك [1] ومن لي برضاك بذلك ، فأنا أقل عبيدك ، مسكت عن الكلام في العقائد من الجانبين ، لأني في نفسي أن عقولنـا تضعف عن ادراك سبحات الحق جل جلاله ، وأرى البقـاء على الفطرة السليمـة ، والاكتفاء بالايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وأن لاينبه العـوام لشيء آخر ، ومن كان عالما ينظر بما ييسر له ، والمعصوم من عصم الله :، لكن الطلاق والزيارة انا شديد الانكار لقول ابن تيمية فيهما ظاهرا وباطنا ، والعقائد لايعجبنـي مااعتمده فيها من تحريك قلوب العوام فيها •

(قال النبهاني) انتهت عبارة الامام السبكي بحروفها وهي مكتوبة بخطه بلا نقط ، وهكذا جائتني صورتها فنقطتها ،أما القصيـدة التي ذكرها فغـير موجودة انتهى •

أقول ومنه سبحانه المدد والتوفيق : قد نقلت في هذا المقام ماذكره النبهـاني بحذافيره من غير تلخيص ولا اختصار ــ وان كان في نقلها تضييع للمداد والقرطاســ

---

(١) كذا فى الاصل

ليعلم الناظر في هذا المقام ماخلق الله من العقول والافهام ، فيحمد الله تعالى من عوفي من داء هذا الجهل الوخيم ، والضلال القديم ، والنبهاني هذا رجل كذاب لايؤمن على نقله ولا يصدق بروايته ، فانه من الغلاة والجهلة الغواة ، ولكنه قد يصدق الكذوب ، فان صحت روايته هذه عن السبكي كفاه خزيا ذلك وهو الذي يناسب ما كان عليه من الغلو والابتداع الظاهر ، وهذه المقالة عن السبكي قادحة في عدالته مسقطة له عن درجة أهل العلم ، موصلة له الى طبقة العوام السفلى ، ومن العجيب أنه قال في أول مقالته ففكرت في انتشار أصحاب هذا الرجل ومايخشى من انتشار بدعته الخ ، فنسب البدعة الى الشيخ ابن تيمية حافظ الامة مع شهرة حاله في التعصب للسنة ، فعبر عنه بالمبتدع وجعل نفسه هو المتبع ، وفي المثل السائر : رمتني القرعى بدائها وانسلت ، وهكذا تكون الوقاحة وعدم الحياء من الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وفي الحديث : (إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الاولى اذا لم تستح فاصنع ماشئت) وهذا هو الهوى المتبع واعجاب المرء بنفسه الذي ورد في الخبر ، وليت النبهاني المثبور كان عنده شيء من البصيرة والفهم فلم ينقل هذه المقالة الشنعاء عن السبكي حتى فضحه بها وقد توفاه الله تعالى منذ مئات من السنين ، ولكن أبى الله الا أن يفضح من تنقص خيار الامة وسلفها بكشف عورات جهالاتهم .

ثم إن ماحكاه عن السبكي من المقالة الفظيعة مختلة المبني والمعنى يرد على كل كلمة من كلماتها ايرادات ومؤاخذات لو بسطنا الكلام فيها لاستوجب أن يفرد له كتاب مفصل ، والوقت يضيق عن الاشتغال بمثل ذلك فكان من الواجب علينا أن نتكلم عليها اجمالا ، ونذكر مايرد على محصلها ومقصدها ، ولولا سوء الادب لأجبنا مقالته تلك على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذكرنا له ماتعدى به طوره وتجاوز حده ، ولكن نعوذ بالله من التجاسر على مقام النبوة والتفوه بما لم يقله ، كما أنا نلجأ اليه أن يعصمنا من سوء الادب .

(ثم ان الكلام) على ماقصده السبكي في مقالته من وجوه :

(الوجه الاول) أن كتاب (العقل والنقل) ويسمى أيضا (بيان موافقة صريح المعقول ، لصحيح المنقول) ويسمى أيضا (قسطاس الانصاف والعدل ، في رد تعارض العقل والنقل) من مصنفات الآية الظاهرة ، والحجة الباهرة ، ماشطة العصر بل نادرة الدهر ، بحر العلوم ، وصدر القروم ، الناسك العابد ، والورع الزاهد : شيخ الاسلام تقي الدين أبي العباس أحمد بن تيمية رحمه الله ، ألفه في الجواب عن

سؤال ورد اليه ، وهو اذا تعارضت الادلة السمعية والعقلية ، أو السمع والعقل ، أو العقل والعقل ، أو الظواهر النقلية والقواطع العقلية أو نحو ذلك من العبارات ، فهل يجمع بينهما وهو محال لأنه جمع بين النقيضين ، وإما أن يرادا جميعا ، واما أن يقدم السمع وهو محال لأن العقل أصل النقل ، فلو قدمناه عليه كان ذلك قدحا في العقل الذي هو أصل النقل ، والقدح في أصل الشيء قدح فيه ، فكان تقديم النقل قدحا في النقل والعقل جميعا ، فيجب تقديم العقل ، ثم النقل اما أن يتأول ، واما أن يفوض وأما اذا تعارضا تعارض الضدين امتنع الجواب عنهما ولم يمتنع ارتفاعهما ، فذكر في الجواب تسعة عشر وجها مفصلة أتم تفصيل في بيان أن صريح المعقول لايخالف صحيح المنقول . وفيه الذب عن الشريعة الغراء ، وأنها وافية بكل مايستوجب سعادة الدارين ، ليس لها حاجة الى اكمالها بالقواعد التي وضعها علماء الكلام من أعداء الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وان جميع ماجاءت به الشريعة الغراء مما يوافق ماتقتضيه العقول السليمة ، وأن نصوصها لاتؤول لأجل تطبيقها على مااخترعوه من الآراء الفاسدة ، والاقوال الكاسدة ، وبسط الكلام كل البسط في كل وجه من تلك الوجوه ، هذا موضوع الكتاب ، وهو كتاب جليل ليس له نظير في بابه ، ومن النعم العظمى على الامة ظهور هذا الكتاب في هذا العصر وانتشاره بين الناس ، وما أحسن ماقال فيه الشيخ ابن القيم في منظومته الشافية الكافية ، وقد عقد فصلا في ذكر مؤلفات شيخ الاسلام :

واقرأ كتاب العقل والنقل الذي ★ مافي الوجود له نظير ثان

فجزى الله تعالى عن المسلمين كل خير من سعى في طبعه ونشره ، ومثل هذا الكتاب كيف يشتكى منه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم من له أدنى بصيرة في العلم وأقل نظر في معرفة الشريعة اللهم الا اذا كان السبكي ممن ختم الله على قلبه فلم يفهمه ، وتصدى للرد عليه والاستئذان من الرسول عليه السلام لأجل ذلك وما بعد الحق الا الضلال .

(الوجه الثاني) أن الله تعالى أكمل الدين المبين قبيل وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ، فأصبحت الشريعة الغراء ليلها كنهارها ، لم تغادر شيئا من الاحكام ولا من بيان الحلال والحرام ، وبسط الكلام عليها الأئمة ومجتهدوا الامة فلم يبق حاجة الى مراجعة النبي صلى الله عليه وسلم بعد وفاته ، بل ان عمر رضي الله تعالى

عنه لم يوافق على كتابة الكتاب في مرضه وقد طلب دواة وقرطاسا ، والحديث مشهور ، قال تعالى : (اليومَ أكملْتُ لكمُ ديْنَكمْ وأَتممتُ عليكمْ نعْمَتي ورَضيْتُ لكمُ الاسلامَ ديْناً)(١) فاذا أشكل أمر على أحد راجع أهل الذكر ان كان ممن لايعلم أو فتش على مقصده كتب الشريعة ونصوصها فما دلت عليه واقتضته عمل بموجبه من غير حاجة الى كتابة شيء الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وكتابته عند قبره وقال عز اسمه : (يا أيُّها الَّذينَ آمنوا أطيعوا اللهَ وأطيعوا الرَّسول وأُولي الأَمرِ منْكمُ فإنْ تنازَعْتُم في شيء فَرُدُّوهُ إلى اللهِ والرَّسولِ إنْ كُنْتُم تؤمنونَ باللهِ واليومِ الآخِرِ ذلكَ خيرٌ وأحسنُ تأويلاً)(٢).

(ذكر المفسرون) ان الخطاب عام للمؤمنين مطلقا ، والشيء خاص بأمر الدين بدليل مابعده والمعنى : فان تنازعتم أيها المؤمنون أنتم وأولوا الامر منكم في أمر من أمور الدين فردوه الى الله ، أي فارجعوا فيه الى كتابه ، والرسول أي الى سنته ، ولا شك أن هذا انما يلائم حمل أولى الامر على الامراء دون العلماء ، لأن للناس والعامة منازعة الامراء في بعض الامور وليس لهم منازعة العلماء ، اذ المراد بهم المجتهدون ، والناس ممن سواهم لاينازعونهم في أحكامهم ، وجعل بعضهم الخطاب فيه لاولي الامر على الالتفات ليصح ارادة العلماء لأن للمجتهدين أن ينازع بعضهم بعضا مجادلة ومحاجة ، فيكون المراد أمرهم بالتمسك بما يقتضيه الدليل ، وبعضهم قال يراد الاعم مع أنه يجوز أن يكون الخطاب للمؤمنين ، وتكون المنازعة بينهم وبين أولي الامر باعتبار بعض الافراد وهم الامراء .

والمقصود : أن الله تعالى أمر المؤمنين عند التنازع أن يراجعوا الكتاب والسنة لا أن يكتبوا كتابا لقبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ويتلقى الجواب بمحض الاوهام كما فعله السبكي ، وتمام الكلام على الآية يطلب من محله .

(الوجه الثالث) أن الصحابة الكرام اختلفوا بعد وفاة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في الخلافة اختلافا كثيرا وهو مذكور في محله فلم يستفتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم في قبره ، ولم يكتبوا له أن الانصار يارسول الله يقولون

(١) المائدة : ٣ (٢) النساء : ٥٩

منا أمير ومنكم أمير ، وأن بعضهم يريد أبا بكر ، ومنهم من يطلب عليا ، ومنهم ومنهم •

ثم انهم اختلفوا بعد ذلك في مسائل علمية ولم يستفتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم في قبره ، ولم يجيء أحد منهم يسأله ماذا حكم الجد مع الاخوة ، وأن فاطمة جاءت الى أبي بكر تطلب ارث أبيها منه فأورد لها خبر نحن معاشر الانبياء لانورث فلم ترض بقوله وقامت وهي عليه غضبى ولم تستفت رسول الله صلى الله عليه وسلم في قبره ، ولا كتبت اليه مافعل معها أبو بكر ، وخرج على عثمان أهل مصر وغيرهم فلم يستفتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في قبره عما كان من عثمان ، ولا أن عثمان شكى عليه كما فعل السبكي ، وأن عليا ومعاوية تنازعا الامر وجرى بين الفريقين ماجرى ولم يصدر عن أحد ماصدر عن السبكي من الشكوى والاستئذان ، ومثل هذه المسائل مما لايحيط به القلم •

(الوجه الرابع) أن من اشتبه عليه أمر ولم يعلم هل هو خير أم شر ليعمل بموجبه يستخير الله تعالى ، فان الاستخارة مما درج عليه السلف وجرى على منهاجهم الخلف ، وقد تكلموا عليها في فصول :

(منها في الامور التي هي محل الاستخارة) فقالوا : ما من شأنه أن يراد ينقسم أولا الى ثلاثة أقسام : (الاول)ما يعلم كونه خيرا قطعا كالواجب المضيق (الثاني) مايعلم كونه شرا قطعا كالمحرم المجمع على تحريمه (الثالث) مالا يعلم على القطع خيريته ولا شريته في وقت مخصوص كالواجب الموسع والمندوب كذلك والمندوب المضيق الذي يعارضه مندوب آخر في ذلك الوقت من غير ظهور رجحان لاحدهما والمباحات كلها ، ولما كان معناها طلب خير الامرين من الفعل في وقت معين أو تركه فيه لم يكن الاولان محلين لها ، إذ أولهما خير قطعا فلا رخصة في تركه ، وثانيهما شر قطعا فلا رخصة في فعله ، فليس محلا لها الا الثالث ، فما يوهم العموم في بعض الاخبار كالامور في خبر جابر الآتي عام مخصص ، أو أن أل فيه للعهد •

(ومنها في سرد بعض أحاديثها) روى البخاري في (باب ماجاء من التطوع مثنى مثنى) من صحيحه عن جابر بن عبد الله ، قال : (كان رسول الله صلى اللهعليه وسلم يعلمنا الاستخارة في الامور كلها كما يعلمنا السورة من القرآن ، يقول : اذا

همّ أحدكم بالامر فليركع ركعتين من غير الفريضة ثم ليقل اللهم اني أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك ، وأسألك من فضلك العظيم ، فانك تقدر ولا أقدر ، وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب ، اللهم ان كنت تعلم أن هذا الامر خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري أو قال عاجل أمري وآجله فاقدره لي ويسره لي ثم بارك لي فيه ، وان كنت تعلم أن هذا الامر شر لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري أو قال في عاجل أمري وآجله فاصرفه عني واصرفني عنه وأقدر لي الخير حيث كان ثم رضني به ، قال ويسمى حاجته) .

وروى في (كتاب الدعوات) عن جابر أيضا ، قال : (كان النبي صلى الله عليه وسلم يعلمنا الاستخارة في الامور كلها كسورة من القرآن ، اذا هم أحدكم بالامر فليركع ثم يقول : اللهم اني أستخيرك) وساق الدعاء ، وقال في آخره أيضا ويسمى حاجته .

وروى في (كتاب التوحيد) من الصحيح عنه أيضا قال : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلم أصحابه الاستخارة في الامور كلها كما يعلمهم السورة من القرآن ، يقول : اذا هم أحدكم بالامر فليركع ركعتين من غير الفريضة ، ثم ليقل : اللهم اني أستخيرك بعلمك الى قوله وأنت علام الغيوب — ولم يقل العظيم — اللهم فان كنت تعلم هذا الامر — ثم يسميه بعينه — خيرا لي في عاجل أمري وآجله قال أو في ديني ومعاشي وعاقبة أمري فاقدره لي ويسره لي ثم بارك لي فيه ، اللهم وان كنت تعلم أنه شر لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري أو قال في عاجل أمري وآجله فاصرفني عنه وأقدر لي الخير حيث كان ثم رضني به) .

وروى الطبراني في المعجم الصغير عن ابن مسعود قال : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمنا الاستخارة كما يعلمنا السورة من القرآن ، يقول : اذا أراد أحدكم أمرا فليقل اللهم اني أستخيرك بعلمك ، وأستقدرك بقدرتك ، وأسألك من فضلك العظيم ، فانك تقدر ولا أقدر ، وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب ، اللهم ان كان في هذا الامر خير في ديني ودنياي وعاقبة أمري فاقدره لي ، وان كان غير ذلك خيرا لي فسهل لي الخير حيث كان ، واصرف عني الشر حيث كان ، ورضني بقضائك) .

وروى في الكبير عنه أيضا قال : (علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم

الاستخارة ، فقال : اذا أراد أحدكم أمرا فليقل اللهم اني أستخيرك بعلمك ــ ولم يقل العظيم ــ وقال فان كان هذا الذي أريد خيرا في ديني وعاقبة أمري فيسره لي ، وان كان غير ذلك خيرا فاقدر لي الخير حيث كان ، يقول ثم يعزم) •

وروى الحافظ نور الدين أبو الحسن علي بن أبي بكر في كتابه (موارد الظمآن ، الى زوائد ابن حبان) عن أبي أيوب رضي الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (اكتم الخطبة ثم توضأ فأحسن وضوءك ، ثم صل ماكتب الله لك ، ثم احمد ربك ومجده ، ثم قل : اللهم انك تقدر ولا أقدر ، وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب ، فان رأيت لي فلانة تسميها باسمها خيرا لي في ديني ودنياي وآخرتي فاقدرها ، وان كانت غيرها خيرا لي منها في ديني ودنياي وآخرتي فاقض لي ذلك) •

وروى فيه أيضا عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (اذا أراد أحدكم أمرا فليقل اللهم اني أستخيرك بعلمك ، وأستقدرك بقدرتك ، وأسألك من فضلك العظيم ، فانك تقدر ولا أقدر ، وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب ، اللهم ان كان كذا وكذا خيرا لي في ديني ومعيشتي وعاقبة أمري فاقدره لي ويسره لي وأعني عليه ، وان كان كذا وكذا الامر الذي تريد شرا لي في ديني ومعيشتي وعاقبة أمري فاصرفه عني ، ثم اقدر لي الخير أينما كان ، ولا حول ولا قوة الا بالله) •

وروى فيه أيضا عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (اذا أراد أحدكم أمرا فليقل : اللهم اني أستخيرك بعلمك ، وأستقدرك بقدرتك ، وأسألك من فضلك ، فانك تقدر ولا أقدر ، وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب ، اللهم ان كان كذا وكذا خيرا لي في ديني وخيرا لي في معيشتي وخيرا لي في عاقبة أمري فاقدره لي وبارك لي فيه ، وان كان غير ذلك خيرا فاقدر لي الخير حيث كان ورضني بقدرك) •

وروى الحافظ السخاوي في (كتاب الابتهاج ، باذكار المسافر الحاج) أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأنس رضي الله عنه : (اذا هممت بأمر فاستخر ربك فيه سبع مرات ، ثم انظر الى الذي سبق الى قلبك فان الخير فيه) وعزاه السيوطي الى الديلمي في مسند الفردوس •

(ومنها في بيان كيفية صلاتها) المذكور في كثير من الكتب ان من أراد

الاستخارة يصلي ركعتين من غير الفريضة ، ثم يدعـوه وهو المصـرح به في حديث جابر ، وقال الحافظ بن حجر في (فتح الباري) قال النووي في الاذكار : لو دعـا بدعاء الاستخارة عقب راتبة الظهر مثلا أو غيرها من الراتبة والمطلقة سواء اقتصـر على ركعتين أو أكثر أجزأ ، كذا أطلق وفيه نظر ، ويظهر أن يقال : محله ان نوى تلك الصلاة بعينها وصلاة الاستخارة معا ، بخلاف ما اذا لم ينو ، وتفارق تحية المسجـد لأن المراد بها شغل البقعة بالصلاة ، والمراد بصلاة الاستخارة أن يقع الدعاء عقبها الى آخـر ماقال أهـ •

ثم ان ظاهر مافي حديث أبي أيوب ثم صل ماكتب الله لك أن الركعة الواحدة يحصل بها المقصود ، وكلام الفقهاء على هذه المسألة مفصل في كتب الفقه •

(ومنها) اذا فرغ المستخير من الدعاء فليمض كما قال النووي لما انشـرح له صدره •

قال الهيثمي : فان لم ينشرح صدره لشيء فالذي يظهر أنه يكرر الاستخـارة بصلاتها ودعائها حتى ينشرح صدره لشيء وان زاد على السبع ، والتقييد بها في خبر أنس : (اذا هممت بأمر فاستخر ربك فيه سبع مرات ، ثم انظر الى الذي سبـق الى قلبك فان الخير فيه) لعله جرى على الغالب اذ انشراح الصدر لايتأخر عن السبع ، على أن الخبر اسناده غريب ، ووقع للشافعي أنه استخار في أمر سنة ، والكلام في هذا الباب طويل ، والمقصود أن السبكي ابتدع مالم يسبق اليه أحد وترك الامـر المسنون وهو الاستخارة ان كان ماتصدى اليه من مواضعها •

(الوجه الخامس) أن السبكي زعم أنه حصل له الاذن بالرد على كتاب (العقل والنقل) وأنه أمر بذلك أمرا معنويا كما استنبطه هو بفكره الثاقب ورأيه الصائب ، فلم لم يمتثله وأين رده الذي رد به على هذا الكتاب ؟ وليته ألفه ليمزق بسهام الاقلام ويكون مثلة بين الانام ، فان الذي مبلغه من العلم ماسمعت كيف يرد على شيء لايفهمه ولا يعرفه ، ثم ان ولده تاج الدين ذكر في طبقاته ترجمة والده ، ونسب اليه كل فضيلة وعزا اليه كل منقبة جليلة ، وذكر مصنفاته واختياراته وكلماته وهذياناته ، ولم يذكر في كتبه هذا الرد ، فعلم أنه بهتان مبين ، وانه لم يمتثل أمر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم على زعمه •

(الوجه السادس) أن حديث عرض الاعمال في أيام مخصوصة على ماسبق بيانه

في كلام شيخ الاسلام تقي الدين لايقتضي كتابة شيء الى الرسول صلى الله عليه وسلم وهو في قبره ، بل أن أعمال أمته تعرض عليه فان رأى خيرا سره وان رأى غير ذلك احتسب ، ولم يقل أحد أن له قدرة على تغيير مالا يرضى الله تعالى ولا رسوله صلى الله عليه وسلم ، وحياته البرزخية ليست الحياة المتعارفة والا لاقتضت لوازمها وأنى له ذلك ، فكيف يعرض عليه مثل تلك الامور وما ذلك الا عثرة من السبكي لاتقال ، ولا يصدر مثلها حتى عن ضعفاء العقول من الجهال ، فبطل كلامه وزال مقصده ومرامه .

(الوجه السابع) أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يعلم ــ عند النبهاني وأسلافه الغلاة ــ ما كان وما يكون ، بل يعلم خائنة الاعين وما تخفي الصدور ، فما فائدة اعلامه بما أعلمه به السبكي من أنه رجل شافعي المذهب أشعري العقيدة الى آخر ماهذى به ، فانه اذا علم ما كان وما يكون ــ ومنه أعمال السبكي وأفعاله ــ فلأجل أي شيء يخبره به ؟ لايقال ان ذلك كاخبار امرأة عمران بما وضعت ، وهو الذي حكاه سبحانه بقوله : (إذْ قالت امرأةُ عمرانَ ربِّ إنِّي نذَرتُ لكَ ما في بَطني مُحرّراً فتقبَّلْ منيِّ إنكَ أنتَ السَّميعُ العَليمُ فلمَّا وضعتها قالتْ ربِّ انيِّ وضعْتها أُنثى واللهُ أعلَمُ بما وضَعَتْ وليسَ الذَّكرُ كالانثى وإنيِّ سَميْتها مَريمَ وإنيِّ أُعيذُها بكَ وذرِّيتها منَ الشيطانِ الرَّجيمْ فتقبَّلها ربُّها بقَبول حسن وأنبَتها نباتاً حسَناً وكفَّلها زكريَّا)[1] الآية ، قالوا : ان الله عالم بما كان فلم أخبرته امرأة عمران بما أخبرته ؟ أجابوا : ان الخبر تارة يقصد به افادة المخاطب الحكم اذا كان غير عارف به ، وتارة يقصد به افادة لازم من لوازمه المفصلة في علم المعاني ، ولازم خبر امرأة عمران هو التحزن والتحسر على خيبتها وانعكاس أملها ، وحمل السبكي كلامه على ذلك مما لاوجه له .

وهذا الذي ذكرناه ــ من أن الغلاة يعتقدون في النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ماذكرناه ــ هو مما لم يمكنهم انكاره ، كيف والنبهاني على ماأسلفناه يقول ان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم موجود في كل مكان وكل زمان ، وقد تكلمت يوما مع أحد غلاة الرفاعية الزنادقة ومشركيهم ــ اذ استغاث بالرفاعي قبل الشروع

---

(١) آل عمران : ٣٦ ــ ٣٨

في ذكرهم ـ فقلت له : هل يسمع الآن نداءك الرفاعي وهو في قبره في أم عبيده ويمدك ؟ قال : نعم قلت : فاذا اتفق مثلك في بلاد كثيرة ومواضع متعددة ألوف مؤلفة وان كانوا في أقطار شاسعة فهل يسمعهم أحمد الرفاعي ويمدهم ويغيثهم ؟ قال : نعم ، قلت : هذا هو الغلو الذي نهى الله عنه في كتابه الكريم ، قال ليس هذا من الغلو بل هو مقتضى الدين ألم تسمع حديث الاولياء وهو قوله صلى الله عليه وسلم الذي رواه البخاري : (وما زال عبدي يتقرب الي بالنوافل حتى أحبه ، فاذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها) الحديث ؟ فظن هذا الغبي الجاهل أن معناه مايعتقده اخوانه أهل الزيغ والالحاد من أن العبد اذا لازم العبادة الظاهرة والباطنة حتى يصفى من الكدرات انه يصير في معنى الحق تعالى الله عن ذلك ، وأنه يفنى عن نفسه جملة حتى يشهد أن الله تعالى هو الذاكر لنفسه المحب لنفسه ، وأن هذه الاسباب والرسوم تصير عدما صرفا في شهوده وان لم تعدم في الخارج •

(أقول) قد زلت أقدام أقوام في معنى هذا الحديث واستشكل كيف يكون الباري جل وعلا سمع العبد وبصره •

(والجواب) على ماذكره العسقلاني في شرحه من أوجه : (أحدها) أنه ورد على سبيل التمثيل والمعنى كنت سمعه وبصره في ايثاره أمري ، فهو يحب طاعتي ويؤثر خدمتي كما يحب هذه الجوارح •

(ثانيها) أن المعنى كليته مشغولة بي فلا يصغي بسمعه الا الى مايرضيني ولا يرى ببصره الا ماأمرته به

(ثالثها) اجعل له مقاصده كأنه ينالها بسمعه وبصره الخ •

(رابعها) كنت له في النصرة كسمعه وبصره ويده ورجله في المعاونة على عدوه •

(خامسها) قال الفاكهاني وسبقه الى معناه ابن هبيرة هو فيما يظهر لي أنه على حذف مضاف والتقدير كنت حافظ سمعه الذي يسمع به فلا يسمع الا مايحل استماعه وحافظ بصره كذلك الخ •

(سادسها) قال الفاكهاني يحتمل معنى آخر أدق من الذي قبله وهو أن يكون معنى سمعه مسموعه ، لأن المصدر قد جاء بمعنى المفعول مثل فلان أملي بمعنى

مأمولي ، والمعنى : أنه لايسمع الا ذكري ، ولا يلتذ الا بتلاوة كلامي ، ولا يأنس الا بمناجاتي ، ولا ينظر الا لعجائب ملكوتي ، ولا يمد يده الا فيما فيه رضاي ، ورجله كذلك ، انتهى • وقد ذكرت هذه المسألة في موضع آخر •

(والمقصود) أن الغلاة يعتقدون أن الولي يعلم كما يعلم الله ، ويبصر كما يبصر الله ، ويسمع كما يسمع الله ، فكيف بالنبي صلى الله عليه وسلم وهو سيد الاولياء والاصفياء ، فلا بد أنهم يعتقدون فوق اعتقادهم في الولي ، فاذا كان الامر على ماذكر فلا وجه لما كتبه الى النبي صلى الله عليه وسلم ، وان كان السبكي لايعتقد ذلك الذي ذكرناه من الصفات التي لاتثبت الا للخالق دون المخلوق فما وجه كتابة تلك المقالة ونظم القصيدة وارسالهما مع الشيخ نور الدين السخاوي ؟ فعلى كلا الوجهين أن السبكي قد أخطأ فيما فعله وأبان به جهله وغيه وضلاله •

هذا حال السبكي الذي أعده النبهاني المسكين سلاحا في ميدان الطعن بشيخ الاسلام وجرحه ، والحمد لله الذي جعل أعداء أهل الحق في كل عصر وزمان من أجهل الناس وأضلهم وأغواهم ، ومن العجائب أن السبكي ــ مع هذه الاحوال التي سمعتها ــ قد جعله ابن حجر المكي من المجتهدين الاجتهاد المطلق ، وأنه مما لم يخالف أحد في وصوله الى هذه المرتبة ، وأنه امام أهل التحقيق والتدقيق ، وأنه ليس له نظير ولا قرين في كل فن ، الى غير ذلك من الاوصاف الجليلة ، فاذا جرى ذكر تقي الدين ابن تيمية وأصحابه من أهل الحديث الحفاظ المتقنين شتمهم بكل ماخطر له ، وذمهم بكل مايقع في تصوره ، فانظر الى هذا التعصب وعدم الانصاف ، وهذا أحد الاسباب التي أوجبت انحطاط الاسلام الى مانرى ، وأعظمها تطاول السفهاء واناطة الامر الى غير أهله ، وعنده يترقب الخراب العام •

وابن السبكي الذي جرى مجرى أبيه لم يدع منقبة من مناقب الاولين والاخرين الا وأثبتها لوالده ظنا منه أن الحقائق تخفي ، وما درى هذا المسكين أن الامر كما قيل :

ومهما تكن عند امريء من خليقة ‏ ‏ ‏ ‏ وان خالها تخفي على الناس تعلم

وفي المثل السائر كل فتاة بابيها معجبة •

والمقصود : أن قدح مثل السبكي بمثل الشيخ ابن تيمية كصرير باب ، وطنين ذباب ، ولولا التقى لقلنا لايضر السحاب نبح الكلاب •

(قال النبهاني) ومنهم الحافظ ابن حجر العسقلاني ، وذكر من فضله وغزارة علمه ماهو غني عن البيان ، ونقل عنه عبارة ذكرها في فتح الباري عند الكلام على حديث لاتشد الرحال الخ ، وهي قوله في مسألة تحريم شد الرحل والسفر الى زيارة القبور : وهي من أبشع المسائل المنقولة عن ابن تيمية الخ ، ثم نقل عنه ماقاله في تقريظه على كتاب (الرد الوافر) مما ليس فيه مطعن ولا مغمز لثالب .

(جوابه) أن الحافظ ابن حجر العسقلاني موالاته ومحبته للشيخ ابن تيمية مما لاينكره الا جاهل ، وقد تلقى العلم عن تلامذة الشيخ وأصحابه وانتفع بكتبه وقرأ كثيرا منها درسا ، وهذا هو اللائق به وبأمثاله من أهل الفضل والعلم ، وقد قيل : انما يعرف ذا الفضل ذووه . والعبارة التي نقلها النبهاني عنه وهي قوله عن منعه من سفر الزيارة : وهي من أبشع المسائل المنقولة عن ابن تيمية الخ أي طعن فيها وقدح في عدالة ابن تيمية ؟ ومن المعلوم ما كان من الردود على كل من الأئمة ، ولم يخل ذلك بشرفهم ولا خفض من منزلتهم ، وقد قال غير واحد من أهل العلم : ان مسألة التزوج بالبنت من الزنا من أبشع المسائل المنقولة عن الشافعي ، وأن مسألة تزوج المغربي بالمشرقي أو بالعكس ثم ولدت الزوجة ولدا يلحق بالاب وان لم يجتمع الزوجان قط من أبشع المسائل المنقولة عن أبي حنيفة ، وان جواز التيمم بالثلج من أبشع المسائل المنقولة عن الامام مالك ، وهكذا الى مالا يسعه المقام ، وأي امام من الأئمة لم ينسب اليه أقوال شاذة ؟! هذا اذا قلنا أن مسألة المنع من سفر الزيارة من الشواذ مع أن الامر ليس كما ذكروا ، كيف والادلة القطعية قائمة على ماقاله ؟ وقد سبقه اليه الأئمة المقتدى بهم وقد سبق بيان ذلك مفصلا فيما نقلناه عن الشيخ من الكتابين ، وما نقله النبهانيم ن كلام الحافظ العسقلاني على (الرد الوافر) هو رد عليه ، لأنه ليس فيه إلا الثناء والمدح ، وتبرئته عما يوجب اللوم والقدح ، ولم ينقل العبارة بعينها لأن ذلك مناقض لغرضه الفاسد ، ومخالف لما يرومه من التلبيس والتدليس قاتله الله ماأجهله ، وهانحن ننقلها بنصها ليتبين ماذكرناه أنه كان من أخلص الناس مودة لشيخ الاسلام :

قال العلامة المحدث السيد صفي الدين الحنفي البخاري نزيل نابلس عليه الرحمه في كتابه (القول الجلي ّ في ترجمة الشيخ تقي الدين بن تيمية الحنبلي) صورة تقريظ للامام الحافظ في عصره بل حافظ الدنيا العلامة شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني قدس اللهسره على الرد الوافر) لابن ناصر

الدين الدمشقي الشافعي رحمه الله تعالى ولفظه :

(بسم الله الرحمن الرحيم) الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى ، وقفت على هذا التأليف النافع ، والمجموع الذي هو للمقاصد التي جمع لها جامع ، فتحققت سعة اطلاع الامام الذي صنفه ، وتضلعه من العلوم النافعة بما عظمه بين العلماء وشرفه ، وشهرة امامة الشيخ تقي الدين ابن تيمية أشهر من الشمس ، وتلقيبه بشيخ الاسلام باق الى الآن على الالسنة الزكية ويستمر غدا كما كان بالامس ، ولا ينكر ذلك الا من جهل مقداره وتجنب الانصاف ، فما أكثر غلط من تعاطى ذلك وأكثر عثاره ، فالله تعالى هو المسئول أن يقينا شرور نفوسنا ، وحصائد ألسنتنا بمنه وفضله .

ولو لم يكن من فضل هذا الرجل الا مانبه عليه الحافظ الشهير علم الدين البرزالي في تاريخه أنه لم يوجد في الاسلام من اجتمع في جنازته لما مات مااجتمع في جنازة الشيخ تقي الدين لكفى ، وأشار الى أن جنازة الامام أحمد كانت حافلة جدا شهدها مؤون ألوف لكن لو كان بدمشق من الخلائق نظير ما كان ببغداد بل أضعاف ذلك لما تأخر أحد منهم من شهود جنازته ، وأيضا فجميع من كان ببغداد الا الاقل كانوا يعتقدون امامة الامام أحمد ، وكان أمير بغداد وخليفة الوقت اذ ذاك في غاية المحبة له والتعظيم ، بخلاف ابن تيمية ، وكان أمير البلد حين مات غائبا ، وكان أكثر من في البلد من الفقهاء قد تعصبوا عليه حتى مات محبوسا بالقلعة ، ومع هذا فلم يتخلف منهم عن حضور جنازته والترحم والتأسف عليه إلا ثلاثة أنفس تأخروا خشية على أنفسهم من العامة ، ومع حضور هذا الجمع العظيم فلم يكن لذلك باعث إلا اعتقاد امامته وبركته لابجمع سلطان ولا غيره ، وقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال أنتم شهداء الله في الارض ، ولقد قام على الشيخ تقي الدين جماعة من العلماء مرارا بسبب أشياء أنكروها عليه من الاصول والفروع ، وعقدت له بسبب ذلك عدة مجالس بالقاهرة ودمشق ، ولا يعلم عن أحد منهم أنه أفتى بزندقته ، ولا حكم بسفك دمه ، مع شدة المتعصب عليه حينئذ من أهل الدولة حتى حبس بالقاهرة، ثم بالاسكندرية ، ومع ذلك فكلهم يعترف بسعة علمه وزهده ووصفه بالسخاء والشجاعة وغير ذلك من قيامه في نصرة الاسلام ، والدعاء الى الله تعالى في السر والعلانية ، فكيف لاينكر على من أطلق أنه كافر بل من أطلق على من سماه شيخ الاسلام الكفر ، وليس في تسميته بذلك مايقتضي ذلك فانه شيخ مشايخ الاسلام في

عصره بلا ريب ، والمسائل التي أنكرت عليه ما كان يقولها بالتشهى ، ولا يصر على القول بها بعد قيام الدليل عليه عنادا ، وهذه تصانيفه طافحة بالرد على من يقول بالتجسيم والتبري منه ، ومع ذلك فهو بشر يخطيء ويصيب ، فالذي أصاب فيه ــ وهو الاكثر ــ يستفاد منه ويترحم عليه بسببه ، والذي أخطأ فيه لايقلد فيه بل هو معذور ، لأن علماء الشريعة شهدوا له بأن أدوات الاجتهاد اجتمعت فيه ، حتى كان أشد المتعصبين عليه العاملين في ايصال الشر اليه ــ وهو الشيخ كمال الدين الزملكاني ــ شهد له بذلك ، وكذلك الشيخ صدر الدين بن الوكيل الذي لم يثبت لمناظرته غيره ، ومن أعجب العجب أن هذا الرجل كان من أعظم الناس قياما على أهل البدع من الروافض والحلولية والاتحادية ، وتصانيفه في ذلك كثيرة شهيرة ، وفتاويه فيهم لاتدخل تحت الحصر ، فياقرة أعينهم اذا سمعوا تكفيره ، وياسرورهم اذا رأوا من يكفره من أهل العلم ، فالواجب على من تلبس بالعلم وكان له عقل أن يتأمل كلام الرجل من تصانيفه المشهورة ، أو من ألسنة من يوثق به من أهل النقل ، فيفرد من ذلك ماينكر ، فليحذر منه على قصد النصح ، ويثني عليه بفضائله فيما أصاب من ذلك كدأب غيره من العلماء الانجاب .

ولو لم يكن للشيخ تقي الدين من المناقب الا تلميذه الشهير الشيخ شمس الدين بن قيم الجوزية ، صاحب التصانيف النافعة السارة ، التي انتفع بها الموافق والمخالف : لكان غاية في الدلالة على عظم منزلته ، فكيف وقد شهد له بالتقدم في العلوم والتميز في المنطوق والمفهوم أئمة عصره من الشافعية وغيرهم فضلا عن الحنابلة ، فالذي يطلق عليه مع هذه الاشياء الكفر أو على من سماه شيخ الاسلام لايلتفت اليه ولا يعول في هذا المقام عليه ، بل يجب ردعه عن ذاك الى أن يراجع الحق ويذعن للصواب ، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل وحسبنا الله ونعم الوكيل .

قال : وكتبه أحمد بن علي بن محمد بن حجر الشافعي عفا الله عنه ، وذلك في اليوم التاسع من شهر ربيع الاول عام خمسة وثلاثين وثمانمائة حامداً لله ومصليا على محمد ومسلما ، هذا آخر كلامه .

(فانظر أيها المنصف الى كلام هذا الامام) في الذب عن شيخ الاسلام هل تراه منتصرا له أم طاعنا عليه ، وهل تجده مادحا له أم موجها سهام الذم بين يديه ؟ وانظر الى تحريف النبهاني الذي سبق به تحريف أسلافه اليهود ، فقد نقل منه ماظن بزعمه أنه ينفعه ، وترك ماهو شجي في فمه ، كل ذلك لأجل ترويج ضلاله وهواه وباطله ،

فبالله عليك أيها الواقف على مثل هذه الاحوال هل يليق أن يولي هذا الرجل الحكم على أموال الناس وأعراضهم ودمائهم ، وهو يخون ــ جهلا واتباعا لهواه ــ هــذه الخيانة التي لم تخف على أحد من طلبة العلم فضلا عن أكابر العلمــاء ، ومحققــي الفضلاء ؟! فياخسارة لمن تولى الحكم عليه هذا الغبي الجاهل ، وعبث كما أداه اليه هواه في المحافل .

(قال النبهاني) ومنهم السيد صفي الدين الحنفي البخاري نزيــل نابلس ألف كتابا مستقلا سماه (القول الجلي ، في ترجمة الشيخ تقي الدين بن تيميــة الحنبلي) ذكر فيه مناقبه وكلام العلماء في الثناء عليه ، الى أن قال : قال صفي الدين في كتابه المذكور : قد نص على أنه أي ابن تيمية بلغ رتبة الاجتهاد جمع من العلماء ولم يتفرد بمسألة منكرة قط ، وان كان قد خالف الائمة الاربعة في مسائل فقد وافق فيها بعض الصحابة أو التابعين ، ومن أشنع ما وقع له مسألة تحريم السفر الى زيارة القبور ، وقد قال به قبله أبو عبد الله بن بطة الحنبلي في الابانة الصغرى ، ثم قال صفي الدين في موضع آخر من كتابه : فان قلت مانقلته في هذا الجزء يدل على براءة الشيخ مما نسب اليه ، فما بال عليّ القاري والتقي الحصني وابن حجر الهيتمي وغيرهم ينسبونه الى أمور فظيعة قلت : اعلم ــ وفقك الله تعالى ــ أن ابن تيمية رحمه الله تعالى كان رجلا مشهورا بالعلم والفضل وحفظ السنة ، وكان مبالغا في مذهب الاثبات ، وكــان يكره التأويل أشد الكراهة ، وكان يرد على الصوفية ماذكروه في كتبهم من وحــدة الوجود وما شاكلها على عادة أهل الحديث والفقهاء والمتكلمين ، فردعلى الشيخ محيي الدين ابن العربي ، والشيخ عمر بن الفارض ، وعبد الحي بن سبعين وأضرابهــم ، وكان قد خالف الأئمة الاربعة في بعض الفروع كمسألة الزيارة والطلاق ، وكــان يناظر عليهما فقام عليه ناس وحسدوه وأبغضوه وأشاعوا عنه مالم يقله من التشبيه والتجسيم وغير ذلك ، فدخل ذلك على بعض أهل العلم من الحنفية والشافعية وغيرهم ولم يطلبوا تحقيق ذلك من كتبه المشهورة ، واعتمدوا على السماع فوقع منهم ماقد وقع ، وقد وقع مثل هذا لغير واحد من أهل العلم والفضل .

ثم قال : وقد أنكروا على الشيخ أشياء لابأس بذكر الجواب عنها والاعتذار ، فأقول : قالوا يقول بحرمة السفر الى زيارة القبور ، وقد خالف في ذلك الاجماع ، قال صفي الدين : قلت وهو مخطيء في ذلك أشد الخطأ ، ولكن لايلزم من القــول به التفسيق فضلا عن التكفير ، لانه صدر ذلك عن شبهة ولو كان ذلك الدليل خطأ

عندنا ، انتهى كلام صفي الدين البخاري ومثله العلماء الذين أثنوا على ابن تيمية ذكروا خطأه الفاحش في مسائله التي خالف فيها الاجماع انتهى كلام النبهاني .

(والجواب) أن كلام النبهاني هذا على نمط ما قبله ، فان السيد صفي الدين الحنفي عليه الرحمة ألف كتابه (القول الجلي ، في ترجمة الشيخ تقي الدين ابن تيمية الحنبلي) وذكر فيه أقوال أساطين العلماء الذين أثنوا عليه ، وذب عنه وأجاب عما نسب اليه من الاختيارات بمالا مزيد عليه ، وقال في خطبة كتابه : (وبعد) فهذا جزء لطيف في ترجمة شيخ الاسلام ، وبركة الانام ، علم الزهاد ، وأوحد العباد ، سيد الحفاظ ، وفارس المعاني والالفاظ ، تقي الدين أبي العباس ، وذكر نسبه الى أن قال ابن تيمية الحراني نزيل دمشق رحمه الله ، لخصته مما اجتمع عندي من كلام الفقهاء والمحدثين ، رجاء للثواب ونفعا للاحباب .

(فانظر أيها المنصف) كيف ساغ للنبهاني الجهول أن يذكر السيد صفي الدين هذا من جملة من رد على الشيخ ابن تيمية وينقل عنه مايهدم بنيانه ؟ وهل ذلك إلا من جملة أحكام منصبه التي يحكم بها بغير ماأنزل الله ؟ قاتله الله تعالى ماأشغفه بالباطل واتباع الهوى ! والعبارة التي نقلها محرفة غير منقولة بتمامها ، وكتاب السيد صفي الدين بين الايدي فلا تتعب البنان بنقل كلامه في هذا المقام ، وقد أسلفنا مرارا أن رد بعض العلماء على بعض لايستوجب القدح على من رد عليه ولا تبديعه ولا تفسيقه بوجه ، هذا فخر الدين الرازي قد حشى تفسيره من الرد على الامام أبي حنيفه رحمه الله ، وملأه من الهذيان عليه فأيّ قدح لحق بالامام أبا حنيفة من ذلك ؟ واعترض بعض علماء المالكية على الامام الشافعي بما لامزيد عليه فأيّ نقص لحقه منه ؟ وهكذا مما لايسع المقام بيانه ، هذا لو سلمنا أن السيد صفي الدين قد رد على الشيخ ، فكيف والامر بخلاف ذلك ؟ .

(قال النبهاني) ومنهم الحافظ عماد الدين بن كثير الشافعي ، ثم نقل من كتاب السيد صفي الدين ماذكره من عبارته المشتملة على الثناء على الحافظ ابن القيم ، الى أن قال : نعم أوذي بسبب قوله بقول الشيخ ابن تيمية في مسألة الطلاق ، ومع أنه خالف الائمة الاربعة في ذلك فلم ينفرد به كما هو مبين في موضعه ، وهو وان كان خطأ فاحشا فلا يوجب التفسيق انتهى .

(والجواب) ماحكيناه سابقا ، فان مانقله من الكلام هو أيضا على نسق ماقبله، فان النبهاني ينقل ماذكره السيد صفي الدين من أقوال العلماء الذابة عن الشيخ

فيعكس النبهاني القضية ويجعل تلك الاقوال رادة عليه ، ثم ذكر كلام البلقيني والامام السيوطي والكزبري والشيخ علي القاري والخفاجي وابن اسحق المالكي والزرقاني والصفدي والمناوي في الرد على الشيخ بزعمه ، مع أن غالب من ذكر كانوا من المثنين عليه والموالين له ، وكلامهم الذي نقله عنهم يشهد لما قلناه ، ولو سلم أن في كلام بعضهم غض على الشيخ استوجبه التعصب والتقليد للاشياخ وعدم الانصاف فلا تتعب البنان بنقل عباراتهم والكلام عليها •

(قال النبهاني) ومنهم صاحبنا العالم العامل الفاضل الكامل الشيخ مصطفى بن أحمد الشطي الحنبلي الدمشقي ، قال : ألف حفظه الله رسالة مخصوصة سماها (النقول الشرعية ، في الرد على الوهابية) وختمها بخاتمة في تأييد مذهب سادتنا الصوفية ، وطبعها ونشرها ، فمما قاله في المقالة الاولى منها ــ التي تكلم فيها على الاجتهاد ــ لاشك أن من ادعى ذلك في هذا الزمان عليه امارة البهتان ، كما يقع دعوى ذلك من فرقة شاذة نسبت نفسها للحنابلة ، الى أن قال : وقد ينكرون دعوى الاجتهاد ويحتجون بعبارة شيخ الاسلام ابن تيمية فقط مع أن الامام المذكور قد خرج من مذهب الحنبلي في عدة مسائل تفرد بها وتهيأ بخصوصها للاجتهاد المطلق ، الا أنها لم تدون على كونها مذهبا له كما دونت فروع مسائل المذاهب الاربعة •

ثم ذكر بعض تلك المسائل الى أن قال : وذكر في المقالة الرابعة من هذه الرسالة جواز التوسل والاستغاثة والاستشفاع بالانبياء والاولياء والصالحين حال حياتهم وبعد مماتهم ، وأقام الدليل على ذلك من الكتاب والسنة الى آخر قوله •

(والجواب) أن النبهاني كالغريق يتشبث بالحشيش حيث استدل بكل قول سمعه ووافق هواه ، ولو كان صادرا من الاطفال والصبيان ، وقصده أن يعظم حجم كتابه ليهول به على أمثاله من الجهلة ، ومن الشيخ مصطفى هذا الذي ذكره حتى يحتج بقوله في باب الجرح والتعديل ؟! أيظن أنه بسبب انتمائه الى مذاهب الحنابلة يؤخذ بقوله ويوثق بنقله ؟ فهل يلزم أن من ينتمي الى الشافعي كلهم كالسبكي وابن حجر المكي ونحوهما من الغلاة ؟ لا والله ، بل فيهم أئمة هادون مهديون ، وأفاضل منصفون ، وهكذا أصحاب كل مذهب والناس معادن •

وما كل مخضوب البنان بثينة ولا كل مصقول الحديد يماني

هذا مع أن مانقله عن صاحبه فلا حجة فيه لما هو بصدده ، أما مسألة انقطاع

الاجتهاد التي ذكرها فقد تكلمنا عليها أول الكتاب بما لامزيد عليه ، وأما مانقله عن شيخ الاسلام فهو حق وقد شهد له بالاجتهاد المطلق أكابر العلماء ، وأما قوله بالاستغاثة والتوسل فقد مر الكلام على بطلانها مفصلا ، وأما ثناؤه على الصوفية فلم يبين الثناء منه كان على أي قسم منهم ، فأما من كان منهم على منهج الجنيد وأضرابه فهم أهل للثناء ، وأما من كان يقول منهم بوحدة الوجود ويتكلم بما يصادم الشريعة فمدحهم والثناء عليهم مما يأباه العلماء الربانيون ، فما نقله عن صاحبه لايفيده فيما هو بصدده من ذكر كلام الرادين على شيخ الاسلام ، وقد ذكرنا أنه ليس في كلامه مايرد عليه ، وكتاب النقول الشرعية قد رد عليه علماء أهل السنة فلا نناقشه على ماذكر من السقط .

(قال النبهاني) ومنهم الامام شهاب الدين أحمد بن حجر الهيتمي المكي ، وهو أشدهم ردا على ابن تيمية محاماة عن الدين ، وشفقة على المسلمين ، من أن يسري اليهم شيء من غلطاته الفاحشة ، ولاسيما فيما يتعلق بسيد المرسلين صلى اللهعليهوعلى آله وصحبه أجمعين ، ومن نظر بعين الانصاف شهد لهذا الامام ابن حجر بالولاية ، وأنه ربما يكون قد أطلعه الله على ماسيحصل في المستقبل من الاضرار العظيمة التي ترتبت على أقوال ابن تيمية ، من فرقته الوهابية ، التي هو أصل اعتقادها ، وأساس فسادها ، ولا يخفي ماحصل منها من الاضرار العظيمة في حق المسلمين والاسلام ، ولا سيما في الحرمين الشريفين وجزيرة العرب ، فمن المحتمل احتمالا قريبا أن يكون الحق سبحانه وتعالى قد اطلع الامام ابن حجر على ذلك على سبيل الكرامة ، وهو أهل لذلك ، فانه رضي الله عنه كان من أكابر العلماء العاملين ، والائمة الهادين المهديين ، وهذا علمه وكتبه النافعة التي خدم بها الامة المحمدية خدمة لم يشاركه فيها سواه من عصره الى الآن قد ملأت الدنيا ، وانتفع بها الخاص والعام في جميع بلاد الاسلام ، ومن كان كذلك لايستبعد عليه أن يكون الله تعالى قد أكرمه باطلاعه على بعض المغيبات ، ومنها ماحدث من فرقة الوهابية اتباع ابن تيمية من المضار العظيمة على الشريعة المحمدية ، والملة الاسلامية ، ولذلك كانرضي الله عنه أشدأئمة المسلمين انكارا لبدع ابن تيمية وردا عليه بأشد العبارات شفقة على المسلمين ، ومحاماة عن هذا الدين المبين ، وله في ذلك عبارات كثيرة في كتبه ولا سيما في الفتاوى الحديثية ولم أر حاجة الى نقلها هنا فمن شاءها فليراجعها .

(أقول) انا قد أسلفنا عن النبهاني هذا المفتري على الله ورسوله صلى الله

عليه وسلم أنه قد اتصف بصفات الخزي والسوء وعدم الادب والحياء من الله ومن الناس فلا يستحي من كذب ولا يبالي بخزي ، وأما مساويه فهي كما قال القائل :

مساو لو قسمن على الغواني لما أمهرن الا بالطلاق

وهو — والامر لله تعالى — لايدري ولا يدري أنه لايدري ، فلا ينجع فيه كلام ولا يؤثر فيه سهام الملام ، بل هو كما قال المتنبي :

من يهن يسهل الهوان عليه مالجرح بميت إيلام

ولم يزل يبدي ويعيد بباطله ، ويكرر كلامه مرة بعد أخرى ، وينقل المسائل التي قد تكرر الرد عليها من العلماء الاعلام ، ومزقوها بسهام الملام ، ولم يؤثر فيه كل ذلك حتى كأنه لم يسمع بما قيل فيها وطعن عليها ، بل يعتقدها وحيا منزلا من الله عز وجل ، فهو ممن قال الله تعالى فيه : (ثُمَّ قَسَتْ قُلوبُكُم من بَعْدِ ذلكَ فَهِيَ كالحِجارَةِ أوْ أشَدُّ قَسْوَةً وإنَّ مِنَ الحِجارَةِ لَما يتفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهارُ وإِنَّ منها لَما يشَّقَّقُ فَيخْرُجُ مِنْهُ الماءُ وإنَّ منها لَما يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ)[1] .

وقد ذكر في هذا الكلام كلاما لابن حجر المكي عامله الله بعدله في قدح ابن تيمية وسبه وشتمه ، وقال : انه كان أشدهم ردا عليه ، والاحرى به أن يقول انه كان أشد الناس عداوة للذين آمنوا ، فانه قد ملأ كتبه بشتم عباد الله الصالحين ، أهل الحديث النبوي وخدام السنة المطهرة والشريعة الغراء ، وقد انتدب للرد عليه بعض أهل العلم من عصرنا وقبله وبينوا سقطاته وغلطاته ، وكذبه وافترائه ، وخياناته في النقل ، وتحريفه للكلم عن مواضعه ، وغير ذلك من الامور التي لايقدم عليها من يؤمن بالله واليوم الآخر ، ومزقوا بسهام أقلامهم جميع ماحاكه من نسج الاباطيل وزخرف الاقاويل بما لامزيد عليه ، كما قد ردوا على أسلافه الغلاة بمثل ذلك ، وكتبهم مشهورة متداولة بين الايدي ، وفيها الكفاية لمن أخذت الهداية بيديه ، ومن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

(وحيث أن النبهاني) ميت القلب بليد الطبع جامد القريحة ، يرى كلام متبوعيه وأسلافه كالشريعة المنزلة والدين المتبع ، ولا شك أنذلك مما كان عليه أهل الجاهلية، ففي شرح مسائل الجاهلية التي أبطلها الاسلام للعلامة أبي عبد الله الشيخ محمد قوله : ومنها الاقتداء بفسقة أهل العلم وجهالهم وعبادهم وقد حذرهم الله تعالى من

---

(١) البقرة : ٧٤

ذلك بقوله : (يا أَيُّها الَّذينَ آمنوا إنَّ كثيراً من الأَحبار والرُّهبانِ ليأْكُلونَ أَموالَ النَّاسِ بالباطل ويصدُّونَ عن سبيلِ اللهِ)[1] وقال تعالى : (قلْ يا أَهلَ الكتاب لا تغلوا في دينكم غيرَ الحقِّ ولا تتَّبعوا أَهواء قومٍ قد ضلُّوا مِنْ قَبلُ وأَضلُّوا كثيراً وضلُّوا عنْ سواءِ السبيلِ)[2] الى آيات أخر تنادي ببطلان الاقتداء بالفسقة وأهل الضلالة والغي ، وذلك من سنن أهل الجاهلية ، وطرائقهم المعوجة الردية .

قال : ومنها الاحتجاج بما كان عليه القرون السالفة من غير تحكيم العقل والاخذ بالدليل الصحيح ، وقد أبطل الله ذلك بقوله : (قالَ فمَنْ ربُّكما يا موسى. قال ربُّنا الَّذي أَعطى كُل شيءٍ خَلقَهُ ثُمَّ هَدى . قال فما بالُ القُرونِ الأُولى . قال عِلمُها عنْدَ ربيِّ في كتاب لا يضلُّ ربيِّ ولا ينسَى . الَّذي جعَلَ لكُمُ الأَرضَ مَهْداً وسلكَ لكمُ فيها سُبُلاً وأَنزلَ منَ السماءِ ماءً فأَخرجنا بهِ أَزواجاً منْ نباتٍ شتَّى كلوا وارعَوا أَنعامَكمُ)[3] الآية. وقال تعالى : (فلمَّا جاءهمْ موسى بآياتنا بيِّناتٍ قالوا ما هذا إلاَّ سِحرٌ مُفترى ، وما سَمعْنا بِهذا في آبائنا الأَوَّلينَ . وقال موسى ربيِّ أَعلَمُ بمنْ جاء بالهُدى مِنْ عنده ومَنْ تكونُ لهُ عاقبةُ الدّارِ إنهُ لا يُفلِحُ الظَّالمونَ)[4] وقال عز ذكره : (ولقدْ أَرسلنا نُوحاً الى قومِهِ فقال يا قوْمِ اعبدوا اللهَ ما لكمُ مِن إلهٍ غيرُه أَفلا تتَّقونَ . فقال الملأُ الَّذينَ كفروا من قَومه ماهذا إلاَّ بشَرٌ مثلكمُ يُريدُ أَنْ يتفضَّلَ عَليكمُ ولَو شاء اللهُ لأَنزلَ ملائكةً ما سَمعْنا بِهذا في آبائنا الأَولين. إن هوَ إلاَّ رجلٌ بهِ جِنَّةٌ فتربَّصوا بهِ حتَّى حينٍ)[5] وفي آية أخرى : (وانطَلقَ الملأُ

(١) التوبة : ٣٤ (٢) المائدة : ٧٧ (٣) طه : ٤٩ ـ ٥٤ (٤) القصص : ٣٦ ، ٣٧ (٥) المؤمنون : ٢٣ـ٢٥

منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إنَّ هذا لشيءٌ يُرادُ ما سمعنا بهذا في الملَّة الآخرة انْ هذا الاَّ اختلاقٌ)[1] .

فجعلوا مدار احتجاجهم على عدم قبول ماجاءت به الرسل انه لم يكن عليه أسلافهم ولا عرفوه منهم ، فانظر الى سوء مداركهم وجمود قرائحهم ، ولو كانت لهم أعين يبصرون بها وآذان يسمعون بها لعرفوا الحق بدليله ، وانقادوا لليقين من غير تعليله ، وهكذا اخلافهم ووراثهم قد تشابهت قلوبهم أهـ .

(والنبهاني) من هؤلاء القوم الذين تكلم عليهم في شرح المسائل ، وهو مع جهله بكل علم ألف كتابا ذكر فيه مباحث كأنه لم يسمع بردها ، ولا علم بباطلها ، وملأه من الهذيان والزور والبهتان ، فكان ممن قالوا لو كنا نسمع أو نعقل ماكنا في أصحاب السعير .

ومع ذلك فنحن نتكلم على مانقله هنا عن ابن حجر ، ونجيب عنه بجوابين مجمل ومفصل .

(أما الجواب المجمل) فهو ان مانقل عن ابن حجر لايضر شيخ الاسلام فانه عدو له ومن خصومه الالداء ، كما يدل على ذلك ما كان منه من الشتم والسب واللعن وغير ذلك مما لاينبغي أن يذكر بعضه في حق أعداء الله كاليهود وغيرهم من أعداء الدين ، وذلك خارج عن قوانين المناظرة المقصود منها اظهار الصواب ، والحامل له على ذلك تعصبه للسبكي ، فان كثيرا من الشافعية لهم حظ وافر مما كان عليه أهل الجاهلية من انتصار بعضهم لبعض ولو ظلما ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : (من تعزى بعزاء الجاهلية فاعضوه بهن أبيه ولا تكنوا) .

(وفي شرح المسائل) التي أبطلها الاسلام مانصه : ومن خصال الجاهلية أنهم لايقبلون من الحق الا ماتقول به طائفتهم ، قال تعالى : (واذا قيلَ لهم آمنوا بما أنزلَ اللهُ قالوا نؤمنُ بما أُنزل علينا ويكفُرُون بما وراءَهُ وهو الحقُّ مَصدِّقاً لما معهم قُلْ فلِمَ تقتُلونَ أنبياءَ اللهِ من قبْلُ انْ كُنتم مؤمنينَ)[2] .

---

(١) ص : ٦ ، ٧ (٢) البقرة : ٩١

ومعنى (نؤمن بما أنزل علينا) أي نستمر على الايمان بالتوراة ومافي حكمها مما أنزل في تقرير حكمها ، ومرادهم بضمير المتكلم اما أنبياء بني اسرائيل وهو الظاهر وفيه إيماء الى أن عدم ايمانهم بالقرآن كان بغيا وحسدا على نزوله على من ليس منهم ، وإما أنفسهم ، ومعنى الانزال عليهم : تكليفهم بما في المنزل من الاحكام،وذموا على هذه المقالة لما فيها من التعريض بشأن القرآن ودسائس اليهود مشهورة ، أو لأنهم تأولوا الامر المطلق العام ونزلوه على خاص هو الايمان بما أنزل عليهم ، كما هو ديدنهم في تأويل الكتاب بغير المراد منه .

(ويكفرون بما وراءه وهو الحق) أي هم مقارنون لحقيقته أي عالمون بها (مصدقا لما معهم) لأن كتب الله يصدق بعضها بعضا ، فالتصديق لازم لاينتقل ، وقد قررت مضمون الخبر لانها كالاستدلال عليه ، ولهذا تضمنت رد قولهم : (نؤمن بما أنزل علينا) حيث أن من لم يصدق بما وافق التوراة لم يصدق بها (قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل ان كنتم مؤمنين) أمر للنبي صلى الله عليه وسلم أن يقول ذلك تسكيتا لهم حيث قتلوا الانبياء مع ادعاء الايمان بالتوراة وهي لاتسوغه .

قال : ومنها التعصب للمذهب والاقرار بالحق للتوصل الى دفعه ، قال تعالى : (وقالت طائفةٌ منْ أهلِ الكتابِ آمنوا بالَّذي أُنزلَ على الذين آمنوا وجهَ النَّهارِ واكفروا آخرَهُ لعلَّهم يرجعونَ . ولا تُؤْمنوا الاَّ لمن تبع دينكمْ قُلْ انَّ الهدى هُدى اللهِ أنْ يُؤْتى أحدٌ مِثْلَ ما أُوتيتُم او يُحاجُّوكمْ عند ربِّكمْ قُلْ انَّ الفضْلَ بيدِ اللهِ يُؤْتيهِ مَنْ يشاءُ واللهُ ذو الفضلِ العظيمِ)[1]

قال الحسن والسدي : تواطأ اثنا عشر رجلا من أحبار يهود خيبر وقرى عرينة وقال بعضهم لبعض ادخلوا في دين محمد أول النهار باللسان دون الاعتقاد واكفروا آخر النهار ، وقولوا انا نظرنا في كتبنا وشاورنا علماءنا فوجدنا محمدا ليس بذاك ، وظهر لنا كذبه وبطلان دينه ، فاذا فعلتم ذلك شك أصحابه في دينهم ، وقالوا انهم أهل كتاب وهم أعلم به ، فيرجعون عن دينهم الى دينكم انتهى .

وما كان عليه ابن حجر المكي من الغلو في القبور والقول بأقوال المتصوفة الكاذبة وترويج بدعهم المعلومة أمر لايسعه الانكار ، وكتبه طافحة بمثل هذه

(1) آل عمران : ٧٢ ـ ٧٤

الاكاذيب ، وشيخ الاسلام قد بين أحكام الله تعالى في هذه الفئة الزائغة ، وذكر ما وردت به الشريعة من القول الحق الذي يذعن له كل من يسمعه ويصغي اليه ، وذلك من المسلم حتى لدى خصومه •

فمن جملة ماكتبه أبو الحسن السبكي الى الحافظ الذهبي أحد من أخذ على شيخ الاسلام في حق الشيخ تقي الدين مانصه :

وأما قول سيدي في الشيخ فالمملوك متحقق كبر قدره ، وزخارة بحره ، وتوسعه في العلوم الشرعية والعقلية ، وفرط ذكائه واجتهاده ، وبلوغه في كل من ذلك المبلغ الذي يتجاوز الوصف ، والمملوك يقول ذلك دائما ، وقدره في نفسي أكبر من ذلك وأجل ، مع ماجمع الله له من الورع والزهادة والديانة ، ونصرة الحق والقيام فيه لالغرض سواه ، وجريه على سنن السلف وأخذه من ذاك بالمأخذ الاوفى ، وغرابة مثله في هذا الزمان بل من أزمان ، انتهى •

(والمقصود)أن كل ماعترض به ابن حجر على شيخ الاسلام مردود عليه ، فان منه ماهو افتراء ، ومنه ماهو مؤيد بالحجج والدلائل القطعية ، ومنه مالم ينفرد به بل قال بقوله جمع من المجتهدين ، وان ما كان من تهور ابن حجر ليس من الدين في شيء وانما لمزيد حبه وغيه واتباعه لهواه ، فكلامه الذي نقله الغبي النبهاني وغيره كله مردود عليه •

(وأما الجواب المفصل) فنقول : أما قول ابن حجر فيه ما قال فذلك قول النبهاني هو أشدهم ردا على ابن تيمية محاماة عن الدين وشفقة على المسلمين الخ •• فقد صدق في جملة من هاتين الجملتين وكذب في الاخرى ، أما ماصدق فيها فقوله عن ابن حجر أنه أشد الناس ردا عليه والامر كما قال ، والسبب في ذلك ماذكرناه سابقا من الحب للبدع والكراهة للسنن النبوية ، فان من نظر الى كتب الشيخ ابن تيمية وجدها دينا خالصا ، وكلاما أشبه شيء بالذهب المصفى ، وعلم منها حرصه رحمه الله على السنة والمحاماة للشريعة ، والحط على أعداء الدين وخصماء السنة ، ومزيد حبه للرسول صلى الله عليه وسلم ، ومن راجع بعض فصول كتابه (الصارم المسلول) تبين له ماقلناه •

كل ذلك بخلاف ما كان عليه ابن حجر ، فتراه في كثير من كتبه يروج البدع ويدافع عنها ، ويذب عن أهلها ، ويخاصم اتباع السنن ، ويعادي أهل الحديث أشد

العداوة ، وينسب اليهم كل ماخطر على باله وجرى على لسان قلمه من الافك والزور والبهتان ، انظر الى ماذكره في فتاواه الحديثية بل البدعية تجدها مشحونة من العدوان على ابن تيمية ، وقبل أن تنشر كتب شيخ الاسلام تقي الدين ربما كان يظن من يظن أنه صادق في منقوله ، فلما انتشرت وتداولتها الايدي تبين لكل ذي عينين أن ابن حجر كذب وافترى ولم يتوثق به أحد بعد ذلك ، وسقط من درجة الاعتبار بالكلية الا لدى من أعمى الله عين بصيرته من الاغبياء .

وبذلك يظهر كذب النبهاني في الجملة الاخرى ، وهي أن انكاره كان شفقة على الدين الخ ، بل لو أنصف لقال : ان انكاره كان من بغضه للدين ، فانه شوق الناس على البدع والاهواء ، وحذرهم من كتب السنة ومحبة أهلها والمحامين لها ، ولذلك ترى من اغتر بأقواله الكاسدة في ظلمات من الجهل والغي والعمى ، لاينجع فيهم كلام ولا تمضي فيهم سهام الملام .

وأما من طالع كتب السنة ـ ولا سيما كتب شيخ الاسلام ـ تراه قد انكشفت عن بصيرته غشاوة التعصب واتبع مااقتضاه الدليل ، وهكذا الفرق بين المبتدع والسني ، ترى المبتدعة يصرفون النصوص والدلائل الى ماتهواه أنفسهم ، وأهل السنة يذهبون الى مايقوده اليهم الدليل ، ويتركون له ماتهواه أنفسهم ، وهذا بحمد الله بين .

وأما قوله : ومن نظر بعين الانصاف شهد لهذا الامام ابن حجر بالولاية ، وأنه ربما يكون قد أطلعه الله على ماسيحصل في المستقبل من الاضرار العظيمة فجوابه من وجوه :

(أما أولا) فيقال : ان الولاية والكرامة انما تكون لصلحاء الامة ، أهل التقوى والورع والكرامة ، لاتكون لمثل ابن حجر من الكذابين المفترين المتناقضين في أقوالهم المضطربين في دينهم ، وما أحسن مافي كتاب أنباء الأبناء بأحسن الانباء : يابني من رأيتموه يطير في الهواء أو يمشي على وجه الماء ـ وقد خالف شيئا من الشريعة الغراء ـ فذاك من أولياء الشيطان ، لا من أولياء الرحمن ، فاياكم واياه ، واشتغلوا عنه بتقوى الله ، وقال شيخ الاسلام في كتابه (الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان) ومن حين بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم جعله الفارق بين أولياء الله وأعدائه ، فلا يكون ولي الله الا من آمن به واتبعه ظاهرا وباطنا ، ومن ادعى محبة الله وولايته وهو لم يتبعه فليس من أولياء الله ، بل من خالفه كان من أعداء

الله وأولياء الشيطان قال تعالى : (قُلْ إِنْ كُنتُم تُحبُّونَ اللهَ فاتَّبعوني يُحبِبْكُمُ اللهُ)[1]
قال الحسن البصري : ادعى قوم انهم يحبون الله فأنزل الله هذه الآية محنة لهم وقد بين الله فيها أن من اتبع الرسول فان الله يحبه ، ومن ادعى محبة الله ولم يتبع الرسول فليس من أولياء الله تعالى ، وان كان كثير من الناس يظنون في أنفسهم أو في غيرهم أنهم من أولياء الله ولا يكونون من أولياء الله فان اليهود والنصارى يدعون أنهم أولياء الله وأنه لايدخل الجنة الا من كان منهم ، بل يدعون أنهم أبناء الله وأحباؤه قال تعالى : قُلْ فلِمَ يُعذِّبُكُم بِذنوبِكُم بَلْ أَنتُم بشرٌ مِّمَّن خلَقَ) الى قوله: (وإليهِ المصيرُ)[2] وقال تعالى : (وقالوا لَنْ يدْخُلَ الجنَّةَ الاَّ مَنْ كان هوداً أو نصارى تلْكَ أَمانيُّهم) الى قوله : (ولا هُم يحزنونَ)[3] وكان مشركوا العرب يدعون أنهم أهل الله لسكناهم مكة ومجاورتهم البيت ، وكانوا يستكبرون به على غيرهم كما قال تعالى : (قدْ كانتْ آياتي تُتْلى عليْكُمْ) الى قوله : (سامراً تَهجرونَ)[4] وقال تعالى : وإِذْ يمكُرُ بكَ الَّذينَ كفَروا ليُثبِتوكَ أَو يقتُلوكَ) الى قوله : (وهُم يصُدُّونَ عنِ المسْجد الحرام وما كانوا أولياءَهُ إنْ أَولياؤُه الاَّ المتَّقونَ ولكنَّ أَكثَرَهُم لا يعْلَمونَ)[5] فبين سبحانه وتعالى أن المشركين ليسوا أولياءه ولا أولياء بيته انما أولياؤه المتقون .

وثبت في الصحيحين عن عمرو بن العاص قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول جهارا غير سر (إن آل أبي فلان ليسوا لي بأولياء انما وليي الله وصالح المؤمنين) وهذا موافق لقوله تعالى وان تظاهرا عليه الى قوله ظهير وصالحوا المؤمنين المتقون أولياء الله ، ودخل في ذلك أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وسائر أهل بيعة الرضوان الذين بايعوا تحت الشجرة وكانوا ألفا وأربعمائة كلهم في الجنة ، كما ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (لايدخل النار أحد بايع تحت الشجرة) ومثل هذا الحديث الآخر : (ان أولى الناس بي المتقون من كانوا وحيث كانوا) كما أن من الكفار من يدعي أنه ولي الله وليس وليا لله بل عدو له، وكذلك من المنافقين الذين يظهرون الاسلام ويقرون في الظاهر بشهادة أن لا اله الا الله وأن

---

(١) آل عمران : ٣١ (٢) المائدة : ١٨ (٣) البقرة : ١١١ ، ١١٢ (٤) المؤمنون : ٦٦ ، ٦٧ (٥) الانفال : ٣٠ - ٣٤

محمدا رسول الله ، وأنه مرسل الى جميع الانس ، بل الى الثقلين الانس والجن ، ويعتقدون في البواطن ماينافض ذلك ، مثل أن لايقروا في الباطن أنه رسول الله ، انما كان ملكا مطاعا ساس الناس برأيه من جنس غيره من الملوك ، أو يقول انه رسول الله الى الاميين دون أهل الكتاب كما يقول كثير من اليهود والنصارى ، أو يقول انه مرسل الى عامة الخلق وأن لله أولياء خاصة لم يرسل اليهم ولا يحتاجون اليه ، أو أن لهم طريقا الى الله من غير جهته كما كان الخضر مع موسى ، أو أنهم يأخذون عن الله كلما يحتاجون اليه وينتفعون به من غير واسطة ، أو أنه مرسل بالشرائع الظاهرة وهم موافقون له فيها ، وأما الحقائق الباطنية فلم يرسل بها ولم يكن يعرفها ، أو هم أعرف منه أو يعرفونها بمثل مايعرفها هو من غير طريقته ، وقد يقول بعض هؤلاء أن أهل الصفة كانوا مستغنين عنه ولم يرسل اليهم الى آخر ماذكره من التفصيل الذي لاتجده في غيره .

ومنه يعلم أن ابن حجر المكي ليس منهم في شيء ، فانه كان ممن يجوز الالتجاء الى غير الله تعالى ، والاستغاثة بالانبياء والصالحين ، والاستعانة بهم والتوسل ، وغير ذلك مما أسلفنا حكمه ، وبينا اختلاف أهل العلم في ايمانه واسلامه ، هذا ماعدا ماذكره في تضاعيف كلامه ولاسيما في كتابه (الجوهر المنظم) وما عدا مااقترف من الاثم في شتم خيار الامة وسبهم ولعنهم والافتراء عليهم فان هذه الامور متى اتصف بها شخص كان حكمه معلوما ، فكيف يجعل من الاولياء ويثبت له كرامات وخوارق؟! نعم انه يليق أن يكون لدى النبهاني من الاولياء ، وان الشياطين بعضهم أولياء بعض .

(وأما ثانيا) فلأن الاضرار التي ادعاها لموافقي ابن تيمية لم يبين ماهي ، ونحن نعلم أن كل مايخالف الكتاب والسنة فوجوده ضرر محض ، ومن وافق ابن تيمية في أقواله انما نهى عن المنكرات التي كانت بين الناس مما لم يكن مثلها في الجاهلية الاولى ، وأمر بالمعروف الذي يحبه الله ورسوله ، كل ذلك معلوم لدى العقلاء ، فلم لم يطلع الله ابن حجر ــ اذا كان وليا وصاحب كرامة ــ على ماحدث في الاسلام من الزيغ والاعوجاج والمنكرات الكثيرة في أخص بلاد الاسلام وأشرفها ، وما صادم الدين المبين من القواعد والاحكام التي يعرفها النبهاني ولا يحتاج الى أن ينبه عليها فانها اختلطت بلحمه وعظمه وعليها مدار معاشه وانتعاشه (أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين)

(وأما ثالثا) فان قوله ان الاضرار التي ترتبت على أقوال ابن تيمية من فرقته الوهابية الخ ليس له محصل ولا حاصل ، فنحن نطالبه ببيان تلك الاضرار التي ادعاها أنها ترتبت على أقوال ابن تيمية ، مع أن أقواله هي عن الكتاب والسنة ، وما يترتب على الكتاب والسنة يترتب على الاقوال المأخوذة عنها ، والله سبحانه هو الذي أمر بجهاد المشركين ومحوهم من الارض أفيقال أن ذلك من المضار وفي الكتاب والسنة من الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ماهو معلوم لدى كل ذي بصر ، أفيقال ان مايترتب على ذلك هو ضرر والكتاب والسنة أوجبا ازالة البدع والاهواءوابطالها وان أضر بأهلها ؟ أفيقال : ان مايترتب على ذلك يعد من الضرر ؟ والكتاب والسنة نهيا عن جميع الكبائر والمحرمات المفصلة في غير هذا الموضع فهل لوحظ مايترتب على ذلك من الضرر على من يتعاطاه ؟ فقول النبهاني هذا ساقط ليس له وجه •

(وأما رابعا) فان الذين أطلق عليهم اسم الوهابية ــ اطلاقا غلطا ــ هم أهل نجد وهم حنابلة من خيار أهل السنة ، وهم من أتباع الامام أحمد في الفروع لا من أتباع ابن تيمية ، وأما في العقائد والاصول فهم ليسوا بمقلدين لأحد فيها ، وهم لم يبتدعوا شيئا في الدين يكونون به فرقة أخرى ، ولم يتخذوا مع الله آلهة أخرى كما اتخذه الغلاة •

(وأما خامسا) فأي مضار ترتبت على موافقي ابن تيمية وهم الذين فعلوا ماأمر به النبي صلى الله عليه وسلم ،وامتثلوا أمره في الطاعةلولي الامر ، ويعتقدون أن مخالفته من خصال الجاهلية ، ففي شرح المسائل : أن مخالفة ولي الامر وعدم الانقياد له عندهم فضيلة ، وبعضهم يجعله دينا ، فخالفهم النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك ، وأمرهم بالصبر على جور الولاة ، والسمع والطاعة والنصيحة لهم ، وغلظ في ذلك وأبدى وأعاد ، وهذه الثلاث هي التي ورد فيها مافي الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم : (إن الله يرضى لكم ثلاثا : أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا ، وأن تعتصموا بحبل الله جميعا ، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم) وروى البخاري عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (من كره من أميره شيئا فليصبر فانه من خرج من السلطان شبرا مات ميتة جاهلية) وروى أيضا عن جنادة ابن أبي أمية قال : دخلنا على عبادة بن الصامت وهو مريض ، فقلنا : أصلحك الله حدث بحديث ينفعك الله به سمعته من النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : (دعانا النبي صلى الله عليه وسلم فبايعنا فكان فيما أخذ علينا أن بايعنا على السمع والطاعة ، في منشطنا

ومكرهنا وعسرنا ويسرنا وأثرة علينا ، وأن لاننازع الامر أهله ، إلا أن تروا كفرا بواحا عندكم من الله فيه برهان) والاحاديث الصحيحة في هذا الباب كثيرة ، ولم يقع خلل في دين الناس أو دنياهم الا من الاخلال بهذه الوصية ، انتهى .

وما كان من الحروب في نجد بين رؤسائهم أي ذنب لهم فيه ، وهم لم يبدأوا أحدا بحرب ولا ضرب حتى يبدأ الغير به فحينئذ يدافعون عن أنفسهم ، ودفع الصائل مأمور به ، فلم يحصل منهم ضرر على الشريعة بل هم أكثر المسلمين محاماة عليها كما سبق .

(وأما سادسا) أن ماينقل عن أهل نجد مما فعلوه بالحرمين لاأصل له كما لايخفى على من طالع كتب تواريخهم ، وفي كتاب (منهاج التأسيس في الرد على ابن جرجيس) وتتمته نبذة من ذلك ، وجزيرة العرب تشمل الحرمين ، بل هما الجزيرة بلسان الشرع ، فلا وجه لعطف الجزيرة على الحرمين .

(وأما قوله) ولذلك كان رضي الله عنه أشد أئمة المسلمين انكارا لبدع ابن تيمية الخ فجوابه : انا قد ذكرنا سابقا أن ماكان منه من التهور والتجاوز على ابن تيمية اتباعا لهواه ، وابن تيمية من أعظم الناس اتباعا للسنة وأكثرهم ردا للبدع ، وقول النبهاني شبيه بقول اخوانه المشركين ، ففي كتاب شرح المسائل التي أبطلها الاسلام من خصال الجاهلية تسميتهم اتباع الاسلام شركا ، قال تعالى :

(ماكان لِبشرٍ أَنْ يؤْتِيهُ اللهُ الكتابَ والحُكمَ والنُّبوةَ ثُم يقولَ للنَّاسِ كونوا عباداً لي منْ دونِ اللهِ ولكنْ كونوا ربَّانيينَ بِما كُنتُم تُعلِّمونَ الكتابَ وبما كُنتُم تدرسونَ ولا يأْمُركم أن تتخذوا الملائكةَ والنبيينَ أرباباً أَيأْمُرُكُم بالكُفْرِ بعْدَ اذ أَنتُم مُسلِمونَ) (١)

أخرج ابن اسحق بسنده حين اجتمعت الاحبار من اليهود والنصارى من أهل نجران عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعاهم الى الاسلام قالوا : أتريديامحمد أن نعبدك كما تعبد النصارى عيسى ابن مريم ؟ فقال رجل من أهل نجران ــ نصراني يقال له الرئيس ــ أو ذاك تريد منا يامحمد ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (معاذ الله أن نعبد غير الله ، أو نأمر بعبادة غيره مابذلك بعثني ، ولا بذلك أمرني) فأنزل الله تعالى الآية ، انتهى .

---

(١) آل عمران : ٧٩ ، ٨٠ .

وأظن أن النبهاني لايفرق بين البدعة والسنة ، ولا مايطلق عليه كل واحدة منهما ، بل لايعرف الايمان من ضده ، ولذلك سمى ابن تيمية مبتدعا ، وسمى نفسه وأضرابه مؤمنا ومن أهل السنة ، وقل له منشدا :

نزلوا بمكة في قبائل هاشم ونزلت بالبيداء أبعد منزل

(وقل له)

أيها المدعي لسلمى انتسابا لست منها ولا قلامة ظفر

ولابد من الكلام على البدعة حتى يعلم بعد معرفتها من المبتدع الذي أطلقه على شيخ الاسلام .

(كلام مفيد في تعريف البدعة)

اعلم أن البدعة لغة : المحدثة مطلقا ، واصطلاحا : اذا قوبلت بالسنة يراد بها المحدثة في الدين ، اما بزيادة أو نقصان ، وهي السيئة التي ليس لها أصل ظاهر من الكتاب والسنة أو سند صحيح استنبطه علماء الامة ، فاما ما كانت حسنة ناشئة عن هذه الاصول فهي قد تكون مباحة ، كالمواظبة على أكل لب الحنطة مثلا ، وقد تكون مستحبة كبناء المنارة وتصنيف الكتب ، وقد تكون واجبة كنظم الدلائل لرد كيد الملاحدة وشبه الفرق الضالة ، وقد وقع من ذلك عن الصحابة شيء كثير ، كما وقع لأبي بكر وعمر ، ولزيد بن ثابت في جمع القرآن ، فان عمر أشار به على أبي بكر خوفا من اندراس القرآن بموت الصحابة رضوان الله عليهم لما كثر فيهم القتل يوم اليمامة وغيره ، فتوقف أبو بكر لكونه صورة بدعة ، ثم شرح الله صدره لفعله لأنه ظهر له أنه يرجع الى الدين وأنه غير خارج عنه ، ولما دعا زيد بن ثابت وأمره بالجمع قال له : كيف تفعل شيئا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : والله انه حق ، وكما وقع لعمر في جمع الناس لصلاة التراويح في المسجد مع تركه صلى الله عليه وسلم لذلك بعد أن كان فعله ليالي ، وقال نعمت البدعة هي ، لأنها وان سماها بدعة باعتبار معناها اللغوي فليس فيها رد لما مضى وزيادة في الدين ، بل هي من الدين لأنه صلى الله عليه وسلم علل الترك بخشية الافتراض وقد زال بوفاته صلى الله عليه وسلم ، ومنشأ الذم ما قاد الى شيء من مخالفة السنة ودعا الى الضلالة .

ثم قال الفاضل السويدي : والقول الفصل الموضح لما تقدم هو أن البدعة لها معنيان : (أحدهما) لغوي ، وهو المحدث مطلقا سواء من العادات أو العبادات (وثانيهما) شرعي ، وهو الزيادة في الدين أو النقصان منه من غير اذن من الشارع ، لا قولا ولا فعلا ولا صريحا ولا اشارة ، فالبدعة التي هي ضلالة كما في الحديث هي بحسب معناها الشرعي ، فيقتصر بها على غير العادات من العبادات التي هي لأصول الشريعة من الكتاب والسنة والاذن من الشارع مخالفات ، فالمنارة عون لاعلام وقت الصلاة ، وتصنيف الكتب عون للتعليم ، ونظم الدلائل لرد الشبه ذب عن الدين ، فكل ذلك مأذون فيه ، لأن البدعة الحسنة مالم يحتج اليه الاوائل واحتاج اليه الاواخر ، وعند الاستقراء لاتوجد هذه البدعة في العبادات البدنية المحضة كالصوم والصلاة والذكر والقراءة ، بل لاتكون البدعة فيها الا سيئة .

قال صاحب مجالس الابرار ما ملخصه : لأن عدم وقوع الفعل في الصدر الاول إما لعدم الحاجة اليها ، أو لوجود مانع ، أو لعدم تنبه ، أو لتكاسل ، أو لكراهة ، أو لعدم مشروعية ، والاولان منتفيان في العبادات البدنية المحضة لأن الحاجة في التقرب الى الله تعالى لاتنقطع ، وبعد ظهور الاسلام لم يكن منها مانع ، ولا يظن بالنبي صلى الله عليه وسلم عدم التنبه أو التكاسل ، فذاك أسوأ الظن المؤدي الى الكفر ، فلم يبق إلا كونها سيئة غير مشروعة .

وكذلك يقال لكل من أتى في العبادات البدنية المحضة بصفة لم تكن في زمن الصحابة ، اذ لو كان وصف العبادة في الفعل المبتدع يقتضي كونه بدعة حسنة لما وجد في العبادات ماهو بدعة مكروهة ، ولما جعل الفقهاء مثل صلاة الرغائب والجماعة فيها ومثل أنواع النغمات الواقعة في الخطب وفي الاذان وقراءة القرآن في الركوع مثلا والجهر بالذكر أمام الجنازة من البدع المنكرة ، فمن قال بحسنها قيل له ماثبت حسنه بالادلة الشرعية فهو اما غير بدعة فيبقى عموم العام في حديث : (كل بدعة ضلالة) وحديث : (كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد) على حاله ، أو يكون مخصوصا من هذا العام ، والعام المخصوص دليل فيما عدا ماخص منه ، فمن ادعى الخصوص فيما أحدث أيضا احتاج الى دليل يصلح للتخصيص من كتاب أو سنة أو اجماع مختص بأهل الاجتهاد ، ولا نظر للعوام ولعادة أكثر البلاد فيه ، فمن أحدث شيئا يتقرب به الى الله تعالى من قول أو فعل فقد شرع من الدين مالم يأذن به الله ، فعلم أن كل بدعة في العبادات البدنية المحضة لاتكون الا سيئة .

(والحاصل) أن كل ماأحدث ينظر في سببه فان كان لداعي الحاجة بعد أن لم يكن ــ كنظم الدلائل لرد الشبه التي لم تكن في عصر الصحابة ، أو كان وقد ترك لعارض زال بموت النبي صلى الله عليه وسلم كجمع القرآن ، فان المانع منه كون الوحي لايزال ينزل فيغير الله مايشاء وقد زال ــ كان حسنا ، وإلا فاحداثه بصرف العبادات البدنية القولية والفعلية تغيير لدين الله تعالى ، مثلا الأذان في الجمعة سنة ، وقبل صلاة العيد بدعة ، ومع ذلك فانه يدخل في عموم قوله تعالى : (واذْكُروا الله ذكراً كثيراً)[١] وقوله تعالى : (ومَنْ أَحسنُ قولاً ممَّنْ دعى إلى اللهِ)[٢]
فيقول قائل : هذا زيادة عمل صالح لايضر ، لأنه يقال له هكذا تتغير شرائع الرسل ، فان الزيادة لو جازت لجاز أن يصلي الفجر أربعا والظهر ستا ، ويقال هذا عمل صالح زيادته لاتضر ، لكن أهل السنة يتبعون النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه في الفعل والترك ، فان الله تعالى قد بين لنا الشرائع وأتم لنا الدين ، فهذا هو من غير زيادة أو نقص ، فالزيادة عليه كالنقصان ، فنعبده بما شرع ، ولا نعبده بالبدع ، فعقولنا عن مثل ذلك قاصرة ، وآراؤنا اذا كاسدة خاسرة ، والعقول لاتهتدي الى الاسرار الالهية ، فيما شرعه من الاحكام الدينية ، أو ماترى كيف نوديت الى الصلاة دائما ، ونهيت عنها في الاوقات الخمسة ، وذلك ينتهي الى قدر ثلث النهار ، فينبغي لك أن تكون حريصا على التفتيش عن أحوال الصحابة وأعمالهم فهم السواد الاعظم ، ومنهم يعرف الحسن من القبيح ، والمرجوح من الرجيح ، واذا وقع أمر ينظر فيه الى قواعد المجتهدين الذين هم السلف لمن خلف ، فان وافق أصولهم قبله المتبع بقلبه ، والا فلينبذه وراء ظهره وليتبصر في جلية أمره ، ولا تغرنك عوائد الناس فانها السموم القاتلة والداء العضال ، وعين المشاقة المؤدية الى الضلال ، وقد كان هشام بن عروة يقول : لاتسألوا الناس اليوم عما أحدثوه فانهم قد أعدوا له جوابا ، لكن سلوهم عن السنة فانهم لايعرفونها واخرج أبو داود عن حذيفة رضي الله عنه ، قال : كل عبادة لم تفعلها الصحابة فلا تفعلوها ، وأخرج البيهقي أن ابن عباس قال أبغض الامور الى الله تعالى البدع .

(فمن البدع السيئة) ماخالفت شيئا من ذلك صريحا أو التزاما ، وقد تنتهي الى مايوجب التحريم تارة والكراهة أخرى ، والى مايظن أنه طاعة وقربة .

فمن الاول الانتماء الى جماعة يزعمون التصوف ويخالفون ماكان عليه مشائخ

---

(١) الاحزاب : ٤١ (٢) فصلت : ٣٣

الطريق من الزهد والورع وسائر الكمالات المشهورة عنهم ، بل كثير من أولئك إباحية لا يحرمون حراما لتلبيس الشيطان عليهم أحوالهم القبيحة الشنيعة ، فهم باسم الفسق أو الكفر أحق منهم باسم التصوف أو الفقر .

ومنه ماعمت به البلوى من تزيين الشيطان للعامة تخليق حائط أو عمود أو تعظيم نحو عين أو حجر أو شجرة لرجاء شفاء أو قضاء حاجة ، وقبائحهم في هذا ظاهرة غنية عن الايضاح والبيان ، وقد صح أن الصحابة رضي الله تعالى عنهم مروا بشجرة سدر قبل حنين كان المشركون يعظمونها وينوطون بها أسلحتهم أي يعلقونها بها ، فقالوا يارسول الله اجعل لنا ذوات أنواط كما لهم ذات أنواط ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (الله أكبر ، هذا كما قال قوم موسى لموسى اجعل لنا الها كما لهم آلهة ، قال انكم قوم تجهلون ، لتركبن سنن من كان قبلكم) .

ومن الثاني ومنشأه أن الشارع يخص عبادة بزمن أو مكان أو شخص أو حال فيعممونها جهلا وظنا أنها طاعة مطلقا نحو صوم يوم الشك أو التشريق والوصال ، ومنه التعريف بغير عرفة ، ومنه صلاة ليلة الرغائب أول جمعة في رجب وليلة النصف من شعبان فهما بدعتان مذمومتان .

قال السويدي : ومن أعظم البدع الغلو في تعظيم القبور ، فلقد اتخذوها في هذا الزمان معابد يعتقدون أن الصلاة عندها أفضل من الصلاة في جميع بيوت الله ، وهم وان لم يصرحوا ولكن طبعت قلوبهم على ذلك ، فتراهم يقصدونها من الاماكن البعيدة وربما أن تكون بحذائهم مساجد مهجورة فيعطلونها ، واذا لحقوا على الصلاة فيها ولو في أوقات الكراهة كانت أفضل عندهم من الصلاة في الاوقات الفضيلة في المساجد ، وتلك المساجد التي بحذاء القبور ليست مقصودة لكونها بيوتا لله بل لكونها حضرات لمن انتسبت اليه من أهل تلك القبور ، يدلك على ذلك كله أنهم لايسمونها الا حضرات ، فاذا قلت لأحدهم أين صليت قال لك صليت في حضرة الشيخ فلان ، وليس مقصودهم به الا التقرب به وبحضرته ، وكلما أكثر الرجل الترداد الى القبور — ولو كانت مشتملة على أنواع المنكرات من ستور الحرير والديباج والترصيع بالفضة والعقيان فضلا عن غيرها — كان مشهورا بين الناس بالديانات ، مغفور الزلات ، مقربا عند أصحاب تلك الحضرات ، ولقد امتلأت قلوب العوام من رجائهم ومخافتهم ، فتراهم اذا عضلت عليهم الامور أوصى بعضهم بعضا بقصد أصحاب القبور ، وكذلك اذا وقع على أحد يمين بالله حلف به من غير أدنى وجل

أو حذر ، واذا قيل له احلف بفلان عند قبره خصوصا اذا أمره بالغسل لهذا اليمين ليكون ذلك من أقوى العبادات : خاف خوفا يظهر على جميع جوارحه ، فلو سلمنا أنه أدخل الى قبره ارتعدت فرائصه وانحلت قواه ، وربما أن أحدهم ـ لكثرة أوهامه وشدة خوفه ـ تبطل حواسه فيزدادون كفرا ، وتضحك عليهم الشياطين جهرا ، وترى كثيرا منهم يعلقون مرضاهم عليهم ، فيأخذون المريض وهو في غاية شدته فيدخلونه على قبره ، والسعيد عندهم من يدخلونه داخل شباكه ويتعلق بستر قبره ، والرزية العظمى أنهم في حالتي السراء والضراء يتلاعب ابليس بهم ، فان مات مريضهم قالوا ماقبلنا الشيخ فلان يعنون به صاحب القبر ، وان صادف القدر فعوفي سيما اذا وافق مطلوبهم ذلك الوقت فرحوا بما عندهم من الكفر ، فأرسلوا القرابين ومعها شموع العسل موقدة من بيوتهم ، اظهارا لقدر صاحب القبر وتنبيها على فضيلته ، وكثيرا ماينشرون الرايات له على طريقة أهل الجهل من الاعراب أن من فعل شيئا عظيما نشرت له راية بيضاء ، وقد رأيت من لم يفعل ذلك ولكنه ينصب راية بيضاء على سطح داره ثلاثة أيام يصيح كل يوم وقت المغرب بأعلى صوته الراية البيضاء المبنية لفلان بيض الله وجهه •

قال وبالجملة : فأكثر البدع الخبيثة نشأت من هنالك ، حتى أني رأيت بدمشق الشام أناسا ينذرون للشيخ عبد القادر الجيلي قنديلا يعلقونه في رؤس المنابر ويستقبلون به جهة بغداد ويبقى موقدا الى الصباح ، وهم يعتقدون أن ذلك من أتم القربات اليه ، كأنهم يقولون بلسان حالهم أينما توقدوا فثم عبد القادر •

فيالله العجب ماهذه الخرافات ؟! وأين دين الله الذي قد مات ؟بال الشيطان في عقولهم وأضلهم عن سبيلهم ، ولا ترى أحدا ينهى وينكر أمثال ذلك •

وأعظم مما هنالك ومن أقبح المنكرات : مايستعملها جميع الناس عند وضع الاناث ولاسيما في شدة الطلق ، فانهن يستغثن بعلي بن أبي طالب ، وكلما اشتدالطلق صاحت النساء بأعلى أصواتهن داعيات ومستغيثات به ليفرج عنهن ماقد كربهن ، ومن يسمعهن يتيقن اشراكهن ، وقلما تسلم امرأة منهن في هذا الحال العظيم ، والخطب الجسيم ، وكثير منهن يزعمن أنه الموكل بالارحام ، والموكل اليه في هذه الاحوال العظام •

(ومن البدع المنكرة) أن كثيرا من أهل الهند وأهل الاماكن القاصية يرسلون الهدايا العظيمة ، والاموال الكثيرة ، اما لاجراء القنوات لأجل المجاورين عند

قبورهم ، فانهم عندهم أفضل خلق الله ، ومن جاور عندهم فكأنما ابتاع منهم قطعة من الجنان ، واما لعمل قبابهم بصفائح الذهب والعقيان ، وبعضهم يرسل هدايا عظيمة ليرسل له السدنة اعلاما ينشرونها على فلكهم اذا وقعوا في شدتهم ، فيكون اسمه المكتوب في تلك الاعلام المرسلة اليهم كشافا لكربتهم نفاعا لهم بانجاح بغيتهم ، قال : وأكثر نساء بغداد اذا قمن صحيحات من وضعهن يخبزن خبزا يسمينه عباس المستعجل يزعمن أن العباس بن علي ابن أبي طالب هو المتكفل بهذه الامور العظام .

(ومن ذلك عند الناس شيء كثير) من أحجار وآبار ، وصخور وأشجار ، يزعمون منها شفاء الامراض وقضاء الحاجات ، وتفريج الكربات ، ولو بسطت الكلام في ذلك — مما يستعمله الرجال والنساء ، أو يختص بالنساء ، من أشياء يعلقنها عليهن ، ويبين خواصها وتأثيراتها في أزواجهن ، ويسمينها بأسماء لو رجعت الجاهلية الاولى لعجزت عن أقل القليل من هذه الجهالات وسوء الاعتقادات — لاحتمل مجلدات ، والويل كل الويل لمن أنكر ذلك ، أو تكلم بأدنى شيء ينجى من تلكم المهالك .

(ومن أسخف البدع) أنك تسمع وقت خسوف القمر من الضرب بالطسوس والنحاس شيئا عظيما ، ولا تكاد تسمع برجل دخل بيتا من بيوت الله للصلاة فيه أو صلى في بيته أو استغفر أو تاب أو تصدق ، فبالله نستعين على زمان أميتت فيه السنن واستؤنس بالبدع ، اللهم واذا أردت بقوم فتنة فاقبضنا اليك غير مفتونين آمين .

(ومن البدع المنكرة) مايستعمله المتصوفة من أذكار اشتملت على الدفوف والطبلات والغناء وأنواع الرقص ويسمونه حالا ، وتراهم يعملون ذلك ومغنيهم ينشدهم من الشعر المشتمل على مالا يرضي الله تعالى ، ويحضره الفسقة والمرد والنساء ، فيحصل من ذلك ماتظهر به شعائر الفسق والعصيان ، وترى الشيخ لو حصلت له مواجهة الظلمة وظفر بدراهمهم لعدها من أطيب المكاسب ، وأقرب المراتب ، لا أكثر الله من أمثالهم .

وأعظم الناس بلاء في هذا العصر على الدين والدولة : مبتدعة الرفاعية ، فلا تجد بدعة إلا ومنهم مصدرها وعنهم موردها ومأخذها ، فذكرهم عبارة عن رقص وغناء والتجاء الى غير الله وعبادة مشائخهم ، وأعمالهم عبارة عن مسك الحيات والعقارب ونحو ذلك .

قال ابن خلدون في (كتابه العبر) قد كثر الزغل في أصحاب الشيخ أحمد وتجددت لهم أحوال شيطانية منذ أخذ التتار العراق ، من دخول النيران ، وركوب السباع ، واللعب بالحيات ، وهذا لايعرفه الشيخ ولا صلحاء أصحابه ، فنعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، انتهى •

وشيخ الاسلام ابن تيمية قد أطنب في بيان ضلالاتهم وجهالاتهم وحيلهم ، ومايخدعون به الجهال وغير ذلك من أفعالهم وأعمالهم ، ولهم معه حوادث ومجالس فمن أراد الوقوف على ذلك فعليه بمراجعة كتابه الذي ألفه في بيان أحوالهم وسماه : (كشف حال المشائخ الاحمدية ، وبيان أحوالهم الشيطانية) ولولا طول الكلام لاتحفنا القراء بذكر شيء منه •

(والحاصل) أنه لو أراد الانسان أن يفصل منكرات القبور وتكيات الصوفية ومنكرات الحيطان والآبار والصخور والاحجار والتماثيل ، وكذا منكرات المساجد والحمامات والطرقات والاسواق والبوادي والامصار ، فضلا عن الدخول في منكرات المجالس والملابس والبيع والشراء ، وما ابتدعوه فيها وجعلوه كالسنة المأمور بها : لضاق عنه التحرير ، وعجز عن ضبطه من تصدى للتسطير ، وعسى الله سبحانه وتعالى أن يرسل في هذه الامة من يجدد لها أمر الدين ، ويتبع سبيل المؤمنين •

(والمقصود) أن النبهاني لم يعرف معنى البدعة ولا محل اطلاقها ، فلذلك جعل شيخ الاسلام مبتدعا وجعل نفسه متبعا مع قوله بوحدة الوجود ، ونداء غير الله في الحاجات والضرورات ،وصرف عمره بأحكام العدلية وقوانينها ، واعتقاده بألوهية النبي صلى الله عليه وسلم ، الى غير ذلك من الامور التي لو اعتقد أحد أمرا واحدا منها كفى في اخراجه عن الدين المبين ، وزيغه عن اتباع سبيل المؤمنين ، وما أحقه بقول القائل من الاكابر والاماثل :

مساو لو قسمن على الغواني ... لما أمهرن الا بالطلاق

وأما شيخ الاسلام وعلم الاعلام : فقيامه بنصرة الدين أمر معلوم ، وجهاده في الله حق الجهاد لاينكره ذوو الفهوم ، وقول النبهاني هذا كما حكى الله عن اخوانه الجاهليين ، ففي شرح المسائل من خصالهم الايمان بالجبت والطاغوت ، وتفضيل المشركين على المسلمين ، قال تعالى : (أَلَمْ تَرَ الى الَّذين أُوتوا نصيباً من الكتاب

يُؤْمنونَ بالجبْتِ والطّـاغوتِ ويقولونَ للّذين كفروا هؤُلاء أَهدي مِنَ الّذين آمنوا سَبيلاً)[1] .

قالوا : نزلت هذه الآية في حيي بن أخطب وكعب بن الاشرف في جمع من يهود وذلك أنهم خرجوا الى مكة بعد وقعة أحد ليحالفوا قريشا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وينقضوا العهد الذي بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنزل كعب على أبي سفيان فأحسن مثواه ، ونزلت اليهود في دور قريش ، فقال أهل مكة : انكم أهل كتاب ومحمد صلى الله عليه وسلم صاحب كتاب فلا يؤمن هذا أن يكون مكرا منكم فان أردت أن نخرج معك فاسجد لهذين الصنمين وآمن بهما ففعل ، ثم قال كعب : ياأهل مكة ليجيء منكم ثلاثون ومنا ثلاثون فنلزق أكبادنا بالكعبة فنعاهد رب البيت لنجهدن على قتال محمد ففعلوا ذلك ، فلما فرغوا قال أبو سفيان لكعب : إنك امرؤ تقرأ الكتاب وتعلم ونحن أميون لانعلم فأينا أهدى طريقا وأقرب الى الحق نحن أم محمد ؟ قال كعب : اعرضوا على دينكم ، فقال أبو سفيان : نحن ننحر للحجر الكوماء ، ونسقيهم اللبن ، ونقرى الضيف ، ونفك العاني ، ونصل الرحم ، ونعمـر بيت ربنا ، ونطوف به ، ونحن أهل الحرم ، ومحمد فارق دين آبائه ، وقطع الرحم ، وديننا القديم ، ودين محمد الحديث ، فقال كعب : أنتم والله أهدى سبيلا مما عليه محمد ، فأنزل الله في ذلك الآية .

والجبت في الاصل : اسم صنم فاستعمل في كل معبود غير الله ، والطاغوت : يطلق على كل باطل من معبود أو غيره ، ومعنى الايمان بهما : اما التصديق بأنهما آلهة واشراكهما بالعبادة مع الله تعالى ، واما طاعتهما وموافقتهما على ماهما عليه من الباطل واما القدر المشترك بين المعنيين كالتعظيم مثلا ، والمتبادر المعنـي الاول ، أي أنهـم يصدقون بألوهية هذين الباطلين ويشركونهما في العبادة مع الاله الحق ويسجـدون لهمـا اه .

(قال النبهاني) فقد ثبت وتحقق وظهر ظهور الشمس في رابعة النهار أن علماء المذاهب الاربعة قد اتفقوا على رد بدعة ابن تيمية ، ومنهم من طعن بصحة نقله كما طعن بكمال عقله فضلا عن شدة تشنيعهم عليه في خطئه الفاحش في تلك المسائل التي شذ بها في الدين ، وخالف بها اجماع المسلمين ، ولا سيما فيما يتعلق بسيد المرسلين .

---

(١) النساء : ٥١

(الجواب عنه) أنه قد ثبت وتحقق لدى كل منصف أن علماء المذاهب الاربعة أثنوا عليه ، واعترفوا بفضله ، وألفوا في مناقبه كتبا مفصلة ، ومن شذ منهم وطعن عليه القم الحجر ورد عليه كلامه ، وان اعتراضه كان لجهل أو غرض أو تعصب أو نحو ذلك ، وتبين أن ابن تيمية لم يبتدع شيئا في الدين ، وما اختار شيئا الا وأقام عليه الدلائل الصحيحة والبراهين ، ومن طعن بصحة نقله فهو عدو له مبين ، ولم يسلم أحد من لسان الخلق حتى رب العالمين ، وسيد الاولين والآخرين ، وغزارة علمه من سعة عقله وكمال فضله ، وما ذهب اليه من المسائل هو الحق الحقيق بالقبول ، وحديث الاجماع على خلافها كذب عند علماء المنقول والمعقول •

قال الحافظ الذهبي : مارأيت أشد استحضارا للمتون وعزوها منه ، وكانت السنة بين عينيه وعلى طرف لسانه بعبارة رشيقة وعين مفتوحة •

وقال حافظ الاسلام الحبر النبيل أستاذ أئمة الجرح والتعديل شيخ المحدثين جمال الدين أبو الحجاج يوسف بن الركن عبد الرحمن المزي الشافعي في ابن تيمية : مارأيت مثله ولا رأى هو مثل نفسه ، وما رأيت أحدا أعلم بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ولا أتبع لهما منه ، وناهيك بهذا الكلام من الحافظين العدلين المستوعبين أبي الحجاج المزي وأبي عبد الله الذهبي •

وقال الشيخ الامام بقية المجتهدين تقي الدين بن دقيق العيد الشافعي لما اجتمع به وسمع كلامه : كنت أظن أن الله تعالى مابقى يخلق مثلك ، وقال أيضا : رأيت رجلا العلوم كلها بين عينيه يأخذ منها مايريد ويدع مايريد •

وقال الحافظ عماد الدين بن كثير الشافعي : وبالجملة كان رحمه الله تعالى من كبار العلماء ، وممن يخطيء ويصيب ، ولكن خطؤه بالنسبة لصوابه كنقطة في بحر لجى ، وخطؤه أيضا مغفور له لما صح في صحيح البخاري : (اذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران ، واذا اجتهد فأخطأ فله أجر) •

قال السيد صفي الدين الحنفي في ترجمة ابن تيمية : قد نص على أنه بلغ رتبة الاجتهاد جمع من العلماء : منهم الامام أبو عبد الله الذهبي ، والحافظ بن حجر ، والحافظ السيوطي في طبقات الحفاظ ، ولم يتفرد بمسألة منكرة قط ، وان كان قد خالف الأئمة الاربعة في مسائل فقد وافق فيها بعض الصحابة أو التابعين الخ انتهى •
وسنفرد له ان شاء الله فصلا مفصلا في ذكر مناقبه وبهذا أيضا تبين الحاد

النبهاني وزوره وكذبه واتباعه لهواه ، وقد جادل بغير علم ، وذلك كما كان عليه أهل الجاهلية .

(وفي شرح المسائل) الجدال بغير علم كما ترى كثيرا من أهل الجهل يجادلون أهل العلم عند نهيهم عما ألفوه من البدع والضلالات ، وهي خصلة جاهلية نهانا الله تعالى عن التخلق بها ، قال تعالى : (يا أَهلَ الكتابِ لِمَ تُحاجُّونَ في ابراهيم وما أُنْزِلَتِ التوراةُ والانجيلُ إلاَّ مِن بعدهِ أَفلا تعقلونَ . ها أَنتم هؤُلاء حاجَجْتم فيما لكمُ به عِلْمٌ فلِمَ تُحاجُّونَ فيما ليْسَ لكمُ به عِلْمٌ والله يعلَمُ وأَنتُم لا تعلَمونَ)[1] .

أخرج ابن اسحق وابن جرير عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ، قال : اجتمعت نصارى نجران وأحبار يهود عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فتنازعوا عنده ، فقالت الاحبار ماكان ابراهيم الا يهوديا ، وقالت النصارى ، ماكان ابراهيم الا نصرانيا ، فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية المنادية على جهلهم وغباوتهم انتهى .

فوازن بين النبهاني وبين اخوانه تجد الفريقين كما قال القائل :

رضيعي لبان ثدي أم تقاسما ... باسحم داج عوض لاتتفرق

(وأما قوله) ولاسيما فيما يتعلق بسيد المرسلين الـخ فانه يدل على أن ابن تيمية مخل بحقوق النبي صلى الله عليه وسلم ، وبه صرح مرارا حيث قال : ان ابن تيمية حيث لم يجوز الاستغاثة بالنبي صلى الله عليه وسلم ولا دعاءه ولا الالتجاء اليه ولا شد الرحل الى زيارة قبره : فاعلم أن حب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وتعظيمه باتباع شريعته ، وامتثال أوامره واجتناب نواهيه ، وحبه وتعظيمه بما ذكره الخصم : هو من قبيل تعظيم النصارى لعيسى ، وغلوهم في الانبياء والرسل عليهم السلام ، قال تعالى : (يا أَهلَ الكتابِ لا تغْلوا في دينكُم ولا تقولوا على الله الاَّ الحقَّ انَّما المسيحُ عيسى ابنُ مَريَمَ رسولُ اللهِ وكلمتُهُ أَلقاها الى مَريَم وروحٌ مِنهُ فآمِنوا بالله ورُسلِه ولا تقولوا ثلاثةٌ انتَهوا خيراً لكمُ انما الله الـهٌ واحدٌ سبحانهُ أَنْ يكونَ لَـهُ ولَـدٌ)[2] والغلو في المخلوق هو أعظم أسباب عبادة الاصنام

---

(١) آل عمران : ٦٥ ، ٦٦ (٢) النساء : ١٧١

والصالحين ، كما كان في قوم نوح من عبادة نسر وسواع ويغوث ويعوق ونحوهم وكما كان من عبادة النصارى للمسيح عليه السلام ، وهذا هو القول على الله بغير الحق •

والمقصود : أن مراعاة حقوق النبي صلى الله عليه وسلم انما تكون بالمحافظة على شريعته لا بما يقول النبهاني الغبي ، ومن المعلوم ماكان عليه ابن تيمية من اتباع السنن ، والمحافظة على الشريعة الغراء ، ومزيد الادب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى انه عقد فصلا في كتابه (الصارم المسلول) لبذل الاموال وسفك الدماء في تعزير رسول الله صلى الله عليه وسلم وتوقيره ، وفصلا آخر في فرض الله علينا تعزيره وتوقيره ، وفصلا آخر في أن قيام المدحة والتعظيم والثناء عليه صلى الله عليه وسلم قيام الدين كله ، وفصلا آخر في أن شاتم الرسول صلى الله عليه وسلم يتعين قتله ، وفصلا آخر في أن الله تعالى أوجب لنبيه صلى الله عليه وسلم حقوقا زائدة على القلب واللسان والجوارح ، وأن سبه سب لجميع المسلمين ، وطعن في دينهم ، وفصلا آخر في أن التعظيم والمحبة للرسول صلى الله عليه وسلم لازم للايمان ، وفصلا آخر في بيان حكم الطعن في نسبه أو خلقه أو خُلقه أو أمانته أو وفائه أو صدقه ، وذكر فصولا أخرى مهمة كلها تدل على ماانطوى عليه من مزيد حبه وأدبه لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى انه قال نقلا عن القاضي عياض جميع من سب النبي صلى الله عليه وسلم أو عابه أو ألحق به نقصا في نفسه أو نسبه أو دينه أو خصلة من خصاله أو عرض به شبهة بشيء على طريق السب له والازراء عليه أو البغض منه والعيب له : فهو ساب له ، والحكم فيه حكم الساب يقتل ، ولا تستثن فصلا من فصول هذا الباب عن هذا المقصد ، ولا تمتر فيه تصريحا كان أو تلويحا ، وكذلك من لعنه ، أو تمنى مضرة له ، أو دعا عليه ، أو نسب اليه مالا يليق بمنصبه على طريق الذم ، أو عيبه في جهة الغريزة بسخف من الكلام ، وهجر ومنكر من القول وزورا ، أو عيره بشيء مما يجري من البلاء والمحنة عليه ، أو غمضه ببعض العوارض البشرية الجائزة والمعهود لديه ، قال : وهذا كله اجماع من العلماء وأئمة الفتوى من لدن أصحابه وهلم جرا •

وقال ابن القاسم عن مالك من سب النبي صلى الله عليه وسلم قتل ولم يستتب، قال ابن القاسم أو شتمه أو عابه أو تنقصه فانه يقتل كالزنديق ، وقد فرض الله

توقيره ، وكذلك قال مالك في رواية المدنيين عنه من سب رسول الله صلى الله عليه وسلم أو شتمه أو عابه أو تنقصه قتل مسلما كان أو كافرا ولا يستتاب ، وروى ابن وهب عن مالك : من قال ان رداء النبي صلى الله عليه وسلم وسخ وأراد به عيبه قتل، وروى بعض المالكية اجماع العلماء على من دعا على نبي من الانبياء بالويل أو بشيء من المكروه أنه يقتل بلا استتابة ، وذكر القاضي عياض أجوبة جماعة من فقهاء المالكية المشاهير بالقتل بلا استتابة في قضايا متعددة أفتى في كل قضية بعضهم وفصلها ، انتهى ماقصدنا نقله من كتاب (الصارم المسلول) وهو كتاب جليل يدل دلالة صريحة على ماكان عليه مؤلفه من المحبة بالاتباع ، وبه يسقط كل ماهذى به النبهاني من الباطل والزور •

(قال النبهاني) ويقوي عدم اعتبار نقل ابن تيمية في بعض ماينقله ماقاله في حقه الحافظ العراقي الكبير ، وها أنا أنقله تتميما للفائدة وتقوية للحجة وان لم يكن مما نحن فيه ، فأقول : قد اطلعت على جزء لطيف تأليف الحافظ العراقي ، شيخ الحافظ ابن حجر والامام العيني ، تكلم فيه على أكل الدجاج والحبوب والتوسعة على العيال يوم عاشوراء ، رد به على الامام ابن تيمية في منعه ذلك ، ثم انه أورد الرسالة بتمامها •

(جوابه) أن ماذكرناه سابقا بل ويأتي أيضا من ثناء أهل العلم وأكابر المحدثين وعدهم له من أكابر الحفاظ يستوجب سقوط ماذكره النبهاني من عدم اعتبار نقله ، وهو الثقة الصدوق ، شهد له بذلك أحباؤه وخصومه ، ولم يخالف في ذلك أحد ، حتى أن علماء الحديث قالوا كل حديث لايعرفه ابن تيمية فهو ليس بحديث ، فانظر الى هذه المنزلة العظيمة والدرجة العليا من الصدق ، ومانقله عن العراقي ــ ان صح نقله ــ فهو دليل على جهله وعدم معرفته بأحكام الدين ، فان تخصيص يوم عاشوراء بشيء من الامور الدينية والدنيوية مما لاأصل له ، كما عليه أئمة المذاهب وفقهاؤها والاحاديث التي أوردها منها ماهو موضوع ، ومنها مالايدل على الغرض المقصود ، وتفصيل الكلام فيها يخرجنا عن موضوع الكتاب •

ولقد تكثر النبهاني من ذكر خصوم الشيخ والطاعنين فيه مع أن الاعتماد على الكثرة والسواد الاعظم والاحتجاج على بطلان الشيء بقلة أهله من الجهل بمكان ، قال تعالى : (وانْ تُطِعْ أَكْثَرَ منْ في الأَرضِ يضلوكَ عنْ سبيلِ الله انْ

يتَّبعونَ الاَّ الظنَّ وانْ هُم الاَّ يَخرصُونَ . انَّ ربَّكَ هوَ أَعلَم مَنْ يضلُّ عنْ سَبيلهِ وهوَ أَعلَمُ بالمهْتدينَ)[1] فالكثرة على خلاف الحق لاتستوجب العدول عن اتباعه لمن كان له بصيرة وقلب فالحق أحق بالاتباع وان قل أنصاره ، كما قال تعالى (قالَ لقَدْظلَمكَ بسؤال نعْجتِكَ الى نعاجِه وانَّ كثيراً من الخُلطاءِ ليَبْغي بعضهم على بعضٍ الاَّ الَّذينَ آمنوا وعملوا الصَّالحاتِ وقليلٌ مَّا هُم)[2] فأخبر الله عن أهل الحق أنهم قليلون غير أن القلة لاتضرهم ، فان من له بصيرة نظر الى الدليل ، وأخذ بما اقتضاه البرهان وان قل العارفون به والمنقادون له ، ومن أخذ بما عليه الاكثر وما ألفته العامة من غير نظر الى دليل فهو مخطيء سالك غير سواء السبيل ، وهو حسبنا ونعم الوكيل •

(قال النبهاني) الكلام على بعض كتب ابن تيمية وتفليس ابليس لابن الجوزي:
قال : فمن كتب ابن تيمية (الجواب الصحيح ، في الرد على من بدل دين المسيح) وهو أربعة مجلدات متوسطة ، وهو في غاية النفاسة لو خلا من التعرض لبدعه التي انفرد بها وشذ عن المسلمين من منعه الاستغاثة به صلى الله عليه وسلم كسائر الانبياء والصالحين ، وكتعرضه لاكابر أولياء الله بالتكفير والتشنيع فضلا عن التبديع ، كسيدي محيي الدين ابن العربي ، وسيدي عمر ابن الفارض وغيرهما ممن ذكر بعضهم في (كتابه الفرقان) وشنع عليهم وكفرهم وجعلهم أولياء الشيطان ، وهذا دأبه عفا الله عنه في كتبه ، ولذلك قلل الله النفع بها ، كما جرت عادته تعالى فيمن يتعرض لاوليائه بالسوء ، اذ قد ورد في الحديث القدسي : (من آذى لي وليا فقد أذنته بالحرب) وأي أذية أعظم من تكفيرهم واخراجهم من دائرة الاسلام بالكلية •

(أقول جوابه) ان كتب شيخ الاسلام جميعها من الكتب التي أنعم الله تعالى بها على الامة ، وهي على اختلاف أنواعها وفنونها ليس لها نظير في بابها ، وقد ذكرها الحافظ ابن القيم في الكافية الشافية ، وحث على مطالعتها فقال :

فاقرأ تصانيف الامام حقيقة ... شيخ الوجود العالم الرباني

---

(١) الانعام : ١١٦، ١١٧ (٢) ص : ٢٤

أعني أبا العباس أحمد ذاك الـ ... ـبحر المحيط بسائر الخلجان
واقرأ كتاب العقل والنقل الـذي ... مـافي الوجود له نظير ثان
وكـذاك منهاج لـه في رده ... قول الروافض شيعة الشيطان
وكـذاك أهـل الاعتزال فانه ... أرداهـم في حفرة الجبـان
وكذلك التأسيس أصبح نقضه ... أعجـوبة للعـالم الربـاني
وكـذاك أجوبة له مصرية ... في ست أسفار كتبن سمـان
وكـذا جواب للنصارى فيه ما ... يشفي الصدور وانه سفـران
وكـذاك شرح عقيدة للاصبها ... ني شارح المحصول شرح بيان
فيهـا النبـوات التي أثباتها ... في غاية التقرير والتبيـان
واللـه مالاولى الكـلام نظيره ... أبـدا وكتبهم بكل مكـان
وكذا حدوث العالم العلـوي والـ ... ـسفـلي فيه في أتم بيـان
وكـذا قواعد الاستقـامة أنها ... سفـران فيما بيننا ضخمـان
وقرأت أكثـرها عليه فزادني ... واللـه في علـم وفي ايمـان
هذا ولـو حدثت نفسـي آنه ... قبلي يموت لكان غير الشان
وكذاك توحيد الفلاسفـة الألي ... توحيـدهم هو غاية الكفـران
سفر لطيف فيه نقض أصولهم ... بحقيقـة المعقـول والبـرهان
وكـذاك تسعينيـة فيهـا له ... رد علـى من قال بالنفسـاني
تسعـون وجها بينت بطـلانه ... أعنـي كـلام النفس ذا الوجـدان
وكـذا قواعدهـا الكبـار فانها ... أوفي من المائتين في الحسبـان
لم يتسـع نظمي لها فأسـوقها ... فأشـرت بعض اشارة لبيـان
وكذا رسائله الى البلـدان والـ ... ـأطـراف والاصحـاب والاخـوان
هي في الـورى مبثوثة معلـومة ... تبتـاع بالغـالي من الاثمـان
وكـذا فتـاواه فأخبـرني الذي ... أضحى عليهـا دائم الطـوفان
بلغ الـذي ألفـاه منهـا عـدة الا ... يـام من شهـر بلا نقصـان
سفر يقابـل كل يـوم والـذي ... قد فاتنـي منها بلا حسبـان
هذا وليس يقصـر التفسـير عن ... عشر كبـار ليس ذا نقصـان
وكـذا المفاريد التي في كل مسئـ ... ـلة فسفـر واضـح التبيـان
مابين عشـر أو تزيد بضعفهـا ... هـي كالنجـوم لسـالك حـيران

وله المقامات الشهيرة في الورى — قد قامها لله غير جبان
نصر الاله ودينه وكتابه — ورسوله بالسيف والبرهان
أبدى فضائحهم وبين جهلهم — وأرى تناقضهم بكل زمان
وأصارهم والله تحت نعال أهـ — ـل الحق بعد ملابس التيجان
وأصارهم تحت الحضيض وطالما — كانوا هم الاعلام في البلدان
ومن العجائب أنه بسلاحهم — أرداهم تحت الحضيض الداني
كانت نواصينا بأيديهم فما — منالهم الا أسير عان
فغدت نواصيهم بأيدينا فلا — يلوننا الا بحبل أمان
وغدت ملوكهم مماليكا لا: — صار الرسول بمنة الرحمن
وأتت جنودهم التي صالوا بها — منقادة لعساكر الايمان
يدري بهذا من له خبر بما — قد قاله في ربه الفئتان
والفدم يوحشنا وليس هناكم — فحضوره ومغيبه سيان

(وقلت في شرح هذه الابيات) أعلم أن الناظم لم يذكر كتبه مرتبة أعنى كتب كل فن على حدة لعدم مساعدة النظم على ذلك ، ونحن نشرحها حسبما ذكرها فنقول :

(قوله) واقرأ كتاب العقل والنقل الخ هذا كتاب ألفه في بيان أن الشريعةكافية بنصوصها ، ولا حاجة بها الى ماأحدث من القواعد الكلامية المأخوذة من الحكمة اليونانية ، وان الدليل النقلي يفيد اليقين ، وهذا الكتاب متداول بين الايدي ،ونسخه كثيرة في الهند وبلاد العرب والفرس ، وتوجد منه نسخة كاملة لانقص فيها في خزانة كتب راغب باشا في دار السلطنة المحروسة •

(قوله) وكذاك منهاج له في رده الخ •• هذا الكتاب أيضا من كتب الشيخ المهمة ، وهو أحسن كتاب ألف في الرد على الروافض ، مشتمل على فنون كثيرة وعلم غزير ، نسخه أيضا كثيرة في البلاد ، وكثير من خزائن الكتب الاسلامية مشتملة عليه •

(قوله) وكذلك التأسيس أصبح نقضه الخ • اشارة الى كتاب نقض أساس التأسيس ، وهو في الرد على أساس التأسيس للامام فخر الدين الرازي اشتمل على مسائل مهمة في علم الكلام ، ونسخته في خزانة كتب الملك العادل في دمشق الشام ،

وهو في ست أسفار على مانقل لي •

(وقوله) وكذاك أجوبة مصرية الخ هي أيضا فتاوي مشتملة على مسائل مهمة في ست أسفار •

(وقوله) وكذا جواب للنصارى الخ يريد به (الجواب الصحيح ، لمن بدل دين المسيح) ولم يؤلف في الرد على النصارى كتاب مثله وكتبت في شأنه بعض المجلات المصرية مانصه (الجواب الصحيح والدين الصريح) اذا أطلق الانسان حريته ، وجرده عن عوامل التقييدات ومحض فطرته ، وتأمل في جواهر الاديان ومد النظر في مجال ماحدث به كل نبي عن ربه يرى أن الحقيقة واحدة والامنية لكل متحدة ، فلباب الشرائع الالهية واحد ، ومقصد الشارعين متحد ، مصداقا لقوله تعالى :(وما أَمْرِنَا إِلاَّ واحدَةٌ كَلَمحٍ بالبَصَرِ) [1] وغير ذلك من الآيات الدالة على اتفاقهم في المقصد واتحادهم في الغرض ، وقد اتفقت كلمتهم على التوحيد والنهي عن التفرق والاختلاف كما قال تعالى : (شَرعَ لكُم من الدِّين ما وَصَّى به نوحاً والذي أَوحينا اليْكَ وما وَصَّيْنا به ابراهيمَ وموسى وعيسى أَنْ أَقيموا الدِّينَ ولا تتفرَّقوا فيه) [2] ولكن أبى الانسان الناقص بأصل فطرته القاصر عن فهم حكمة ربه البالغة الا أن يجعل ماهو أصلا في الاتفاق سببا في الافتراق ، وماهو أصل السعادة سببا في الشقاء ، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين لجمع الكلمة وتوحيد الامة ، فتغلبت قوة الشر وطبيعة النقص على هذا الخير المحض والكمال المطلق ، فمزقت هذه الجامعة الانسانية ، والوحدة الدينية ، فتعددت فيهم المذاهب والنحل ولآراء والملل ، وقامت بينهم حروب الاقلام وتلتها معارك السنان ، واشتغل كل فريق بالرد والاعتراض واتتصر لكل جماعات وأفراد ، وهكذا كثر القيل والقال ، والمشاغبة والجدال ، وذهبت الحقيقة تحت أستار المغالبة ، واحتجبت بحجاب المراء والمخاصمة ، وما أتى فريق لكشف تلك الشبهات بجلاء ، بل بعدوا عن الحقيقة بعد الارض من السماء ، الى أن انبرى في القرو ن الوسطى لنصرة الحق لذاته شيخ الاسلام وقدوة الانام تقي الدين أحمد بن تيمية ، فكتب كتابه الموسوم (بالجواب الصحيح) سلك فيه مسلك العدل والانصاف ، وأظهر الحق وأبطل الباطل ، وترفع عن المجادلة والمشاغبة

---

(١) القمر : ٥٠ (٢) الشورى : ١٣

وتنزه عن المشاتمة والمغالبة ، فما نحى أحد منحاه ، ولا سلك طريقته وهداه ، وكان الباعث لتأليف هذا الكتاب الذي أوضح فيه الحقيقة لأولي الالباب : كتابا ورد من مدينة قبرص ألفه بولص الراهب أسقف صيدا الانطاكي ، جمع فيه جميع الاحتجاجات لدين النصارى التي يحتج بها علماؤهم وفضلاء ملتهم ، وكان مافي ذلك الكتاب هو عمدتهم التي يعتمد عليها علماؤهم في كل زمان ومكان ، وهو محصور في ستة مطالب هي دعائم الديانة المسيحية وأصول مذاهبهم الملية ، وقد أجابهم على كل دعوى بما فيه لذوي البصيرة مقنع ، ثم ذكر مشتملات الكتاب ، ثم قال : فجاء هذا الامام الجليل واطرح الآراء المذهبية ، وترك التعصبات الدينية ، وأظهر الحقيقة في ذاتها ، وأبان كنهها لطالبها بما هياتها ، فأخذ أولا في تفنيد تلك المطالب على طريقة أهل الجدل ، وقلب هذه الادلة الموهومة فجعلها منتجة ضد مطلوبها ، فكانت عليه لاله ، ثم استقام في الاستدلال ونهج منهج الاعتدال ، وأرجع كل هذه الاختلافات الى الاتفاق ، والمخاصمات الى الوفاق ، وأبان أن أصل الاديان واحد ، وأن مايترآى من الاختلافات نشأ من حب الرياسة والشهوات حسب الازمنة والامكنة ، وقد اطلع على هذا الكتاب بعض قسيسيا لمجمع العلمي المنعقد في بعض البلاد الافرنجية ، فقدروه قدره وأثنوا على مؤلفه خيرا ، وقالوا لو جمع مؤلفه كتابا آخر في محاسن دين الاسلام لدخل الناس فيه أفواجا •

وبالجملة : فهذاالكتاب جدير بالمطالعة والاقتناء ، يحتاجه المسلم في اسلامه ، والنصراني لنصرانيته ، وكل معترف بدين أو كتاب الخ •

(قوله) وكذلك شرح عقيدة للاصفهاني الخ أي من جملة مصنفاته كتاب (شرح عقيدة الاصفهاني) وهو كتاب جليل القدر ، مشتمل على مطالب مهمة ، لاسيما مباحث النبوات وحدوث العالم العلوي والسفلي •

(قوله) وكذا قواعد الاستقامة الخ وهو من أفيد كتبه ، وهو مفصل يبلغ سفرين ، توجد نسخه في بلاد العرب ودمشق وفي بعض بلاد الهند •

(قوله) وكذاك توحيد الفلاسفة الآلي الخ يريد به الرد على الفلاسفة ، وهو عدة أسفار ، يقال : ان من نسخه في بعض خزائن كتب دار السلطنة ، لكن الناظم يقول هو سفر لطيف الخ وهو أدرى به من غيره •

(قوله) وكذاك تسعينية الخ هذا الكتاب كثير وهو في الرد على من يقول

بالكلام النفسي من تسعين وجها ، وهو بين الايدي •

(قوله) وكذا قواعده الكبار الخ هي على منهج قواعد القرافي وغيره الا أنها أكثر فائدة ، ونسخه في البلاد العربية •

(قوله) وكذا رسائله الى البلدان •• الخ وقوله وكذا فتاواه الخ ، أما رسائله المختصرة وكتبه فلا يحيط بها الاحصاء ، وفتاواه ــ كما قال الناظم ــ بلغت نحو ثلاثين سفرا •

(قوله) هذا وليس يقصر التفسير عن الخ هو لم يفسر القرآن مرتبا ، ولكنه كتب على كثير من سوره ومواضعه المشكلة ، فله على الاستعاذة ، وعلى البسملة وكلامه في الجهر بها ، وكتب على قوله تعالى (إياكَ نعْبدُ وإياكَ نسْتعينُ) وكتب على قوله تعالى : (ومِنَ النَّاسِ مَنْ يقولُ آمنَّا) وعلى قوله تعالى : (مَثَلهُم كمَثَل الذي استوقَدَ ناراً) وعلى قوله تعالى : (يا أَيُّها النَّاسُ اعبدوا ربَّكُم) وعلى قوله تعالى (إلاَّ مَنْ سفِهَ نفْسَهُ) وعلى آية الكرسي ، وعلى قوله تعالى : (ليْسَ كمِثْله شيءٌ) وعلى قوله تعالى : (شَهِدَ اللهُ أنهُ لا إلهَ إلاَّ هو) الخ • وعلى قوله تعالى : (ما أَصابَكَ مِنْ حسنةٍ فَمِنَ الله) وعلى سورة المائدة ، وعلى قوله تعالى : (يا أيُّها الَّذين آمنوا اذا قُمتُم الى الصَّلاةِ) الآية ، وعلى قوله تعالى (وإذ أَخذ ربُّك)

وعلى سورة يوسف ، وعلى سورة النور ، وعلى سورة القلم ، وأنها أول سورة نزلت ، وعلى سورة لم يكن ، والكافرون ، وتبت ، والمعوذتين ، وكتب على سورة الاخلاص وغير ذلك •

(قوله) وكذا المفاريد التي في كل مسألة الخ منها الاعتراضات المصرية على الفتوى الحموية ، وشرح بضعة عشر مسألة من الاربعين للرازي ، وجواب ماأورده كمال الدين الشريشي ، وشرح كتاب الغزنوي في أصول الدين ، والرد على المنطق ، وكتاب الزواجر ، وقاعدة في القضايا الوهمية ، وقاعدة في قياس مالا يتناها ، وجواب الرسالة الصفدية ، وجوابه عن قول بعض الفلاسفة أن معجزات الانبياء عليهم السلام قوى نفسانية ، والرد على ابن سينا في اثبات المعاد ، وشرح رسالة ابن عبدوس في كلام الامام أحمد في الاصول ، وثبوت النبوات عقلا ونقلا ، والمعجزات والكرامات ،

وقاعدة في الكليات ، والرسالة القبرصية ، ورسالته الى أهل طبرستان وحلان في خلق الروح والنور ، والرسالة البعلبكية ، والرسالة الازهرية القادرية البغدادية ، وأجوبة القرآن والنطق ، وجواب من حلف بالطلاق الثلاث ، ورسالة في أن القرآن حرف وصوت ، وكتاب في اثبات الصفات والعلو والاستواء ، والمراكشية في صفات الكمال والضابط ، جواب في الاستواء وابطال تأويله بالاستيلاء ، جواب من قال لايمكن الجمع بين اثبات الصفات على ظاهرها مع نفي التشبيه ، أجوبة كون جهة السموات كرية ، رسالة في سبب قصد القلوب العلو ، جواب كون الشيء في جهة العلو مع كونه ليس بجوهر ولا عرض هل هو معقول أو مستحيل ، جواب هل الاستواء والنزول حقيقة ، وهل لازم المذهب مذهب ، مسألة أهل الاربيلية ، شرح حديث النزول ، واختلافه باختلاف وقته ، وباختلاف البلدان والمطالع ، بيان حل اشكال ابن حزم الوارد على الحديث ، قاعدة في قرب الرب من عابديه ، الكلام على نقض المرشد ، المسائل الاسكندرانية ، في الرد على الحلولية والاتحادية ، رسالة فيما تضمنه فصوص الحكم ، جواب في لقاء الله عز وجل ، جواب في رؤيا النساء ربهن في الجنة ، الرسالة المدنية في اثبات الصفات النقلية الهلاوونية ، جواب سؤال ورد على لسان ملك التتار ، قواعد في الرد على القدرية والجبرية ، جواب في خلق الله الخلق وانشاء الايام لعلة أم لا ، شرح حديث فحج آدم موسى ، تنبيه الرجل العاقل على تمويه المجادل ، تناسى الشدائد في اختلاف العقائد ، كتاب الايمان ، شرح حديث جبريل في الايمان والاسلام ، رسالة في عصمة الانبياء عليهم السلام فيما يبلغونه عن ربهم ، مسألة في العقل والروح ، مسألة في المقربين هل يسألهم منكر ونكير أم لا ، مسألة هل يعذب الجسد مع الروح في القبر أم لا ، الرد على أهل الكسروان وهم من الروافض ، فضل أبي بكر وعمر رضي الله عنهما على غيرهما ، رسالة في معاوية ابن أبي سفيان ، تفضيل صالحي الناس على سائر الاجناس ، رسالة مختصرة في كفر النصيرية ، رسالة في جواز قتال الرافضة ، الرد على تقي الدين السبكي في مسألة بقاء الجنة والنار وفي فنائهما ، هذه كلها في أصول الدين •

(ومن مؤلفاته في أصول الفقه) قاعدة غالبها أقوال الفقهاء ، قاعدة كل حمد وذم من الاقوال والافعال لايكون الا بالكتاب والسنة ، رسالة في شمول النصوص للاحكام ، قاعدة في الاجماع وأنه ثلاثة أقسام ، جواب في الاجماع والخبر المتواتر ،

قاعدة في كيفية الاستدلال على الاحكام بالنص والاجماع ، والرد على من قال أن الدلالة اللفظية لاتفيد اليقين ، قاعدة فيما نص من تعارض النص والاجماع ، مؤاخذة على ابن حزم في الاجماع ، قاعدة في تقرير القياس ، قاعدة في الاجتهاد والتقليد في الاحكام ، رفع الملام عن الأئمة الاعلام ، قاعدة في الاستحسان وفي وصف العموم والالحاق والاطلاق ، قاعدة في أن المخطى في الاجتهاد لايأثم ، رسالة في أنه هل القاضي يجب عليه تقليد مذهب معين ، جواب في ترك التقليد ، رسالة فيمن يقول مذهبي مذهب النبي صلى الله عليه وسلم وليس أنا محتاج الى تقليد الاربعة ، جواب من تفقه في مذهب ووجد حديثا صحيحا هل يعمل به أم لا ، جواب تقليد الحنفي الشافعي في المطر والوتر ، رسالة في الفتح على الامام في الصلاة ، تفضيل قواعد مالك وأهل المدينة ، تفضيل الأئمة الاربعة وماامتاز به كل واحد منهم ، قاعدة في تفضيل الامام أحمد ، جواب هل كان النبي صلى الله عليه وسلم قبل الرسالة نبيا ، جواب هل كان النبي صلى الله عليه وسلم متعبدا بشرع من قبله ، قواعد أن النهي يقتضى المضادة •

(ومن مؤلفاته في الفقه) شرح المحرر في مذهب الامام أحمد ، شرح العمدة لموفق الدين ، جواب مسائل وردت من أصبهان ، جواب مسائل وردت من الصلت ، جواب مسائل وردت من بغداد ، جواب مسائل وردت من الزرع ، جواب مسائل وردت من طرابلس ، قاعدة في المياه والمائعات وأحكامها ، جواب أربعين مسألة وردت من الوجنة ، الدرة المضية في فتاوى ابن تيمية ، المردانية الطرابلسية ، قاعدة فيحديث القلتين وعدم رفعه ، قواعد في الاستجمار وتطهير الارض بالشمس والريح ، جواز الاستجمار مع وجود الماء ، نواقض الوضوء ، قواعد في عدم نقضه بلمس النساء ، رسالة في أن التسمية على الوضوء خطأ ، القول بجواز المسح على الخفين ، جواز المسح على الخفين المتخرقين والجوربين واللفائف ، وفيمن لايعطى أجرة الحمام ، تحريم دخول النساء بلا مئزر في الحمام والاغتسال وذم الوسواس ، جواز طواف الحائض ، تيسير العبادات لارباب الضرورات بالتيمم والجمع بين الصلاتين للعذر ، كراهية التلفظ بالنية وتحريم الجهر بها في الاذكار ، كراهية تقديم بسط السجادة للمصلي قبل مجيئه ، الكلم الطيب في الركعتين اللتين تصلى قبل الجمعة وفي الصلاة بعد أذان الجمعة ، القنوت في الصبح والوتر ، تارك المثاني وكفره ، الجمع بين الصلاتين في السفر والحضر ، أهل البدع هل يصلى خلفهم ، صلاة بعض أهل المذاهب

خلف بعض ، الصلوات المبتدعة ، تحريم السماع ، تحريم الشبابة ، تحريم اللعب بالشطرنج ، تحريم الحشيشة المغيبة والحد عليها وتنجيسها ، النهي عن المشاركة في أعياد النصارى واليهود وايقاد النيران في الميلاد ونصف شعبان ومايفعل في عاشوراء، قاعدة في مقدار الكفارة باليمين ، وفي أن المطلقة ثلاثا لاتحل الا بنكاح زوج ثان ، بيان الحلال والحرام في الطلاق ، جواب من حلف لايفعل شيئا على المذاهب الاربعة ثم طلق ثلاثا في الحيض ، الفرق المبين بين الطلاق واليمين ، لمعة المختطف ، في الفرق بين الطلاق والحلف ، كتاب التحقيق في الفرق بين أهل الايمان والتطليق ، الطلاق البدعي لايقع ، مسائل الفرق بين الطلاق البدعي ونحو ذلك ، مناسك الحج في حجة النبي صلى الله عليه وسلم في العمرة المكية ، في شراء السلاح بتبوك ، وشرب السويق بالعقبة ، وأكل التمر بالروضة ، ومايلبس المحرم ، وزيارة الخليل عليه السلام عقب الحج ، وزيارة البيت المقدس مطلقا ، جميع ايمان المسلمين مكفرة ، بيان الدليل على أبطال التحليل ، الرسالة التدمرية ، جبل لبنان كأمثاله من الجبال ليس فيه رجال الغيب والابدال .

(ومن كتبه في أنواع شتى) الكلام على الفتوة المصطلحة ، وليس لها أصل متصل بعلي رضي الله عنه ، كشف حال الاحمدية وبيان أحوالهم الشيطانية ، مايقوله أهل بيت الشيخ عدي ، النجوم هل لها تأثير عند القران والمقابلة وهل يقبل قول المنجمين فيه رؤية الاهلة ، تحريم أقسام المعزمين بالعزائم المعجمة وصرع الصحيح وصفة الخواتيم ، أبطال الكيميا ولو صحت ، كتاب السياسة الشرعية ، كتاب التصوف ، كتاب الاستقامة ، كتاب تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية ، كتاب المحنة المصرية ، كتاب الفرقان بين أولياء الشيطان وأولياء الرحمن ، الرد على الاخنائي في في مسألة الرمادة ، طهارة بول مايؤكل لحمه ، الصارم المسلول على منتقص الرسول ، كتاب اقتضاء الصراط المستقيم ، جواب أهل الايمان في التفاضل بين آيات القرآن ، الرد على البكري في مسألة الاستغاثة ، التحرير في مسألة حفير ، سفر في مسألة القسمة كتبها اعتراضا على النحوي في حادثة حكم فيها ، الفرقان بين الحق والبطلان كتاب الوسيلة ، التحفة العراقية في الاعمال القلبية ، وله غير ذلك مما يطول ذكره ، وجميعها مفصلة مابين سفر وسفرين وأكثر ، مع سلاسة عبارة وذكر دليل ودفع ايراد وكل منها فريد في بابه حري بالتقريظ ، ولو تكلمنا على كل واحد منها بما يليق به من الثناء والمدح لاستوجب ذلك افراد مؤلف منفصل .

وأما انتقاد النبهاني (كتاب الجواب الصحيح ان الكتاب في غاية النفاسة لو خلا من التعرض لبدعه التي انفرد بها عن المسلمين الخ) .

(فجوابه) أن ماانتقده هو من محاسن الكتاب وأجل فصوله ، فان الاستغاثة بالمخلوق والاستعانة به والالتجاء به هو الذي كان من غلو أهل الكتاب ، وهو مذهب النصارى ، فان عبادة المسيح وأمه عبارة عن ذلك ، فلو لم يبطل هذا القول لما ساغ له الرد عليهم ، وكذلك الرد على القائلين بالحلول والاتحاد ، فانه لو لم يرد عليهم ويبطل دعواهم ويخرجهم عن الملة لما ساغ له ابطال قول النصارى في دعواهم حلول الاله في المسيح أو الاتحاد به أو نحو ذلك ، فان لقائل أن يقول حينئذ : انمن المسلمين من يقول باشنع من هذا القول ، وهو دعوي الحلول والاتحاد التي أبطلها الشيخ وغيره من العلماء الربانيين المتبعين لما جاء به الشرع المبين ولعلنا نبسط الكلام على ذلك فيما يناسب المقام ، ونذكر كلام من رد عليهم وأبطل دعواهم ، ونفصل القول فيهم تفصيلا ، هذا الذي نقمه النبهاني الزائغ وانتقد به كلام الشيخ من أوضح مايدل على زيغه واتباعه لهواه : (وما نقموا منهم إلاَّ أنْ يؤمنوا بالله العزيز الحميد) ومثل ماحكي الله عن اخوانه (أو كصيِّبٍ منَ السَّماء فيه ظُلُماتٌ ورعدٌ وبرقٌ يجعلونَ أصابعَهم في آذانهم منَ الصَّواعقِ حذرَ الموتِ واللهُ محيطٌ بالكافرينَ . يكادُ البرْقُ يخطفُ أبصارَهُم كُلَّما أضاءَ لهَمْ مشوْا فيهِ وإذا أظلَمَ عليهِم قاموا . ولوْ شاء اللهُ لذَهبَ بِسَمعِهمْ وأبصارِهمْ إنَّ اللهَ على كُلِّ شَيءٍ قديرٌ)[1]

وما أحسن ماقال القائل :

ومن يك ذا فم مر مريض   يجد مرا به الماء الزلالا

وقال آخر :

تعد ذنوبي عند قومي كثيرة   ولا ذنب لي الا العلا والفواضل

ولم يعرف النبهاني وأضرابه من الغلاة قدر كتب شيخ الاسلام وتمنى عدم وجودها وفقدها من العالم لأنها تبطل ماذهب اليه من الاقوال الفاسدة ، وتهدم

(1) البقرة : ١٩ ، ٢٠

بنيان أشياخه ، قال تعالى : (وَلَنْ تَرْضَى عنكَ اليهودُ ولا النصارى حتَّى تتبعَ مِلَّتهُم ، قُلْ إنَّ الهُدى هُدى الله ، ولئِنْ اتَّبَعْتَ أهواءَهُمْ بعْدَ الَّذي جاءكَ مِن العِلْمِ مالكَ مِنَ الله مِنْ وليٍّ ولا نَصيرٍ)[1] وأهل الحق وذوو البصائر اذا ظفروا بكتاب من كتبه تراهم كأنهم ظفروا بكنز من كنوز العلم ، وقد رأيت كتابا كتب على ظهر ترجمة شيخ الاسلام وبيان مناقبه ، وهي : (الدرر البهية ، في ترجمة شيخ الاسلام ابن تيمية) للحافظ الشيخ شمس الدين بن عبد الهادي المقدسي ، وذلك الكتاب أرسله بعض أفاضل العراق المعاصرين لشيخ الاسلام ، وكان من أكابر الشافعية ، وهو العلامة الشيخ عبد الله بن حامد وكتابه هذا :

(بسم اللها لرحمن الرحيم) من أصغر العباد عبد الله بن حامد ، الى الشيخ الامام العالم العامل ، قدوة الافاضل والمحافل ، المحامي عن دين الله ، والذاب عن سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، المعتصم بحبل الله ، الشيخ المكرم المبجل أبي عبد الله أسبغ اللهعليه نعمه ، وأيد باصابة الصواب لسانه وقلمه ، وجمع له بين السعادتين ، ورفع درجته في الدارين بمنه ورحمته ، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته •

(أما بعد) فاني أحمد اليك الله الذي لا اله الا هو ، ثم وافاني كتابك وأنا اليك بالاشواق ، ولم أزل سائلا ومستخبرا الصادر والوارد عن الانباء التي طاب مسموعها ، وسر مايسر منها ، وما تأخر كتابي عنك هذه المدة مللا ولا خللا بالمودة ، ولا تهاونا بحقوق الاخاء ، حاش لله أن يشوب الاخوة في الله جفاء ، ولا أزال أتعلل بعد وفاة الشيخ الامام امام الدنيا رضي الله تعالى عنه بالاسترواح الى اخبار تلامذته واخوانه ، وأقاربه وعشيرته ، والخصيصين به ، لما في نفسي من المحبة الضرورية التي لايدفعها شيء ، على الخصوص لما اطلعت على مباحثه واستدلالاته التي تزلزل أركان المبطلين ، ولا يثبت في ميدانها سفسطة المتفلسفين ، ولا يقف في حلباتها أقدام المبتدعين من المتكلمين •

وكنت قبل وقوفي على مباحث امام الدنيا رحمه الله قد طالعت مصنفات المتقدمين ووقفت على مقالات المتأخرين من أهل الاسلام ، فرأيت فيها الزخارف

---

(١) البقرة : ١٢٠

والاباطيل ، والشكوك التي يأنف المسلم الضعيف في الاسلام أن تخطر بباله فضلاعن القوي في الدين ، فكان يتعب قلبي ويحزنني مايصير اليه الاعاظم من المقالات السخيفة ، والآراء الضعيفة ، التي لايعتقد جوازها آحاد الامة ، وكنت أفتش على السنة المحضة في مصنفات المتكلمين من أصحاب الامام أحمد رحمه الله على الخصوص ، لاشتهارهم بمنصوصات امامهم في أصول العقائد ، فلا أجد عندهم مايكفي ، وكنت أراهم يتناقضون اذ يؤصلون أصولا يلزم فيها ضد مايعتقدونه ، ويعتقدون خلاف مقتضى أدلتهم ، فاذا جمعت بين أقاويل المعتزلة والاشعرية وحنابلة بغداد وكرامية خراسان أرى أن اجماع هؤلاء المتكلمين في المسألة الواحدة على مايخالف الدليل العقلي والنقلي ، فيسوئني ذلك وأظل أحزن حزنا لايعلم كنهه الا الله ، حتى قاسيت من مكابدتي هذه الامور شيئا عظيما لاأستطيع شرح أيسره ، وكنت التجيء الى الله سبحانه وتعالى وأتضرع اليه وأهرب الى ظواهر النصوص ، وألقي المعقولات المتباينة والتأويلات المصنوعة لنبوة الفطرة عن قبولها ، ثم قد تشبثت فطرتي بالحق الصريح في أمهات المسائل غير متجاسرة على التصريح بالمجاهرة قولا وتصحيحا للعقد ، حيث لاأراه مأثورا عن الأئمة وقدماء السلف ، الى أن قدر الله سبحانه وقوع تصنيف الشيخ الامام امام الدنيا في يدي قبيل واقعته الاخيرة بقليل ، فوجدت فيه مابهرني في موافقة فطرتي ، لما فيه من عزو الحق الى أئمة السنة وسلف الامة مع مطابقة المعقول والمنقول ، فبهت لذلك سرورا بالحق ، وفرحا بوجود الضالة التي ليس لفقدها عوض ، فصارت محبة هذا الرجل رحمه الله محبة ضرورية تقصر عن شرح أقلها العبارة ولو أطنبت •

ولما عزمت على المهاجرة الى لقيه وصلني خبر اعتقاله ، وأصابني لذلك المقيم المقعد ، ولما حججت سنة ثمان وعشرين وسبعمائة صممت العزم على السفر الى دمشق لأتوصل الى ملاقاته ببذل ماأمكن من النفس والمال للتفريج عنه ، فوافاني خبر وفاته رحمه الله تعالى مع الرجوع الى العراق قبيل وصولي الى الكوفة ، فوجدت عليه مالايجده الاخ على شقيقه ، واستغفر الله بل ولا الوالد الثاكل على ولده ، وما دخل على قلبي من الحزن لموت أحد من الولد والاقارب والاخوان كما وجدته عليه رحمه الله تعالى ، ولا تخيلته قط في نفسي ولا تمثلته في قلبي الا ويتجدد لي حزن جديد كأنه محدث ، ووالله ماكتبتها الا وأدمعي تتساقط عند ذكره أسفا على فراقه وعدم ملاقاته ، فانا لله وانا اليه راجعون ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم •

وماشرحت هذه النبذة من محبة الشيخ رحمه الله تعالى الا ليتحقق بعدي عن تلك الوهوم ، لكن لما سبق الوعد الكريم منكم بانفاذ فهرس مصنفات الشيخ رضي الله تعالى عنه وتأخر ذلك عني : اعتقدت أن الاضراب عن ذلك نوع تقية ، أو لعذر لايسعني السؤال عنه ، فسكت عن الطلب خشية أن يلحق أحدا ضرر والعياذ بالله بسببي لما كان قد اشتهر من تلك الاحوال ، فان أنعمتم بشيء من مصنفات الشيخ رحمه الله تعالى كانت لكم الحسنة عند الله علينا بذلك ، فما أشبه كلام هذا الرجل بالتبر الخالص المصفى ، وقد يقع في كلام غيره من الغش والشبه المدلس بالتبر مالايخفى على طالب الحق بحرص وعدم هوى ، ولا أزال أتعجب من المنتسبين الى حب الانصاف في البحث المبرزين على أهل التقليد أن المعقولات التي يزعمون أن مستندهم الاعظم الصريح منها كيف يباينون ماأوضحه الحق وكشف عن قناعه •

وقد كان الواجب على الطلبة شد الرحال اليه من الافاق ليروا العجب ، وما أشبه حال المباينين له — من المنتسبين للعلم الطالبين للحق الصريح الذي أعياهم وجد أنه — بحال قوم ذبحهم العطش والظمأ في بعض المفازاة ، فحين أشرفوا على التلف لمع لهم شط كالفرات أو دجلة أو كالنيل ، فعند معاينتهم لذلك اعتقدوه سرابا لاشرابا ، فتولوا عنه مدبرين ، فتقطعت أعناقهم عطشا وظمأ ، فالحكم لله العلي الكبير •

وما أرسلنا المقابلة من الطرفين ففيه تعسف وتمهدون العذر في الاطناب [1] فهذا الذي ذكرته من حالي مع الشيخ كالقطرة من البحر ، وان أنعمتم بالسلام على أصحاب الشيخ وأقاربه كبيرهم وصغيرهم كان ذلك مضافا الى سابق أنعامكم ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، وأنتم في أمان الله تعالى ورعايته ، والحمد لله وحده — وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم ، (عبد الله بن حامد) ،

(وأما قول النبهاني) وهذا دأبه في كتبه ، ولذلك قلل الله النفع بها ، كما جرت عادته فيمن يتعرض لاوليائه بالسوء الخ •

(فجوابه) أن من الواجب على العالم أن يظهر علمه والا ألجمه الله بلجام من نار ، قال تعالى : (وَالعَصْرِ إنَّ الانسانَ لَفي خُسْرٍ إلاَّ الَّذين آمنوا وعمِلوا الصَّالحاتِ وتَواصَوا بالحَقِّ وتَواصَوا بالصَّبْرِ).

قال الامام الشافعي : لو فكر الناس كلهم في هذه السورة لكفتهم ، وبيان ذلك

(١) كذا في الاصل ، وفي العبارة شيء من عدم الوضوح •

أن المراتب أربعة ، وباستكمالها يحصل للشخص غاية كماله .

(احداها) معرفة الحق .

(الثانية) عمله به .

(الثالثة) تعليمه من لايحسنه .

(الرابعة) صبره على تعلمه والعمل به وتعليمه .

فذكر تعالى المراتب الاربعة في هذه السورة ، وأقسم سبحانه في هذه السورة بالعصر أن كل أحد في خسر ، الا الذين آمنوا : وهم الذين عرفوا الحق وصدقوا به فهذه مرتبة ، وعملوا الصالحات : وهم الذين عملوا بما علموه من الحق ، فهذه مرتبة أخرى . وتواصوا بالحق : وصى به بعضهم بعضا تعليما وارشادا ، فهذه مرتبة ثالثة ، وتواصوا بالصبر : صبروا على الحق ووصى بعضهم بعضا بالصبر عليه والثبات ، فهذه مرتبة رابعة ، وهذا نهاية الكمال ، فان الكمال أن يكون الشخص كاملا في نفسه مكملا لغيره ، وكماله باصلاح قوتيه العلمية والعملية ، فصلاح القوة العلمية بالايمان ، وصلاح القوة العملية بعمل الصالحات ، وتكميله غيره بتعليمه اياه وصبره عليه ، وتوصيته بالصبر على العلم والعمل ، فهذه السورة على اختصارها هي من أجمع سور القرآن للخير بحذافيره ، والحمد لله الذي جعل كتابه كافيا عن كل ماسواه ، شافيا من كل داء ، هاديا الى كل خير اه .

فعلم أنه يجب على العالم أن يصدع بالحق وان كثر المخالفون له ، وقد رأى من الحق التنبيه على الفرق بين أولياء الشيطان وأولياء الرحمن ، وقد أطنب الكلام في ذلك ، ومما قال : وقد ظن طائفة غالطة أن خاتم الاولياء يكون أفضل الاولياء قياسا على خاتم الانبياء ، ولم يتكلم أحد من المشايخ المتقدمين بخاتم الاولياء الا محمد بن حكيم الترمذي صنف فيه مصنفا غلط فيه في مواضع ، ثم صار طائفة من المتأخرين يزعم كل منهم أنه خاتم الاولياء ، ومنهم من يدعي أن خاتم الاولياء أفضل من خاتم الانبياء من جهة العلم بالله ، وأن الانبياء يستفيدون العلم بالله من جهته ، كما زعم ذلك ابن العربي صاحب كتاب (الفتوحات) في كتاب (الفصوص) فخالفوا الشرع والعقل مع مخالفة جميع أنبياء الله وأولياء الله ـ كما يقال لمن قال : (فخر عليهم السقف من تحتهم) لاعقل ولا قرآن ـ وذلك لأن الانبياء أسبق في الزمان من أولياء هذه الامة ، والانبياء عليهم الصلاة والسلام أفضل من الاولياء ، فكيف يكون الانبياء كلهم والاولياء يستفيدون معرفة الله ممن يأتي بعدهم ويدعي أنه خاتم الاولياء ، وليس آخر الاولياء أفضلهم كما أن آخر الانبياء أفضلهم ، فان فضل محمد

صلى الله عليه وسلم على سائر الانبياء ثبت بالنصوص الدالة على ذلك ، كقوله صلى الله عليه وسلم : (أنا سيد ولد آدم ولا فخر) وقوله : (آتي باب الجنة فاستفتح فيقول الخازن : من أنت ؟ فأقول : محمد ، فيقول : بك أمرت أن لاأفتح لاحد قبلك) وليلة المعراج رفع الله درجته فوق الانبياء كلهم ، فكان أحقهم بقوله تعالى :

(تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُم عَلَى بَعْضٍ مِنْهم مَن كَلَّم الله وَرَفَع بَعْضَهم دَرَجَاتٍ)[1]

الى غير ذلك من الدلائل ، والانبياء كلهم يأتيه الوحي من الله لاسيما محمد صلى الله عليه وسلم لم يكن في نبوته محتاجا الى غيره ، فلم تحتج شريعته لا الى نبي سابق ولا الى لاحق ، بخلاف غيره ، فان المسيح أحالهم في أكثر الشريعة على التوراة ، وشريعة التوراة جاء المسيح بتكميلها ، ولهذا كان النصارى محتاجين الى النبوة المتقدمة على المسيح كالتوراة والزبور ، وتمام الاربع والعشرين نبوة ، وكان الامم قبلنا محتاجين الى المحدثين ، بخلاف أمة محمد صلى الله عليه وسلم فان الله أغناهم به فلم يحتاجوا معه لا الى نبي ولا الى محدث، جمع له من الفضائل والمعارف والاعمال الصالحة مافرقه في غيره من الانبياء ،فكان مافضله الله به من الله ـ بما أنزل الله وأرسله اليه ـ لابتوسط بشر ، وهذا بخلاف الاولياء فان كل من بلغه رسالة محمد صلى الله عليه وسلم لايكون وليا الا باتباع محمد صلى الله عليه وسلم ، فكل ماحصل له من الهدى ودين الحق بتوسط محمد صلى الله عليه وسلم ، وكذلك من بلغته رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم لايكون وليا لله الا اذا اتبع ذلك الرسول الذي أرسله اليه ، ومن ادعى أن من الاولياء الذين بلغتهم رسالة محمد صلى الله عليه وسلم من له طريق الى الله لايحتاج فيه الى محمد فهو كافر ملحد ، واذا قال : أنا محتاج الى محمد صلى الله عليه وسلم في علم الظاهر دون الباطن ، أو في الشريعة دون علم الحقيقة : فهو أشر من اليهود والنصارى الذين قالوا ان محمدا رسول الى الاميين دون أهل الكتاب ، فان أولئك آمنوا ببعض ماجاء به وكفروا ببعض ، فكانوا كفارا بذلك ، وكذلك هذا الذي يقول ان محمدا بعث بعلم الظاهر دون الباطن آمن ببعض ماجاء به وكفر ببعض ، وهذا كافر أكفر من أولئك ، لأن علم الباطن الذي هو علم ايمان القلوب ومعارفها وأحوالها هو علم بحقائق الايمان الباطنة ، وهذا أشرف من العلم بمجرد أعمال الاسلام الظاهرة ، فاذا ادعى المدعي أن محمدا انما علم هذه

---

(١) البقرة : ٢٥٣

الامور الظاهرة دون حقائق الايمان وأنه لايأخذ الحقائق من الكتاب والسنة فقد ادعى أن بعض الذي آمن به مما جاء به الرسول دون البعض الآخر ، وهذا شر ممن يقول أومن ببعض وأكفر ببعض ولا يدعي أن هذا البعض الذي آمن به أولى القسمين ، وهؤلاء الملاحدة قد يدعون أن الولاية أفضل من النبوة ، ويلبسون على الناس ، ويقولون : ان ولاية محمد صلى الله عليه وسلم أفضل من نبوته وينشدون :

مقام النبوة في برزخ فويق الرسول ودون الولي

ويقولون : نحن شاركناه في ولايته التي هي أعظم من رسالته ، وهذا من أعظم ضلالهم ، فان ولاية محمد صلى الله عليه وسلم لم يماثله فيها أحد ، لاابراهيم ، ولا موسى ، فضلا عن أن يماثله فيها هؤلاء الملاحدة ، وكل رسول نبي وكل نبي ولي ، فالرسول نبي وولي ، ورسالته متضمنة للنبوة ، ونبوته متضمنة لولايته ، فكيف تكون ولايته المتضمنة في نبوته أفضل من نبوته الداخلة في ولايته ؟ واذا قدروا مجرد انباء الله اياه بدون ولايته لله فهذا تقدير ممتنع ، فانه حال انباء الله اياه يمتنع أن لايكون وليا لله ، فلا تكون نبوة مجردة عن ولاية ، ولو قدرت مجردة لم يكن أحد مماثلا للرسول في ولايته لله ، وهؤلاء قد يقولون — كما يقول صاحب الفصوص ابن عربي — انهم يأخذون من المعدن الذي يأخذ منه الملك الذي يوحى به الى الرسول ، وذلك أنهم اعتقدوا عقيدة ملاحدة المتفلسفة ثم أخرجوها في قالب الكشف وذلك أن المتفلسفة الذين قالوا ان الافلاك قديمة أزلية لها علة شبيهة بهما — كما يقول أرسطو وأتباعه — أولها موجب بذاته — كما يقوله متأخروهم كابن سينا وأمثاله — ولا يقولون ان الرب خلق السموات والارض وما بينهما في ستة أيام ، ولا خلق الاشياء بمشيئته وقدرته ، ولا يعلم الجزئيات ، بل اما أن ينكروا علمه مطلقا — كقول أرسطو — أو يقولون انما يعلم من الامور المتغيرة كلياتها كما يقوله ابن سينا.

وحقيقة هذا القول انكار علمه بها ، فان كل موجود في الخارج فهو معنى جزئي ، والافلاك كل منها معنى جزئي ، وكذلك جميع الاعيان وصفاتها وأفعالها ، فمن لم يعلم الا الكليات لم يعلم شيئا من الموجودات ، والكليات انما توجد كليات في الاذهان لا في الاعيان ، والكلام على هؤلاء قد بسط في موضع آخر في بحث تعارض العقل والنقل وغيره ، فان كفر هؤلاء أعظم من كفر اليهود والنصارى ، بل ومشركي العرب ، اذ جميع هؤلاء يقولون ان الله خلق السموات والارض ، وأنه يخلق المخلوقات بمشيئته وقدرته ، وأرسطو ونحوه من متفلسفة اليونان كانوا يعبدون الكواكب والاصنام ، وهم لايعرفون الملائكة ولا الانبياء ، وليس في كتب أرسطو ذكر شيء

من ذلك ، وانما غالب علم القوم الامور الطبيعية ، وأما الامور الالهية فكلامهم فيها قليل كثير الخطأ •

واليهود والنصارى بعد النسخ والتبديل أعلم بالالهيات منهم بكثير ، ولكن متأخروهم كابن سينا أرادوا أن يلفقوا بين كلام أولئك وبين ماجاءت به الرسل ، فأخذوا شيئا من بعض أصول الجهمية والمعتزلة وركبوا منه ومن قول أولئك مذهبا قد يعتزي اليه متفلسفة أهل الملل ، وفيه من الفساد والتناقض ماقد نبه على بعضه في غير هذا الموضع •

وهؤلاء لما رأوا أن أمر الرسل ــ كموسى وعيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم ــ قد ظهر للعالم واعترفوا بأن الناموس الذي بعث به محمد صلى الله عليه وسلم أعظم ناموس طرق العالم ووجدوا الانبياء قد ذكروا الملائكة والجن : أرادوا أن يجمعوا بين ذلك وبين قول أسلافهم اليونان ، الذين هم من أبعد الخلق عن معرفة الله وملائكته وكتبه ورسله ، وأولئك قد أثبتوا عقولا عشرة يسمونها المجردات والمفارقات ، وأصل ذلك مأخوذ من مفارقة النفس للبدن ، فسموا تلك مفارقة لمفارقتها المادة ومجرد لتجردها عنها ، وأثبتوا للافلاك لكل فلك نفسا ، وأكثرهم جعلها اعراضا ، وبعضهم جعلها جواهر ، وهذه المجردات التي أثبتوها ترجع عند التحقيق الى أمور موجودة في الاذهان لا في الاعيان ، كما أثبت أصحاب أرسطو أعدادا مجردة ، وكما أثبت أفلاطون المثل الافلاطونية المجردة ، وأثبتوا هيولى مجردة عن الصورة مدة وخلاء مجردين ، وقد اعترف حذاقهم بأن ذلك انما يتحقق في الاذهان لا في الاعيان •

فلما أراد هؤلاء المتأخرون منهم كابن سينا أن يثبتوا أمر النبوة على أصولهم الفاسدة زعموا أن النبوة لها خصائص ثلاثة من اتصف بها فهو نبي : أن يكون له قوة علمية يسمونها القوة القدسية ينال بها العلم بلا تعلم ، وأن يكون له قوة تخييلية تخيل مايعقله في نفسه بحيث يرى في نفسه صورا ويسمع في نفسه صوتا كما يراه النائم ويسمعه ولا يكون لها وجود في الخارج ، وزعموا أن تلك الصور هي ملائكة الله وتلك الاصوات هي كلام الله ، وأن يكون له قوة فعالة يؤثر بها في هيولي العالم ، وجعلوا كرامات الاولياء ومعجزات الانبياء وخوارق السحرة من قوى النفس ، فأقروا من ذلك بما يوافق أصولهم دون قلب العصا حية ودون انشقاق القمر ونحو ذلك فانهم ينكرون وجود هذا ، وقد بسطنا الكلام على هؤلاء في مواضع ،

وبينا أن كلامهم هذا من أفسد كلام ، وأن هذا الذي جعلوه من خصائص النبي يحصل ماهو أعظم منه لآحاد العامة ولأقل أتباع الانبياء ، وأن الملائكة التي أخبرت بها الرسل أحياء ناطقون أعظم مخلوقات الله ، وهم كثيرون ، ولا يعلم جنود ربك الا هو ، وليسوا عشرة ، وليسوا أعراضا ، لاسيما وهؤلاء يزعمون أن الصادر الاول هو العقل الاول عنه صدر كل ماسواه ، فهو عندهم رب كل ماسوى الله .

وكذلك كل عقل رب كل مادونه ، والعقل الفعال العاشر رب كل ماتحت فلك القمر ، وهذا مما يعلم فساده بالاضطرار من دين الرسل فليس أحد من الملائكة مبدعا لكل ماسوى الله ، وهؤلاء يزعمون أن العقل الاول هو العقل المذكور في حديث يروى (ان أول ماخلق الله العقل فقال له أقبل فأقبل ، فقال له أدبر فأدبر ، فقال وعزتي ماخلقت خلقا أكرم على منك ، فبك آخذ ، وبك أعطي ، وبك الثواب وعليك العقاب) ويسمونه أيضا القلم لما رأوا أنه قد روى (ان أول ماخلق الله القلم) والحديث الذي ذكروه في العقل كذب موضوع عند أولى المعرفة بالحديث ، كما ذكر ذلك أبو حاتم البيهقي ، وأبو الحسن الدار قطنى ، وابن الجوزي وغيرهم،وليس هو في شيء من دواوين الحديث التي يعتمد عليها ، ومع هذا فلفظه لو كان ثابتا لكان حجة عليهم ، فان لفظه (أول ماخلق الله العقل قال له) ويروى (لما خلق الله العقل قال له) وفي الحديث أنه خاطبه في أول أوقات خلقه ليس معناه أنه أول المخلوقات ، وأول منصوب على الظرف كما في اللفظ الآخر لما ، وتمام الحديث : (ماخلقت خلقا أكرم على منك) فهذا يقتضي أنه خلق قبله غيره ، ثم قال : (فبك آخذ ، وبك أعطي ، وبك الثواب ، وعليك العذاب) فذكر أربعة أنواع من الاعراض ، وعندهم أن جميع جواهر العلوي والسفلي صدر عن ذلك العقل فأين هذا من هذا ؟!

وسبب غلطهم : أن لفظ العقل في لغة المسلمين ليس هو لفظ العقل في لغة هؤلاء اليونانيين ، فان العقل في لغة المسلمين مصدر عقل يعقل عقلا كما في القرآن : (وقالوا لو كُنَّا نسْمعُ أَو نعقِلُ ما كُنَّا في أَصحابِ السَّعيرِ) وقوله تعالى : (إِنَّ في دلكَ لآياتٍ لقَومٍ يعقِلونَ) [١] (أَفَلَم يسيروا في الأَرْضِ فتكونَ لهمْ قُلوبٌ يعْقِلونَ بِها) [٢] ويراد بالعقل الغريزة التي جعلها الله للانسان يعقل بها ، وأما أولئك فالعقل عندهم جوهر قائم بنفسه كالعاقل ، وليس هذا مطابقا للغة الرسول

(١) النحل : ١٢ (٢) الحج : ٤٦

صلى الله عليه وسلم والقرآن ،وعالم الخلق عندهم كما يذكره أبوحامد عالم الاجسام، وأما العقول والنفوس فيسميها عالم الامر ، وقد يسمى العقل عالم الجبروت ، والنفوس عالم الملكوت ، والاجسام عالم الملك، ويظن من لايعرف لغة الرسول ومعاني الكتاب والسنة أن في القرآن والسنة من ذلك الملك والملكوت والجبروت مايوافق هذا وليس الامر كذلك .

وهؤلاء يلبسون على المسلمين تلبيسا كثيرا ، كاطلاقهم أن الفلك محدث أي معلول مع أنه قديم عندهم ، والمحدث لايكون الا مسبوقا بالعدم ، ليس في لغة العرب ولا في لغة أحد أنه يسمى القديم الازلي محدثا ، والله سبحانه قد أخبر أنه خالق كل شيء ، وكل مخلوق فهو محدث ، وكل محدث كائن بعد أن لم يكن ، لكن ناظرهم أهل الكلام من الجهمية والمعتزلة مناظرة قاصرة لم يعرفوا بها ماأخبر به الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولا حكموا فيها قضايا العقول ، فلا للاسلام نصروا ، ولا لاعدائه كسروا ، وشاركوا أولئك في بعض قضاياهم الفاسدة ، ونازعوهم في بعض المعقولات الصحيحة ، فصار قصور هؤلاء في العلوم السمعية والعقلية من أسباب قوة ضلال أولئك ، كما بسط في غير هذا الموضع .

وهؤلاء المتفلسفة قد يجعلون جبرائيل هو الخيال الذي يتشكل في نفس النبي والخيال تابع للعقل ، فجاء الملاحدة الصوفية الذين شاركوا هؤلاء المتفلسفة وزعموا أنهم أولياء الله ، وأن الولي أفضل من النبي ، وأنهم يأخذون عن الله بلا واسطة ، كابن عربي صاحب الفتوحات والفصوص ، فقال : انه يأخذ من المعدن الذي يأخذ منه الملك الذي يوحي به الى الرسول ، والمعدن عنده هو العقل ، والملك هو الخيال ، والخيال تابع للعقل ، وهو بزعمه يأخذ عن العقل الذي هو أصل الخيال والرسول يأخذ عن الخيال ، فلهذا صار عند نفسه فوق النبي ، ولو كان خاصة النبي ماذكروه لم يكن هو من جنسه فضلا عن أن يكون فوقه ، فكيف وما ذكروه يحصل لآحاد المؤمنين ، والنبوة أمر وراء ذلك ؟ فان ابن عربي وأمثاله وان ادعوا أنهم من الصوفية فهم من الصوفية الملاحدة الفلاسفة ، ليسوا من صوفية أهل الكلام فضلا عن أن يكونوا من مشائخ أهل الكتاب والسنة كالفضيل ابن عياض ، وابراهيم بن الادهم وأبي سليمان الداراني ، ومعروف الكرخي ، والجنيد بن محمد ، وسهل ابن عبد الله التستري ، وأمثاله .

والله سبحانه قد وصف الملائكة في كتابه بصفات تباين قول هؤلاء كقوله

تعالى: ﴿ وقالوا اتَّخذ الرَّحمنُ ولداً سُبحانهُ بلْ عبادٌ مُكْرَمونَ . لا يسبِقونهُ بالقولِ وهُم بأَمرِه يعمَلونَ . يعلَم ما بينَ أَيديهم وما خلفَهمْ ﴾ الى قوله: ﴿ وهُم منْ خَشيَتِه مُشفقونَ . ومَن يَّقُلْ منهُم إني إلـهٌ منْ دونِه فذلكَ نَجزيهِ جهنَّمَ كذلكَ نجْزي الظَّالمينَ ﴾[1] وقال تعالى: ﴿ وكَمْ مِن مَّلَكٍ في السَّموات لا تُغني شفاعَتهم شيْئاً ﴾ الى قوله ﴿ ويرضى ﴾[2] وقال تعالى: ﴿ قُل ادْعوا الَّذين زعَمْتُمْ مِنْ دونِ الله لا يملِكونَ مثقالَ ذرَّةٍ في السَّموات ولا في الأَرضِ وما لهمْ فيهما مِنْ شركٍ وما لَهُ منهُمْ مِنْ ظهيرٍ . ولا تنفَعُ الشفَّاعةُ عنْدَه إلاَّ لمنْ أَذنَ لهُ ﴾[3] وقال تعالى: ﴿ ولهُ مَنْ في السَّموات والأَرضِ ومَنْ عندَهُ لا يستَكبِرونَ عنْ عبادتهِ ولا يستَحْسِرونَ . يُسبِّحونَ اللَّيلَ والنَّهارَ لا يفْتُرون ﴾[4] وقد أخبر أن الملائكة جاءت ابراهيم في صورة البشر، وأن الملك تمثل لمريم بشرا سويا، وكان جبرائيل يأتي النبي صلى الله عليه وسلم في صورة دحية الكلبي، وفي صورة الاعرابي، فرآهم الناس كذلك، وقد وصف جبرائيل بأنه ذوقوة عندذي العرش مكين، مطاع ثم أمين، وأن محمدا صلى الله عليه وسلم رآه بالافق المبين، ووصف بأنه: ﴿ شديدُ القُوى . ذو مِرَّةٍ فاسْتوى ، وهو بالأُفُقِ الأَعلى ، ثُمَّ دَنا فتدلَّى ، فكانَ قابَ قوْسينِ أَو أَدنى ، فأوحى إلى عَبدهِ ما أَوحى ﴾ الى قوله: ﴿ ولقد رأى منْ آياتِ ربِّه الكُبرى ﴾[5]:

وقد ثبت في الصحيحين عن عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه لم ير جبرائيل في الصورة التي خلق عليها الا مرتين، يعني مرة في الافق الاعلى، والنزلة الاخرى عند سدرة المنتهى، ووصف جبرائيل في مواضع أخر بأنه الروح الامين، ووصفه بأنه روح القدس، الى غير ذلك من الصفات التي تبين منها أنه من أعظم مخلوقات الله الاحياء العقلاء، وأنه جوهر قائم بنفسه، ليس خيالا في نفس النبي

---

(١) الانبياء: ٢٦ ـ ٢٩ (٢) النجم: ٢٦ (٣) سبأ: ٢٢، ٢٣ (٤) الانبياء: ١٩، ٢٠ (٥) النجم: ٥ ـ ١٨

كما زعمه هؤلاء الملاحدة المتفلسفة المدعون ولاية الله وأنهم أعلم من الانبياء ، وغاية تحقيق هؤلاء انكار أصول الايمان ، فان أصول الايمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وحقيقة أمرهم جحد الخالق ، فانهم جعلوا وجود المخلوق هو وجود الخالق ، وقالوا الوجود واحد ، ولم يميزوا بين الواحد بالعين والواحد بالنوع ، فان الموجودات اشتركت في مسمى الوجود كما يشترك الناس في مسمى الانسان والحيوانات في مسمى الحيوان ، ولكن هذا المشترك الكلي لايكون مشتركا كليا الا في الذهن ، والا فالحيوانية القائمة بهذا الانسان ليست هي الحيوانية القائمة بالنفوس ، ووجود السموات ليس بعينه وجود الانسان ، فوجود الخالق جل جلاله مباين لوجود مخلوقاته ، وحقيقة قولهم قول فرعون الذي عطل الصانع ، فانه لم ينكر هذا الوجود المشهود لكن زعم أنه موجود بنفسه لا صانع له ، وهؤلاء وافقوه في ذلك ولكن زعموا أنه هو الله ، فكانوا أضل منه ، وان كان هو أظهر فسادا منهم ، ولهذا جعلوا عباد الاصنام ماعبدوا الا الله ، وقالوا : لما كان فرعون في منصب التحكم صاحب السيف قال أنا ربكم الاعلى وان كان الكل أربابا بنسبة ما فانا ربكم الاعلى بما أعطيته في الظاهر من الحكم فيكم ، قالوا ولما علمت السحرة صدق فرعون فيما قال أقروا له بذلك وقالوا له اقض ماأنت قاض ، انما تقضي هذه الحياة الدنيا قالوا فصح قول فرعون أنا ربكم الاعلى وان كان فرعون على عين الحق .

ثم أنكروا حقيقة اليوم الآخر فجعلوا أهل النار يتنعمون كما يتنعم أهل الجنة، فصاروا كافرين بالله وباليوم الآخر وبملائكته وكتبه ورسله مع دعواهم انهم خلاصة الخاصة من أهل الله وأنهم أفضل من الانبياء ، وأن الانبياء انما يعرفون الله من مشكاتهم، وليس هذا موضع بسط بيان الحاد هؤلاء ، ولكن لما كان الكلام في أولياء الله والفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان وكان هؤلاء من أعظم الناس دعوى لولاية الله وهم من أعظم الناس ولاية للشيطان فنبهنا على ذلك ، ولهذا عامة كلامهم انما هو في الخيالات الشيطانية ، ويقولون مايقول صاحب الفتوحات بأن أرض الحقيقة : هي أرض الخيال ، فيعترف بأن الحقيقة التي يتكلم فيها هي خيال ، والخيال محل تصرف الشيطان فان الشيطان يخيل للانسان الامور بخلاف ماهي ، قال تعالى : (ومَنْ يعْشُ عَن ذِكْر الرَّحْمٰنِ نُقيِّضْ لهُ شَيْطاناً فهوَ لهُ قرين

وإنهم ليصدّونهم) الى قوله : (فبئسَ القَرينُ)[1] وقال تعالى : (إن اللهَ لا يغفرُ أنْ يُشرَكَ به ويغفرُ ما دونَ ذلكَ لمنْ يشاءُ ومَنْ يُشركْ باللهِ فقدْ ضلَّ ضلالاً بعيداً) الى قوله : (يعدُهم ويُمنّيهمْ وما يعدُهُم الشَّيطانُ إلاَّ غروراً)[2] وقال تعالى : (وقالَ الشَّيطانُ لما قُضيَ الأمرُ إن اللهَ وعدَكُم وعْدَ الحقّ) الى قوله : (إني كَفَرْتُ بما أَشرَكتُمونِ منْ قبلُ)[3] وقال تعالى : (وإذْ زيَّنَ لهمُ الشَّيطانُ أعمالَهم وقال لا غالبَ لكُمُ اليومَ منَ النَّاسِ وإني جارٌ لكمُ) الى قوله : « إني اخافُ اللهَ واللهُ شديدُ العقابِ)[4].

وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح أنه رأى جبرائيل ينزع الملائكة ، والشياطين اذا رأت ملائكته التي يؤيد بها عباده هربت منهم ، والله يؤيد عباده المؤمنين بملائكته ، قال تعالى : (إذْ يُوحي ربُّكَ الى الملائكةِ أنّي مَعكمُ فثبّتوا الّذينَ آمنوا)[5] وقال تعالى : (يا أيُّها الّذين آمنوا اذْكُروا نعمة اللهِ عليكمُ إذْ جاءتكمُ جُنودٌ) الى قوله (وجنوداً لمْ تروْها)[6] وقال تعالى : (ثمَّ أنزلَ اللهُ سكينتَهُ على رسولهِ وعلى المؤمنينَ وأنزلَ جنوداً لم تروْها)[7] وقال تعالى : (إذْ يقولُ لصاحبه لا تحزَنْ انَّ اللهَ معَنا فأنزلَ اللهُ سكينَتَهُ عليه وأيَّدهُ بجنودٍ لم تروْها)[8] وقال تعالى : (إذْ تقولُ للمؤمنينَ ألنْ يكفيَكمُ أنْ يمدَّكُم ربُّكمُ بثلاثةِ آلافٍ منَ الملائكةِ مُنزَلينَ . بلى إنْ تصبِروا وتتَّقوا ويأتوكُم مّن فورِهمْ هذا يمدِدْكُم ربُّكمُ بخمسةِ آلافٍ مّنَ الملائكةِ مُسوِّمينَ وما جعلَهُ اللهُ إلاَّ بُشرى لكمُ ولتطمئنَّ قلوبُكمُ بهِ وما النَّصرُ إلاَّ منْ عندِ اللهِ)[9].

وهؤلاء تأتيهم أرواح فتخاطبهم وتتمثل لهم وهي جن وشياطين فيظن أنهـــا

---

(١) الزخرف : ٣٦ ـ ٣٨ (٢) النساء : ١١٦ ـ ١٢٠ (٣) ابراهيم : ٢٢ (٤) الانفال : ٤٨ (٥) الانفال : ١٢ (٦) الاحزاب : ٩ (٧) التوبة : ٢٦ (٨) التوبة : ٤٠ (٩) آل عمران : ١٢٤ ـ ١٢٦

ملائكة كالارواح التي تخاطب من يعبد الكواكب والاصنام ، وكان من أول من ظهر من هؤلاء في الاسلام المختار بن عبيد الثقفي ، الذي أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم في صحيحه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (سيكون في ثقيف كذاب ومبير) فكان الكذاب : المختار ابن عبيد الثقفي ، وكان المبير الحجاج بن يوسف ، فقيل لابن عمر : ان المختار يزعم أنه ينزل عليه ، فقال : صدق ، قال تعالى : (هلْ أُنبِّئُكم على مَنْ تنَزَّلُ الشَّياطينُ تنَزَّلُ على كلِّ أفَّاكٍ أَثيم)[1] وقال الآخر : وقيل له ان المختار يزعم أنه يوحى اليه ، فقال ، قال الله تعالى : (وإنَّ الشَّياطينَ لَيوحونَ إلى أوليائِهِمْ)[2] .

ومن هذه الارواح الشيطانية الروح الذي يزعم صاحب الفتوحات أنه ألقى اليه ذلك الكتاب ، ولهذا يذكر أنواعا من الخلوات بطعام معين وحال معين ، وهذه مما تفتح لصاحبها الاتصال بالجن والشياطين ، فيظنون ذلك من كرامات الاولياء وانما هو من الاحوال الشيطانية ، وأعرف من هؤلاء عددا منهم من كان يحمل الى مكان بعيد ويعود ، ومنهم من كان يؤتى بمال مسروق تسترقه الشياطين وتأتيه به ، ومنهم من كانت تدله على السراق يجعل له من الناس أو بعطيتهم له اذا دلهم على سرقاتهم ونحو ذلك .

ولما كانت أحوال هؤلاء شيطانية كانوا مناقضين للرسل صلوات الله عليهم كما يوجد من صاحب الفتوحات المكية والفصوص وأشباه ذلك أنه يمدح الكفار ، مثل قوم نوح ، وهود ، وفرعون وغيرهم ، وينتقص بالانبياء : بنوح ، وابراهيم ، وموسى ، وهارون وغيرهم ، ويذم شيوخ المسلمين : كالجنيد بن محمد ، وسهل بن عبد الله التستري ، وأمثالهما ، ويمدح المذمومين عند المسلمين كالحلاج ونحوه ، كما ذكره في التجليات الخيالية الشيطانية ، فان الجنيد قدس الله سره كان من أئمة الهدى ، فسئل عن التوحيد فقال :التوحيد أفراد الحدوث عن القدم، فبين أن التوحيد أن يميز بين القديم والمحدث أي الخالق والمخلوق .

وصاحب الفصوص أنكر هذا ، وقال في مخاطبته الخيالية الشيطانية له :ياجنيد هل يميز بين المحدث والقديم الا من يكون غيرهما ؟ فخطأ الجنيد في قوله إفراد

---

(١) الشعراء : ٢١٩ (٢) الانعام : ١٢١

المحدث عن القديم ، لأن قوله ان وجود المحدث هو عين وجود القديم كما قال في (فصوصه) ومن أسمائه الحسنى العلى على من ، وماثم الا هو وعماذا وماهو الا هو ، فعلوه لنفسه ، وهو عين الموجودات ، فالمسمى محدثات هي العلية لذاتها وليست الا هو • الى أن قال : فهو عين مابطن ، وهو عين ماظهر ، وما ثم من يراه غيره ، وما ثم من ينطق عنه سواه ، وهو المسمى أبو سعيد الخراز ، وغير ذلك من أسماء المحدثات •

(فيقال لهذا الملحد) ليس من شرط المميز بين الشيئين بالعلم والقول أن يكون ثالثا غيرهما ، فان كل واحد من الناس يميز بين نفسه وبين غيره ، وليس هو ثالثا ، فالعبد يعرف أنه عبد ويميز بين نفسه وبين خالقه ، والخالق جل جلاله يميز بين نفسه وبين مخلوقاته ، ويعلم أنه ربهم وأنهم عباده ، كما نطق بذلك القرآن في غير موضع ، واستشهدنا بالقرآن عند المؤمنين الذين يقرون به باطنا وظاهرا ، وأما هؤلاء الملاحدة فيزعمون ماكان يزعمه التلمساني منهم وهو أحذقهم في الحادهم لما قريء عليه الفصوص فقيل له القرآن يخالف قولكم فقال القرآن كله شرك ، وانما التوحيد في كلامنا ، فقيل له اذا كان الوجود واحدا فلم كانت الزوجة حلالا والاخت حراما ؟ قال : الكل عندنا حلال ، ولكن هؤلاء المحجوبون قالوا حرام فقلنا حرام عليكم ، وهذا مع كفره العظيم تناقض ظاهر ، فان الوجود اذا كان واحدا فمن المحجوب ومن الحاجب ؟! ولهذا قال بعض شيوخهم لمريده : من قال لك ان في الكون سوى الله فقد كذب ، فقال له مريده فمن هو الذي يكذب ؟ وقالوا لآخر : هذه مظاهر ، فقال لهم : المظاهر غير الظاهر أم هي هو ؟ فان كانت غيرها فقد قلتم بالتثنية ، وان كانت هي اياها فلا فرق •

وقد بسطنا الكلام على كشف أسرار هؤلاء في موضع آخر ، وبينا حقيقة كل واحد منهم ، وأن صاحب الفصوص يقول المعدوم شيء ووجود الحق فاض عليه ، فيفرق بين الوجود والثبوت ، والمعتزلة الذين قالوا المعدوم شيء ثابت في الخارج مع ضلالهم خير منه ، فان أولئك قالوا ان الرب خلق لهذه الاشياء الثابتة في العدم وجودا ليس هو وجود الرب ، وهذا زعم أن عين وجود الرب فاض عليها فليس عنده وجود مخلوق مباين لوجود الخالق ، وصاحبه القونوي يفرق بين المطلق والمعين لأنه كان أقرب الى الفلسفة فلم يقر بأن المعدوم شيء ، لكن جعل الحق هو الوجود المطلق، وصنف مفتاح غيب الجمع والوجود ، وهذا القول أدخل في تعطيل الخالق وعدمه ،

فان المطلق بشرط الاطلاق ــ وهو الكلي العقلي ــ لايكــون الا في الاذهــان لافي الاعيان ، والمطلق لابشرط شيء ــ وهو الكلي الطبيعــي وان قيل أنه موجــود في الخارج ــ فلا يوجد في الخارج الا معينا ، وهو جزء من المعين عند من يقول بثبوته في الخارج ، فيلزمه أن يكون وجود الرب اما متعينا في الخارج واما أن يكون عــين وجود المخلوقات ، وهل يخلق الجزء الكل أم يخلق الشيء نفسه أم العدم يخلـــق الوجود أو يكون بعض الشيء خالقا لجميعه ، وهؤلاء يفرون من الحلول لأنهيقتضي شيئين اتحد أحدهما بالآخر ، وعندهم الوجود واحدا ، ويقولون ان النصارى انما كفروا لما خصصوا المسيح بأنه هو الله ولو عمموا لما كفروا ، وكذلك يقولــون في عباد الاصنام انما أخطؤا لما اعتقدوا بعض المظاهر دون بعض فلو عبدوا الجميع لمـــا أخطؤا عندهم ، وهذا مع مافيه من الكفر العظيم ففيه مايلزمهم دائما من التناقض لأنه يقال لهم فمن المخطيء ، لكنهم يقولون ان الرب هو الموصوف بجميع النقائص التي يوصف بها المخلوق ، ويقولون ان المخلوقات توصف بجميع الكمالات التي يوصف بها الخالق ، ويقولون ماقاله صاحب الفصوص فالعلى لنفســه هــو الذي يكون له الكمال الذي يستوعب جميع النعوت الوجودية والنسب العــدمية ، ســواء كانت محمودة عرفا أو عقلا أو شرعا ، أو مذمومة عرفا أو عقلا أو شرعا ، فليس ذلــك الا لمسمى الله خاصة ، وهم مع هذا الكفر لايندفع عنهم التناقض ، فانه معلوم بالحس والعقل أن هذا ليس هو ذلك ، وهؤلاء يقولون ماكان يقوله التلمســاني : انه ثبت عندنا بالكشف مايناقض صريح العقل ، ويقولون من أراد التحقيق يعنــي تحقيقهم فليترك العقل والشرع .

وقد قلت لمن خاطبت منهم معلوم أن كشف الانبياء أعظم وأتم من كشف غيرهم، وخبرهم أصدق من خبر غيرهم ، والانبياء صلوات الله عليهم يخبرون بما تعجز عقول الناس عن معرفته لابما يعرف الناس بعقولهم انه ممتنع ، فيخبرون بمحارات العقول لا بمحالات العقول ، ويمتنع أن يكون في أخبار الرسول ماينافض العقل الصريح ، ويمتنع أن يتعارض دليلان قطعيان ، سواء كانا عقليين أو سمعيين ، أو كان أحدهما سمعيا والآخر عقليا ، فكيف بمن ادعى كشفا يناقض الشرع والعقل ، وهؤلاء قــد لايريدون الكذب لكن يخيل لهم أشياء تكون في نفوسهم ويظنونها في الخــارج ، وأشياء يرونها تكون موجودة في الخارج لكن يظنونهامن كرامات الصالحين ، وتكون من تلبيسات الشياطين ، وهؤلاء الذين يقولون بالوحدة يقدمون الاولياء على الانبياء،

ويذكرون أن النبوة لم تنقطع كما يذكر عن ابن سبعين ونحوه ، ويجعلون المراتب ثلاثة : يقولون العبد يشهد أولا طاعة ومعصية ، ثم طاعة بلا معصية ، ثم لاطاعة ولا معصية .

والشهود الاول ــ وهو الشهود الصحيح ــ هو الفرق بين الطاعات والمعاصي.

وأما الثاني : فيريدون به شهود القدر كما أن بعض هؤلاء يقول أنا كافر برب يعصى ، وهذا يزعم أن المعصية مخالفة الارادة التي هي المشيئة ، والخلق كلهم داخلون تحت حكم المشيئة ، ويقول شاعرهم :

أصبحت منفعلا لما تختاره ... مني ففعلي كله طاعات

ومعلوم أن هذا خلاف ماأرسل الله به رسله وأنزل به كتبه ، فان المعصية التي يستحق صاحبها الذم والعقاب مخالفة أمر الله ورسوله ، كما قال تعالى : (تلكَ حُدودُ اللهِ ومَن يُطِعِ اللهَ ورَسولَهُ يُدخِلْهُ جنَّاتٍ تَجري منْ تحتِها الأَنهار خالِدينَ فيها وذلكَ الفَوزُ العظيم . ومنْ يعْصِ اللهَ ورسولَهُ ويتعَدَّ حُدودَهُ يُدخِلهُ ناراً خالِداً فيها) [1] وسنذكر الارادة الكونية والدينية ، والامر الكوني والديني

وكانت هذه المسألة قداشتبهت على طائفةمن الصوفية ، فبينهاالجنيد رحمه الله ، فمن اتبع الجنيد فيها كان على السداد، ومن خالفه ضل ، فانهم تكلموا أن الامور كلها بمشيئة الله وقدرته ، وفي شهوده هذا التوحيد ، وهذا يسمونه الجمع الاول ، فبين لهم الجنيد أنه لابد من شهود الفرق الثاني ، وهو أنه مع شهود كون الاشياء كلها مشتركة في مشيئته وقدرته وخلقه فيجب الفرق بين مايأمر به ويحبه ويرضاه ، وبين مانهى عنه ويكرهه ويسخطه ، ويفرق بين أوليائه وأعدائه ، كما قال تعالى : (أَفنجْعَلُ المسلمينَ كالمجرِمينَ مالكُمْ كيفَ تحكُمونَ) [2] وقال تعالى : (أَم نجعل الَّذينَ آمنوا وعمِلوا الصَّالحاتِ كالمفسِدينَ في الأَرض أَم نجعَل المتَّقينَ كالفُجَّار) [3] وقال تعالى : (أَم حسبَ الَّذينَ اجترحوا السيئاتِ أَنْ نجعلَهم كالَّذينَ آمنوا وعمِلوا الصَّالحاتِ سواءً محياهُم ومماتُهم ساءَ ما يحكُمونَ) [4] وقال تعالى :(ومـا يستوي

(١) النساء ١٣ ، ١٤ (٢) القلم : ٣٥ ، ٣٦ (٣) ص : ٢٨ (٤) الجاثية : ٢١

الاعمى والبصير والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسيء قليلاً ما تتذكرون)[١]

ولهذا كان مذهب سلف الامة وأئمتها أن الله تعالى خالق كل شيء وربه ومليكه ماشاء كان وما لم يشأ لم يكن ، لارب غيره ، وهو مع ذلك أمر بالطاعة ونهى عن المعصية ، وهو لايحب الفساد ، ولا يرضى لعباده الكفر ، ولا يأمر بالفحشاء وان كانت واقعة بمشيئته ، فهو لايحبها ولا يرضاها ، بل يبغضها ويذم أهلها ويعاقبهم .

والمرتبة الثالثة : أن لايشهد طاعة ولا معصية ، فانه يرى أن الوجود واحد ، وعندهم أن هذا هو غاية التحقيق والولاية لله ، وهو في الحقيقة غاية الالحاد في أسماء الله تعالى وصفاته ، وغاية العداوة لله ، فان صاحب هذا المشهد يتخذ اليهود والنصارى وسائر الكفار أولياء ، وقد قال الله تعالى :(ومن يتولهم منكم فإنه منهم)[٢] ولا يتبرأ من الشرك والاوثان فيخرج عن ملة ابراهيم الخليل ، وقال تعالى : (قد كانت لكم أسوة حسنة في ابراهيم) الى قوله : (حتى تؤمنوا بالله وحده) [٣] وقال الخليل لقومه المشركين : (أفرأيتم ما تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون . فإنهم عدو لي إلا رب العالمين)[٤] وقال تعالى :(لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم ، أولئك كتب في قلوبهم الايمان وأيدهم بروح منه)[٥] وهؤلاء قد صنف بعضهم كتابا وقصائد على مذهبه مثل قصيدة ابن الفارض المسماة بنظم السلوك ، ويقول فيها

لها صلواتي بالمقام أقيمها	وأشهد فيها أنها لي صلت
كلانا مصل واحد ساجد الى	حقيقته بالجمع في كل سجدة
وما كان لي صلى سواي ولم تكن	صلاتي لغيري في أداء كل ركعة

(الى أن قال)

وما زلت اياها واياي لم تزل	ولا فرق بل ذاتي لذاتي أحبت
الى رسولا كنت مني مرسلا	وذاتي بآياتي على استدلت
فان دعيت كنت المجيب وإن أكن	منادي أجابت من دعاني ولبت

(١) غافر : ٥٨ (٢) المائدة : ٥١ (٣) الممتحنة : ٤ (٤) الشعراء : ٧٥ ـ ٧٧ (٥) المجادلة : ٢٢

الى أمثال هذا الكلام ، ولهذا كان القائل عند الموت ينشد :

ان كان منزلتي في الحب عندكم ... ماقد لقيت فقد ضيعت أيامي
أمنية ظفرت نفسي بها زمنا ... واليوم أحسبها أضغاث أحلامي

فانه كان يظن أنه هو الله ، فلما حضرت ملائكة الله لقبض روحه تبين له بطلان ماكان يظنه ، وهؤلاء ممن قال الله سبحانه فيهم : (أَفَمن زُيِّنَ لهُ سُوءُ عمله فرآه حَسَناً)[1] وقد قال تعالى : (سَبَّحَ للهِ مافي السَّمواتِ والأَرضِ وهوالعزيزُ الحكيم) فجميع مافي السموات وما في الارض يسبح الله ، ثم قال تعالى :(لهُ مُلْكُ السموات والأَرضِ يُحيي ويُميتُ وهوَ على كُلِّ شَيءٍ قديرٌ . هُوَ الأَولُ والآخرُ والظَّاهرُ والباطِنُ وهو بِكُلِّ شيءٍ عليمٌ).

وفي صحيح مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول في دعائه (اللهم رب السموات السبع ورب العرش العظيم ، ربنا ورب كل شيء ، فالق الحب والنوى ، منزل التوراة والانجيل والقرآن : أعوذ بك من شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها ، أنت الاول فليس قبلك شيء ، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء ، وأنت الباطن فليس دونك شيء اقض عني الدين وأغنني من الفقر) •

ثم قال تعالى : (هُو الَّذي خلَقَ السموات والأَرضَ في سِتَّةِ أيامٍ ثُمَّ استوى على العرشِ يعْلَمُ ما يلِجُ في الأَرضِ وما يخرجُ منها وما ينْزِلُ مِنَ السَّماءِ وما يعرُجُ فيها وهو معَكُم)[2] فلفظ مع لاتقتضي في لغة العرب أن يكون أحد الشيئين مختلطا بالآخر ،كقوله تعالى :(اتَّقوا اللهَ وكونوا معَ الصَّادقينَ)[3] وقوله تعالى : (مُحمَّدٌ رسولُ اللهِ والَّذينَ معَهُ أَشِدَّاء على الكُفَّارِ رُحَماءُ بينهُم)[4] وقوله تعالى (والَّذينَ آمنوا منْ بعدُ وهاجروا وجاهدوا مَعَكُمْ فأُولئكَ مِنكُمْ)[5] .

ولفظة (مع) جاءت في القرآن عامة وخاصة ، فالعامة في هذه الآية وفي آية

(١) فاطر : ٨ (٢) الايات من (سبح لله) الى هنا من سورة الحديد : ١ ـ ٤ (٣) التوبة : ١١٩ (٤) الفتح : ٢٩ (٥) الانفال : ٧٥

المجادلة : (ألمْ ترَ أنَّ اللهَ يعْلَمُ ما في السموات وما في الأَرضِ ما يكونُ مِنْ نجْوى ثلاثةٍ إلاَّ هُو رابعُهم) الى قوله : (إنَّ اللهَ بكُلِّ شيءٍ عليمٌ).

فافتتح الكلام بالعلم وختمه بالعلم ، ولهذا قال ابن عباس ، والضحاك ، وسفيان الثوري ، والامام أحمد بن حنبل وغيرهم : هو معهم بعلمه .

وأما المعية الخاصة ففي قوله تعالى : (إنَّ اللهَ معَ الَّذينَ اتقَوْا والَّذينَ هُمْ مُحسِنونَ)[١] وقوله تعالى لموسى وهارون : (إنَّني مَعكُما أَسمَعُ وأرى)[٢] وقال تعالى عن النبي صلى الله عليه وسلم : (إذْ يقولُ لِصاحِبه لا تحزَنْ إنَّ اللهَ معَنا)[٣] يعني النبي صلى الله عليه وسلم وأبا بكر الصديق ، فهو مع موسى وهارون دون فرعون ، ومع محمد صلى الله عليه وسلم وصاحبه دون أبي جهل وغيره من أعدائه ، وهو مع الذين اتقوا وكانوا محسنين دون الظالمين المعتدين ، فلو كان معنى المعية أنه بذاته في كل مكان تناقض الخبر الخاص والخبر العام ، بل المعنى أنه مع هؤلاء بنصره وتأييده دون أولئك ، وقوله تعالى : (وهو الَّذي في السَّماء إلهٌ وفي الأَرضِ إلهٌ)[٤] اي هو اله من في السماء واله من في الارض ، كما قال تعالى (ولهُ المَثَلُ الأَعلى في السَّموات والأَرض)[٥] وكذلك قوله : (وهو اللهُ في السَّمواتِ والأَرضِ)[٦] كما قرره أئمة العلم أنه المعبود في السموات والارض ، وأجمع سلف الامة وأئمتها أن الرب تعالى بائن من مخلوقاته ، يوصف بما وصف به نفسه ، وبما وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم ، من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تكييف ولا تمثيل ، فيوصف بصفات الكمال دون صفات النقص ، ويعلم أنه ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في شيء من صفات الكمال ، قال الله تعالى : (قُلْ هوَ اللهُ أحدٌ . اللهُ الصَّمَدُ . لمْ يلِدْ ولم يُولَد . ولمْ يكُنْ لهُ كُفواً أَحدٌ) .

قال ابن عباس : الصمد العليم الذي كمل في علمه ، العظيم الذي كمل في عظمته

---

(١) النحل : ١٢٨ (٢) طه : ٤٦ (٣) التوبة : ٤٠ (٤) الزخرف : ٨٤ (٥) الروم : ٢٧ (٦) الانعام : ٣

القدير الكامل في قدرته ، الحكيم الكامل في حكمته ، السيد الكامل في سؤدده •

وقال ابن مسعود وغيره : الصمد الذي لاجوف له ، والاحد الذي لانظير له ، فاسمه الصمد يتضمن اتصافه بصفات الكمال ونفي النقائص عنه ، واسمه الاحد يتضمن أنه لا مثل له ، وقد بسطنا الكلام على ذلك في تفسير هذه السورة وكونها تعدل ثلث القرآن ، انتهى المقصود نقله من كلام شيخ الاسلام قدس الله روحه •

وهذه نبذة مما يتعلق بأهل الحلول والاتحاد • وللشيخ علي القاري ، والسعد التفتازاني ، والشيخ محمد البخاري ، والشيخ عبد الباري ، والعلامة عضد الملة والدين : كتب مفردة في الكلام عليهم وردهم ، ولعلنا ان شاء الله تعالى نفرد في ذلك كتابا نذكر فيه جميع ما قاله العلماء الربانيون فيهم ، ونذكر بدع أهل الطرائق المبتدعة وما عندهم من المخالفات للشريعة •

(والمقصود مما نقلناه كله) أن قول النبهاني عن أهل الحلول والاتحاد انهم أولياء الله كلام دل على جهله واتباعه لهواه وغيه ، وقد ذكر الشيخ على القاري في الرد على الفصوص من المنكرات والاوهام والغلطات ماتقشعر منها الجلود ، وقال في آخر كتابه : وما سبق من المنكرات في كلام ابن عربي لاسبيل الى صحة تأويلها ، فلا يستقيم اعتقاد أنه من أولياء الله مع اعتقاد صدور هذه الكلمات منه الا باعتقاد أنها لم تصدر عنه ، أو أنه رجع الى مايعتقده أهل الاسلام في ذلك ، ولم يجيء بذلك عنه خبر ولا روي عنه أثر ، فذمه جماعة من أعيان العلماء وأكابر الاولياء لأجل كلامه المنكر •

(وأما قول النبهاني) عن كتب ابن تيمية أنه بسبب كلامه على القائلين بالحلول والاتحاد وغير ذلك مما يدل على البطلان والفساد قلل الله النفع بها الخ •

(فجوابه) أن الله تعالى لم يقلل الانتفاع بها ، بل لم يزل الناس يلتقطون منها درر الفوائد ، ويصححون بها أعمالهم والعقائد ، وهي كما قال الحافظ ابن القيم تشترى بالغالي من الاثمان في كل عصر وزمان ، فأي عالم من العلماء انتفع الناس بكتبه كما انتفعوا بكتب شيخ الاسلام ، وذلك من المعلوم بين الخاص والعام ،ولكن الامر كما قيل :

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد ‏ ‏ ‏ ‏ وينكر الفم طعم الماء من سقم

وكتب المتأخرين من الحنابلة وغيرهم مشحونة بالنقل عن كتبه ، والمنقولات

عنها زينة للكتب وغرة محاسنها ، وقد أودع الله تعالى فيها خاصية التأثير في القلوب فلا تجد أحدا يطالع فيها الا وفتح الله عليه أبواب العلوم ، وأفاض عليه من زلال عذب منطوقها والمفهوم ، الا من قسى قلبه وكشف حجابه ، كما قال تعالى عن كتابه : (يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلّا الفَاسِقِيْنَ الّذِيْنَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيقْطَعُونَ مَا امَرَ اللهُ بِهِ انْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُوْنَ فِي الأَرضِ اولئكَ هُمُ الخَاسِرُوْنَ)[1]

(قال النبهاني) ومن كتبه (منهاج السنة) في الرد على الروافض وكتاب (العقل والنقل) في الرد على المتكلمين من أهل السنة ، كالاشعري والماتريدي وأصحابهما ، وهم معظم الامة المحمدية ، قال : ومنهاج السنة وان كان مؤلفا في الرد على الروافض الا أنه حشاه بالرد على أهل السنة ، والرد على ساداتنا الصوفية ومن يعتقد فيهم ، كقوله في جواب قول الرافضي : يجب في كل زمان أمام معصوم — بعد أن بين فساده — وهل هذا إلا أفسد مما يدعيه كثير من العامة في القطب والغوث ونحو ذلك من أسماء يعظمون مسماها بما هو أعظم من مرتبة النبوة من غير تعيين لشخص معين يمكن أن ينتفع به الانتفاع المذكور في مسمى هذه الاسماء ، وكما يدعي كثير منهم حياة الخضر مع أنهم لم يستفيدوا بهذه الدعوى منفعة لا في دينهم ولا في دنياهم ، وانما غاية من يدعي ذلك أنه يدعي جريان بعض مايقدر الله على يدي مثل هؤلاء ، وهذا مع أنهم لاحاجة لهم الى معرفته لم ينتفعوا بذلك لو كان حقا فكيف اذا كان مايدعونه باطلا ، ومن هؤلاء من يتمثل له الجني في صورة ويقول أنا الخضر ويكون كاذبا ، وكذلك الذين يذكرون رجال الغيب ورؤيتهم انما رأوا الجن وهم رجال غائبون وقد يظنون أنهم إنس ، وهذا قد بيناه في مواضع تطول حكايتها مما تواتر عندنا •

(قال النبهاني في الاعتراض على الشيخ) وهكذا دأبه في انكار مالم يحط بعلمه ، وجعله في درجة المستحيلات ، مع أنه ثبت عند غيره من جماهير المسلمين — من الاولياء العارفين ، والعلماء العاملين ، والعباد والصالحين وغيرهم — ثبوتا لايحتمل وقوع الشك في صحته ، ثم انه استشهد على صحة دعواه بكلام اليافعي ، وابن حجر المكي ، ونجم الدين الاصفهاني وأضرابهم من الغلاة •

(أقول جوابه) من وجوه :

(١) البقرة : ٢٦ ، ٢٧

(الاول) أنا تكلمنا سابقا عن جميع كتب الشيخ ، وذكرنا في مدحها وتقريظها ماذكرنا ، وقلنا ان (منهاج السنة) من أجل كتب الشيخ ، وفيه من الفوائد الدينية مايعز وجود نظيره في غيره ، وما أحسن ماقرظ به الاديب الفهامة الشيخ طه بن محمود رئيس التصحيح في المطبعة الكبرى ، وهو :

بأقوم منهاج أتى القوم أحمد ... فمالي لا أثني عليه وأحمد
إمام حباه الله علما وحكمة ... وقلبا تقيا نوره يتوقد
فقام بأمر الحق في الناس صادعا ... بأوضح برهان له العقل يشهد
وبدد أهواء تجمع شملها ... بها ضل قوم والضلال مبدد
أتاهم وهم شتى المذاهب مالهم ... من العقل هاد أو من الدين مرشد
أتاهم وليل الرفض والنصب حالك ... وقاعدة الطغيان فيهم توطد
أتى معشرا للغي أهدى من القطا ... ولم يبصروا طرق الرشاد فيهتدوا
أتى أمة بغض الصحابة دينهم ... وسب أبي بكر به قد تعبدوا
فانكر ماقد خالف الدين والتقى ... ومن ديننا إنكار ماليس يحمد
وأفشى كتاب الله فيهم وأنهم ... أباة عن الاذعان للحق شرد
وناضل عن صحب النبي وحزبه ... ومن لهم رأي وقول مسدد
فهل مثل هذا الحبر أولى بشكره ... على ماأتاه أم تراه يفند
ولكن أعداء الفضائل جمة ... وهل ساد إلا ذو الايادي المحسد
سأشكره دهري عن الناس اذ غدا ... عليهم جميعا لابن تيمية اليد
فلو كان تأليف الفتى مخلدا له ... لكان من المنهاج والله مخلد
ولو كان في الدنيا جزاء لمحسن ... لكان له فيها النعيم المؤبد
فأسألك اللهم هتان رحمة ... على قبره مالاح في الافق فرقد

فانتقاد النبهاني على هذا الكتاب أشبه شيء بنبح الكلاب للسحاب ، أبان للناس جهله وغباوته وضلاله ، وعداوته للدين ، وانحرافه عن سبيل المسلمين والمؤمنين .

(الوجه الثاني) أن النبهاني انتقد كتاب المنهاج واعترض على مصنفه في انكاره الخضر والاقطاب والاوتاد ورجال الغيب وغيرهم مما ابتدعه المتصوفه والغلاة ترويجا لمقاصدهم ، وانتقاده هذا مما لاوجه له ، لأن الرافضة لما أوجبوا اللطف على الله ومراعاة الاصلح وأن الأئمة منحصرون بزعمهم في اثني عشر اماما وهم لايستوعبون الزمان الى قيام الساعة : لزمهم القول بالمنتظر ، مع أن حجج الله

الله لاتقوم بخفي مستور لايقع العالم له على خبر ، ولا ينتفعون به في شيء أصلا ، فلا جاهل يتعلم منه ، ولا ضال يهتدي به ، ولا خائف يأمن به ، ولا ذليل يتعزز به ، فأي حجة لله قامت بمن لايرى له شخص ، ولا يسمع منه كلمة ، ولا يعلم له مكان ؟ ولا سيما على أصول القائلين به ، فان الذي دعاهم الى ذلك : أنهم قالوا لابد منه في اللطف بالمكلفين وانقطاع حجتهم عن الله ، فيالله العجب أي لطف حصل بهذاالمعدوم لا المعصوم ؟ وأي حجة أثبتم للخلق على ربهم بأصلكم الباطل ؟ فان هذا المعدوم اذا لم يكن لهم سبيل قط الى لقائه والاهتداء به فهل في تكليف مالا يطاق أبلغ من هذا ؟ وهل في العذر والحجة أبلغ من هذا ؟ فالذي فررتم منه وقعتم في شر منه ، وكنتم في ذلك كما قيل :

المستجير بعمرو عند كربته ... كالمستجير من الرمضاء بالنار

ولكن أبى الله إلا أن يفضح من تنقص بالصحابة الاخيار ، وبسادة هذه الامة الابرار ، وان يرى الناس عورته ، ويغريه بكشفها ونعوذ بالله من الخذلان ، ولقد أحسن القائل :

ما آن للسرداب أن يلد الذي ... ثلثتموه بزعمكم ماآن
فعلى عقولكم العفاء فانكم ... ثلثتم العنقاء والغيلانا

ولقد بطلت حجج استودعها مثل هذا الغائب وضاعت أعظم ضياع ، فهم أبطلوا حجج الله من حيث زعموا حفظها .

(فلما رد الشيخ) على ابن المطهر الحلي القول بالمنتظر على أحسن وجه : أراد سد أبواب طرق مناظرتهم وحجاجهم ومعارضتهم على الخضر والاقطاب والاوتاد ونحوهم ، وأبطل القول بوجودهم ، وأنه ليس من الدين في شيء ، ولولا ذلك لامكن أن يقولوا ان القول بالمنتظر كالقول بالخضر والقطب والبدل والوتد وغيرهم ، لاسيما وحياة الخضر أطول بكثير ، والقائلون به أكثر ، فما هو جوابكم فهو جوابنا ، فكان من الواجب على الشيخ بيان الحقيقة في ذلك ، واقامة الدليل على نفي وجودهم ، وكيف يمكن مخاصمة الروافض في المهدي المنتظر وانكاره مع القول بحياة الخضر واثبات الاقطاب ونحوهم ، فلا شك أن انتقاد النبهاني هنا في غاية السقوط .

(الوجه الثالث) اعتراض النبهاني على الشيخ في تعرضه لبعض من يزعم أنه

من أهل السنة من الاشعرية والماتريدية وساداته الصوفية ، فنقول : ان الشيخ تكلم على كل من ابتدع وأحدث في الدين ماليس منه ، ولم يتخوف من الاسماء ، فمن خالف الكتاب والسنة واجماع الامة فهو ممن اتبع غير سبيل المؤمنين ، فكيف لايرد على المخالفين ، وكل آخذ يؤخذ منه ويرد عليه الا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما قال ذلك امام دار الهجرة ، وسنتكلم ان شاء الله تعالى على السنة وماهي ومن أهلها ليعلم مافي كلام النبهاني من الجهل والغلط .

(الوجه الرابع) أن القول بوجود الخضر وحياته والاعتقاد برجال الغيب وأمثالهم ان كان من واجبات الشريعة وأركان الديانة كالايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ووجود الجن ونحو ذلك مما وردت نصوص الكتاب والسنة به : فلم لم ينص عليها في القرآن ولم يرد فيها حديث صحيح ؟ فاذا سأل رب العالمين عبدا من عباده وقال له لم لم تؤمن بحياة الخضر الابدية وكذبت بالاقطاب والاوتاد والابدال ونحوهم مما قال به الصوفية ، ثم أجابه بقوله يارب العالمين وياخالق السموات والارضين انك كلفت الناس أن يؤمنوا بك وان لم ترك العيون ولم تحط بك الظنون ، ولكن نصبت لهم دلائل في الافاق والانفس على وجودك عدا ماورد من النصوص على لسان أنبيائك ورسلك ، وأودعت في كل شيء آية تدل على أنك الواحد ، بل كل ذرة من ذرات العوالم هي أعدل شاهد ، ثم انك ملأت كتابك الكريم من ذكر الملائكة والرسل والجن وغير ذلك مما لم نره ، ثم ان نبيك صلى الله عليه وسلم وسائر الانبياء كلهم أخبروا بذلك ، فلذلك اعترفنا وصدقنا بما ذكر ، وأما الخضر ومن ذكر معه فلم نر في كتابك الكريم آية تدل على خلوده ولا وجوده ووجودهم ، وأما ماروه الكذابون عن نبيك صلى الله عليه وسلم من ذلك فقال المحققون من أهل العلم : انها كذب لا أصل لها ، بل الوارد خلاف ذلك ، فكيف ياالهي أو من بأمور موهومة وأشخاص غير معلومة ، وقد أنعمت على بعقل أزن فيه الامور وأجعله حكما عدلا ، ودليلا هاديا اذا أعضلت على المقاصد ، فاذا لم أتتفع ياالهي بما أنعمت علي من نعمة العقل أكون اذا كالنبهاني الغبي أخبط خبط عشواء ولا أفرق بين السماء والماء .

ثم أقول : الهي مافائدة القول بوجود الخضر والاقطاب والابدال ونحوهم ؟ لاجاهل يستفيد منهم العلم بدينه ، ولا مظلوم يستصرخهم على دفع ظلمه ، والشمس أنت تطلعها وتغيبها ، والفلك أنت تديره ، والقمر أنت تنيره ، والكواكب أنت جعلتها

زينة للسماء وحفظا من كل شيطان مارد ، والسحاب أنت تنشئه ، والغيث أنت تغيث به عبادك ، والمريض أنت تشفيه ، والجائع أنت تطعمه ، والعطشان أنت تسقيه ، وقد أودعت كتابك كل علم ، وبيان كل حكم ، وأنزلت : (الْيَومَ أَكْملتُ لَكُم دِيْنَكُمْ) [1] فالخضر وغيره حينئذ ماذا يفعلون اذا لم تكن لهم وظيفة وعمل ؟ والله المستعان على ما تصفون •

(الوجه الخامس) أن النبهاني وأضرابه استدلوا على وجود من ذكر بقول ابن حجر المكي ونحوه ، ومن المعلوم أن كلام أمثال هؤلاء لايفيد في هذا الباب شيئا ، وقد تقدم أن العمدة عند أهل العلم في مسائل أصول الدين وفروعه على كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، واجماع أهل العلم من هذه الامة ، ولاتذكر أقوال أهل العلم الا تبعا وبيانا ، لا أنها المقصودة بالذات والاصالة •

ثم المسائل التي لايلزم بها المجتهد غيره هي ماكان للاجتهاد فيه مساغ ، ولم تخالف كتابا ولا سنة صريحة ولا اجماعا ، وما خالف ذلك فهو مردود على قائله ، ويلزمه أهل العلم بصريح الكتاب والسنة واجماع الامة •

قال امام دار الهجرة مالك ابن أنس رحمه الله تعالى : ما منا إلا راد ومردود عليه الا صاحب هذا القبر ، يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأحسن منه قول الله تعالى : (فإنْ تنازعتُم في شيءٍ فردُّوهُ إلى اللهِ والرَّسولِ إنْ كُنتُم تُؤْمنونَ باللهِ واليومِ الآخِرِ ذلِكَ خيرٌ وأحسَنُ تأْويلاً) [2].

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : (لا الفين أحدكم متكئا على أريكته يأتيه الامر من أمري فيقول بيننا وبينكم كتاب الله ، ألا واني أوتيت الكتاب ومثله معه) فاذا كان رد السنة محرما لايجوز ولو ردها ظانا أن القرآن لايدل عليها فكيف رد الكتاب والسنة وعدم الالزام بهما لخلاف أحد من الناس كائنا من كان ؟!

والمقصود : أن النبهاني وأضرابه لم يوردوا على اثبات مقصدهم بدليل يليق أن يتلقى بالقبول ، وابن حجر المكي ونحوه من الغلاة هم خصوم الحق وأعداؤه ، فكيف يسوغ أن نستدل بكلامهم على مالا يقول به أهل الحق ؟!

(الوجه السادس) أن ماذكره الشيخ لم يذكره الخصم بتمامه ، بل حرف فيه

---

(١) المائدة : ٣ (٢) النساء : ٥٩

وغير ، وحذف منه مايجب ذكره ، ونحن ننقل هنا ماوجدناه من كلامه في مواضـــع متفرقة ، واذا جمعت في موضع واحد وتبين دليلها سلم المنصف كلامه وسقط عنده قول من أنكر عليه من الغلاة السالكين غير سبيل المؤمنين ، ومن الله التوفيق :

قال شيخ الاسلام ــ رحمه الله في أثناء جواب سؤال ســأله بعضهـــم عن الاستغاثة بأهل القبور والنذر لهم ونحو ذلك ــ وأما سؤال السائل عن القطب الغوث الفرد الجامع : فهذا قد يقوله طوائف من الناس ، ويفسرونه بأمــور باطلة في دين الاسلام ، مثل تفسير بعضهم ان الغوث الذي يكون مدد الخـــلائق بواسطته في نصرهم ورزقهم ، حتى قد يقولون ان مدد الملائكة وحيتان البحر بواسطته ، فهــذا من جنس قول النصارى في المسيح والغالية في على عليه السلام ، وهذا كفــر صريح يستتاب صاحبه فان تاب والا قتل ، فانه ليس من المخلوقات لا ملك ولا بشر يكون امداد الخلائق بواسطته ، ولهذا كان مايقوله الفلاسفــة في العقول العشــرة التي قد يزعمون أنها الملائكة ، وما يقوله النصارى في المسيح ، ونحو ذلك : كفرا صريحــا باتفاق المسلمين ، وكذلك ان عني بالغوث مايقول بعضهم أن في الارض ثلاثمــائة وبضعة عشر رجلا ، وقد يسميهم النجباء ، فينتقى منهم سبعون هم النقباء ، ومنهــم أربعون هم الابدال ، ومنهم سبعة هم الاقطاب ، ومنهم أربعة هم الاوتاد ، ومنهــم واحد هو الغوث ، وانه مقيم بمكة ، وأن أهل الارض اذا نابتهم نائبة في رزقهــم ونصرهم فزعوا للثلاثمائة والبضعة عشر رجلا ، وأولئك يفزعون الى السبعـــين ، والسبعون الى الاربعين ، والاربعون الى السبعة ، والسبعة الى الاربعة ، والاربعــة الى الواحد .

وبعضهم قد يزيد في هذا وينقص في الاعداد والاسماء والمراتب ، فان لهم فيها مقالات متعددة ، حتى يقول بعضهم انه ينزل من السماء على الكعبة ورقة خضــراء باسم غوث الوقت واسم خضره على قول من يقول أن الخضر هو مرتبة ، وأن لكل زمان خضرا فان لهم في ذلك قولين .

وهذا كله باطل لاأصل له لافي كتاب الله ولا سنة رسول الله صلى الله عليــه وسلم ، ولا قاله أحد من سلف الامة ولا أئمتها ، ولا من الشيوخ الكبار المتقدمــين الذين يصلحون للاقتداء بهم ، ومعلوم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبا بكر وعمر وعثمان وعليا كانوا خير الخلق في زمنهم وكانوا بالمدينة ولم يكونوا بمكة ،

وقد روى بعضهم حديثا في هلال غلام المغيرة ابن شعبة وأنه أحد السبعين ، والحديث كذب باتفاق أهل المعرفة ، وان كان قد روى بعض هذه الاحاديث أبو نعيم في حلية الاولياء والشيخ أبو عبد الرحمن السلمي في بعض مصنفاته ، فلا نغتر بذلك فانه يروي الصحيح والحسن والضعيف والموضوع والكذب ، ولا خلاف بين العلماء في أنه كذب موضوع ، وتارة يروونه على عادة أهل الحديث الذين يروون ماسمعوه ولا يميزون بين صحيحه من باطله ، وكان أهل الحديث لايروون مثل هذه الاحاديث لما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (من حدث عني بحديث وهو يرى أنه كذب فهو أحد الكذابين) .

(وبالجملة) فقد علم المسلمون كلهم أن ماينزل بالمسلمين من النوازل في الرغبة والرهبة ــ مثل دعائهم عند الكسوف والاعتداد لدفع البلاء وأمثال ذلك ــ انما يدعون في مثل ذلك الله وحده ، لايشركون به شيئا ، لم يكن للمسلمين أن يرجعوا بحوائجهم الى غير الله ، بل كان المشركون في جاهليتهم يدعونه بلا واسطة فيجيبهم الله ، أفتراه بعد التوحيد والاسلام لايجيب دعاءهم الا بهذه الواسطة التي ماأنزل الله بها من سلطان ؟ قال تعالى : (وإذا مسَّ الانسانَ الضُّرُّ دعانا لجنبِهِ) [1] الآية ، وقال : (وإذا مسَّكمُ الضُّرُّ في البحْرِ ضَلَّ مَن تدْعونَ إلاَّ إيَّاهُ) [2] الاية ، وقال تعالى : (قُلْ أرأيتَكُم إنْ أتاكُمْ عذابُ اللهِ) الآية ، وقال تعالى (ولقد ارسلْنا إلى أُمَمٍ منْ قبلِكَ) الى قوله : (ما كانوا يعملونَ) [3] .

والنبي صلى الله عليه وسلم استسقى لاصحابه بصلاة الاستسقاء وبغير صلاة ، وصلى بهم للاستسقاء وصلاة الكسوف ، وكان يقنت في صلاته فيستنصر على المشركين ، كذلك خلفاؤه الراشدون بعده ، وكذلك أئمة الدين ، ومشائخ المسلمين : مازالوا على هذه الطريقة ، ولهذا يقال ثلاثة أشياء مالها من أصل : باب النصيرية ، ومنتظر الرافضة ، وغوث الجهال ، فان النصيرية تدعي في الباب الذي لهم ماهو من هذا الجنس ، وأنه الذي يقيم العالم ، فذاك شخصه موجود ، لكن دعوى النصيرية فيه باطلة ، وأما محمد بن الحسن المنتظر والغوث المقيم بمكة ونحو هذا فانه باطل ليس له أصل في الوجود ولا وجود ، وكذلك مايزعمه بعضهم من أن القطب الغوث

---

(١) يونس : ١٢ (٢) الاسراء : ٦٧ (٣) الانعام : ٤٠ ، ٤٣

الجامع يمد أولياء الله ويعرفهم كلهم ونحو هذا فهذا باطل ، فأبو بكر وعمر رضي الله عنهما لم يكونا يعرفان جميع أولياء الله وعـددهم ، فكيف بهـؤلاء الضالين المفترين الكذابين ؟ ورسول الله صلى الله عليه وسلم سيد ولد آدم انما عرف الذين لم يكن يراهم بسيما الوضوء وهو الغرة والتحجيل ، ومن هؤلاء من أولياء الله مالا يحصيه الا الله ، وأنبياء الله الذين هو امامهم وخطيبهم لم يكن يعرف أكثرهم ، بل قال الله تعالى له : (ولقدْ ارسلْنا رُسلاً من قبلكَ منهُم مَنْ قصصنا عليْكَ ومنهم منْ لم نقصُص عَليْكَ)[1] وموسى لم يعرف الخضر ، والخضـر لم يكن يعـرف موسى ، بل لما سلم عليه موسى قال له الخضر واني بأرضك السلام ؟ فقال له : أنـا موسى ، قال : موسى بني اسرائيل ؟ قال نعم . فكان قد بلغه اسمه وخبره ولم يكن يعرف عينه ، ومن قال : انه نقيب الاولياء وأنه يعلمهم كلهم فقد قال الباطل .

(والصواب الذي عليه المحققون) أنه ميت ، وأنه لم يدرك الاسلام ، ولـو كان موجودا في زمن النبي صلى الله عليه وسلم لوجب عليه أن يؤمن به ويجاهـد معه ، كما أوجب الله ذلك عليه وعلى غيره ، ولكان يكون بمكة والمدينة ، وكـان يكون حضوره مع الصحابة رضي الله عنهم للجهاد معهم واعانتهم على الدين أولى له من حضوره عند قوم كفار ليرقع لهم سفينتهم ، ولم يكن عن خير أمة خرجت للناس مختفيا ، وهو قد كان بين المشركين ولم يحتجب عنهم .

ثم ليس للمسلمين به وبأمثاله حاجة لا في دينهم ولا دنياهم ، فان دينهم أخذوه عن الرسول صلى الله عليه وسلم النبي الامي ، الذي علمهم الكتاب والحكمة ، وقال لهم نبيهم صلى الله عليه وسلم (لو كان موسى حيا ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتم) وعيسى بن مريم اذا نزل من السماء انما يحكم فيهم بكتاب ربهم وسنة نبيهم ، فأي حاجة لهم مع هذا الى الخضر أو غيره والنبي صلى الله عليه وسلم قد أخبرهم بنزول عيسى من السماء ، وحضوره مع المسلمين ، وقال : (كيف تهلك أمة أنا في أولهـا وعيسى في آخرها) فاذا كان هذان النبيان الكريمان اللذان هما مع ابراهيم وموسى ونوح أفضل الرسل ومحمد صلى الله عليه وسلم سيد ولد آدم ولم يحتجبـوا عن هذه الامة لاعوامهم ولا خواصهم فكيف يحتجب عنهم من ليس مثلهم ؟ واذا كـان

---

(١) غافر : ٧٨

الخضر حيا دائما فكيف لم يذكر النبي صلى الله عليه وسلم ذلك قط ؟ ولا أخبر به أمته ولا خلفاءه الراشدين •

وقول القائل : انه نقيب الاولياء ، فيقال من ولاه النقابة ؟ وأفضل الاولياء أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم وليس فيهم الخضر ، وعامة مايحكى في هذا الباب من حكايات بعضها كذب وبعضها مبني على ظن رجال ، مثل شخص رأى رجلا ظن أنه الخضر أو قال انه خضر ، كما أن الرافضة ترى شخصا تظن أنه الامام المنتظر المعصوم أو تدعي ذلك ، وروى عن الامام أحمد أنه قال ـ وقد ذكر له الخضر ـ من أحالك على غائب فما أنصفك ، وما ألقى هذا على ألسن الناس الا شيطان ، وقد بسطنا الكلام على هذا في غير هذا الموضع •

(أما اذا قصد) القائل بقوله القطب الغوث الفرد الجامع أنه رجل يكون أفضل أهل زمانه فهذا ممكن ، لكن من الممكن أن يكون في الزمان اثنان متساويان في الفضل وثلاثة وأربعة ، ولا يجزم بأن لايكون في كل زمان أفضل الناس الا واحدا ، وقد يكون جماعة بعضهم أفضل من بعض من وجوه ، وتلك الوجوه اما متقاربة أو متساوية ، ثم اذا كان في الزمان رجل هو أفضل أهل الزمان ، فتسميته الغوث الفرد الجامع بدعة ماأنزل الله بها من سلطان ، ولا تكلم بها أحد من سلف الامة وأئمتها ، وما زال السلف يظنون في بعض أنه أفضل أو من أفضل أهل زمانه ولا يطلقون عليه هذه الاسماء التي ماأنزل الله بها من سلطان ، لاسيما من المنتحلين لهذا الاسم من يدعي أن أول هؤلاء الاقطاب هو الحسن بن علي بن أبي طالب عليهما السلام ، ثم يتسلسل الامر الى مادونه الى بعض المشايخ المتأخرين ، وهذا لايصح على مذهب أهل السنة ، ولا على مذهب الرافضة ، فأين أبو بكر وعمر وعثمان وعلي والسابقون من المهاجرين والانصار ؟ والحسن عند وفاة النبي صلى الله عليه وسلم قد كان قارب سنه الاحتلام ، وقد حكي عن بعض الاكابر من الشيوخ المنتحلين لهذا الاسم : أن القطب الفرد الغوث الجامع ينطبق علمه على علم الله ، وقدرته على قدرة الله ، فيعلم مايعلمه ، ويقدر على مايقدر عليه الله ، وزعم أن النبي صلى الله عليه وسلم كان كذلك ، وأن هذا انتقل منه الى الحسن ، فتسلسل الى شيخه : فبينت له أن هذا كفر صريح ، وجهل قبيح ، وأن دعوى هذا في رسول الله صلى الله عليه وسلم كفر دع من سواه ، وقد قال تعالى : (قُلْ لا اقولُ لكُم عندي خزائِنُ اللهِ ولا أعلمُ

الغيبَ ولا اقولُ لكم إني ملَكٌ) [1] وقال تعالى : (قلْ لا املكُ لنفسي نفْعاً ولا ضرّاً إلاّ ما شاءَ اللهُ) [2] الآية ، وقال تعالى : (يقولونَ لَو كانَ لنا مِن الامر شيءٌ ما قُتِلْنا هٰهُنا قُلْ لو كُنتم في بيوتكُم لبرزَ الّذين كُتِبَ عليهم القَتْلُ إلى مضاجعِهِمْ) [3] وقال تعالى : (قُلْ إنَّ الامرَ كُلَّه للهِ) [3] وقال تعالى : (لِيقْطَعَ طرَفاً مِّنَ الّذينَ كفَروا او يكْبِتَهُم فينْقلِبوا خائبين) [4] والآيةبعدها وقال تعالى : (إنّكَ لا تَهدي مَنْ احبَبْتَ ولكِنَّ اللهَ يهدي منْ يشاءُ) [5]

والله تعالى قد أمرنا أن نطيع رسوله فقد قال تعالى : (ومَنْ يُطِعِ الرَّسولَ فقَدْ اطاعَ اللهَ) [7] وأمرنا أن نتبعه ، قال تعالى : (قُلْ إنْ كُنتُم تُحِبّون اللهَ فاتّبِعوني يُحبِبْكُمُ اللهُ) [8] وأمرنا أن نعزّره ونوقره وننصره ،وجعل له من الحقوق مابينه في كتابه وسنة رسولهحتى أوجب علينا أن يكون أحب الينا من أنفسنا وأهلنا فقال تعالى : (النّبيُّ أَوْلَى بالمؤمِنينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ) [9] وقال تعالى : (قُلْ إنْ كانَ آباؤُكُم وأبناؤكُم) الى قوله : (الفاسِقينَ) [10] .

وقال الرسول صلى الله عليه وسلم : (والذي نفسي بيده لايؤمن أحدكم حتى أكون أحب اليه من ولده ووالده والناس أجمعين) وقال له عمر رضي الله عنه : (يارسول الله والله لأنت أحب الي من كل شيء الا من نفسي ، فقال : لاياعمر ، حتى أكون أحب اليك من نفسك ، فقال : فأنت أحب الي من نفسي ، قال الآن ياعمر) وقال : (ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الايمان : من كان الله ورسوله أحب اليه مما سواهما ،ومن كان يحب المرء لايحبه الا لله ، ومن كان يكره أن يرجع في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار) وقدبين في كتابه الحقوق التي لاتصلح الا له ، وحقوق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحقوق المؤمنين بعضهم على بعض ــ كما قد بسطنا ذلك في غير هذا الموضع ــ وذلك مثل قوله تعالى : (ومَنْ يُطِعِ اللهَ ورسولَه ويخشَ اللهَ ويتّقْهِ فأُولئك هُم الفائزونَ) [11]

---

(١) الانعام : ٥٠ (٢) الاعراف : ١٨٨ (٣) آل عمران : ١٥٤ (٤) ال عمران ١٢٧ (٦) القصص : ٥٦ (٧) النساء : ٨٠ (٨) آل عمران : ٣١ (٩) الاحزاب : ٦ (١٠) التوبة : ٢٤ (١١) النور : ٥٢

فالطاعة لله والرسول ، والخشية والتقوى لله وحده ، وقوله تعالى : (ولَو أنهمْ رَضُوا ما آتاهم اللهُ ورسولُه وقالوا حسبُنا اللهُ سيؤْتِينا اللهُ من فضلِه ورسولُه إنا الى الله راغِبونَ)[1] فالايتاء لله وللرسول ، كقوله : (وما آتاكمُ الرَّسولُ فخذوهُ وما نَهاكم عنهُ فانتَهوا)[2] لأن الحلال ما حلله الله ورسوله ، والحرام ماحرمه الله ورسوله •

وأما التحسب فهو لله وحده ، كما قالوا حسبنا الله ولم يقولوا حسبنا الله ورسوله ، قال تعالى : (يا أيُّها النَّبي حَسبُكَ اللهُ ومنِ اتَّبعَك مِن المؤمنينَ)[3] أي يكفيك ويكفي من اتبعك من المؤمنين ، وهذا هو المقطوع به في معنى هذه الآية، ولهذا كانت كلمة ابراهيم ومحمد عليهما الصلاة والسلام حسبنا الله ونعم الوكيل •

(الوجه السابع) في بيان حجج المنكرين لحياته ـ أعني الخضر ـ اليوم ، ودلائل خصومهم ، وبيان الحق الحقيق بالقبول من القولين •

إعلم أن العلماء اختلفوا في حياته اليوم كما اختلفوا في نبوته ، فذهب جمع الى أنه ليس بحي اليوم ، وسئل البخاري عنه وعن الياس عليهما السلام هل هما حيان ؟ فقال : كيف يكون هذا ؟! وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم ـ أي قبل وفاته بقليل : (لايبقى على رأس المائة ممن هو اليوم على ظهر الارض أحد) والذي في صحيح مسلم عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل موته : (ما من نفس منفوسة يأتي عليها مائة سنة وهي يومئذ حية) وهذا أبعد عن التأويل ، وسئل عن ذلك غيره من الائمة فقرأ : (وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد) •

وسئل عنه شيخ الاسلام ابن تيمية ، فقال : لو كان الخضر حيا لوجب عليه أن يأتي الى النبي صلى الله عليه وسلم ويجاهد بين يديه ويتعلم منه ، وقد قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يوم بدر (اللهم ان تهلك هذه العصابة لاتعبد في الارض) فكانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا معروفين بأسمائهم وأسماء آبائهم وقبائلهم ، فأين كان الخضر حينئذ ؟!

وسئل ابراهيم الحربي عن بقائه ، فقال : من أحال على غائب لم ينصف وما ألقى

---

(١) التوبة : ٥٩ (٢) الحشر : ٧ (٣) الانفال : ٦٤

هذا بين الناس الا الشيطان ، ونقل في البحر عن شرف الدين أبي عبد الله محمد بن أبي الفضل المرسي القول بموته أيضا ، ونقله ابن الجوزي عن علي بن موسى الرضا رضي الله تعالى عنهما أيضا ، وكذا عن ابراهيم بن اسحق الحربي ، وقال أيضا كان أبو الحسين بن المنادي يقبح قول من يقول انه حيّ ، وحكى القاضي أبو يعلى موته عن بعض أصحاب محمد ، وكيف يعقل وجود الخضر ولا يصلي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الجمعة والجماعة ، ولا يشهد معه الجهاد مع قوله عليه الصلاة والسلام : (والذي نفسي بيده لو كان موسى حيا ماوسعه الا أن يتبعني) وقوله عز وجل : ﴿ وإِذْ أَخذَ اللهُ ميثاقَ النَّبيينَ لما آتيتكُم منْ كتابٍ وحكمةٍ ثمَّ جاءكُمْ رسولٌ مُصدِّقٌ لما معكمْ لتؤمننَّ به ولتنصُرنَّه قال أأقررْتم وأَخذتُم على ذلكُم إِصريْ قالوا أَقررْنا قالَ فاشهدوا وانا معكُم مِن الشاهدينَ ﴾[1] وثبوت أن عيسى عليه السلام اذا نزل الى الارض يصلي خلف امام هذه الامة ، ولا يتقدم عليه في مبدأ الامر ، وما أبعد فهم من يثبت وجود الخضر وينسى مافي طي اثباته من الاعراض عن هذه الشريعة ثم قال وعندنا من المعقول وجوه على عدم حياته :

(أحدها) أن الذي قال بحياته قال انه ابن آدم عليه السلام لصلبه ، وهذا فاسد لوجهين (الاول) انه يلزم أن يكون عمره اليوم ستة آلاف سنة أو أكثر ، ومثل هذا بعيد في العادات في حق البشر ، (والثاني) أنه لو كان ولده لصلبه أو الرابع من أولاده ــ كما زعموا أنه وزير ذي القرنين ــ لكان مهول الخلقة مفرط الطول والعرض ، ففي الصحيحين من حديث أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : (خلق آدم طوله ستون ذراعا فلم يزل الخلق ينقص بعده) وماذكر أحد ممن يزعم رؤية الخضر أنه رآه على خلقة عظيمة ، وهو من أقدم الناس •

(والوجه الثاني) أنه لو كان الخضر قبل نوح عليه السلام لركب معه في السفينة ، ولم ينقل هذا أحد •

(الثالث) أن العلماء اتفقوا على أن نوحا عليه السلام لما خرج من السفينة مات من معه ولم يبق غير نسله ودليل ذلك قوله سبحانه :(وجعلنا ذُريتَهُ هُم الباقين)[2]

---

(١) آل عمران : ٨١ (٢) الصافات : ٧٧

(الرابع) أنه لو صح بقاء بشر من لدن آدم الى قرب خراب الدنيا لكان ذلك من أعظم الآيات والعجائب ، وكان خبره في القرآن مذكورا في مواضع ، لأنه من آيات الربوبية ، وقد ذكر سبحانه عز وجل من استحياه ألف سنة الا خمسين عاما وجعله آية ، فكيف لايذكر جل وعلا من استحياه أضعاف ذلك •

(الخامس) أن القول بحياة الخضر قول على الله تعالى بغير علم ، وهو حرام بنص القرآن ، أما المقدمة الثانية فظاهرة ، وأما الاولى فلأن حياته لو كانت ثابتة لدل عليها القرآن أو السنة أو اجماع الامة ، فهذا كتاب الله تعالى فأين فيه حياة الخضر ؟ وهذه سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فأين مايدل على ذلك بوجه ؟ وهؤلاء علماء الامة فمتى أجمعوا على حياته ؟ •

(السادس) أن غاية مايتمسك به في حياته حكايات منقولة يخبر الرجل بها أنه رأى الخضر ، فيالله تعالى العجب هل للخضر علامة يعرفه بها من رآه ؟ وكثير من زاعمي رؤيته يغتر بقوله أنا الخضر ، ومعلوم أنه لايجوز تصديق قائل ذلك بلا برهان من الله تعالى ، فمن أين للرائي أن المخبر له صادق لايكذب ؟

(السابع) أن الخضر فارق موسى بن عمران كليم الرحمن ولم يصاحبه ، وقال هذا فراق بيني وبينك ، فكيف يرضى لنفسه بمفارقة مثل موسى عليه السلام ثم يجتمع بجهلة العباد الخارجين عن الشريعة ، الذين لايحضرون جمعة ولا جماعة ولا مجلس علم ، وكل منهم يقول قال لي الخضر ، جاءني الخضر ، أوصاني الخضر ، فيا عجبا له يفارق الكليم ، ويدور على صحبة جاهل لايصحبه الا شيطان رجيم ؟ سبحانك هذا بهتان عظيم !•

(الثامن) أن الامة مجمعة على أن الذي يقول أنا الخضر لو قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول كذا وكذا لم يلتفت الى قوله ، ولم يحتج به في الدين ولا مخلص للقائل بحياته عن ذلك الا أن يقول انه لم يأت الى الرسول عليه الصلاة والسلام ولا بايعه ، أو يقول انه لم يرسل اليه ، وفي هذا من الكفر مافيه •

(التاسع) أنه لو كان حيا لكان جهاده الكفار ورباطه في سبيل الله تعالى ومقامه في الصف ساعة وحضوره الجمعة والجماعة وارشاد جهلة الامة : أفضل بكثير من سياحته بين الوحوش في القفار والفلوات الى غير ذلك ، وسيأتي ان شاء الله تعالى ماله وما عليه •

(و شاع الاستدلال) بخبر لو كان الخضر حيا لزارني وهو كما قال الحفاظ خبر موضوع لا أصل له ، ولو صح لأغنى عن القيل والقال ، ولا نقطع به الخصام والجدال .

(الذاهبون الى حياته)

ومن الناس من قال بحياته وهو موجود بين أظهرنا ، وذلك متفق عليه عند الصوفية على ماقاله النووي ، ونقل عن الثعلبي المفسر : أن الخضر نبي معمر على جميع الاقوال ، محجوب عن أبصار أكثر الرجال ، وقال ابن الصلاح : هو حي اليوم ، وانما ذهب الى انكار حياته بعض المحدثين ، واستدلوا على ذلك بأخبار كثيرة .

منها : مايروى عن ابن عباس أنه قال الخضر ابن آدم لصلبه ونسيء له في أجله حتى يكذب الدجال ، ومثله لايقال من قبل الرأي .

ومنها : ماأخرجه ابن عساكر عن ابن اسحق ، قال : حدثنا أصحابنا أن آدم عليه السلام لما حضره الموت جمع بنيه ، فقال : يابني ان الله تعالى منزل على أهل الارض عذابا فليكن جسدي معكم في المغارة حتى اذا هبطتم فابعثوا بي وادفنوني بأرض الشام ، فكان جسده معهم ، فلما بعث الله تعالى نوحا ضم ذلك الجسد ، وأرسل الله تعالى الطوفان على الارض فغرقت زمانا ، فجاء نوح حتى نزل بابل ، وأوصى بنيه الثلاثة أن يذهبوا بجسده الى المغار الذي أمرهم أن يدفنوه به ، فقالوا الارض وحشة لاأنيس بها ولا نهتدي الطريق ولكن كف حتى يأمن الناس ويكثروا ، فقال لهم نوح : إن آدم قد دعا الله تعالى أن يطيل عمر الذي يدفنه الى يوم القيامه ، فلم يزل جسد آدم حتى كان الخضر هو الذي تولى دفنه ، فأنجز الله تعالى له ماوعده فهو يحيا الى ماشاء الله تعالى له أن يحيا ، وفي هذا سبب طول بقائه وكأنه سبب بعيد والا فالمشهور فيه أنه شرب من عين الحياة حين دخل الظلمة مع ذي القرنين وكان على مقدمته .

ومنها : ماأخرجه الخطيب وابن عساكر عن علي رضي الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما توفي وأخذنا في جهازه خرج الناس وخلا الموضع ، فلما وضعته على المغتسل اذا بهاتف يهتف من زاوية البيت بأعلى صوته لاتغسلوا محمدا

فانه طاهر مطهر ، فوقع في قلبي شيء من ذلك وقلت ويلك من أنت فان النبي صلى الله عليه وسلم بهذا أمرنا وهذه سنته ، واذا بهاتف آخر يهتف بي من زاوية البيت بأعلى صوته غسلوا محمدا فان الهاتف الاول كان ابليس الملعون حسد محمدا صلى الله عليه وسلم أن يدخل قبره مغسولا فقلت : جزاك الله تعالى خيرا قد أخبرتني بأن ذلك ابليس فمن أنت ؟ قال أنا الخضر حضرت جنازة محمد صلى الله عليه وسلم وعن علي كرم الله وجهه قال : بينما أنا أطوف بالبيت اذا رجل متعلق بأستار الكعبة يقول : يامن لايشغله سمع عن سمع ، ويامن لاتغلطه المسائل ، ويامن لايتبرم بالحاح الملحين ، أذقني برد عفوك ، وحلاوة رحمتك ، قلت : ياعبد الله أعد الكلام ، قال : أسمعته ؟ قلت نعم ، قال : والذي نفس الخضر بيده — وكان هو الخضر — لايقولهن عبد دبر الصلاة المكتوبة الا غفرت ذنوبه وان كانت مثل رمل عالج وعدد المطر وورق الشجر •

ومنها : ماأخرجه الحاكم في المستدرك عن جابر ، قال : لما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم واجتمع الصحابة دخل رجل أشهب اللحية جسيم صبيح ، فتخطى رقابهم فبكى ، ثم التفت الى الصحابة فقال : ان في الله تعالى عزاء من كل مصيبة ، وعوضا من كل فائت ، وخلفا من كل هالك ، فالى الله تعالى فأنيبوا ، واليه تعالى فارغبوا ، ونظره سبحانه اليكم في البلاء فانظروا فانما المصاب من لم يجبر ، فقال أبو بكر وعلي رضي الله تعالى عنهما : هذا الخضر عليه السلام ، الى غير ذلك مما لم يدل على حياته اليوم بل يدل على أنه كان حيا في زمنه صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولا يلزم من حياته اذ ذاك حياته اليوم •

والنافون أجابوا عن هذه الاحاديث ، وقالوا : ان الاخبار التي ذكر فيها الخضر عليه السلام وحياته كلها كذب ، ولا يصح في حياته حديث واحد ، ومن ادعى الصحة فعليه البيان •

ثم ان المشايخ لم يتفقوا على القول بحياته ، فقد نقل الشيخ صدر الدين اسحق القونوي في كتابه (تبصرة المبتدي وتذكرة المنتهى) أن وجود الخضر عليه السلام في عالم المثال ، وذهب عبد الرزاق الكاشي الى أن الخضر عبارة عن البسط والياس عن القبض ، وذهب بعضهم الى أن الخضرية رتبة يتولاها بعض الصالحين على قدم الخضر الذي كان في زمن موسى عليهما السلام ، الى غير ذلك من الاقوال المذكورة في روح المعاني •

وفيه أيضا : ثم اعلم بعد كل حساب أن الاخبار الصحيحة النبوية والمقدمات الراجحة العقلية تساعد القائلين بوفاته أي مساعدة ، وتعاضدهم على دعواهم أي معاضدة ، ولا مقتضى للعدول عن تلك الاخبار الا مراعاة ظواهر الحكايات المروية ــ والله أعلم بصحتها ــ عن بعض الصالحين الاخيار ، هذا ملخص مافي تفسير روح المعاني مما يرغم أنف النبهاني ، فتمسك بما قاله أئمة المحدثين ، فهم أعلم الناس بشريعة سيد المرسلين صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين •

(الوجه الثامن) من الوجوه الدالة على فساد قول النبهاني : أن مانقله عن ابن حجر المكي وما وقع له مع شيخه وأبي يحيى زكريا الانصاري وأن أبا يحيى قال لشيخ ابن حجر ــ وكان منكرا للاقطاب والابدال ــ هكذا ياشيخ محمد وكرر ذلك عليه ، حتى قال له الشيخ محمد : يامولانا شيخ الاسلام آمنت بذلك وصدقت به وقد تبت ، فقال : هذا هو الظن بك الخ ــ لايقوم حجة على المنكرين ، إذ مدار الاستدلال على الكتاب والسنة ، لابمثل قول أبي يحيى للشيخ محمد عند انكاره هكذا ياشيخ محمد مكررا ذلك •

ومثل هذه الخرافات يأنف عن نقلها أرباب العقول السليمة ، ففي (روح المعاني) ــ عند الكلام على قوله تعالى : (ولقد أخذنا ميثاقَ بني اسرائيلَ وبعثنا منهم اثنى عشرَ نقيباً)[1] بعد نقل عبارة الفتوحات في النقباء من أنواع الاولياء ــ قال :
وقد عد الشيخ أنواعا كثيرة ، والسلفيون ينكرون أكثر تلك الاسماء ، ففي بعض فتاوي ابن تيمية : وأما الاسماء الدائرة على ألسنة كثير من النساك والعامة مثل الغوث الذي بمكة والاوتاد الاربعة والاقطاب السبعة والابدال الاربعين والنجباء الثلاثمائة : فهي ليست موجودة في كتاب الله تعالى ، ولا هي مأثورة عن النبي صلى الله عليه وسلم لا باسناد صحيح ولا ضعيف محتمل ، الا لفظ الابدال ، فقد روى فيهم حديث شامي منقطع الاسناد عن علي كرم الله وجهه مرفوعا الى النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (إن فيهم ــ يعني أهل الابدال ــ أربعين رجلا ، كلما مات رجل أبدل الله تعالى مكانه رجلا) ولا توجد أيضا في كلام السلف ، انتهى غير أني رأيت في موضع آخر من (روح المعاني) عند الكلام على قوله تعالى : (ألا إنَّ أولياء الله لا خوفٌ عليهم ولا هُم يَحزنونَ.الَّذين آمنوا وكانوا يتَّقونَ).

---

(١) المائدة : ١٢

لهم البُشرى في الحياة الدُّنيا وفي الآخرة)[1]

ولهم في تعريفه عبارات شتى تقدم بعضها ، وفي (الفتوحات) هو الذي تولاه الله تعالى في مقام مجاهدته الاعداء الاربعة : الهوى ، والنفس ، والشيطان ، والدنيا. وفيها تقسيم الاولياء الى عدة أقسام : منها الاقطاب ، والاوتاد ، والابدال ، والنقباء ، والنجباء ، وقد ورد ذلك مرفوعا وموقوفا من حديث عمر بن الخطاب ، وعلي بن أبي طالب ، وأنس ، وحذيفة بن اليمان ، وعبادة بن الصامت ، وابن عباس ، وعبد الله بن عمر ، وابن مسعود ، وعوف بن مالك ، ومعاذ بن جبل ، وواثلة بن الاسقع ، وأبي سعيد الخدري ، وأبي هريرة ، وأبي الدرداء ، وأم سلمة ، ومن مرسل الحسن ، وعطا ، وبكر بن خنيس ، ومن الآثار عن التابعين ومن بعدهم مالا يحصى ، وقد ذكر ذلك الجلال السيوطي في رسالة مستقلة له ، وشيد أركانه ، وأنكره ، كما قدمنا بعضهم ، والحق مع المثبتين ، وأنا والحمد لله تعالى منهم ، وان كنت لم أشيد قبل أركان ذلك ، والأئمة والحواريون والرجبيون والختم والملامية والفقراء وسقيط الرفرف بن ساقط العرش والامناء والمحدثون الى غير ذلك . (٢)

وفي موضع آخر من تفسير (روح المعاني) عند تفسير قوله تعالى : (إنَّما يُريدُ اللهُ لِيُذهِبَ عنكمُ الرِّجسَ أهلَ البيتِ ويُطهِّركُم تطهيراً)[3]
قال بعد كلام طويل : إن الآية متضمنة الوعد منه عز وجل لأهل بيت نبيه صلى الله عليه وسلم بأنهم ان ينتهوا عما ينهون عنه ، ويأتمروا بما يأمرهم به : يذهب عنهم ـ لامحالة ـ مباديء مايستهجن ، ويحليهم أجل تحلية بما يستحسن ، وفيه ايماء الى قبول أعمالهم ، وترتب الآثار الجميلة عليها قطعا ، ويكون هذا خصوصية لهم ومزية على من عداهم ، من حيث أن اولئك الاغيار اذا انتهوا وائتمروا لايقطع لهم بحصول ذلك ، ولذا تجد عباد أهل البيت أتم حالا من سائر العباد المشاركين لهم في العبادة الظاهرة ، وأحسن أخلاقا وأزكى نفسا ، واليهم تنتهي سلاسل الطرائق التي مبناها ـ كما لايخفى على سالكيها ـ التخلية والتحلية اللتان هما جناحان للطيران الى حظائر القدس ، والوقوف على أركان الانس ، حتى ذهب قوم الى أن القطب في كل عصر لايكون الا منهم ، خلافا للاستاذ أبي العباس المرسى حيث ذهب ـ كما نقل عنه تلميذه التاج بن عطاء الله ـ الى أنه قد يكون من غيرهم .

(١) يونس : ٦٢ ـ ٦٤ (٢) هكذا عباره الاصل (٣) الاحزاب : ٣٣

قال ورأيت في مكتوبات الامام الفاروقي الرباني مجدد الالف الثاني ما حاصله : أن القطبية لم تكن على سبيل الاصالة الا لأئمة أهل البيت المشهورين ، ثم إنها صارت بعدهم لغيرهم على سبيل النيابة عنهم ، حتى انتهت النوبة الى السيد الشيخ عبد القادر الكيلاني ، فنال مرتبة القطبية على سبيل الاصالة ، فلما عرج بروحه القدسية الى أعلى عليين نال من نال بعده تلك الرتبة على سبيل النيابة عنه ، فاذا جاء المهدي ينالها أصالة كما نالها غيره من الأئمة رضوان الله عليهم أجمعين انتهى •

ثم قال بعد ذلك : وأقول أن السيد الشيخ عبد القادر قد نال مانال من القطبية بواسطة جده عليه الصلاة والسلام على أتم وجه وأكمل حال ، فقد كان رضي الله تعالى عنه من أجلة أهل البيت حسنيا من جهة الاب حسينيا من جهة الام ، لم يصبه نقص لو أن وعسى وليت ، ولا ينكر ذلك إلا زنديق أو رافضي ينكر صحبة الصديق انتهت عبارة روح المعاني •

وأنت تعلم مما أسلفناه اليك أن هذا الكلام ساقط عن الاعتبار عند المحققين من الحفاظ وأئمة المحدثين ، اذ ليس لهم على ذلك دليل يعتمد عليه لا من الكتاب ولا من السنة النبوية الصحيحة ، ولا تنظر الى من قال وانظر الى ماقال ، وقد تحصل من جميع ماذكرناه أن ماذهب اليه شيخ الاسلام هو الحق الذي اقتضاه الكتاب والسنة ، وما يخالفه ساقط لا يلتفت اليه والله ولي التوفيق •

(قال النبهاني) وها أنا أرجع الى الكلام على (منهاج السنة) للامام ابن تيمية فأقول : لما كان كثير من طلبة العلم في هذا الزمان ــ فضلا عن العوام ــ غير ماهرين في علم الكلام ، ومعرفة مايخالف أو يوافق العقيدة الصحيحة من أبحاثهم الدقيقة ، التي لايهتدي لمعرفتها والتفريق بين الحق والباطل منها الا أكابر علماء الاسلام ــ الذين قضوا زمنا طويلا من أعمارهم في مباحث علم الكلام ــ كان من الواجب على علماء أهل السنة والجماعة من الاشعرية والماتريدية ــ وهم أهل المذاهب الثلاثة وبعض الحنابلة أيضا ــ أن يحذروا العوام وضعاف الطلبة من مطالعة هذين الكتابين، لكثرة مافيهما من خلط الحق بالباطل ، والرد على أهل السنة والجماعة بحجج مزخرفات ، ربما لايهتدي لدفعها القاصرون من طلبة العلم فضلا عن العوام ، قال : وقد تقدم في كلام الامام السبكي أنه رد على كتابه (العقل والنقل) فرده هو لاشك من الجهات التي خالف بها أهل السنة ورد عليهم مثل الامام الاشعري وغيره •

ثم انه نقل عن الزبيدي مايؤيد قوله من أن أهل السنة هم الاشاعرة ونحوهم ، وعن التاج السبكي ووالده مثل ذلك ، وانه لافرق بين الاشاعرة وبين الماتريدية الا في مسائل .

ثم انه نقل أيضا عن الزبيدي أيضا أن للسبكي شرحا على قصيدة ابن زفيل الحنبلي التي رد فيها على الاشاعرة وأضرابهم ، وهي التي يقول فيها :

ان كنت كاذبة الذي حدثتني	فعليك اثم الكاذب الفتان
جهم بن صفوان وشيعته الالى	جحدوا صفات الخالق الديان
بل عطلوا منه السموات العلى	والعرش أخلوه من الرحمن
والعبد عندهم فليس بفاعل	بل فعله كتحرك الرجفان

اعلم أن هذه الابيات من نونية ابن القيم رحمه الله تعالى ، وهي المسماة (بالكافية الشافية) ولم نسمع أن أحدا سماه ابن زفيل ، وكلامه يوهم أنه شخص آخر ، وهكذا شأن الغلاة ديدنهم ودينهم تحريف الكلام عن مواضعه ، والسبكي ليس من رجال هذه المنظومة حتى يكتب عليها شيئا ، ومن ادعى غير ماذكرناه فعليه البيان حتى نتكلم عليه بما يجب .

ثم نقل من شرح السبكي على هذه الابيات ذم علم الكلام ، وذم الشيخ ابن تيمية وأصحابه بسبب قولهم في المسائل المختارة للشيخ وما افتراه عليهم خصومهم ، وبعد أن فرغ من عبارة السبكي التي نقلها الزبيدي ، قال النبهاني : اذا علمت ذلك أيها المسلم الشافعي أوالحنفي أو المالكيأو الحنبلي الصالحالموفق نعلم أنهيجبعليك الحذر التام من كتب الامام ابن تيمية وجماعته المتعلقة بالعقائد ، لئلا تهوي في مهواة الضلال ، ولا ينفعك الندم بعد ذلك بحال من الاحوال ، واياك أن تغتر بكلام السيد نعمان أفندي الالوسي البغدادي في كتابه (جلاء العينين) وتظن أنه حنفي من أهل السنة والجماعة ، فهو بهذا الكتاب قد خرج عن حنفيته وسنيته ، وصار من جماعة ابن تيمية ناصرا لمذهبه مذهب الوهابية ــ عفا الله عنه وعنهم أجمعين ــ فانهم بلا شك من جملةالمسلمين وانكانوا فيماخالفوا أهل السنة مبتدعين ، وهم انمايغرونأهل الاسلام من ضعاف الطلبة والعوام بقولهم انهم على مذهب السلف ، ثم نقل بعض العبارات عن كتاب المنهاج زعم أن فيها اثبات الجهة الى آخر هذيانه .

(وحاصل كلامه) الطويل السخيف العليل : أنه حذر طلبة العلم من مطالعة كتب

ابن تيمية ، ولا سيما كتاب العقل والنقل ، والمنهاج ، ومن كتاب جلاء العينين ، فان تلك الكتب مخالفة لعقائد أهل السنة ، وأن مؤلف جلاء العينين بسبب الذب عن ابن تيمية وابطال بهتان ابن حجر خرج عن حنفيته وسنيته ، وله الفضل حيث لم يخرجه أيضا عن حنيفيته ، وأن ابن تيمية قائل بالجهة ، هذا حاصل جميع هذيانه في هذا المقام ، والله المستعان ، وقد جعل الموافقين لابن تيمية مبتدعة ، وقد كرر ذلك الكلام مرارا ، وأعاده مرة بعد أخرى •

(أقول في الجواب عن غلطه) انا قد قدمنا الكلام على كتب الشيخ ابن تيمية مفصلا ، وذكرنا ماذكرنا من تقاريظ أهل العلم عليها ، وما قالوه من الثناء الذي لم يكن لغيرها ، وهي الكتب التي فتح الله بها عيونا عميا ، وآذانا صما ، وقلوبا غلفا ، وكانت من بعض آيات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم ان كان فرد من أفراد أمته بلغ ما بلغ من العلم بحمد الله وتوفيقه ، ويقال للنبهاني كما أنشدناه سابقا :

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد ... وينكر الفم طعم الماء من سقم

ويقال له أيضا : من أين لك علم بعلم الكلام ؟ بل بعلم من العلوم ، فان كتابك هذا الذي نراه من أوضح الدلائل على جهلك وغباوتك •

فان كنت لاتدري فتلك مصيبة ... وان كنت تدري فالمصيبة أعظم

ويقال له أيضا : ان كان لك علم وفهم فلم لم تنصح نفسك وتردعها عن سلوك هذا المسلك الذي أنت متلوث به والنفس مقدمة على الغير ؟ وما أحسن ماقيل :

ياأيها الشيخ المعلم غيره ... هلا لنفسك كان ذا التعليم

ويقال له أيضا : لم لم تنصح — ان كان لك فهم وذوق — عن مطالعة الكتب التي تصادم الشريعة الغراء وتناقضها ، ككتب الشيخ محي الدين ابن العربي وأضرابه من المتصوفة ، التي تقشعر من سماعها جلود المؤمنين ، قال الشيخ محي الدين عند الكلام على تفسير قوله تعالى (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا) الآية برواية أبي زرعة (ان الذين كفروا) ستروا محبتهم (سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم) استوى عندهم انذارك وعدم انذارك لما جعلنا عندهم (لايؤمنون) بك ولا يأخذون عنك ، انما يأخذون عنا • (ختم الله على قلوبهم) فلا يعقلون إلا عنه • (وعلى سمعهم) فلا يسمعون الا منه •

(وعلى أبصارهم غشاوة) فلا يبصرون إلا اليه ، ولا يلتفتون اليك والى ما عندك بما جعلناه عندهم وألقيناه اليهم (ولهم عذاب) من العذوبة (عظيم) انتهى •

ولكن النبهاني وأضرابه من الغلاة يذبون عن مثل هذه الكتب ، ويحثون على مطالعتها ، ويلمزون كتب السنة الداعية الى توحيد الله ، وهكذا شأن علماء أهل الكتاب وأحبارهم •

فقد نقل الحافظ ابن القيم في كتابه (هداية الحيارى) عند رده على من طعن في علم الصحابة رضي الله تعالى عنهم مانصه ــ من كلام طويل ــ وما يدريكم معاشر المثلثة وعباد الصليب وأمة اللعنة والغضب بالفقه والعلم ، ومسمى هذا الاسم ، حيث تسلبونه أصحاب محمد الذين هم وتلاميذهم كأنبياء بني اسرائيل ؟ وهل يميز بين العلماء والجهال ويعرف مقادير العلماء الا من هو من جملتهم ؟ ومعدود في زمرتهم ؟ فاما طائفة شبه الله علمائها بالحمير التي تحمل الاسفار ، وطائفة علماؤها يقولون في الله مالا يرضاه أمة من الامم فيمن تعظمه وتجله ، وتأخذ دينها عن كل كاذب ومفتر على الله وعلى أنبيائه ، فمثلها كمثل عريان يحارب شاكي السلاح ، ومن سقف بيته زجاج وهو يزاحم أصحاب القصور بالاحجار ، ولا يستكثر على من قال في الله ورسوله ما قال أن يقول في أعلم الخلق أنهم عوام •

(فليهن أمة الغضب) علم التلموز وما فيه من الكذب على الله وعلى كليمه موسى ، وما يحدثه لهم أحبارهم وعلماء السوء منهم كل وقت ، وليهنهم علوم دلتهم على أن الله ندم على خلق البشر حتى شق عليه ، وبكى على الطوفان حتى رمد ، وعادته الملائكة ، وغير ذلك ، وليهن أمة الضلال علومهم التي فارقوا بها جميع شرائع الانبياء ، وخالفوا بها المسيح خلافا يتحققه علماؤهم في كل أمره ، وعلومهم التي قالوا بها في رب العالمين ما قالوا مما كادت السموات تنشق منه والارض تنفطر ، والجبال تنهد ، لولا أن أمسكها الحكيم المصور ، وعلومهم التي دلتهم على التثليث وعبادة خشبة الصليب والصور المدهونة ، ودلتكم على قول عالمكم أن اليد التي جلبت طينة آدم هي التي علقت على الصلبوت ، وأن الشبر الذي ذرعت به السموات هو الذي سمر على الخشبة ، وقول عالمكم الآخر من لم يقل أن مريم والدة الله فهو خارج عن ولاية الله ، انتهى ماقصدنا نقله وبقي منه كلام طويل من أراده فليرجع اليه •

(سمعت أيها النبهاني) ما قال اخوانك وما قيل لهم ، فوازن بين كلامهم وطعنهم على أهل الحق وعلومهم وبين كلامك وقدحك في كتب السنة والدين الخالص ، ووازن بين ماأجيبوا به وما أجبت به ، ولقد تشابهت قلوبكم ، وتوافقت مثالبكم وعيوبكم ، كل ذلك أيها النبهاني من جهلك الذي أنت فيه ، وهو الذي أوقعك في مهواة البلاء وعجبك بنفسك ، وتكبرك الذي دعاك الى أن ضربت بسهم مع الافاضل وأرباب التقوى ، مع أنك كما قال القائل :

نزلوا بمكة في قبائل هاشم ونزلت في البيداء أبعد منزل

(ثم نقول) ان مادعاه النبهاني ــ تقليدا لاسلافه ــ أن الاشاعرة والماتريدية هم أهل السنة وأن من كان على طريقة السلف ــ كشيخ الاسلام ابن تيمية ــ هم من المبتدعة كلام لاأظنه يصدر عن ذي فهم ولا معرفة ، فلا بد من الكلام على تحقيق هذه المسألة وبيان المراد بالسنة والبدعة ، ليتبين الحق من الباطل ، ويعلم به أن الاحق باسم المبتدع هو هذا الخصم الالد ، ومن على منهجه من أسلافه الغلاة قبحهم الله تعالى وخذلهم •

(اعلم) أن أهل السنة والجماعة هم أهل الاسلام والتوحيد ، المتمسكون بالسنن الثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في العقائد والنحل والعبادات الباطنة والظاهرة ، الذين لم يشوبوها ببدع أهل الاهواء وأهل الكلام في أبواب العلم والاعتقادات ، ولم يخرجوا عنها في باب العمل والارادات ، كما عليه جهال أهل الطرايق والعبادات ، فان السنة في الاصل تقع على ماكان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما سنه أو أمر به من أصول الدين وفروعه ، حتى الهدي والسمت، ثم خصت في بعض الاطلاقات بما كان عليه أهل السنة من اثبات الاسماء والصفات ، خلافا للجهمية المعطلة النفاة ، وخصت باثبات القدر ونفي الجبر خلافا للقدرية النفاة ، وللقدرية الجبرية العصاة ، وتطلق أيضا على ماكان عليه السلف الصالح في مسائل الامامة والتفضيل ، والكف عما شجر بين أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا من اطلاق الاسم على بعض مسمياته ، لانهم يريدون بمثل هذا الاطلاق التنبيه على أن المسمى ركن أعظم وشرط أكبر ، كقوله : (الحج عرفة) أو لانه الوصف الفارق بينهم وبين غيرهم ، ولذلك سمى العلماء كتبهم في هذه الاصول كتب السنة ، ككتاب السنة للالكائي ، والسنة لأبي بكر الاثرم ، والسنة للخلال ، والسنة لابن

خزيمة ، والسنة لعبد الله بن أحمد ، ومنهاج السنة لشيخ الاسلام ابن تيمية ، وغيرهم •

فما قاله النبهاني ان في كتب ابن تيمية التي ذكرها حكما على أهل السنة والجماعة بالتكفير والاشراك : كذب ظاهر ، وبهت جلي ، ماقيل ولا صدر فضلا عن كونه عرف واشتهر ، وآحاد العامة فضلا عن الخاصة لايخفى عليهم أن الشيخ وأصحابه كانوا من أكابر أهل السنة والجماعة ، وأنهم تصدوا للرد على المبطلين والمشركين ، من اليهود والنصارى ، والصابئة والفلاسفة ، وعباد القبور والمشائخ ، ولم يكفروا غير هذه الطوائف ومن ضاهاهم ، كغلاة الجهمية ، والقدرية ، والرافضة هذا يعرفه كثير من العوام •

فما قاله النبهاني من أن الشيخ ابن تيمية رد في كتابه منهاج السنة وكتاب العقل والنقل على أهل السنة لا أصل له ، بل انه رد على الغلاة من عبدة القبور ، وتسمية هؤلاء أهل سنة وجماعة جهل عظيم بحدود ماأنزل الله على رسوله ، وقلب للمسميات الشرعية وما يراد من الاسلام والايمان ، والشرك والكفر ، قال تعالى :
(الأعرابُ أشدُّ كُفْراً ونِفاقاً وأجدرُ أنْ لا يعلموا حُدودَ ما أنزلَ اللَّهُ على رسوله) [1]

والنبهاني وأمثاله أجدر من أولئك بالجهل وعدم العلم بالحدود لغربة الاسلام وبعد العهد بآثار النبوة ، كما أفاده العلامة الشيخ عبد اللطيف في منهاجه •

وظن النبهاني أن دعاء غير الله والعمل بغير الشريعة الاحمدية والقول بالحلول والاتحاد لايخرجه عن جادة الحق مع الاتيان بالشهادتين ، مع أنه لايشترط في ذلك أن يكفر المكلف بجميع ماجاء به الرسول ، بل يكفي في الكفر والردة ـ والعياذبالله تعالى ـ أن يأتي بما يوجب ذلك ولو في بعض الاصول ، وهذا ذكره الفقهاء من كل مذهب ، وهو من عجيب جهل النبهاني وأمثاله من الغلاة ، لانه يعرفه المبتدئون في الفقه والعلم ، ومن أراد الوقوف على جزئيات وفروع في الكفر والردة فعليه بما صنف في ذلك ، كالاعلام لابن حجر ، وما عقده الفقهاء من أهل كل مذهب في باب حكم المرتد •

(قال شيخ الاسلام ابن تيمية في الرسالة السنية) لما ذكر حديث الخوارج ومروقهم من الدين وأمر النبي صلى الله عليه وسلم بقتالهم قال : فاذا كان عهد النبي

---

(١) التوبة : ٩٧

صلى الله عليه وسلم وخلفائه ممن انتسب الى الاسـلام من مرق منه مع عبـاداته العظيمة حتى أمر صلى الله عليه وسلم بقتاله : فليعلم أن المنتسب الى الاسلام والسنة في هذه الازمان قد يمرق أيضا من الاسلام ، وذلك بأسباب : منها الغلو الذي ذمه الله في كتابه ، حيث قال : (يا أَهـلَ الكتابِ لا تَغْلُوا في دينِكُم)[1] الآية ، وعلى رضى الله عنه حرق الغالية من الرافضة ، فأمر بأخاديد خدت لهم عند باب كندة فقذفوا فيها ، واتفق الصحابة على قتلهم ، لكن ابن عباس كان مذهبـه أن يقتلوا بالسيف بلا تحريق ، وهو قول أكثر الصحابة ، وقصتهم معروفة عند العلماء ، وكذلك الغلو في بعض المشايخ ، بل الغلو في علي ابن أبي طالب ، بل الغلو في المسيح ونحوه ، فكل من غلا في نبي أو رجل صالح وجعل فيه نوعا من الالهية ــ مثـل أن يقول ياسيدي فلان انصرني أو أغثني أو ارزقني أو أجرني أو أنا في حسبك ونحـو هذه الاقوال ــ فكل هذا شرك وضلال ، يستتاب صاحبه فان تاب والا قتـل ، فان الله تعالى انما أرسل الرسل وأنزل الكتب ليعبد وحده لايجعل معه الها آخر ، والذين يدعون مع الله آلهة أخرى ــ مثل المسيح والملائكة والاصنام ــ لم يكونوا يعتقدون أنها تخلق الخلائق ، وتنزل المطر ، وتنبت النبات ، انما كانوا يعبدونهم أو يعبـدون قبورهم أو صورهم ، ويقولون : مانعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى ، ويقولون : هؤلاء شفعاؤنا عند الله ، فبعث الله رسوله ينهى أن يدعي أحد من دونه لادعاء عبادة ولا دعاء استغاثة ، قال تعالى : (قُل ادعوا الَّذينَ زعمتُم مِنْ دونـهِ فلا يملِكونَ كشْفَ الضُّرِّ عنكمُ ولا تحويلاً . أُولئكَ الَّذينَ يدعونَ يبْتغونَ الى ربِّهمُ الوسيلةَ أيُّهمْ أَقربُ)[2] .

قال طائفة من السلف : كان أقوام يدعون المسيح وعزيرا والملائكة فأنزل الله هذه الاية ، ثم ذكر آيات في المعنى انتهى •

وقال شيخ الاسلام أيضا في الفرقان بين الحق والباطل : وأهل الضلال الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا : هم كما قال مجاهد أهل البدع والشبهات يتمسكـون بما هو بدعة في الشرع ومشتبه في العقل ، وكما قال فيهم الامام أحمد ، قال : هـم مختلفون في الكتاب ، مخالفون للكتاب ، متفقون على مخالفة الكتاب ، يحتجـون

---

(١) النساء : ١٧١ (٢) الاسراء : ٥٦ ، ٥٧

بالمتشابه من الكلام ، ويضلون الناس بما يشبهون عليهم ، والموافقة من أهل الضلال تجعل لها دينا وأصول دين قد ابتدعوه برأيهم ، ثم يعرضون على ذلك القرآن والحديث فان وافقه احتجوا به اعتقادا [1] لااعتمادا ، وان خالفه فتارة يحرفون الكلام عن مواضعه ويتأولونه على غير تأويله ، وهذا فعل أئمتهم ، وتارة يعرضون عنه ويقولون نفوض معناه الى الله ، وهذا فعل عامتهم ، وعمدة الطائفتين في الباطن غير ماجاء به الرسول ، يجعلون أقوالهم البدعية محكمة يجب اتباعها واعتقاد موجبها ، والمخالف اما كافر واما جاهل لايعرف هذا الباب ، وليس له علم بالمعقول ولا بالاصول ، ويجعلون كلام الله ورسوله الذي يخالفها من المتشابه الذي لايعرف معناه الا الله ، أو لايعرف معناه الا الراسخون في العلم ، والراسخون عندهم من كان موافقا لهم على ذلك القول ، وهؤلاء أضل ممن تمسك بما تشابه عليه من آيات الكتاب وترك المحكم ، كالنصارى والخوارج وغيرهم ، اذ كان هؤلاء أخذوا بالمتشابه من كلام الله وجعلوه محكما وجعلوا المحكم متشابها ، وأما أولئك ــ كنفاة الصفات من الجهمية ومن وافقهم من المعتزلة وغيرهم وكالفلاسفة ــ فيجعلون ماابتدعوه هم برأيهم هو المحكم الذي يجب اتباعه ، وان لم يكن معهم من الانبياء والكتاب والسنة مايوافقه ، ويجعلون ماجاءت به الانبياء وان كان صريحا قد يعلم معناه بالضرورة ويجعلونه من المتشابه ، ولهذا كان هؤلاء أعظم مخالفة للانبياء من جميع أهل البدع ، حتى قال يوسف بن اسباط ، وعبد الله بن المبارك ، وغيرهما كطائفة من أصحاب أحمد : ان الجهمية نفاة الصفات خارجون عن الثنتين والسبعين فرقة .

قالوا وأصولها أربعة : الشيعة ، والخوارج ، والمرجئة ، والقدرية ، وقد ذكرنا في غير هذا الموضع أن قوله تعالى : (مِنهُ آياتٌ مُحكماتٌ هُنَّ أُمُّ الكتاب وأُخَرُ مُتشابِهاتٌ) [2] في المتشابهات قولان : أحدهما أنها آيات بعينها تتشابه على كل الناس ، والثاني وهو الصحيح أن التشابه أمر نسبي فقد يتشابه عند هذا مالايتشابه عند غيره ، ولكن ثم آيات محكمات لاتشابه فيها على أحد ، وتلك المتشابهات اذا عرف معناها صارت غير متشابهة ، بل القول كله محكم ، كما قال :(أُحكِمتْ آياته ثُمَّ فُصِّلَتْ) وهذا كقوله (الحلال بين والحرام بين ، وبين ذلك أمور لايعلمهن كثير

---

(1) كذا في الاصل ، ولعلها اعتضادا لانه المناسب للسياق . (2) آل عمران : ٦

من الناس) وكذلك قولهم : ﴿إنَّ البَقَرَ تشَابَهَ علينا﴾.

(وقد صنف) أحمد كتابا في الرد على الزنادقة والجهمية فيما شكت فيه من متشابه القرآن وتأولوه على غير تأويله ، وفسر تلك الآيات كلها ، وذمهم على أنهم تأولوا ذلك المتشابه على غير تأويله ، وعامتها آيات معروفة قد تكلم العلماء في تفسيرها ، مثل الآيات التي سأل عنها نافع ابن الازرق لابن عباس ، قال الحسن البصري : ماأنزل الله آية الا وهو يحب أن يعلم فيم أنزلت وماذا عنى بها ، ومن قال من السلف ان المتشابه لايعلم تأويله الا الله فقد أصاب أيضا ، ومراده بالتأويل ماستأثر الله بعلمه ، مثل وقت الساعة ، ومجيء اشراطها ، ومثل كيفية نفسه ، وما أعده في الجنة لاوليائه ، وكان من أسباب نزول الآية احتجاج النصارى بما تشابه عليهم ، كقوله : (انا) و (نحن) وهذا يعرف العلماء أن المراد به الواحد المعظم الذي له أعوان ، لم يرد به أن الالهة ثلاثة ، فتأويل هذا ــ الذي هو تفسيره ــ يعلمه الراسخون ، ويفرقون بين ماقيل فيه (أنا) وماقيل فيه (إنا) بدخول الملائكة فيما يرسلهم فيه اذ كانوا رسله ، وأما كونه هو المعبود الأله فهو له وحده ، ولهذا لايقول فايانا فاعبدوا ولا ايانا فارهبوا بل متى جاء الامر بالعبادة والتقوى والخشيةوالتوكل ذكر نفسه وحده باسمه الخاص ، واذا ذكر الافعال التي يرسل فيها الملائكة قال : (إنا فتَحْنا لكَ فتْحاً مُبيناً)[1] (فإذا قرأْناهُ فاتَّبِعْ قُرآنَهُ)[2] (نتْلوا علَيْكَ منْ نبَأ موسى وفرعَونَ بالحقِّ)[3] ونحو ذلك مع أن تأويل هذا وهو حقيقة مادل عليه من الملائكة وصفاتهم وكيفية ارسال الرب لهم لايعلمه الا الله ، كما قد بسط في غير هذا الموضع .

(والمقصود هنا) أن الواجب أن يجعل ماقاله الله ورسوله هو الاصل ، ويتدبر معناه ، ويعقل ويعرف برهانه ودليله ، إما العقلي واما الخبري السمعي ، ويعرف دلالة القرآن على هذا وهذا ، ويجعل أقوال الناس التي قد توافقه وتخالفه متشابهة مجملة .

(فيقال) لأصحاب هذه الالفاظ : يحتمل كذا وكذا ويحتمل كذا وكذا ، فان أرادوا بها مايوافق خبر الرسول قبل وان أرادوا بها مايخالفه رد ، وهذا مثل لفظ

---

(١) الفتح : ١ (٢) القيامة : ١٨ (٣) القصص : ٣

المركب والجسم والمتحيز والجوهر والجهة والعرض ونحو ذلك ، ولفظ الحيز ونحو ذلك ، فان هذه الالفاظ لاتوجد في الكتاب والسنة بالمعنى الذي يريده أهل هذا الاصطلاح ، بل ولا في اللغة أيضا ، بل هم يختصمون بالتعبير بها على معان لم يعبر غيرهم عن تلك المعاني بهذه الالفاظ ، فيفسر تلك المعاني بعبارات أخرى ، ويبطل مادل عليه القرآن من الادلة العقلية والسمعية ، واذا وقع الاستفسار والتفصيل تبين الحق من الباطل ، وعرف وجه الكلام على أدلتهم فانها ملفقة من مقدمات مشتركة يأخذون اللفظ المشترك في احدى المقدمتين بمعنى ، وفي المقدمة الاخرى بمعنى آخر ، فهو في صورة اللفظ دليل وفي المعنى ليس بدليل ، كمن يقول سهيل بعيد من الثريا لايجوز أن يقترن بها ولا يتزوجها ، والذي قال :

أيها المنكح الثريا سهيلا ... عمرك الله كيف يلتقيان

أراد امرأة اسمها الثريا ورجلا اسمه سهيل ، ثم قال : عمرك الله الخ

هي شامية اذا ما استقلت ... وسهيل اذا استقل يماني

وهذا لفظ مشترك ، فجعل تعجبه وانكاره من الظاهر من جهة اللفظ المشترك ، وقد بسط الكلام على أدلتهم المفصلة في غير موضع •

(والاصل) الذي بنى عليه نفات الصفات وعطلوا ماعطلوا حتى صار منتهاهم الى قول فرعون الذي جحد الخالق وكذب رسوله موسى في أن الله كلمه : هو استدلالهم على حدوث العالم بأن الاجسام محدثة ، واستدلالهم على ذلك بأنها لاتخلوا من الحوادث ولم تسبقها ، وما لم يخل من الحوادث ولم يسبقها فهو محدث ، وهذا أصل قول الجهمية الذين أطبق السلف والأئمة على ذمهم ، وأصل قول المتكلمين الذين أطبقوا على ذمهم •

وقد صنف الناس مصنفات متعددة فيها أقوال السلف والأئمة في ذم الجهمية وفي ذم هؤلاء المتكلمين ، والسلف لم يذموا جنس الكلام فان كل آدمي يتكلم ، ولا ذموا الاستدلال والنظر والجدل الذي أمر الله به رسوله ، والاستدلال بما بينه الله ورسوله ، بل ولاذموا كلاما هو حق بل ذموا الكلام الباطل وهو المخالف للكتاب والسنة ، وهو المخالف للعقل أيضا ، وهو الباطل •

(فالكلام) الذي ذمه السلف هو الكلام الباطل ، وهو المخالف للشرع والعقل ،

ولكن كثيرا من الناس خفي عليه بطلان هذا الكلام ، فمنهم من اعتقده موافقا للشرع والعقل حتى اعتقد أن ابراهيم الخليل استدل به ، ومن هؤلاء من يجعله أصل الدين ولا يحصل الايمان أولا يتم الا به ، ولكن من عرف ماجاء به الرسول وما كان عليه الصحابة علم بالاضطرار أن الرسول والصحابة لم يكونوا يسلكون هذا المسلك ، فصار من عرف ذلك يعرف أن هذا بدعة ، وكثير منهم لايعرف أنه فاسد ، بل يظن مع ذلك أنه صحيح من جهة العقل لكنه طويل أو بعيد المعرفة أو هو طريق مخيفة مخطر يخاف على سالكه ، فصاروا يعيبونه كما يعاب الطريق الطويل والطريق المخيف ، مع اعتقادهم أنه يوصل الى المعرفة وأنه صحيح في نفسه ، وأما الحذاق العارفون تحقيقه فعلموا أنه باطل عقلا وشرعا ، وأنه ليس بطريق موصل الى المعرفة ، بل انما يوصل لمن اعتقد صحته الى الجهل والضلال ، ومن تبين له تناقضه أوصله الى الحيرة والشك ولهذا صار حذاق سالكيه ينتهون الى الحيرة والشك ، اذ كان حقيقته أن كل موجود فهو حادث مسبوق بالعدم ، وليس في الوجود قديم ، وهذا مكابرة ، فان الوجود مشهود ، وهو اما حادث واما قديم ، والحادث لابد له من قديم ، فثبت وجود القديم على التقديرين .

وكذلك مابتدعه في هذه الطريق ابن سينا وأتباعه من الاستدلال بالممكن على الواجب أبطل من ذلك ، كما قد بسط ذلك في غير هذا الموضع .

وحقيقته : أن كل موجود فهو ممكن ، ليس في الوجود موجود بنفسه ، مع أنهم جعلوا هذا طريقا لاثبات الواجب بنفسه ، كما يجعل أولئك هذا طريقا لاثبات القديم ، وكلاهما يناقض ثبوت القديم والواجب ، فليس في واحد منهما اثبات قديم ولا واجب بنفسه ، مع أن ثبوت موجود قديم وواجب بنفسه معلوم بالضرورة ، ولهذا صار حذاق هؤلاء الى أن الموجود الواجب والقديم هو العالم بنفسه ، وقالوا هو الله ، وأنكروا أن لايكون للعالم رب مباين للعالم ، اذ كان ثبوت القديم الواجب بنفسه لا بد منه على كل قول ، وفرعون ونحوه ممن انكر الصانع ما كان ينكر هذا الوجود المشهود .

فلما كان حقيقة قول أولئك يستلزم أنه ليس موجود قديم ولا واجب لكنهم لايعرفون أن هذا يلزمهم ، بل يظنون أنهم أقاموا الدليل على اثبات القديم الواجب بنفسه ، ولكن وصفوه بصفات الممتنع ، فقالوا لا داخل العالم ولا خارجه ، ولا هو صفة ولا موصوف ، ولا يشار اليه ونحو ذلك من الصفات السلبية التي تستلزم

عدمه ، وكان هذا مما تنفر عنه العقول والفطر ، ويعرف أن هذا صفة المعدوم الممتنع لاصفة الموجود ، فدليلهم في نفس الامر يستلزم أنه ماثم قديم ولا واجب ، ولكن ظنوا أنهم أثبتوا القديم والواجب ، وهذا الذي أثبتوه ممتنع فما أثبتوا قديما ولا واجبا •

فجاء آخرون من جهتهم فرأوا هذا مكابرة ، وأنه لابد من اثبات القديم والواجب ، فقالوا هو هذا العالم ، فكان قدماء الجهمية يقولون انه بذاته في كل مكان ، وهؤلاء قالوا هو غير الموجودات ، والموجود القديم الواجب هو نفس الوجود المحدث الممكن ، والحلول هو الذي أظهرته الجهمية للناس حتى عرفه السلف والأئمة وردوه •

وأما حقيقة قولهم فهو النفي : أن لا داخل العالم ولا خارجه ، ولكن هذا لم يسمعه الأئمة ولم يعرفوا أنه قولهم الا من باطنهم ، ولهذا كان الأئمة يحكون عن الجهمية أنه في كل مكان ، ويحكون عنهم وصفه بالصفات السلبية ، وشاع عند الناس أن الجهمية يصفونه بالسلوب حتى قال أبو تمام :

جهمية الاوصاف الا أنها قد حليت بمحاسن الاشياء

وهم لم يقصدوا نفي القديم والواجب فان هذا لايقصده أحد من العقلاء لا مسلم ولا كافر ، اذ كان خلاف مايعلمه كل واحد ببديهة عقله ، فانه اذا قدر أن جميع الموجودات حادثة عن عدم لزم أن كل الموجودات حدثت بأنفسها ، ومن المعلوم ببداهة العقول أن الحادث لايحدث بنفسه ، ولهذا قال تعالى : (أَم خُلِقوا مِنْ غيرِ شيءٍ أَم هُم الخالقونَ)[1] وقد قيل خلقوا من غير شيء من غير رب خلقهم وقيل من غير مادة ، وقيل من غير عاقبة وجزاء ، والاول مراد قطعا ، فان كل ماخلق من مادة أو لغاية فلا بد له من خالق •

(ثم ذكر الشيخ) رحمه الله معرفة الفطر ، ثم ذكر قول الاشعرية ،والهشامية ، والكرامية ، وغيرهم ، ثم أبطله بأوضح بيان وأجلى برهان •

(والمقصود) أن شيخ الاسلام لم يرد الا على من خالف الشريعة وصادمها بقواعده ، ولم يرد على أهل السنة وهم الذين كانوا على الصراط المستقيم ولم

---

(١) الطور : ٣٥

يخالفوا ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم ، بل ذب عنهم وانتصر لاقوالهم ، غير أن النبهاني ظن أن ماهو عليه من الزيغ والالحاد هو مذهب أهل السنة ، وقد سبق فيما نقلناه من مجالس الشيخ الثلاثة ماينفع في المقام ، بل كتبه طافحة بتفصيل ماقررناه فراجع أيّ كتاب شئت منها •

وبما قررناه علم أيضا أن مانقله الزبيدي من كلام السبكي عند كلامه على أبيات ابن زفيل ساقط عن درجة الاعتبار ، لانه من خصوم شيخ الاسلام وحسدته ، عداما كان عليه من الغلو والجهل والافتراء على أهل الحق ، والظاهر أنه ليس له من الكلام على قصيدة العلامة ابن زفيل سوى مانقله الزبيدي ان صح نقله ، وإلا لذكره ولده التاج فيما عد من مؤلفاته في الطبقات ولم يذكره مع أنه أتى بجميع عجره وبجره •

(وأما مانسب النبهاني الى الشيخ) من القول بالجهة فهو من افتراءات السبكي وابن حجر المكي وغيرهما من أعدائه وخصومه ، والنبهاني قلدهم في هذا القول تقليد أعمى كما هو ديدنه وعادته ، وكتب الشيخ طافحة من تنزيه الله تعالى عن الجهة والجسمية ، ومدار كلامه على ماثبت بالكتاب والسنة وأقوال السلف ، وأنشد في كتاب الفرقان :

أيها المقتدي اتطلب علما ... كل علم عبد لعلم الرسول

تطلب الفرع كي تصحح حكما ... ثم أغفلت أصل أصل الاصول

ثم قال : والله يهدينا وسائر اخواننا المؤمنين الى صراطه المستقيم ، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا ، قال : وهذه الاصول ينبني عليها مافي القلوب ويتفرع عليها ، وقد ضرب الله مثل الكلمة الطيبة التي في قلوب المؤمنين ، ومثل الكلمة الخبيثة التي في قلوب الكافرين ، ثم انه أطنب الكلام في شرح الكلمتين ، وأتى بما تقر به من المؤمن العين ، كما هي عادته رحمة الله عليه ، وسنتكلم ان شاء الله على العلو والاستواء عند ابطال أقوال النبهاني التي هذى بها في هذا الباب ، ويتميز بحوله تعالى القشر من اللباب •

(وأما ماتكلم به النبهاني من الهذيان) في شأن (جلاء العينين) ومصنفه ، وتحذير المسلمين من مطالعته ، واخراج مصنفه عن حنفيته بل سنيته بسبب الذب عن ابن تيمية وانتصاره له : فهو كلام من لاينبغي أن يخاطب ولا يوجه اليه مقال : فان

الله تعالى قال : ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ القَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾[1] وقال عز من قائل : ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[2] ومصنف جلاء العينين لم يذكر فيه الا أقوال الفريقين وبسط فيه دلائل الطرفين ، ودعا الى الله وتوحيده ، وبرهن على وجوب أفراده سبحانه بالعبادة ، وذب عن خلص عباد الله ، وحكى ما كان وأظهر مازوره الخصم من البهتان ، ومثل (جلاء العينين) ينبغي لكل مسلم أن يطالعه ويستفيد منه حقيقة دينه ، ثم يدعو لمؤلفه بالمغفرة والرحمة والرضوان ، وأن يجزيه عن خلص عباده خير الجزاء .

ثم انا قد ذكرنا حقيقة السنة والبدعة ، وما ذكر فيهما أهل العلم من البيان الشافي والكلام الوافي ، فأي مسألة ذكرت في جلاء العينين تخالف ماورد عن النبي صلى الله عليه وسلم وتستوجب التبديع ، نعم ذكر فيه ضلالات أهل الالحاد القائلين بالحلول والاتحاد ، وهي ليست بخفية على أحد من الناس ، وكتب العلم طافحة بذكر ذلك الهذيان ورد هذا الوسواس ، فقد ألف السعد التفتازاني كتابا رد فيه على الفصوص ، وكذا العلامة الملا علي القاري الحنفي ، والفهامة الشيخ محمد البخاري الحنفي وغيرهم .

وذكر أيضا بدع القبوريين وأعمالهم الشركيه ، وأظهر افتراء ابن حجر وخيانته في النقل واتباعه لهواه وخصومته للحق ، وما كان من السبكي من العدوان والقول على الله بغير علم ، وأي مذهب من مذاهب المسلمين يسوغ ماكان ابن حجر والسبكي ونحوهما من التجاوز والقدح في علماء السنة النبوية وحفاظ الحديث بغير حق .

أيرضى الامام الشافعي وأكابر أصحابه والمنصفون من أتباعه بما كان من هؤلاء الغلاة ؟ أم هل يسوغ الامام أبو حنيفة أن يتلاعب أحد بالدين ويعرض عما ورد في الكتاب والسنة ويسلم لابن حجر وأضرابه كل ماهذى به ؟ أم هل يبيح امام دار الهجرة أن تباح أعراض ورثة الرسول صلى الله عليه وسلم وحفاظ حديثه أن يمزقها ابن حجر بأظفاره وأنيابه ؟ ! وهكذا جميع أئمة الدين ، وأكابر المجتهدين ، وقد أوصى كل منهم باتباع الحق والاعراض عن الهوى ومجانبة التعصب ، رضوان الله تعالى عليهم أجمعين .

ثم يقال للنبهاني : الخروج عن المذهب متى يكون ؟ والتقليد بماذا كان ؟ هل

(١) الزمر : ١٠ (٢) آل عمران : ١٠٤

في الفروع والاصول معا أم في الفروع لافي الاصول أم بالعكس ؟ ولا شك أن النبهاني جاهل بكل ذلك لايفرق بين الاصول والفروع ، بل لايميز بين الكوع والكرسوع •

وأهل العلم ذكروا أن التقليد هو أخذ قول الغير من غير معرفة دليله من حيث افادته الحكم ان لم يتمكن من استفراغ الوسع لتحصيل ظن الحكم ، والا فيحرم عليه كما يحرم التقليد في العقائد ، وقد رأيت كلاما مفيدا لبعض أكابر الشافعية في بحث التقليد نذكره تتميما للفائدة ، قال : ثم اني لم أزل متشبثا بأذيال هذا الامام ، متمسكا بعرى أقوال ذياك الهمام ، مستغرقا النهار والليل في استكشاف دقيق كلامه ، مستنهضا الرجل والخيل لارتشاف رحيق مدامه ، لم أعرج على غير حماه ، ولم أعرج لسوى سماه •

أبعد سليمى مطلب ومرام   وغير هواها لوعة وغرام

وكذا شأني مع أصحابه الكرام ، وحالي مع أتباعه الفخام ، لا ألوي عناني الا على اطلالهم ، ولا أسترشد بغير أقوالهم •

وما أنا إلا من غزية ان غوت   غويت وان ترشد غزية أرشد

لا أميل الى تقليد أحد من الأئمة ، مع علمي بأن اختلافهم في الفروع رحمة ، بل ديدني رفاقهم انجدوا أم اتهموا ، وديني وفاقهم أيمنوا أم أشأموا ، الى أن خاصمني مخاصم الانصاف فخصمني ، وعارضني معارض الاعتساف فأفحمني ، وتبين لي بمخالطة الانام ، أن كثيرا من العقود لاتصح على مذهب الامام ، وأن تصحيحها كالمحال ، وأن ليس للشافعي في ذلك مجال ، فلم أر بدا في هذا الزمان من تقليد امام الأئمة أبي حنيفة النعمان ، فقلدته في جميع معاملاتي ، ولولا مافي قلبي للشافعي لاتبعته في سائر دياناتي •

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى   ما الحب الا للحبيب الاول

كم منزل في الارض يألفه الفتى   وحنينه أبدا لاول منزل

(ثم قال) فها أنا ذاك شافعي في عباداتي ، حنفي في سائر معاملاتي ، وهكذا سائر علماء الزمان في المعاملات على مذهب النعمان ، قد طووا سنن الشافعي ، ورفعوا

أذكار النووي والرافعي ، فلا نرى جاهلا يستفتى ، ولا عالما في هاتيك المسائل يفتى •

مافي الصحاب أخو وجد نطارحه ... حديث نجد ولا خلا نجاريه

(ويقال للنبهاني) اذا كان الرجل من أتباع الامام الشافعي قد قلد غيره في كثير من المسائل لايخرجه ذلك عن تقليد امامه فكيف حكم على من لم يتحقق لديه مخالفة امامه ولا في مسألة واحدة بالخروج عن تقليده ، بل كم رأينا من أصحاب الأئمة من خالفه في مسائل كثيرة ولم يقل أحد بخروجهم في ذلك عن التقليد أفيقال ان الامام أبا يوسف بسبب مخالفته لامامه في مسائل كثيرة خرج عن كونه حنفيا ، وكذلك محمد ، وكذلك زفر ، وهكذا أصحاب كل امام ، فكيف يحكم النبهاني بهذا الحكم الفاسد ، ويقول هذا القول الكاسد ؟!

(وللشيخ أحمد الطيبي) منظومة فيما يحتاج الشافعي فيه الى تقليد الامام أبي حنيفة ، وهي هذه بعد البسملة :

الحمد لله الذي ماجعلا ... من حرج في الدين لكن سهلا
لهذه الامة فضلا وكرم ... سبيل رشدها وأسبغ النعم
ثم صلاة وسلام سرمدي ... منه على خير الانام أحمد
نبينا الذي به نلنا الهدى ... وآله وكل من به اهتدى
وبعد فاعلم أن من قد قلدا ... من الانام عالما مجتهدا
فجائز له بأن يقلدا ... آخر الا أن يكون اعتقدا
بأن من قلده في الاول ... أعلم من ثانيه فالمنع جلي
فاذ عرفت الشرط واحتجت الى ... تقليد غير الشافعي فافعلا
كان تقلد الامام الاعظما ... أبا حنيفة الزكي المقدما
في البيع والشرا بلا ايجاب ... ولا قبول منك في الخطاب
بل بالمعاطاة اذا ماكثرا ... أو قل ما به المبيع والشرا
وفي النجاسات التي البليه ... عمت بها مالم تكن كليه
من ذلك الفراء في الاثواب ... وفي القباقيب وفي النشاب
وهو الفرا المعمول من غير السمك ... أما الذي منه فليس فيه شك
كذا الفرا من نحو قط ونمر ... وكل مأكول ولم يكن نحر
كذا الرماد من نجاسة حصل ... في مائع أو ماقليل أو محل

أو شربة مع طينها قد عجنا ... أو طين أرض أو جدار أو بنا

والعفو عن نجاسة قد كثفت ... ووزنها الدرهم حين وزنت

كذاك عن رقيقة وبلغت ... مقدار بسط الكف لما بسطت

كذاك في نقل زكاة الواجد ... للمستحق ولشخص واحد

يدفعها ولو صبيا ان قبض ... ان بلغ التمييز ذاك المفترض

ودفعنا من ذهب عن فضة ... وعكسه عند أبي حنيفة

يكفي كذاك كلما ينتفع ... به الفقير كثياب تدفع

وقل زكاة الفطر مثل المال ... فقس به في سائر الاحوال

فتدفع القيمة عنها ان تشا ... أين أردت أو سواها كنشا

كذاك في الانثى اذا مازوجت ... لنفسها أو غيرها اذ وكلت

كذاك في التأجيل للصداق ... الى الممات أو الى الطلاق

وان مايؤخذ من أموال ... بقصد تعزير من الحلال

والقول في تعلق الحرام ... بذمة الجاني من الانام

لايتعدى لسواها أصلا ... قد رد حيث لم يلاق جهلا

نعم اذا غير من قد غصبا ... مغصوبه يملكه وان أبى

لكنه يحرم الانتفاع به ... حتى يؤدي للضمان فانتبه

ونية الصلاة حيث وجدت ... ولم تكن من المصلى اقترنت

بلفظة التكبير للاحرام ... فهي صحيحة لدى الامام

فمن يقلده به لايعمل ... الا بتطهير لديه يقبل

وسعينا بين الصفا والمروة ... في حجنا وهكذا في العمرة

ماعده فرضا ولكن واجبا ... فمن به أخل لن يطالبا

الا بفدية ونسكه يصح ... وتلك شاة فادر فهو متضح

ولم يقل شرط الطواف الطهر ... فان يضق بنفساء الامر

أو حائض وهجمت وطافت ... فهو صحيح وفدت وتابت

فان يكن حجا فدت ببدنه ... أو اعتمادا فبشاة بينه

وان تطلق ذات حيض وانقطع ... الدم عنها لا لعلة تقع

فلتتربص بسن اليأس ... مالم تحض ثم بلا التباس

بأشهر ثلاثة تعتد ... كذاك قال الشافعي الفرد

كذا أبو حنيفة وقالا ... في ذاك مالك وأحمد لا

وانمـــا سبيلهـــا اذا مضـــت تســـع شهور بعد ما قـــد طلبت
تعتـــد بالثـــلاثة الاشهـــر من بعـــد وسن اليأس عنـــدذ ابن
بـــانه اثنـــان وستـــون سنة على الصحيـــح وحكى من بينـــه
عنـــد الامام الاعظم النعمـــان خمس وخمسون احتفـــظ بياني
وقس بما حـــوته ذي الصحيفـــة مقـــلدا غـــير أبـــي حنيفـــة
فان تكن قلـــدت في الكلبيـــة مالكـــا افعـــل ما مضى في النيـــة
ففي الوضوء امســـح جميع الرأس لكـــي تتمـــه بـــلا التبـــاس
والحمـــد لله الـــذي ماعســـرا علـــى عبـــاده ولكـــن يســـرا

والكلام في هذا الباب طويل ، وكم أفرده بالتأليف فاضل جليل ، وليس هذا مقام التفصيل •

(ثم نعودا لى النبهاني) ونقول له : ان كثيرا من المعتزلة قلدوا الامام أبا حنيفة وهم ـ مع اعتقادهم الفاسد ـ لم يقل أحد بخروجهم عن مذهب أبي حنيفة ، وهكذا في اتباع الشافعي وغيره من كان على عقيدة الاعتزال ، حتى أن عد السبكي في طبقاته جماعة وأتهم الماوردي أيضا بذلك ، وكثير من الكرامية والمرجئة كانوا أتباع الامام أبي حنيفة ، وكثير من المجسمة كانوا أتباع الشافعي ، وقد سبق ذكر شيء من ذلك في المجالس التي انعقدت لمناظرة شيخ الاسلام ، كل هؤلاء على سوء اعتقادهم لـم يخرجوا عن مذهب من قلدوه ، فكيف ساغ للنبهاني أن يخرج عن الحنفية والسنية مصنف (جلاء العينين) وذكر العلة في ذلك وقال بسبب انتصاره لابن تيمية والذب عنه وتبريته عما نسب اليه •

(فلينظر المنصفون) الى حال هذا الرجل وغلوه وجهله وضلاله واتباعه لهواه وعجبه بنفسه ، فكيف يسوغ أن يولى الحكم على بشر ويكون بيـــده زمام بعض الامـــور •

ماأنت بالحكم الترضى حكومته ولا الاصيل ولا ذي الرأي والجدل

اللهم انا نشكو اليك ماأصبح اليوم عليه العالم الاسلامي من البلاء المبـين ، وتوسيد الامور الى غير أهلها واستفتاء من غوى وضل عن سبيلك ، وحيث أن هذا المبطل قد أفرد فصلا من كتابه في الكلام على (جلاء العينين) ومصنفه أخرنا تمـام البحث الى أن نتكلم على ذلك الفصل ان شاء الله تعالى •

(قال النبهاني) بعد كلام له على الجهة وتكفير القائل بها : ولما كانت كتبه يعني ابن تيمية قد طبعت ونشرت وكان فيها مسائل في العقائد مخالفة لعقائد أهل السنة والجماعة من الاشعرية والماتريدية كان من اللازم على أكابر العلماء في هذا العصر أن يتصدوا لبيان تلك المسائل التي وقع فيها مخالفة أهل السنة والتنبيه عليها ليحذرها الناس خوفا عليهم من تشويش عقائدهم ، ولما كان من أهم تلك المسائل القول باعتقاد الجهة وهو كما ترى ــ وأن تستر بعض الحنابلة بنفيه عنه وعدم اعتقاده اياه فهو ــ مصرح باعتقاده ، ثم قال : فقد رأيت أن أجمع رسالة أنقل فيها أقوال أكابر علماء المذاهب في استحالة الجهة على الله ، قال : فجمعتها على هذا الوجه وسميتها (رفع الاشتباه في استحالة الجهة على الله) ثم ذكر الرسالة بحذافيرها وركة عبارتها ، وزعم أن مافيها اعتقاد جمهور علماء الامة وأوليائها واتباع المذاهب الاربعة وجميع الصوفية ، وهم صفوة الصفوة من هذه الامة ، وخلاصة الخلاصة من أهل الملة ، وخاصة الخاصة من المتبعين للكتاب والسنة ، قال : فقد اتفق جمهورهم على اختلاف مذاهبهم ومشاربهم في جميع الاعصار والاقطار ، وفي كل القرى والبوادي والامصار : على أن الله تعالى منزه عن الجهات ، ونقل بزعمه مايؤيد كلامه عن الغزالي والسيد مرتضى الزبيدي والفخر الرازي وشمس الدين محمد بن اللبان الشافعي واليافعي وابن حجر المكي وأمثال هؤلاء ، ثم ختم رسالته بقصيدة زعم أنه قارض بها القصيدتين في الرد على أبيات السبكي ، هذا حاصل ماتكلم به في هذا الباب وأتى بما قدر عليه .

(أقول في الجواب عن كلام النبهاني هذا ومنه سبحانه التوفيق) ان مسألة العلو والاستواء والنزول من غوامض المسائل ، والنزاع فيها قديما وحديثا من المشهور بين العلماء ، وقد ألف فيها كتب مفصلة وفرغ أهل العلم منها نفيا واثباتا ، ومن المعلوم لدى كل منصف أن النبهاني ليس من رجال هذا الميدان ، ولا ممن يعد في زمرة ذوي العرفان ، ولا ممن له نصيب في فن من الفنون ، ولا ممن يلتفت اليه في باب الجرح والتعديل ولا تنظر اليه العيون ، بل هو الحريّ بقول القائل :

أقول لمحرز لما التقينا ... تنكب لايقطرك الزحام

وقد رأيت في طبقات ابن السبكي رسالة أخرى أشبه شيء بهذيان النبهاني ، نسبها ابن السبكي للشيخ شهاب الدين أحمد بن يحيى بن اسمعيل الكلابي الحلبي ،

وحيث كانت في الرد على ابن تيمية أدرجها ابن السبكي في ترجمة مؤلفها بتمامها ظنا منه أنها تروي غليله وتشفي عليله ، وما دراها أنها سراب يحسبه الظمآن أعذب شراب ، وهي نحو اثنين وثلاثين صحيفة قد اشتملت على كل سخيفة ٠

وبناء على تعرض هؤلاء الغلاة لهذه المسألة وجب التصدي لرد أفكهم ورفع شركهم ببيان مايعارضهم من النصوص ، وما يناقضهم من البناء المرصوص ، فنقول: ان النصوص القرآنية والاحاديث النبوية الواردة في هذا الباب مما لايحصيها أولو الالباب ، منها قوله تعالى : (وهوَ القاهِرُ فوْقَ عِبادِهِ وهوَ الحكيمُ الخبيرُ)[1] وفي تفسير روح المعاني بعد أن ذكر كلام المؤولين أن الداعي الى التزام ذلك كله أن ظاهر الآية يقتضي القول بالجهة ، والله تعالى منزه عنها ، لانها محدثة بأحداث العالم واخراجه من العدم الى الوجود ، ويلزم أيضا من كونه سبحانه وتعالى في جهة مفاسد لاتخفى ، وأنت تعلم أن مذهب السلف اثبات الفوقية لله تعالى كما نص عليه الامام الطحاوي وغيره ، واستدلوا لذلك بنحو ألف دليل ، وقد روى الامام أحمد في حديث الاوعال عن العباس رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (والعرش فوق ذلك والله تعالى فوق ذلك كله) وروى أبو داود عن جبير بن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه عن جده قوله صلى الله عليه وسلم للرجل الذي استشفع بالله تعالى عليه (ويحك أتدري ماالله ؟ ان الله فوق عرشه وعرشه فوق سمواته ــ وقال بأصابعه مثل القبة ــ وانه ليئط به أطيط الرحل الجديد بالراكب) ومن حديث صحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لسعد يوم حكم في بني قريظة : (لقد حكمت فيهم بحكم الملك من فوق سبع سموات) وفي حديث آخر قال : (بينا أهل الجنة في نعيمهم اذ سطع لهم نور فرفعوا اليه رؤسهم فاذا الجبار جل جلاله قد أشرف عليهم من فوقهم ، وقال : ياأهل الجنة سلام عليكم ، ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى : (سلام قولا من رب رحيم) فينظر اليهم وينظرون اليه فلا يلتفتون الى شيء من النعيم ماداموا ينظرون اليه) وأنشد عبد الله بن رواحة بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم أبياته التي عرض بها عن القراءة لامرأته حين اتهمته بجاريته :

شهدت بأن وعد الله حق ... وأن النار مثوى الكافرينا

---

(١) الانعام : ١٨

وأن العرش فوق الماء طاف وفوق العرش رب العالمينا
وتحمله ملائكة شداد ملائكة الأله مسومينا

فأقره عليه الصلاة والسلام على ماقال وضحك منه •

وكذا أنشد حسان بن ثابت رضي الله عنه قوله :

شهدت باذن الله أن محمدا رسول الذي فوق السموات من عل
وأن أبا يحيى ويحيى كلاهما له عمل من ربه متقبل
وأن الذي عادى اليهود بن مريم رسول أتى من عند ذي العرش مرسل
وان أخا الاحقاف اذ قام فيهم يقوم بذات الله فيهم ويعدل

فقال النبي صلى الله عليه وسلم وأنا أشهد •

وعن ابن عباس في قوله تعالى ــ حكاية عن ابليس ــ : (ثُمَّ لآتينَّهُم منْ بَين أَيديِهمْ ومِنْ خلْفهِم وعنْ أيمانِهم وعنْ شمائِلهم)[1] انه قال لم يستطع أن يقول ومن فوقهم لانه قد علم أن الله تعالى من فوقهم ،والآيات والاخبار التي فيها التصريح بما يدل على الفوقية ــ كقوله تعالى :(تنزيلُ الكتابِ مِنَ اللهِ العزيزِ الحكيم)[2] (وإليهِ يصْعَدُ الكلِمُ الطَّيِّبُ)[3] وقوله : (بَلْ رفعَهُ اللهُ إليـهِ)[4] و (تعرُجُ الملائكَةُ والرُّوحُ إليـــهِ)[5] وقوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه مسلم (وأنت الظاهر فليس فوقك شيء ــ كثيرة جدا ، وكذا كلام السلف في ذلك ، فمنه ماروى شيخ الاســلام أبو اسماعيل الانصاري في كتابه (الفاروق) يسنده الى أبي مطيع البلخي ، أنه سأل أباحنيفة رضي الله عنه عمن قال لا أعرف ربي سبحانه في السماء لأن الله تعالى يقول : أم في الارض فقال : قد كفر ،(الرَّحمٰنُ على العَرشِ استوى) وعرشه فوق سبع سمــوات ، فقال : قلت فان قال انه على العرش ولكن لا أدري العرش في السماء أم في الارض فقال رضي الله عنه : هو كافر ، لأنه أنكر آيــة في السماء ومن أنكر آية في السماء فقد كفر ، وزاد غيره لأن الله تعالى في أعلى عليــين فهو يدعى من أعلى لا من أسفل ، انتهى •

(١) الاعراف : ١٧ (٢) الزمر : ١ (٣) فاطر : ١٠ (٤) النساء : ١٥٨ (٥) المعارج : ٤

(وايد القول بالفوقية أيضا) بأن الله لما خلق الخلق لم يخلقهم في ذاته المقدسة تعالى عن ذلك ، فانه الاحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ، فتعين أنه خلقهم خارجا عن ذاته ، ولو لم يتصف سبحانه بفوقية الذات مع أنه قائم بنفسه غير مخالط للعالم لكان متصفا بضد ذلك ، لأن القابل للشيء لايخلو منه أو من ضده وضد الفوقية السفول وهو مذموم على الاطلاق ، والقول بانا لانسلم أنه قابل للفوقية حتى يلزم من نفيها ثبوت ضدها مدفوع بأنه سبحانه لو لم يكن قابلا للعلو والفوقية لم يكن له حقيقة قائمة بنفسها ، فمتى سلم بأنه جل جلاله ذات قائم بنفسه غير مخالط للعالم وأنه موجود في الخارج ليس وجوده ذهنيا فقط بل وجوده خارج الاذهان قطعا : فقد علم كل العقلاء بالضرورة أن ما كان وجوده كذلك فهو اما داخل العالم واما خارج عنه ، وانكار ذلك انكار ماهو أجلى البديهيات ، فلا يستدل بدليل على ذلك الا كان العلم بالمباينة أظهر منه وأوضح ، واذا كان صفة الفوقية صفة كمال لانقص فيها ولا يوجب القول بها مخالفة كتاب ولا سنة ولا اجماع كان نفيها عين الباطل ، لاسيما والطباع مفطورة على قصد جهة العلو عند التضرع الى الله تعالى •

وذكر محمد بن طاهر المقدسي أن الشيخ أبا جعفر الهمداني حضر مجلس امام الحرمين وهو يتكلم في نفي صفة العلو ويقول كان الله تعالى ولا عرش وهو الآن على ماكان ، فقال الشيخ أبو جعفر : أخبرنا ياأستاذ عن هذه الضرورة التي نجدها في قلوبنا فانه ماقال عارف قط ياالله الا وجد في قلبه ضرورة بطلب العلو لايلتفت يمنة ولا يسرة فكيف تدفع هذه الضرورة عنأنفسنا ؟! قال : فلطم الامامعلى رأسه ونزل ــ وأظنه قال وبكى ــ وقال : حيرني الهمداني •

وبعضهم تكلف الجواب عن هذا بأن هذا التوجه الى فوق انما هو لكون السماء قبلة الدعاء كما أن الكعبة قبلة الصلاة ، ثم هو أيضا منقوض بوضع الجبهة على الارض مع أنه سبحانه ليس في جهة الارض ، ولا يخفى أن هذا باطل ، أما أولا فلأن كون السماء قبلة للدعاء لم يقله أحد من سلف الامة ولا أنزل الله تعالى به من سلطان ، والذي صح أن قبلة الدعاء هي قبلة الصلاة ، فقد صرحوا بأنه يستحب للداعي أن يستقبل القبلة ، وقد استقبل النبي صلى الله عليه وسلم الكعبة في دعائه في مواطن كثيرة ، فمن قال أن للدعاء قبلة غير قبلة الصلاة فقد ابتدع في الدين وخالف جماعة المسلمين ، وأما ثانيا فلأن القبلة مايستقبله الداعي بوجهه كما تستقبل الكعبة في الصلاة ، وما حاذاه الانسان برأسه أو يديه مثلا لايسمى قبلة أصلا ، فلو كانت

السماء قبلة الدعاء لكان المشروع أن يوجه الداعي وجهه اليها ، ولم يثبت ذلك في شرع أصلا •

وأما النقض بوضع الجبهة فما أفسده من نقض ، فان واضع الجبهة انما قصده الخضوع لمن فوقه بالذل لا أن يميل اليه اذ هو تحته ، بل هذا لايخطر في قلب ساجد، نعم سمع عن بشر المريسي أنه يقول : سبحان ربي الاسفل ، تعالى الله عما يقول الجاحدون والظالمون علوا كبيرا •

وتأول بعضهم كل نص فيه نسبة الفوقية اليه تعالى بأن فوق فيه بمعنى خير وأفضل ، كما يقال الامير فوق الوزير والدينار فوق الدرهم ، وأنت تعلم أن هذا مما تنفر منه العقول السليمة وتشمئز منه القلوب الصحيحة ، فان قول القائل ابتداء : الله تعالى خير من عباده أو خير من عرشه من جنس قوله الثلج بارد ، والنار حارة ، والشمس أضوء من السراج ، والسماء أعلى من سقف الدار ونحو ذلك ، وليس في ذلك أيضا تمجيد ولا تعظيم لله تعالى ، بل هو من أرذل الكلام ، فكيف يليق حمل الكلام المجيد عليه ، وهو الذي لو اجتمع الانس والجن على أن يأتوا بمثله لايأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ، على أن في ذلك تنقيصا لله تعالى شأنه ، ففي المثل السائر :

ألم تر أن السيف ينقص قدره   اذا قيل إن السيف خير من العصا

نعم اذا كان المقام يقتضي ذلك بأن كان احتجاجا على مبطل كما في قول يوسف الصديق عليه السلام : (أَأَرْبابٌ مُتفرِّقونَ خيرٌ أم الله الواحدُ القهّارُ)[1] وقوله تعالى : (آللهُ خيرٌ أمّا يُشرِكونَ)[2] وقوله تعالى : (واللهُ خيرٌ وأبقى)[3] فهو أمر لااعتراض عليه ، ولا توجه سهام الطعن اليه •

والفوقية بمعنى الفوقية في الفضل مما يثبتها السلف لله تعالى أيضا ، وهي متحققة في ضمن الفوقية المطلقة ، وكذا يثبتون فوقية القهر والغلبة كما يثبتون فوقية الذات ، ويؤمنون بجميع ذلك على الوجه اللائق بجلال ذاته وكمال صفاته سبحانه وتعالى ، منزهين له سبحانه عما يلزم ذلك مما يستحيل عليه جل شأنه ، ولايؤمنون ببعض ويكفرون ببعض ، ولا يعدلون عن الالفاظ الشرعية نفيا ولا اثباتا ، لئلا

---

(١) يوسف : ٣٩ (٢) النمل : ٥٩ (٣) طه : ٧٣

يثبتوا معنى فاسدا أو ينفوا معنى صحيحا ، فهم يثبتون الفوقية كما أثبتها الله تعالى لنفسه •

(وأما لفظ الجهة) فقد يراد به ماهو موجود ، وقد يراد به ماهو معدوم ، ومن المعلوم أنه لاموجود الا الخالق والمخلوق ، فاذا أريد بالجهة أمر موجود غير الله تعالى كان مخلوقا ، والله تعالى لايحصره شيء ، ولا يحيط به شيء من المخلوقات تعالى عن ذلك • وان أريد بالجهة أمر عدمي وهو مافوق العالم فليس هناك الا الله تعالى وحده ، فاذا قيل إنه تعالى في جهة بهذا الاعتبار فهو صحيح عندهم ، ومعنى ذلك أنه فوق العالم حيث انتهت المخلوقات ، ونفاة لفظ الجهة الذين يريدون بذلك نفي العلو يذكرون من أدلتهم أن الجهات كلهامخلوقة ، وانهسبحانه كان قبل الجهات، وانه من قال أنه تعالى في جهة يلزمه القول بقدم شيء من العالم ، وانه جل شأنه كان مستغنيا عن الجهة ثم صار فيها ، وهذه الالفاظ ونحوها تنزل على أنه عز اسمه ليس في شيء من المخلوقات سواء سمي جهة أم لم يسم وهو كلام حق ، ولكن الجهة ليست أمرا وجوديا بل هي أمر اعتباري ولا محذور في ذلك •

(وبالجملة) يجب تنزيه الله تعالى عن مشابهة المخلوقين ، وتفويض علم ماجاء به من المتشابهات اليه عز شأنه ، والايمان بها على الوجه الذي جاءت عليه ، والتأويل القريب الى الذهن الشائع نظيره في كلام العرب مما لابأس به عندي ، على أن بعض الآيات مما أجمع على تأويلها السلف والخلف ، والله أعلم بمراده ، انتهى ماذكر في روح المعاني ، وهو مما يزهق روح النبهاني ، ويرد التأويل الذي تعلق به الشيخ أحمد الحلبي الكلابي •

(وتفصيل الكلام في هذا المقام) يطلب من كتب شيخ الاسلام وتلامذته ، فانهم أحسن من صنف في هذه المسائل ، وفيها يجد المنشد ضالته ، وقد ألف الشيخ الحافظ أبو بكر الشهير بابن القيم كتابه (غزو الجيوش الاسلامية ، في الرد على الجهمية) وكتابه (الصواعق المرسلة على الدهرية والمعطلة) في هذه المطالب العالية ، وبسط كلامه فيها كل البسط كما هو شأن كرمهم وجودهم في سخاء نفوسهم ببذل كنوز العلم طيب الله تعالى ثراهم •

وقد تكلم ابن القيم في غزو الجيوش الاسلامية على مسألة العلو ، فذكر أولا ماورد من النصوص في الكتاب والسنة وبين معانيها على أتم وجه ، ثم ذكر فصلا

فيما حفظ عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والتابعين والأئمة الاربعة وغيرهم ، ولا يمكن هنا استيفاء ماذكروه كله بل نقتصر على ذكر أقوال الأئمة الاربعة رحمهم الله تعالى :

(قول الامام أبي حنيفة قدس الله روحه) قال البيهقي : حدثنا أبو بكر ابن الحارث الفقيه ، قال حدثنا أبو حيان : أن أحمد بن جعفر بن نصر قال حدثنا يحيى بن يعلى ، سمعت نعيم بن حماد يقول : سمعت نوح ابن أبي مريم أبا عصمة يقول : كنا عند أبي حنيفة أول ماظهر اذ جاءته امرأة من ترمذ كانت تجالس جهما فدخلت الكوفة، فقيل لها ان ههنا رجلا قد نظر في المعقول يقال له أبو حنيفة فأتيه ، فأتته فقالت أنت الذي تعلم الناس المسائل وقد تركت دينك ؟ أين الهك الذي تعبده ؟ فسكت عنها ، ثم مكث سبعة أيام لايجيبها ، ثم خرج الينا وقد وضع كتابا : أن الله سبحانه وتعالى في السماء دون الارض ، فقال له رجل : أرأيت قول الله تعالى (وهو معكم) قال هو كما تكتب للرجل اني معك وأنت غائب ، قال البيهقي : لقد أصاب أبو حنيفة رحمه الله تعالى فيما نفى عن الله تعالى وتقدس من الكون في الارض وفيما ذكر من تأويل الآية ، وتبع مطلق السمع في قوله الله عز وجل (في السماء) .

قال شيخ الاسلام : وفي كتاب الفقه الاكبر المشهور عند أصحاب أبي حنيفة الذي رواه ــ باسناد عن أبي مطيع البلخي ــ الحكم بن عبد الله ، قال سألت أبا حنيفة عن الفقه الاكبر قال : لاتكفر أحدا بذنب ، ولا تنفي أحدا من الايمان ،وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وتعلم أن ماأصابك لم يكن ليخطئك ، وما أخطأك لم يكن ليصيبك ، ولا تبرأ من أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا توال أحدا دون أحد ، وان ترد أمر عثمان وعلي رضي الله تعالى عنهما الى الله تعالى .

قال أبو حنيفة : الفقه الاكبر في الدين خير من الفقه في العلم ، ولأن يتفقه الرجل كيف يعبدربه عز وجل خيرمن أن يجمع العلم الكثير ،قال أبو مطيع قلت فأخبرني عن أفضل الفقه ، قال يتعلم الرجل الايمان والشرائع والسنن والحدود واختلاف الأئمة ، وذكر مسائل في الايمان ، ثم ذكر مسائل في القدر ، ثم قال : فقلت فما تقول فيمن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فيتبعه على ذلك ناس فيخرج عن الجماعة هل ترى ذلك ؟ قال : لا ، قلت ولم وقد أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بالامر

بالمعروف والنهي عن المنكر وهو فريضة واجبة ؟ فقال : كذلك لكن مايفسدون أكثر مما يصلحون من سفك الدماء واستحلال الحرام ، وذكر الكلام في قتال الخوارج والبغاة الى أن قال : قال أبو حنيفة ومن قال لاأعرف ربي في السماء أم في الارض فقد كفر ، لأن الله تعالى يقول :(الرَّحْمٰنُ على العَرشِ استوى)[1] وعرشه فوق سبع سموات ، قلت فان قال انه على العرش ولكنه يقول لاأدري العرش في السماء أم في الارض ، قال : هو كافر ، لأنه أنكر أن يكون في السماء لأنه تعالى في أعلى عليين ، وأنه يدعى من أعلى لا من أسفل .

وفي لفظ سألت أبا حنيفة عمن يقول لاأعرف ربي في السماء أو في الارض ، قال كفر لأن الله تعالى يقول :(الرَّحْمٰنُ على العَرشِ استوى)وعرشه فوق سبع سموات ، قال فانه يقول على العرش استوى ، ولكنه لايدري العرش في الارض أو في السماء ، قال : اذا أنكر أنه في السماء فقد كفر . روى هذا عن شيخ الاسلام أبى اسمعيل الانصاري في كتابه (الفاروق) باسناده .

قال شيخ الاسلام أبو العباس رحمه الله تعالى : ففي هذا الكلام المشهور عن أبي حنيفة رحمه الله عند أصحابه أنه كفر الواقف الذي يقول لاأعرف ربي في السماء أو في الارض فكيف يكون الجاحد النافي الذي يقول ليس في السماء ولا في الارض ، واحتج على كفره بقوله تعالى :(الرَّحْمٰنُ على العَرشِ استوى) قال وعرشه فوق سبع سموات ، وبين بهذا أن قوله الرحمن على العرش استوى بين في أن الله عز وجل فوق السموات فوق العرش ، وأن الاستواء على العرش دل على أن الله فوق العرش ، ثم أردف ذلك بكفر من توقف في كون العرش في السماء أو في الارض قال لأنه أنكر أن يكون في السماء وأن الله في أعلى عليين ، وأن الله يدعى من أعلى لا من أسفل ، واحتج بأن الله في أعلى عليين ، وأنه يدعى من أعلى لا من أسفل ، وكل من هاتين الحجتين فطرية عقلية ، فان القلوب مفطورة على الاقرار بأن الله عز وجل في العلو ، وعلى أنه يدعى من أعلى لا من أسفل .

وكذلك أصحابه من بعده كأبي يوسف وهشام بن عبد الله الرازي ، كما روى ابن أبي حاتم وشيخ الاسلام بأسانيدهما أن هشام بن عبيد الله الرازي صاحب محمد

---

(١) طه : ٥

بن الحسن قاضي الري حبس رجلا في التجهم فتاب ، فجيء به الى هشام ليمتحنه فقال الحمد لله على التوبة ، فامتحنه هشام فقال : (إشهد أن الله على عرشه بائن من خلقه ، فقال أشهد أن الله على عرشه ولا أدري مابائن من خلقه ، قال : ردوه الى الحبس فانه لم يتب ، وسيأتي قول الطحاوي عند أقوال أهل الحديث •

(قول امام دار الهجرة مالك بن أنس رحمه الله تعالى) ذكر أبو عمر بن عبدالبر في كتاب (التمهيد) بسنده ، قال : قال مالك بن أنس الله في السماء وعلمه في كل مكان لايخلو منه مكان ، قال : وقيل لمالك الرحمن على العرش استوى كيف استوى ؟ فقال رحمه الله تعالى : استواؤه معقول ، وكيفيته مجهولة ، وسؤالك عن هذا بدعة ، وأراك رجل سوء •

(وكذلك أئمة أصحاب مالك من بعده) قال يحيى بن ابراهيم الطليطلي في كتاب (سير الفقهاء) ــ وهو كتاب جليل غزير العلم ــ بسنده كانوا يكرهون قول الرجل ياخيبة الدهر ، وكانوا يقولون الله هو الدهر ، وكانوا يكرهون قول الرجل رغم أنفي لله وانما يرغم أنف الكافر ، وكانوا يكرهون قول الرجل والله حيث كان أو أن الله بكل مكان ، قال أصبغ وهو مستو على عرشه وبكل مكان علمه واحاطته ، وأصبغ من أجل أصحاب مالك وأفقههم •

(ذكر قول أبي عمر الطلمنكي) قال في كتابه في الاصول : أجمع المسلمون من أهل السنة على أن الله استوى على عرشه بذاته ، وقال في هذا الكتاب أيضا : أجمع أهل السنة على أن الله استوى على عرشه على الحقيقة لا على المجاز ، ثم ساق سنده عن مالك قوله الله في السماء وعلمه في كل مكان ، ثم قال في هذا الكتاب : وأجمع المسلمون من أهل السنة على أن معنى قوله تعالى : (وهو مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنتُم)[1] ونحو ذلك من القرآن بأن ذلك علمه ، وأن الله فوق السموات بذاته مستقر على عرشه كيف شاء ، وهذه القصة في كتابه •

(قول الامام الحافظ أبي عمر بن عبد البر) امام السنة في زمانه رحمه الله تعالى ، قال في كتاب (التمهيد) في شرح الحديث الثامن لابن شهاب عن أبي سلمة عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (ينزل ربنا كل ليلة الى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول من يدعوني فأستجيب له ؟ من

---

(١) الحديد : ٤

يسألني فأعطيه ؟ من يستغفرني فأغفر له) هذا حديث ثابت من جهة النقل صحيح الاسناد ، لايختلف أهل الحديث في صحته ، وفيه دليل على أن اللـه عز وجـل في السماء على العرش من فوق سبع سموات كما قالت الجمـاعة ، وهو حجتهـم على المعتزلة والجهمية في قولهم إن الله في كل مكان وليس على العرش ، والدليـل على صحة ماقال أهل الحق في ذلك قوله : (الرَّحْمٰنُ على العَرشِ استوى) وقوله تعالى (ثُمَّ استوى على العرشِ مالَكُم مِنْ دونِهِ مِنْ وليٍّ ولا شفيعٍ أَفلا تتذكَّرون)[١] وقوله تعالى : (ثُمَّ استوى إلى السَّماء وهي دُخانٌ)[٢] وقوله تعالى : (إذاً لابتَغَوا الى ذي العَرشِ سَبيلاً)[٣] وقوله تبارك اسمه (إِلَيْهِ يصْعَدُ الكلِمُ الطَّيِّبُ والعمَلُ الصَّالحُ يرْفعُهُ)[٤] وقوله تعالى : (فلمَّا تَجلَّى ربُّهُ لِلجَبَلِ جَعلَهُ دَكّاً وخَرَّ موسى صعقاً)[٥] وقوله تعالى : (أأَمِنتُم مَنْ في السَّماء أَن يَخسِفَ بِكُمُ الأَرضَ)[٦] وقوله تعالى : (سَبِّحِ اسمَ ربِّكَ الأَعلى) وهذا من العلو ، وكذلك قوله تعالى : (العَلِيِّ العظيم)[٧] و (الكبيرِ المتعَالِ)[٨] و (رفيعُ الدَّرجاتِ ذو العرشِ)[٩] و(يخافونَ ربَّهم من فوقِهِمْ)[١٠] والجهمي يقول انه أسفل ، وقوله تعالى : (ياعيسى إنِّي متوفيكَ ورافعُكَ إليَّ)[١١] وقوله تعالى :(بلْ رفعَهُ اللهُ إليْهِ) وقوله تعالى : (والَّذينَ عندَ ربِّكْ يُسبِّحونَ لهُ)[١٢] وقال تعالى: (يُدبِّر الأَمرَ منَ السَّماء إلى الأَرضِ ثُمَّ يعْرُجُ إليهِ)[١٣] وقال تعالى: (ليسَ لهُ دافعٌ . منَ اللهِ ذي المعارج . تعرُجُ الملائكةُ والروحُ إليهِ)[١٤] والعروج هو الصعود ،وأماقوله (أأمنتم من في السماء)فمعناه من على السماء يعني على العرش ، وقد تكون في بمعنى على ، ألا ترى الى قوله : (فسيحوا في

---

(١) السجدة : ٤ (٢) فصلت : ١١ (٣) الاسراء : ٤٢ (٤) فاطر : ١٠ (٥) الاعراف : ١٤٣ (٦) الملك : ١٦
(٧) البقرة : ٢٥٥ (٨) الرعد : ٩ (٩) غافر : ١٥ (١٠) النحل : ٥٠ (١١) آل عمران : ٥٥ (١٢) فصلت : ٣٨
(١٣) السجدة : ٥ (١٤) المعارج : ٢ ـ ٤

الارض)[1] أي على الارض وكذلك قوله تعالى : (ولاصلبنّكم في جُذوع النَّخلِ)[2] وهذا كله يعضده قوله تعالى : (تعْرُجُ الملائِكةُ والرُّوحُ إِليه) وما كان مثله مما تلونا من الآيات في هذا ، وهذه الآيات كلها واضحات في ابطال قول المعتزلة •

وأما ادعاؤهم المجاز في الاستواء وقولهم في تأويل (استوى) استولى فلا معنى له لانه غير ظاهر في اللغة ، ومعنى الاستيلاء في اللغة المغالبة ، والله تعالى لايغالبه أحد ، وهو الواحد الصمد ، ومن حق الكلام أن يحمل على حقيقته ، حتى تتفق الامة أنه أريد به المجاز ، اذ لاسبيل الى اتباع ماأنزل الينا من ربنا تعالى الا على ذلك ، وانما يوجه كلام الله على الاشهر والاظهر من وجوهه مالم يمنع من ذلك مايجب التسليم له ، ولو ساغ ادعاء المجاز لكل مبتدع ماثبت شيء من العبادات ، وجل الله أن يخاطب الا بما تفهمه العرب من معهود مخاطباتها مما يصح معناه عند السامعين •

والاستواء معلوم وفي اللغة مفهوم ، وهو العلو والارتفاع على الشيء ، والاستقرار والتمكن فيه ، قال أبو عبيدة في قوله تعالى :(الرَّحمنُ على العَرشِ استوى) قال علا ، قال : وتقول العرب استويت فوق الدابة واستويت فوق البيت • وقال غيره : استوى أي استقر ، واحتج بقوله تعالى : (ولمَّا بلَغَ أَشُدَّه واستوى)[3] انتهى شبابه واستقر فلم يكن في شبابه مزيد، قال ابن عبدالبر رحمه الله تعالى : الاستواء الاستقرار في العلو ، وبهذا خاطبنا الله تعالى في كتابه ، فقال : (لِتَستَوُوا على ظُهورِه ثُمَّ تَذكُروا نعمَةَ ربِّكُمْ اذا استَويتُم عليه)[4] وقال تعالى : (واستَوَتْ على الجُودِي)[5] وقال تعالى : (فإذا استَويتَ أَنتَ ومَنْ معكَ على الفُلْكِ)[6]

قال الشاعر :

فاوردتهم ماء بفيفاء قفرة   وقد حلق النجم اليماني فاستوى

وهذا لايجوز أن يتأول فيه أحد استولى لأن النجم لايستولى ، وقد ذكر النضر ابن شميل ــ وكان ثقة مأمونا جليلا في علم الديانة واللغة ــ قال : حدثني

---

(١) التوبة : ٢ (٢) طه : ٧١ (٣) القصص : ١٤ (٤) الزخرف : ١٣ (٥) هود : ٤٤ (٦) المؤمنون : ٢٨

الخليل ــ وحسبك بالخليل ــ قال أتيت أبا ربيعة الاعرابي ــ وكان من أعلم مارأيت ــ فاذا هو على سطح ، فسلمنا فرد علينا السلام وقال استووا فبقينا متحيرين ولم ندر ما قال ، فقال أعرابي الى جانبه أنه أمركم أن ترتفعوا ، فقال الخليل هو من قول الله عز وجل : (ثُمَّ اسْتَوى إِلَى السَّمَاءِ وهي دُخَانٌ) فصعدنا اليه ، قال

وأما من نازع منهم بحديث يرويه عبد الله بن داود الواسطي عن ابراهيم بن عبد الصمد عن عبدالوهاب ابن مجاهد عن أبيه عن ابن عباس رضي الله عنهم في قوله تعالى : (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرشِ اسْتوى) قال استولى على جميع بريته فلا يخلو منه مكان : فالجواب : أن هذا حديث منكر على ابن عباس رضي الله عنهما ، ونقلته مجهولون وضعفاء ، فأما عبد الله بن داود الواسطي وعبد الوهاب بن مجاهد فضعيفان ، وابراهيم بن عبد الصمد مجهول لايعرف وهم لايقبلون أخبار الآحاد العدول فكيف يسوغ لهم الاحتجاج بمثل هذا الحديث لو عقلوا وأنصفوا ، أما سمعوا الله سبحانه يقول : (وقال فرعونُ ياهامانُ ابنِ لي صرحاً لعَلِّي أَبلُغُ الأَسبابَ . أَسْبابَ السَّموات فأطَّلِعَ إلى اله مُوسَى وإنِّي لأَظُنُّه كاذِباً)[1]

وقال الشاعر :

فسبحان من لايقدر الخلق قدره ومن هو فوق العرش فرد موحد

مليك على عرش السماء مهيمن لعزته تعنوا الوجوه وتسجد

وهذا الشعر لأمية بن أبي الصلت وفيه يقول في وصف الملائكة :

وساجدهم لايرفع الدهر رأسه يعظم ربا فوقه ويمجد

قال فان احتجوا بقوله تعالى : (وهو الَّذي في السَّماء إلهٌ وفي الأَرض إلهٌ)[2] وبقوله تعالى : (وهو اللهُ في السَّموات وفي الأَرضِ)[3] وبقوله تعالى : (ما يكونُ مِن نجوى ثلاثةٍ إلاَّ هو رابِعهُم ولا خمسَةٍ إلاَّ هو سادِسهم)[4] وزعموا أن الله سبحانه وتعالى في كل مكان بنفسه وذاته ــ تبارك وتعالى جده ــ قيل : لاخلاف بيننا وبين سائر الامة انه ليس في الارض دون السماء بذاته ، فوجب حمل هذه الآيات على المعنى الصحيح المجمع عليه ، وذلك أنه في السماء اله معبود

(١) غافر : ٣٦ ، ٣٧ (٢) الزخرف : ٨٤ (٣) الانعام : ٣ (٤) المجادلة : ٧

لأهل السماء ، وفي الارض اله معبود لاهل الارض ، وكذا قال أهل العلم بالتفسير ، وظاهر هذا التنزيل يشهد أنه على العرش ، فالاختلاف في ذلك ساقط ، وأسعد الناس به من ساعده الظاهر . وأما قوله في الآية الاخرى (وفي الارض اله) فالاجماع والاتفاق قد بين أن المراد بأنه معبود أهل الارض وأهل السماء ، فتدبر هذا فانه قاطع .

ومن الحجة أيضا في أنه عز وجل على العرش فوق السموات السبع أن الموحدين أجمعين من العرب والعجم اذا كربهم أمر ونزلت بهم شدة رفعوا وجوههم الى السماء ، ونصبوا أيديهم رافعين مشيرين بها الى السماء يستغيثون الله ربهم تبارك وتعالى ، وهذا أشهر وأعرف عند الخاصة والعامة من أن يحتاجوا فيه الى أكثر من حكايته ، لانه اضطراري لم يوقفهم عليه أحد ، ولا أنكره عليهم مسلم .

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم للامة التي أراد مولاها عتقها ان كانت مؤمنة فاختبرها النبي صلى الله عليه وسلم بأن قال لها : (أين الله ، فأشارت الى السماء ، ثم قال لها : من أنا ، قالت : أنت رسول الله ، قال : اعتقها فانها مؤمنة) فاكتفى رسول الله صلى الله عليه وسلم منها برفع رأسها الى السماء ، واستغنى بذلك عما سواه .

قال : وأما احتجاجهم بقوله تعالى : (مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ) فلا حجة لهم في ظاهر هذه الآية ، لان علماء الصحابة والتابعين الذين حمل عنهم التأويل في القرآن قالوا في تأويل هذه الاية : هو على العرش وعلمه في كل مكان ، وما خالفهم في ذلك أحد يحتج بقوله ، وذكر سنيد عن مقاتل بن حيان عن الضحاك بن مزاحم في قوله تعالى : (مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ) قال هو على عرشه وعلمه معهم أينما كانوا ، قال : وبلغني عن سفيان الثوري مثله ، قال سنيد بسنده الى ابن مسعود ، قال : الله فوق العرش لايخفى عليه شيء من أعمالكم ، ثم ساق من طريق يزيد بن هارون عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : مابين السماء الى الارض مسيرة خمسمائة عام ، وما بين كل سماء الى الاخرى خمسمائة عام ، وما بين السماء السابعة الى الكرسي مسيرة خمسمائة عام ، وما بين الكرسي الى الماء مسيرة خمسمائة عام ، والعرش على الماء ، والله على العرش ويعلم أعمالكم ، وذكر هذا الكلام أو قريبا منه في كتاب الاستذكار .

(ذكر قول الامام مالك الصغير) أبي محمد عبد الله بن أبي زيد القيرواني ، قال في خطبته برسالته المشهورة : باب ماتنطق به الالسنة وتعتقده الافئدة من واجب أمور الديانات : من ذلك الايمان بالقلب والنطق باللسان : أن الله اله واحد ، لا اله غيره ، ولا شبيه له ، ولا نظير له ، ولاولد له ، ولا والد له ، ولاصاحبة له ، ولاشريك له ، ليس لاوليته ابتداء ، ولا لآخريته انقضاء ، ولا يبلغ كنه صفته الواصفون ، ولا يحيط بأمره المتفكرون ، يعتبر المتفكرون بآياته ولا يتفكرون في ماهية ذاته : (ولا يُحيطونَ بشيء مِن عِلمِه إلاَّ بما شاء وسعَ كُرسيُّه السَّمواتِ والأَرض ولايؤُده حفظُهما وهو العَلي العظيم) وهو العليم الخبير ، المدبر القدير ، السميع البصير ، العلي الكبير ، وانه فوق عرشه المجيد بذاته ، وهو بكل مكان بعلمه •

وكذلك ذكر مثل هذا في نوادره وغيرها من كتبه •

وذكر في كتابه المفرد في السنة تقرير العلو واستواء الرب تعالى على عرشه بذاته أتم تقرير ، فقال : مااجتمعت عليه الامة من أمور الديانة من السنن التي خلافها بدعة وضلالة أن الله سبحانه وتعالى له الاسماء الحسنى ، والصفات العلى ، لم يزل بجميع صفاته ، وهو سبحانه موصوف بأن له علما وقدرة ومشيئة ، أحاط علما بجميع مابدا قبل كونه ، وفطر الاشياء بارادته وقوله : (إنما أمرُه اذا أَرادَ شيْئاً أَن يقولَ له كُن فيكونُ) وأن كلامه صفة من صفاته ليس بمخلوق فيبيد ، ولا صفة لمخلوق فينفد ، وأن الله عز وجل كلم موسى عليه الصلاة والسلام بذاته ، وأسمعه كلامه لا كلاما قام في غيره ، وأنه يسمع ويرى ، ويقبض ويبسط ، وأن يديه مبسوطتان ، والارض جميعا قبضته يوم القيامة ، والسموات مطويات بيمينه ، وأن يديه غير نعمته في ذلك ، وفي قوله سبحانه : (ما منَعَكَ أَنْ تسْجُدَ لِما خلَقتُ بيدَيَّ) وأنه يجيء يوم القيامة بعد أن لم يكن جائيا والملك صفا صفا لعرض الامم وحسابها وعقابها وثوابها ، فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ، وأنه يرضى ، ويحب التوابين ، ويسخط على من كفر به ، ويغضب ولا يقوم شيء لغضبه ، وأنه فوق سماواته على عرشه دون أرضه ، وأنه في كل مكان بعلمه ، وأن لله سبحانه كرسيا ، كما قال عز وجل : (وسِعَ كُرسيُّه السَّمواتِ والأَرضَ) كما جاءت به الاحاديث : أن الله سبحانه يضع كرسيه يوم

القيامة لفصل القضاء ، وقال مجاهد : كانوا يقولون ما السموات والارض في الكرسي الا كحلقة ملقاة في فلاة من الارض ، وأن الله سبحانه يراه أولياؤه في المعاد بأبصارهم لايضامون في رؤيته ، كما قال عز وجل في كتابه وعلى لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم : (وجوهٌ يومئذٍ ناضرةٌ الى ربها ناظرةٌ) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قول الله عز وجل : (لِلَّذينَ أَحسنوا الحُسنى وزيادةٌ) هو النظر الى وجهه الكريم

وأنه يكلم عباده يوم القيامة ليس بينه وبينهم واسطة ولا ترجمان ، وأن الجنة والنار داران قد خلقتا أعدت الجنة للمؤمنين المتقين والنار للكافرين الجاحدين ولا يفنيان ، والايمان بالقدر خيره وشره ، وكل ذلك قد قدره ربنا سبحانه وتعالى وأحصاه وعلمه، وأن مقادير الامور بيده ومصدرها عن قضائه ، تفضل على من أطاع فوفقه وحبب الايمان اليه وزينه في قلبه فيسره ، وشرح له صدره ونور قلبه فهداه ، ومن يهدي الله فما له من مضل ، وخذل من عصاه وكفر به فأسلمه ويسره فحجبه وأضله ، ومن يضل الله فلن تجد له وليا مرشدا ، وكل ينتهي الى سابق علمه لاتخصيص لأحدعنه ، وأن الايمان قول باللسان واخلاص بالقلب وعمل بالجوارح ، يزيد ذلك بالطاعة وينقص بالمعصية نقصا عن حقائق الكمال لامحبط للايمان ، ولا قول الا بعمل ، ولا عمل ولا قول الا بنية ، ولا قول ولا عمل ولا نية الا بموافقة السنة ، وأنه لايكفر أحد من أهل القبلة بذنب وان كان كبيرا ، ولا يحبط الايمان غير الشرك بالله تعالى ، كما قال سبحانه : (لئِنْ أَشركتَ ليَحبَطَنَّ عملُكَ) وقال تعالى : (انَّ اللهَ لا يغْفِرُ أَنْ يشْرَكَ به ويغفِرُ ما دون ذلكَ لِمنْ يشاء) وأن على العباد حفظة يكتبون أعمالهم كما قال تعالى : (وانَّ عليكمْ لحافِظينَ . كِراماً كاتِبينَ) وقال تعالى : (ما يلفِظُ مِنْ قولٍ الاَّ لديَه رقيبٌ عتيد) وأن ملك الموت يقبض الارواح كلها باذن الله تعالى متى شاء ، كما قال تعالى : (قُلْ يتوفَّاكُم ملَكُ الموتِ الَّذي وُكِّل بِكمْ) وأن الخلق ميتون بآجالهم ، فأرواح أهل السعادة باقية منعمة الى يوم القيامة ، وأرواح أهل الشقاء في سجين معذبة الى يوم القيامة ، وأن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون ، وأن عذاب القبر حق ، وأن المؤمنين يفتنون في قبورهم

ويضغطون ويسألون ، ويثبت الله منطق من أحب تثبيته ، وأنه ينفخ في الصور فيصعق من في السموات ومن في الارض الا من شاء الله ، ثم ينفخ فيه أخرى فاذا هم قيام ينظرون ، كما بدأهم يعودون ، حفاة عراة غرلا ، وأن الاجساد التي أطاعت أو عصت هي التي تبعث يوم القيامة لتجازى ، والجلود التي كانت في الدنياوالالسنة والايدي والارجل هي التي تشهد عليهم يوم القيامة على من تشهد عليه منهم ، وينصب الموازين لوزن أعمال العباد ، فأفلح من ثقلت موازينه ، وخاب وخسر من خفت موازينه ، ويؤتون صحائفهم ، فمن أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابا يسيرا ، ومن أوتي كتابه بشماله فسوف يدعو ثبورا ويصلى سعيرا ، وأن الصراط جسر مورود يجوزه العباد بقدر أعمالهم ، فناجون متفاوتون في سرعة النجاة عليه من نار جهنم ، وقوم أبقتهم أعمالهم فيها يتساقطون ، وأنه يخرج من النار من في قلبه شيء من الايمان ، وأن الشفاعة لاهل الكبائر من المؤمنين ، ويخرج بشفاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم قوم من النار من أمته بعد أن صاروا فحما ، يطرحون في نهر الحياة فينبتون كما تنبت الحبة في حميل السيل ، والايمان بحوض رسول الله صلى الله عليه وسلم ترده أمته لايظمأ من شرب منه ، ويذاد عنه من غير وبدل ، والايمان بما جاء من خبر الاسراء بالنبي صلى الله عليه وسلم الى السموات على ماصحت به الروايات ، وأنه صلى الله عليه وسلم رأى من آيات ربه الكبرى ، وبما ثبت من خروج الدجال ، ونزول عيسى عليه السلام حكما عدلا وقتله الدجال ، وبالآيات التي بين يدي الساعة من طلوع الشمس من المغرب وخروج الدابة وغير ذلك مما صحت به الروايات ، ونصدق بما جاءنا عن الله في كتابه وثبت عن رسوله صلى الله عليه وسلم وأخباره ، فوجب العمل بمحكمه ، ونؤمن بمشكله ومتشابهه ، ونكل ماغاب عنا من حقيقة تفسيره الى الله تعالى ، والله يعلم تأويل المتشابه من كتابه ، والراسخون في العلم يقولون آمنا به ، وبكل ما غاب عنا من حقيقة تفسيره ، كل من عند ربنا • وقال بعض الناس : الراسخون في العلم يعلمون مشكله ، ولكن الاول قول أهل المدينة وعليه يدل الكتاب ، وأن أفضل القرون قرن الصحابة رضي الله عنهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم ، وأن أفضل الامة بعد نبيها أبو بكر ، ثم عمر ، ثم علي • وقيل ثم عثمان وعلي ، ويكف عن التفضيل بينهما ، روى ذلك عن مالك ، وقال : ماأدركت أحدا أقتدي به يفضل أحدهما على صاحبه ، فرأى الكف عنهما ، وروى عنه القول الاول وهو قول أهل الحديث ، ثم بقية العشرة ، ثم أهل بدر من المهاجرين ومن الانصار ومن جميع

الصحابة على قدر الهجرة والسابقة والفضيلة ، وكل من صحبه ولو ساعة أو رآه ولو مرة فهو بذلك أفضل من التابعين ، والكف عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الا بخير مايذكرون به ، وهم أحق أن ننشر ذكر محاسنهم ، ونلتمس لهم أفضل مخارجهم ، ونظن بهم أحسن المذاهب ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : (لاتؤذوني في أصحابي ، فوالذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبا مابلغ مد أحدهم ولا نصيفه) وقال صلى الله عليه وسلم : (اذا ذكر أصحابي فأمسكوا) قال أهل العلم لايذكرون الا بأحسن ذكر ، والسمع والطاعة لأئمة المسلمين ، وكل من ولي أمر المسلمين عن رضى أو عن غلبة أو شدة ، وطاعته من بر أو فاجر فلايخرج عليه جار أو عدل ، ونغزو معه العدو ، ونحج معه البيت ، ودفع الصدقات اليهم مجزية اذا طلبوها ، ونصلي خلفهم الجمعة والعيدين ـ قاله غير واحد من العلماء ـ وقال مالك : لانصلي خلف المبتدع منهم الا أن نخافه فنصلي خلفه ـ واختلف في الاعادة ـ ولا بأس بقتال من دافعك من الخوارج واللصوص من أهل المسلمين وأهل الذمة عن نفسك ومالك ، والتسليم للمسلمين لاتعارض برأي ولا تدافع بقياس ، وما تأوله منها السلف الصالح تأولناه ، وما عملوا به عملناه ، وما تركوه تركناه ، ويسعنا أن نمسك عما أمسكوا عنه ، وتتبعهم فيما بينوا ، ونقتدي بهم فيما استنبطوا ورأوه في الحوادث ، ولا نخرج من جماعاتهم فيما اختلفوا فيه وفي تأويله ، وكل ماقدمنا ذكره فهو قول أهل السنة وأئمة الناس في الفقه والحديث على مابيناه ، وكله قول مالك ، فمنه منصوص من قوله ومنه من مذهبه ، قال مالك : قال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه : سن رسول الله صلى الله عليه وسلم وولاة الامور سننا الاخذ بها تصديق لكتاب الله تعالى ، واستكمال لطاعته ، وقوة على دين الله تعالى ، ليس لأحد تبديلها ولا تغييرها ، ولا النظر فيما خالفها ، من اهتدى بها هدى ، ومن استنصر بها نصر ، ومن تركها واتبع غير سبيل المؤمنين ولاه الله ماتولى وأصلاه جهنم وساءت مصيرا . قال مالك : أعجبني عزم عمر رضي الله عنه في ذلك ، ماأصلبه في السنة وأقومه بها ؟! .

(قول الامام أبي بكر محمد بن وهب المالكي شارح رسالة ابن أبي زيد ومن المشهورين بالفقه والسنة رحمه الله تعالى) قال في شرحه للرسالة ومعنى فوق وعلى واحد بين جميع العرب في كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، تصديق ذلك قوله تعالى : (ثم استوى على العرش الرحمن) وقال تعالى : (الرحمن على العرش استوى) وقال تعالى في وصف الملائكة : (يخافون ربهم من فوقهم

ويفعلون مايؤمرون) وقال تعالى : (اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه) ونحو ذلك كثير : وقال الرسول صلى الله عليه وسلم للاعجمية : (أين الله فأشارت الى السماء) ووصف النبي صلى الله عليه وسلم أنه عرج به من الارض الى السماء ثم من سماء الى سماء الى سدرة المنتهى ، ثم الى مافوقها ، حتى لقد قال : سمعت صريف الاقلام ، ولما فرضت الصلاة جعل كلما هبط من مكانه تلقاه موسى عليه السلام في بعض السماوات وأمره بسؤال التخفيف عن أمته ، فرجع صاعدا مرتفعا الى الله سبحانه وتعالى يسأله حتى انتهت الى خمس صلوات ، وسنذكره ان شاء الله تعالى عن قريب .

(قول الامام أبي القاسم عبد الله بن خلف المقري الاندلسي رحمه الله تعالى)

قال في الجزء الاول من كتاب (الاهتداء لأهل الحق والاقتداء) من تصنيفه من شرح الملخص للشيخ أبي الحسن القابسي رحمه الله تعالى عن مالك بن شهاب عن أبي عبد الله الاغر وعن أبي سلمة ابن عبد الرحمن عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (ينزل ربنا كل ليلة الى السماء الدنيا ــ حين يبقى ثلث الليل الآخر ــ فيقول : من يدعوني فاستجيب له ، ومن يسألني فأعطيه ، ومن يستغفر فأغفر له ؟)

في هذا الحديث دليل على أنه تعالى في السماء على العرش فوق سبع سموات من غير مماسة ولا تكييف كما قال أهل العلم ، ودليل قولهم أيضا من القرآن قوله تعالى: (الرَّحمنُ على العَرشِ استوى) وقوله تعالى : (ثُمَّ استوي على العرْشِ مالكُم مِن دونه مِن وليٍّ ولا شفيع) وقوله تعالى : (اذاً لابتغوا الى ذي العرشِ سبيلاً) وقوله : (يُدَبرٌ الأمرَ من السَّماء الى الأَرضِ) وقوله تعالى : (تعْرجُ الملائكَةَ والرُّوحُ اليهِ) . وقوله لعيسى عليه السلام : (اني مُتوفِّيكَ ورافِعُكَ اليَّ) وقوله : (ليسَ له دافعٌ مِنَ اللهِ ذي المعارِج) . (تعْرُجُ الملائكةُ والرُّوحُ اليه) والعروج هو الصعود ، قال مالك ابن أنس رحمه الله تعالى : الله عز وجل في السماء وعلمه في كل مكان لايخلو من علمه مكان ، يريد والله أعلم بقوله : (في السماء) على السماء ، كما قال تعالى : (ولأُصلِّبنَّكُم في جُذوعِ النَّخْلِ) وكما قال تعالى : (أأمِنتُم مَن في السَّمَاءِ انْ يَخْسِفَ بِكم الارضَ) أي من على السماء يعني على العرش ، وكما قال تعالى :

(فسيحوا في الأَرضِ) أي على الارض ، وقيل لمالك (الرحمن على العرش استوى) كيف استوى ؟ قال مالك رحمه الله لقائله : استواؤه معقول ، وكيفيته مجهولة ، وسؤالك عن هذا بدعة ، وأراك رجل سوء •

قال أبو حنيفة في قوله تعالى (الرَّحمنُ على العَرشِ استوي) أي علا • قال : ويقول العرب استويت فوق الدابة أو فوق البيت ، وكل ما قدمت دليل واضح في ابطال قول من قال بالمجاز في الاستواء ، وان استوى بمعنى استولى ، لأن الاستيلاء في اللغة المغالبة وأنه لايغالبه أحد ، وأن من حق الكلام أن يحمل على حقيقته حتى تتفق الامة أنه أريد به المجاز ، اذ لاسبيل الى اتباع ماأنزل الينا من ربنا سبحانه وتعالى الا على ذلك ، وانما يوجه كلام الله تعالى الى الاشهر والاظهر من وجوهه ما لم يمنع ذلك مايوجب له التسليم ، ولو ساغ ادعاء المجاز لكل مدع ماثبت شيء من العبادات ، وجل الله تعالى أن يخاطب الا بما تفهمه العرب من معهود مخاطباتها مما يصح معناه عند السامعين ، والاستواء معلوم في اللغة وهو العلو والارتفاع والتمكن •

(ومن الحجة أيضا) في أن الله سبحانه وتعالى على العرش فوق السموات السبع : أن الموحدين أجمعين اذا كربهم أمر رفعوا وجوههم الى السماء يستغيثون الله ربهم ، وقوله صلى الله عليه وسلم للامة التي أراد مولاها أن يعتقها : (أين الله فأشارت الى السماء ، ثم قال لها : من أنا ؟ قالت : أنت رسول الله ، قال أعتقها فانها مؤمنة) فاكتفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم منها برفع رأسها الى السماء دل على ماقدمناه أنه على العرش ، والعرش فوق السموات السبع ، ودليل قولنا أيضا قول أمية ابن أبي الصلت في وصف الملائكة عليهم السلام :

وساجدهم لايرفع الدهر رأسه ... يعظم ربا فوقه ويمجد

فسبحان من لايقدر الخلق قدره ... ومن هو فوق العرش فرد موحد

مليك على عرش السماء مهيمن ... لعزته تعنو الوجوه وتسجد

وقوله تعالى : (وقال فرعونُ يا هامانُ ابْنِ لي صرْحاً لعلِّي أَبلُغ الأَسبابَ أَسباب السَّمٰواتِ فأطَّلِعَ الى الٰهِ مُوسى) فدل على أن موسى عليه السلام كان

يقول الهي في السماء وفرعون يظنه كاذبا •

(فان احتج) أحد علينا فيما قدمناه وقال لو كان كذلك لاشبه المخلوقات لأن ماأحاطت به الامكنة واحتوته فهو مخلوق : فشيء لايلزم ولا معنى له ، لأنه تعالى ليس كمثله شيء من خلقه ، ولا يقاس بشيء من بريته ، ولا يدرك بقياس ، ولا يقاس بالناس ، كان قبل الامكنة ، ثم يكون بعدها ، لا اله الا هو خالق كل شيء لاشريك له ، وقد اتفق المسلمون وكل ذي لب أنه لايعقل كائن الا في مكان ما وما ليس في مكان فهو عدم ، وقد صح في العقول وثبت بالدلائل أنه كان في الازل لا في مكان وليس بمعدوم فكيف يقاس على شيء من خلقه أو يجري بينهم وبينه تمثيل أو تشبيه ، تعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا •

(فان قال قائل) اذا وصفنا ربنا تعالى أنه كان في الازل لا في مكان ثم خلق الاماكن فصار في مكان ففي ذلك اقرار منافيه بالتغيير والانتقال اذا زالت عن صفته في الازل وصار في مكان دون مكان •

(قيل له) وكذلك زعمت أنت أنه كان لا في مكان ثم صار في كل مكان فنقل صفته من الكون لا في مكان الى صفة هي الكون في كل مكان فقد تغير عندك معبودك وانتقل من لامكان الى كل مكان •

(فان قال) أنه كان في الازل في كل مكان وكما هو الآن : فقد وجب الأماكن والاشياء معه في أزليته وهذا فاسد •

(فان قال) فهل يجوز عندك أن ينتقل من مكان في الازل الى مكان ؟

(قيل له) أما الانتقال وتغير الحال فلا سبيل الى اطلاق ذلك عليه ، لأن كونه في الازل لايوجب مكانا ، وكذلك نقلته توجب مكانا وليس في ذلك كالخلق ، لأن كونه يوجب مكانا من الخلق ونقلته لاتوجب مكانا ويصير منتقلا من مكان الى مكان ، والله تعالى ليس كذلك ، ولكن نقول استوى من لامكان الى مكان ، ولا نقول انتقل وان كان المعنى في ذلك واحدا ، كما نقول له عرش ولا نقول له سرير ، ونقول هو الحكيم ولا نقول هو العاقل ، ونقول خليل ابراهيم ولا نقول صديق ابراهيم عليه السلام وان كان المعنى في ذلك واحدا ، لأنا لانسميه ولا نصفه ولانطلق عليه الا ماسمى به نفسه على ماتقدم ، ولا ندفع ماوصف به نفسه لأنه دفع للقرآن ،

وقد قال الله تعالى : (وجاءَ ربُّكَ والمَلَكُ صفّاً صفاً) وليس مجيئه حركة ولا زوالا ولا ابتدالا ، لأن ذلك انما يكون اذا كان الجائي جسما أو جوهرا ، فلما ثبت أنه ليس بجسم ولا جوهر ولا عرض لم يجب أن يكون مجيئه حركة ولا انتقالا ، ولو اعتبرت ذلك بقولهم جاءت فلانا قيامته وجاءه الموت وجاءه المرض وشبه ذلك مما هو وجود نازل به لا مجيء لبان ذلك وبالله العصمة والتوفيق .

(فان قال انه لايكون) مستويا على مكان الا مقرونا بالكيف .

(قيل له) قد يكون الاستواء واجبا والتكييف مرتفعا ، وليس رفع التكييف يوجب رفع الاستواء ، ولو لزم هذا لزم التكييف في الازل ولا يكون كائنا في الامكان ولا مقرونا بالتكييف .

(فان قال) انه كان ولا مكان وهو غير مقرون بالتكييف ، وقد عقلنا وأدركنا بحواسنا أن لنا أرواحا في أبداننا ولا نعلم كيفية ذلك وليس جهلنا بكيفية الارواح يوجب أن ليس لنا أرواح [1] وكذلك ليس جهلنا بكيفيته على عرشه يوجب أن ليس على عرشه ، وقد روى عن أبي رزين العقيلي قال قلت يارسول الله : (أين كان ربنا تبارك وتعالى قبل أن يخلق السماء والارض ؟ قال : كان في عماء ، ما فوقه هواء وما تحته هواء) قال أبو القاسم : العماء ممدود وهو السحاب ، والعمى مقصور وهو الظلمة ، وقد روى الحديث بالمد والقصر ، فمن رواه بالمد فهو عنده كان في عماء سحاب ماتحته هواء وما فوقه هواء والهاء راجعة الى العماء ، ومن رواه بالقصر فمعناه عنده كان في عمى عن خلقه لأنه من عمى عن الشيء فقد أظلم عنه ، وعن مجاهد قال : ان بين العرش وبين الملائكة لسبعين حجابا من نور وحجابا من ظلمة ، وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : مابين السماء الى الارض مسيرة خمسمائة عام ، ومابين السابعة الى الكرسي مسيرة خمسمائة عام ، والعرش على الماء ، والله تعالى على العرش ، ويعلم أعمالكم . وقال ابن مسعود رضي الله تعالى عنه أيضا : انه فوق العرش لايخفى عليه شيء من أعمالكم ، قال أبو القاسم : يريد فوق العرش ، لأن العرش آخر المخلوقات ليس فوقه مخلوق ، والله تعالى أعلى المخلوقات دون تكييف ولا مماسة ، ولا أعلم في هذا الباب حديثا مرفوعا الا حديث عبد الله بن عميرة عن الاحنف عن العباس ابن عبد المطلب رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه

(1) كذا في الاصل لم يذكر مبدأ جواب فان قال .. الخ فليحرر .

وسلم نظر الى سحابة فقال : (ماتسمون هذه ؟ قالوا السحاب ، قال : والمزن ؟ قالوا والمزن ، قال : والعنان ؟ قالوا : والعنان ، قال : كم ترون بينكم وبين السماء ؟ قالوا لاندري ، قال : بينكم وبينها اما واحد أو اثنان أو ثلاث وسبعون سنة ، والسماء فوقها كذلك بينهما مثل ذلك حتى عد سبع سموات ، ثم فوق السماء السابعة بحر بين أعلاه وأسفله كما بين سماء الى سماء ، ثم فوق ذلك ثمانية أو عال بين أظلافهم وركبهم مثل مابين سماء الى سماء ، ثم الله فوق ذلك) هذا حديث صحيح أخرجه أبو داود .

(قول الامام أبي عبدالله محمد ابن أبي نعيس المالكي المشهور رحمه الله تعالى) قال في كتابه الذي صنفه في أصول السنة : (باب الايمان بالعرش) ومن قول أهل السنة أن الله عز وجل خلق العرش واختصه بالعلو والارتفاع فوق جميع ماخلق، ثم استوى عليه كيف شاء كما أخبر عن نفسه في قوله عز وجل : (الرَّحمن على العرشِ استوي) وفي قوله تعالى : (ثُمَّ استوي على العَرشِ يعلْم ما يلِجُ في الأَرضِ وما يَخرجُ منها وما يَنْزِلُ منَ السّماء وما يعْرُجُ فيها) وذكر حديث أبي رزين العقيلي (قلت يارسول الله أين كان ربنا قبل أن يخلق السموات والارض ، قال كان في عماء مافوقه هواء وماتحته هواء ، ثم خلق عرشه على الماء) ثم ذكر الاثار في ذلك الى أن قال : (باب الايمان بالحجب) . قال : ومن قول أهل السنة أن الله تعالى بائن من خلقه محتجب عنهم بالحجب الى أن قال : (باب الايمان بالنزول) قال : ومن قول أهل السنة أن الله ينزل الى سماء الدنيا ، وذكر حديث النزول ، ثم قال : وهذا الحديث يبين أن الله تعالى على عرشه في السماء دون الارض ، وهو أيضا بين في كتاب الله تعالى وتقدس وفي غير ماحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال الله : (يُدبِّرُ الأَمرَ من السّماءِ الى الأَرضِ ثُم يعرجُ اليْهِ) وساق الآيات في العلو ، وذكر من طريق مالك قول النبي صلى الله عليه وسلم (أين الله ؟) ثم قال : والحديث في مثل هذا كثير .

(قول القاضي عبد الوهاب امام المالكية بالعراق ومن كبار أهل السنة رحمه الله تعالى) صرح بأن الله استوى على عرشه بذاته ، نقله شيخ الاسلام — رحمه

الله تعالى وقدس روحه ــ في غير موضع من كتبه ، ونقله عنه القرطبي في شرح الاسماء الحسنى •

(ذكر قول الامام محمد بن ادريس الشافعي رضي الله عنه وقدس روحه)

قال الامام ابن الامام عبد الرحمن ابن ابي حاتم الرازي :حدثنا ابو شعيب وابو ثور عن أبي عبد الله محمد ابن ادريس الشافعي رحمه الله تعالى ، قال : القول في السنة التي أنا عليها ورأيت اصحابنا عليها اهل الحديث الذين رأيتهم وأخذت عنهم ــ مثل سفيان ومالك وغيرهما ــ الاقرار بشهادة ان لا اله الا الله وان محمدا رسول الله ، وأن الله على عرشه في سمائه يقرب من خلقه كيف شاء ، وأن الله تعالى ينزل الى سماء الدنيا كيف شاء ، قال عبد الرحمن : وحدثنا يونس بن عبد الاعلى ، قال : سمعت أبا عبد الله محمد ابن ادريس الشافعي يقول ــ وقد سئل عن صفات الله وما يؤمن به فقال ــ : لله أسماء وصفات جاء بها كتابه ، وأخبر بها نبيه أمته ، لايسع أحدا من خلق الله قامت عليه الحجة ردها ، لأن القرآن نزل بها وصح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم القول بها فيما روى عنه العدل ، فان خالف ذلك بعد ثبوت الحجة عليه فهو كافر ، أما قبل ثبوت الحجة فمعذور بالجهل ، لان علم ذلك لايدرك بالعقل ولا بروية الفكر ، ولا يكفر بالجهل بها أحد الا بعد انتهاء الخبر اليه بها ، وتثبت هذه الصفات وتنفي عنها التشبيه كما نفى التشبيه عن نفسه فقال :(لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وهو السَّمِيعُ البصير) وصح عن الشافعي أنه قال : خلافة ابي بكر الصديق رضي الله عنه حق قضاها الله في سمائه ، وجمع عليها قلوب عباده ، ومعلوم ان المقضي في الارض والقضاء فعله سبحانه وتعالى المتضمن لمشيئته وقدرته •

(وقال في خطبة رسالته) : الحمد لله الذي هو كما وصف به نفسه ، وفوق مايصفه به خلقه ، فجعل صفاته سبحانه انما تتلقى بالسمع • وقال يونس بن عبد الاعلى : قال لي محمد ابن ادريس الشافعي رضي الله عنه : الاصل قرآن وسنة فان لم يكن فقياس عليهما ، واذا اتصل الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وصح الاسناد منه فهو سنة ، والاجماع أكبر من الخبر الفرد ، والحديث على ظاهره، واذا احتمل المعاني فما أشبه منها ظاهره فهو اولاها به •

(ثم ذكر قول صاحبه) امام الشافعية في وقته ، أبي ابراهيم اسمعيل

ابن يحيى المزني في رسالته في السنة التي رواها ابو طاهر السلفي عنه باسناده وساقها كلهـا .

(وقول امام) الشافعية في وقته ، أبي العباس بن شريح رحمه الله تعالى ، وساق كلامه أيضا .

(وقول الامام) حجة الاسلام أحمد بن الحسين الشافعي المعروف بابـن الحداد ، ثم ساق كلامه .

(وقول الامام) اسمعيل بن محمد بن الفضل التيمي صاحب كتاب الترهيب والترغيب ، وكتاب الحجة في بيان المحجة ، ومذهب أهل السنة ، وكان امام الشافعية في وقته رحمه الله تعالى ، ونقل فصلا من كتاب الحجة في بيان استواء الله تعـالى على عرشه وساقه كله .

(ثم ذكر قول الامام) أبيعمر ، وعثمان بنأبي الحسن بنالحسين السهروردي الفقيه المحدث من أئمة أصحاب الشافعي من أقران البيهقي ، وأبي عثمان الصابوني وطبقتهما ، له كتاب في أصول الدين ، وساق كلامه وفيه : ومن صفاته تبارك وتعالى فوقيته واستواؤه على عرشه بذاته كما وصف نفسه في كتابه وعلى لسان رسولـه صلى الله عليه وسلم بلا كيف الخ .

(ثم ذكر قول امام) الشافعية في وقته ، الامام أبي بكر محمد بن محمود بـن سورة التيمي فقيه نيسابور رحمه الله تعالى ، ثم ساق كلامه ، ومنه : ان أردت أن تكون لك درجة الائمة في الدنيا والآخرة فعليك بمذهب السلف الصالح ، وايـاك ان تداهن في ثلاث مسائل : مسألة القرآن ، ومسألة النبوة ، ومسألة استواء الرحمن على العرش باستدلال النص من القرآن والسنة المـأثورة عن النبي صلى الله عليه وسلم ، حكاه الحافظ أبو منصور في كتاب العلوله الخ .

(ثم ذكر قول أبي الحسن) العمراني صاحب البيان فقيه الشافعية ببلاد اليمن رحمه الله تعالى ، وساق كلامه في كتابه الذي ألفه في السنة على مذهب أهـل الحـديث .

(ثم ذكر أقوال جماعة من اتباع الائمة الاربعة ممن يقتدى بأقوالهم سوى ما تقدم) منهم أبو بكر محمد بن وهب المالكي شارح رسالة ابن أبي زيد عليهمـا الرحمة ، وساق كلامه الذي في شرحه بنصه .

(ومنهم) امام الشافعية في وقته بل هو الشافعي الثاني أبو حامد الاسفرائيني رحمه الله ، وكان من كبار أئمة السنة المثبتين للصفات ، فقد قال : مذهبي ومذهب الشافعي وجميع علماء الامصار أن القرآن كلام الله ليس بمخلوق ، ومن قال مخلوق فهو كافر الى آخر كلامه ، وفيه اثبات صفة العلو لله •

(ومنهم) امام الشافعية في وقته سعد بن علي الزنجاني صرح بالفوقية بالذات، فقال : هو فوق عرشه بوجود ذاته هذا لفظه ، وهو امام في السنة له قصيدة فيها معروفة ، أولها :

تمسك بحبل الله واتبع الاثرا • وقد شرحها •

(ومنهم) الامام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري الامام في الفقه والتفسير والحديث والتاريخ واللغة والنحو والقرآن ، ثم ساق عبارته في كتابه صريح السنة ، وفيه اثبات العلو لله تعالى ، وعبارته من تفسيره عند الكلام على قوله تعالى : (الرَّحْمٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) علا وارتفع • وساق جميع عباراته التي ذكرها في هذا الباب •

(ومنهم) الامام أبو القاسم الطبري اللالكائي أحد أئمة أصحاب الشافعي رحمه الله تعالى ، وساق كلامه في كتاب السنة وهو مشتمل على مثل ماسبق •

(ومنهم) الامام محي السنة الحسين بن مسعود البغوي ، وساق كلامه الذي هو شجي في طوق الجهمية والمعطلة في سورة الاعراف في قوله تعالى : (ثم استوى على العرش) •

(ثم ذكر أقوال الامام أحمد بن حنبل) وجماعة من أصحابه، وكلها مصرحة باثبات صفة العلو والفوقية لله تعالى ، ومثلهم أئمة الحديث المشهورون •

(ثم ذكر أقوال أئمة التفسير) •

(ثم ذكر أقوال أئمة اللغة والعربية) الذين يحتج بقولهم فيها ، كأبي عبيدة معمر ابن المثنى ، ويحيى بن زياد الفراء امام أهل الكوفة ، وأبي العباس ثعلب وغيرهم مما يطول ذكرهم •

(ثم ذكر أقوال الزهاد) أهل الاتباع وسلفهم ، مثل ثابت البناني ، وسليمان

التيمي ، وشريح بن عبيد ، وعبيد بن عمير ، والفضيل بن عياض ، وعطاء السلمى ، وأبو عبيدة الخواص ، وبشر الحافي ، وذي النون المصري ، والحارث بن أسد المحاسبي ، والامام العارف أبي عبد الله محمد بن عثمان المكي امام الصوفية في وقته ، وأبي جعفر الهمداني الصوفي ، والامام العارف معمر بن أحمد الاصبهاني شيخ الصوفية في أواخر المائة الرابعة ، والشيخ عبد القادر الجيلي ، وأبي عبد الله ابن خفيف الشيرازي امام الصوفية في وقته ، وشيخ الاسلام أبي اسمعيل الانصاري صاحب كتاب منازل السائرين والفاروق وذم الكلام وغيره ، وشيخ الصوفية والمحدثين أبي نعيم صاحب كتاب حلية الاولياء ، والامام يحيى بن عمار السجزي شيخ أبي اسمعيل الانصاري امام الصوفية •

(وكل من) هؤلاء الابرار ، والزهاد الاخيار ، صرح باثبات العلو والفوقية لله تعالى • وذكر الشيخ ابن القيم نص عبارتهم في كتابه غزو الجيوش الاسلامية ، ولولا خوف طول الكلام وملل السامعين لنقلناها ، والكتاب متداول بين الناس •

(ثم ذكر أقوال الشارحين لاسماء الله الحسنى) كالقرطبي في شرحه ،قال : وقد كان الصدر الاول لاينفون الجهة ، بل نطقوا هم والكافة باثباتها لله تعالى ، كما نطق كتابه واخبر رسوله صلى الله عليه وسلم ، ولم ينكر أحد من السلف الصالح أنه استوى على العرش حقيقة ، وخص بذلك دون غيره لانه أعظم مخلوقات الله ، وانما جهلوا كيفية الاستواء فانه لاتعلم حقيقته ، كما قال مالك الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والسؤال عن الكيف بدعة ، الى آخر ماقال •

(ثم ذكر أقوال أهل الكلام من أهل الاثبات) المخالفين للجهمية والمعتزلة والمعطلة ، فذكر قول الامام أبي محمد عبد الله بن سعيد بن كلاب امام الطائفة الكلابية ، وقال : كان من أعظم أهل الاثبات للصفات والفوقية وعلو الله تعالى على عرشه ، وذكر له كلاما طويلا في هذا الباب من أحب الوقوف عليه فليرجع الى كتابه غزو الجيوش •

(ثم ذكر) قول أبي الحسن علي بن اسمعيل الاشعري امام الطائفة الاشعرية ، قال : ان كلامه فيما وقفنا عليه من كتبه ، كالموجز ، والابانة ، والمقالات ، وما نقله أعظم الناس انتصارا له ، وهو الحافظ أبو القاسم ابن عساكر في الكتاب الذي سماه : تبيين كذب المفتري فيما نسب الى أبي الحسن الاشعري ـ هو مثل كلام

السلف ، ثم نقل ما قاله ابن عساكر ، وما قاله الاشعري في الابانة .

(ثم ذكر) قول الحسين بن أحمد الاشعري المتكلم من متكلمي أهل الحديث صاحب الجامع الكبير والصغير في أصول الدين ، ونقل كلامه في جامعه الصغير المصرح بصفة الفوقية لله والعلو على العرش حقيقة .

(ثم ذكر) قول الامام فخر الدين الرازي في آخر كتبه ـ وهو كتاب أقسام اللذات ـ وبين أنها ثلاثة : الحسية كالاكل والشرب والنكاح واللباس ، واللذة الخيالية الوهمية كلذة الرياسة والامر والنهي والترفع ونحوها ، واللذة العقلية كلذة العلوم والمعارف ، وتكلم على كل واحد من هذه الاقسام الى أن قال : وأما اللذة العقلية فلا سبيل الى الوصول اليها والتعلق بها ، فلهذا السبب نقول : ياليتنا بقينا على العدم الاول ، ياليتنا ماشهدنا هذا العالم ، وليت النفس لم تتعلق بهذا البدن وفي المعنى قلت :

نهاية اقدام العقول عقال ... واكثر سعي العالمين ضلال
وأرواحنا في وحشة من جسومنا ... وحاصل دنيانا اذى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا ... سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا
وكم قد رأينا من رجال ودولة ... فبادوا جميعا مسرعين وزالوا
وكم من جبال قد علت شرفاتها ... رجال فزالوا والجبال جبال

واعلم أنه بعد التوغل في هذه المضائق ، والتعمق في الاستكشاف عن اسرار هذه الحقائق : رأيت الاصوب الاصلح في هذا الباب طريقة القرآن العظيم ، والفرقان الكريم ، وهو ترك التعمق والاستدلال بأقسام أجسام السموات والارضين على وجوب وجود رب العالمين ، ثم المبالغة في التعظيم من غير خوض في التفاصيل ، فاقرأ في التنزيه قوله تعالى : (والله الغَنيُّ وأَنتمُ الفقراء)[1] وقوله تعالى : (ليْس كَمثْله شيءٌ)[2] وقوله تعالى: (قُلْ هو اللهُ أَحدٌ) واقرأ في الاثبات : (الرّحمٰن على العَرشِ استوي)[3] وقوله تعالى: (يَخافونَ ربّهم مِنْ فوقِهمْ)[4] وقوله تعالى : (اليْهِ يصْعَدُ الكَلِمُ الطَّيبُ)[5] وقوله تعالى : (قُلْ كلٌّ مِنْ عنْدِ اللهِ)[6] وفي تنزيهه عما

(١) محمد : ٣٨ (٢) الشورى : ١١ (٣) طه : ٥ (٤) النحل : ٥٠ (٥) فاطر : ١٠ (٦) النساء : ٧٨

لاينبغي قوله تعالى : (ما اصابك منْ حسَنةٍ فمِنَ اللهِ وما أَصابَك مِنْ سيئةٍ فمِنْ نفسكَ)[1] وعلى هذا القانون فقس وختم الكتاب.

(ثم ذكر) قول متكلم السنة امام الصوفية أبي العباس أحمد بن محمد المظفري المختار الرازي صاحب كتاب قرع الصفات في تقريع نفاة الصفات ، وهو على صغر حجمه كتاب جليل غزير العلم ، قال فيه بعد حكاية مذاهب الناس : وقالت الحنابلة وأصحاب الظواهر والسلف من أهل الحديث أن الله على العرش ، ثم قال : أما حجة المثبتين فمن حيث الكتاب والسنة واجماع الصحابة والمعقول ، ثم ذكر حجج القرآن والسنة ، ثم حكى كلام الصحابة ، الى أن قال : ثم ان الصحابة رضي الله عنهم اختلفوا في النبي صلى الله عليه وسلم هل رأى ربه ليلة المعراج أم لا ، واختلافهم في الرؤية تلك الليلة اختلاف منهم على ان الله على العرش ، لان المخالفين لايفرقون بين الارض والسماء بالنسبة الى ذاته ، وهم فرقوا حيث اختلفوا في أحدهما دون الآخر ، قلت : مراده انما اختلفوا في رؤيته لربه ليلة الاسراء به الى عنده فجاوز السبع الطباق ، ولولا أنه على العرش لكان لافرق في الرؤية نفيا واثباتا من تلك الليلة وغيرها .

ثم قال : واما المعقول فمنه وجوه : أحدها اطباق الناس كافة واجماع الخلق عامة من الماضين والغابرين والمؤمنين والكافرين على رفع الايدي عند السؤال والدعاء ، بخلاف السجود فانه تواضع متعارف ، وبخلاف التوجه الى الكعبة فانه تعبد غير معقول ، أما رفع الايدي بالسؤال نحو المسؤول فأمر معقول متعارف قال : ومن نظر في قصص الانبياء وأخبار الاوائل القدماء وأنباءالامم الماضية والقرون الخالية : اتضحت لههذه المعاني ، واستحكمت له هذه المباني ، ثم قرر العلو وساق شبه النفاة ونقضها نقض من يقلع عروشها كل القلع رحمه الله تعالى .

(ثم ذكر قول شعراء الاسلام) منهم حسان بن ثابت شاعر رسول الله صلىالله عليه وسلم ، فقد أنشد النبي صلى الله عليه وسلم قوله :

شهدت باذن الله ان محمدا ... رسول الذي فوق السموات من عل
وان أبا يحيىويحيى كلاهما ... له عمل من ربه متقبل
وان أخا الاحقاف اذ قام فيهم ... يقوم بذات الله فيهم ويعدل

---

(1) النساء : ٧٩

فقال النبي صلى الله عليه وسلم وأنا أشهد .
وقال حسان أيضا في قصيدته الدالية :

ألم تـــر ان الله أرســـل عبـــده ... ببرهانـــه والله أعلى وأمجـــد
وضم الاله اســم النبي الى اسمـــه ... اذا قـــال في الخمس المؤذن اشهـــد
وشق لـــه من اسمه ليجلـــه ... فذو العـــرش محمود وهذا محمد
اغـــر عليـــه للنبـــوة خاتـــم ... من الله ميمون يلـــوح ويشهـــد

(ومنهم) عبد الله بن رواحة ، فانه أنشد شعرا في قصة له مع امرأته ، وهـــو قولـــه :

شهـــدت بأن وعـــد الله حـــق ... وأن النار مثـــوى الكافرينـــا
وان العرش فوق المـــاء طـــاف ... وفـــوق العـــرش رب العالمينـــا
وتحمله ملائكـــة شـــداد ... ملائكـــة الالـــه مسومينـــا

(ومنهم) العباس بن مرداس السلمى ، قال عوانة بن الحكم : لما استخلف عمر ابن عبد العزيز وفد اليه الشعراء فقاموا ببابه أياما لايأذن لهم ، فبينما هم كذلـــك مر بهم على بن ارطاة ، فدخل على عمر فقال : الشعراء ببابك ياأمير المؤمنـــين، فقال : ويحك مالي وللشعراء ؟ قال : فان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد امتدح فاعطى ، مدحه العباس بن مرداس السلمي فأعطاه حلة ، قال أو تروي من شعره شيئا؟ قال: نعم فأنشده على بن ارطاة قوله للنبي صلى الله عليه وسلم :

رأيتـــك ياخـــير البريـــة كلها ... نشـــرت كتابا جـــاء بالحق معلمـــا
شرعت لنا ديـــن الهدى بعد جورنا ... عن الحق لما أصبح الحق مظلمـــا
تعالـــى علوا فوق سبع الهنـــا ... وكان مكـــان الله أعلى واعظمـــا

(ومنهم) لبيد بن ربيعة بن عامر بن مالك العامري أحد شعراء الجاهليـــة والاسلام ، أسلم وصحب النبي صلى الله عليه وسلم ومن شعره :

للـــه نافلـــة الاجـــل الافضـــل ... وله العلـــى واثيل كل مؤثـــل
لايستطيـــع الناس محو كتابـــه ... أنـــى وليس قضاؤه بمبـــدل
سوى فاعلى دون عالي عرشـــه ... سبعـــا طباقـــا دون قرع المغفـــل
والارض تحتهم مهادا راسيـــا ... ثبتت جوانبهـــا بصم الجنـــدل

(ذكر ماأنشد للنبي صلى الله عليه وسلم من شعر أمية بن ابي الصلت)

مجدوا الله فهـو للمجد اهـــل ربنـــا في السماء امسى كبـــيرا
بالبناء الاعلى الذي سبــق الخلق وسوى فـــوق السمـــاء سريرا
شرجعا ماينالـــه بصـــر العـــين تـــرى دونــــه الملائك صـــورا

ومن شعره قوله في داليته المشهورة :

لك الحمـــــد والنعماء والملك ربنا فلا شـــيء اعلى منه جدا وأمجـــد
مليك على عـــرش السماء مهيمـــن لعزتــــه تعنـــوا الوجوه وتسجد
عليه حجـــاب النور والنور حولـــه وانهـــار نور حولـــه تتوقـــــد
فلا بشر يسمـــو اليـــه بطرفــــه ودون حجـــاب النور خلق مؤيد

وفيها وصف الملائكة فقال:

وساجدهم لايرفـــع الدهر رأسه يعظـــم ربـــا فوقـــه ويمجـــد

(ذكر القصيدة) التي أنشدها اسماعيل بن الترمذي للامام أحمد في حبسه ، قـال ابراهيم بن اسحق العبلي : أخذت هذه القصيدة من أبي بكر المروزي ، وذكر ان اسماعيل بن خلان الترمذي قالها وأنشدها أحمد بن حنبل في السجن :

تبـــارك من لايعلم الغيب غـــيره ومن لـــم يزل يثني عليـــه ويذكر
عـــلا في السموات العلى فوق عرشه الى خلقـــــه في البر والبحـــر ينظر
سميع بصـــير لانشـــك مدبـــر ومن دونــه عبـــد ذليـــل مدبـــر
يـــدا ربنـــا مبسوطتان كلاهمـــا تسحـــان والايدي من الخلق تقتر

وساق القصيدة وهي أحسن القصائد ، ولم ينكرها أحد من أهل الحديث بل أثنوا عليها .

وقال يحيى بن يوسف بن يحيى بن يوسف الصرصري الانصاري اللغوي الفقيه:

تواضع لرب العرش علك ترفـــع فقد فـــاز عبد المهيمن يخضـــع
فداوي بذكر الله قلبـــك انـــه لا على دواء للقلـــوب وانفـــع
وخذ من تقي الرحمن امنا وعـــدة ليوم بـــه غـــير التقى مـــروع

الى أن قال :

سميـــع بصير ماله في صفاتــه شبيه يرى من فـوق سبع ويسمع
قضي خلقــه ثم استوى فوق عرشه ومن علمه لم يخل في الارض موضع

(وقال في لاميته):

ويوم ينادي العالمين فيسمـع الـ قصي كـدان في المقـال المطول
أنا الملك الديـان والنقل ثـابت فهل ههنـا ينساغ تأويل جهـل
وينظـره أهل البصائر في غـد بابصارهم لا ريـب فيـه لمجتـل
كمـا ينظرون الشمس ماحال دونها سحاب الا بعـدا لاهل التعـزل
توحـد نحو العرش والخلق دونه واحكم ما سـواه احكـام مكمل

(وقال أيضا):

أسير وقلبي في هـواك أسـير فهل لي من جـور الفراق مجـير
واستجلب السلوى وفي القلب حسرة فيرتد عنك الطرف وهو حسـير
وما ذاك الا ان فيـك لناظـري مدى غصن غض بالنبات نضـير
إذا ماتجـلى سـافرا فجمـا له الى القلب من جيش الغرام سفـير
اذا ما اجتمعنا وانتفى الشمل فالتقى رقيب علينـا والعقـاب غفـور
يؤكـد عقـد الود بيني وبينه اء تقـاد عليـه للهداية نـور
كلانـا محب للامـام ابن حنبـل لاسيافنـا في شانئيـه هبـير
نقر بـان اللـه جـل ثنـاؤه سميع لاقـوال العبـاد بصير
ويطـوى السموات العلى بيمينه وذلك في وصف القـوي يسـير
وخاطب موسـى بالكلام مكلمـا فخـر صريعـا اذ تقطع طـور
وخـط له التوراة فيها مواعـظ فلاحـت على الالواح منه زبور
وان قلـوب الخلق بين أصابع الـ اله فمنهـا ثـابت ونفـور
ونثبت في الاخرى لرؤيـة ربنـا حديثا رواه في الصحيح جريـر
وأي نعيـم في الجنان لاهلهـا واني لهـم لو لم يروه سـرور
ونؤمن ان العرش من فـوق سبعة تطوف بـه أملاكـه وتـدور
قضى خلقه ثم استوى فوق عرشـه تقدس كرسي لـه وسريـر
هو الله ربـي في السماء محجـب وليس كمخلـوق حوتـه قصور

اليـــه تعالى طيب القول صاعـد وينـــزل منـــه بالقضاء أمـور
لقـــد صح اسلام الجويرية التي باصبعهـــا نحو السماء تشـير

وقال رحمه الله تعالى في قصيدته المنامية التي يقول فيها :

رأيت رسول اللـه في النوم مـرة فقبلت فــاه مثل تقبيـل مشتاق
ولو أنني أوتيت رشـدي قائمـا لقبلت ممشـــاه الكريـم بآماقي
فبشرنـي منه بأزكـى شهـادة بها جبر كسري يوم فقري واملاقي
لمـوت سعيـــد في كتـاب وسنة فلانت لبشـــراه شراسة اخلاقـي
فها أنا ذا والحمد لله وحـــده مقـــر لبشراه باثبـت مصـداقي
باني على حسن اعتقـاد بن حنبـل مقيم وان قـــام العدالي على ساق
أقـر بان الله من فـوق عرشـــه يقـــدر آجـــالا ويقضي بارزاق
سميع بصير ليس شيء كمثلـــه قديم الصفات الواحد الاحد الباقي
امر أحاديث الصفـــات كما أتت أتابـــع فيها كـل ازهر سبـــاق
ولست الى التشبيـــه يوما بجانـح ولا قائـــل تأويـــل اشدق مهاق

وقال رحمه الله تعالى في قصيدته اللامية التي نظم فيها اعتقاد الشافعي رضي الله عنه ، أولها :

أيشعر حـرب الجهم ذاك المضلـل باني حــرب للعدا غير أفكـــل
أشن عليهـم غيرتـي وحميتـــي لديـن الهدى غارات أشرس مقتل
لوقع قريض في صميـم قلوبهـــم أشـــد عليهم من سنان ومنصـل
أفـــوق منه حين أنظر نحوهـــم مقاتـــل تصمى منهـــم كل مقتل
هم انحرفوا عن منهج الحق سالكي مهالـــك من تحريفهـم والتـــأول
لقد بريء الحبر ابن ادريس منهـم براءة موسى من يهـــود محـول

(وقال فيها) :

ويعقـد عند الشافعي يمين مـــن غـــدا حالفـــا بالمصحف المتقبل
فهذا دليـل منه اذ كان لايرى أنـ عقادا بمخلـوق لخلـق مؤثـــل
ومذهبـــه في الاستواء كمالـك وكالسلـف الابرار أهل التفضـل
وقل مستو بالذات من فوق عرشه ولا تقـل استولى فمن قال أبطـل
فذلك زنديق لقائـــل قســـوة لذي خطل راو لغث واعطـــل

وقد بان منـــه خلقه وهو بائـــن | من الخلق محض للخفي وللجلـــى
واقرب من حبـــل الوريد مفسر | وما كـــان في معناه بالعلم فاعقـــل
علا في سماء اللـــه فـــوق عبـــاده | دليلك في القرآن غـــير مقلـــل
واثبات ايمـــان الجويرية اتخـــذ | دليـــلا عليه مسندا غير مرســـل

وقال رحمه‌الله تعالى يهجوابن‌خنفر الجهمي الخبيث أولها :

اطـــع الهدى لا ما يقول العـــذل | فالحب ذوامر يجـــور ويعـــــدل
واتبـــع اسلمى ما استطعت مسلما | فالحسن ينصرهـــا وصبرك يخـــذل
بيضـــاء دون مرامهـــا لمحبهـــا | بيض الصـــــوارم والرماح الذبل
تخفـــي فيعرفهـــا الوشـــاة بعرفها | وتضيىء والاظـــلام ستر مرســـــل
تضحى الدماء لهجرها هدرا وهـــل | يخفـــى قصاص القتـــل طرف أكحل
كيـــف البقـــاء لعاشـــق أودى به | سهم اللحاظ وقـــد أصيب المقتـــل

(ومنهـــا) :

نبذ الكتاب وراء ظهر واغتـــــدى | شيـــخ الضلالة للصفـــات يعطـــل
وعقيدة الملعـــون ان المصحـــف ال | مكنـــــون منبـــوذ تطاه الارجـــل
ما قـــالت الكفـــار مثـــل مقاله | وكذا اليهـــود ولا النصارى الضلل
آل الجحود بـــــه الى وادي لظـــى | للغايـــة السفلـــى فبئس المؤئـــــل
وزعمت ان الحنبلـــــي مجســـــم | حاشـــــا لمثـــــل الحنبلي يمثـــل
بل يورد الاخبـــار اذ كانت تصحـــ | حها الـــرواة عـــن الثقـــاة وتنقـــل
ان المهيمـــــن ليس تمضي ليلـــــة | الا وفي الاسحـــار فيهـــا ينـــــزل
قد قالهـــا خير الورى في ســـــادة | لم ينكروا هـــــذا ولم يتأولـــــوا
وتقبلوهـــــا مع غزارة علمهـــــم | أفأنت ام تلك العصابـــة أعقـــــل

(وقال رحمه الله تعالى):

واهـــــا لفـــرط حرارة لاتبـــــرد | ولواعـــج بـــين الحشـــى تـــتردد
في كل يـــــوم سنـــة مدروســـــة | بـــين الانـــــام وبدعـــة تتجـــدد
صدق النبي ولم يـــــزل متسربـــلا | بالصدق اذ يعـــد الجميـــل ويوعد
اذ قـــال يفترق الضلال ثلاثـــــة | زيـــــدت على السبعين قولا يسند

وقضى بأسباب النجاة لفرقة ... تسعى بسنته اليه وتحفد

فان ابتغيت الى النجاة وسيلة ... فاقبل مقالة ناصح يتقلد

اياك والبدع المضلة انها ... تهدي الى نار الجحيم وتورد

وعليك بالسنن المنيرة فاقفها ... فهي المحجة والطريق الاقصد

فالا ترون بمبدعات عقولهم ... نبذوا الهدى فتنصروا وتهودوا

منهم اناس في الضلال تجمعوا ... وبسب أصحاب النبي تفردوا

قد فرقوا جمع الهدى وجماعة الـ ... ـسلام ثم تزندقوا وتسردوا

بالله ياأنصار دين محمد ... نوحوا على الدين الحنيف وعددوا

لعبت بدينكم الروافض جهرة ... وتألفوا في دحضه وتحشدوا

نصبوا حبائلهم بكل بلية ... وتغلغلوا في المعضلات وشددوا

ورموا خيار الخلق بالكذب الذي ... هم أهله لا من رموه وأفسدوا

نقضوا مراتب هن أشرف منصب ... في الفخر من فاق السماء وأمجد

لمراتب الصديق جف لسانهم ... يبغون وهى من التناول أبعد

أو ماهو السباق في غزو العدا ... ولقد زكى من قبل منه المحتد

ولقد أشاد بذكره رب العلى ... فبناؤه في المكرمات مسدد

نطق الكتاب بمجده الاعلى ففي ... آي الحديد مناقب لاتنفد

لايستوي منكم وفيها مقنع ... والليل يثبت فضله ويؤكد

وبراءة تثنى بصحبته وهل ... يهوى رفيع علاه الا ملحد

أو ماهو الاتقى الذي استولى على الـ ... اخلاص طارف ماله والمتلد

لما مضى لسبيله خير الورى ... وحوى شمائله صفيح ملحد

منع الاعاريب الزكاة لفقده ... وارتد منهم حائر متردد

وتوقدت نار الضلال وخالطت ... ابليس اطماع كوامن رصد

هذا أبو بكر بصدق عزيمة ... وثبات ايمان وراي يحمد

فتمزقت عصب الضلال وأشرقت ... شمس الهدي وتقوم المتأود

أم رتبة الفاروق في اظهاره ... للدين تلك فضيلة لاتجحد

وهو الموفق للصواب كانما ... ملك يصوب قوله ويسدد

بوفاقه آي الكتاب تنزلت ... وبفضله نطق المشفع أحمد

لو كان من بعدي نبيا كنته ... خبرا صحيحا في الرواية مسند

وبعدله الامثال تضرب في الورى ... وفتوحه في كل قطر يوجد

وتمـام فضلهمـا جوار المصطفى ... في تربـة فيها الملائك تحتشـد
وتعمقوا في سب عثمان الذي ... ألفاه كفـوا لابنتيه محمـد
ولبيعه الرضوان مد شماله ... عـوض اليمين وهي منه أوكد
وحبـاه في بدر بسهم مجاهـد ... اذ فاتـه بالعذر ذاك المشهـد
من هـذه من بعض غر صفاتـه ... ما ضـره ما قـال فيـه الحسـد
ثم ادعـوا حب الامـام المرتضـى ... هيهـات مطلبـه عليـه يبعـد
انى وقد جحدوا الدين بفضلهم ... أثنى أبو الحسـن الامام السيد
ما في عـلاه مقالـه لمخلـف ... فمسائل الاجمـاع فيه تعقـد
ولنحـن أولى بالامـام وحبـه ... عقد نديـن به الاله مؤكـد
وولاؤه لا يستقيـم ببغضهـم ... واضرب لهم مثـلا يغيظ ويكمد
مثل الذي جحد بن مريـم وادعـى ... حب الكليم وتلك دعـوى تفسـد
وبقذف عائشـة الطهور تجشمـوا ... أمرا تظـل له الفرائص ترعـد
تنزيههـا في سبع عشـرة آيـة ... والرافضي بضـد ذلـك يشهـد
لو أن أمـر المسلمين اليهـم ... لم يبـق في هذي البسيطة مسجد
ولو استطاعوا لسعت بمرامهـم ... قدم ولامتـدت بكفهم يـد
لم يبـق للاسلام مابين الورى ... علم يشير ولا لـواء يعقـد
علقـوا بحبل الكفر واعتصموا بـه ... والعالقـون بحبله لم يسعـدوا
وأشدهم كفـرا جهـول يدعـى ... علم الاصـول وفاسـق متزهـد
فهما وان وهنـا أشـد مضـرة ... في الديـن من فـار السفين وأفسد
واذا سـألت فقيههـم عن مذهب ... فالى اعتزال في الشريعـة يلحـد
كالخـائض الرمضـاء أقلقه لظى ... منهـا ففر الى جحيم يوقـد
ان المقـال بالاعتـزال لخطـة ... عمياء حـل بهـا الغواة المـرد
هجموا على سبـل الهدى بعقولهم ... ليلا فعاثوا في الديـار وأفسدوا
صم اذا ذكـر الحديث لديهـم ... نفـروا كأن لم يسمعـوه وغـردوا
واضرب لهم مثل الحمير اذا رأت ... أسد العريـن فهن منه شـرد
والجاحـد الجهمي أسـوأ منهما ... حالا وأخبث في القيـاس وأفسـد
أمسى لرب العرش قـال منزهـا ... من أن يكـون عليـه رب يعبـد
ونفى القران برأيه والمصحف الـ ... اعلى المطهـر عنده يتوسـد
واذا ذكـرت له على العرش استوى ... فالى هـو استولـى يحيد ويخلـد

فالى من الايـدي تمـد تضرعـا وباى شيء في الدجى يتهجـد
ومن الذي هـو للقضـاء منـزل واليـه أعمال البرية تصعـد
وبمـا تنزل جبرئيـل مصدقا ولاي معجـزة الخصوم تبلـد
ومن الذي استولى عليـه بقهـره ان كـان فوق العـرش ضد أيـد
جلت صفـات الحق عن تأويلهـم وتقدسـت عمـا يقول الملحـد
لمـا بغـوا تنزيهـه بقياسهـم ضلوا وفاتهم الطريـق الارشـد
ويقول لاسمـع ولا بصـر ولا وجـه لربك ذي الجلال ولا يد
من كـان هذا وصفـه لالهـه فاراه للاصنـام سرا يسجـد
الحق أثبتهـا بنص كتابـه ورسولـه وغـدا المنافق يجحـد
فمن الذي أولى باخذ كلامـه جهم او الرحمن قولوا وارشـدوا
والصحب لم يتأولـوا لسماعهـا فهم الى التأويـل ام هو أرشـد
هـو مشرك ويظـن جهـلا أنه في نفي أوصـاف الاله موحـد
يدعو منا تبـع الحديث مشبهـا هيهات ليس مشبهـا من يسنـد
لكنـه يروى الحديث كمـا أتى مـن غـير تأويـل ولا يتـأود
واذا العقائد بالضـلال تخالفـت فعقيـدة المهـدي أحمـد أحمد
هي حجة الله المنـيرة فاعتصـم بحبالهـا لايلهينـك مفسـد
ان ابن حنبل اهتدى لمـا اقتـدى ومخالفوه لزيغهـم لم يهتـدوا
مازال أحمد يقتفـى أثر الهـدى ويـروم أسبـاب النجـاة ويجهد
حتى ارتقى في الديـن اشرف ذروة مافوقهـا لاخي التقـاء مصعـد
نصرالهدى اذ لـم يقـل مالم يقل في فتنـة نيرانهـا تتوقـد
ماصـده ضرب السياط ولا ثنـى عزماته ماضي الغـرار مهنـد
لهـواه حبا ليس فيـه تعصـب لكن محبـة مخلص يتـودد
وودادنـا للشـافعي ومالـك وابي حنيفـة ليس فيـه تـردد

أقول : سيأتي في الكلام على ما استدل به النبهاني في (باب الاستغاثة) مـن شعر الصرصري أن مثله لايجوز أن يكون مستندا في العقائد الدينية فكيف يورد كلامه للاستدلال به في هذا المقام •

فالجـواب أن يقال : قد علم ان كلام الله ورسوله صلى الله عليه وسلم وسائر أنبيائه وأصحابهم والتابعين لهم باحسان هو الحجة والبرهان ، فذكر أقـوال أهل

العلم وشعر بعض الشعراء لا للاحتجاج بها بل لبيان ان جميع العقلاء على ماذكرنا ، وليعلم الخصم أن أهل الاثبات اولى بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين وأهل الاسلام وطبقات أهل العلم والدين من الجهمية والمعطلة ، وليعرف جنود الاسلام والسنة وامراؤها وحزب البدع والتجهم ليتحيز المقاتل الى الطائفتين على بصيرة من أمره ، ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حي عن بينة ، ولهذا قال الحافظ بن القيم ـ بعد ماأورد ماذكرناه ـ وهذا باب واسع جدا لايتسع لذكره مجلد كبير ، ويكفي أن شعراء الجاهلية مقرة به على فطرتهم الاولى ، كما قال عنترة في قصيدته :

ياعبل اين من المنية مهرب ان كان ربي في السماء قضاها

(ثم ذكر قول) الفلاسفة المتقدمين والحكماء الاولين ، فانهم كانوا مثبتين لمسألة العلو والفوقية مخالفين لارسطو وشيعته ، وأتى بنصهم لاجل ماذكرنا للاستدلال ، ثم ان من المعلوم انه لايلزم من مدح شخص وحمده من جهة ان يكون ممدوحا محمودا من كل جهة ، بل لايلزم من الحكم عليه بالاسلام أو الايمان ان لايحكم عليه بما يوجب نقص ايمانه وخلل اسلامه ، ويقتضي تأثيمه ببعض السيئات وعقابه عليها .

(والمقصود) أن ماذكره النبهاني واضرابه من الجهلة ، وما هذى به الشيخ شهاب الدين الحلبي : مخالف للكتاب والسنة ، وأقوال الصحابة ، والتابعين ، وتابعي التابعين ، والمجتهدين ، وأئمة المسلمين ، ومشاهير اتباعهم ،والعقلاء ، واتباع من سبق من الانبياء ، والشعراء، وأئمة اللغة ، والفلاسفة الاولى ، وجاهلية العرب ، ويكفي ذلك بطلانا لقولهم وافكهم وخزيا لهم بين أهل العقول .

ولو أخذنا تتكلم على ما اشتمل عليه كلامهم من المفاسد لطال الكلام جدا، وما ذكرناه كاف لمن أخذت العناية بيديه ، ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور ، نسأله تعالى أن يبصرنا في أمورنا انه ذو الفضل العميم ، والمن الجسيم ، وهو المعطي قبل السؤال ، والعالم بالاحوال .

(قال النبهاني)ولنرجع الى الكلام على كتب ابن تيمية ، قال : فمنها الكتب الاربعة المذكورة سابقا ، وهي (الجواب الصحيح في الرد على من بدل دين المسيح) ومنها كتاب (منهاج السنة) . ومنها كتاب (العقل والنقل) وقد رد به على أهل

السنة والجماعة من المسلمين الاشاعرة والماتريدية وغيرهم من الفرق الاخرى ، ومنها كتاب (الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان) وقد رد به على خلاصة المسلمين من الاولياء والعارفين •

اذا علمت ذلك تعلم أنه مثل ابن حزم لم يسلم من قلمه أحد ، وقد رد عليه الامام السبكي فيما رد به على كتبه بابيات مدح فيها كتابه (منهاج السنة) واعترض عليه ببعض بدعه ، فتصدى للتشنيع على السبكي بذلك والرد عليه بعض الحشوية ممن هو على عقيدة ابن تيمية ، أحدهما حنبلي والآخر فيما زعم شافعي ، الى أن قال : نظم كل منهما في ذلك قصيدة طويلة في أكثر من مائة بيت ، فيها العجر والبجر ، والتحامل على الامام السبكي بما لا ينبغي أن يصدر من مسلم فضلا عن عالم ، وقد رأيت أن أتتصف منهما وأقابلهما بعملهما ، جاعلا محط نظري اثبات الحق ودحض الباطل ، وبيان المذهب الصحيح من المذهب العاطل ، فنظمت هذه القصيدة من البحر والقافية ، وقد أثبت فيها استحالة الجهة على الله تعالى بدلائل ظاهرة باهرة ، وتعرضت لجواز الاستغاثة والشد للرحل لزيارته صلى الله عليه وسلم بما لا يأباه عقل ولا يمنعه نقل ، رادا على من يخالف ذلك ، ثم ذكر القصيدة وهي نحو مائة وثلاثة وخمسين بيتا ، قال في أولها :

الحمد لله حمدا استعد به	لنصرة الحق كي احظى بمطلبه
بك استعنت الهي عاجزا فاعن	ابغى رضاك فاسعفني باطيبه
واني عالم ضعفي ولا عمل	عندي يفيد ولا علم أصول به

وكلها على هذا المنوال من الشعر الركيك ، ولولا الحرص على نفيس العمر أن يذهب سدى لنقلناها في هذا المقام ، ولكنا نزهنا القلم من نقلها وصنا وجه القرطاس عن تلك الاوهام ، وقد ذكر هو ماشتملت عليه قصيدته •

(يقال للنبهاني أولا) : قد تكلمنا سابقا على مايتعلق بكتب الشيخ كلاما يكتفي به اللبيب والذكي الاديب ، وقوله عن كتاب (العقل والنقل) انه رد به على أهل السنة الخ كلام لامعنى له ، فانه لم يرد على أهل السنة بل رد عنهم كما هو شأنه في كل كتاب من كتبه ، انما رد على من استدل على حدوث العالم بحدوث الاجسام ، واثبت حدوث الاجسام بدليل الاعراض والحركة والسكون ، والاجسام مستلزمة لذلك لاتنفك عنه ، ومالا يسبق الحوادث فهو حادث ، وبنى ذلك على

حوادث لا أول لها ، ولم يكن في الصحابة والتابعين من استدل بهذا الدليل ، بل أول ماظهر هذا الكلام في الاسلام بعد المائة الاولى من جهة الجعد بن درهم بن صفوان ، ثم صار الى عمرو بن عبيد كابي الهذيل العلاف (١) وأمثاله .

وعمرو بن عبيد وواصل بن عطاء انما كانا يظهران الكلام في انفاذ الوعيد ، وأن النار لايخرج منها من دخلها ، وفي التكذيب بالقدر ، وهؤلاء ومن وافقهم على اعتقادهم رد عليهم شيخ الاسلام .

وأما الاشعري فلا ريب عنه أنه كان تلميذا لابي علي الجبائي ، لكنه فارقه ورجع عن جمل مذهبه وان كان قد بقي عليه شيء من أصول مذهبه لكنه خالفه في نفي الصفات ، وسلك فيها طريقه ابن كلاب ، وخالفهم في القدر ومسائل الايمان والاسماء والاحكام ، وناقضهم في ذلك أكثر من مناقضة حسين النجار وضرار بن عمرو ونحوهما ممن هو متوسط في هذا الباب ، كجمهورالفقهاء ، وجمهور اهل الحديث ، حتى مال في ذلك الى قول جهم ، وخالفهم في الوعيد ، وقال بمذهب الجماعة ، وانتسب الى مذهب أهل الحديث والسنة كاحمد بن حنبل وأمثاله ، وبهذا اشتهر عند الناس ، فالقدر الذي يحمد من مذهبه هو ماوافق فيه أهل السنة والحديث كالجمل الجامعة ، وأما القدر الذي يذم من مذهبه فهو ماوافق فيه بعض المخالفين للسنة والحديث من المعتزلة والمرجئة والجهمية والقدرية ونحو ذلك ، وأخذ مذهب أهل الحديث عن زكريا بن يحيى الساجي بالبصرة ، وعن طائفة ببغداد من أصحاب احمد وغيرهم ، وذكر في المقالات ما اعتقد أنه مذهب أهل السنة والحديث ، وقال : بكل ماذكرنا من قولهم نقول واليه نذهب ، وهذا المذهب هو من أبعد المذاهب عن مذهب الجبرية والقدرية ، وآخر ماصنف من الكتب كتاب (الابانة) وقد ذكر فيه انه على مذهب أهل الحديث واعتقادهم ، وقد خالفه كثير من الاشعرية في كثير من المسائل .

(والمقصود) أن الشيخ انما رد في كتاب (العقل والنقل) بل وفي سائر كتبه على من خالف أهل السنة الذين تمسكوا بالكتاب وكلام الرسول صلى الله عليه وسلم ، وموضوع كتاب (العقل والنقل) أن الشريعة الغراء كاملة مكملة لاحاجة لها الى ماستحدثوه من القواعد المناقضة للشريعة ، وأن نصوص الشريعة تفيد اليقين ، وأنها مقدمة على تلك القواعد ، وأن النصوص لاتؤول لتلك القواعد اذا

(١) كذا عبارة الاصل وكان فيه سقط .

خالفتها ، واستدل على ذلك بنحو تسعة عشر دليلا •

والنبهاني ليس ممن يحسن قراءة عبارتها فضلا عن فهم معانيها ، وادراك مافيها فلذلك اعترض بما اعترض •

(ويقال ثانيا) ان النبهاني ذكر عن كتاب الفرقان أنه قد رد بـه على خلاصة المسلمين من الاولياء والصالحين ، وهو كلام من لم يعرف الولاية ولادرى معنى الايمان والاسلام ، والشيخ قدس الله روحه قد فرق في هذا الكتاب بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان فرقا واضحا يعرفه من له أدنى المام بالعلم ، ومداره على الاتباع والابتداع فمن اتبع في أقواله وأفعاله ما جاءت به الشريعة فذاك من أولياء الرحمن ، ومن خالف في ذلك فهو من أولياء الشيطان ، وان طار في الهواء أو مشى على وجه الماء •

وأما ابن عربي صاحب (فصوص الحكم) و (الفتوحات المكية) فقد سلك مسلك القرامطة والباطنية الذين زاغوا عن الشريعة ، ولهذا ادعى أنه يأخذ من المعدن الذي يأخذ منه الملك الذي يوحي به الى الانبياء ، والنبي عنده يأخذ من الملك الذي يوحي به الى الرسل ، لأن النبي عنده يأخذ من الخيالات التي تمثلت في نفسه لما صورت له المعاني العقلية في الصورة الخيالية ، وتلك الصورة عنده هي الملائكة ، وهي بزعمه تأخذ عن عقله المجرد قبل أن تصير خيالا ، ولهذا يفضل الولاية على النبوة ويقول :

مقـام النبـوة في بـرزخ فويـق الرسول ودون الولـى

والولى على أصله الفاسد يأخذ عن الله بلا واسطة ، لانه يأخذ عن عقلـه وهذا عندهم هو الآخذ عن الله بلا واسطة ، اذ ليس عندهم ملائكة منفصلة تنزل الوحي ، والرب عندهم ليس هو موجودا مباينا للمخلوقات ، بل وجود مطلق أو مشروط بنفي الامور الثبوتية عن الله ، أو نفي الامور الثبوتية والسلبية ، وقد يقولون هو وجود المخلوقات أو حال فيها أولا هذا ولا هذا ، فهذا عندهم غاية كل رسول • ومبني النبوة عندهم الاخذ عن القوة المتخيلة التي صورت المعاني العقلية في المثل الخيالية ، ويسمونها القوة القدسية ، فلهذا جعلوا الولاية فوق النبوة ، وهؤلاء من جنس القرامطة الباطنية الملاحدة ، لكن هؤلاء ظهروا في قالب التصوف والتنسك ودعوى التحقيق وأمثال ذلك ، وأولئك ظهروا في قالب التشيع والموالاة ، فأولئك يعظمون شيوخهم حتى يجعلوهم أفضل من الانبياء ، وقد يعظمون الولاية حتى يجعلوها أفضل من النبوة ، وهؤلاء يعظمون أمر الامامة حتى

قد يجعلون الائمة أعظم من الانبياء ، والامام أعظم من النبي كما يقوله الاسماعلية ، وكلاهما يباطنان الفلاسفة الذين يجعلون النبي فيلسوفا ، ويقولون انه يختص بقوة قدسية ، ثم منهم من يفضل النبي على الفيلسوف ، ومنهم من يفضل الفيلسوف على النبي ، ويزعمون أن النبوة مكتسبة ، ويقولون : انالنبوة عبارة عن ثلاث صفات من حصلت له فهو نبي : أن يكون له قوة قدسية حدسية ينال بها العلم بلا تعلم ، وأن تكون نفسه قوية لها تأثير في هيولى العالم ، وأن يكون له قوة يتخيل بهامايعقله ومزينا في نفسه ومسموعا في نفسه ، هذا كلام ابن سينا وأمثاله في النبوة ، وعنه أخذ ذلك الغزالي في كتبه المضنون بها على غير أهلها ، وهذا القدر الذي ذكروه يحصل لخلق كثير من آحاد الناس ومن المؤمنين ، وليس هو من أفضل عموم المؤمنين فضلا عن كونه نبيا ، وهؤلاء قالوا هذا لما احتاجوا في الكلام في النبوة على أصول سلفهم الدهرية القائلين بأن الافلاك قديمة أزلية لامفعولة لفاعل بقدرته واختياره وأنكروا علمه بالجزئيات ونحو ذلك من أصولهم الفاسدة فتكلم هؤلاء في النبوة على أصول أولئك •

وأما القدماء أرسطو وأمثاله فليس لهم في النبوة كلام محصل ، فالواحد من هؤلاء يطلب أن يصير نبيا كما كان السهر وردي المقتول يطلب أن يصير نبيا ، وكان قد جمع بين النظر والتأله ، وسلك نحوا من مسلك الباطنية ، وجمع بين فلسفة الفرس واليونان ، وعظم أمر الانوار ، وقرب دين المجوس الاول ،وهي نسخة الباطنية الاسماعيلية ، وكان له يد في السحر والسيمياء ، فقتله المسلمون على الزندقة بحلب في زمان صلاح الدين •

وكذلك ابن سبعين الذي جاء من المغرب الى مكة وكان يطلب ان يصير نبيا ، وجدد غار حراء الذي نزل فيه الوحي على النبي صلى الله عليه وسلم ابتداء ، وحكى عنه أنه كان يقول : لقد رددت ابن آمنة حيث قال لانبي بعدي ، وكان بارعا في الفلسفة وفي تصوف المتفلسفة وما يتعلق بذلك ، وهو وابن عربي وأمثالهما كالصدر القونوي وابن الفارض والتلمساني منتهى أمرهم القول بوحدة الوجود ، الواجب القديم الخالق هو الوجود الممكن المحدث المخلوق ماثم لاغير ولا سوى ، لكن لما رأوا تعدد المخلوقات صاروا تارة يقولون مظاهر ومجالي ، فاذا قيل لهم فان كانت المظاهر أمرا وجوديا تعدد الوجود والا لم يكن لها حينئذ حقيقة وما هو نحو هذا الكلام الذي يبين أن الوجود نوعان خالق ومخلوق : قالوا نحن ثبت عندنا فيالكشف ماينافض صريح العقل ، ومن أراد أن يكون محققا مثلنا فلا بد أن يلتزم الجمع بين

النقيضين ، وأن الجسم الواحد يكون في وقت واحد في موضعين ، وهؤلاء الاصناف قد بسط الكلام عليهم شيخ الاسلام في غير موضع ، فان هؤلاء يكثرون في الدول الجاهلة ، وعامتهم تميل الى التشيع ـ كما عليه ابن عربي وابن سبعين وأمثالهما ـ فاحتاج الناس الى كشف حقائق هؤلاء وبيان أمورهم على الوجه الذي يعرف به الحق من الباطل ، فان هؤلاء يدعون في أنفسهم أنهم أفضل أهل الارض ، وأن الناس لايفهمون حقيقة اشاراتهم •

قال شيخ الاسلام رحمه الله : فلما يسر الله اني بينت لهم حقائقهم وكتبت في ذلك من المصنفات ماعلموا به ان هذا هو تحقيق قولهم وتبين لهم بطلانه بالعقل الصريح والنقل الصحيح والكشف المطابق : رجع عن ذلك من علمائهم وفضلائهم من رجع ، وأخذ هؤلاء يثبتون للناس تناقضهم وبراءتهم من الحق ، وكان من أصول ضلالهم ظن ان الوجود المطلق يوجد في الخارج ، فان الذي يوجد في الخارج مقيدا معينا هو مطلق في الذهن مقيد في الخارج ، وأما من زعم أن في الذهن شيئا مطلقا وهو مطلق حال تحققه في الخارج فهو غالط غلطا ضل فيه كثير من أهل المنطق والفلسفة ، وأما المطلق بشرط الاطلاق فهو الوجود المقيد بسلب جميع الامور الثبوتية والسلبية ، كما يوجد الانسان مجردا عن كل قيد ، فاذا قلت موجود أو معدوم أو واحد أو كثير أو في الذهن أو في الخارج كان ذلك قيدا زائدا على الحقيقة المطلقة بشرط الاطلاق ، وهكذا الوجود تأخذه مجردا عن كل قيد ثبوتي وسلبي ، فلا تصفه لا بالصفات الثبوتية ولا السلبية ، وهكذا واجب الوجود عند أئمة الباطنية كابي يعقوب السجستاني صاحب الاقاليد الملكوتية وغيره ، لكن من هؤلاء من لايعرف برفع النقيضين فيقول لاموجود ولا معدوم ، ومنهم من يقول بل امسك عن اثبات أحد النقيضين فلا أقول موجود ولا معدوم كابي يعقوب ، وهو منتهى تجريد هؤلاء القائلين بوحدة الوجود •

وابن سينا وأتباعه يقولون الوجود الواجب هو الوجود المقيد بسلب الامور الثبوتية دون السلبية ، وهذا أبعد عن الوجود في الخارج من المقيد بسلب الوجود والعدم وان كان ذلك ممتنعا في الموجود والمعدوم • قال : فقلت لاولئك المدعين للتحقيق أنتم بنيتم أمركم على القوانين المنطقية وهذا الوجود المطلق بشرط الاطلاق المقيد بسلب النقيضين عنه لايوجد في الخارج باتفاق العقلاء ، وانما يقدر في الذهن تقديرا ، والافاذا قدرنا انسانا مطلقا واشترطنا فيه ان لايكون موجودا ولا معدوما

ولا واحدا ولا كثيرا لم يوجد في الخارج ، بل نفرض في الذهن كما نفرض الجمع بين النقيضين ، ففرض رفع النقيضين كفرض الجمع بين النقيضين ، ولهذا كان هؤلاء تارة يصفونه بالجمع بين النقيضين او الامساك عنهما كما يفعل ابن عربي وغيره كثيرا ، وتارة يجمعون بين هذاوهذا كما يوجد أيضا في كلام أصحاب البطاقة وغيرهم ، فاذا قالوا مع ذلك انه مبدع العالم وشرطوا فيه ان لايوصف بثبوت ولا انتفاء كان تناقضا ، فان كونه مبدعا لايخرج عن هذا وهذا ، وكذلك اذا قالوا موجود واجب وشرطوا فيه التجريد عن النقيضين كان تناقضا ،وحقيقة قولهم موجود لاموجود ، وواجب لاواجب ، وهذا منتهى أمرهم ، وهو الجمع بين النقيضين أو رفع النقيضين ، ولهذا يصيرون الى الحيرة ويعظمونها ، وهي عندهم منتهى معرفة الانبياء والاولياء والائمة والفلاسفة .

(ومن أصول ضلالهم) ظنهم أن هذا تنزيه عن التشبيه وانهم متى وصفوا بصفة اثبات أو نفي كان فيه تشبيه بذلك، ولم يعلموا أن التشبيه المنفي عن الله هو ماكان وصفه بشيء من خصائص المخلوقين ، أو أن يجعل شيء من صفاته مثل صفات المخلوقين بحيث يجوز عليه مايجوز عليهم ، أو يجب له مايجب لهم ، أو يمتنع عليه مايمتنع عليهم مطلقا ، فان هذا هو التمثيل الممتنع المنفي بالعقل مع الشرع ، فيمتنع وصفه بشيء من النقائص ، ويمتنع مماثلة غيره له في شيء من صفات الكمال ، فهذان جماع لما ينزه الرب تعالى عنه ، وعلى هذا وهذا دل قوله تعالى :
(قُلْ هوَ اللهُ أَحدٌ اللَّهُ الصَّمدُ لم يلِدْ ولمْ يُولَدْ ولمْ يكُنْ له كُفُواً أَحدٌ)

(فأما الموافقة) في الاسم كحي وحي وموجود وموجود وعليم وعليم فهذالابدمنه، ويلزم من هذا التعطيل المحض ، فان كل موجودين قائمين بانفسهما ، فحينئذ لابد أن يجمعهما اسم عام ، لكن المعنى القائم لايوجد عاما الا في الذهن لا في الخارج ، فاذا قيل هذا الموجود وهذا الموجود مشتركان في مسمى الوجود كان ما اشتركا فيه لايوجد مشتركا الا في الذهن لافي الخارج ، وكل موجود فهو يختص بنفسه ، وصفات نفسه لايشركه غيره في شيء من ذلك في الخارج ، وانما الاشتراك هو نوع من التشابه والاتفاق ، والمشترك فيه الكلي لايوجد كذلك الا في الذهن ، فاذا وجد في الخارج لم يوجد الا متميزا عن نظيره لايكون هو اياه ولا هما في الخارج مشتركان في شيء في الخارج ، فاسم الخالق اذا وافق اسم المخلوق كالموجود والحي ـــ وقيل أن هذا الاسم عام كلي وهو من الاسماء المتواطئة أو المشككة ـــ لم

يلزم من ذلك أن يكون ما يتصف به الرب من مسمى هذا الاسم قد شاركه فيه المخلوق ، بل ولايكون مايتصف به أحدالمخلوقين من مسمىهذا الاسمقد شاركهفيه مخلوق آخر ، بل وجود هذا يخصه ووجود هذا يخصه ، لكن مايتصف به المخلوق قد يماثل مايتصف به المخلوق ويجوز على أحد المثلين مايجوز على الآخر •

وأما الرب سبحانه وتعالى فلا يماثله شيء من الاشياء في شيء من صفاته،بل التباين الذي بينه وبين كل واحد من خلقه في صفاته أعظم من التباين الذيبين أعظم المخلوقات وأحقرها •

وأما المعنى الكلي العام المشترك فيه فذاك كما ذكرنا لا يوجد كليا الا فيالذهن• واذا كان المتصفانبهبينهما نوع موافقة ومشاركةومشابهةمن هذاالوجهفذاكلامحذور فيه ، فان مايلزم ذلك القدر المشترك من وجوب وجواز وامتناع فان الله متصف به ، فالموجود من حيث هو موجود أو العليم أو الحي مهما قيل أنه يلزمه من وجوب وامتناع وجواز فالله موصوف به ، بخلاف وجود المخلوق وحياته وعلمه فان الله لايوصف بما يختص به المخلوق من وجوب وجواز واستحالة ، كما ان المخلوق لايوصف بما يختص به الرب من وجوب وجواز واستحالة ، فمن فهم هذا انحلت عنه اشكالات كثيرة يعثر فيها كثير من الاذكياء الناظرينفي العلوم الكلية ،والمعارف الالهية •

(ثم ذكر) القول الثاني من أقوالهم في الوجود الواجب وهو قول ابن سينا وأتباعه ، وهو انه الوجود المقيد بأن لايعرض له شيء من الماهيات ، وأطال الكلام في بيانه وما يرد وليس لنا غرض بذكره •

والمقصود : هو القول الاول الذي ذكرناه ، وهو المطلق بشرط الاطلاق عن النفي والاثبات ، وهو أكملها في التعطيل والالحاد ، وهو الذي قال به محيي الدين واضرابه ، وذكره في فصوصه مع أقوال أخر غاية في البشاعة ، وهل يجوز لمتشرع أن يجعل من قال بقول القرامطة من الاولياء ويعترض على من اعترض عليه ويبدعه؟•

وقد نظم العلامة قاضي اليمن شرف الدين الشيخ اسمعيل بن ابي بكر المعروف بابن المقري الشافعي قصيدة غراء في أحوال من قال بوحدة الوجود وكتبهم فقال :

الا يارسول الله غارة ثائر	غيور على حرماته والشعائر
يحاط بها الاسلام ممن يكيده	ويرميه من تلبيسه بالبواتر
فقد حدثت في المسلمين حوادث	كبار المعاصي عندها كالصغائر

حوتهن كتب حارب الله ربها ... وغربها من غربين الحواضر

تجاسر فيها ابن العرابي واجترا ... على الله فيما قال كل التجاسر

فقال بان الرب والعبد واحد ... فربي مربوب بغير تغاير

(الى أن قال) :

كما ضل في التهليل جهرا بنفسه ... واثباته مستجهلا للمغاير

وقال الذي ينفيه عين الذي أتى ... به مثبتا لاغير عند التحاور

فافسد معنى ما به الناس أسلموا ... والغاه الغا بينات التهاتر

فسبحان رب العرش عما يقوله ... أعاذبه من مثل هذي الكبائر

فقال عذاب الله عذب وربنا ... ينعم في نيرانه كل فاجر

وقال بأن الله لم يعص في الورى ... فما ثم محتاج لعاف وغافر

وقال مراد الله وفق لأمره ... فما كافر الا مطيع الاوامر

وكل امرىء عند المهيمن مرتضى ... سعيد فما عاص لديه بخاسر

وقال يموت الكافرون جميعهم ... وقد آمنوا غير المفاجي المبادر

وما خص بالايمان فرعون وحده ... لدى موته بل عم كل الكوافر

فكذبه ياهذا تكن خير مؤمن ... والا فصدقه تكن شر كافر

واثنى على من لم يجب نوحا اذ دعا ... الى ترك ود أو سواع وناسر

وسمى جهولا من يطاوع أمره ... على تركها قول الكفور المجاهر

ولم ير بالطوفان أغراق قومه ... ورد على من قال رد المناكر

وقال بلى قد أغرقوا في معارف ... من العلم والبارى لهم خير ناصر

كما قال فازت عاد بالقرب واللقا ... من الله في الدنيا وفي اليو الآخر

وقد اخبرالباري بلعنته لهم ... وابعادهم فاعجب له من مكابر

وصدق فرعون وصحح قوله ... انا الرب الاعلى وارتضى كل سامري

واثنى على فرعون بالعلم والذكا ... وقال بموسى عجلة المتبادر

وقال خليل الله في الذبح واهم ... ورؤيا ابنه يحتاج تعبيرعابر

يعظم أهل الكفر والانبياء لا ... يعاملهم الا بحط المقادر

ويثني على الاصنام خيرا ولا يرى ... لها عابدا ممن عصى امر آمر

وكم من جراآت على الله قالها ... وتحريف آيات بسوء تفاسر

ولم يبق كفر لم يلابسه عامدا ... ولم يتورط فيه غير محاذر

وقال سيأتينا من الصين خاتم ... من الاولياء للاولياء الأكابر
له رتبة فوق النبي ورتبة ... له دونه فاعجب لهذا التنافر
فرتبته العليا يقول لأخذه ... عن الله وحيا بتوسيط آخر
ورتبته الدنيا يقول لانه ... من التابعين للامور الظواهر
وقال اتباع المصطفى ليس واضعا ... لمقداره الاعلى وليس بحاقر
فان يدن منه لاتباع فانه ... يرى منه أعلى من وجوه افاجر
يرى حال نقصان له في اتباعه ... لاحمد حتى جا بهذي المعاذر
فلا قدس الرحمن شخصا يحبه ... على مايرى م نفتح هذي المخابر
وقال بأن الانبياء جميعهم ... بمشكاة هذا تستضي في الدياجر
وقال فقال الله لي بعد مدة ... بأنك أنت الختم رب المفاخر
اتاني ابتداء بيض اسطر ربنا ... بانفاذه في العالمين أوامري
وقال ولا تشغلك عني ولاية ... وكن كل شهر طول عمرك زائري
فرفدك اجزلنا وقصدك لم يخب ... لدينا فهل أبصرت ياابن الاحافر
باكذب من هذا واكفر في السورى ... واجرا على غشيان هذي الفواطر
فلا يدعى من صدقوه ولاية ... وقد ختمت فليأخذوا بالاقادر
فيالعباد الله ما ثم ذو حجى ... له بعض تمييز بقلب وناظر
اذا كان ذو كفر مطيعا كمؤمن ... فلا فرق فينا بين بر وفاجر
كما قال هذا ان كل أوامر ... من الله جاءت فهي وفق المقادر
فلم تبعث رسل وسنت شرائع ... وانزل قرآن بهذي الزواجر
أيخلع منكم ربقة الدين عاقل ... بقول غريق في الضلالة جائر
ويترك ماجاءت به رسل الهدى ... لاقوال هذا الفيلسوف المعاذر
فيامحسني ظن بما في فصوصه ... ومافي فتوحات الشرور الدوائر
عليكم بدين الله لاتصحبوا غدا ... مساعر نار قبحت من مساعر
فليس عذاب الله عذبا كمثل ما ... يمنيكم بعض الشيوخ المدابر
ولكن اليم مثل ما قال ربنا ... به الجلد ان ينضج يبدل بآخر
غدا تعلمون الصادق القول منهما ... اذا لم تتوبوا اليوم علم مباشر
ويبدو لكم غير الذي يعدونكم ... بأن عذاب الله ليس بضائر
ويحكم رب العرش بين محمد ... ومن سن علم الباطل المتهاتر
ومن جا بدين مفتري غير دينه ... فاهلك اغمارا به كالاباقر

فلا يخدعن المسلمين عن الهـــدى وما للنبـــي المصطفـى من مآثـر
ولايؤثروا غير النبـي على النبـي فليس كنـور الصبح ظلم الدياجر
دعـــوا كل ذي قول لقول محمد فمــا آمـن في دينـه بمخاطـر
وامـا رجالات الفصوص فانهـــم يقومون في بحـر من الكفـر ظاهر
اذا راح بالربـح المتابـع أحمـدا علـى هذه راحـوا بصفقة خاسـر
سيحكي لهم فرعـون في دار خلده باسلامـــه المقبـول عند التحاور
ويا أيها الصوفي خف من فصوصـه خواتـــم سوء غيرهـا في الخناصر
وخـــذ نهج سهل والجنيد وصالح وقـوم مضوا مثل النجوم الزواهر
على الشرع كانوا ليس فيهم لوحدة ولا لحلـول الحـق ذكر لذاكـر
رجـال رأوا ما الدار دار اقامـــة لقـــوم ولكـــن بلغة للمسافـر
فاحيـــوا لياليهم صـــلاة وبينوا بها خوف رب العرش صوم البواكر
مخافة يـوم مستطـــير بشـــره عبوس المحيا قمطريـر الظواهـــر
فقـد نحلت أجسادهم واذابهـــا قيام لياليهم وصـــوم الهواجـر
أولئك أهل الله فالـــزم طريقهـم وعد عن دواعي الابتداع الكوافـر

وكثير من أهل العلم ردوا على الشيخ محيي الدين ، وبينوا خطأه فيما قـال في الفصوص والفتوحات وسائر كتبه من المسائل المناقضة للشريعة ، وسيأتي بعض ذلك ان شاء الله عندما يكرر النبهاني كلامه كما هي عادته ، والله ينتقم منه ، فهـو الذي تسبب الى الخوض في هذه المباحث المفروغ عنهـا ، وأسأله تعالى أن يغفـر لنا ولكافة المسلمين .

وتشبيه النبهاني لشيخ الاسلام بابن حزم يفهم منه انه لم يرتض ابن حزم وهو الشيخ الجليل الشأن ، أوحد عصره في العلم والزهد ، صاحب التصانيف المفيـدة ، وما كان ذنبه سوى بيان مفاسد الاشاعرة واضرابهم ، وكلامه على من خالف السنة ، وربما صدر منه بعض الخطأ اجتهادا .

ومن ذا الذي ترضـى سجاياه كلها كفى المرء نبـلا أن تعد معائبـــه

ولا ينبغي من مثل النبهاني من الجهلة أن يتجاسر على من يبارى امامه فـــي العلم والزهد ، ولكنه قد اتخذ الوقاحة ديدنا قاتله الله ماأجهله وما أحمقه .

(ويقال للنبهاني ثالثا) اذ تصدى لمعارضة القصيدتين الفريدتين (احداهمـا)

للشيخ الامام العالم العلامة الحافظ ذي الفنون البديعة والمصنفات النافعة أبو المظفر يوسف بن محمد بن مسعود بن محمد بن علي بن ابراهيم العبادي ثم العقيلي السرمري نزيل دمشق الحنبلي ، وقد عارض بها الابيات التي كتبها السبكي التي أنشدها لما وقع نظره على كتاب (منهاج السنة) واستعرت في قلبه نيران الحسد .

(والاخرى) للشيخ الامام العلامة أبي عبد الله محمد بن جمال الدين يوسف الشافعي اليمني ، رد فيها على السبكي فيما قاله في ابياته تلك من الرد على شيخ الاسلام ابن تيمية ، وكلا القصيدتين قد اشتملتا من الفصاحة والبلاغة على منتهاهما مع مافيهما من الرد الوافي على السبكي ، فلو رآهما لبقي مدة عمره يبكي ، والقصيدتان طبعتا مع كتاب (منهاج السنة) فلا حاجة لنا في ذكرهما مع كون كثير من طلبة العلم يحفظونهما .

مادخولك أيها النبهاني بين الفرسان ؟ وأنت لاتقاوم لمزيد جهلك الصبيان ؟ قد عارضت بزعمك القصيدتين ، وأتيت بما لم يتكلم به ابن يومين ، اين السمك من السماك ؟ واين الحصى من درر الاسلاك ؟ واين نار الحباحب من بدور الافلاك ؟ قد مثلت ولكن كما مثل النجوم الماء ، وكما انعكس في الغدير لون السماء ، لقد حكيت ولكن فاتك الشنب ، وفي الخمر معنى ليس يدرك من العنب .

(واعلم أيها الناظر) ان الشعراء على أربع طبقات جمعها بعض أهل الادب من العلماء في قوله :

الشعراء فاعلمن اربعه ... فشاعر لاترتجى لمنفعه
وشاعر ينشد وسط المجمعه ... وشاعر يقال حمر في دعه
وشاعر آخر لايجرى معه

وقد قيل لايزال المرء مستورا وفي مندوحة مالم يصنع شعرا أو يؤلف كتابا ، لان شعره ترجمان علمه ، وتأليفه عنوان عقله ، وقال حسان بن ثابت رضي الله تعالى عنه :

وان أشعر بيت أنت قائله ... بيت يقال اذا أنشدته صدقا
وانما الشعر لب المرء يعرضه ... على المجالس ان كيسا وان حمقا

وقال محمد بن مناذر وكان اماما في الفضل والادب :

لاتقل شعرا ولا تهمم به ... فاذا ماقلت شعرا فاجد

وقال دعبل الخزاعي :

ساقضي ببيت يحمد الناس أمـــره ويكثـــر من أهـل الرواية حامله
يمـوت رديء الشعر من قبل أهله وجيده يبقـــى وان مات قائلـه

وقالوا أيضا الشعراء اربعة : فشاعر خنذيذ وهو الذي يجمع الى جودة شعـره رواية الجيد من شعر غيره ،وشاعر مفلق وهو الذي لارواية له الا انه مجود كالخنذيذ في شعره ، وشاعر فقط وهو فوق الرديء بدرجة ، وشعرور وهو لاشيء • وقيل : بل هم شاعر مفلق، وشاعر مطلق ، وشويعر ، وشعرور • والمفلق هو الذي يأتي فـي شعره بالفلق وهو العجب ، وقيل الفلق الداهية ، قا الاصمعي فالشويعر مثـــل محمو بن حمران بن أبي حمران سماه بذلك امرؤ القيس ، وقال بعضهم شاعـــر وشويعر وشعرور ، وقال العبدي في شاعر يدعى الشويعر من بني ضبة ثم من بني حميس :

الا تنهى ســراة بنـــي حميس شويعرهـــافـــو يلية الافاعـي

فسماه شويعرا وفالية الافاعي دويبة فوق الخنفساء فصغرها أيضا تحقـــيرا له ، وزعم الحاتمي ان النابغة سئل من أشعر الناس فقال من استجيد جيده واضحك رديه ، وهذا كلام يستحيل مثله عن النابغة لأنه اذا أضحك رديه كان مـن سفلـة الشعـراء الا أن يكون في الهجاء خاصة •

وقال الحطيئة يصف صعوبة الشعر :

الشعـــر صعـب وطويـل سلمه اذا ارتقـــى فيه الذي لا يعلمـه
زلـت بـه الى الحضيض قدمـــه يريـــد ان يعربـــه فيعجمـــه

وانما سمى الشاعر شاعرا لانه يشعر بما لايشعر له غيره ، واذا لم يكـن عنـد الشاعر توليد معنى ولااختراعه ولا استطراف لفظ وابتداعه ولا زياده فيما أجحف به غيره من المعاني أو نقص مما أطالهسواه من الالفاظ أو صرف معنى الى وجهعنوجه آخر كان اسم الشاعر عليه مجازا لا حقيقة ، ولم يكن له الا فضل الوزن ، وليس هو بفضل مع التقصير •

ولقي رجل آخر فقال له ان الشعراء ثلاثة : شاعر ، وشويعر ، وماص بظرامة ، فأيهم أنت ؟ قال : أما أنا فشويعر ، واختصم أنت وامرؤ القيس في الباقي ، وقـــال

بعضهم الشعر شعران جيد محكك وردي مضحك ولا شيء اثقل من الشعر الوسط والغناء الوسط ، ويقال : ان الشعر كالبحر أهون مايكون على الجاهل ، اهول مايكون على العالم ، وأتعب أصحابه قلبا من عرفه حق معرفته ، وأهل صناعة الشعر ابصر بها من العلماء بآلته من نحو وغريب ، ومثل وخبر ، وما أشبه ذلك ، ولو كانوا دونهم بدرجات فكيف أن قاربوهم أو كانوا منهم بسبب ، وقيل للمفضل الضبي لم لاتقول الشعر وأنت أعلم الناس به ؟ قال : علمي هو الذي يمنعني من قوله وأنشد:

وقد يعرض الشعر البكي لسانه ... وتعيى القوافي المرء وهو لبيب

والشعر مزلة العقول ، وذلك أن أحدا ما صنعه فكتمه ولو كان رديا ، وانما ذلك لسروره به واكباره اياه ، وهذه زيادة في فضل الشعر وتنبيه على قدرة وحسن موقعه من كل نفس ، ومن نظر لشعر النبهاني ممن له ذوق وسليقة علم أن الرجل ليس بشاعر ولا شويعر ولا ولا ، لانه مفلس من كل فضيلة ، وتبين له من نظمه انه لايعلمه ، وانه قد زلت به الى الحضيض قدمه ، من ذلك قوله في أول قصيدته وهو أحد المواضع التي يجب التأنق فيها والاعتناء بشأنها :

فان تعن ثعلبا يسطو على أسد ... أو تخذل الليث لايقوى لثعلبه

فانظر الى قوله فان تعن ثعلبا ماأقبح وقعه في هذا المقام ، وقد خاطب الملك العلام ، وقد رضي أن ينزل هو بمنزلة الثعلب وهو كلب من الكلاب ، ويكفيه ذلك سخافة لعقله وفضيحة بين أولي الالباب ، ولو أخذنا نناقشه بمثل هذه الكلمات لطال الكلام في هذا المقام وضاع المقصود وفات ، وللشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم والصناعات : منها ماتثقفه العين ، ومنها ماتثقفه الاذن ، ومنها ماتثقفه اليد ، ومنها مايثقفه اللسان ، من ذلك اللؤلؤ والياقوت لايعرف بصفة ولا وزن دون المعاينة ممن يبصره ، ومن ذلك الجهبذة بالدينار والدرهم لاتعرف جودتهما بلون ولا مس ، ولا طراءة ولا دنس ، ويعرفه الناقد عند المعاينة فيعرف بهرجها وزائفها ، وستوقها ومفرغها ومنه البصر بأنواع المتاع وضروبه وصنوفه مع تشابه لونه ومسه وذرعه واختلاف بلاده ، حتى يرد كل صنف منها الى بلده الذي خرج منه ، وكذلك بصر الرقيق ، فتوصف الجارية فيقال ناصعة اللون ، جيدة الشطب ، نقية الثغر ، حسنة العين والانف ، لطيفة النهدين ، ظريفة اللسان ، واردة الشعر ، فتكون بهذه الصفة بمائة دينار ، أو بمائتي دينار ، وتكون أخرى بألف دينار ، أو بألفي دينار ،

ولكن لايجد واصفها مزيدا على هذه الصفة ، وتوصف الدابة فيقال : خفيف العنان ، لين الظهر ، شديد الحافر ، فتي السن ، نقي من العيوب ، فيكون بخمسين دينارا أو نحوها ، وتكون أخرى بمائتي دينار أو أكثر ، وتكون هذه صفتها أيضا ، ويقال للرجل والمرأة في القراءة والغناء انه لندى الحلق ، طويل الصوت ، طويل النفس ، مصيب اللحن ، ويوصف الآخر أو الاخرى بهذه الصفة وبينهما بون بعيد ، يعرف ذلك أهل العلم به عند المعاينة والاستماع بلا صفة ينتهي اليها ، ولا علم يوقف عليه ، وان كثرة المدارسة لتعين على العلم به ، وكذلك الشعر يعلمه أهل العلم به •

وقال بعض الحذاق :ليس للجودة في الشعر صفة ، انما هي شيء يقع في النفس عند المميز ، كالفرند في السيف ، والملاحة في الوجه •

والمقصود أن قصيدة النبهاني التي زعم أنه عارض بها القصيدتين ليست من الشعر في شيء ، انما هي ألفاظ خالية من المعاني ، وقد ذكرنا لك بيت قصيده وهو قوله : فان تعن ثعلبا البيت • وهو كلام ليس عليه طلاوة ، ولا يدرك له حلاوة، ومعناه معنى مغسول ، بل كله حشو وفضول ، فقبحه الله وقبح شعره •

وما تضمنته قصيدته من انكار صفة العلو لله تعالى وادعاء جواز الاستغاثة بغير الله تعالى سبق البحث عنه والكلام فيه بما لامزيد عليه ، وسيأتي أيضا تتمة للكلام عن الاستغاثة انشاء اللهتعالى •

(قال النبهاني) ومن كتب الامام ابن تيمية (كتاب العرش) قال في (كشف الظنون) ذكر فيه ان الله سبحانه وتعالى يجلس على العرش ، وقد اخلى مكانا يقعد معه فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما ذكر ذلك أبو حيان في النهر عند الكلام على قوله تعالى : (وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ) وقال : قرأت في كتاب العرش لأحمد بن تيمية ماصورته بخطه ، انتهت عبارة كشف الظنون ، ثم نقل عن الزبيدي أنه قال في شرح الاحياء ــ عند قول الامام الغزالي في عقيدته قواعد العقائد ــ الاصل الثامن :العلم بأن الله تعالى مستو على العرش ،قال: قال تقي الدين السبكي و (كتاب العرش) من أقبح كتب ابن تيمية الخ • ثم نقل نص (جلاء العينين) في تبرية الحنابلة عن القول بالجسمية ، وما نقله العلامة الكوراني في ذلك ، ثم اعترض النبهاني على ذلك بما كشف به عن حقيقة جهله ، وانه لم يعرف من العلم شيئا ، ثم هذى هذيانا في هذا الباب كرره عدة مرات •

(والجواب أن يقال للنبهاني) هذا المطلب من المطالب العالية ، وقد أشبعنا الكلام عليه سابقا عند الكلام على رسالته التي زعم أنه رد بها على من يقول بصفة العلو ،وان النبهاني ليس من رجال هذا الميدان ، وانه ظالع ولا يدرك الظالع شأو الضليع ، وفي (جلاء العينين) كلام أيضا مفصل في هذا الباب يكتفي بمثله الفطن اللبيب ، وفيه نبذة من كلام شيخ الاسلام في (كتاب العرش) وهو الكتاب الذي لم يؤلف مثله في هذا الموضوع وفي ذلك مايكذب مانقله النبهاني عن الزبيدي وغيره. والسبكي حاله في النقل معلوم، وهذه كتب شيخ الاسلام في كل فن بين الايدي والحمد لله ، ففي أي كتاب قال ان الله يجلس على العرش وانه قد أخلى مكانا يقعد معه فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ وفي أي كتاب رآه أبو حيان من كتب الشيخ .

والحاصل : أن مثل هذا النقل يجب على الناقل تصحيحه كما هو مقتضى قوانين المناظرة ، وبعد التصحيح تتكلم عليه ، وكيف يمكن تصحيحه وكتب الشيخ مصرحة بخلافه كما لايخفى علىمن تتبع كتبهوأقواله .

قال شيخ الاسلام ــ قدس الله روحه ــ ماأخبر به الرسول عن ربه فانه يجب الايمان به ، سواء عرفنا معناه او لم نعرف ، لانه الصادق المصدوق ، فما جاء في الكتاب والسنة وجب على كل مؤمن الايمان به وان لم يفهم معناه ، وكذلك ماثبت باتفاق سلف الامة وأئمتها، معأن هذا الباب يوجد عامته منصوصا في الكتاب والسنة ، متفقا عليه بين سلف الامة ، وما تنازع فيه المتأخرون نفيا واثباتا فليس على أحد ، بل ولا له أن يوافق أحدا على اثبات لفظ او نفيه حتى يعرف مراده ، فان أراد حقا قبل ، وان أراد باطلا رد ، وان اشتمل كلامه على حق وباطل لم يقبل مطلقا ولم يرد جميع معناه ، بل يوقف اللفظ ويفسر المعنى ، قال : كما تنازع الناس في الجهة ، فلفظ الجهة قد يراد به شيء موجود غير الله فيكون مخلوقا كما اريد بالجهة نفس العرش او نفس السموات ، وقد يراد به ماليس بموجود غير الله تعالى كما اذا اريد بالجهة مافوق العالم ، ومعلوم أنه ليس في النص اثبات لفظ الجهة ولا نفيه ، كما فيه اثبات العلو والاستواء والفوقية والعروج اليه ونحو ذلك ، وقد علم أنه ماثم موجود الا الخالق والمخلوق ، والخالق مباين المخلوق سبحانه وتعالى ، ليس في مخلوقاته شيء من ذاته ولا في ذاته شيء من مخلوقاته ، فيقال لمن نفى الجهة : أتريد بالجهة انها شيء موجود مخلوق فالله ليس داخلا في المخلوقات،أم تريد بالجهة ماوراء

العالم فلا ريب أن الله فوق العالم بائن من المخلوقات ، وكذلك يقال لمن قال الله في جهة ، أتريد بذلك أن الله فوق العالم أو تريد أن الله داخل في شيء من المخلوقات فان أردت الاول فهو حق ، وان أردت الثاني فهو باطل ، وكذلك لفظ المتحيز ان أراد به أن الله تحوزه المخلوقات فالله أعظم وأكبر ، قد وسع كرسيه السموات والارض، وقد قال تعالى : (وما قدَروا اللّهَ حقَّ قدْرِه والأَرضُ جميعاً قبضَتُه يومَ القيامةِ والسّمٰواتُ مطْويّاتٌ بيمينه)[1] وقد ثبت في الصحاح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (يقبض الله الارض ويطوي السموات بيمينه ، ثم يقول : أنا الملك ، أين ملوك الارض) وفي حديث ابن عباس رضي الله عنه (ماالسموات السبع والارضون السبع وما فيهن في يد الرحمن الا كخردلة في يد أحدكم) وفي حديث آخر : (وانه ليدحوها كما يدحو الصبيان بالكرة) قال : وان أراد به أنه منحاز عن المخلوقات أي مباين لها ومنفصل عنها ليس حالا فيها فهو سبحانه ــ كما قال أئمة السنة ــ فوق سمواته على عرشه بائن من خلقه ، كما ذكره في التدمرية .

وقال شيخ الاسلام في (التدمرية) أيضا : أما علوه تعالى ومباينته للمخلوقات فيعلم بالعقل ، وأما الاستواء على العرش فطريق العلم به هو السمع، وليس في الكتاب والسنة وصف له بأنه لاداخل العالم ولا خارجه ، ولا مباينه ولا مداخله ، فيظن المتوهم أنه اذا وصف بالاستواء على العرش كان استواؤه كاستواء الانسان على ظهور الفلك والانعام ، كقوله : (وجَعَلَ لكمُ مِنَ الفُلْكِ والأَنعام ما تَركَبونَ . لِتَسْتَوُوا على ظُهورِهِ)[2] فيتخيل أنه اذا كان مستويا على العرش كان محتاجا اليه كحاجة المستوى على الفلك والانعام ، فتعالى الله وتقدس ، فهذا خطأ في مفهوم استوائه تعالى على العرش حيث ظن أنه مثل استواء الانسان ، فانه ليس في اللفظ مايدل على ذلك ، لأنه تعالى أضاف الاستواء الى نفسه الكريمة كما أضاف اليه سائر أفعاله وصفاته ، فذكر أنه خلق ثم استوى كما ذكر أنه قدر فهدى ، فلم يذكر استواء مطلقا يصلح للمخلوق ولا عاما يتناول المخلوق ، كما لم يذكر مثل ذلك في سائر صفاته .

وقد علم أنه تعالى الغني عن الخلق ، وأنه الخالق للعرش ولغيره ، وأن كل

---

(١) الزمر : ٦٧ (٢) الزخرف : ١٢ ، ١٣

ما سواه مفتقر اليه ، وهو الغني عن كل ماسواه ، فكيف يجوز أن يتوهم أنه تعالى اذا كان مستويا على العرش كان محتاجا اليه ، تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا ، هل هذا الا جهل محض وضلال ممن فهم ذلك وتوهمه أو ظنه ظاهر اللفظ أو جوزه على رب العالمين الغني عن الخلق المجيد المتعال ؟ انتهى •

وقد ذكر في تفسير آية الكرسي ــ وهو مجلد كبير ــ مثل ذلك ، وهكذا في كثير من كتبه ، ولم نر في شيء من كتبه ما نقله النبهاني الأفاك انه قال ان الله يجلس على العرش وانه قد اخلى مكاناً يقعد معه فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بل ولا ذكره أحد ممن ينتمي اليه من تلامذته وأصحابه ، كالحافظ ابن القيم وكتبه هاهي بين الايدي ، وكالحافظ الذهبي وكتبه في البلاد والاقطار منتشرة ، وكالحافظ الامام ابن قدامة ، وكالحافظ ابن كثير ، وغيرهم ممن لايحصون كثرة ، والعجب ممن لايلتفت الى صريح كلامه ونص عبارته ، ويعتبر مايسمعه من أفواه خصومه وأعدائه ، كابن حجر المكي والسبكي والزبيدي ونحوهم من الغلاة ، وترى هؤء يدافعون عن بعض المتصوفة وقد تكلموا بكلمات الكفر ، فيجهدون كل الجهد في تأويلها ، ويتعسفون في تصحيحها ، ويحتجون على ذلك بأنهم تكلموا أحيانا بما يوافق الحق ، حتى اني تكلمت يوما مع بعض الغلاة فيما قاله صاحب الفصوص والفتوحات من الكلمات المصرحة بالحلول والاتحاد ، وذكرت له ماقاله فيها العلامة السعد التفتازاني ، والشيخ علي القاري ، والشيخ محمد البخاري وغيرهم • فقال : ان هؤلاء لم ينصفوا ، فان صاحب الفصوص قدصرح بعقيدة الاسلام في كثير من كتبه ، فمن الواجب أن نصرف مانسمع من كلامه المخالف للحق الى مايوافقه ، ونحمله على محمل حسن ، كما اولوا قوله سبحان من أظهر الاشياء وهو عينها أي عين وجودها الماسك لها ، ونحو ذلك صيانة لهؤلاء الكمل من الوقيعة فيهم • فقلت: فما قولك في مسلم يصلي ويصوم ويزكي ويحج البيت وقد تكلم بالكفر هل تؤل كلامه وتصرف عنه موجب الكفر ؟ أم تقول بما قاله الفقهاء في كتاب الردة ؟ ثم انكم لم تذبوا عن ابن تيمية وتعتذروا عنه بمثل ما اعتذرتم عن شيخكم ، وقد ملأ الكتب من الايمان بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وتتشبثون بالقدح فيه بما زوره عليه أئمتكم مما لا وجود له في كتبه ولا كتب أصحابه ، فكان من الواجب عليكم أنه اذا ثبت عنه شيء مذكور في كتبه أن تجتهدوا في حمله على محمل حسن ، ولم تشتموه كما شتمه أئمتكم واسلافكم ، فلم يجب بشيء واعرضت عن مكالمته •

ثم ان الذي نقلناه عنه مما هو مذكور في كتاب العرش ، وتفسير آية الكرسي، والتدمرية ، وغير ذلك من كتبه قد قال به السلف ، وصرح به كثير من المتأخرين أيضا .

قال الامام أبو العباس عماد الدين أحمد الواسطي الصوفي المحقق العارف تلميذ شيخ الاسلام ابن تيمية ـ قدس الله سرهما ، وهو الذي قال فيه شيخ الاسلام انه جنيد زمانه ـ في رسالته نصيحة الاخوان ما حاصله : ان الله عز وجل كان ولا مكان ، ولا عرش ولا ماء ، ولا فضاء ولا هواء ، ولا خلاء ولا ملاء ، وانه كان منفردا في قدمه وأزليته ، متوحدا في فردانيته ، لايوصف بأنه فوق كذا اذ لاشيء غيره ، وهو تعالى سابق التحت والفوق اللذين هما جهتا العالم ، وهو لازمان له تعالى ، وهو تعالى في تلك الفردانية منزه عن لوازم الحدث وصفاته ، فلما اقتضت الارادة المقدسة خلق الاكوان المحدثة المخلوقة المحدودة ذات الجهات اقتضت الارادة أن يكون الكون له جهات من العلو والسفل ، وهو سبحانه منزه عن صفات الحدث ، فكون الاكوان ، وجعل جهتي العلو والسفل ، واقتضت الحكمة الالهية أن يكون الكون في جهة التحت لكونه مربوبا مخلوقا ، واقتضت العظمة الربانية أن يكون هو تعالى فوق الكون باعتبار الكون لا باعتبار فردانيته ، اذ لا فوق فيها ولا تحت .

والرب سبحانه وتعالى كما كان في قدمه وازليته وفردانيته لم يحدث له في ذاته ولا في صفاته مالم يكن في قدمه وأزليته ، فهو الآن كما كان لما أحدث المربوب المخلوق ، ذا الجهات والحدود والخلا والملا ، ذا الفوقية والتحتية : كان مقتضى حكم العظمة والربوبية ان يكون فوق ملكه ، وان تكون المملكة تحته باعتبار الحدوث من الكون لا باعتبار القدم من المكون ، فاذا أشير اليه بشيء يستحيل ان يشار اليه من جهة التحتية أو من جهة اليمنة أو من جهة اليسرة ، بل لايليق أن يشار اليه الا من جهة العلو والفوقية ، ثم الاشارة هي بحسب الكون وحدوثه وأسفله ، فالاشارة تقع على أعلى جزء من الكون حقيقة ، وتقع على عظمة الله تعالى كما يليق به ، لا كما يقع على الحقيقة المحسوسة عندنا في أعلى جزء من الكون فانها اشارة الى جسم ، وتلك اشارة الى اثبات ، اذا علم ذلك فالاستواء صفة كانت له سبحانه وتعالى في قدمه ، لكن لم يظهر حكمها الا بعد خلق العرش ، كما أن الحساب صفة قديمة لايظهر حكمها الا في الآخرة ، وكذلك التجلي في الآخرة لايظهر حكمه الا في محله .

قال : فاذا علم ذلك فالامر الذي تهرب المتأولة منه ــ حيث اولوا الفوقية بفوقية المرتبة والاستواء بالاستيلاء ــ فنحن أشد الناس هربا من ذلك ، وتنزيها للباري تعالى عن الحد الذي لايحصره ، فلا يحد بحد يحصره ، بل بحد تتميز به عظمة ذاته عن مخلوقاته ، والاشارة الى الجهة انما هي بحسب الكون وأسفله ، اذ لاتمكن الاشارة اليه الا هكذا ، وهو في قدسه سبحانه منزه عن صفات الحدث ، وليس في القدم فوقية ولا تحتية ، وانما من هو محصور في التحت لايمكنه معرفة باريه الا من فوقه ، فتقع الاشارة الى العرش حقيقة اشارة معقولة ، وتنتهي الجهات عند العرش ، ويبقى ماوراءه لايدركه العقل ولا يكيفه الوهم ، فتقع الاشارة عليه كما يليق به مجملا مثبتا لا مكيفا ممثلا .

قال : فاذا علمنا ذلك واعتقدناه تخلصنا من شبهة التأويل ، وعماية التعطيل ، وحماقة التشبيه والتمثيل ، وأثبتنا علو ربنا وفوقيته ، واستواءه على عرشه كما يليق بجلاله وعظمته ، والحق واضح في ذلك ، والصدر ينشرح له ، فان التحريف تأباه العقول الصحيحة ، مثل تحريف الاستواء بالاستيلاء وغيره ، والوقوف في ذلك جهل وغي ، مع كون الرب وصف نفسه بهذه الصفات لنعرفه بها ، فوقوفنا عن اثباتها ونفيها عدول عن المقصود منه في تعريفنا اياها ، فما وصف لنا نفسه بها الا لنثبت ما وصف به نفسه لنا ولا نقف في ذلك .

قال : وكذلك التشبيه والتمثيل حماقة وجهالة فمن وفقه الله للاثبات فلا تحريف ولا تكييف ولاوقوف ، فقد وقع على الامر المطلوب منه ان شاء الله تعالى ، والله أعلم . انتهى .

وذكر شيخ الاسلام في كتابه في العرش كلاما مفيدا أحببنا نقله في هذا المقام اكمالا للفائدة ماحاصله : اختلف في العرش هل هو كري كالافلاك فيكون محيطا بها ، واما أن يكون فوقها وليس هو كريا ، فان كان الاول فمن المعلوم باتفاق من يعلم ان الافلاك مستديرة كرية الشكل ان الجهة العليا هي جهة المحيط وهو المحدد ، وأن الجهة السفلى هي المركز ، وليس للافلاك الا جهتان العلو والسفل فقط ، وأما الجهات الست فهي للحيوان وليس لها في نفسها صفة لازمة ، بل هي بحسب الاضافة فيكون يمين هذا مايكون يسار هذا ، ويكون أمام هذا مايكون خلف هذا ، ويكون فوق هذا مايكون تحت هذا ، لكن جهة العلو والسفل للافلاك لاتتغير ، فالمحيط

هو العلو والمركز هو السفل ، مع أن وجه الارض التي وضعها الله للانام وارساها بالجبال هو الذي عليه الناس ، والبهائم ، والشجر ،والنبات ، والجبال ، والانهار الجارية • فاما الناحية الاخرى من الارض فالبحر محيط بها ، وليس هناك شيء من الآدميين وما يتبعهم ، ولو قدر أن هناك أحد لكان على ظهر الارض ولم يكن من في هذه الجهة تحت من في هذه الجهة ، ولا من في هذه تحت من في هذه ،كما أن الافلاك محيطة بالمركز ، وليس أحد جانبي الفلك تحت الآخر ، ولا القطب الشمالي تحت القطب الجنوبي ولا بالعكس •

وان كان الشمالي هوالظاهر لنا فوق الارض وارتفاعه بحسب بعد الناس عن خط الاستواء ، فما كان بعده عن خط الاستواء ثلاثين درجة مثلا كان ارتفاع القطب عنده ثلاثين درجة ، وهو الذي يسمى عرض البلد •

فاذا قدر أن العرش مستدير محيط بالمخلوقات كان هو أعلاها وسقفها ، وهو فوقها مطلقا ، فلا يتوجه الانسان اليه والى ما فوقه الا من العلو من جهاته الباقية ، ومن توجه الى الفلك التاسع او الثامن أو غيره من غير جهة العلو كان جاهلا باتفاق العقلاء ، فكيف بالتوجه الى العرش أو الى مافوقه ، وغاية ما يقدر أن يكون كرى الشكل ، والله تعالى محيط بالمخلوقات كلها احاطة تليق بجلاله ، فان السموات السبع والارض في يده أصغر من الحمصة في يد أحدنا •

قال ابن عباس رضي اللهعنهما (ما السموات السبع وما فيهن وما بينهن في يد الرحمن الا كخردلة في يد أحدكم) • وهذا الاثر وامثاله معروف في كتب الحديث •

قال شيخ الاسلام : ومن المعلوم ان الواحد منا ــ ولله المثل الاعلى ــ اذا كان عنده خردلة ان شاء قبضها فأحاطت بها قبضته ، وان شاء لم يقبضها بل جعلها تحته ، فهو في الحالين مباين لها ، والعرش ــ سواء كان هذا الفلك التاسع الذي هو الفلك الاطلس عند الفلاسفة ويسمونه الفلك الاعظم وفلك الافلاك أو كان جسما محيطا بالفلك التاسع او كان فوقه من جهة وجه الارض ــ غير محيط به •

فيجب على كل حال أن يعلم أن العالم العلوي والسفلي بالنسبة الى الخالق في غاية الصغر ، كما قال تعالى : (وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ والأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمواتُ مَطْوِيّاتٌ بِيَمِيْنِهِ)

وفي ذلك من الاحاديث ما سيأتي ذكر بعضها ، وسواء قـدر أن العـرش محيط بالمخلوقات كاحاطة الكرة بما فيها ، أو قيل انه فوقها وليس محيطا بها كوجه الارض الذي نحن عليه بالنسبة الى جوفها وكالقبة بالنسبة الى ماتحتها ، أو غير ذلك ، فعلى التقديرين يكون العرش فوق المخلوقات والخالق سبحانه وتعالى فوقه ، والعبـد في توجهه الى الله يقصد العلو دون التحت •

ثم قال شيخ الاسلام في آخر (كتاب العرش) قد تبين أنه سبحانه وتعالى أعظم وأكبر من أن تكون المخلوقات عنده بمنزلة داخل الفلك في الفلك ، وأنها أصغر عنده من الحمصة أو الفلفلة ونحو ذلك في يد أحدنا ، فاذا كانت الحمصة أو الفلفلة بـل الدرهم والدينار والكرة التي يلعب بها الصبيان ونحو ذلك في يد انسان أو تحته أو نحو ذلك هل يتصور عاقل ــ اذا استشعر علو الانسان على ذلك واحاطته به ــ ان يكون الانسان كالفلك ، فالله تعالى ــ وله المثل الاعلى ــ أعظم من أن يظـن ذلك به ، وانما يظنه الذين لم يقدروا الله حق قدره ، والارض جميعا قبضته يوم القيامة ، والسموات مطويات بيمينه ، سبحانه وتعالى عما يشركون ، انتهى •

وقد تبين من هذه النقول أن البحث دقيق ، فلهذا لم يفهمه كثير من أهل العلم فضلا عن النبهاني ، فكلامه الذي اقتضى اعادة القول ، فاللوم عليه لا علينا ، والله الموفق •

هذا آخر الجزء الاول من كتاب (غاية الاماني ، في الرد على النبهاني) ونسأله تعالى التوفيق لاكماله ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله •

(وكان الفراغ منه على يد مؤلفه في رمضان سنة ١٣٢٥)



(تم المجلد الاول ويليه المجلد الثاني)

(وأوله : الرد على ماانتقده الخصم على كتاب اغاثة اللهفان الخ)

الطبعة الثانية عام ١٣٩١ هـ





الفهرس

الصحيفة		الموضـوع
٣٩ ، ٤٠	:	الامر الخامس : أن كثيرا ممن يظهر عقيدة الغلاة وينتصر لهم زنادقة ، ايضاح هذا الامر ببعض الادلة والامثلة •
٤١ — ٤٧	:	الامر السادس : أن من مكائد الغلاة وعبدة القبور للجهال والعوام أنهم يقولون لهم ان المخالفين لهم لم تزل تصيبهم النكبات والمصائب ، ويمثلون بابن تيمية وأشباهه بخلاف من سلك مسلكهم فانهم منعمون ممتعون •
٤٢ — ٤٧	:	رد المؤلف لهذا الكلام ، وبيان أن كثيرا من الائمة والعلماء حصل لهم نكبات ولم يحط ذلك من قدرهم •
٤٧	:	بيان أن ماأصاب ابن تيمية وأصحابه هو مما يزيد ذوي الالباب بصيرة على علو قدره •
٤٧ — ٥٤	:	الامر السابع : أن من علم حال النبهاني لم يلتفت لما ذكره لجهله وغباوته ، ايضاح هذا الامر ، وذكر شيء من أحوال النبهاني •
٥٤ — ٥٨	:	الامر الثامن : لابد للمتناظرين من مرجع يكون بينهما يرجعان اليه عند التنازع ، وهو الكتاب والسنة ، شرح هذا الموضوع بالادلة ، وذكر كلام بعض العلماء •
٥٦ ، ٥٧	:	ايراد ماذكره شمس الدين في هدايته : من أن جميع النبوات متفقة على أصول ، ذكر ثمانية عشر أصلا •
٥٨ — ٦٠	:	بدء المؤلف في ايراد كلام النبهاني حول انكاره للاجتهاد المطلق والتشنيع عليه •
٦٠	:	رد المؤلف لهذا الكلام من وجوه ، الوجه الاول : رد دعوى نسبة الاجتهاد للوهابية •
٦٠ ، ٦١	:	الوجه الثاني أن الكلام على الاجتهاد مفروغ منه ، وماشترطه الاصوليون ممكن ، ولم يقولوا بسد باب الاجتهاد •
٦١ — ٦٤	:	الوجه الثالث : أن القول بسد باب الاجتهاد قول باطل ،

الصحيفة		الموضــوع
٧٨ — ٨٦	:	الكلام على كتب التفسير ، والاحتياج الى تفسير موافق لافكار أهل العصر .
٨٦ — ٩٢	:	الكلام على قول النبهاني ان الذي يتصدى لطلب تفسير مشتمل على العلوم العصرية ملحد ، شرح هذا الموضوع مع ذكر بعض الادلة ، والاستشهاد على ذلك بكلام جيد لشيخ الاسلام ابن تيمية .
٩٢ — ١٢٠	:	الكلام على قول النبهاني أن الوهابية مبتدعة غير أن ضررهم دون من قبلهم .
٩٢ — ١٠٨	:	الاستشهاد على بطلان قول النبهاني بكلام للشيخ عبد اللطيف بن حسن بين فيه تمسك الشيخ محمد بن عبد الوهاب بمذهب السلف وزيغ خصومه وضلالهم .
١٠٩ — ١٢٠	:	ايراد بعض القصائد الدالة على أن النبهاني وأضرابه هم المبتدعة وأهل الشرك والضلال .
١٢٠	:	تغليط النبهاني في قوله انه لم يطبع من كتب الشيخين الا عشرة كتب .
١٢١ ، ١٢٢	:	التنبيهات التي اشتمل عليها القسم الثاني من مقدمة كتاب النبهاني وهي اثنا عشر تنبيها .
١٢٢ — ١٢٤	:	رد المؤلف لبعض ماجاء في تلك التنبيهات .
١٢٤		الكلام على الباب الذي عقده النبهاني في اثبات مشروعية السفر لزيارة قبره صلى الله عليه وسلم .
١٢٤ — ١٣٠		بدء المؤلف في رد ماجاء في هذا الباب ، والاشارة الى أن النبهاني يستدل بأشياء مردودة .
١٢٤ — ١٣٠	:	ايراد كلام لابن القيم يناسب هذا المقام وقد ذكر فيه عشرة أسباب من شأنها منع قبول الحق مع العلم به .
١٣١ — ٢١٣	:	ايراد المؤلف لما قاله ابن تيمية في الزيارة للاستدلال به على بطلان مانسبه الخصوم لابن تيمية وزوروه عليه .

الصحيفة		الموضـــوع
١٣١ ـ ١٦٠	:	ماأورده من ذلك عن كتاب (الجواب الباهر) وهو يشتمل على منع شد الرحل لزيارة القبور ، والرد على من قــال بمشروعية ذلك •
١٣٣ ـ ١٣٩	:	وجوب التفريق بين الزيارة الشرعية والزيارة البدعية •
١٣٩ ـ ١٤٢	:	حكم السفر الى القبور وبيان ما عليه السلف الصــالح في ذلك •
١٤٢ ـ ١٤٥	:	ايضاح أن الصحابة لم يطمع الشيطان فيهم كمـا طمـع في غـيرهم •
١٤٦ ـ ١٥٤	:	بيان أن القول بأن هذا الفعل مستحب أو منهي عنه أو مباح لايثبت الا بدليل شرعي •
١٥٥ ـ ١٥٨	:	الزيارة المتضمنة لترك مأمور أو فعل محظور ليست مشروعة، شرح هذا الموضوع وبيان اختلاف حكم الزيارة باختــلاف المقاصد •
١٥٨ ـ ١٦٠	:	الزيارة الشرعية ، والزيارة المنهــي عنها ، وأنــواع الزيارة الثلاثة •
١٦٠ ـ ٢١٣	:	ماأورده المؤلف من كلام شيخ الاسلام في رده على المعترض المالكي فيما ذهب اليه من مشروعية السفر الى القبور •
١٦٠ ـ ١٩٤	:	تسعة وجوه في الرد على أدلة المعترض المالكي وماذهب اليه•
١٩٤ ـ ٢٠٤	:	رد ماقاله المعترض المالكي من تضافر النصوص عن الصحابة والتابعين والمجتهدين وابطال وجه استدلاله بذلك على مـا ذهب اليه ، شرح المقام ببيان المشروع من الزيارة والصـلاة والسلام على النبي (ص) والممنوع من ذلك •
٢٠٤ ـ ٢١٣	:	رد ماastدل به المعترض المالكي في زيــارة قبر النبي (ص) بالقياس على زيارة الحي ، شـــرح هذا المقام ببيــان الجائز والممنوع من ذلك •
٢١٣ ، ٢١٤	:	بيان وجه الاستدلال بالنقول المتقدمة على بطـلان كـلام

الصحيفة		الموضوع
		النبهاني •
٢١٤ ــ ٢٢١	:	رد الامام ابن قدامة على القول بأن الزيارة تعظيم ، وتعظيم النبي (ص) واجب ، فتكون الزيارة مشروعة ، شرح هذا المقام باثني عشر وجها •
٢٢١ ــ ٢٣١	:	تكذيب وابطال الخرافة المنسوبة لأحمد الرفاعي من مد يده الى النبي (ص) ورؤيته له ، شرح هذا المقام ، وبيان بطلان دعوى رؤية النبي (ص) يقظة بعد موته •
٢٣١ ــ ٢٤٩	:	فضل المدينة ورجحان مذهب أهلها •
٢٣٢ ــ ٢٤٩	:	جملة من كلام ابن تيمية في هذا الموضوع •
٢٣٤ ــ ٢٣٨	:	التحقيق في مسألة اجماع أهل المدينة أنه على أربع مراتب ، ذكر هذه المراتب •
٢٣٨ ــ ٢٤٩	:	جملة من التعليلات لكون قول أهل المدينة أصح الاقوال رواية ورأيا •
٢٥٠ ــ ٢٥٥	:	الجواب عما ذكره النبهاني من مشروعية الاستغاثة بالنبي صلى الله عليه وسلم •
٢٥٥		الكلام على حديث (أسألك بحق السائلين عليك وبحق ممشاي هذا) الحديث •
٢٥٦		بيان أن الاستغاثة بمخلوق فيما لايقدر عليه الا الله لاتجوز•
٢٥٦ ، ٢٥٧	:	تعريف العبادة لغة واصطلاحا ، وبيان أنها تجمع أصلين ، وأن لها مرتبتان •
٢٥٨ ــ ٢٦١	:	توحيد الله بالتعظيم على ثلاثة أقسام ، شرح هذه الاقسام ، وايراد كلام لابن القيم يتعلق بالمقام •
٢٦١ ، ٢٦٢	:	رد ماستدل به النبهاني من كلام بعض العلماء لاثبات الاستغاثة بغير الله ، وما تعلق به من الشبهة في ذلك •
٢٦٢ ، ٢٨٨	:	كلام للشيخ عبد اللطيف من (منهاج التأسيس) أورده المؤلف للاستشهاد به على رد الشبهة التي تعلق بها النبهاني

الصحيفة		الموضـــوع
		وأمثاله •
٢٨٩		ذكر شبه أخرى للمجوزين للاستغاثة بغير الله وابطالها •
٢٨٩ ـ ٣٠٠	:	ايراد المؤلف لجملة من كلام الشيخ محمد بن عبد الوهاب في (كشف الشبهات) للاستشهاد به على بطلان تلك الشبـه وردها •
٣٠٠ ـ ٣٠٢	:	رد بعض الشبه حـول زيارة قبـور الصالحين والانتفـاع بزيارتها •
٣٠٣ ـ ٣٠٥	:	رد ماانتقده النبهاني وأضرابه على الشيخ محمد بن عبـد الوهـاب •
٣٠٦ ـ ٣٠٩	:	الجواب عما قيل من أن بعض الناس اعتنوا بالرد عاى الشيخ محمد بن عبد الوهاب •
١٠٧ ـ ٣٠٩	:	ايراد جملة من كلام الشيخ عبد اللطيف (في المنهاج) للرد به على الخصوم •
٣٠٩ ، ٣١٠	:	الجواب عن مازعمه النبهاني من أن علماء المذاهب الاربعـة ردوا على ابن تيمية •
٣١٠ ـ ٣٢٧	:	ذكر المجالس التي انعقدت لمناظرة الشيخ بن تيمية في عقيدته الواسطية •
٣٢٧ ـ ٣٢٩	:	الجواب عن ماذكره النبهاني من أن بعض الائمة تكلـم في حق ابن تيمية •
٣٢٩ ـ ٣٣٢	:	ايراد قصيدتين للرد بهما على أبيات السبكي التي قالهـا في حق ابن تيمية •
٣٣٢ ـ ٣٣٦	:	ذم بن قدامة لكتاب (شفاء السقام) للسبكي •
٣٣٦ ـ ٣٤٧	:	رد ماأورده النبهاني من كلام السبكـي في حـق ابن تيمية وكتابه (العقل والنقل)
٣٤٦	:	الجواب عما استشكل من كون الباري جل وعلا سمع العبد وبصره الوارد في حديث (كنت سمعه الذي يسمع به وبصره

الصحيفة		الموضـــوع

الصحيفة		الموضـــوع
		والابدال .. الخ .
٤٢٤ ــ ٤٣٦	:	الكلام على ماجاء من تحذير النبهاني عن مطالعة (منهاج السنة) و (العقل والنقل) لابن تيمية ، وكتاب (جلاء العينين) .
٤٢٨ ــ ٤٣٥	:	المراد بالسنة وأهلها ،و البدعة وأهلها ، ايراد كلام لابن تيمية في ذلك .
٤٣٥ ، ٤٣٦	:	ايضاح أن شيخ الاسلام لم يرد الا على من خالف الشريعة .
٤٣٦	:	رد مانسبه النبهاني لشيخ الاسلام من القول بالجهة .
٤٣٦ ــ ٤٤١	:	رد ماتكلم به النبهاني في شأن (جلاء العينين) ومصنفه .
٤٤٢ ــ ٤٧٨	:	نزاع العلماء في مسألة العلو ، والاستواء ، والنزول ، وانكار القول بالجهة .
٤٤٢	:	مازعمه النبهاني من نسبة القول بالجهة لشيخ الاسلام .
٤٤٢ ــ ٤٤٦	:	بدء الجواب عن ذلك ، وبيان أن مسألة العلو ، والاستواء والنزول : من غوامض المسائل ، شرح ذلك ببعض الادلة والنقول .
٤٤٧	:	شرح لفظ الجهة ، يجب تنزيه الله عن مشابهة المخلوقين .
٤٤٧	:	كلام ابن القيم على مسألة العلو وايراده لكلام الأئمة .
٤٤٨	:	كلام الامام أبي حنيفة في ذلك .
٤٥٠	:	قول الامام مالك وأئمة أصحابه ، وقول أبي عمر الطلمنكي في ذلك .
٤٥٠ ــ ٤٥٤	:	قول ابن عبد البر في ذلك .
٤٥٥ ــ ٤٥٨	:	قول الامام القيرواني في ذلك .
٤٥٨ ، ٤٥٩	:	قول الامام محمد بن وهب المالكي في ذلك .
٤٥٩ ــ ٤٦٣	:	قول الامام أبي القاسم المقري في ذلك .
٤٦٣	:	قول الامام محمد بن أبي نعيس المالكي في ذلك .
٤٦٣	:	قول القاضي عبد الوهاب امام المالكية في العراق في ذلك .

الصحيفة		الموضـوع
٤٦٤ ـ ٤٦٦	:	قول الامام الشافعي وكبار أئمة الشافعية في ذلك •
٤٦٦	:	قول الامام بن جرير الطبري ، والامام أحمد بن حنبل وجماعة من أصحابه في ذلك •
٤٦٦ ـ ٤٦٨	:	الاشارة لأقوال أئمة التفسير ، واللغة ، والزهاد ، وأهل الكلام ، والاشعري ، في ذلك •
٤٦٨ ، ٤٦٩	:	قول الرازي ، وقول أبي العباس المظفري في ذلك •
٤٦٩	:	الاستدلال بالمعقول في ذلك •
٤٦٩ ـ ٤٧٨	:	أقوال الشعراء الاسلاميين والجاهليين في ذلك •
٤٧٨ ، ٤٧٩	:	رجوع النبهاني الى الكلام على كتب شيخ الاسلام ، ومعارضته للقصيدتين اللتين قيلت في السبكي بقصيدة ذكر المؤلف مقدمتها •
٤٧٩ ـ ٤٩٩	:	رد ماتكلم به النبهاني في ذلك •
٤٨٠	:	ذكر بعض الكلام عن الامام الاشعري •
٤٨١ ، ٤٨٢	:	شرح حال ابن عربي صاحب الفصوص ، والكلام على الولاية ، وبيان ما كان عليه أرسطو وابن سبعين ونحوهما •
٤٨٣ ـ ٤٨٥	:	نبذة من كلام ابن تيمية في بيان مذهب أولئك ، وما يقوله ابن سيناء وأتباعه من أهل وحدة الوجود ، الرد عليهم •
٤٨٥ ـ ٤٨٨	:	قصيدة لابن المقري في أحوال من قال بوحدة الوجود •
٤٨٨ ـ ٤٩٢	:	الرد على النبهاني في تصديه للقصيدتين اللتين جرى الرد فيهما على السبكي بسبب تحامله على شيخ الاسلام ،وبيان أن النبهاني ليس كفوا لمعارضة هاتين القصيدتين •
٤٩٢	:	ذم النبهاني لكتاب (العرش) لشيخ الاسلام •
٤٩٣	:	الرد على النبهاني فيما قاله وبيان أن نقله عن كتاب (العرش) غير صحيح •
٤٩٣ ـ ٤٩٩	:	جملة من كلام بن تيمية وأحمد الواسطي في الاستواء والعرش •

انتهى

(تصويب الخطأ)

١ ــ وقع السطر الخامس من التعليق رقم (١) الموجود في صحيفة (٣٥) والذي أوله : لايقدر ــ وقع بين السطر السادس والسابع اللذين هما التعليق رقم (٢) فليعدل •

٢ ــ جدول تصحيح الاخطاء الاخرى : ــ

صحيفة	سطر	خطــأ	صــواب
٩٦	١٣	تذكرن	تذكرون
١٠٢	٢٧	ــــــــ	(١) المطففين : ١٥
٣٤٣	١٣	وكذا لي في ديني	وكذا خيرا لي في ديني
٣٩٧	٢١	الحاء هؤلاء	الحاد هؤلاء
٣٩٨	٦	ه قال	وقال
٣٩٨	١٣	ثم أنزل سكينته	ثم أنزل الله سكينته
٣٩٨	١٥	اذ يقول	اذ تقول
٣٩٩	٨	ان الشياطين	وان الشياطين
٤٠٢	١٠	مالفة أمر الله	مخالفة أمر الله
٤١١	٤ ، ٥	المستعان ماتصفون	المستعان على ماتصفون
٤١٦	٩	أن نعزه	أن نعزره
٤٥١	١٠	دكاء	دكا
٤٥٦	٢٢	أن الخلق	وأن الخلق
٤٩٥	٧	أخلى كاذ يقعد	أخلى مكانا يقعد
٤٩٧	٨	ولا يكفيه	ولا يكيفه

